هنري كيسنجر

الدبلوماسيّة

من الحرب الباردة حتّى يومنا هذا

ترجمة : مالك فاضل البديري



هنري كيسنجر
الدبلوماسية

من الحرب الباردة حتّى يومنا هذا

ترجمة : مالك فاضل البديري



الطبعة الأولى
١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ١٩٩٥ م
◆ الغلاف : زهير أبو شايب .

مقدمة الترجمة

نقل الجزء الأول من كتاب الدبلوماسية بين طياته تأريخاً لسفر الدبلوماسية من القرن السابع عشر وحتى بداية الحرب الباردة . لقد أرخت الحرب الباردة مسك الختام للحروب العالمية التي عصفت بأرجاء البسيطة وتقابلت فيها الجيوش الجرارة لتخوض رحى معارك ضروس في كل بقعة تقريباً . وينبغي لنا الافصاح ها هنا ، وبعد أن أتممنا بعون من الله تعالى ترجمة هذا الكتاب في جزئيه ، ان القاريء ربما يلاقي بعض المعضلات ولما يطلع على فحوى هذا الكتاب القيم . ومرد هذه الصعوبات الى باعثين : - أولهما ان كيسنجر له في السياسة باعاً طويلاً لا يخفي على القاصي والداني وقد عرض في الكتاب أفكاره المحضة العميقة ذات التحليل الثاقب دون الغوص في تفاصيل الأمور لافتراضه ان القاريء على اطلاع بخفايا الأحداث ومستغور دقائق التاريخ . وثانيهما اننا قد آثرنا ترجمة الكتاب الى أحسن صورة ما وسعنا اخراجها فقد تبطن الكتاب في لغته كثيراً من المصطلحات التي لم نجد لها مقابلاً في القواميس والموسوعات العربية التي راجعناها . وسعينا عند الترجمة أن نحقق أمرين : - أن نحافظ على روح النص الأصلي قدر الامكان وأن نعطي نكهة للترجمة واضحة جلية ، وفي الوقت عينه ، تتوشح سيماء من اللغة تسمو الى مستوى النص الأصلي أو تدنوه قليلاً . وسيرى القاريء

اننا قد استخدمنا بعض المصطلحات التي ربما هي الوهلة الأولى الـتي يطلع فيها على هكذا مسميات مثل **الأمركـة** و **الفتنمـة** و **تشيوع** ٠

ان لغة الضاد لتقدر الكاتب والمترجم على ترضيض كم الصعوبات التي تلاقيه ، خاصة في نصوص متخمة بالجمل والعبارات كهذه ، لما للغتنا الجميلة من يسر في الاشتقاق والتوليد والبلاغة ...... الخ ٠

وأسأل الله أن أكون قد وفقت في عملي هذا ٠

والله ولي التوفيق ٠

المترجم

مالك فاضل البديري

الفصل الأول

بداية الحرب الباردة

رأى فرانكلين ديلانو روزفلت ، كما أنس النبي موسى من قبل ، أرض الميعاد ، من دون أن تطأها أقدامه ٠ فعندما حضرته المنية – كانت قوات الحلفاء قد تعمقت في الأرض الألمانية واستعر اوار معركة (اوكيناوا) التي شكلت منطلقاً لغزو الحلفاء المرسوم لجزر اليابان الرئيسية ٠

لم تكن وفاة روزفلت في ١٢ نيسان عام ١٩٤٥ بالمفاجأة ٠ اذ أدرك طبيبه الخاص الذي أقلقه كثيراً تذبذبات ضغط الدم الحادة لمريضه أن الرئيس لن ينجو المنية ما لم يجتنب أي يتوتر ٠ أما وقد أخذنا بالاعتبار الضغط الناشيء عن مسؤوليات الرئاسة ، أمسى تقييم الطبيب حكماً بالموت لا محالة ٠ لقد ضلل هتلر وغوبلز نفسيهما وهما مطوقان داخل برلين المحاصرة ، في سورة جنون ، لما اعتقدا ان التاريخ سيعيد سفره الأول ويشهدا عرضاً للذي وصفه التاريخ الألماني معجزة (براندبرغ) في (حرب السنوات السبعة) يوم أنقذ فردريك الكبير بفعل الموت المفاجيء للقيصر الروسي وقد بلغت قواته مشارف برلين فارتقى سدة القيصرية الروسية قيصر صديق للقائد الألماني ٠ غير أن التاريخ ما عاد سيرته الأولى في عام ١٩٤٥ ، فالجرائم النازية قد أرست في أقل تقدير غاية مشتركة لا تتزعزع للحلفاء تمثلت بقطع أوصال السوط النازي ٠

وافضى انهيار المانيا النازية ونشأة الحاجة الى جسر فجوة القوة الناجمة الى شق صف الشراكة الذي تأسس أبان فترة الحرب ٠ فقد كانت غايات الحلفاء جد متباينة تراوحت بين مسعى تشرتشل الرامي الى منع الاتحاد السوفيتي من الهيمنة على وسط أوروبا مروراً بالرغبة الستالينية بالحصول على مناطق لقاء الانتصارات العسكرية السوفيتية وتقييمات الشعب الروسي البطولية في الحرب وصولاً الى غاية الرئيس الجديد (هاري ترومان) بالسير في طريق وصية روزفلت في الابقاء على الحلف متماسك الصفوف ، والذي تداعت مع نهاية فترة الرئاسية الأولى كل بقايا الانسجام التي شهدتها فترة الحرب ٠

ولا يلتقي الرئيسان ترومان – وسلفه السابق روزفلت في العديد العديد من نقاط الخلفية ٠ لقد كان روزفلت عضواً في جماعة مواطن العالم الشمالي شرقي الولايات المتحدة ، فيما انحدر ترومان من طبقة وسطى في ريف الغرب الأوسط الأميركي ٠ وتعلم روزفلت في أفضل المدارس وأرقى الجامعات ، بينما لم يتجاوز ترومان المرحلة الثانوية في دراسته برغم ما قاله فيه (دين أشسون) كأنه أحد خريجي جامعة (يل) بما تدل عليه الكلمة من صدق معنى ٠ وصير روزفلت من جل حياته تمهيداً لبلوغ المنصب الأعلى ، أما ترومان فكان ولادة الماكنة السياسية لمدينة كنساس ٠

لم يعل السطح بشيء ولما اختير ترومان نائباً للرئيس روزفلت ان هذا الرجل سيجعل من نفسه استشناء في الرئاسة ٠ فهو لما يزل فجاً في السياسة الخارجية ومسلحاً على يد روزفلت بأبهم خرائط الطرق يوم ورث عن سلفه

مهمة اطفاء جمرة الحرب وبناء نظام دولي جديد سيما وأن صرح مؤتمري (طهران) و (يالطا) قد بدأ يتهاوى ٠

ثم تجلى الأمر وأشرف ترومان على مستهل الحرب الباردة وعلى تطور سياسة الاحتواء التي كسبت آخر المطاف تلك الحرب ٠ فهو قد خطى بالولايات المتحدة صوب جادة أول تحالف عسكري في وقت السلام ، وبفضل ما أسدى ، تم استبدال مفهوم روزفلت في الشرطة الأربعة بمجموعة من التحالفات عاشت في قلب السياسة الخارجية الأميركية لاربعين سنة لاحقة ٠ لقد شايع هذا الرجل البسيط القادم من الغرب الأوسط الولاء الأميركي في عالمية مبادئه فشجع لذلك من وهنت من الأعداء قواه على الانضمام الى مجتمع الأمم الديمقراطية ٠ وهو قد رعى (خطة مارشال) و (برنامج النقاط الأربعة) حتى حين وهبت بموجبها أميركا المصادر والتقنية من أجل اعادة بناء ونمو مجتمعات تبعد عنها مسافات نائية ٠

التقيت ترومان مرة واحدة فقط في مطلع عام ١٩٦١ وكنت آنئذ استاذاً في جامعة (هارفرد) ٠ لقد وهبتني محاضرة القيتها في مدينة (كنساس) فرصة زيارة الرئيس السابق في (مكتبة ترومان الرئاسية) وآنذاك رأيت أن دولاب السنين لم يسحق غبطة الرئيس السابق ٠ ثم دعاني بعد أن اصطحبني في جولة داخل المبنى الى مكتبه الذي كان نموذجاً يتطابق تماماً ومكتبه البيضوي في البيت الأبيض أبان فترة رئاسته ٠ وهنا سألني بعد أن خبر أنني أعمل مستشاراً بدوام جزئي في البيت الأبيض عن الذي استقيته من تجارب ذلك الوقت ، فأجبته مستنتجاً من حكمة حفلات (كوكتيل) في واشنطن أن البيروقراطية تتجلى في

عملها أمامي كأنها الفرع الرابع في الحكومة التي ما برحت تحد كثيراً من حرية الرئيس في العمل . لم تعل ترومان من قولي هذا دهشة وما وجد فيه علماً . بعدها أجاب وقد عيل صبراً من الاستماع لما أسماه (كلام أستاذ) بقوله ((اذا علم الرئيس ماذا يريد ، فلن تقف البيروقراطية بينه وبين مراده هذا . فعليه أن يعرف متى يتوقف عن الأخذ بنصائح الآخرين)) .

لقد تقهقرت على عجل الى قاعدتي الأكاديمية وسألت ترومان عن أي القرارات السياسية الخارجية التي يرغب أكثر من سواها استذكارها . لم يلجأ الى هنيهة تفكير وأجاب ، لقد هزمنا أعداءها شر هزيمة ثم مددنا لهم يد العون لينهضوا ويغدوا ديمقراطيين ويلحقوا بركب مجتمع الأمم . وما خالني أمة غير أميركا بقادرة على فعل كهذا . ثم اصطحبني في نزهة على الأقدام في شوارع الأندبندنس حتى بلغنا منزلاً بسيطاً يقطنه هو وزوجته (بيس) .

انني استذكر هنا هذا الحديث المقتضب لأنه احتل تماماً لب الطبيعة الأميركية في عهد ترومان : ادراكه جلال الرئاسة ومسؤوليات الرئيس ، ازدهاؤه بالعظمة الأميركية وفوق هذا وذاك ايمانه ان نداء أميركا الأخير أن تعمل أميركا منبعاً للحرية وتقدم الشعوب جمعاء .

بدأ ترومان رئاسته متفيئاً بظلال روزفلت الذي كاد أن يبلغ ولما مات مكانة اسطورية ، وهو الرئيس الذي سلب من ترومان نفسه الاعجاب به . بيد أن ترومان ، وكشأن غيره من الرؤساء ، قد رسم المكتب الرئاسي الذي ورثه من سلفه وفقاً لتجاربه ومعاييره الخاصة به .

ملك ترومان ، ولما غدا رئيساً ، التزاماً عاطفياً تجاه وحدة الحلفاء لايكاد يجسد مقارنة على التزام سلفه روزفلت . لقد جسدت هذه الوحدة لابن الغرب الأوسط المنعزل تفصيلاً عملياً لا ضرورة أخلاقية أو عاطفية . فهو لم يعش تجربة الاستمجاد بشراكة فترة الحرب مع الاتحاد السوفيتي الذي تطلع اليه دوماً بعين باصرة متوجسة . وهو قد منح ساعة هاجم هتلر الاتحاد السوفيتي كلا الدكتاتورين درجة متكافئة في التزاماتهما الأخلاقية وأوصى ، وكان حينها عضواً في مجلس الشيوخ ، أن تشجع أميركا كليهما على الاقتتال حتى الاستنزاف ((اذا أدركنا أن الرابح المانيا ، علينا أن نقدم العون لروسيا ، وان قاربت النصر روسيا ، علينا بمساعدة المانيا . وبذا سيقتتلا حتى يخسرا أكثر رجالاتهما برغم أنني لا أريد هتلر منتصراً تحت أية ظروف)) .

وبالرغم من تدهور صحة روزفلت ، لم توجه الدعوة الى ترومان للمشاركة في جميع قرارات السياسة الخارجية الرئيسة في عهد نيابته للرئيس ثلاثة أشهر ، ولم يعلم بمشروع بناء القنبلة الذرية . لقد أرث ترومان بنية عالمية تجذرت خطوطها الفاصلة في مواقع الجيوش الميممة من الشرق والغرب ، ولم يقرر المصير السياسي للأقطار التي حررتها الجيوش الحليفة . وكان على كثير من القوى العظمى تكييف نفسها للأدوار المتغيرة . لقد لطمت فرنسا على وجهها ، واعيت بريطانيا العظمى ، برغم انتصارها ، بينما صارت المانيا أربع مناطق محتله . وتقدم ستالين بالجبهة السوفيتية ستمائة ميل غربي الألب ، في حين صدعت فجوة قبالة جيوشه بفعل ضعف أوروبا الغربية والتخطيط لانسحاب القطعات الأميركية .

كانت أولى غرائز ترومان مواكبة ستالين ، خاصة بعد أن ساور القلق هيئة الأركان الأميركية للمساهمة السوفيتية في الحرب ضد اليابان • وبالرغم من نفوره من تصرف مولوتوف اللدود في لقاءه الأول مع وزير الخارجية السوفيتي ، نيسان عام ١٩٤٥ ، أوعز الصعوبات الى تباين في التجربة التاريخية • وقال ترومان :

[علينا أن نقسوا مع الروس ، فهم جاهلون أني يتصرفون لكأنهم ثيران داخلة على متحف القوارير • ولم يعمروا الا خمسة وعشرين عاماً بينما سلخنا نحن أكثر من مائة عام ويكبرنا البريطانيون بقرون • اننا لماضون كي نعلمهم أني يتصرفون] •

لقد كان بياناً أميركياً متميزاً منطلقاً ترومان فيه من افتراض التناسق الكامن فأوعز الشقاقات مع الروس الى " سوء التصرف " و " القصور السياسي " وليس الى المصالح الجيوسياسية المتضاربة • وبعبارة أخرى ، آمن بامكانية حمل ستالين الى تصرف " طبيعي " • وفي الواقع ، كانت قصة الحرب الباردة توتراً بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة باعث من حقيقة عامة ، وليس لبعض الالتباس •

وأرث ترومان أعلى مستشاري روزفلت وشرع برئاسته بقصد مواصلة مفهوم سلفه عن الشرطة الأربعة • وفي خطابه الذي أدلاه في السادس عشر من نيسان عام ١٩٤٥ ، وبعد أربعة أيام على توليه المنصب ، رسم تناقضاً عارياً بين المجتمع الدولي والاضطرابات ولم يأنس خياراً للأمن الجماعي العالمي ما خلا الاغتشاش • **لقد أملى نفسه بايمان روزفلت عن الالتزام الخاص لحلفاء الحرب**

ليحافظ على وحدتهم بحيث تقيم نظام عالمي مسالم جديد وتستبته ، لان اهم ما فيه تحصين المبدأ القائل أن الصراعات الدولية ينبغي أن تحسم بالقوة :

[ليس ثمة أمر يهم مستقبل سلام العالم أكثر من التعاون المتواصل للأمم التي ينبغي لها أن تجسد القوة الضرورية لدحر مؤامرة قوى المحور في السيطرة على العالم • وعندما تتمتع هذه الدول بمسؤولية خاصة في تعضيد السلام ، تتجذر هذه المسؤولية بأساس الالتزامات الذي يحسس جميع الدول ، كبيرها وصغيرها ، على عدم اللجوء الى القوة في العلاقات الدولية ، ما خلا الدفاع عن القانون] •

كان جلياً أن صاغة خطابات ترومان لم يشعروا أنهم مدينون اليه بالكثير أو أنهم اعتبروا نصوصهم القياسية ليست بقابلة على التطور • فهم قد اعادوا حرفياً النقطة عينها في الخامس والعشرين من نيسان في خطاب ترومان أمام مؤتمر الأمم المتحدة القادم في سان فرانسسكو •

وبالرغم من البلاغة المتفخمة ، أطرت الحقائق الجيوسياسية الشاقة ظروفاً من أرض الواقع • وعاد ستالين سيرته في توجيه طرق السياسة الخارجية ، وطالب بنقد لانتصاراته وبعملة يتقاضاها جدية – السيطرة الاقليمية • لقد فقه المفاوضات ورام مناقشة بعضها ولكن بعد ان تبطنت مقابلاً – مثل مدارات النفوذ أو المقايضة بحدود النفوذ الشيوعي في أوروبا الشرقية لقاء أرباح محددة مثل المعونة الاقتصادية الشاملة • واعتمل وراء علم أفسق قائد له أن يقود أمة عظيمة فكرة هيكلة السياسة الخارجية باطار النية الحسنة الجماعية أو القانون الوطني • ويرى ستالين أن

المواجهة المتقابلة بين قادة العالم قد تدون تلازماً للقوى أو حساباً للمصلحة الخارجية ، دون أن يحوراها ، لذلك لم يستجب لأية مناشدات التمسها روزفلت وتشرتشل للعودة سيرة رفاقيتهم الحربية .

ومن الممكن أن ينبري ستالين ، بباعث من الامتياز الهائل الذي أدخره روزفلت ، معدلاً فهمه بدرجة ما ، مهما كان متمادياً . ولن يقدم ستالين ، نهاية المطاف ، بأية امتيازات الا للواقع " الموضوعي " ، فالدبلوماسية تعني له مجرد مضمار أوحد لصراع شاق محتوم يعرف علاقات القوة . وتجسدت معضلته في التعامل مع قادة أميركا في مأزقه الكبير لاستيعاب أهمية الأخلاق والشرعية في تصورهم عن السياسة الخارجية . ولم يفقه ، بعمق ، الباعث لارتغام أميركا على أحداث مثل هذا الصخب حول الهياكل الداخلية لدول أوروبا الشرقية ، التي لا تتمتع بأهمية استراتيجية مزعومة . وصير منهل أميركا المبدأي ، غير المات بصلة لأية مصالح ملموسة كالتي فهمت تقليدياً ، ستالين منقباً عن دوافع باطنة . وكتب أفريل هاريمان ، عندما كان سفيراً لدى موسكو :

[انني أخشى ألاّ يفقه ستالين ، دائماً وأبداً ، منفعتنا في تحرر بولندا كمسألة مبدأ . انه واقعي .... ومن الشاق عليه أن يثمن ايماننا بالمبادىء المطلقة . ومن العسير عليه أن يعي سبب حملنا على التدخل في السياسة السوفيتية في بلد كبولندا ، التي يعدها ذات أهمية عظمى لروسيا ، الا اذا كان لنا دافع مستتر] .

وربما توجب على ستالين ، سيد **السياسة الواقعية** ، أن يتوقع مقاومة أميركية للتوازن الجيوسياسي الجديد الذي أقامه الجيش الأحمر في قلب قارة أوروبا . لم يتطبع رجل الأعصاب الفولاذ على منح امتيازات مشفعة ، أو بالأحرى فكر أن من الأجود كثيراً تعزيز الأوراق التفاوضية التي تلقفها وقتئذ ولما يجلس قلقاً في حظوة غنائمه منتظراً ادلاء الحلفاء لبدلوا بخطوتهم التالية . وكل نتائجه الجديدة تحلل بصيغ الخطر والمكافأة . وعندما أخفق الحلفاء في توجيه ضغط ، استكن ستالين في موقعه .

أفصح ستالين الى الولايات المتحدة عين الأسلوب المتهكم الذي احتذاه مع هتلر عام ١٩٤٠ . وفي عام ١٩٤٥ ، واجه الاتحاد السوفيتي ، الذي عصفت به عشرات الملايين من القتلى وتدمير ثلث من أراضيه ، أميركا المعافاة ذات الاحتكار الذري . وفي عام ١٩٤٠ ، واجه الاتحاد السوفيتي ايضاً المانيا في منحى سيطرته على بقية أوروبا . وفي كلتا الحالتين ، عزز ستالين موقع روسيا وسعى الى خداع خصومه الأشداء ليصدقوا أنه سيزحف غرباً لا أن يتقهقر ، ومن دون تقديم أية منازلات . وفي كلتا الحالتين أيضاً ، أخطأ في حساباته لرد فعل خصومه . ففي عام ١٩٤٠ ، عززت زيارة مولوتوف الى برلين قرار هتلر في الغزو ، وفي عام ١٩٤٥ ، سعى وزير الخارجية عينه لتحويل نية أميركا الطيبة الى مواجهة الحرب الباردة .

خبر تشرتشل حسابات ستالين الدبلوماسية وسعى لمقابلتها بالقيام بنقلتين من خاصته . لقد حث الى قمة مبكرة لحلفاء الحرب الثلاثة ليضع النقاط على الحروف قبيل أن يعزز السوفيت مدار نفوذهم . واستطاب له أن يكتنز الحلفاء في

أياديهم ما استطاعوا لقفه من أوراق تفاوضية ٠ وأنس هذه الفرصة في حقيقة التقاء الجيوش الحليفة والسوفيتية الى الغرب بعيداً مما كان متوقعاً ، لذلك تمتعت القوات الحليفة بهيمنة على ما يقرب ثلث المنطقة المرسومة لقاطع الاحتلال السوفيتي في المانيا ، بما فيها أكثر الحصة الدولية ٠ واقترح تشرتشل تسخير هذه المنطقة كقوة في المفاوضات المقبلة ٠ وفي الرابع من آيار عام ١٩٤٥ ، أبرق بالمعلومات الى وزير الخارجية ايدن ، قبيل لقاء الأخير بترومان في واشنطن :

[.... على الحلفاء ألا يتقهقروا عن مواقعهم الحالية الى الخط الاحتلالي ريثما نرضى بقضية بولندا وبالسمة المرحلية للغزو الروسي لألمانيا وبالظروف التي تقام في المناطق المروسة * أو في الأقطار التي تحتلها روسيا في وادي الدانوب ، خاصة النمسا وتشيكوسلفاكيا والبلقان] ٠

ومع ذلك ، لم تكن الادارة الأميركية الحديثة متقبلة السياسة الواقعية البريطانية بأكثر مما كانت عليه ادارة ترومان ، فتكررت مناحي الدبلوماسية عهد الحرب ٠ كان القادة الأميركان جد مغتبطين بحيث وافقوا على قمة تعقد في بوتسدام ، بالقرب من برلين ، في الشطر الثاني من تموز ٠ لقد كان ترومان ، حتى ذلك الوقت ، راغباً عن قبول اقتراح تشرتشل في استطباب ستالين ولما يعانقوا الغنائم والعقوبات ليصيبوا النتيجة المتوخاة ٠ وفي الحقيقة ، برهنت ادارة ترومان تيقة تماماً ، كأسلافها ، لابلاغ تشرتشل أن أيام توازن القوى قد ولت الى غير رجعة ٠

* المروسة (Russianised) : أي ذات الطابع الروسي ٠

وعند تصرم حزيران ، وفي أقل من شهر قبيل القمة المرسومة ، انسحبت القوات الأميركية الى خط التأريف المتفق عليه ، دون أن تخلف لبريطانيا العظمى أي خيار ما حاشا حذو حذوهم ٠ وعلاوة لذلك ، أنست ادارة ترومان نفسها تتوسط بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي ، بمثلى ما أفرط روزفلت عظيماً في حسبانه للقدرات البريطانية ٠ وعندما قرر ترومان الا يخلف في ستالين انطباعاً عن تألبهم عليه ، أبى دعوة على التوقف في بريطانيا العظمى للاحتفال بالانتصار البريطاني الأميركي ، ولما يمم شطر بوتسدام ٠

وما كان ترومان بالمنكف عن الالتقاء بستالين من دون حضور تشرتشل ، واقترح لقاءً منفصلاً مع الزعيم السوفيتي ٠ ولكن اتضح أن تشرتشل كان حساساً لعزله عن الحوار السوفيتي - الأميركي في وقت أعطى مستشارو ترومان الانطباع بعمل واشنطن ولندن بالترادف ٠ ويقول ترومان في مذكراته أن تشرتشل قد أبلغ واشنطن ، بغضب ، انه لن يحضر أية قمة تواصل مؤتمر ترومان وستالين ٠ وآثر ترومان بعث رسل الى لندن وموسكو ليضع قيد التنفيذ دوره الذي اصطفاه لنفسه كوسيط لاقامة حوار مباشر بين قادة الحلفاء ٠

وأرسل هاري هوبكن ، ثقة روزفلت القديم ، الى موسكو ، في حين اختير المبعوث الذي سيرى تشرتشل بسبب قدرته في تطمين ستالين كرة أخرى ، على نحو أهم من مهاراته المتجلية في استغوار ما يختمر في خلد رئيس الوزراء البريطاني ٠ وكان هذا الشخص جوزف إي٠ ديفيز ، السفير في موسكو عهد ما قبل الحرب الذي ألف كتابه **بعثة الى موسكو** ، وحقق أكثر المبيعات ٠

وبرهنت زيارة ديفيز الى لندن ، في أواخر أيار عام ١٩٤٥ ، انها فوق الواقع تقريباً ، كما كانت بعثته الى موسكو عهد الحرب . كان ديفيز مهتماً بمواصلة الولايات المتحدة شراكتها مع الاتحاد السوفيتي ، بنحو أعظم من تنمية العلاقات مع بريطانيا . وأسر تشرتشل المبعوث الأميركي بمخاوفه أن يبتلع ستالين أوروبا المركزية ، وأكد على ضرورة توحد الجبهة البريطانية - الأميركية لمقاومته . وساءل ديفيز تشرتشل ، بازدراء ، انه ربما " هو وشعبه البريطاني قد أخطاءا في العزوف عن مساعدة هتلر ، فهو يعبر عن عقيدة نادى هتلر وغوبلز اليها في ما تصرم من أربعة أعوام في مسعى لاشتاق اللحمة الحليفة ، " فرق تسد " . كانت الدبلوماسية الشرقية - الغربية ، في رأي ديفيز ، مشلولة الحركة ما لم تتجذر على فرضية النية الطيبة لستالين .

انقلب ديفيز الى ترومان ليطلعه باليأس عينه لأنه يرى في تشرتشل ، مع ماله من عبقرية ، علماً انكليزياً ، " أولاً وآخراً وفي كل الأوقات " ، يهتم باستتباب مبدأ بريطانيا في أوروبا بنحو أعظم من اقامة السلام . وأكد الأدميرال (ليهي) ، أن رأي ديفيز قد أثبت صحته ، بنحو عظيم ، بالمصادقة على التقرير الذي عرضه ديفيز : " كان هذا تماشياً مع تقدير كادرنا لموقف تشرتشل عهد الحرب " .

وليس ثمة أمر أفضل يجلي رد فعل أميركا الى **السياسة الواقعية** . كان ديفيز وليهي مستائين لما الزم رئيس الوزراء البريطاني نفسه بالاهتمام ، أولاً ، بالمصالح الوطنية البريطانية - الأمر الذي يعامله أكثر ساسة سائر الدول كأهم الأمور الطبيعية في الكون . وبالرغم من حث تشرتشل على مواصلة توازن في

القوى جسد ثلاثة قرون من تاريخ بريطانيا ، أنسته أميركا أمراً زائغاً متناقضاً مع قضية السلام المجاهدة لاقامة توازن كهذا - كما لو أن الوسائل والغايات متنافرة وليس مكملة .

والفى هوبكنز ، الذي زار موسكو عدة مرات كمبعوث لفتره الحرب ، أن محيط رحلته متواءم للغاية . ومن الممكن للقاءاته مع ستالين ، من دون تخطيط ، أن تعمق تأزل قضية أوروبا الشرقية وتعجل بزوغ الحرب الباردة . وما كان له أن يفضي الى ستالين المدى الذي يخاطر به منحاه ، أعظم الخطر ، في الشعب الأميركي الوقظ . لقد انطلق هوبكنز ، في عمله الدبلوماسي ، من فرضية حل كل الخلافات في هالة من الفهم والنية الطيبة - الضروب التي لا يفقه ستالين منها الا نزراً يسيراً .

التقى ستالين بهوبكنز في ست مناسبات منفصلة بين أواخر أيار وبداية حزيران . وتذمر ستالين ، كما دأب في أسلوبه على اقعاد محادثه في مبوأ المدافع ، من انهاء قانون الاعارة والتأجير والفتور العام للعلاقة بين الاتحاد السوفيتي وأميركا . وشاء ألا يتوقف الاتحاد السوفيتي عن الضغط - وهي حيلة دبلوماسية جلية توظب عندما يبحث المفاوض عن وسائل تحفظ ماء وجهه وتقرر ضرب الامتيازات المبغية دون الافصاح عن قبوله بها . واستغفل ستالين معرفته بالاهتمام الأميركي على اقامة انتخابات حرة في بولندا ، فالاتحاد السوفيتي لم يثر أمراً مماثلاً لما يتعلق بايطاليا وبلجيكا ، حيث لم تعقد انتخابات بعد . فعلام تشيح القوى الغربية باهتمامها صوب بولندا ودول حوض الدانوب ، الكائنة على مقربة قريبة من الطرف السوفيتي ؟

لقد تماكر هوبكنز وستالين ، بصورة غير قطعية و لم يسع هوبكنز قط الى ابلاغ ستالين عن قلق الأميركيين المهلك حول قضية تقرير مصير أوروبا الشرقية . وفي الحق ، استعرض هوبكنز توق أكثر مفاوضي أميركا على طرح حتى أشد مواقعهم قوة بمنحى يتحاشى اي ايماءة تعند . وبباعث من توقع التسوية ، بحثوا عن سبل تهب محاورهم منفذاً طيباً . وكان الجانب المناقض لهذه الطريقة أن ينقلب الأميركان متعندين في الأوقات العصيبة وعندما يتبدد ايمانهم بحسن نية المقابل .

واستفحل وهن أسلوب هوبكنز التفاوضي بالتحفظ غير الاعتيادي في حسن نيته تجاه ستالين والاتحاد السوفيتي الذين ودعهم منذ تحالف الحرب . وفي حزيران عام ١٩٤٥ ، قرر ستالين من تلقاءه مصير طرف بولندا الشرقي والغربي حيث نصب بوحشية الدمى السوفيتية على تقاليد الحكومة وخارقاً على جانب شديد من الوقاحة التزامه في يالطا على عقد انتخابات حرة . ومع ذلك الفى هاري هوبكنز امكانية في وصف الخلافات بين الاتحاد السوفيتي وأميركا الى ستالين " كقاطرة أحداث كلها على غير أهمية وتتعلق جميعها بقضية بولندا " . لقد ارتكن هوبكنز الى أسلوب روزفلت منذ أيام طهران ويالطا وساءل ستالين على تحوير مطالبه بأوروبا الشرقية كي يخفف من الضغوط الداخلية على ادارة ترومان .

وحذق ستالين في ترحيبه للاقتراحات التي تواكب الحكومة البولندية الحديثة مع مباديء أميركا . ودعا هوبكنز ليوصي بأربعة أشخاص أو خمسة من الجانب الديمقراطي الذين قد يندرجون في حكومة وارشو ، التي ادعى أن الاتحاد

السوفيتي قد خلقها بباعث من " مقتضى " الضرورة العسكرية . ويقيناً أن المساهمة الرمزية في حكومة شيوعية ليس بجوهر القضية ، انها الانتخابات الحرة ، وبعد أن أظهر الشيوعيون مهارة فائقة في الاجهاز على الحكومات الائتلافية . وعلى أية حال ، لم يطبع هوبكنز في ستالين معرفة عن أحكام أميركا على الموقف البولندي ، عندما اعترف له جهله بأية أسماء محددة يقترحها للحكومة الجديدة .

كان ستالين يحتذي سبيلاً روسيا تقليديا باصراره على عتق حرية ليده صوب جيرانه . ومنذ العهد الذي طلعت فيه روسيا على الساحة الدولية قبل قرنين ، حاول قادتها حسم النزاعات مع جيرانهم ثنائياً من دون اللجوء الى المؤتمرات الدولية . و لم يفقه الاكسندر الأول في عشرينيات القرن التاسع عشر ولا نيقولا الأول في ماتلا من ثلاثين عاماً ولا حتى الاكسندر الثاني في عام ١٨٧٨ ، الباعث على تدخل بريطانيا العظمى بين روسيا وتركيا . وفي هذه المواقف وما أردفها ، تصرف القادة الروس بيد حرة مع جيرانهم ، حيث يشهرون القوة لو خاب مسعاهم . وعندما يلجأون الى القوة ، لن يتقهقروا الا بعد أن يتهددوا بالحرب .

وأسمى ما في زيارات رسل ترومان الى لندن وموسكو الاثبات أنه يختط لنفسه مستقيماً بين رأي روزفلت على استتباب السلام ، حيث لم يشاطر أميركا أمرها أحد ، وامتعاضه المتزايد من سلوك السوفيت في أوروبا الشرقية ، الأمر الذي لم يخبره سياسياً . ما كان ترومان بالمتأهب لمواجهة الوقائع الجيوسياسية التي أسبغها النصر أو أن يطرح رؤيا روزفلت عن نظام عالمي يحكمه الشرطة الأربعة .

وما كان على الولايات المتحدة أن تسلم بأمر توازن القوى كضرورة للنظام العالمي وليس زيوغاً للدبلوماسية الأوروبية ٠

ثمّ قضى حلم روزفلت عن الشرطة الأربعة ، نحبه في مؤتمر بوتسدام ، الذي استمر من السابع عشر من تموز عام ١٩٤٥ وحتى الثاني من آب ٠ والتقى القادة الثلاثة في سيسلنهوف ، وهو منزل ريفي انكليزي الطراز شيد في موقف واسع ، وكان في سابق عهد ، ملاذاً لآخر ولي عهد الماني ٠ واختيرت بوتسدام موقعاً للمؤتمر لأنها واقعة في منطقة الاحتلال السوفيتي ويشقها طريق السكك الحديد (كره ستالين السفر جواً) ، وبمقدور القطعات السوفيتية حمايتها ٠

وعندما وطأ الوفد الأميركي اقدامه بوتسدام ، لم يني ملتزماً برؤية وقت الحرب عن نظام عالمي جديد ٠ وأكد بحث لقسم الدولة الموجزة ، التي هي وسيلة اختبار الوفد الأميركي ، أن اقامة مدارات اهتمام لأعظم خطر الى سلام العالم ٠ وحث البحث ، كي يثير بدعة ولسون ، أن مدارات الاهتمام تمثل " سياسة القوة المحضة والمجردة ذات المساويء المصاحبة أجمعها .... ومصبانا الأول أن نمحو الأسباب التي تشعر الأمم بضرورة هذه المدارات لبناء أمنها وليس أن نعين في تشييد صرح قوتها على جارتها " ٠ ولم يشرح قسم الدولة ما الذي يشجع ستالين على التسوية ، في غياب سياسة القوة ، أو ما هو سبب الحرب لو لم يتعلق الأمر بالمصالح المتضاربة ٠ ومع ذلك ، لاح جوزف ديفيز ، مستشار الرئيس في الشؤون السوفيتية ، مسروراً بوصيته – التي سمت الى مجاراة ستالين ٠ وذات مرة ، وبعد حوار عنيف ، نقل ديفيز اشارة الى ترومان تقول : " اعتقد أن مشاعر ستالين قد جرحت ، فكن معه لطيفاً ، أرجوك " ٠

لم يسبغ ترومان ، طبيعياً ، أمر الرفق بالناس ، خاصة مع الشيوعيين ، فقد وهبها محاولة بطولية ٠ وثمن أولاً أسلوب ستالين المقتضب ، بنحو أعظم من بلاغة تشرتشل ٠ وكتب الى والدته : " لا يكف تشرتشل عن الحديث طيلة الوقت ، بينما لا يفعل ستالين غير الهمهمة ، لأنك تعرف ما يقصده " ٠ وفي العشاء الخاص الذي أقيم في الحادي والعشرين من تموز ، تحدث ترومان الى ديفيز ، بانفراد وبعد أن أزاح الواقفين :

[أردت أن أقنعه أننا صادقون ومكترثون للسلام والعالم الخير ، من دون أن تدفعنا مرامي عدائية صوبه ٠ أننا لا نبتغي لأنفسنا أمراً الاّ أمن أمتنا وسلاماً مع الجيران والأصدقاء ، وهذا بهدفنا المشترك الذي نفعله ٠ وأنا أعتقد أنه يؤمن بي ، فأنا أعني كل كلمة قلتها] ٠

وما يؤسف له الا يتمتع ستالين باطار من المرجعية لمحاوريه الذين يدعون استيائهم في القضايا المطروحة أمامهم ٠

سعى قادة مؤتمر بوتسدام الى تفادي المعضلات التنظيمية التي ألمت بمؤتمر فرساي فالزم ترومان وتشرتشل وستالين أنفسهم بمباديء عامة من دون الغوص في التفاصيل أو العمل بتقييدات الزمن – وسينجز وزراء خارجيتهم تفاصيل اتفاقيات السلام مع قوى المحور المهزومة وحلفاءهم ٠

وبالرغم من كل التقييدات ، استوعب جدول عمل المؤتمر قضايا التعويضات ومستقبل المانيا ومبوأ حلفاء المانيا كايطاليا وبلغاريا وهنغاريا ورومانيا وفنلندا ٠ وأوسع ستالين هذه القائمة بتقديم جدول من المطالب كان مولوتوف

قد عرضها على هتلر في عام ١٩٤٠ وكررها على مسامع ايدن بعد عام . وشملت هذه المطالب تحسين مناقل الروسية عبر (الستريتس) وقاعدة سوفيتية عسكرية في (البوسبورس) ، وشطراً من المستعمرات الايطالية . وما كان لمثل هذه القائمة العريضة أن يلبيها قادة الحكومة المرهقون ، في بحر أسبوعين .

وانقلب مؤتمر بوتسدام ، على حين غرة ، الى حوار بين الصم . فقد أصر ستالين على تعزيز نفوذه في حين طالب ترومان ، وتشرتشل بدرجة واهنة ، بتزكية مبادئهم . وسعى ستالين الى مقايضة الاعتراف الغربي بالحكومات التي يفرضها السوفيت على بلغاريا ورومانيا لقاء الاعتراف السوفيتي بايطاليا ولما يصر أن يتخذ ظهرانيا مطلب الديمقراطيات بانتخابات حرة في شرقي أوروبا .

وفي نهاية المطاف ، رفع كل جانب حق النقض ما وسعه أن يدلو دلوه حيث أبت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى مطلب ستالين بتعويضات قدرها ٢٠ مليار دولار من المانيا (يمضي نصفها الى الاتحاد السوفيتي) أو تسخير موجوداتهم لهذا المصبى . وفي الجانب الآخر ، لم يكف ستالين عن تعزيز حال الأحزاب الشيوعية في كل حدب وصوب من أوروبا الشرقية .

وظب ستالين أيضاً غموض اتفاقية يالطا ، لما يتعلق بنهري الأودر والنيس ليوسع حدود بولندا أبعد غرباً . لقد تقرر في مؤتمر يالطا أن يكون النهران خط تأريف بين بولندا والمانيا بالرغم من اغفال الجميع عن وجود نهرين يحملان اسم " النيس " . فهم تشرتشل أن النهر الشرقي كان الطرف ، بيد أن ستالين قد أفصح في مؤتمر بوتسدام عن تعيينه المنطقة الكائنة بين نيس الشرقي والغربي لتكون

من حصة بولندا . لقد حسب ستالين بجلاء أن الخصومة بين بولندا والمانيا ستغدو مراساً لو اغتنمت بولندا المقاطعات الألمانية ، بما فيها برسلاو ، المدينة الألمانية القديمة وأخرجت خمسة ملايين الماني منها . لقد طاوع القادة الأميركان والبريطان واقع ستالين ذا الشرط الواهي بحيث أنهم سيحافظون على موقعهم النهائي للحدود ريثما يقرر مؤتمر السلام ذلك الأمر . ومع ذلك ، فاقمت هذه التحفظات توكأ بولندا على الاتحاد السوفيتي وما مثلت غير موقف واه طالما انها تعلقت بمقاطعات أخرج السكان الألمان منها .

لم يقدم تشرتشل الى بوتسدام من موقع داخلي قوي ، الى درجة متميزة ، ففي الحقيقة تقطع ايقاع المؤتمر قدرياً ، في الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٤٥ ، عندما اضطر الوفد البريطاني الى طلب الاذن ليقفلوا الى بلدهم ، في انتظار نتائج أول انتخابات عامة بعد عام ١٩٣٥ . وما آب تشرتشل قط الى بوتسدام ، بعد أن تلقى هزيمة ساحقة فتبوأ (كلمنت آتلي) محل رئاسته الوزراء ، بينما وصل (ايرنست بيفن) ، بصفته وزيراً للخارجية .

لم يحقق بوتسدام من الأمور الا نزراً حيث قوبلت مطالب ستالين بالرفض : كمناداته لانشاء قاعدة في بوسبورس ودعوته لوصاية سوفيتية على بعض أقاليم ايطاليا في أفريقيا ورغبته بسيطرة القوى الأربع على الروهر والاعتراف الغربي بالحكومات التي نصبتها موسكو في رومانيا وبلغاريا . واعترض ترومان أيضاً على بعض مقترحاته - خاصة ما يتعلق بتدويل الدانوب . وفي الحق تدبر الزعماء الثلاثة استخلاص بعض الاتفاقيات فشرع بميكانيكية الشرطة الأربعة لدراسة القضايا الألمانية . وأفلح ترومان من حمل ستالين على الموافقة بمفهومه عن

التعويضات : أن تستقطع كل دولة تعويضات من المقاطعة التي تحتلها في المانيا ، بينما علقت قضية الطرف الغربي لبولندا - حيث أذعنت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى لخط ستالين بين الاودر - النيس ، واحتفظا بحقيهما على التعديل في وقت لاحق . وفي نهاية المطاف ، وعد ستالين بالمساعدة في المجهود الحربي ضد اليابان . لقد ترك الكثير مبهماً مبتوراً ويممت القضايا الملذعة صوب وزراء الخارجية لدراسة أعمق ، كما يحدث دائماً عندما يختلف الزعماء .

وربما كان أعظم حادث في المؤتمر لايمت بصلة الى جدول أعماله . ففي احدى المرات ، مضى ترومان بستالين جانباً ليعلمه بوجود القنبلة الذرية . ويقينا أن ستالين قد عرف مسبقاً بامرها من الجواسيس السوفيت ، أو بالأحرى ، أنه استبق ترومان الى معرفتها . وما من شك أنه حسب اتصال ترومان محاولة مفضوحة بقصد الارهاب فآثر أن يظهر منعة عن التكنولوجيا الجديدة واستهجانها دون أن يجلي فضولاً خاصاً . وكتب ترومان في مذكراته :

" لم يبد الرئيس السوفيتي اهتماماً خاصاً . وكل ما تفوه به انه مسرور لسماعه هذا الأمر رجاءة أن يسخرها ، بأحسن صورة ، ضد اليابان " . وسيظل هذا أسلوب السوفيت لما يتعلق بالأسلحة النووية ريثما يطور خاصته .

وفي ما تلا من عهد ، اضطر تشرتشل الى الافصاح انه كان يضع النقاط على الحروف في بوتسدام ويقحم تسوية لو اعيد انتخابه . ولم يحدد قط ما أختمر في ذهنه . وفي الحقيقة لن يحمل ستالين على حسم الأمر الاّ اذا بقر بضغط شديد وفي آخر لحظة . لقد شخص توق تشرتشل للحل الشامل معضلة أميركا : لن

يصدر عن أي سياسي أميركي ذلك النمط من التهديد أو الضغط الذي تصوره تشرتشل واقتضته نفسية ستالين . ولم يخبر الأميركان بعد حقيقة أن ستالين كلما وهب وقتاً أعظم لخلق دول أوروبية شرقية أحادية الحزب ، لغدا السبيل أعسر لحمله على تحوير منحاه . وعندما وضعت الحرب أوزارها ، ساورت الشعب الأميركي خشية الحرب والمواجهة وطاب لهم قبل كل أمر أن يؤوب ابنائهم الى الوطن . وما كانوا بالمتأهبين الى تهديد أعظم بالمواجهة أو بالحرب النووية ، بسبب التعدد السياسي في أوروبا الشرقية أو حدودها .

وماثلت المواجهة مع ستالين حفلة شاي . واطلعت على مديات تأهب ستالين في ضغط دبلوماسيته من الحوار الذي عقدته مع (أندريه غروميكو) ، بعد أن ترك منصبه في عام ١٩٨٩ . لقد سألته عن علة مخاطرة الاتحاد السوفيتي بحصار برلين بعيد أن عصفت به الحرب ، وقبالة الاحتكار النووي . وأجابني غروميكو أن كثر من مستشاري ستالين قد عبروا له عن قلقهم ، بينما أجهض هو هذه المسألة بأساس من ثلاثة افتراضات : فقد قال أولاً أن الولايات المتحدة لن تشهر السلاح النووي قط في قضية برلين . وثانياً اذا ما حاولت الولايات المتحدة بعث قوة الى برلين عبر (الاتوباهن) ، سيقاومها الجيش الأحمر . وثالثاً ، اذا ما حاولت الولايات المتحدة التعرض على كامل الجبهة ، فستالين وحده صاحب القرار الأخير . وربما كانت تلك النقطة التي استقر لها .

كان المخاض العملي لبوتسدام استهلالاً لعملية انشطار أوروبا الى مداري نفوذ ، السيناريو عينه الذي عزم قادة أميركا وقت الحرب على تحاشيه . وليس من المدهش الاّ يجني لقاء وزراء الخارجية ثماره ، تماماً كما فعلت قمة

الرؤساء . لقد كانوا على جانب أقل من المرونة - والسلطة وارتكان بقاء مولوتوف السياسي والبدني الى أصرم واذعان له الى تعليمات ستالين .

وعقد لقاء وزراء الخارجية الأول في لندن ، في أيلول وفي بداية تشرين الأول عام ١٩٤٥ . كان مبغاه الأول رسم خط لمعاهدة السلام في فنلندا وهنغاريا وبلغاريا ، التي قاتلت جميعها مع جانب المانيا . لم يتغير الموقف الأميركي والسوفيتي منذ بوتسدام ، حيث طالب (جيمس بايرنس) ، وزير الخارجية ، بانتخابات حرة بينما أولاه مولوتوف اذناً صماء . وآمل بايرنس ان استعراض قوة القنبلة الذرية المروعة ضد اليابان ليعزز من موقع أميركا التفاوضي . وعلى النقيض من ذلك ، تصرف مولوتوف بمجاهرة حادة ، كسابق عهده ، واتضح أن القنبلة الذرية ما كانت لتحمل السوفيت متعاونين ، حتى في نهاية المؤتمر وأسر بايرنس الى سلفه ، ادوارد ستيتينس :

[..... اننا نواجه روسيا جديدة ، متباينة في كامل سيرتها عما تعاملنا معها قبل حول . لقد كان لنا معهم علاقة مرضية طالما كانوا في حاجة الينا عهد الحرب . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، اتخذوا موقفاً عدائياً ووقفوا في قضايا اقليمية سياسية غير ذات منعة] .

لقد قضى حلم الشرطة الأربعة نحبه في أبشع صورة وزاوج ترومان ، في السابع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٤٥ وأثناء حديثه في احتفال يوم البحرية ، بين المغازي التاريخية لسياسة أميركا الخارجية ومناشدته للتعاون بين الاتحاد السوفيتي وأميركا . وقال أن الولايات المتحدة ما نشدت قط اقليماً أو

قواعد ، " أو أيما أمر يخص قوة أخرى " . وتجذرت سياسة اميركا الخارجية ، معكس قيم الأمة الأخلاقية ، بأساس عظيم من المبادىء الجوهرية للحق والعدالة ، واباءة " المساومة مع الشر " . ووعد ترومان " اننا لن نلين في مساعينا لمعانقة الحكم الذهبي بالشؤون الدولية للعالم " . ومهد توكيد ترومان على المضمار الأخلاقي للسياسة الخارجية الحجة لمناشدة تسوية أخرى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . وقال : " ليس ثمة تباينات عقيمة أو على غير رجعة بين حلفاء الحرب . وما هناك من متنفس لمضاربات المصالح بين القوى المنتصرة ، غائرة بجذورها بحيث لا نستطيع حسمها " .

وآل مؤتمر وزراء الخارجية الثاني ، في كانون الأول عام ١٩٤٥ ، الى " امتياز " سوفيتي لا يذم ولا يمدح . لقد استقبل ستالين بايرنس في الثالث والعشرين من كانون الأول واقترح ارسال الديمقراطيات الثلاث بعثة الى رومانيا وبلغاريا لنصح الحكومات على توسيع وزاراتهم كي تستوعب بعض العناصر الديمقراطية السياسية . ومن اليقين ان يجلي استهكام هذا العرض ثقة ستالين في قبضة الشيوعيين على توابعهم وليس ترحيبه بالحقائق الديمقراطية . وكان هذا برأي جورج كينان أيضاً الذي سخر من امتيازات ستالين لأنها " رقائق واهنة من اجراء ديمقراطي يسعى لستر عري الدكتاتورية الستالينية " .

ترجم بايرنس مبادرة ستالين كاعلام ان اتفاقية يالطا لتقتضي ايماءة ديمقراطية ما فاقترح التقدم باعتراف بلغاريا ورومانيا قبيل الانتهاء الى معاهدات سلام مع هذه الدول . واستشاط ترومان غضباً لموافقة بايرنس على التسوية دون استشارته . وبالرغم من مواكبة الرئيس لبايرنس ، بعد بعض الترددات ، كان

ذلك فاتحة للجفاء بين الرئيس ووزير الخارجية أفضت الى استقالة بايرنس في أقل من عام .

وفي عام ١٩٤٦ ، كان ثمة لقاءان لوزيري الخارجية عقدا في باريس ونيويورك . واكمل هذان المؤتمران المعاهدات الثانوية ولكنهما شهدا ازدياداً في التوترات عندما صير ستالين أوروبا الشرقية ذيلاً سياسياً واقتصادياً للاتحاد السوفيتي .

وساهمت الهوة الحضارية بين القادة الأميركان والسوفيت في ولادة الحرب الباردة . لقد تصرف المفاوضون الأميركان كما لو أن الاثارة المجردة لحقوقهم الأخلاقية والقانونية ستصيب وحدها نتائجهم المتوخاة . بيد أن ستالين قد عاز لعلل أكثر اقناعاً ليغير سلوكه . وعندما تحدث ترومان عن الحكم الذهبي ، أصغى الجمهور الأميركي كلية وآمن ، أعمق الايمان ، بعالم تحكمه المعايير القانونية . كانت كلمات ترومان ، بالنسبة لستالين ، واهية مسهبة ، فالنظام الدولي الجديد المختمر في ذهنه . يستوعب السلاف كلهم وتعززه العقيدة الشيوعية . ويستذكر (ميلوفان ديلاس) ، الشيوعي اليوغسلافي المنشق ، شطراً من حوار له مع ستالين الذي قال : " لو احتفظ السلاف بوحدتهم وتآصرهم ، فما من احد بقادر على تحريك بنانه مستقبلاً ."

ومن العجيب أن يعجل ستالين الانسياق صوب الحرب الباردة بعد أن وعى مبلغ الهزل الذي أحاق بامته . وعاث الدمار بالأقاليم السوفيتية غرب موسكو ، بسبب ممارسة الجيوش المتقهقرة - السوفيتية أولاً ، ثم الألمانية - حيث

اضطرت الى نسف جميع المداخن لتجريد مطارديهم من جميع المآوي التي تقيهم مناخ السوفيت القاسي . لقد كان عدد القتلى السوفيت (بما فيهم المدنيين) أكثر من عشرين مليوناً في حين قدر عدد الخسائر الناجمة من تصفيات ستالين ومخيمات ستالين ومخيمات السجون ، وتحويل الملكيات الاجباري والمجاعات المبيتة ، بنحو عشرين مليوناً أخرى ، زد على ذلك نحواً من خمسة عشر مليوناً ممن بقى على قيد الحياة في سجن الفولاغ . وقتئذ ، الفى هذا البلد المتمزق نفسه ، على حين غرة ، قبالة الفتح الأميركي الجديد على القنبلة الذرية . أو يعني الأمر أن اللحظة التي يخافها ستالين قد أزفت ، وسيقدر العالم الرأسمالي على فرض ارادته ؟ أو لم تعد عليهم كل المعانات والانهاكات غير الانسانية ، بحساب حتى المعايير السوفيتية الدكتاتورية ، غير منفعة واحدة للجانب الرأسمالي ؟

آثر ستالين أن يزعم فعل الاتحاد السوفيتي من جانب القوة ، لا الضعف ، ورأى في امتيازات التطوع اعترافاً بالعري ، الذي من شأنه انجاب مطالب وضغوط جديدة . لذلك أبقى على الجيش السوفيتي في قلب أوروبا ، فارضاً الدمى السوفيتية على تقاليد الحكومة .

وعانق ستالين مبالغته بقوة الاتحاد السوفيتي والمشارسة ذات الجهد المنتظم لوهن قدرة أميركا ، خاصة سلاحها الأقوى ، القنبلة الذرية . واصطفى ستالين لنفسه النغمة التي تظهر اكتراثه عندما اعلمه ترومان بوجود القنبلة . وأحكمت الدعاية الشيوعية هذا الموضوع وقالت ان مقدم الأسلحة النووية لن يغير قوانين الاستراتيجية العسكرية وان القصف الاستراتيجي بها على غير فاعلية . وفي عام ١٩٤٦ ، طرح ستالين المبدأ الرسمي : " تهدف القنبلة الذرية الى ارهاب الشعوب

الواهنة اعصابها ، بيد أنها لن تقرر نتيجة الحرب " ٠ وفي الأحكام الداخلية ، توسع بيان ستالين بسرعة الى فصل بين عوامل الاستراتيجية " العابرة " و " الدائمة " وصنفت فيها القنبلة الذرية كظاهرة عابرة ٠

وسيتأثر أي قائد طبيعي الفرج لمجتمع أخذت الحرب منه كل مأخذ ٠ بيد أن الأمين العام السوفيتي قد أبى منح شعبه أي طعم للراحة ٠ وفي الحقيقة وضع نصب حساباته – وهو محق على الأرجح – انه لو وهب لمجتمعه الراحة ، سيبدأ بطرح الأسئلة الموجهة لأركان الحكم شيوعه عينه ٠ وفي الخطاب الذي أدلاه الى قادة الجيش الأحمر المنتصرين ، في أيار عام ١٩٤٥ وعقب الهدنة مباشرة ، تفوه ستالين بالبلاغة العاطفية وقت الحرب لآخر وهلة ٠ ووصف هزائم عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ في معرض حديثه للفريق الذي وصفه " برفاقي وأبناء جلدتي " :

[ربما تناجي أمة أخرى الحكومة : " لم تبرري توقعاتنا ، فاغربي عنا ، لأننا سنقيم حكومة جديدة توقع سلاماً مع المانيا وتهبنا الطمأنينة " ٠ بيد أن الشعب الروسي لن يدرب هذا الطريق لايمانه بسياسة حكومته ، فشكراً يا شعب روسيا العظيم على ثقتك بنا] ٠

كان هذا اعتراف ستالين الأخير – باللاعصمة وآخر عهد يوجه فيه خطاباً لشعبه ، بصفته رئيس الحكومة ، (وما يثير العجب أن يهب ستالين في خطابه مصداقيته الى الشعب السوفيتي وحده ، دونما أية قومية أخرى في الامبراطورية السوفيتية) ٠ وفي أشهر قلائل ، انقلب ستالين الى منصبه أميناً عاماً للحزب الشيوعي كأساس لسلطته ، وعاد أسلوبه في مخاطبة الشعب السوفيتي سيرة المناداة

الشيوعية المعروفة " بالرفاق " ، ولما يهب الحزب الشيوعي ثقة هائلة بانتصار السوفيت ٠ وفي خطاب كبير آخر ، في التاسع من شباط عام ١٩٤٦ ، أقام ستالين القوانين المقبلة لفترة ما بعد الحرب :

[يعني النصر الآن ، قبل كل أمر ، ظفر نظامنا الاجتماعي السوفيتي واجتيازه بنجاح الاختبار في بوتقة الحرب وبرهنته الشرعية الكاملة .... لقد أثبت النظام السوفيتي الاجتماعي قدرته الحياتية الأعظم وثباته ، بخلاف الأنظمة الاجتماعية غير السوفيتية ... فهو طراز من تنظيم اجتماعي أجود من سائر الأنظمة] ٠

وأثار ستالين ايماناً شيوعياً صادقاً في وصفه لأسباب الحرب وقال أن أسباب الحرب هي ، أفعال النظام الرأسمالي ، وليس هتلر عينه :

[يعلن ماركسيوننا أن النظام الرأسمالي للاقتصاد العالمي ليخفي عناصر الأزمة والحرب وان تطور الرأسمالية العالمية لا يحتذي منحى مطرداً الى الأمام ، لأنه لا يتقدم الا بالأزمات والكوراث ٠ وسيفضي التطور المتظارس للدول الرأسمالية الى اضطرابات حادة في علاقاتها وستسعى الدول التي تعد نفسها مزودة ، على غير انصاف ، بالمواد الخام وأسواق التصدير ، الى تغيير الموقف لصالحها وبالقوة المسلحة] ٠

ولو أصاب ستالين في تحليله ، سيكون ثمة تباين جوهري بين هتلر وحلفاء الاتحاد السوفيتي في الحرب ضد هتلر ٠ لقد تحتمت الحرب عاجلاً أو آجلاً وكان الاتحاد السوفيتي يمارس هدنة ، لا سلاماً حقيقاً ٠ وناظرت المهمة التي نذر ستالين

الاتحاد السوفيتي اليها مع ما كانت قبل الحرب : الصيرورة الى مبلغة من القوة لنقل الصراع المحتوم الى حرب أهلية رأسمالية تنأى عن هجوم على مناطق الشيوعية الشمالية . لقد تبددت كل آفاق السلام يوماً بعد آخر ، وعظمت الصناعة الثقيلة واستمرت عمليات التجريد الزراعي في حين سحقت المعارضة .

ووجه خطاب ستالين بصيغة معروفة لما بعد الحرب - صيغة امتحانية يطرح فيها خاصة أسئلته ويجيب عنها . وكانت اللازمة التي تطبع عليها جمهوره المبغوت : ان الاعداء المجهولين يسعون للاطاحة بالمخطط الاشتراكي . وما خال الجميع مثل هذه البيانات تهديدات جوفاء ، بباعث من تجردها في الخبرة الشخصية لكل مواطن سوفيتي . وفي الوقت عينه ، كان ستالين يختط له مرامي جديدة طامحة : زيادة انتاج حديد السكب عشرة أضعاف وزيادة انتاج الفولاذ خمس عشرة مرة ، وتصدير النفط أربع مرات ، وربما يقتضي الأمر انسلاخ ثلاثة من خطط السنوات الخمس الجديدة لضمان تحقيقها . " ولكن هذا الأمر يمكن تحقيقه وعلينا الاقدام على ذلك " . وتعني الخطط الثلاث ذوات السنوات الخمس الا يحيا حياة طبيعية قط الناجون من عمليات التصفية أو الحرب العالمية الثانية .

وعندما وجه ستالين خطابه هذا ، كان وزراء خارجية الحلفاء المنتصرين يلتقون بانتظام ، وتقهقرت القطعات الأميركية بعجلة من أوروبا ، ولم يلق تشرتشل خطاب الستار الحديدي . كان ستالين يقيم ، فينة أخرى ، سياسة المواجهة مع الغرب لمعرفته أن الحزب الشيوعي الذي أطره لن يجثو باقدامه في محيط دولي أو داخلي مكرس للتعايش السلمي .

ومن الممكن حقا ، كما أرجحه أنا ، أن ستالين لم يؤسس ما عرف بمدار الدول التابعة ليشدد قبضته من أجل حسم دبلوماسي محتوم . وفي الحق ، لم تلق هيمنة ستالين المطلقة على أوروبا الشرقية تحدياً الا ببلاغة الديمقراطيات ، من دون أسلوب يجتنح الأخطار التي حملها ستالين محمل الجدية . لذلك قدر الاتحاد السوفيتي على قلب الاحتلال العسكري الى شبكة من الأنظمة التابعة .

واعتمد رد فعل الغرب ، بعد أن احتكر القدرة النووية ، على عامل التمازق . وسعى العلماء الى تحاشي الحرب النووية التي شرعت بانجاب اقتراح مدهش يقول أن الأسلحة النووية لن تحور درس الحرب العالمية الثانية المزعوم - القصف الاستراتيجي لن يغدو حاسماً . وفي الوقت عينه ، حظيت بقبول واسع دعاية الكرملن عن الحالة المستتبة للبيئة الاستراتيجية . وكانت العلة وراء مصادفة العقيدة العسكرية الأميركية لهذا الرأي صلتها بديناميتها التنظيمية . وعندما تقهقر قادة الأركان الأميركيون الحربيون من نعت أي سلاح بالحاسم ، فقد صيروا تنظيماتهم تبدو على غير استغناء عظيم . لذلك طوروا مفهوماً عامل الأسلحة النووية كأمر أكثر فاعلية وشديدة الانفجار في الاستراتيجية الشاملة المرتكنة لتجارب الحرب العالمية الثانية . وأفضى هذا الأمر ، في فترة تعاظم القوه النسبية للديمقراطيات ، الى فكرة خاطئة بتفوق الاتحاد السوفيتي عسكرياً لا سيما أن أسلحته التقليدية لأوسع مما للديمقراطيات .

وفي الثلاثينيات شرع تشرتشل ، قائد المعارضة وقتها ، بتذكير الديمقراطيات بضروراتهم . وفي الخطاب الذي أدلاه في ميزوري في الخامس من آذار عام ١٩٤٦ ، قرع جرس انذار التوسع السوفيتي ، واصفاً " الستار الحديدي "

الذي ضرب " من ستين في البطليك حتى تريستي في الأدرياتيك " . لقد نصب السوفيت حكومات مؤيدة للشيوعية في كل بلد احتله الجيش الأحمر وفي القاطع السوفيتي من المانيا – الأمر الذي لم يكظم تشرتشل في نفسه غيظ الاشارة الى أن أعظم هذا القاطع قد سلمته الولايات المتحدة الى الاتحاد السوفيتي . وفي النهاية ، يهب هذا الأمر " الألمان المدحورين القوة على وضع أنفسهم في مزايدة بين السوفيت والديمقراطيات الغربية " .

وخلص تشرتشل الى أن الحاجة لتحالف الولايات المتحدة مع الكومنولث البريطاني لتلبية التهديد المباشر . ومع ذلك ، كان الحل الطويل الأجل في وحدة أوروبا " بحيث لن تندحر أمة أبد الدهر " . وهكذا غدا تشرتشل ، المعارض الأول القائد لالمانيا في الثلاثينيات ، المتبني الأول القائد للصلح مع المانيا في الأربعينيات . وكان فحوى تشرتشل المركزي أن الوقت ليس من صالح الديمقراطيات ، وثمة حاجة لحوح للسعي الى تسوية شاملة :

[لا أعتقد أن الاتحاد السوفيتي يستملح الحرب . فكل ما يروق لهم ثمار الحرب والتوسع اللامحدود لقوتهم وعقائدهم . ولكن علينا أن نضع نصب أعيننا الحيلولة الدائمة دون الحرب واقامة ظروف الحرية والديمقراطية بأسرع ما نقدر في كل الأقطار . ان معضلاتنا وأخطارنا لن تغرب باغماض أعيننا ، أو من خلال الترقب السلبي لما سيحصل ، ولا حتى بسياسة التهدئة . وكل ما نحتاجه تسوية ، لأن هذا الأمر كلما أرجأ أكثر استفحلت الأخطار وعظم هولها] .

ويكمن السبب وراء عدم حظوة القادة باحترام شعبهم لدورهم المتخطي مديات تجارب مجايليهم وخيالاتهم . ولن يحققوا الاعتراف الاّ اذا انقلبت رؤيتهم تجربة – أي عندما يسبق السيف العذل فيغدو من غير الممكن الاستفادة تبصرهم . لقد كان قدر تشرتشل أن يرفضه ابناء جلدته ، ما خلا الفقيرة التي كان بقاءهم فيها على كف عفريت . لقد حث شعبه على التدجج بالسلاح ، في الثلاثينيات ولما كان معاصروه يسعون للتفاوض ، وفي الأربعينيات والخمسينيات ، تبنى حسماً دبلوماسياً في حين اهتم مجايليه ببناء قوتهم .

وفي نهاية المطاف ، أشرق المدار التابع السوفيتي تدريجياً . وذكر جورج كينان في " رسالته المطولة " المشهورة ، ولما يحلل خطاب خطاب ستالين الداعي لثلاثة خطط جديدة ذوات السنوات الخمس ، الكيفية التي يأنس بها ستالين الضغط الخارجي الخطير :

" ان التدخل بوجه الاتحاد السوفيتي سيسبب ، بالاضافة للكارثة التي تحيق بمضطلعيه ، ارجاءً مستجداً لتقدم المجتمع السوفيتي ، لذا ينبغي اجهاضه سلفاً وبكل الكلف " . وما كان بمقدور ستالين ان يزامن في اعادة هيكلة الاتحاد السوفيتي والمخاطرة بحرب مع الولايات المتحدة . وكان غزو الاتحاد السوفيتي لأوروبا الغربية ، المزعوم أغلبه ، لضرب من الوهم : فالاحتمالية الأرجح توكد نكوص ستالين على عقبيه قبيل أن تحصل مواجهة حقيقية مع الولايات المتحدة .

وقدر ستالين على فرض حدود أوروبا الشرقية من دون الافراط في الخطره لان قطعاته قد احتلت لتوها هذه المناطق . ولكن حين مس الأمر فرض أنظمة

سوفيتية النمط في هذه الأقاليم ، غدا حـذراً جداً . وفي السنتين الأوليتين اللتين اردفتا الحرب ، لم تقم الاّ يوغسلافيا والبانيا دكتاتوريات لهما . أما في بقية الدول الخمس التي أصبحت بعدئذ توابع لروسيا – وهي بلغاريا وتشيكوسلفاكيا وهنغاريا وبولندا ورومانيا – فتمتعت بحكومات ائتلافية كان الشيوعيون فيها أقوى الأحزاب . وأقامت دولتان فيهما – تشيكوسلفاكيا و هنغاريا – انتخابات في السنة التي أردفت الحرب فنجم عنها أنظمة أصيلة متعددة الأحزاب . ويقيناً أن تحرشاً منتظماً قد طرأ من جهة الأحزاب غير الشيوعية ، خاصة في بولندا ، دون أن يلقى ردعاً سوفيتياً صريحاً .

وفي أواخر أيلول عام ١٩٤٧ ، شخص أندريه زدانوف ، الذي أعتبر ذات مرة أقرب ممالىء ستالين ، ضربين من الدول في ما نعتها " الجبهة المناوئة للفاشية " في شرقي أوروبا . وفي الخطاب الذي أعلن تشكيل الكومنفورم ، الوحدة الرسمية للأحزاب الشيوعية العالمية التي أرثت الكومنتيرن ، ذكر زدانوف أن يوغسلافيا وبولندا وتشيكوسلفاكيا والبانيا هي " الديمقراطيات الجديدة " . (الأمر الغريب الى درجة ما في تشيكوسلفاكيا ، حيث لم يحصل الانقلاب الشيوعي بعد) . وأجلست بلغاريا ورومانيا وهنغاريا وفنلندا من قائمة أخرى ، من دون أن يخلع عليها مسمى واضح .

هل يعني الأمر أن مبوأ ستالين المرتد من أجل أوروبا الشرقية يماثل في حقيقته ما لبولندا – ديمقراطية ووطنية وتحترم المصالح السوفيتية ؟ وريثما تنفتح الملفات السوفيتية ، علينا أن نظل مخمنين للأمر . ولكننا نعرف أن ستالين ، بالرغم من اخباره هوبكنز في عام ١٩٤٥ عن رغبته بحكومة صديقة في بولندا وان لم تكن

شيوعية بالضرورة ، اقدم ولاته على الاجراء المناقض تماماً . وبعد سنتين عقد ستالين حواراً مع وزير الخارجية الأميركي ، في وقت أردف الزام أميركا نفسها ببرنامج المعونة اليوناني – التركي وكانت تعد العدة لتصير المقاطعات الغربية الثلاث المحتلة من المانيا لتكون الجمهورية الفيدرالية . وفي نيسان عام ١٩٤٧ وغداة ثمانية عشر شهراً من النهايات الموصدة واللقاءات المطردة جفاءً لوزراء خارجية القوى الأربع وحلقات التهديدات السوفيتية والحركات المنفردة ، دعا ستالين الوزير مارشال الى لقاء مطول ، أوضح فيه أنه يحلق أهمية عظمى للاتفاقية الشاملة مع الولايات المتحدة . وجادل ستالين ان النهايات المغلقة والمواجهات " ما هي الاّ غيث مناوشات القوات الاستطلاعية " . لقد كانت تسوية ستالين المزعومة ممكنة " في كل القضايا الرئيسة " وأكد " أن من الضرورة التحلي بالصبر وعدم التشاؤم " .

واذا ما جدّ ستالين في ما يعنيه ، فقد أخطأ المحسب الحذق في تكهناته . فلو تبدد ثقة الأميركيين في نيته الطيبة ، لن يسهل عليه درب خط الرجعة . لقد شدد ستالين في الضغط على موقعه كثيراً لأنه لم يفهم قط حقيقة نفسية الديمقراطيات ، خاصة أميركا . وكان مآل ذلك خطة مارشال وحلف الأطلسي والبناء العسكري الغربي ، التي ما كانت في تخطيط لعبته . ويقيناً أن تشرتشل كان مصيباً عندما قال أن ما بعد الحرب مباشرة لأجود فترة لتحقيق تسوية سياسية .

لقد أصاب تشرتشل في ظنه أن أفضل وقت للتسوية السياسية سيكون بعيد الحرب مباشرة . وستعتمد جدوى ومنطقية تنازلات ستالين آنذاك ولدرجة كبيرة على التوقيت والجدية اللتين سترافقان المقترح وعواقب رفضه والمقدمه اليه .

وحيثما كان التوقيت أقرب الى موعد انتهاء الحرب كلما كانت أكبر فرص النجاح بأقل كلفة . واذ تصاعد التراجع الأميركي من أوروبا ، تصاعد أيضاً الموقف التفاوضي الغربي – في أقل تقدير حتى مقدم خطة مارشال وحلف الناتو .

بدأ الدكتاتور السوفيتي ، في وقت محادثاته مع مارشال عام ١٩٤٧ ، يغالي الظن في ذاته ، فخسر الثقة الأميركية بنفس مقدار ما تضحى في مصداقيتها سابقاً هاهنا قد عكست الولايات المتحدة الوقائع الدولية . فمن الناحية النظرية ، ربما كان الأمر ممكناً دعم جبهة موحدة من الديمقراطيات في عين وقت خوض مفاوضات مع الاتحاد السوفيتي بشأن تسوية شاملة . بيد أن زعماء أميركا ومعهم قادة أوروبا الغربية كانت جد مدركين لحقيقة أن التلاحم الأوروبي من الهشاشة مالا طاقة له مقاومة غموض استراتيجية ذات مسارين . فقد شكل الشيوعيون ثاني أكبر أحزاب سياسية في فرنسا وايطاليا . وما زالت جمهورية المانيا الفيدرالية ، التي كانت آنذاك في طور التشكيل ، منشظية في أمر سعيها الى الوحدة القومية عبر الحيادية . أما في بريطانيا العظمى وكذلك الولايات المتحدة ، طفقت حركات السلام متحدية سياسة الاحتواء الناشئة .

لقد أشار وزير الخارجية مارشال ، في خطاب له في الثامن والعشرين من نيسان أن الغرب قد تجاوز في سياسته مسألة اللاعودة الى الاتحاد السوفيتي . ورفض تلميحة ستالين الى التسوية على أساس أننا لا نستطيع تجاهل عامل الزمن في هذا الشأن . فقد كان استعادة أوروبا لأنفاسها عملية جد بطيئة وأبطأ مما توقعنا . وبانت جلية عوامل التشظي في صفوفها . المريض يحتضر والطبيب يتروى في تفكيره . انني لعلى يقين أن الفعل لن يطيق صبراً التسوية من خلال

الاجهاد . ان علينا الشروع بالفعل أنىّ كانت طبيعته اذا ما وجدنا فيه حلاً للمشاكل الموجودة .

لقد اثرت أميركا وحدة أوروبا الغربية على مفاوضات الشرق – الغرب . فما كان أمامها غير هذا الخيار لأنها لم تجرؤ المخاطرة والسير وراء تلميحات ستالين لتكتشف أنه كان يستوظف المفاوضات ليحط من شأن النظام الدولي الجديد الذي لما تزل أميركا تسعى لبنائه . هكذا غدا الاحتواء نهج السياسة الغربية وظل هكذا لأربعين سنة قادمة .

الفصل الثاني

نجاح الاحتواء ومرارته

كانت أواخر عام ١٩٤٥ ايذاناً بحيرة صاغة السياسة الأميركية ، وآلت بوتسدام ومؤتمرات وزراء الخارجية التالية الى البوار ، ولاح ستالين فارضاً ارادته من دون أي اعتبار للجنوحات الأميركية صوب الديمقراطية ، وكان الدبلوماسيون الأميركيون في بولندا وبلغاريا ورومانيا يواجهون ، مراراً ، المنافذة السوفيتية ، وبدت موسكو ، في واقع المانيا وايطاليا المدحورتين ، متناسبة لفحوى كلمة " الشراكة " ، فما الذي يفعله صاغة السياسة الأميركان قبالة كل هذا ؟

عندما تنفس ربيع عام ١٩٤٦ ، شرع ترومان بفك الغاز هذه المسألة ولما يشن سياسة " تصرّم " بالمثابرة في مطالبته للاتحاد السوفيتي على اخلاء أذربيجان ، بيد أنه أقدم على هذا الأمر بعباءة ولسونية ، وأبى كروزفلت ، توازن القوى وازدرى تبرير الأفعال الأميركية بمفردات الأمن ، وسعى قدر الامكان لمعانقتها بمباديء عامة تنطبق على البشرية جمعاء وتتناغم مع ميثاق الأمم المتحدة الجديد ، واستشعر ترومان الصراع المتوالد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كتناحر بين الخير والشر ، وليس بذي صلة بمدارات النفوذ السياسية ،

ومع ذلك كانت مدارات النفوذ حقيقة مولودة ، مهما خلع عليها ساسة أميركا من مسمى ، وعليها أن تعتمل في محلها ريثما ينهار صرح الشيوعية بعد أربعة عقود ، وفي فيء قادة الولايات المتحدة ، تعززت المناطق الغربية المحتلة من

المانيا ، بينما سير الاتحاد السوفيتي أقطار اوروبا الشرقية توابع له ، ويممت قوى المحور السابقة – ايطاليا واليابان ، وجمهورية المانيا الفيدرالية بعد عام ١٩٤٩ ، شطر التحالف مع الولايات المتحدة ، وبالرغم من تشديد الاتحاد السوفيتي لقبضته على أوروبا الشرقية بواسطة حلف وارشو ، فقد تعاصم هذا الحلف قسراً ، وفي الوقت عينه ، سعى الكرملن ، ما أوتي قدرة ، لاعتراض عملية التعزيز الغربي بتشجيع حرب العصابات في اليونان وتشديد ازر مظاهرات الأحزاب الشيوعية الغربية ، خاصة في فرنسا وايطاليا ،

وعى القادة الأميركان أن عليهم مجابهة التوسع السوفيتي الأعظم ، لكنهم بحثوا ، بباعث من دأبهم الوطني ، عن مسوغ لهذه المقاومة بأي أساس ما حاشا التماس توازن القوى التقليدي ، وبفعلة قادة أميركا هذه ، لم يلذوا جانب الرياء فحين أدركوا شلل رؤيا روزفلت في الشرطه الأربعة عن الحركة ، استحبوا ترجمة هذا التطور كنكسة مؤقتة تعتور درب نظام عالمي متناغم في كنهه ، وهاهنا وقفت بازائهم تحد فلسفي ، أكانت المنافذة السوفيتية ردحاً عابراً بميسور واشنطن أن تنتظر غروبه ؟ هل تسبب الأميركان عن غير قصد ، كما اقترح هنري والس ، النائب السابق للرئيس وأتباعه ، في اشعار السوفيت بالارتياب جراء كتمان نواياهم الخاصة عن ستالين ؟ وهل أبى ستالين تعاون ما بعد الحرب مع الأمة الأقوى في العالم ؟ أم أنه رفض مصادقة أميركا ؟

وفي الوقت الذي انعكفت فيه أعلى حلقة من صاغة سياسة واشنطن على دراسة هذه القضايا ، تناهت اليهم وثيقة من جورج كينان ، الخبير في شؤون روسيا والدبلوماسي العالي المستوى ، نوعاً ما ، في السفارة الأميركية في موسكو ،

ومهدت اطار عمل فلسفي وفكري لترجمة سياسة ستالين الخارجية ٠ لقد كانت واحدة من تقارير السفارة النادرة ، التي بميسورها اعادة هيكلة آراء اشنطن على نافذة العالم ، وأصبحت تعرف بـ " البرقية المطولة " ٠ وجزم كينان ان تمسك الولايات المتحدة عن ملامة نفسها للمنافذة السوفيتية ، فمنهل السياسة الخارجية السوفيتية ينسحق غائراً في بدن النظام السوفيتي عينه ٠ وجوهراً ، جادل كينان أن السياسة السوفيتية الخارجية ملغمة من الحماس الفكري الشيوعي والتوسع القيصري البالي ٠

وجاء على لسان كينان أن العقيدة الشيوعية في فؤاد تفهم ستالين للعالم ، حيث عد ، من دون رجعة ، القوى الرأسمالية الغربية عدائية له ٠ وهكذا لم يتمخض الاحتكاك عن بعض الالتباس أو الاتصالات المخطوئة بين واشنطن وموسكو ، لأنه تجذر في فقه الاتحاد السوفيتي عن العالم الخارجي :

[في العقيدة " الشيوعية " هذه ، يعثرون على التبرير لخوفهم الغريزي من العالم الخارجي ، وللدكتاتورية التي لا يحكمون الا بها ، وللقساوات التي لا يجرؤون على العزوف عن اصابتها ، وللتضحيات التي يستشعرون بواجبها ٠ وباسم الماركسية ، نحروا قيمهم الدينية قرباناً لأساليبهم وحيلهم ٠ وما هم اليوم بقادرين عن الانصراف عنها ، فهي ورقة توشح احترامياتهم الفكرية والمعنوية ٠ ومن دونها سيجثون قبالة التأريخ ، كمجرد أواخر السلسلة العملاقة من حكام روسيا القساة الضالين الذي أرغموا أمتهم ، قسراً ، الى كل ذرى القوة العسكرية ليضمنوا أمناً خارجياً لأنظمتهم الداخلية المهزوزة ......] ٠

وجادل كينان ، في مذكراته ، ان القياصرة قد سعوا الى توسيع اقليمهم ٠ فهم حاولوا اخضاع بولندا ، وتصييرها أمة مستقلة ، وعدوا بلغاريا كأنها في بدن مدار نفوذ روسيا ٠ وبحثوا عن ميناء دافيء على البحر الأبيض المتوسط ، عاهداً اليه سيطرة مضايق البحر الأسود ٠

[ثمة نفح من القلق الروسي الغريزي والتقليدي يشمخ أعلى رؤية الكرملن العصابية على شؤون العالم ٠ ومنحدر هذا القلق الى مسعى شعب مسالم زراعي يعيش في سهل واسع مكشوف يجاور شعوباً بدوية صارمة] ٠

وجادل كينان أن هذه هي الغايات السوفيتية ، بحيث لن يعيدهم الى رشدهم كم الملاطفات الأميركية ٠ ويقول أن على أميركا ان تتحمل صراعاً عملاقاً ، فالمصابي والفلسفات الخاصة بالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لدودتان ٠

وبانت أولى تباشير المفهوم الجديد في مذكرة لقسم الدولة قدمت في الأول من نيسان عام ١٩٤٦ ٠ وسعت هذه المذكرة ، التي صاغها هـ٠فريمان ماثيوس ، موظف في قسم الدولة ، الى ترجمة ملاحظات كينان ذات الجوهر الفلسفي الى سياسة خارجية عملية ٠ ولأول وهلة ، تعامل ورقة سياسية أميركية النزاعات مع الاتحاد السوفيتي كمنقبة مستوطنة في النظام السوفيتي ٠ وعلى موسكو أن تعي " بالوسائل الدبلوماسية في المبوأ الأول وبالتحليل الأخير للقوة العسكرية ، لو ضرورة ، بان المنحى الحالي لسياستها الخارجية لن يفضي الآ الى كارثة للاتحاد السوفيتي " ٠

أتعني هذه الكلمات الجسور ، في خلجاتها ، وعندما لفظت بعد أقل من حول على اختتام الحرب العالمية الثانية ، أن تذود الولايات المتحدة عن حمى كل بقعة مهددة تحيط بالحد السوفيتي الشاسع ؟ جادل ماثيوس أن أميركا تتسيد البحر والجو ، والاتحاد السوفيتي جبار براً . وقصرت مذكرة ماثيوس ، الذي سعى لاستقطاب الانتباه الى " عدم فعاليتنا العسكرية ضمن بر ايروشيا " ، استخدام القوة على تينك البقعات حيث تقابل قوة " الجيوش السوفيتية دفاعياً بالقوة البحرية والبرمائية والجوية للولايات المتحدة وحلفاءها الأشداء . وحذر ماثيوس من الفعل المنفرد :

[يسن ميثاق الأمم المتحدة أفضل الوسائل وأحصنها ، بحيث تسخر الولايات المتحدة من خلالها معارضتها للتوسع السوفيتي المادي] .

ولكن على أية بقعة تتحقق هذه الظروف ؟

نصت ورقة ماثيوس على الدول والأقاليم التالية ، بأنها على كف عفريت : " فنلندا ، سكندنافيا ، والأجزاء الشرقية والوسطى والجنوبية من أوروبا الشرقية ، وايران ، والعراق ، وتركيا ، وأفغانستان وسنكيان ، ومنشوريا " . وتكمن المعضلة في قصي كل هذه المناطق عن أية قدرة أميركية مناسبة . وراق للمذكرة ، التي أوضحت أفراط أميركا المستمر في تقدير قدرات بريطانيا العظمى ، لتحقيق عين الدور في التوازن الذي عارضه القادة الأميركان ، بكل جهاد ، قبيل أعوام :

[اذا طمرت روسيا السوفيتية تواءم أوروبا ، على المملكة المتحدة ان تدأب في صيرورتها كقوى أولى في أوروبا الغربية ، اقتصادياً وعسكرياً .

وينبغي اذن للولايات المتحدة ان تمد المملكة المتحدة ، وضمن اطار عمل الأمم المتحدة ، بالعون السياسي والاقتصادي ، والعسكري عند الضرورة] .

ولم توضح مذكرة ماثيوس السبيل الذي تخطى فيه مبلغ استراتيجية بريطانيا العظمى ما للولايات المتحدة .

وما كان الأمر الثاني بأيسر تحققاً . لقد أظهرت عصبة الأمم ، في ردحها القصير العابث ، دوناً من استحالة تنظيم فعل جماعي بوجه قوة عظمى . والقطر الذي شخصته ورقة ماثيوس كمهدد أول للأمن يتمتع بعضوية الأمم المتحدة وله حق النقض . فلو اعتصمت الأمم المتحدة والولايات المتحدة عن أي فعل ، سيغدو دور بريطانيا العظمى المدعى مجرد ردم فراغ .

وأجلى كلارك كليفورد ، في احدى مهامه ابان عمله الطويل المتميز كمستشار للرئيس ، عن غموضات مذكرة ماثيوس وابعادها . وانتهى كلفورد ، في دراسة سرية للغاية بتأريخ الرابع والعشرين من أيلول عام ١٩٤٦ ، الى الرأي أن سياسات الكرملن ستنقلب لو تلقت كفة الاتحاد السوفيتي لها توازناً :

[ان الرادع الأساس للهجوم السوفيتي على الولايات المتحدة ، أو الهجوم على مناطق العالم الحيوية لأمننا ، ستكون القوة العسكرية لهذا البلد] .

ومنذئذ ، غدا ذلك الأمر حكمة تقليدية . بيد أن كلفورد وظبها موثباً ينادي منه الى مهمة أمنية أميركية عالمية تحضن كل الأقطار الديمقراطية التي يخطرها الاتحاد السوفيتي . وما كان جلياً ما المقصود بنعت " ديمقراطي " . أيقصر الأمر

دفاع أميركا على أوروبا الغربية ، أم أن من اللطافة توسيعه الى أية بقعة مهددة ، مما يقتضي للولايات المتحدة أن تدرع في وقت واحد ادغال جنوب شرق آسيا وصحاري الشرق الأوسط وأوروبا الوسطى المكتظة بالسكان ؟ وذات وقت ، لاح التفسير الأخير أكثر هيمنة .

وأبى كلفورد أي تماثل بين سياسة الاحتواء الظاهرة والسياسة التقليدية ، لأنه يرى الصراع بين السوفيت وأميركا كمخاض لعيوب القادة السوفيت الأخلاقية وليس مرده الى المصالح الوطنية المتضاربة . لذلك لم يتعلق مرمى السياسة الأميركية باستعادة توازن القوى ، بقدر سعيه لتحويل المجتمع السوفيتي . وبمثلى ما قرع ولسون ، عام ١٩١٧ ، الحاجة الى اعلان الحرب على القيصر وليس على التهديد الألماني الذي قابل أمن أميركا ، أرجع كلفورد التوترات السوفيتية الأميركية الى " طغمة صغيرة حاكمة وليس الشعب السوفيتي " . وكان ثمة حاجة لتغيير سوفيتي مهم ، من الصميم ، وربما حلقة جديدة من القادة السوفيت ، قبيل امكانية اتفاقية شاملة بين الاتحاد السوفيتي وأميركا . وفي لحظة مثيره ، سيبرم هؤلاء القادة الجدد " تسوية عادلة ومناسبة عندما يعون أننا شديدو بأس لا ندحر ، وأولو عزم لا نرهب " . ولم يطرح كلفورد ولا الساسة الأميركان الذي أعقبوه في مناقشة الحرب الباردة مديات محددة لانهاء المواجهة أو الشروع بمفاوضات تصيب هذه الثمار . وطالما أبقى الاتحاد السوفيتي على عقيدته ، مكث هذا الأمر عديم الجدوى . وستعمل التسوية تلقائياً حالما يدرك الاتحاد السوفيتي تغيراً في صميمه . وفي كل حالة ، قدر لتحديد مديات مثل هذه التسوية سلفاً أن

تزجر حرية العمل الأميركي – الجدل عينه الذي استخدم في الحرب العالمية الثانية لتحاشي مناقشة عالم ما بعد الحرب .

وتمتعت أميركا منذئذ باطار العمل الفكري لتبرير المقاومة العملية للتوسع السوفيتي . فمنذ تصرم الحرب ، ردفت الضغوط السوفيتية مخططات روسية تاريخية . لقد هيمن الاتحاد السوفيتي على البلقان (ما عدا يوغسلافيا) ولما تعصف حرب عصابات باليونان ، متلقية هذه العصابات العون من قواعد في يوغسلافيا الشيوعية وبلغاريا التابعة للسوفيت . ووجهت مطالبات اقليمية ضد تركيا ، علاوة على المطالبة بالقواعد السوفيتية في الستريس – تمتد الكثير منها على طول الخط الذي طالب به ستالين هتلر في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ .

ومنذ أن شدت الحرب الرحال ، آزرت بريطانيا العظمى اليونان وتركيا اقتصادياً وعسكرياً . وفي ربيع ١٩٤٦-١٩٤٧ ، أعلمت حكومة آتلي واشنطن أن العبأ قد أبهض كاهلها . وتأهب ترومان لتجشم دور بريطانيا التأريخي في كبح التقدم السوفيتي صوب حوض البحر الأبيض المتوسط ، بيد أن الكونغرس والشعب الأميركي لم يستحبا الأساس العقلي البريطاني الجيوسياسي البالي . وينبغي لمقاومة الاتحاد السوفيتي أن تنطلق ، بحزم ، من مبادىء تتجذر على تفهم أميركا للسياسة الخارجية .

تجلى هذا الواجب في اجتماع رئيس عقد في السابع والعشرين من شباط عام ١٩٤٧ . وسعى ترومان ومارشال ، وزير الدفاع ، ومعاون الوزير ، دين

آشسون ، الى اقناع وفد الكونغرس الذي يقوده آرثر فانبدبرغ ، السناتور الجمهوري من مشيغان ، بأهمية المساعدة الى اليونان وتركيا – المهمة الهائلة طالما يهيمن الجمهوريون التقليديون الانعزاليون على جانبي الكونغرس ٠

وامتطى مارشال تحليلاً قاسياً يطرح العلاقات بين برنامج العون المقترح والمصالح الأميركية ٠ واستنبط تبرمات احادية النمط حول " الخروج بكستناءات بريطانيا العظمى من اللظى الملتهب " ، وتحقيقات توازن القوى وأعباء السياسة الخارجية ٠ وعندما أدرك اشسون أن الادارة أوشكت على فقدان قضيتها ، ساءل مارشال ، همساً ، عما كان هذا قتالاً خاصاً أو بوسع أي أمر الانخراط فيه ٠ وعرض اشسون ، بجسارة ، على الفريق رؤيات مستقبل مهجور تقف فيه قوى الشيوعية لتتصبع اليد الطولى :

[كل ما بقي على هذه البسيطة قوتان عظميان .... الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ٠ وقد انتهينا الى موقع لم يتظاه منذ العهود البالية ، وليس منذ أمد روما وقرطاجنة .... ولكي تثب الولايات المتحدة خطواتها في شد أزر الأمم التي يهددها الاعتداء السوفيتي أو القمع الشيوعي .... يجب أن تدرع أمن الولايات المتحدة – انه لحماية الحرية بأناها] ٠

وعندما توضح استفزاز أشسون للوفد ، التزمت الادارة بمفهومه الأساس ٠ ومنذ ذلك الحين ، صور برنامج المساعده الى اليونان وتركيا بعدسة الصراع العالمي بين الديمقراطية والدكتاتورية ٠ وعندما أعلن ترومان ، في الثاني عشر من آذار عام ١٩٤٧ ، **عقيدته التي خلع عليها اسمه ، فقد أفلّ الأفق**

الاستراتيجي لتحليله وتحدث بمفردات ولسونية تقليدية عن التناحر بين منحيي الحياة :

[أحد هذين المنحيين يتوشح بلباش رغبة الأكثرية ، وتميزه المؤسسات الحرة ، والحكومة التمثيلية والانتخابات الحرة وضمان حرية الفرد ، وحرية الحديث والدين والتحرر من القمع السياسي ٠ وترتكن الصورة الثانية الى رغبة الأقلية التي تفرض عنوة على الأغلبية ٠ وتثق بالارهاب والقمع ، ورقابة صحفية واذاعية وانتخابات مرنة والاجهاز على حريات المرء] ٠

وعلاوة لذلك ، تعمل الولايات المتحدة ، بالدفاع عن الأقطار المستقلة ، لمصلحة الديمقراطية والمجتمع الدولي ، مع أن حق النقض السوفيتي سيحول دون مصادقة رسمية للأمم المتحدة :

[تهب الولايات المتحدة ، بمساعدة الأمم الحرة والمستقلة في استتباب حريتها ، تأثيراً لمباديء ميثاق الأمم المتحدة] ٠

فلو استغور القادة السوفيت تأريخ أميركا ، لفقهوا الطبيعة الموعدة لما يقوله الرئيس ٠ وأرخت عقيدة ترومان فاصلاً ، لأن أميركا لو طالبت بالمبارزة التأريخية ، سيقضي ضرب **السياسة الواقعية** الذي خبره ستالين أفضل خبرة مرةً والى الأبد ولن يحصل قد تفاوض حول الامتيازات المتبادلة ٠ وحينئذ ، لن ينفض الصراع الا بتغيير الأغراض السوفيتية أو بانهيار النظام الشيوعي أو بكليهما ٠

وناى ترومان بعقيدته " كسياسة للولايات المتحدة على معاضدة الشعوب الحرة المقاومة لمحاولات الاخضاع التي تشرع بها الاقليات المسلحة أو بالضغوط الخارجية . ومما لابد منه ان يلوح نقد غرض الدفاع عن الديمقراطية في نهايتي الأفق الفكري : أحتج البعض أن أميركا تدافع عن أقطار غير ذات أهلية أخلاقية ، مهما كانت أهميتها ، وعارض آخرون أن أميركا تلزم نفسها بالدفاع عن مجتمعات كانت غير حيوية لأمن أميركا ، بصرف النظر عن درجة تحررها . لقد كان غموضا برك دون حراك ، منجباً نقاشات حول غايات أميركا في كل أزمة تقريباً لم تفض حتى يومنا هذا . وحتى هذا الحين ، أقسرت سياسة أميركا الخارجية على الابحار بين أولئك الذين يهاجمونها ، لأنها خارج نطاق الأخلاق ، وأولئك الذين ينتقدونها على تخطي المنفعة الوطنية من خلال الترحال بالأخلاقية .

وعندما يشخص التهديد بالمستقبل عينه للديمقراطية ، لن تتمهل أميركا ريثما تضرم فتيل حرب أهلية فعلاً ، كما حصل في اليونان ، ففي الميثاق الوطني محاولة للاستطباب . وفي الخامس من حزيران ، وبعد أقل من ثلاثة أشهر على اعلان عقيدة ترومان ، أكد الوزير مارشال في خطابه من هارفارد ذلك الأمر عندما الزم الولايات المتحدة على محو الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي فتنت العدوان . وأعلن مارشال أن أميركا ستعين الشفاء الأوروبي وتتحاشى " الازعاجات السياسية " و " اليأس " لتعيد للعالم اقتصاده وتطبع المؤسسات الحرة . وأكد أيضاً :

[أن كل حكومة راغبة في المساهمة في مهمة الاستطباب لتلقى تعاوناً كاملاً ، بكل يقيني ، من لدن الولايات المتحدة] .

وبعبارة أخرى ، شرعت خطة مارشال أبوابها ، للمساعدة ، حتى لحكومات الدول التابعة للاتحاد السوفيتي - التلميح برق الى ستالين ، بعجلة وبشده ، في وارشو وبراغ .

وأعلنت الولايات المتحدة أنها لن تعارض أية حكومة حسب ، بل حتى المنظمة التي تعرقل عملية الشفاء الأوروبي . وشخص مارشال هذه الأمم بهوية الحزب الشيوعي ومنظماتها الجبهوية :

[ستواجه الحكومات والأحزاب السياسية والمجاميع التي تسعى لتخليد البؤس البشري كي تنتفع سياسياً مقاومة الولايات المتحدة] .

ولن تقوم قائمة لأية دولة ، ما خلا الولايات المتحدة ، بمثابتها وريادتها ، على تقديم خطة لشفاء اقتصادي عالمي يرتكن ، لوحده ، على خاصة مواردها . ومع ذلك ، استنبط جموح هذا الخيال التزاماً وطنياً يبهض كاهل جيل الحرب الباردة ريثما يتحقق النصر الأخير . ويقول وزير الخارجية أن برنامج الانتعاش الاقتصادي لن " يلقم بوجه أيما بلد أو عقيدة ، وانما صوب الجوع والغور واليأس والاضطراب " . وبمثلى ما جهر ميثاق الأطلسي به ، وغدت أية حملة عالمية لمحو الجوع واليأس الأرضي للأميركا من مناشدات المصلحة الذاتية المباشرة أو توازن القوى .

وعندما تصرمت كل هذه المبادرات العشوائية تقريباً ، تنفست وثيقة تخدم لأكثر من جيل كحجة لسياسة الاحتواء ، وفي الحقيقة ما أمدتها بالأسم ذاته . واحتضنت كل تشعبات فكر أميركا ، لما بعد الحرب ، في مقالة غريبة نشرت في

تموز عام ١٩٤٧ ، في مجلة الشؤون السياسية . وبالرغم من أنها وقعت بنحو غامض ، بتوقيع " اكس " ، عرف فيما بعد أن المؤلف هو جورج ف . كينان ، رئيس هيئة التخطيط السياسي في قسم الدولة . ومن بين الآف المقالات التي كتبت منذ تصرم الحرب العالمية الثانية ، تقف مقالة كينان " مناهل السلوك السوفيتي " في مصاف بوحدها . وسما كينان ، بجداله العاطفي وتبنيه الحرفي لـ " البرقية المطولة " ، بالتهديد السوفيتي الى مستوى فلسفة التأريخ .

وعندما أبصرت مقالة كينان الضياء ، غدت المنافذة السوفيتية قوام الوثائق السياسية وكانت مساهمة كينان المتميزة في توضيح السبل التي تأصلت فيها العداءات للديمقراطية ، في الهيكل السوفيتي الداخلي ، والعلة في برهنة هذا الهيكل حائلاً دون السياسات الغربية الاسترضائية . وتجذر التوتر مع العالم الخارجي في الطبيعة عينها للفلسفة الشيوعية ، والأسمى من كل ذلك ، في المنحى الذي دربه النظام الشيوعي داخلياً . وفي الداخل ، كان الحزب الفريق اليتيم المنظم ، بينما يتشطر بقية المجتمع الى كتلة مشوهة . وهكذا كانت عدائية الاتحاد السوفيتي اللدود الى العالم الخارجي محاولة لجرجرة الشؤون العالمية صوب قافيتها* الداخلية . وكان جل اهتمام الاتحاد السوفيتي :

[في التأكد من ردم كل الخلوات والشقوق التي تتقرح في واحة القوة العالمية . بيد أنها لو أنست حصون حصينة في سبيلها سترضى بها فلسفياً

* معنى قافيتها هاهنا أي على طريقتها .

وتكيف نفسها لها ..... وليس ثمة أي أثر لأي شعور في النفسية السوفيتية بابتغاء تحقق هذا الهدف في أيما وقت مضروب] .

ويكمن السبيل لدحر الاستراتيجية السوفيتية بـ " سياسة ثابتة للاحتواء ، ترسم لمواجهة الروس بقوه مقابلة لا يتحور كيانها في كل مرحلة ولمّا يبصروا امارات الاعتداء على حرمة مصالح العالم المسالم المستتب " .

واحتقرت وثيقة كينان (اكس) ، كشأن جميع وثائق السياسة الخارجية المحايلة ، توسيع مرمى دبلوماسي دقيق . وكل ما هيكله هو الحلم الأميركي الخالد عن سلام يدركه اهتداء الخصم ، بالرغم من أنه أفصح عنه بلغة أكثر تفصيلا ، وأحصن في ادراكها من كل ما جايلها . وخالف كينان بقية الخبراء عندما وصف الميكانيكية التي سينقلب بها النظام السوفيتي عاليه سافله ، عاجلاً أو آجلاً ، وخلال صراع للسلطة . وطالما أن هذا النظام لم يتدبر قط التحويل " الشرعي " للسلطة ، رجح كينان ، ذات عهد ، أن المحتجين المختلفين على السلطة :

ولم تتنبأ أية وثيقة أخرى ، على جانب أخاذ من الدقة ، ما سيطرأ غداة قدوم ميخائيل غورباتشوف . وفي ضوء الانهيار الكامل للاتحاد السوفيتي ، سيلوح من العيب الاشارة الى المبلغة المرهقة التي اعزاها كينان ، بمهمته ، لشعبه . لذلك اتهم الولايات المتحدة على مقاتلة الضغوط السوفيتية من أجل مستقبل مبهم لمحيط شاسع يجتنح حضارات آسيا والشرق الأوسط وأوروبا . وعلاوة لذلك ، ستعتق للكرملن الحرية على انتقاء نقطة الهجوم ، ولما يدرك أنها ستدر عليه أعظم المنفعة . وأبان ما تلى من أزمات ، قدر للمرمى السياسي الأميركي أن يكون

استتباباً للحالة الراهنة ، ذا جهد شامل سائراً بالشيوعية صوب انهيارها الأخير ، عقيب سلسلة متمادية من التناحرات المبتورة المزعومة . ويقيناً أنها آخر تعبير لتفاعل أميركا الوطني وحاسة نقية من رباطة الجأش ، أنيطت بدور جد عالمي وعنيد ومتفاعل ، كما أنسه لها مراقب متطور كجورج كينان .

والزمت عقيدة الصراع الأبدي البطولي المطبق هذه شعب أميركا بصراعات آبدة ذات قوانين خلفت المبادرة بيد الخصم وقصرت دور أميركا على تقوية الدول التي ترتصف في مصافها على امتداد خط فاصل – سياسة مدارات المصالح التقليدية . وأهدرت سياسة الاحتواء ، بنبذها المفاوضات ، وقتاً نفسياً أبان عهد قوة أميركا الأعظم نسبياً – عندما كان لها الاحتكار الذري . وفي الحقيقة ، عندما ترتدي الحرب الباردة فرضية الاحتواء ، ستغدو ذات طابع عسكري ومتخمة بانطباع غير دقيق لضعف الغرب النسبي .

وهكذا غدا انقاذ الاتحاد السوفيتي منشد السياسة الأخير ولن يتنفس الثبات الا بعد أن تطرد روح الشر . وليس من قبيل الصدفة أن تخلص مقالة كينان الى فذلكة تعلم مواطنيه الجزع محبي السلام بفضائل الصبر وترجمة دورهم العالمي كاختبار لقيمة بلدهم :

[ان قضية العلاقات السوفيتية – الأميركية اختبار ، في جوهرها ، للقيمة الكاملة للولايات المتحدة كأمة تتوسط أخواتها .... ولن يجد المراقب المتأمل للعلاقات بين الاتحاد السوفيتي وأميركا أيما علة للتذمر في تحدي الكرملن الى مجتمع أميركا . وسيخبر أيضاً عرفاناً موكداً للموطن الذي صير كامل أمنهم

بلداً يتوكأ على دفعهم لأنفسهم معاً واذعانهم لمسؤوليات القيادة السياسية والأخلاقية التي القاها التاريخ ، بكل جلاء ، على كواهلهم] .

من بين المناقب السامية لهذه العواطف النبيلة ازدواجيتها الخاصة . لقد ساقوا أميركا لتجشم رسالة عالمية وعقدوا المهمة بحيث أوشكت أميركا أن تتبعض في محاولتها لادراك الأمر . ومع ذلك ، ليلوح تناقض الاحتواء عينه مادياً دافعاً غير اعتيادي لسياسة أميركا . وانجبت الاحتواء ، برغم سلبيتها الظاهرية في ما يتعلق بالدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي ، ابداعاً متشبثاً عندما يمس الأمر تشييد " حصون القوة " في الوقائع الاقتصادية والعسكرية .

وسبب ذلك معانقة الاحتواء بالعبر والايمانات التي استنبطت من أهم تجربتين أميركيتين سابق جيل : وهكذا نهل العهد الجديد الايمان أن تهديدات الثبات السياسي لتنشأ أولاً من الهوات التي تتوسط التوقعات الاجتماعية والاقتصادية وأرض الواقع ، فشرعت بخطة مارشال . وفقهت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية أن أجود تحصين في درأ الاعتداء ليكمن في التمتع بقوة ساحقة والرغبة في شهرها ، فهكذا باشرت أميركا بحلف الأطلسي . لقد صبا مشروع مارشال لمعونة أوروبا اقتصادياً ومنظمة حلف شمال الأطلسي للنظر في شؤون أمنها .

كان الناتو أول حلف عسكري ، أبان السلام ، في تأريخ أميركا . كان مرده المباشر الى الانقلاب الشيوعي في تشيكوسلفاكيا ، شباط عام ١٩٤٨ . وبعد الاعلان عن مشروع مارشال ، عجل ستالين من قبضة الشيوعية على أوروبا

الشرقية . وأمسى متصلباً حول ولاء دول أوروبا الشرقية الى موسكو ، فرزح لعمليات التصفية القادة الشيوعيون القدامى الذين شك بامرهم في استجارة أوهن المشاعر الوطنية . وفي تشيكوسلفاكيا ، خرج الشيوعيون أقوى حزب في الانتخابات الحرة وتقلدوا زمام الحكومة . ومع ذلك ، لم يشبع الأمر ما يروق لستالين فأطيح بالحكومة المنتخبة وهوى حتى الموت جان مازاريك ، وزير الخارجية غير الشيوعي ونجل مؤسس الجمهورية التشيكوسلفاكية ، بعد أن القاه من نافذته مجرمو الشيوعي ، بنحو موكد تقريبي . لقد أقيمت في براغ دكتاتورية شيوعية .

وللمرة الثانية في بحر عقد زمان ، تغدو براغ الرمز الذي يحيط بمقاومة الطغيان . ومثلما أجبر الغزو النازي لبراغ بريطانيا العظمى على وضع حد للأمر أفضى الانقلاب الشيوعي بعد تسع سنوات بالولايات المتحدة وديمقراطيات أوروبا الغربية للارتصاف في مجابهة فرض قدر مماثل على أي بلد أوروبي آخر .

وأضعفت وحشية الانقلاب التشيكي ، كرة أخرى ، المخاوف أن السوفيت قد يقدمون على اغتصابات مماثلة أخرى – كانقلاب عسكري يعترف بحكومة شيوعية جديدة ويوظب العضلة العسكرية لانعاشها . وهكذا صاغت بضعة أقطار أوروبية غربية ، نيسان عام ١٩٤٨ ، حلف بروسل – ميثاق دفاعي يرمي الى صد أية محاولات قوة للاتيان على الحكومات الديمقراطية . ومع ذلك ، أشارت كل تحليلات مواقع القوة النسبية أن أوروبا الغربية لا تتمتع بالقدر الكافي من القوة على صد الهجوم السوفيتي . وهكذا أبصر الضياء حلف منظمة شمال الأطلسي كسبيل لمحاولة أميركا في الدفاع عن أوروبا الغربية . وهكذا أحدث الناتو نقلة لا

سبق لها في السياسة الخارجية الأميركية : التحام القوات الأميركية والكندية والجيوش الأوروبية الغربية في خيمة قيادة عالمية للناتو . وكانت النتيجة مواجهة بين تحالفين عسكريين ومدارا نفوذ على امتداد الخط الفاصل في قلب أوروبا .

ومع ذلك ما كان هذا الأمر بسبيل الأمر الذي استشعرته أميركا . كانت الولسونية جد قوية بحيث لم تأذن لأميركا في الدعوة الى أي تدبير يحمي الحالة الراهنة الاقليمية في تحالف أوروبي . لذلك طرق كل متحدث في ادارة ترومان ، ما أدخر من وسع ، لتمييز الناتو عن كل ما يمثل ائتلافاً تقليدياً لتدريع توازن القوى . وبرهن متحدثو الادارة تماثلاً بمهمتهم . وعندما أدلى اليمين (وارن أوستن) ، السناتور السابق الذي غدا سفيراً لدى الأمم المتحدة ، للعمل لمصلحة الناتو أمام لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ ، في نيسان عام ١٩٤٩ ، عالج المعضلة عندما أعلن وفاة توازن القوى :

[لقد عتق المحارب العتيق ، توازن القوى ، حرية مغمومة عندما تشكلت الأمم المتحدة . ان اضطلاع شعوب الأمم المتحدة على توحيد الجهود من خلال منظمة عالمية تستتب السلام والأمن الدوليين وتتخذ اجراءات جماعية فعاله قد أدخل رسمياً عامل رجحان القوة من أجل السلام . لقد نزع توازن القوى العتيق عنه نفسه] .

وقبلت لجنة العلاقات الخارجية التابعة للشيوخ ، بكل امارات البهجة ، هذا الزهو ، واستعار أكثر الشهود الذين يؤدون القسم لمصلحة حلف الأطلسي ، جل أمرهم من احدى وثائق قسم الدولة الموسومة " الفاصل بين معاهدة شمال الأطلسي

والأحلاف العسكرية التقليدية " . ونشدت هذه الوثيقة الغربية أن تكون خدمة تاريخية للاحلاف السبعة التي تعود في تاريخها الى بواكير القرن التاسع عشر ، منذ الحلف المقدس في عام ١٨١٥ الى الميثاق النازي – السوفيتي عام ١٩٣٩ . وانتهت الوثيقة الى تباين معاهدة شمال الأطلسي عنها جميعاً " نصاً وروحاً " . وحيث انكرت " أغلب " الاحلاف التقليدية ، " عن تقوى " ، " المصابي التوسعية والعدوانية " ، كان لها غايات أخرى غير سياسية .

وما يثير الدهشة توكيد وثيقة وزارة الخارجية أن الناتو لا يرمي الدفاع عن الحالة الراهنة في اوروبا ، التي كانت حدث الى حلفاء أميركا . وقيل ان حلف الاطلسي ليتثبت بالمبدأ ، لا القيم ، ولن يقاوم التغيير ، ما خلا استخدام القوة لأحداث التغيير . وخلص تحليل قسم الدولة الى أن معاهدة شمال الاطلسي غير مصوبة بوجه احد ، انها تسير ضد العدوان . ولا تسعى الى التأثير بأي تحوير " لتوازن القوى " ولكن لتقوية " توازن المباديء " . وبشرت الوثيقة بمعاهدة الأطلسي وما زامنها : ميثاق ريو للدفاع عن النصف الغربي ، " كتطورات في مفهوم الأمن الجماعي " . وصادق اعلان رئيس لجنة مجلس الشيوخ ، توم كونالي ، أن المعاهدة أسست " تحالفاً ضد الحرب نفسها " ، وليس بوجه الحلف العسكري .

ولن يحظ أي طالب متخرج من قسم التاريخ على درجة عابرة لمثل هذا التحليل . وقلما أسمت الأحلاف ، تاريخياً ، الدول التي وجهت صوبها . وبالمقابل ، وصفت الظروف المنبغى تلبيتها كي يدلو الحلف دلوه – تماماً بمثلى ما فعلت منظمة حلف شمال الأطلسي . وغداة عام ١٩٤٩ ، أمسى الاتحاد السوفيتي

المعتدي القوي الوحيد في أوروبا ، فما كان ثمة ضرورة للاشارة بالبنان الى الأسماء ، كسابق عهد . ويكمن اصرار الولايات المتحدة في الدفاع عن المبدأ وليس الاقليم في لب أميركي ، بالرغم من انها نادراً ما طمأنت الدول التي تخشى ، أعظم ما تخشاه ، التوسع السوفيتي الاقليمي .

ومع ذلك ، قلة قليلة من وثائق وزارة الخارجية تلقى مثل هذا التأييد غير المتحفظ من جانب لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ .

وباختصار ، حاز حلف الأطلسي ، غير التحالف في حقيقته ، دعوى الى العالمية الاخلاقية . ومثل أكثرية العالم قبالة اقلية من صناع المتاعب . وبمعنى أخرى ، سيتبوأ حلف الأطلسي دوره ريثما يأزف الوقت لمجلس أمن الأمم المتحدة " أن يتخذ الخطوات الضرورية لاستتباب الأمن والسلام " .

[اننا لن نستتب لحمتنا ، التي يكمن فيها الاحباط الحقيقي لنية الكرملن ، الا بالتوكيد العملي ، خارجاً وفي الداخل ، والمتوسم قيمنا الجوهرية] .

كان دين أشسون وزير خارجية محنك بنحو فريد ، ومتبصر في التاريخ . وكانت له فذاذته الجلية لمتطلبات توازن القوى ، كما أبصرها العديد من التحاليل الغائرة في قضايا جيوستراتيجية . ومع ذلك فقد تأمرك* مفهومه عن الدبلوماسية ما يكفي ليقتنع ان اوروبا فوضت توازن القوى ، بعد أن ترك لخاصة أجهزتها ، للتوازن كنه خاص يستشعره الأميركيون ، وبحاجة الى الارتكان الى مثالية اسمى .

* تمأرك : أي أصبح أميركياً .

وفي خطابه الذي ادلاه في مؤسسة خريجي هارفارد ، وبعد التصديق على المعاهدة ، دافع اشسون عن حلف الأطلسي بوشاح اميركي متميز - كمدخل شامل للشؤون الخارجية :

[...... لقد تقدمت بالتعاون العالمي لاستتباب السلام ، طور الحقوق الانسانية ، ورفع مستويات العيش ، ولتعزيز مبدأ الحقوق المكافئة وتقرير مصير الشعوب ٠]

وباختصار ، ستصفد أميركا اياديها لما يتعلق بحلف الاطلسي ما حاشا خلعه بلقب الحلف ٠ وستمارس سياسة ائتلافية تاريخية طالما تبرر افعالها بعقيدة الأمن الجماعي ، التي تقدم بها ولسون أولاً كخيار لنظام التحالف ٠ وهكذا بعث توازن القوى الأوروبي ، طوراً آخراً ، ببلاغة أميركية فريدة ٠

لقد اغفل الأمريكيون عن خلق حلف الأطلسي المهم ، بفعل جمهورية المانيا الفيدرالية عندما عانقت مناطق الاحتلال الأميركية والبريطانية والفرنسية ٠ ومن جانب واحد ، عنت هذه الدولة الحديثة بطلان صنعة بسمارك ، لا سيما أن المانيا ستبقى متبعضة ، في المستقبل غير المسمى ٠ ومن ناحية أخرى ، تبطن وجود الجمهورية الفيدرالية تحدياً خالداً الى الوجود السوفيتي في قلب أوروبا طالما تأبى هذه الدولة ، أبداً ، دولة المانيا سوفيتية شيوعية شرقية (التي خلقها السوفيت من مناطق احتلالهم) ٠ وطيلة عقدين من الزمان ، رفضت الجمهورية الفيدرالية الاعتراف بما قيل لها الجمهورية الألمانية الديمقراطية ، وهددت بقطع العلاقات الدبلوماسية مع أية دولة تقدم على ذلك ٠ وبعد عام ١٩٧٠ ، ودعت الجمهورية

الفيدرالية ما يسمى بـ " عقيدة هالشتاين " وأقامت علاقات دبلوماسية مع المانيا الشرقية التابعة ، بالرغم من دأبها على الدعوى بالحديث اصالة عن كامل شعب المانيا ٠

وأدهش الحسم ، الذي القى الاميركيون به انفسهم لجسر هوة القوة في اوروبا ، حتى اكثر المؤيدين المتحمسين لسياسة الاحتواء ٠ ويقول تشرتشل :

[ما فكرت الا نزيراً ، وعندما بلغ عام ١٩٤٤ عتيه ، ان قسم الدولة ، يعاضده الرأي الأميركي الساحق ، من يتبنى ويواصل المنحى الذي شرعناه ، بل ويبذل ما وسعه حماسة ، حتى في الميثاق العسكري ، لتدرك الأمور ثمارها] ٠

وبعد أربعة اعوام على استسلام دول المحور غير المشروط ، انضوى في لواء النظام العالمي كثير من التماثلات مع تلك الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى : حلفان قاسيان ذوا فراغ دبلوماسي مناوري ضيق ، ومتقابلان حول الكرة الأرضية ٠ ومع ذلك ، ثمة تباين هام : تعانقت الأحلاف التي سبقت الحرب العالمية الأولى معاً بباعث من خوف كل فئة ان تحويل احد أطراف الحلف يهد الصرح الذي شخصوا به امنهم ٠ وفي الواقع ، اذن لأشرس شريك أن يجرجر الآخرين الى الهاوية ٠ وفي خضم الحرب الباردة ، سيطرت قوة عظمى على كل شيعة ، بحيث ما كان ميسوراً الاستفتاء عنها وهي غير آبهة لركوب الاخطار كي تحول دون انخراط كل الحلفاء في حرب عالمية ٠ لقد بدد حضور الأسلحة النووية رؤيا تموز عام ١٩١٤ - ان الحرب ستكون عابرة من دون وجع ٠

وضمنت القيادة الأميركية ان النظام العالمي الجديد سيبرر بمفردات اخلاقية ، وحتى مسيحية أواناً • وبذل قادة اميركا الطاقات والتضحيات ، التي لم يظاهيها امر في ائتلافات السلام ، كي تروق للمبادىء الجوهرية والحلول الشاملة ، معوضة حسابات الأمن القومي والتوازن اللذين وسما الدبلوماسية الأوروبية •

وفيما ردف من عهد ، أكد النقاد الاستهكام المزعوم لهذه البلاغة الأخلاقية • بيد ان كل العارفين بمسي سياسة الاحتواء لا يشككون مصداقيتهم ، وليس بميسور اميركا ان تسلخ اربعين عاماً من الجهود المضني لمصلحة سياسة لا تعكس اعمق مبادئها ومثاليتها • وسطع هذا الأمر ، بوفرة ، في المبلغة التي غمرت فيها القيم الأخلاقية وثائق الحكومة العالية التصنيف ، التي ما توخت قط الافشاء الى العامة •

وصورت وثيقة لمجلس الأمن القومي ، انجبت في نيسان عام ١٩٤٠ ، بياناً اميركياً رسمياً حول استراتيجية الحرب الباردة • وشخصت هذه الوثيقة ، ذات الرقم ٦٨ ، المصلحة الوطنية بمفردات ، اغلبها ذات المبدأ الأخلاقي وترى ان النكسات الأخلاقية لأفتك خطراً من المادية :

[ان هزيمة المؤسسات الحرة في ايما بقعة ، لدحر في كل البقاع ، والصدمة التي صعقتنا لتدمير تشيكوسلفاكيا لا تمسس سبيل اهمية هذه الدولة الماديه لنا • ففي الفحوى المادي ، يمتلك الاتحاد السوفيتي ، وقتئذ ، قدراتها • ولكن عندما تفككت لحمة اجهزة تشيكوسلفاكيا ، كان الأمر ذا مدى معنوي للمبادىء بحيث ادركنا فقداناً ادمر من الضياع المادي الذي تكبدناه] •

وعندما ضاهت المصالح الحيوية المبدأ الأخلاقي ، أفرغت الغايات الاستراتيجية بمفردات الاهلية ، وليس القوه - " لجعل انفسنا أشداء ، في السبيل الذي نوكد قيمنا في منحى حياتنا الوطنية ، وفي تطور بأسنا السياسي والاقتصادي " • وتغلغلت في فلسفة اميركا عهد الحرب الباردة عقيدة الاباء المؤسسين ، ان اميركا منارة الحرية لكل البشر • وعندما أبى صاغة الوثيقة (٦٨) جنوح الفكر الأميركي ، الذي عبر عنه تحذير جون كونسي آدمز ضد " الترحال خارجاً بحثاً عن الوحوش لافنائهم " ، اصطفوا في خيارهم الرؤيا البديلة لأميركا كصاحبة حملة :

وبهذه المفردات ، كان غرض الحرب الباردة تبديل الخصم : " أن تربي تغييراً جوهرياً في طبيعة النظام السوفيتي " ، الذي شخص " بالاذعان السوفيتي لشروط محددة وخاصة مقتضاة للبيئة العالمية تزدهر فيها مرافق حرة ، وتتهيأ للشعوب الروسية فرصة جديدة لتقرير خاصة مصيرهم • وبالرغم من أن الوثيقة (٦٨) قد مضت في وصف الاجراءات الاقتصادية والسياسية المنتزعة ، والحيوية الى تشييد مواقع القوة ، ما كان مغزاها المركزي دبلوماسية المقايضة التقليدية أو الحسم النهائي الايحائي • وكان الاكتراث لاستخدام الأسلحة النووية ، أو التهديد بتسخيرها ، أبان عهد الاحتكار الأميركي الذري ، قد علل بمنحى أميركي فريد : سيأتي الانتصار في هذه الحرب بنتيجة عابرة غير مقنعة • وبالنسبة للحل المتفاوض " .... سيكون الأساس المدروك اليتيم لتسوية شاملة في مدارات النفوذ - الحل الذي يتأهب الكرملن لتسخيره لمصلحته " • وبعبارات أخرى ، أبت أميركا اعتبار الظفر بحرب ، اذ حتى الحل الشامل الذي سيخلف الخصم على غير تبديل •

وبالرغم من واقع هذه الوثيقة الشاق ، فقد شرعت بالعمل في الديمقراطية وانتهت الى التوكيد أن التاريخ سيستميل كفة أميركا في نهاية المطاف . وما أفرد هذه الوثيقة محاضنتها للدعوات العالمية مع نبذ القوة . ولم تبادر أية قوة عظمى في ما تصرم من عهد الى التعبير عن غاياتها مطالبة تماماً بخاصة مناهلها من دون أي حدس برد المقابل ، ما حاشا انحلال قيمها الوطنية . وستتحقق هذه الغايات بالاصلاح العالمي وليس الفتح الدولي ، المطرق الاعتيادي للفاتحين . وصادف أن جبروت أميركا ، لهذه المشقة وفي لحظة مختصرة ، قد كان خارقاً ، على غير صورة سابقة ، بالرغم من أن أميركا قد حملت نفسها على الاعتقاد انها هزيلة عسكرياً ، نسبياً .

وفي المراحل الأول لرحلة اميركا صوب الاحتواء ، لم يتخيل احد الاجهاد المستتر الذي سيدرك النفسية الاميركية جراء التناحرات التي مصباها الأساس قلب الخصم والمعدمة من اية معايير توظب لتقييم نجاح كل فترة بينية . وبدا من غير المعقول الى جميع قادة اميركا الرابطين جأشا ان يمخر بلدهم ، في بحر عقدين ، عباب اذواء الشك الذاتي والصراع قبيل ان يتحقق تكهنهم بانهيار الشيوعية . وفي ذلك الوقت ، انصرفوا كلية الى الزام اميركا بدورها العالمي .

وعندما صيغت الاحتواء ببطء ، اعترضها نقد نهل من ثلاثة مدارس فكرية مختلفة . وجاء أولها من الواقعيين " الذي مثلهم (ولتر لبمان) ، حيث حاجج ان الاحتواء قد افضى الى افراط نفسي وجيوسياسي واستنزف موارد اميركا . وكان ونستون تشرتشل لسان حال المدرسة الثانية ، حيث أبى تأجيل المفاوضات الى ما بعد تحقق مواقع القوة . وكانت بنية تشرتشل ان مبوأ الغرب لن يعود قط سيرته

الأولى من القوة ، عند بداية الحرب الباردة ، ولن يدرك موضعه التفاوضي النسبي الا التدهور . وثالثاً ، كان (هنري والس) ، الذي جحد على اميركا الحق الاخلاقي على اضطلاع سياسة الاحتواء في المقام الأول . وبعد ان نص تكافئا اخلاقيا جوهريا بين الاتحاد السوفيتي واميركا ، جادل ان مدار نفوذ الأول في قلب اوروبا مشروع ، وان مقاومة اميركا له لن يهول الا التوتر ، وحث الى انقلاب الى لما أبصره كسياسة روزفلت : انهاء الحرب الباردة بقرار اميركي منفرد .

وأبى لبمان ، بصفته أبلغ متحدثي الواقعيين ، مقترح كينان على ابتلاع المجتمع السوفيتي بذور فساده . وعد النظرية جد فكرية بحيث لن تخدم كأساس لسياسة أميركا :

[لا تكتنز تقديرات السيد (اكس) التحوطات ليوم ماطر . وليس ثمة هامش للسلامة من سوء الطالع والتدبير الخاطيء والهفوة وما يضمره القدر . ويساءلنا ان تفترض تعفن القوة السوفيتية ، الان ، ويحرضنا على الايمان ان اقصى مديات رجاءاتنا ستدرك عاجلاً] .

وحث لبمان ان الاحتواء سيجرجر أميركا الى براغيل محيط الامبراطورية السوفيتية الشاسعة ، التي يراها مجتاحة امم عديدة ، لا تمتع بالمعنى المعاصر للدول . ولن تعزز مهمات أميركا الخارجية أمنها ، ستوهن عزيمتها . وتأذن الاحتواء ، في رأي لبمان ، للاتحاد السوفيتي على انتقاء ذروات الاحباط من أجل الولايات المتحدة ، ولما يبقى على المبادرة الدبلوماسية ، وحتى العسكرية .

وشدد لبمان على أهمية اقامة المعايير لتعريف المناطق التي يكون فيها التوسع السوفيتي المقابل حيوياً للمصلحة الأميركية . ومن دون هذه المعايير ، سترتغم الولايات المتحدة على تنظيم " حلقة من التوابع المتباينين ، وعملاء ، ومتوكأين ، ودمى " تأذن لحلفاء أميركا الجدد على استثمار الاحتواء لمصلحتهم الخاصة . وستتفخخ الولايات المتحدة بانعاشها انظمة متحجرة ، حيث ترك واشنطن قبالة الاصطفاء بين " التهدئة ، الانحدار ، فقدان ماء الوجه ومؤازرة هذه الأنظمة بتكاليف لا تحصى .

وفي الحقيقة ، كان هذا تحليلاً تنبئياً لما يختزنه القادم من الزمن للولايات المتحدة ، بالرغم من ان استطباب لبمان المقترح بالكاد يواءم الدأب الأميركي العالمي ، الذي قاب قوسين أو أدنى من المخاض الايحائي الذي حدسه هو . وساءل لبمان السياسة الخارجية الأميركية أن يقودها تحليل جميع قضايا المصالح الأميركية ، وليس المباديء العامة المفترض ان تكون ذات تطبيق عالمي . ويرى الا تصبو سياسة اميركا الى الاجهاز على النظام الشيوعي ، بقدر استعادة توازن القوى في اوروبا ، بعد ان مزقته الحرب . وتبطنت الاحتواء تبعيضا غير جلي لأوروبا ، في حين ينبغي لمصلحة أميركا الحقيقية ان تبعد القوة الأوروبية من قلب قارة أوروبا :

[لأكثر من مائة عام ، سعت جميع الحكومات السوفيتية الى التوسع في أوروبا الشرقية . ولم يدرك قادة روسيا مطامح الامبراطورية الروسية واغراض الشيوعية الفكرية الا بعد ان تخطى الجيش الاحمر نهر الالب . لذلك ينبغي للسياسة الاصيلة ان تتمتع ، كمرمى سام ، بالتسوية التي تأتي باخلاء

اوروبا ..... وأن تكون قوة اميركا متأهبة ، " لا تحتوي " الروس في مراحل مبعثرة ، فلها ان توقف كل الماكنة العسكرية الروسية ، وتبدل جهداً جاهداً لمؤازرة سياسة دبلوماسية تختط لها هدفاً ملموساً كالتسوية ، أي الانسحاب] .

كان القدر مبذراً في الموهبة التي اسبغها على اميركا في الفترة التي ردفت الحرب مباشرة ، فأمسى قادة اميركا حذقين متميزين . وكمن في دبرهم كم من الشخصيات الرفيعة ، مثل (جون ماكلوي) و (روبرت لوفيت) و (ديفيد بروس) و (الزورت بنكر) و (آفريل هاريمان) و (جون فوستر دالس) ، المتأهبين على الدوام لخدمة الرئيس على اساس تجردهم من الأحزاب .

وقدرت اميركا ان تستنبط من بين مفكريها ، ما تبصره لبمان وكينان وهما في ذروتي سلطتهم . وخبر كينان ، بنحو سليم ، وهن الشيوعية المضمر ، في حين كهن لبمان بدقة احباطات السياسة الخارجية المتفاعلة جوهراً والمتجذرة بالاحتواء . ونادى كينان لتحمل التاريخ على عرض توجهاته المحتومة . بينما دعا لبمان لمبادرة دبلوماسية كي يصيب تسوية اوروبية في وقت لم تني اميركا فيه راجحة . كان حدس كينان اعظم في فهم منطلقات المجتمع الميركي . ومن جانب آخر ، شخص لبمان الاجهاد الكامن في تحمل تأزل لا حد له ولبواعث مبهمة ربما تفضي الاحتواء باميركا الى التعاون .

وفي نهاية المطاف ، الفى تحليل لبمان تالياً جوهرياً ، بالرغم من ان اغلبه بين معارضي مواجهة الاتحاد السوفيتي . وارتكن استصوابهم على افق يتيم من برهان

لبمان ، الذي توكد على النقد وتتجاهل الحتميات . ولاحظوا نداء لبمـان لمرامي اكثر تحديداً ، لكنهم اغفلوا عن توصيته لدبلوماسية اكثر هجومية .

وكان من قبيل الصدفة أن تأذن الأربعينيات بقدوم الاستراتيجية الأقسر والبديل لعقيدة الاحتواء من ونستون تشرتشل ، قائد المعارضة في البرلمان ذلك الوقت .

كان تشرتشل جد تاق باستهلال الحرب الباردة عندما ادلى بخطاب الستار الحديدي في فلتون في ميسوري . وفي المرحلة الأولى للحرب العالمية الثانية بالذات ، سعى تشرتشل الى اقصار التوسع السوفيتي في مبغى لتشديد دور الديمقراطيات المفاوض في فترة ما بعد الحرب . ايد تشرتشل الاحتواء ، بيد انها ما كانت له نهاية بحد ذاتها . ورغب عن الانتظار بسلبية لانهيار الشيوعية فسعى لتأطرة التاريخ دون الارتكان اليه ليفعل فعلته . لقد نشد تسوية تفاوضية .

والمح خطاب تشرتشل في فلتون الى المفاوضات . وفي التاسع من تشرين الأول عام ١٩٤٨ ، عاد تشرتشل الى حجته ان الغرب لن يتمتع بموقع مفاوض اجود من هذه اللحظة . وقال :

[ان السؤال لينطرح : ما الذي سيحصل عندما يمتلكون القنبلة الذرية أنفسهم ويعظمون من ترسانتهم ؟ بامكانكم أن تحدسوا ما سيطرأ مستقبلاً بمعرفة ما يحصل الآن . فلو افترشت هذه الأمور الأرض الخضراء ، ما سيفعل باليابسة ؟ ....ولن يؤمن ذو علم أننا نتمتع بردح من الزمن لا حد له . فعلينا أن نضع النقاط على الحروف ونقرر الحسم الأخير . ولا ينبغي لنا أن نسير

متكفأين ، نتمهل منقلب الأمور ، والذي أعنيه منقلباً شيئاً لنا . ومن الراجح الأرجح للأمم الغربية أن تدرك تسوية نهائية ، من دون اراقة دماء ، لو صاغوا مطالبهم العادلة ، وفي وقت يتمتعون فيه بالقنبلة الذرية وقبيل أن يتملكها الشيوعيون الروس أيضاً].

وبعد عامين ، قدم تشرتشل الالتماس عينه في مجلس العموم : الديمقراطات جد قوية على التفاوض وسيضعفها الانتظار . وفي خطابه الذي دافع عن اعادة تسلح الناتو ، في الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٩٥٠ ، حذر ان تسلح الغرب لن يغير بحد ذاته الموقع التفاوضي ، الذي يرتكن في نهاية المطاف الى احتكار اميركا الذري :

[عندما يحق لنا بناء قواتنا بكل ما أوتينا من عجلة ، لن يجرد أي أمر ، في الفترة التي اشرت لها ، روسيا في التفوق الفعال لما يقال له بالأسلحة التقليدية . وكل ما تقدمه لنا انها تهبنا وحدة متعاظمة في اوروبا وتهول من رادعات الاعتداء ..... لذا استميل أنا ادراك تسوية مع روسيا السوفيتية حالما تعرض فرصة مناسبة والسعي بهذه الجهود ولما تتفوق أميركا على الاتحاد السوفيتي في كل من الميادين].

وكان موقع القوه بالنسبة لتشرتشل قد تبوأ محله ، بينما لم يتنفس بعد بالنسبة لقادة اميركا . واعتقد تشرتشل في المفاوضات سبيلا لمعانقة القوة بالدبلوماسية . وبالرغم من انه ما كان محدداً قط ، فقد اكدت بياناته العامة بحزم انه ابصر ضرباً من الانذار الدبلوماسي تقوم به دبلوماسيات الغرب . وتراجع

القادة الاميركان قبيل ان يوظبوا احتكارهم الذري ، كتهديد حتى • شاء تشرتشل تقليص منطقة النفوذ السوفيتي ، بيد انه تأهب للتعايش مع القوة السوفيتية ضمن اصغر مديات • ويمتعض قادة اميركا من مدارات النفوذ ، فودوا الاجهاز على نفوذ خصمهم ، لا تقليصها ، واستطاب لهم ان ينتظروا انتصاراً كاملاً وانهياراً للشيوعية ، مهما كان باعداً ، فيصيبوا الحل الولسوني الى معضلة النظام العالمي •

ووصل هذا الانشقاق الى تباين بين التجارب التاريخية لبريطانيا العظمى وأميركا • لقد تطبع مجتمع تشرتشل كثيراً على النتائج المبتورة ، في حين حل ترومان ومستشاروه من عادة التغلب على مشكلة ، اذا ما طرحت نفسها ، بنشر الموارد الهائلة • ولم يتمتع تشرتشل بصعوبة فكرية تزاوج بين تشييد مواضع القوة ودبلوماسية فعالة تحث على التآزل • وخال قادة اميركا هذه الجهود كفترات متعاقبة - كما حصل لهم في الحرب العالمية الثانية وفي حربي كوريا وفيتنام • لقد خيم رأي اميركا لانها اشد باساً من بريطانيا العظمى ولان تشرتشل ، قائد المعارضة البريطانية ، لا يتبوأ موقعاً يوكد استراتيجيته •

وفي نهاية المطاف ، بان اصرّ التهديدات واجهرها لسياسة اميركا من الدأب الغائر في فكر اميركا الراديكالي ، وليس من مدرسة لبمان الواقعية او في تفكير تشرتشل في توازن القوى • وحين ارتضى لبمان وتشرتشل بفرضية ادارة ترومان القائلة ان التوسع السوفيتي ليمثل تهديداً خطيراً ، ولم يعارضا الا الاستراتيجية المقاومة له ، أبى النقاد الراديكاليون كل آفاق الاحتواء • كان

متحدثها الاول هنري والس ، نائب رئيس روزفلت في فترته الثالثة ، ووزير سابق للزراعة ووزير التجارة في عهد ترومان •

وتمتع والس ، مخاض العادة الاميركية المؤمنة بصلاح المجتمع ، بارتياب اميركي دائم من بريطانيا العظمى • وأصر ، كشأن الكثير من التحرريين مثل جفرسون ، ان " المباديء الأخلاقية " عينها التي حكمت الحياة الخاصة يجب ان تحكم الشؤون الدولية " • ويرى والس ان اميركا قد ضيعت قدرتها الاخلاقية وتمارس سياسة خارجية " ذات مباديء ميكافيلية في الخداع والقوة والخيانة " ، كما افصح الى الجمهور المحتشد في ساحة حديقة مادسون في الثاني عشر من ايلول عام ١٩٤٦ • وطالما كان الاجحاف والبغض والخوف جذور علل الصراع الدولي ، ليس للولايات المتحدة حق اخلاقي في التدخل بالشؤون الخارجية ريثما تستأصل هذه الآفات من مجتمعها •

وعاودت الراديكالية الجديدة في توكيدها لرؤية اميركا التاريخية كمنارة الحرية ولكنها قلبتها ، في ارض الواقع ، على نفسها • وفي عهد الحرب الباردة ، بات التسليم بصحة التناظر الأخلاقي للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي صفة النقد الراديكالي • وفي عدسة والس ، فان الفكرة عينها في اضطلاع اميركا بمسؤوليات دولية مثالاً لتعنت القوة •

ويرى والس خيالاً محضاً في عرض ترومان للصراع بين الديمقراطية والدكتاتورية • وفي عام ١٩٤٥ ، وعندما تجلى قمع السوفيت كثيراً لما بعد الحرب ، اعلن والس ان " الروس اليوم ليتمتعون بحريات سياسية اوفر مما تصرم من

اي عهد " . واكتشف ايضاً " الايات المتعاظمة للتسامح الديني " في الاتحاد السوفيتي وادعى بوجود " عدم اساسي للتناحر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي " .

واعتقد والس ان السياسة السوفيتية لمنقادة بالخوف اكثر من التوسع . وكتب الى ترومان ، في اذار عام ١٩٤٦ ، ولما يزل وزير التجارة :

[لقد القت احداث الاشهر القليلة الماضية بالسوفيت الى اعقاب المخاوف التي سبقت عام ١٩٣٩ " من التحوط الرأسمالي " والى الايمان الخاطيء ان العالم الغربي ، بما فيه الولايات المتحدة الأميركية ، عدائية جمعاء] .

وفي خطابه الذي ادلاه في ساحة حديقة مادسون بعد ستة اشهر ، القى والس تهديداً مباشراً الى ترومان ، فطالبه الرئيس بتقديم استقالته :

[لا يروق لنا ما تفعله روسيا في اوروبا الشرقية وأقدمت بفعل منحاها في اصلاح الأراضي وقمع الحريات الأساسية على اهانة الأكثرية العظمى من شعب الولايات المتحدة . وبصرف النظر عن رغبتنا في الأمر أو رغبتنا عنه ، فقد شرع الروس باشتراكية مدار نفوذهم تماماً كما نسعى نحن الى جعل مدار نفوذنا ديمقراطياً ..... وستمضي الأفكار الروسية عن العدالة الاجتماعية والاقتصادية لتحكم قرابة ثلث العالم ، في حين ستحكم أفكارنا عن ديمقراطية العمل الحر أكثر البقية . وستجاهد أفكار الجانبين لتبرهن أي فريق سيدلي بقناعة أعظم الى الناس المنضوين في مناطق تسيدهم السياسية] .

وبقلب غريب للادوار ، وافق مدافع الاخلاق في السياسة الخارجية على مدار النفوذ السوفيتي في اوروبا الشرقية باساسات عملية ، بينما ابت الادارة ، التي يهاجمها بسبب سياسة القوة الاستهكامية ، النفوذ السوفيتي لبواعث اخلاقية .

ولا يرى والس لاميركا حقاً في التدخل لوحدها حول العالم ، فما الدفاع بشرعي الا بعد مصادقة الامم المتحدة (بصرف النظر عن تمتع السوفيت بحق النقض) . وينبغي للمعونة الاخلاقية ان توزع بواسطة الاجهزة العالمية . وطالما فشلت خطة المارشال في تلبية اختياره ، تنبأ والس انها ستعود على اميركا في نهاية المطاف بمعاداة عالمية .

وتوارى تهديد والس عقيب الانقلاب الشيوعي في تشيكوسلفاكيا وحصار برلين وغزو كوريا الجنوبية . وحظي في عام ١٩٤٨ ، بصفته مرشحاً رئاسياً ، على مليون صوت - اغلبهم من نيويورك - مقابل اربعة وعشرين مليوناً لترومان ، فاقعده هذا الأمر في المرتبة الرابعة رادفاً ستروم ثرموند .

ومع ذلك حاول والس تطوير المغازي التي ستبصم النقد الاميركي الراديكالي أبان الحرب الباردة ، وتنتقل الى المرحلة المركزية في حرب فيتنام . واكدت تلك الامور هفوات اميركا الاخلاقية وأصدقائها الذين تعينهم : تناظر اخلاقي اساس بين اميركا ومتحديها الشيوعيين ، والافتراض ان الولايات المتحدة لا تلتزم بالدفاع عن اية رقعة في العالم قبالة تهديدات اعظمها ضرب من الخيال ، والرؤية ان الرأي العالمي لدليل افضل الى السياسة الخارجية ، مما تفعله المفاهيم الجيوسياسية . وعندما اقترحت معونة اليونان وتركيا اول الامر ، حث والس

ادارة ترومان ان تطرح هذه القضية على الأمم المتحدة . ولو " رفع السوفيت حق النقض ، سيكون العبأ الاخلاقي على كاهلهم .... وعندما تتصرف بحرية ... سيكون العبأ الأخلاقي على ظهورنا " . وعنى ايجاد المسوغ الاخلاقي الرفيع اكثر من مدى حماية مصالح اميركا الجيوسياسية .

وبالرغم من انحدار ما طرحه والس في الأربعينيات من نقد راديكالي لسياسة اميركا الخارجية ، ما بعد الحرب ، عكست مبادئها الاساسية مشقة سحيقة لمثالية اميركا ، بحيث دأبت على شد روح الأمة . ان المفاهيم الاخلاقية عينها ، التي أنجبت مثل هذه القدرة في التزامات اميركا الخارجية ، قد تمتعت بالقدرة على التوقع في باطنها ولما تلق خيبة في العالم الخارجي ، أو في خاصة التشوهات الأميركية . وفي العشرينيات بعثت الانعزالية أميركا منصرفة عن العالم بباعث من طيبتها المفرطة . وفي حركة والس ، فقد أحيت نفسها بدعوى أن على أميركا التقهقر لأنها لا تتمتع بالطيبة الوافية للعالم .

ولكن حين شرعت أميركا بأولى التزاماتها العالمية الدائمة لما بعد الحرب ، كمن في خبايا المستقبل شك ذاتي منظم . وأنعم الجيل الذي شيد العهد الجديد وظفر بالحرب العالمية الثانية بنعمة الايمان الهائل بنفسه وبعظمة الفعل الأميركي . لقد تناغمت مثالية الأمة كثيراً مع ادارة عالم ذي قوتين ، لا تواءمه كثيراً الاتحادات الغامضة لدبلوماسية توازن القوى البالي . ولن يقدر الاّ مجتمع عظيم الثقة بمنجزاته ومستقبله أن يحشد الجهود والموارد ليجاهد من أجل نظام عالمي يألف فيه الأعداء المدحورين ، ويعاد الحلفاء المتضررون ، ويرد الخصوم الى صفه . ان المشاريع العظمى تنقاد أحياناً بقبس من السذاجة .

وكان أحد مخاضات سياسة الاحتواء ان تنحدر الولايات المتحدة بنفسها صوب دبلوماسية سلبية جوهراً في خضم أوج قوتها . وهذه العلة وراء مقابلة الاحتواء لتحد متعاظم من جهة دائرة انتخابية أخرى ، أمسى جون فوستر دالس متحدثها الأجهر . لقد كانوا المحافظين الذين قبلوا بفرضيات الاحتواء ولكن ساءلوا عن غياب الاصدار الذي تواصل به . وجادل هؤلاء النقاد ان الاحتواء لو ظفر في تقويض المجتمع السوفيتي ، سيستنفذ وقتاً وكلفة عظيمين . ومهما ستتأتي سياسة الاحتواء تحقيقه ، ستتعجل استراتيجية التحرر . وعندما شدت فترة ترومان الرئاسية الرحال ، أمست سياسة الاحتواء خطاً فاصلاً بين أولئك الذين يعدونها محاربة كثيراً (اتباع والس) وأولئك الذين يرونها جد سلبية (الجمهوريون المحافظون) .

وتعجل هذا الجدل لأن الأزمات العالمية ، وكما تنبأ لها لبمان ، قد خطت على حين غرة صوب المناطق الطارفة من العالم ، حيث تلاطمت القضايا الأخلاقية وصعب اجلاء التهديدات المباشرة لأمن أميركا . وألفت أميركا نفسها وقد جرجرت الى بقاع لا تتمتع بحماية الأحلاف وفي مسعى لقضايا مبهمة ونتائج مبتورة . وأبقت المغامرات ، من كوريا الى فيتنام ، النقد الراديكالي نابضاً بالحياة ، بحيث دأب على استفسار الشرعية الأخلاقية للاحتواء .

وهكذا رسا على السطح ضرب آخر من الانعزالية الأميركية . وبالرغم من كل المآخذ ، اعتقدت أميركا القرن التاسع عشر نفسها منارة للحرية ، وفي الستينيات والسبعينيات من هذا القرن قيل أن لهيب المنارة قد شرع يرف وثمة حاجة لاسطاعه فينة أخرى قبيل أن ينقلب الأميركان الى دورهم التأريخي كالهام

لقضيـــة الحرية . وهكذا أمسى النقاش في قضيـة الاحتـواء صراعـاً لـروح أميركـا عينها .

وعندما تنفس عام ١٩٥٧ ، أعاد جورج كينان ترجمة الاحتـواء على هـذه الشاكلة فكتب :

[توجب علي أن أجيب أترابي ممن أكثروا السؤال حيال أفضل مكان لنا ان نمد أيدينا لـه ليقـف بوجه التهديد السوفيتي بقولي أنه حيث العيوب الأميركية ، واني تقبع أشياء نخجل أن نراها ، وحيث يكمن ما يقلق مضاجعنا ، وان نمد اليد لجتث جذر المشكلة القصرية ، أن نصل الى ثقافة وبيئة شبابنا والى الهوة التي ما برحت تفغر فاها بين المعرفة المتخصصه والادراك العام] .

وفي ما سبق من عقد ، وقبل أن يصاب كينان بخيبة بفعل ما خاله عسكرة من اختراعه ، اعترف بغياب مثل هذا الخيار . ان البلـد المطالب بكمال أخلاقي لنفسه كاختبار لسياسته الخارجية لن يحقق الكمال أو الأمن .

لقد كان الاحتواء نظرية استثنائية جمعت ما بين الجرأة والمثالية من جهو وبين عمق التقييم للنوايا السوفيتية وفي عين الوقت التجريدية في وصفها من الناحية الأخرى . وهي قد افترضت ، لأنها أميركية خالصة في طوبائيتها ، ان انهيار العدائية الطاغية يمكن تحقيقه بطريقة جد سليمة ورقيقة . فان كان هذا المذهب قد تمت صياغته في أوج القوة الأميركية ، نرى أن الاحتواء قد أوعظ بالضعف النسبي الأميركي . واذن كان الاحتواء بما جمع من هكذا خصال قد نطلع الى اميركا عبر أربعة عقود من البناء والنضال والنصر في نهاية المطاف . وبعد فان كبش الفداء لما

انطوى عليه الاحتواء من غموض قد طفق أخر الأمر وتجلى أنه ليس الشعوب التي ابتغى الأميركان الدفاع عنها بل هو الضمير الأميركي . فأميركا اذ قطعت نفسها أوصالاً بين مسعاها التقليدي لبلوغ الكمال المعنوي ستظهر ثانية ، وبعد جيل من النضال قد أوجعت نفسها بين ما بذلت من جهد جهيد وبين عداءاتها حتى وان نالت ما أرادت منه مكسباً .

الفصل الثالـــث

شـرك الاحتـواء : الحرب الكوريـة

لم تقفل الولايات المتحدة " بابنائها الى الوطن " من أوروبـا ، كمـا آنـس روزفلت هذا الأمر ، ومكثـت يـداً طولى في أوروبـا مشيدة اصرحـة المؤسسـات ومعدة البرامج كي تتدرع قبالـة الغـزو السـوفيتي ومسـلطة الضغـوط على منـاطق النفوذ الروسية ما وسعها ذلك .

وعملت سياسة الاحتواء ، ردحاً من ثلاث سنوات ، بمثلى ما صور لهـا أن تكون ، فمهد حلف الأطلسي حصناً عسكرياً ضد التوسع السوفيتي بينما عضـدت خطه المارشال من شأن أوروبا الغربية اقتصاديـاً واجتماعيـاً . وكبح التعـاون بـين اليونان وتركيا التهديد السوفيتي في شرقي البحر الأبيض المتوسط فيما أفصح جسـر برلين الجوي أن الديمقراطيات لمتأهبة على المجازفة بحـرب لمقاومـة المخـاطر المحدقـة بحقوقها الثابتة . لقد قدر للاتحاد السوفيتي ، في كل قضية ، ان ينكص على عقبيـه دونما مواجهة مع الولايات المتحدة .

بيد أن نظرية الاحتـواء ذات منحى رئيـس يبعـث القـادة الأميركـان على العمل وفقاً لفرضيتين غير صائبتين : أن تتواصل تحدياتهم كمـا كـانت جليه أبـان الحرب العالمية الثانية ، وأن يمكث الشيوعيون ، مصفودي الأيادي ، يترقبون انحلالاً لحكمهـم ، وذا أمر كشـفت نظريـة الاحتـواء عنه . لقـد خـابوا في اعتبـاراتهم

لامكانية مبادرة الشيوعيين في وقت ما على اصطفاء هـدف يتمتع بتعقـد سياسي واستراتيجي بالنسبة للولايات المتحدة .

وأنيطت سياسة الاحتواء بالكونغرس المتعـض ليحقـق مصلحـة أوروبـا . لقد أفضى الخوف من الغـزو السـوفيتي لحـوض البحـر المتوسـط الى تحقيـق برنـامج العمل اليوناني – التركي بينما نتـج عـن خطـر مهاجمـة الاتحـاد السـوفيتي لأوروبـا الغربية تأسيس منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) .

وكتب على الولايات المتحـدة ، في الخـامس والعشـرين مـن حزيـران عـام ١٩٥٠ ، أن تعي ملابسـات الاحتـواء عندما واجهـت اعتـداءً عسـكرياً شنـه الشيوعيون على منطقـة أعلنتها واشنطن خارج محيط دفاع أميركا وسـحبت منهـا كل قطعاتها قبل عام . كان المعتدي كوريا الشمالية والضحية كوريـا الجنوبيـة – الكائنتين في موقع استراتيجي هـام بقـرب أوروبـا ، كمـا تـراه أميركـا . وعقيـب هجوم كوريا الشمالية بأيام قلائل ، حشد الرئيس ترومان حملة على عجل تنضوي تحت لواءها قواته البئيسة الاعداد في اليابان كي تقوم باسـتراتيجية دفـاع داخلـي ، الأمر الذي لم يشهده التخطيط الأميركي قط ولم يقترح في شهادات الكونغـرس . ان عقيدة أميركا الاستراتيجية والسياسية ، فترة ما بعد الحـرب ، قـد تغـاضت عـن امكانية هذا الضرب من الاعتـــداء .

لقد أرسى قادة أميركا ملامح علتين مرجحتـين للحـرب : هجـوم سـوفيتي خاطـــف علـــى الولايـــات المتحدة أو احتلال الجيش الأحمر لأوروبـا الغربيـة ،

وبنص " خطط الأمن القومي " التي صادق عليها الجنرال عمر ن. برادلي ، رئيس هيئة اركان الجيش عام ١٩٤٨ :

[ينبغي لنا أن نضع في الاعتبار امكانية رزح الولايات المتحدة لهجوم جوي منذ البداية ..... فالامكانية واليسر تتعاظمان كل يوم ..... وعلينا الان تأمين قواعد ربما يقدم منها العدو على مهاجمتنا ، ثم ننطلق بهجومنا المقابل فوراً ... بتفوق جوي ..... ولكي نحقق ضرباتنا المقابلة فاننا بحاجة لقواعد لم نشيدها بعد . ان الخطوة على هذه القواعد يلبي عنصراً من متطلبات القتال العسكري] .

لقد خاب برادلي في توضيح أني و لم سيسعى الاتحاد السوفيتي على احتذاء مثل هذه الاستراتيجية ردحاً من ثلاث سنوات غداة حرب مستنزفة ، ولما تتمتع الولايات المتحدة بالاحتكار الذري في حين ليست لروسيا قدرة جوية طويلة الأمد .

لم يتوقع صاغة السياسة في موسكو وبيونغيانغ ، عاصمة كوريا الشمالية ، في سلوك أميركا أكثر من الاحتجاج الدبلوماسي ولما تتخطى قطعات كوريا الشمالية الخط الثامن والثلاثين . ويقيناً أنهم أخذوا على حين غرة ، بمثلى ما فاجأهم صدام حسين فاضطروا ، أواخر ثمانينيات هذا القرن ، الى التحول من سياسة الترضية الى الانتشار الهائل في الخليج العربي عام ١٩٩٠ . لقد وضع الشيوعيون في موسكو وبيغونغيانغ نصب أعينهم الأهمية السطحية لتصريحات القياديين الأميركان ، التي تبوأ كوريا خارج محيطها الدفاعي . وخالوا أن أميركا

لن تجابه الاحتلال الشيوعي لنصف كوريا غداة ما أذعنت للنصر الشيوعي في الصين الظافر بغنيمة أعظم عند المقارنة بينهما . ويقيناً أنهم قد فشلوا في معرفة أن الاعلانات الأميركية المتكررة لمجابهة الاعتداء الشيوعي ، كالتزام أخلاقي ، يتبطن ثقلاً أعظم بالنسبة لصاغة السياسة الأميركية مما للتحليل الاستراتيجي .

وهكذا كانت الحرب الكورية مخاضاً للبس مزدوج : عدم عثور الشيوعيين ، ولما يحللوا المنطقة على أساس المصالح الأميركية ، لأية ذريعة تقاوم بدعواها الولايات المتحدة في قمة شبه جزيرة ، بعدما قدمت أعظم أراضي آسيا الى الشيوعيين . وتصوروا أن أميركا ، الشاعرة بالتهديد مبدئياً ، لن تكترث لأهمية كوريا الجيوسياسية - كما أسقطها القادة الأميركان من حساباتهم - بنحو أضعف مما لو عنى الأمر آية بمرور الاعتداء الشيوعي دونما اعتراض .

وتناقض قرار ترومان الباسل ، في اتخاذ خطوة في مسألة كوريا ، بشكل صارخ مع ما جهر به قادة أميركا قبل عام . لقد أقعد الجنرال دوغلاس مارك آرثر ، قائد القوات الأميركية في الباسفيك ، موقع كوريا خارج محيط الدفاع الأميركي وذكر في مقابلة صحفية في آذار عام ١٩٤٩ :

[يستوعب خطنا الدفاعي سلسلة جزر على شفا ساحل آسيا . ويبدأ من الفلبين ويستمر عبر رياكيو ارشبيلاغو ، بما فيها معقل اوكيناوا . ويلتف حول اليابان جزيرة اليوتيان حتى الاسكا] .

ومضى وزير الخارجية ، دين اشيسون ، الى أبعد من ذلك ، في خطاب له في منتدى الصحافة الأميركية في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٩٥٠ . فهو

لم ينف وقوع كوريا خارج محيط الدفاع الأميركي حسب ، بل أثبت أن الولايات المتحدة غير عازمة على حماية المناطق الكائنة في أراضي آسيا :

[اذا ما تطرقنا لمتعلقات الأمن العسكري في مناطق الباسفيك الأخرى ، ينبغي الافصاح ان ما من شخص يحمي هذه المناطق قبالة الاعتداء العسكري ، وهذه الحماية ، من جانب ، مدروكة بشق الأنفس ولا تتمتع بأيما أهمية في واقع العلاقة العملية] .

وفي عام ١٩٤٩ عمل الرئيس ترومان بنصيحة هيئة الأركان المشتركة فسحب كل القطعات الأميركية من كوريا . كان جيش كوريا الجنوبية بئيس الأعداد والتجهيز ، على نحو أفضل من وظائف الشرطة ، لخشية واشنطن أن يقدم هذا الشطر على توحيد البلاد لو تسخرت في يديه أيسر السبل لذلك .

ويقول خروشوف في مذكراته أن غزو كوريا كان من بنات أفكار كيم أيل ، دكتاتور كوريا الشمالية . وشايع ستالين ، المتوجس خيفة أول الأمر ، هذه الخطه ليقينه بظفرها اليسير . لقد فشلت موسكو وبيونغيانغ في فهم دور المبادىء الأميركية عن العلاقات الدولية . وعندما تحدث (ماك آرثر) و (آتشسون) عن الاستراتيجية الأميركية ، عنيا حرباً عامةً مع الاتحاد السوفيتي ، ذلك الضرب من الحرب الذي لن يتممه القادة الأميركان ، بشكل منسق ، أبد الدهر . وستكون كوريا ، اذا ما اضرمت هذه الحرب الطاحنة ، خارج محيط الدفاع الأميركية وتدور رحى المعارك في بقعة ما .

وفي الحقيقة لم يفكر القادة الأميركان قط أنى سيردوا لو وجّه اعتداء ما صوب كوريا ، أو لأية منطقة أخرى مناظرة . وعندما أقسروا على مواجهة مثل هذا الموقف عقيب حصار برلين وانقلاب التشيك والنصر الشيوعي في الصين ، ترجموا الأمر أنه آية لزحف الشيوعية ويجب كبح جماحها على أساس المبدأ أعظم مما على أساس الاستراتيجية .

ويتأطر قرار ترومان للمقاومة في كوريا جذوراً صلدة أيضاً بالنسبة للمفاهيم التقليدية الخاصة بالمصلحة الوطنية . لقد كانت الشيوعية التوسعية تصعد تحديها في كل حول لما بعد الحرب وحظيت موطيء قدم لها في شرقي أوروبا ، عام ١٩٤٥ ، كمخاض لاحتلال الجيش الأحمر . وخيمت على تشيكوسلوفاكيا بباعث من الانقلاب الداخلي عام ١٩٤٨ واستولت على الصين في الحرب الأهلية عام ١٩٤٩ . ولو استطاعت الجيوش الشيوعية الزحف عبر الحدود المعترف بها دولياً ، سيعود العالم سيرة ظروف فترة ما قبل الحرب . كان على الجيل الذي حيا ردح ميونخ أن يدلي برد فعله ، فالاحتلال الناجح لكوريا سيؤثر ، أيما أثر مهلك في اليابان ، عبر البحر الياباني الضيق تماماً . ولم تني اليابان تعتبر كوريا مفتاحاً استراتيجياً الى شمالي شرق آسيا . ان السيطرة الشيوعية المتحررة ستنجب شبح الصرح الاسيوي الشيوعي وتقوض ميول اليابان الى الغرب .

وقلة قليلة من القرارات السياسية أشق من ارتجال الأعمال العسكرية التي لم يتم التكهن بها قط . لقد كان ترومان سيد الموقف فأمر القوات الجوية والبحرية بالعمل ، في السابع والعشرين من حزيران وبعيد بضعة أيام من احتياز قطعات كوريا الشمالية الخط الثامن والثلاثين .

ويسر العناد السوفيتي مهمة ترومان في سوق شعبه للحرب حيث كان السفير السوفيتي في الأمم المتحدة مقاطعاً لمجلس الأمن ومؤسسات الأمم المتحدة الأخرى ردحاً من شهور احتجاجاً على رفض هذه المنظمة العالمية ايهاب المقعد الصيني الى بكين . فلو كان السفير السوفيتي مطمئناً من ناحية ستالين ، أو قادراً على حظوة التعليمات بشكل أسرع ، لأقدم موكداً على نقض قرار مجلس الأمن ، الذي اقترحته الولايات المتحدة ، والمطالب كوريا الشمالية بالاجهاز على العداءات والعودة سيرة الخط الثامن والثلاثين . لقد هيأ السفير السوفيتي ، بعزوفة عن حضور الجلسة وعدم الالقاء بصوته في الاقتراع ، الفرصة للرئيس ترومان على تنظيم المقاومة ، كقرار المجتمع العالمي ، وتبرير دور أميركا في كوريا باسلوب يتناغم مع صيغ ولسون عن الحربة المتناحرة مع الدكتاتورية وصراع الخير ضد الشر . وأفصح ترومان أن أميركا ستركب الحرب لتصون قوانين مجلس الأمن وتحول دون أي اعتداء على حرية العالم بأكملها ، وليست تتدخل في صراع داخلي قصي :

[ان الهجوم على كوريا ليقطع أدنى دابر للشك باليقين أن الشيوعية قد تخطت كثيراً تسخير الفتنة لاحتلال الأمم المستقلة وستشهر الآن الغزو المسلح والحرب . لقد تحدت قوانين مجلس الأمن والأمم المتحدة ، الهادفة لاستتباب الأمن والسلام العالمي] .

لقد راق الرئيس ترومان ، بالرغم من مسوغاته الجيوسياسية الراغبة بقوة لصالح التدخل في كوريا ، الى شعب أميركا على أساس صميم قيمهم ووصف هذا التخل ذوداً عن حمى المبدأ العالمي لا عن مصالح أميركا الوطنية :

[ان العودة الى حكم القوة في شؤون العالم لذو أثار قاصية المدى وستواصل الولايات المتحدة سعيها في ترسيخ أركان حكم القانون . ان أميركا لتحمي المبدأ وليس المصالح ، والقانون لا القوة ، فكان هذا عقيدة أميركا المقدسة ولمّا تسيّر قواتها العسكرية في التزامات ما ، منذ عهد الحربين العالميتين وأبان تصعيد المساهمة في فيتنام عام ١٩٦٥ وفي الخليج العربي عام ١٩٩١] .

وعندما أثيرت القضية بانها تخطت سياسة القوة ، غدا من العسير تماماً ارساء معالم مرامي الحرب العملية . ان مبغى أية حرب عامة ، كما ترسمها عقيدة أميركا الاستراتيجية ، هو الظفر الكامل والاستسلام غير المشروط للعدو ، كما حصل في الحرب العالمية الثانية . ولكن ما هو المرمى السياسي للحرب المحددة ؟ ان الهدف الأبسط والأوسع يتجسد بالتطبيق الحرفي لقرارات مجلس الأمن – دفع قوات كوريا الشمالية الى ما وراء نقطة الشروع للخط الثامن والثلاثين . ولكن اذا ما تحرر المعتدي من أية عقوبة ، فأنى سيردع الاعتداء مستقبلاً ؟ واذا ما عرف الغاشمون الأشداء أنهم لم يأتوا أمراً سيئاً أكثر من الواقع الراهن ، ستستحيل سياسة الاحتواء ضرباً من التقدم الآبد من الحروب المحددة التي تستنزف قوة أميركا – تماماً بمثل ما تكهن لبمان .

ومن ناحية أخرى ، أي طراز من العقوبات يتوائم مع الالتزام بحرب محدوده ؟ لقد تأصل في استراتيجية الحروب المحدوده للقوى العظمى – بنحو مباشر أو غير مباشر – القدرة البدنية لكل طرف على اثارة الأخطار : وهذا ما يعرفها كقوى عظمى . وثمة توازن ينبغي اقامته بينهما ويقنع كل جانب مقابله على قيادة

دفة خطر أعظم له الظفر . تدبر ستالين في أوروبا ، بخلاف أيما تحليل منطقي لعلاقة القوى ، مخادعة الديمقراطيات على أن تأهبه قد تخطى استعداداتهم . وعاضد الجانب الشيوعي ، في آسيا ، الخطر البازغ من الصين . الذي امتطى صهوته الشيوعيون القادرون على توجيه الأخطار من دون المساهمة المباشرة للاتحاد السوفيتي . لذلك توجست الديمقراطيات خيفة من تصعيد الأمور أكثر من خصومها – أو كما آمن الديمقراطيون ، في أقل صورة .

وكان ثمة عامل آخر يحرج سياسة أميركا في التزامها للمفاهيم المتعددة بطريق الأمم المتحدة . لقد حظيت الولايات المتحدة ، عندما قرعت الحرب الكورية أولى طبولها ، بالمساعدة الواسعة من لدن دول الناتو ، كبريطانيا العظمى وتركيا ، اللتين أرسلتا رفداً كبيراً من الجنود . وساندت هاتان الدولتان ، غير الآبهتين لمآل كوريا ، مبدأ الأمن الجماعي بحيث أنهما ربما تستغيثان أمراً لخاصة دفاعاتهم بعدئذ . وعندما تحقق هذا الغرض ، أمست أغلبية أعضاء الجمعية العمومية ، التابعة للأمم المتحدة ، أقل شوقاً لتوجيه مخاطر أخرى تتأصل عندما تفرض عقوبات اضافية . لذا الفت أميركا أنها بازاء حرب محددة دونما أي مبدأ وانها لتذود عن بلد قاص لا يمت لها بأهمية استراتيجية . لقد استشعرت ، وقد أحاق بها التناقض ، ان شبه جزيرة كوريا لا تنعم بأيما منفعة استراتيجية وطنية فأوضحت أن مرماها الأول معاقبة المعتدي . وصبت اميركا الى اعلام هذه الدول ، خاصة الاتحاد السوفيتي والصين ، على قدرتها التي تصعدها وتحدد مراميها ، ولما تنقد من كوريا الشمالية الثمن دونما اضرام حرب شاملة .

ومن سوء الحظ أن نظرية الاحتواء ، الاسم الشاغل لأميركا ، قد أتت سحرها المناقض تماماً : فقد فتنت ترومان وزملائه لتوسيع رقعة المعركة السياسية . لقد آمن أفراد ادارة ترومان ، دون استثناء ، بطراز العالم الشيوعي واستطبوا الاعتداء الكوري كخطوة بكر لاستراتيجية سوفيتية – صينية قد تكون ذريعة لهجوم عام . وسعت القطعات الأميركية ، حال بثها في كوريا ، لاقتفاء السبل التي تؤدي الى اصرار أميركا على مقاومة الاعتداء الشيوعي في كافة أرجاء الباسفيك . لقد زاوجوا بين بعثة القطعات مع أمر للأسطول السابع على حماية تايوان ضد أي تعرض من جانب الصين الشيوعية :

[ان رزوح فورموزا صريعة لاحتلال القوات الشيوعية سيوجه خطراً مباشراً لأمن منطقة الباسفيك ولقوات الولايات المتحدة التي تؤدي مهماتها القانونية والضرورية في تلك المنطقة] . وعلاوة لذلك ، شدد ترومان من مؤازرته العسكرية الى القوات الفرنسية المجابهة لصراع الاستقلال الذي تقوده الشيوعية في فيتنام .

كانت اعلانات ترومان ، بالنسبة لماو تسيتونغ ، الراسي من نصر في حرب الصين الأهلية ، موجهة كاطلالة لصورة مرآة القلق الأميركي عن مآمرة شيوعية : وترجمها كوثبه أولى للمسعى الأميركي على قلب النصر الشيوعي في حرب الصين الأهلية عاليه سافله . كان ترومان ، ولما يذود عن تايوان ، يعين ما تراه أميركا حكومة الصين الشرعية في حين لاح برنامج المساعدة العاجلة الى فيتنام ، بالنسبة لبكين ، فخاً رأسمالياً . وهيأت كل هذه الأمور الباعث لبكين كي تقدم على ما يناقض تماماً رغبة أميركا : كان لماو السبب على الاعتقاد أنه سيحارب أميركا في

أراضي الصين ، لو لم يكبحها في كوريا ، ولم يدر في خلده أيما خيار آخر ٠ وذكر الى البيلز ديلي :

[تود أميركا الامبريالية ، بكل رجاء ، ان اعتداءها المسلح على تايوان سيحول دون تحريرنا لها ٠ وتتمحيط الصين ، بشكل خاص ، لنوايا الحصار الذي يودون ضربه بهيئة أفعى متمططة ٠ انها تزحف أولا من كوريا الجنوبية فاليابان ، فجزر ريوكيو ، فتايوان والفلبين ، ثم تيمم صوب فيتنام] ٠

أفضت استراتيجية أميركا العسكرية الى اغفال الصين عن مرامي أميركا ، حيث الفى القادة الأميركان ، كما أسلفنا ، الدبلوماسية والاستراتيجية ، نشاطين منفصلين ٠ وفي بؤرة العدسة العسكرية الأميركية التقليدية ، ترى الأولى تحقيقاً للنتيجة ، فيتبوأ بعدها الدبلوماسيون محلاتهم ، ولا تأسر قط غيرها بالسبيل الذي تطرقه لتحقيق مراميها ٠ واذا ما توحدت المرامي السياسية والعسكرية في الحرب المحدودة ، ثمة خطر مستديم من استغراق الأمر طويلاً ، أو قصره كثيراً ٠ ان العمل المفرط والاذن لهيمنة العنصر العسكري سيسحت الخط الفاصل للحرب الشاملة ويفتن الخصم على اثارة الأخطار ٠ وسيحيق العمل المحدد والجانب الدبلوماسي المهيمن بخطر غور غرض الحرب في أساليب المفاوضات ، والنزعة لحسم الأمور وفقاً لتأزلها ٠

لقد تفخخت أميركا ، في كوريا ، بالشركين كليهما ، فالحملة الأميركية العسكرية ، بواكر أيام الحرب ، قد رسم لها تطويق مرفأ مدينة بوازن ، أعلى القمة الجنوبية لشبه جزيرة كوريا ٠ كان البقاء الهدف الأول لقادة أميركا ، ولم يدر

بخلدهم الصلة بين الحرب والدبلوماسية ٠ تولى الجنرال الأميركي دوغلاس ماك ارثر ، الطراز الأكثر موهبة لهذا القرن ، زمام القيادة وخالف كثيراً من زملائه عندما مقت استراتيجية أميركا الاستنزافية ٠ لقد طور أبان الحرب العالمية الثانية ، وبرغم منح الأولوية للمسرح الأوروبي ، استراتيجية " وثبة الجزيرة " التي أعرضت عن مكامن القوة اليابانية فكثفت جهودها على الجزر الهزيلة التحصين ، مجلبة القوات الأميركية من استراليا صوب الفلبين ، في خضم عامين ٠

وضع ماك آرثر قيد التنفيذ الاستراتيجية عينها فأنزل القوات الأميركية ، بخلاف نصيحة رؤوسائه الهراطقة في واشنطن ، في انكون (ميناء سيئول) على مبعدة نحو من مئتي ميل خلف خطوط العدو ، فقطع بذلك خط الامداد الكوري الشمالي مع بيونغيانغ ٠ لقد خر الجيش الكوري الشمالي صريعاً وانفتح الطريق شمالاً ٠

وربما أفضى النصر الى أحسم قرارات كوريا الشمالية ٠ فلو قدر لأميركا أن تعانق مراميها العسكرية بأهدافها السياسية ، لكان هذا الوقت أيسرها ٠ كان أمام ترومان ثلاثة خيارات : يأمر بالتوقف على مشارف الخط الثامن والثلاثين ويعيد الحالة الاجتماعية سيرتها الأولى ٠ وبوسعه ، ثانياً ، أن يزحف قدماً في الشمال لاستقطاع العقوبة من المعتدي ٠ وبمقدوره أن يخول ماك آرثر توحيد كوريا مع حدود الصين : وبعبارة أخرى ، أن ينذر مآل الحرب لتقرره الاعتبارات العسكرية ٠ وأفضل الحلول في التقدم صوب الرقبة الضيقة لشبه جزيرة كوريا ، على مبعدة مائة ميل من حدود الصين ٠ وسيكون هذا خطا محصنا سيما انه

يستوعب ٩٠٪ من سكان شبه الجزيرة والعاصمة الشمالية ، بيونغيانغ ، ويحقق ظفراً سياسياً عظيماً دونما تهديد الصين .

وبالرغم من تمتع ماك آرثر باستراتيجية رائعة ، كان محللاً سياسياً ضيق الأفق فتجاهل الذكرى الصينية التاريخية لاحتلال اليابان لمنشوريا ، التي طرقت السبيل ذاته في كوريا ، وأكد على التقدم صوب الحدود الصينية في نهر يالو . وطاب الأمر لترومان ، الذي أغشاه نجاح قائده العظيم في انشون فتخلى عن الحل الوسط بين السيرة الأولى والنصر الكامل ، عازفاً بذلك عن النوافع الجغرافية والديمغرافية للرقبة الضيقة لشبه جزيرة كوريا . لقد قايض خط الدفاع ذا المائة الميل والواقع في مسافة كبيرة من الحدود الصينية لقاء ضرورة حماية جبهة تمتد بعرض أربعمئة ميل تردف تماماً مراكز التجمعات الرئيسة لقوه الصين الشيوعية .

لم يكن القرار بيسير على الصين للوقوف بوجه أعظم قوة كونية بعد أن أصابها الدمار ، ما أصابها ، وأهلكها الغزو الياباني والحرب الأهلية خسائر هائلة . وسيظل الأمر مبهماً ، ريثما تفشى الوثائق الصينية ، عن مدى تدخل ماو عندما مرقت القطعات الأميركيه من الخط الثامن والثلاثين ، بصرف النظر عن محدودية تقدمه أو وجهته الشمالية المأذون له بالزحف صوبها . ولكن فن السياسة يتجسد من خلق احصاء للاخطار وثمارها بحيث تؤثر في تكهنات الخصم . وأحد السبل المؤثرة في قرار التدخل الصيني يتطلب كبحاً للزحف الأميركي في العنق الضيق لشبه جزيرة كورياً وعرض نزع لسلاح لما تبقى من البلد بصيغة من السيطرة الدولية .

استشعرت واشنطن سبيلها في هذا المنحى ولما تأمر ماك آرثر الاّ يقرب نهر يالو بقوات غير كورية . بيد أن هذا الأمر قد ترجمته بكين كاقتراح سياسي ولم يعلن عنه قط . وعلى أية حال تجاهل ماك آرثر الأمر لأنه " غير عملي " ولم تصر واشنطن ، الدائبة الاّ تخمن كرة أخرى ما يراه قائدها الميداني ، على تحقيق هذا الأمر . لقد حقق نجاحاً في انشون قل نظيره بحيث خال أكثر من نصف قادة أميركا السياسيين أنه يفقه أسيا بنحو أعظم منهم .

وعندما ضرب جيش الصين الشعبي ضربته الأولى ، أصاب الدهشة المفاجئة الانسحاب الأميركي المذعور من يالو صوب جنوبي سيئول ، التي تم اخلائها فنية أخرى في أمد ستة أشهر . لقد بعث هذا المأزق ادارة ترومان دون سيطرة على المرامي السياسية وخالية الوفاض من عقيدة حرب محدودة . وقدر للمرامي السياسية ، المتكأة على تخلخل الحرب ، أن تكبح الاعتداء ، وتوحد كوريا ، وتستتب أمن قوات الأمم المتحدة ، وتضمن وقف اطلاق النار على امتداد الخط الثامن والثلاثين ، وتحصر الحرب .

وعندما ولجت القوات البرية الأميركية الحرب في بواكر تموز عام ١٩٥٠ ، حدد المرمى بـ " درأ الاعتداء " بالرغم من تبهيم الأمر دون وهبه معنى ملموس . وعندما وطئت القوات الأميركية انكون في ايلول وانهار جيش كوريا الشمالية ، غدا المرمى " التوحيد " . وأعلى ترومان هذا الأمر ، في السابع عشر من تشرين الأول ، من دون ان يطرح اطار عمل للتعرف مع الصين . ولم تتخط قط اتصالات ترومان مع بكين مجرد اكرار للبيانات الموعظة عن صنيع المعروف ، التي كانت جوهر قصيد ماو . وذكر ترومان ، ولما يأمر بالزحف شمالاً :

[ان مرمانا الوحيد يتمثل باقامة السلام والاستقلال في كوريا وستمكث قطعاتنا هنا بقدر ما ترى الأمم المتحدة ضرورة لهذا المسعى · اننا لا نسعى لامتياز اقليمي أو خاص في كوريا وليس لنا نوايا عدائية معها أو في كل بقاع الشرق الأقصى أو دول المعمورة] ·

لم يثتمن ماو لمثل هذه التأكيدات من خصمه الرأسمالي الألد ، الذائد عن أعدائه في تايوان · ولم يــرس ترومان ، في الوقت عينه ، معالم " النوايا العدائية " التي أفصح عنها ، أو أن يضرب موعداً لأنسحاب القطعات الأميركية من كوريا الشمالية · وكان السبيل اليتيم أمام واشنطن لصرف ماو عن التدخل يتمثل باقتراح خلق منطقه حياد على امتداد الطرف الصيني · وهذا الأمر ما لم تقدم عليه ·

برهنت القوات الأميركية ، في الأشهر التوالي ، مركب الخطر العظيم الذي امتطاه قادة الصين ، وعاد عنصر المباغتة ونشر القطعات بالانتصارات الأوائل على امتداد يالو · وبدا جليا ، على حين غرة ، ان الجيش الصيني لا يتمتع بمقدار اطلاق ناري كي ينهال على مواضع أميركا المحصنة ، وأنه لن ينقب خطاً حصيناً على امتداد العنق الضيق لشبه جزيرة كوريا ، دون اللجوء على عنصر المباغتة · وعندما نظمت القوات الأميركية كرة أخرى ، برهن التطور الصيني أنه غير مناظر لمثل هذه القطعات ·

وحالما ولجت الصين الحرب ، تغيرت مرامي أميركا ، طوراً آخراً ، وهذه المرة عن بكرة أبيها في غضون أيام · وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني عام

١٩٥٠ شنت الصين هجومها المقابل فأصدر الرئيس ترومان ، في الثلاثين من الشهر ذاته ، بياناً هجر فيه التوحيد كمسعى للحرب وخلفه الى " المفاوضات التالية " · وعاود المفهوم الغامض " وقف الاعتداء " ليكون هدف أميركا الأول :

[ان قوات الأمم المتحدة في كوريا لتسعى الى اخماد العدوان الذي لا يهدد الهيكل الكامل لهذه المنظمة حسب ، بل حتى رجاءات البشرية في اقامة السلام والعدالة · فالأمم المتحدة لو خنعت للعدوان ، لن تتمتع أيما أمة بالأمان والطمأنينة] ·

ومع استهلالة كانون الثاني عام ١٩٥١ تقلدت الأيادي الشيوعية زمام الخط الجبهوي الذي يبعد خمسين ميلاً عن الخط الثامن والثلاثين وسيئول ، وكرر الصينيون وقتئذ ، ذات الهفوة التي ارتكبها ماك آرثر قبل ثلاثة أشهر · فلو قرر تسوية الأمر على امتداد الخط الثامن والثلاثين ، لسمحت واشنطن بذلك وحظيت الصين باقرار دحر قوات الأمم المتحدة بعد حول من ظفرها بالحرب الأهلية · وانساق ماو ، كترومان قبل ستة أشهر ، بنجاحاته الباهرة ورما لطرد الأميركان من شبه الجزيرة برمتها · لقد رزح لنكسة نكيسة ونقدت الصين خسائر فادحة عندما تعرضت للمواضع الأميركية المحصنة جنوبي سيئول ·

وفي نيسان عام ١٩٥١ ، انقلب مآل المعركة طوراً آخراً حيث عبرت القطعات الأميركية الخط الثامن والثلاثين للوهلة الثانية · وفي هذه المرة لم يتحور مصير المعركة حسب ، بل هدفت ادارة ترومان ، المصعوقة بصدمة التدخل الصيني ، الى تفادي ركوب الخطر ، كأولى مراميها ·

تبصر واشنطن في تقييمها للأخطار من بؤرة جمة الأوهام حيث وضعت في افتراضاتها كما أقدمت عليه بعد عقد من الزمان في فيتنام – انها قبالة نواة مؤامرة شيوعية قوية تسعى للسيطرة على العالم . فلو أرجأت موسكو نواياها ، ما كان بوسع كوريا أو الصين أن يلجا الحرب دون المعونة السوفيتية ، وآمنت واشنطن أن الكرملن لن يذعن للهزيمة وسيجهر بالسيرة الأولى كلما تعرض تابعوه للنكسة . ولربما تضرم الولايات المتحدة حرباً شاملة ، ولما تصب للحرب المحدودة ، فلا تظفر ، وقتئذ ، حتى بفوز الحرب المحدودة لأن الكتلة الشيوعية ستستقطع أيما ثمن مقابل الحفاظ على ماء الوجه من الخسارة .

ويتبطن الواقع أمراً جد متباين ، فستالين قد واكب الهجوم الكوري الشمالي بعد أن طمنه كم ايل سنغ بسلامة الموقف دون خطر حرب كبيرة . وشجع الصين على التدخل كي تعتمد ، أكبر الاعتماد ، على الاتحاد السوفيتي . وتكمن التعصبات الحقيقية للقضية في بكين وبيونغيانغ : ان حرب كوريا ليست مؤامرة من الكرملن لاستقطاب أميركا صوب آسيا بحيث تنطلق بهجومها على أوروبا . كان رادع الهجوم السوفيتي على أوروبا هو قيادة الجو الاستراتيجية ، التي لم توظب في حرب كوريا . واذا ما وهب ستالين بوناً في القوة النووية ، سيفقد الكثير في الحرب العامة بدرجة أعظم مما ستدفعه الولايات المتحدة . وتجلى أن ستالين قد ضن بمعونته الى الصين ، وطالب بنقد فوري لقاء المساعدات ، لينثر بذلك بذور الشقاق بين الصين والاتحاد السوفيتي .

آمن قادة أميركا باطلاعهم على مخاطر التصعيد ، لكنهم فشلوا في اعتبار عقوبات الأزمة ، وذكر الرئيس ترومان ، في نيسان عام ١٩٤١ :

[اننا نجابه اعتداءً غاشماً في كوريا ونسعى للحيلولة دون استفحال هذا الصراع خارج الثرى الكوري . وعلينا ، في الوقت عينه ، أن نوجه دفة نشاطاتنا العسكرية كي نؤمن سلامة قطعاتنا . وهذا الأمر ملح لها كي تدأب على مواصلة القتال ريثما يمسك العدو عن محاولته الطائشة للاجهاز على جمهورية كوريا] .

بيد أن القتال لتحقيق " سلامة قطعاتنا " ينطوي تفاهة ، لأن الحرب هي باعثة لأخطار السلامة . لقد أنجبت الاحباطات ضغوطاً من أجل النصر ، سيما أن ترومان لم يرسم أيما مبغى للحرب ما خلا حمل العدو على هجر مساعيه – وبعبارة أخرى العودة للسيرة الأولى في أفضل حل . لم يضع ماك آرثر نصب اعتباراته التمازق كمرمى مقصود وجاهد ، أيما جهاد بليغ ، للبرهنة أن خطر التصعيد قد تجذر عن الشروع بقرار التدخل ، ولا تكبحه قيود توجيه العمليات العسكرية . أن لن تزيد الاّ أمد الحرب ، كما أدلى ماك آرثر بشهادته عام ١٩٥١ :

[لقد سعيت الى الحرب باقدامك ، فلك أن لا تقول " لتدر رحى الحرب أنى لها أن تدور فانا متأهب لحرب أخرى "] .

لقد تبنى ماك آرثر استراتيجية لدحر الجيوش الصينية ، في كوريا كأقل احتمال ، لأنه لم يذعن لرأي الادارة الأميركية الصابي الى قيادة حرب كوريا بطراز لا يهيأ للاتحاد السوفيتي الذريعة لشن حرب واسعة النطاق .

واستوعب اقتراح ماك آرثر " انذاراً نهائياً للصين على الجلوس الى طاولة المحاورات لوقف اطلاق النار في خضم ردح معقول في الزمن أو اعتبار اعمالها في

كوريا اعلان الحرب ضد الأمم التابعة في تلك المنطقة ، ومن حق هذه الأمم اتخاذ هذه الخطوات لبلوغ نتيجة ما . وحث ماك آرثر ، في أوقات متباينة على قصف قواعد منشوريا ومحاصرة الصين وتشديد ازر القطعات الأميركية في كوريا وتوجيه القوات الصينية الوطنية من تايوان صوب كوريا - متهيكلة على اعتبارات ماك آرثر " للسبيل الطبيعي " صوب سلام عادل ومشرف في أحين فرصة ممكنة تضمن أقل خسارة بالأرواح .

لقد تخطت الكثير من توصيات ماك آرثر حيز القائد الميداني فأزم الأمر باعلان حرب شاملة ضد جمهورية الصين الشعبية ولما يقود القوات الصينية الوطنية الى كوريا . فلو قدر للحرب الصينية الأهلية أن تطأ الثرى الكوري ، لن يقدر الجانب الصيني على وضع أوزارها قبيل تحقيق الظفر الكامل ولا أميركا التي ستعلق في صراع لا أمد له .

بيد أن بيت القصيد لا يتعلق كثيراً بكفاءة نصائح ماك آرثر الخاصة التي أثارها كقضية أساس : اكان ثمة خيار بين المأزق والحرب الشاملة ؟ لقد تناهى الجدل الى مسامع العامة عندما طرد ترومان ماك آرثر ، في الحادي عشر من نيسان عام ١٩٥١ ، لأنه لم يأنس أمامه أيما خيار غير قراره الشجاع في فصل علني لقائد غير مساعد . بيد أنه كتب على مصير استراتيجية أميركا أن تكون رهناً للخصم ، الذي في ملعبه كرة المبادرة ، فحور طوراً آخراً المرامي الأميركية . وعرّف " درأ العدوان " ، للوهلة الأولى ، بالوصول الى تسوية على امتداد خط وقف اطلاق النار القائم ، أيا كان مكمنه - وهكذا وهب الصينيين باعثاً آخراً

لتصعيد جهودهم العسكرية ليحظوا بأفضل خط ممكن : " ان السلام الحقيقي لا تنتهي اليه الا تسوية ينضوي تحت لواءها الأمور التالية :

أولاً : وجوب وقف القتال .

ثانياً : خطوات حقيقية لضمان عدم اندلاع القتال كرة أخرى .

ثالثاً : ينبغي رسم حد للعدوان .

لقد آلت وحدة كوريا ، مبغى الولايات المتحدة لما تصرم من ستة أشهر ، الى اقرار المستقبل لأن التسوية على هذه النقاط ستعبد الطريق لتوحيد كوريا وتقهقر كافة القوات الأجنبية .

واستقبل ماك آرثر بحفاوة تليق بالأبطال وحظي بكثير من جلسات الكونغرس العلنية . لقد جذر قضيته على ما وصفه بالعلاقة التقليدية بين السياسة الخارجية والاستراتيجية العسكرية :

[ان التعريف العام للحرب ، المتعارف عليه عقوداً عدداً ، انها مطاف أخير للسياسة لأن سبل السياسة ، اذا ما خابت ، ستشهر سلاح الحرب . انك لو أقدمت عليها سيغدو تحت الزمام العسكري توازن السيطرة ، وتوازن المفهوم ، والأهمية الأساسية الموجودة ، واللحظة التي تشرع بها فيها بالقتل ... وانني لأعلن شخصياً ، ودون جدال ، ان الرجال اذا ما حاقت بهم الحرب من كل حدب وصوب ، لن يعود ثمة حول للسياسة ، فهي تعيق ازلامك ، وتهزل من فرص الانتصار ، وتفاقم خسائرهم] .

ولماك أرثر الحق ، كل الحق ، عندما شهر بالتأزل كسياسة وطنية ٠ ومع ذلك ، بعث آرثر التقييدات السياسية أمراً تطاق عندما حاجج ضد طرح أيما مرامي سياسية ، حتى تلك التي تقتضى لتعضيد النصر الداخلي ٠ فلو أحجبت الدبلوماسية عن رسم غايات الحرب ، سيغدو كل صراع حرباً شاملة ، على نحو ذاتي ، بصرف النظر عن الأخطار والمآزق ، التي لا يزهدها عصر الأسلحة النووية ٠

وقصت ادارة ترومان بعيداً وجادلت ، بعد رفضها لبيانات ماك آرثر ، انها لا تأنس خياراً خلا استراتيجية التأزل ٠ وحدد الجنرال برادلي ، القائد الجديد لهيئة الأركان المشتركة ، ان امامه ثلاثة خيارات :

[أما التقهقر وهجرة كوريا الجنوبية ، أو السعي لمقاتلتها في حرب عامة بحيث لا نتكبد خسائر فادحة ، أو نسوق هؤلاء الناس الى خارج كوريا ٠ اننا نطرق السبيل الثاني ، في هذا الوقت] ٠

وتحث وثائق الاختيار في الحكومة الأميركية على حل وسط بين الخيارات الثلاثة ٠ وايقن الموظفون المطلعون ، بسبب سعي وزارة الخارجية على اقعاد بياناتها في مبوأ بين تصفيد أياديها والانخراط في حرب عامة ، ان معنويات مساعديهم ستتعزز لو طرقوا السبيل الأوسط ٠ فكان هذا شأو برادلي ، بالرغم من عبارة " القتال بشكل عام ... دون تكبد خسائر فادحة " كرر شرك السياسة المعدمة في أيما غايات جلية ٠

وأفصح (دين اشسون) ، بمفردات الدبلوماسية ، ان غاية أميركا في كوريا هي التأزل ، وثمة مرامي أخرى كانهاء الاعتداء والحيلولة دون اضطرامه كرة أخرى واستتباب السلام ٠ ومضى وزير الخارجية اشسون ، دون التعريف بهذه الشروط ، الى ازدراء فاعلية الاجراءات التي اقترحها ماك آرثر :

" ينبغي علينا ، تقابل المكاسب المشكوك فيها والمتأتية من نشر الحرب بتكتيك محدود في مستهله الى البر الرئيسي الصيني ، حساب مخاطر الحرب الشاملة ضد الصين ، مخاطر التدخل السوفيتي ، احتمالية تسوية حرب كونية ثانية بالاضافة الى التأثيرات الممكنة على وحدة تحالف العالم الحر " ٠

وان لم تجرؤ الولايات المتحدة على كسب الحرب ، أو تحمل عبء الفشل ، فأية خيارات أمامها ؟ لقد اقتضبت الجمل العامة الى عبارات محددة فكان المأزق في مسرح العمليات العسكرية ، وعلى طاولة المفاوضات أيضاً ٠ وخلص ترومان ، في مذكراته ، الى وجهات نظر مساعديه العسكريين والمدنيين :

[يرتبط كل قرار أقدمت عليه في مسألة كوريا بهدف واحد يجثم في خلدي : ان أحول دون حرب عالمية ثالثة ودون الدمار الذي تتأتى به للعالم المتحضر ، وهذا الأمر لا يعني أن نهيأ للاتحاد السوفيتي الذريعة وتخرط الأمم الحرة في حرب شاملة واسعة النطاق] ٠

وأفصح الظن بوقوف الاتحاد السوفيتي ، رابط الجأش ، لشن حرب عامة انعزالاً عظيماً في علاقات القوة الحقيقية لأن ستالين لم يسع لايجاد المسوغ لاضرام مثل هذه الحرب ، فهو الأشوق لدرأها ٠ ولو سعى لاقتفاء أيما حجة ، لألفى منها

الكثير في أوروبا أو في الأعمال العسكرية التي تطرأ في كوريا ، فلا عجب أن يمسك الاتحاد السوفييتي ، في كل مراحل الحرب ، عن التدخل أو المباشرة بعمل عسكري . وما كان لستالين ، الحذر المرتاب ، أن يقدم على مغامرة طائشة ، وتوخى الحيطة من ركوب قاطرة الحرب المخيفة مع الولايات المتحدة - بباعث طيب . وعندما تكافأ الطرفان قوة نووية ، كان الاتحاد السوفييتي الذي سينزع عنه كل ما يملك في الحرب العامة .

وما يثير العجب أن أعيان الادارة قد أكدوا وجهة النظر المناقضة حيث ادعى مارشال أن الولايات ستسلخ عامين أو ثلاثة أعوام لتتهيأ لحرب عامة . وحاجج برادلي " اننا في مبوأ لا يقدرنا على تلبية حرب كونية ، لأن كوريا ستبعثنا في حرب غير سليمة ، وفي زمان ومحل غير سليمين ، ومواجهة مع خصم ليس بعدونا " . ووهب اشسون جل اعتباراته لحاجة الوقت لمقتضى " لهيكلة القوة الرادعة الفعالة " .

ولكن علام ينبري القادة الأميركان ، ولما تشرق القدرة السوفيتية النووية ، الى الاعتقاد ان أهمية قوتهم الرادعة ، المتعاظمة مع سير الزمن ، لا تفسر الا آية أخرى للفرضيات الغريبة لنظرية الاحتواء - أي أن أميركا هزيلة ولما تحتكر الذرة وأن موقعها سيتحسن بينما يشيد الاتحاد السوفيتي صرح ترسانته النووية . كان ستالين قادراً على ردع الولايات المتحدة من محاولة النصر المحدود في كوريا بتوظيب تأثيره الخاص ومن دون أي تهديد .

وفي أعقاب التدخل الصيني ، لم تسبر أميركا قط خيار النصر المحدد و لم تجهز المسلمة الأساس لادارة ترومان ، أي أن المحاولة في أكثر من مأزق لمستحيلة أو محفوفة بخطر الحرب الشاملة ، على سعة الخيارات المتهيأة . ويمكن أن يبرم حل وسط - كما أدليت به سلفاً برسم خط فاصل على امتداد العنق الضيق لشبه الجزيرة ، وتجريد سائر البلاد من السلاح تحت اشراف دولي - وان يفرض مثل هذا الحل عن طرف واحد لوجوبه بالرفض . وليس للصين ، ربما ، الوسيلة التي تحول دون تحقيق هذا الأمر - كما خالها الجنرال ماثيو ردكوي ، خليفة ماك آرثر ، دون الافصاح عنها .

كان ماك آرثر محقاً ، تمام الحق ، عندما جادل " أن الصين توظب أقصى ما أوتيت من قدرة " . وسيقرر الاتحاد السوفييتي ، في ضوء اقتصاده الهزيل وتفوق أميركا النووي الهائل ، خطر الحرب العامة بعد الزحف الأميركي في المسافة النسبية بين الخط الثامن والثلاثين والعنق الضيق لشبه الجزيرة . ويقينا أن الصين الشامسة قد أمسكت عن القتال ولكنها تبنت موقفاً مهدداً في كل خط يتبوأه الأميركان . بيد أن الموقف لم يتباين كثيراً مع ما انجلى في نهاية المطاف عندما انفكت عن اثارة التهديدات وخيم على سياستها شبح الاعتداء السوفييتي فسبرت طريق الولايات المتحدة . ولو تكبد التهديد العسكري الشيوعي البكر ضد الولايات المتحدة نكسة جلية ، لأقدم المقاتلون الآخرون في المناطق الباقية كالهند الصينية على التحلي أكبر قدر من الحذر ، ولمنيت العلاقات بين الصين والسوفيت بصدع مبكر .

وفي ربيع عام ١٩٥١ شق هجوم أميركي جديد ، بقياده الجنرال ردغوي ، طريقه شمالاً ، حيث احتذت أميركا تكتيكياتها التقليدية في الاستنزاف . لقد حرر

هذا الهجوم سيئول والخط الثامن والثلاثين فاقترح الشيوعيون ، في حزيران عام ١٩٥١ ، مفاوضات الهدنة . ووقتئذ أمرت واشنطن تعليق العمل الهجومي وأن تخضع جميع العمليات العسكرية المنظمة لمصادقة القائد الأعلى – المبادرة التي خالتها ادارة ترومان تنقية لجو المفاوضات ولما تتيقن الصين أن أميركا لا تسعى للنصر .

ويصور هذا الأمر الايماءة الأميركية التقليدية بباعث في قناعة قادة أميركا أن السلام والخير حالتان طبيعيتان فسعوا الى تشجيع المفاوضات برفع البنود المقهرة والافصاح عن حسن النية من طرف واحد . وفي الحقيقة ، استأصلت الايماءات المفردة ، في أكثر المفاوضات ، لب القضية المتفاوضة ، اذ نادراً ما يدلي الدبلوماسيون عامة بالمنافع المعروضة – خاصة في عهد الحروب . ومثل هذا الضغط يبهت باعث الخصم على التفاوض جدية ، ويفتنه على تمطيط المفاوضات ليطلع على ايماءات فردية أخرى مقبلة .

وهذا ما حصل تماماً في كوريا حيث قدرت الصين ، بفعل التقييد الأميركي ، على وضع حد للعملية في وقت بركت جيوشها تحت سيادة أميركا التقنية والمادية . وهكذا تيسر للصين ، من دون خطر جسيم ، أن تصيب عملياتها العسكرية الخسائر وتهول احباطات أميركا والضغوط عليها لوضع اوزار الحرب . وأبان هذا الحدث ، حفر الشيوعيون لأنفسهم مواقع حصينة على امتداد المنطقة الجبلية المعزولة فأزالت ، رويداً رويداً ، التهديد الأميركي على استئناف العداوات . وأفضى هذا الأمر الى حرب استنزاف طويلة لم تضع أوزارها الا عندما سما التوازن مؤلماً بين تحديدات الصين الجسدية والكوابح النفسية الأميركية .

ومع ذلك كان ثمن التأزل خسائر أميركية أبان المفاوضات تخطت في محصلتها بمجمل التضحيات في الحرب الشاملة التي سبقتها .

خيم المأزق الذي سعى اليه الأميركان على المسرحين العسكري والدبلوماسي ووصف المراقب الرسمي البريطاني (بريغادير أ.ك. فيرغوسن) أثر المأزق العسكري على القطعات :

[يلوح لي أن المرمى المشهور لقوات الأمم المتحدة في كوريا ، الساعي " لدرأ العدوان واستتباب الأمن والسلام في المنطقة " لجد مبهم تحت طائلة الظروف الحالية ولما يهب قائد ميداني مطلق السيادة هدفاً عسكرياً ، ينبغي البلوغ اليه تقريباً للعداوات .... لقد طرح الكثير من الضباط الأميركان والبريطان ، وذوو المراتب الأخرى ، عدة أسئلة : الآم سيظل هذا الصراع في كوريا ؟ ومتى ستنسحب القوات الأميركية ؟ وما مبغانا في كوريا ؟ وتبدو لي مثل هذه الأسئلة آية أن القوات الأميركية والبريطانية ، اذا ما رسم لها هدف معين ، سيشق على القائد الميداني ، أبلغ المشقة ، في الابقاء على المعنويات] .

ودفعت الولايات المتحدة ، بعد اصطفائها لسبيل التأزل ، أول صدمة كبيرة لما بعد الحرب في اجماع سياستها الخارجية . كانت الحرب الكورية ، بالنسبة لماك آرثر ومساعديه ، احباطاً لأن حدودها المضروبة قد أصابت شركاً سياسياً وعسكرياً . أما بالنسبة لادارة ترومان ، فكانت كابوساً لانها أوسع بكثير من استيعاب الغايات السياسية ، وقاصرة جداً على مبدأها الاستراتيجي . سعى ماك آرثر الى الاعلان عن قضية كوريا ، حتى لو اقتضى الأمر ركوباً للحرب مع

الصين ، بينما آثرت ادارة ترومان ، كما نصت نظرية الاحتواء ، على تكثيف القوة الأميركية لمقاومة الثقل السوفيتي صوب أوروبا .

وهكذا كشفت الحرب الكورية عن مكامن قوة الاحتواء وحدودها ، واذا ما تفوهنا بمفردات السياسة التقليدية ، نرى أن كوريا اختبار تأريف الخطوط بين منطقتي النفوذ المتنازعتين وارساء معالمهما . بيد أن الأميركان قد خبروا الأمر من عدسة أخرى ، وأنسوه صراعاً بين الخير والشر وسعياً لتحقيق حرية العالم .

الفصل الرابع

التفاوض مع الشيوعيين : ادينير ، تشرشل وايزنهاور

أدلى ستالين في اذار عام ١٩٥٢ ، وقبيل اسدال الستار عن الحرب الكورية ، باقتراح دبلوماسي لتسوية الحرب الباردة ذي بواعث تناقضت تماماً مع تكهنات مؤسسي نظرية الاحتواء . وليس مرد مبادرة المتمذهب الماكر هو تحول النظام السوفيتي ، كما خالها الأميركان ، بل رام حماية النظام الشيوعي من سباق التسلح ، ولما يع أنه لن يستطيع له فوزاً . لقد بعثه جنون العظمة والماركسية مؤمناً أن أميركا لن تعبيء مثل هذه القوة الهائلة لمجرد الأهداف الدفاعية .

لم يذكر ستالين في عرضه اقامة النظام العالمي المتسق ، بل اراد الاجهاز على الظروف التي أفضت الى الحرب الباردة والاقرار المتبادل بشبح التفكير الأميركي المتمثل بمنطقتي نفوذ : احداهما أميركية في غربي أوروبا والأخرى سوفيتية في شرقي أوروبا بينما تنتصب بينهما المانيا موحدة ومسلحة وحيادية .

ويتجادل المؤرخون والقادة السياسيون ، منذئذ ، عما أتمثل خطوة ستالين مسعاً جدياً لحسم الحرب الباردة أم أنها مراوغة ماكرة لاستقطاب الديمقراطيات صوب طاولة المفاوضات ، الاستهلال بعينه لحجب المانيا من معاودة التسلح . ولكن أكان ستالين يفتن الغرب الى أعمال تضعف تآصرهم أم قصد قلب المواجهات العميقة الآبدة بين الشرق والغرب ، عاليها سافلها ؟

وربما جهل ستالين معرفة الآم هو متأهب كي يجسر الهوات مع الغرب ٠ وفي الحقيقة ناقضت عروضه ، التي رحبت بها الديمقراطيات أجل الترحيب قبل أربعة أعوام ، مع سلوكه أبان هذه الفترات حيث أمسى من العجز تقريباً اختبار مصداقيته ٠ ومهما تكن غاياته ، أضنى اختبارها كثيراً لحمة حلف الأطلسي فابعد بذلك الباعث الذي حمل على الادلاء بهذا العرض في المقام الأول ٠

وفي كل الأحوال ، أغفل المحسّب الماكر عاملاً حاسماً : الاّ وهو وفاته ، ففي السنة التي أعقبت اقتراحه ، حضرت المنية ستالين ولم يتمتع خلفائه الازماع على مواصلة مفاوضات شاملة وليس لهم السلطة لانتزاع امتيازات ساحقة تقتضي جهداً لتحقيقها ٠ وفي نهاية المطاف اكتمل مقترح السلام كحدث مؤلم ينم ، قبل كل شيء ، عن البديهيات المتباينة عظيماً والتي حفزت طرفي النزاع في الحرب الباردة ٠

انتظرت أميركا ، المهتدية بافتراض ان الالتزامات القانونية تخلق دافعهم ، ريثما يشرع ستالين بوضع اتفاقيات يالطا وبوتسدام حيز التنفيذ ٠ وتريث ستالين ، الذي لا يرى الاتفاقية ملزمة الاّ اذا عكست توازن القوى ، الى الوقت الذي تصر فيه الديمقراطيات على حقوقها بنمط يقدره على تحليل الأخطار وما تدر عليه الاتفاقية ٠ وحتى ذلك الوقت ، سيوظب وقته لاستجماع ما أمكنه من أوراق مساومة تأهباً لخطوة حقيقية - أو ما اعتبرها تقدماً مادياً من جانب الديمقراطيات ٠

ولاحت مثل هذه الفرصة مع استهلالة الخمسينيات بعدما شرعت الولايات المتحدة بخطة المارشال عام ١٩٤٧ ومنظمة حلف شمال الأطلسي عام ١٩٤٩ وأمست جمهورية المانيا الفيدرالية تحت رعاية الغرب ٠ رد ستالين بقسوه أول الأمر ، كما طرأ غداة حصار برلين وانقلاب التشيك وتأييده لغزو كوريا ٠ ومع ذلك ظفرت الولايات المتحدة بارساء مدار نفوذ ينضوي تحت لواءه كافة أمم البسيطة ، ذات التطور الصناعي ٠

تدبر ستالين ، من جانبه ، تشييد حزام أمني في أوروبا الشرقية ، الانجاز الذي سما الى وهن واهن ٠ لقد خبر القوة بنحو أفضل من قادة الديمقراطيات ، وان ما كسبه ليس بذي تحرش قوة حقيقي ، لأن الدول التابعة ستستنضب كافة موارد الاتحاد السوفيتي ٠ وبخلاف ذلك ، مثلت دول الناتو واليابان مدخراً صناعياً شديد البأس واستمالت التيارات الطويلة الأمد ، التي دله بها المحللون الماركسيون مدار النفوذ الأميركي ٠ لقد أمست امبراطورية ستالين ، بلغة السياسة الواقعية ، في شرك غائر ٠

وجاهد الفريق الذي تقوده أميركا جهاده العسكري لكي يدلو دلوه في حرب كوريا بعدما طور قدرة عسكرية هائلة ٠ وأدرك ستالين ان تهديداته الى آصرة الديمقراطيات قد ردت على أعقابها وأن سياسته القاسية الظالمة في شرقي أوروبا قد شددت ازر التوحد في الائتلاف الغربي وجلبت المانيا مرة أخرى الى المسرح ٠

وتحول العالم المتناغم ، الذي صوره الفكر الأميركي ابان الحرب ، الى معسكرين مسلحين انساق كل حزب منهم بالمخاوف التي أمست واهية ٠ وخبر القادة الأميركان في حرب كوريا الاستراتيجية السوفيتية الرامية الى اغواءها في التناحرات الاسيوية القاصية كي يتسنى للسوفيت هجومهم على موقع التحالف الأوروبي ، كما صور الأمر الافراط الفاحش للقوة السوفيتية وطرائق ستالين ٠ و لم يقذف هذا المحلل الداهية المتبصر ، في فترة حكمه ، كل الأمور في نرد واحد ٠ وفي الوقت عينه ، اعرب ستالين ان بناء الغرب ليس بخطوة دفاعية تتبطن في جوهرها العذر لمكاشفة تكهن بها هو وجاهد ، أشد الجهاد ، كي لا يقع في حبالها ٠ وفي الحقيقة تأهب الطرفان الى ما تحاشاه كلاهما - تحد شامل مباشر ٠

وما كان ستالين متأهباً للتمعن في لب الكابوس ، لأنه آثر الانتكاص على عقبيه بشكل أو بآخر كلما المت به امكانية للمواجهة العسكرية مع أميركا ٠ وأقدم على هذا الأمر عندما طالبه ترومان بسحب القطعات السوفيتية من اذربيجان الايرانية عام ١٩٤٦ وانهاء حصار برلين عامي ١٩٤٨-١٩٤٩ قبيل ان يستحيل حرباً تطلق فيها النيران ٠ وانبرى وقتئذ مجاهداً ، أعظم الجهاد ، ليعرض عن مواجهة أوقعها هو ، مأرخاً تغييراً دان في منحى أحد بياناته الاهليجية ، التي دأب عليها ٠

كان مأتى ستالين ، في هذه القضية ، متبلداً بنحو خاص ، لأنه لم يشأ اجلاء أدنى بصيص من الضعف الى خصم يجذر سياسته على أساسات من القوة ٠ وصبا الى التعبير عن المواجهة دون الظهور بمبوأ المتذمر منها ٠ وصورت وجهة نظر ستالين المتذرعة في كتاب نظري جداً الفه الاقتصادي يفجيني فارغا وأعيدت

طبعاته عدة مرات وحث المؤلف ان الأنظمة الرأسمالية لاحت مترسخة وليس ثمة حرب محتملة بينها ٠ ولو حصحص الحق فيما يقوله المؤلف ، ستغدو الاستراتيجية التي احتذاها ستالين ابان العشرينيات - في دق اسفين بين الرأسماليين - عديمة الجدوى ٠ ان الرأسماليين ، القصاة عن التناحر بينهم ، ليطرقون سبيل التوحد ضد مسقط رأسهم الاشتراكي وهي الامكانية التي أوشمها تكوين الناتو والحلف الياباني - الأميركي ٠

رد ستالين على هذه الدعوى بمقال مفصل أسماه " المشاكل الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفيتي " نشر في تشرين الأول عام ١٩٥٢ كدليل للمجلس الحزبي المقبل ٠ وعاود في جملة القول تقديسه للايمان الشيوعي الحقيقي الذي أعلنه في الأعوام ١٩٣٤ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٦ ، وبلغ من سعيه لتثبيت دعائم الشيوعية أنه أفصح عن مواجهة الرأسمالية لازمة سريعة آبدة :

[يقال أن الهوات بين الرأسمالية والاشتراكية لأشد بأساً من الناقضات بين الاقطار الرأسمالية ٠ ويقيناً أن هذا الأمر نظرياً على جانب من الصواب ليس في يومنا هذا ، بل حتى قبل الحرب العالمية الثانية ، وقد أدركه قادة الأقطار الرأسماليون ٠ كانت الحرب العالمية الثانية ، وقت اضطرامها ، صراعاً بين هذه الأقطار ، وليس مع جمهوريات الاتحاد السوفيتي] ٠ وكلما أعاد ستالين ابتهاله بحتمية الحرب بين الرأسماليين ، أيقن المخلصون الأمر تطميناً آخراً لهم ٠ ان الصراع بين الرأسماليين ، بمنحى التفكير الستاليني الملتوي ، ليعني أن حربهم مع الاتحاد السوفيتي غير وشيكة ٠ لذا كانت مقالة ستالين توجيهاً للدبلوماسيين السوفيت على ارجاء الحسم ريثما تنخر الرأسمالية بفعل الخصومات الباطنية ٠

وفي عام ١٩٣٩ ، أتم اعلان مماثل عن تأهب ستالين للمساومة مع هتلر .
ومكث هذا التحليل ، الذي حاجج به ستالين عام ١٩٥٢ ، على جانب من الصواب لأن الرأسماليين ، اذا ما جنحوا للحرب ، لسيكون الخطر مع الاتحاد السوفيتي أعظم مما لو تضاربوا الحرب :

[ان رحى الحرب بين الدول الرأسمالية ليسيد أقطاراً معيناً على ما سواها ، بينما يحمل النزاع مع الاتحاد السوفيتي في قضيته بقاء الرأسمالية ذاتها] .

وثمة مزحة نظرية ثقيلة في المنحى الذي أبلغ فيه رسالته الشجة الى الرأسماليين ، وخاصة أميركا . وذكر واقعاً ان الرأسماليين ليسوا في فاقة للانخراط في حرب مستبقة لأن الاتحاد السوفيتي راغب عن طرح أيما تهديد عسكري :

[بالرغم من ضج الرأسماليين - لأغراض دعائية - حول عدائية الاتحاد السوفيتي ، فهم أنفسهم لا يؤمنون بأيما نوايا عدائية ويشعرون بمسالمة السياسة السوفيتية وانها لن تبدأ بالهجوم على الأقطار الرأسمالية] .

وبعبارة أخرى على الرأسماليين ألا يلتبسوا في تفهم قواعد اللعبة التي يمارسها : صبا ستالين لتعزيز قوة الاتحاد السوفيتي ونفوذه ، وينبغي الامساك عن الضغوطات لعجزه تماماً عن الحرب .

استشعر ستالين ، العارف برضا رفاقه عن اعلاناته الأيدلوجية ، بحاجة خصومه الرأسماليين الى حدث قاطع . فلو قدر للتوتر أن يتراخى ، وكان ثمة رجاء

للعبة القديمة في ايقاع حبال الرأسماليين فيما بينهم ، لافتقرت موسكو لرفع بعض الضغوط التي أفضت لما نعته ستالين باحساس الوحدة بين هذه الدول .

قام ستالين في العاشر من آذار عام ١٩٥٢ بمثل هذه المبادرة على الصعيد الدبلوماسي وبلغة خبرتها الديمقراطيات ، حيث قدم ما قال لها مذكرة سلام المانيا . لقد أشرق الاتحاد السوفيتي على حين غرة وبعد سنوات من المواجهة والصد ، مكترثاً للتسوية . لقد قدم ستالين مسودة الى القوى المحتلة الثلاث ، حاثاً على النظر بالأمر في " مؤتمر دولي ملائم بمشاركة جميع الحكومات المعنية " ويختتم في " المستقبل الأقرب " . مذكرة السلام الى توحيد المانيا وحياديتها على أساس الانتخابات الحرة ، بالرغم من رحيل كل القطعات الأجنبية في بحر عام " .

ومع ذلك عجت مذكرة السلام بفقرات متملصة تعقد اتفاقاً غامضاً حتى ان وافق الغرب على مبدأ الحيادية الالمانية . فمثلاً خطرت صيغة الاتفاقية " تنظيماً معادياً للديمقراطية واقامة السلام " حيث عنى الأمر ، بالمفردات السوفيتية ، شملاً لكل الأحزاب ذات الطراز الغربي - كما هي عليه في شرقي أوروبا . ولو ارتضت الديمقراطيات في الجلوس على طاولة المفاوضات فان المفاوض السوفيتي ، الذي هو يقيناً مولوتوف الماكر أو نظير له سيفعل ما وسعه ليقوض أواصر المانيا مع الغرب - المكسب السوفيتي الضمني في الموافقة على مبدأ الحيادية - دون أن تنقد ثمن التوحد الألماني .

ومع ذلك أجلت دقة ستالين ونبرته ان الغاية التي ينشدها قد سمت عن الدعاية وبدت خطوة بكر لمفاوضات سيدفع الاتحاد السوفيتي ، لأول وهلة غداة

الحرب ، ثمناً مهماً لتمشيط التوترات . لقد استوعبت مذكرة ستالين بشكل غير جلي فقرة أشارت لبعض الثبات :

[عبر الاتحاد السوفيتي ، ولما يقترح اعتباراً لهذه المسودة – عن استعداده أيضاً ليضع نصب عينيه الاقتراحات الأخرى المتيسرة لهذه القضية] .

ولو تقدم ستالين بما نعتها مذكرة السلام قبل أربعة أعوام – أي قبل حصار برلين ، وانقلاب التشيك والحرب الكورية – ليقيناً انها ستوقف عضوية المانيا من الناتو . وفي الحق ثمة امكانية برفض العضوية الألمانية ، تمام الرفض ، في حلف الأطلسي وعدم الأخذ باعتبارها ، لقد تبطنت المذكرة نمطاً من المفاوضات كان تشرتشل يحث عليه أبان الحرب وعقبها .

وفي الفترة الفاصلة ، مذ عام ١٩٤٨ ، تشكل حلف الأطلسي وعاودت المانيا تسلحها . وكان ثمة تصويت في البرلمانات الأوروبية على هيئة الدفاع الأوروبية ، الاطار العملي السياسي لاعادة التسلح الألماني . وانتخب أدينير ، في الجمهورية الفيدرالية ، كمستشار بواقع صوت واحد (الذي أفترض خاصتة) في اقتراع سري للبرلمان ، بينما حث الديمقراطيون الاجتماعيون المعارضون على سعي التوحد بدلاً من الائتلاف مع الغرب .

أدرك القادة الغربيون أن كل هذه المبادرات ستنشل لو سبروا أغوار المقترح الروسي ، وأنهم لن يستردوا قط القوة الدافعة لو منيت المبادرات بالعجز . مثلت الأحزاب الشيوعية في البرلمانات الأوروبية خاصة في فرنسا وايطاليا ، قرابة ثلث من المقترعين – النسبة ذاتها من الشيوعيين في تشيكوسلوفاكيا قبل الانقلاب .

وعلاوة لذلك جابهت الأحزاب الشيوعية الغربية الأوروبية ، بكل ضراوة ، كل اجراءات الوحدة الأوروبية والأطلسية حيث تسنت المعاهدة التي تقرر مصير النمسا سنتها السابعة في حين أوشكت مفاوضات تسوية كوريا من السنة الثانية . وطبقاً لكل ما تفقهه الديمقراطيات ، وما نعرفه نحن عن هذه الكتابة ، فان مبغى ستالين للشروع بالمفاوضات هو تقويض اللحمة المحورية وتعزيز مدار الدول التابعة .

ويقينا أن هذا فضلى مرامي ستالين وتأهب أيضاً لمعرفة التسوية برمتها وأجلت استجابته لردود الغرب على مذكرة السلام برهاناً على فتح الخيار قبالته . لقد أدلت الدول الغربية الغازية الثلاث – فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة – في الخامس والعشرين من آذار باجابات متطابقة لا على صعيد المفاوضات ، بل في الوصول الى نهاية للمفاوضات . لقد وافقوا على مبدأ المانيا المتوحدة كرة أخرى دون فكرة حياديتها . وآنسوا في المانيا المتوحدة حرة للولوج الى " اتحادات تناظر مباديء " واغراضاً لما للولايات المتحدة – وبعبارة أخرى ، أن تمكث في الناتو . أذنت الاجابة الغربية لمبدأ الانتخابات الحرة ولكنها عانقتها بشروط معنية كحق مباشر الى المجالس الحرة وحرية الكلام ، اللتين سيقوضان قبضة السوفيت على النظام الشيوعي الألماني الشرقي قبل عقد الانتخابات تماماً . لقد هدفت الاشارات الغربية الى تدوين الحقائق ، لا التشجيع على المساومة .

وبنحو غير مميز ، رد ستالين فوراً وبلغة استرضائية في العجلة ذاتها لكل صد تال تقوم به الديمقراطيات . وتلقت مذكرة الغرب في الخامس والعشرين من آذار اجابتها في التاسع من نيسان ، ومذكرة الثالث عشر من آيار في الرابع

والعشرين من الشهر ذاته ، وفي العاشر من تموز في الثالث والعشرين من آب . لقد دنت كل اجابة من الموقع الغربي ، وظلت مذكرة الثالث والعشرين من أيلول يتيمة الاجابة ، حيث انغمس ستالين لجلسة الحزب التاسعة عشرة القادمة ، وصابياً لمآل الانتخابات الرئاسية الأميركية .

أدلى ستالين ، المتدهور صحياً ، خطابه في مجلس الحزب حيث كسا مبدأ التعايش السلمي بلغة أيدلوجية محربة ، وأعلن في كانون الأول عام ١٩٥٢ وحالما رفعت جلسة الحزب عن استعداده للقاء بالرئيس المنتخب ، دوايت د. ايزنهاور . لم ينعم ستالين بمثل هذا العرض لعقد قمة على روزفلت أو ترومان أو تشرتشل ، لأنه ناور معهم جميعاً كي يبادروا من موقعهم بالخطوة البكر .

صبا ستالين الدبلوماسي الى التحقق عما يغتنمه الاتحاد السوفيتي من المخاطرة بنظام المانيا الشرقي الشيوعي . ولم يعترف قط به نظاماً كامل السيادة ، حيث وهبه مكانة تتمايز مع سائر الدول الأوروبية الشرقية التابعة كي يبقي عليها ورقة تفاوضية ولما يشرع بالتفاوض حول وحدة المانيا .

وأزفت لحظة ستالين في عام ١٩٥٢ حيث أرخ نحر النظام الشيوعي الألماني الشرقي بعرضه الوحدة على أساس انتخابات حرة . وحتى لو تسيد الشيوعيون على انتخابات المانيا الشرقية ، كما توجس الحلفاء الغربيون خيفة ، سيضمن السكان الأعز عدداً عديداً في الجمهورية الفيدرالية نصراً حاسماً للأحزاب الديمقراطية المؤيدة للغرب . ولستالين وحده المشيئة والتهور لجرجرة شعبه المنهوك

الى مواجهة مع الديمقراطيات ، وهو القائد الشيوعي الوحيد الذي يتمتع بسلطة كي يعالج دولة تابعة للاتحاد السوفيتي .

وفي كل مكمن خابت فيه حسابات ستالين ، كما فعل هذه المرة ، كان السبب في لما افترضه من انتهاج نظرائه للسياسة الواقعية أيضاً وعلى النمط المبيت كما أقدم هو عليها . واعتقد بشكل جلي في فترة ما بعد الحرب مباشرة ، أنه يتوسطهم أو في أسوء حال يعلمهم أن استقطاع أيما امتيازات من الاتحاد السوفيتي سيكون أشد ألماً وأمداً . بيد أنه تصرف ، ولما أزفت لحظة الحسم ، كما لو أن الولايات المتحدة ستطرق السبيل نفسه على أساس حسبان للظروف الراهنة ، وان ما فات مات ، وبدا ستالين مقتنعاً أنه تحرر من نقد ثمن همجيته مع الديمقراطيات .

وانجلت هذه الافتراضات واهية جداً لأن الولايات المتحدة ما احتذت السياسة الواقعية – وفي أسوء احتمال كما تفقهها ستالين . كانت المبادىء الأخلاقية ، لقادة أميركا ، حقيقية والالتزامات القانونية ذات فحوى . وربما حسب ستالين حصار برلين سبيلاً لتعزيز مبوأه المفاوض حول المانيا ، أو ربما فاتحة للمفاوضات . ومن المحتمل أنه آنس الحرب الكورية اختباراً لمديات الاحتواء ، بيد أن أميركا قد جابهت أعمال العدوان هذه باسم المبدأ ، لا ذوداً عن مدار الاهتمام ، وذخرت كل ما وسعها لتستطب هجوماً على شأو عالمي ، لا لتهديد يمسس واقعاً واهناً داخلياً .

وبمثلى ما عامل ستالين في عام ١٩٤٥ النية الحسنة الأميركية باعتبار لا حد له ، أساء في عام ١٩٥٢ تقديره لمدى الخيبة التي أصابتها أفعاله في الفترة البينية . كان القادة الأميركان متلهفين للتسوية مع الاتحاد السوفيتي ، دون رغبة أو مستطاع لتكثيف الضغوط التي حملها ستالين محمل الجد . ففي عام ١٩٥٢ وضع ستالين نصب عينيه جدياً الضغوط الأميركية لكنه نجح تماماً في اقناع قادة أميركا بسوء نيته . لذلك ترجموا مبادرته كتكتيك آخر للحرب البارده ، لا يسدل ستاره الا بالنصر أو الهزيمة ، ومن دون تسوية معه في خاصة برنامجهم .

كان توقيت ستالين أقل ملائمة وتقدم بمذكرته عن السلام في ردح لا يكاد يبلغ الثمانية أشهر قبل الانتخابات الرئاسية التي لا يديرها الرئيس ترومان المتبوأ منصباً . وفي أندر حدث جنح فيه ترومان وأشسون للتفاوض مع ستالين ، لم يتهيأ لهم الوقت لاتمام العملية .

ولم تقدم مذكرة السلام في أية صورة ، بالنسبة لادارة ترومان ، أبعد من مرآى البصر ولا تكمن المعضلة في البنود التي ربما تحور بل في هيئة الكون الذي تصوره . فعلى المانيا أن تكون حيادية برغم من تسلحها وتنسحب كل القطعات الأجنبية من أرضيها في خضم عام . ومع ذلك ما المعنى الأصوب الذي تبغيه كل هذه البنود ؟ وأنى تعرف " الحيادية ، ومن يشرف عليها ؟ وهل يتمتع الاتحاد السوفيتي ، بموجب ذلك ، بصوت دائم في شؤون ألمانيا او ربما حق للنقض على هذه الأمور بصفة الاشراف على سيرة المانيا الحيادية ؟ والآم مواقع ستنسحب القطعات الأجنبية ؟ وما تلوح الاجابة جد يسيرة بالنسبة للقوات الغربية الغازية ، فليس ثمة قاعدة جغرافية في أوروبا يمكن مدها بالحياة . لقد تأهبت فرنسا ، في

الخمسينيات للأذن لقوة اميركية جرارة ولكن لامد غير آبد وبقيود مقيدة و لم يوافق الكونغرس على مثل هذا الانتشار ، طوراً آخراً ، بعدما ضربت بين القوات السوفيتية والأميركية منطقة حاجزة محايدة . وثمة هوة سحيقة بين أميركا والاتحاد السوفيتي ، فالأولى قد قفلت بقواتها ، بينما آثرت الثانية التقهقر الى الحدود البولندية على مبعدة مائه ميل الى الشرق . وايجازاً ، فان التطبيق بحذافيره لاقتراح ستالين سيقايض تحلل الناتو المشرق لقاء الانسحاب السوفيتي لمائة ميل لا غير .

وحتى لو ترجم الانسحاب بمعاني تقهقر السوفيت صوب أراضيهم ، ستثار معضلات أخرى . وهكذا لم يكن ثمة ترجيح لأي نظام تابع أن يسير على أقدامه دون حضور القوات السوفيتية أو تصميمها على التدخل عند حصول الهيجان . فهل يعصم ستالين القوات الروسية من معاودة الدبيب في أوروبا الشرقية ، حتى لو انحلت احدى الحكومات الشيوعية ؟ لقد توشت الاجابة اللباس لنفسها عندما خيمت ظروف عام ١٩٥٢ . وتخطى الأمر كثيراً خيالات القادة الديمقراطيين - وبشكل يمكن تبريره - ان ستالين ، البلشفي العتيق ، سيوافق على مثل هذه الثورة .

والعلة الأهم لاعراض ترومان وأشسون عن مبادرة ستالين ما تبطنته عن مستقبل المانيا الطويل الأجل ، في مذكرة السلام . وحتى لو قدر على تعريف حيادية المانيا بسبيل يجهض التدخل السوفيتي الآمد ويبوأ المانيا مستوى من التسلح لا يخلفها لرحمة الاتحاد السوفيتي ، سيحيي الأمر سيرة شرك أوروبا غداة توحد المانيا عام ١٨٧١ . لقد برهنت المانيا الموحدة والقوية في قلب أوروبا تنافراً مع سلام أوروبا لأنها في مثل هذا الحال أشد بأساً من سائر أمم أوروبا الغربية ، وربما

أعز من جميعها قوة . لقد ملأتها الأحلام التوسعية ، أبان الخمسينيات ، فتنة للشرق ، أطلق جماحها اللاجئون الذين يشكلون نحواً من ١٥ مليوناً من أقاليم يحسبها معظم الألمان شطراً من أمتهم . وصير القدر المانيا الموحدة الحيادية مفككة بعجلة غداة الحرب .

ومثل هذا المخاض ، فوق كل اعتبار ، سيجرد ثقة أعظم سياسي الماني منذ عهد بسمارك ، فهو يتحمل الفرقة التاريخية في زيوغ المانيا عن شرعية بسمارك .

ولد كونراد ادينير في الراين الكاثوليكية عام ١٨٧٦ ، والتي كانت شطراً من بروسيا عقب مؤتمر فيينا ، واعترتها بعض الشكوك من الرايخ الألماني المركزي الحاكم في برلين . وتبوأ ادينير منصب مدير بلدية كولون منذ عام ١٩١٧ ريثما أبعده النازيون عام ١٩٣٣ . لقد هجر السياسة ، في عهد هتلر ، وسلخ وقته في دير الراهبين . وبعد أن أعاده الحلفاء مديراً لبلدية كولون عام ١٩٤٥ ، طردته السلطات البريطانية المحتلة التي امتعضت من أسلوبه المستقل .

وتمتع أدينير ، ذو الخصال الصلبة لامبراطور روماني ، بعظمي وجنة بارزين وعينين غائرتين قليلاً ، فيلوح كأنه فاتح مغولي ربما نزح عبر الراين قبل ألف عام . وصور سلوك أدينير المهذب الذي تعلمه في شبابه السابق للحرب العالمية الأولى ، رباطة جأش عظيمة لقائد في شعب محتل وقلة قليلة من مواطنيه الكبار يستذكرون شريط الماضي السياسي ، التي يتبجحون به فخراً .

ويزخر مكتب أدينير في قصر سكومبورغ المزخرف ، الهيكل الأبيض لعهد وهلم ، بستائر منحاة دائماً تجعل الداخل كأنه في شرنقة تحنط الزمان في نسيجها. كانت رباطة الجأش الخصلة الأعوز لقائد يجيش الشجاعة في بلده الذي له أيما باعث للتشكك في ماضيه ، كي يقابل مستقبلاً مبهماً . ولاح أدينير ، عندما تبوأ منصب المستشاريه في عمر الثالثة والسبعين ، كان حياته كلها نذراً لعهدة ارجاع ضبط النفس لمجتمعه المحتل والمتبعض والمجرد من سلاحه .

استنبط أدينير احساسه بالأمن الداخلي من الايمان أكثر من التحليل و لم يكن بقاريء كتب أو طالب تأريخ ، بخلاف ما كان عليه تشرتشل وديغول . وقضى فتره اقصاءه متأملاً وطرق أبواب مدارس شعبه المضطرب وتملك حدساً غير اعتيادي لتيارات عصره . كان له ثمة تفهم ثاقب لنفسية مجايليه ، وبنحو خاص مواطن ضعفهم . وأتذكر ذات مرة رثى ادينير المانيا بغياب القادة العظام عنها ، أبان الخمسينيات . وعندما ذكرت له أحد معاصريه المثيرين ، رد بأسلوب صقيل : " لك أن لا تخلط بين النشاط والقوة " .

جاهد أدينير للتغلب على عواطف المانيا الجامحة ولما يهب سمعة الثقة الى بلده – ذي التأريخ المتطرف ونزعة الرومان . لم يأبه نجل الراين الكاثوليكي الورع الى السياسة الواقعية حتى عندما توحدت المانيا والفى في سياسة القيصر الدولية المتملقة تهجماً على أسلوبه الراشد الجوهري . لم يمت بأيما صلة الى شريحة اليونكر التي خلقت المانيا الامبراطورية ، وآمن بهفوة بسمارك العظيمة عندما جذر أمن المانيا بقواعد المناورة بين الشرق والغرب . انه ليأنس في المانيا القوية المنطلقة في قلب أوروبا تهديداً الى الجميع على حساب أمنها الخاص .

وأستحب أدينير احتذاءً لسياسة ثابتة كي تعيد أمته بعضاً من الهيمنة على المستقبل بعد أن عصفتها موجات الشغب غداة الحرب مباشرة ، وظلمتها الجذور التاريخية . لقد أبى الاعراج عن هذا المطرق بالحنين الى الماضي ، أو بالعلاقة الألمانية التقليدية للحب والبغض مع روسيا . واصطفى الغرب من دون شرط حتى لو كان الأمر على حساب ارجاء وحدة المانيا .

أبى أدينير المساومة على الحيادية كما راق للديمقراطيين الاجتماعيين ، بباعث شطره الى علل فلسفية ولاسباب عملية متحفظة في الشطر الآخر . ولم يشأ المستشار الخبير أن يوهن المفاتن التوسعية طوراً آخراً خاصة أن دولتين المانيتين قد أشرقتا وقتئذ . وتفهم ، بنحو أعظم من خصومه الداخليين وتحت طائلة أن الظروف التاريخية المخيمة على ذلك الزمان ، ان المانيا الموحدة المحايدة ستنجب من رحم تسوية سلام يصاغ ضد المانيا ، وستفرض قيود صارمة على الدولة الجديدة وتقام سيطرات دولية ، ولجيرانها الأشداء الحق الآبد في التدخل . وعد أدينير هذا الانقياد الضمني أشد خطر نفسياً لألمانيا من الانقسام . لقد اجتبى المساواة واللحمة مع الغرب واحترامه بلده .

وبقي أمر ستالين مجهولاً عن مدى تغلبه على تحفظات أدينير والقادة الديمقراطيين ودفعه للأمور شطر مؤتمر دبلوماسي كبير ، أو مدى الامتيازات التي طرحها هناك وثمة يقين أن تشرتشل عاضد اقتراحه على مؤتمر سلام ، ولكن منية ستالين قد قلبت كل الحسابات . لقد وجد ملقى على أرضية منزله متأثراً سكتة قوية ألمت به في الساعات التي فصلت بين بكرة الأول من آذار عام ١٩٥٣ غداة ما غادر رفاقه بعد مشاهدة فلم سينمي ، والساعة الثالثة ظهراً من يوم الثاني من

آذار . ولم يتم التيقن من ساعة الاصابة لأن حراسه يتوجسون أخشى الخوف من الدخول الى غرفته دون موعد مضروب ، لذلك ترنح ساعات على الأرضية قبيل أن يكتشف أمره . ومكثت مساعدوه ، مالنكوف وبيريا وآخرون ، سهرة بجانبه ريثما حضره الموت بعد ثلاثة أيام ونصف يوم . واستقدم الأطباء ، برغم من هيمنة التناقض في اسعافاتهم فهم بعد كل شاردة وواردة ، الضحايا المرسومين لتصفية ستالين المقبلة " لأطباء الكرملن " .

استشعر خلفاء ستالين بالحاجة الى جسر الهوات مع الغرب ، بنحو أيأس من القائد السابق لكنهم خلوا من سلطته وبحفظه ، والأهم ، وحدته السياسية المقتضاة للدأب على منحى جد مستعص . لقد تمزقوا بالصراع المحتوم التالي للسلطة وأبى الجميع وهب الامتيازات الى الرأسماليين في المعركة العقيمة التي تناحر فيها الجميع ، بحيث سعى الكل الى تشييع الأحزاب له كي تعينه من المطالبة بالسلطة . وتجلى هذا الأمر في السبيل الذي وضحت فيه تصفية بيريا . وفي الحقيقة ، كانت خطيئته في معرفته الكبيرة جداً وتهديده لعدد عديد من زملاءه الأشداء . ومع ذلك القى القبض عليه في اجتماع مكتب الحزب وأعدم بعيدها بتهمة التآمر على تسليم المانيا الشرقية – بالرغم من أن جوهر مذكرة سلام ستالين في ما تصرم من عام وكل تبادلاته المتوالية مع الغرب كانت تتقدم في هذا المنحى ، وعلى وجه من الدقة .

ويتطرق خروشوف في مذكراته أن خلفاء ستالين قد اعترتهم أعظم الخشية من اقتناص الغرب رحيل ستالين ليحسموا ما انتظروه طويلاً مع العالم الشيوعي . ولطالما حذر الطاغية مساعديه ، ليجهض فيهم افكار الانقلاب ، ان الغرب

سيلوي رقابهم كالدجاج عندما يودع هـو هـذا العـالم ، وفي الوقـت ذاتـه كـانت مخاوف خلفاءه من الغرب استـدراكاً لمطالـــب الصـراع العقيـم بينهـم مـن أجـل السلطة . ومع ذلك تيقن كل متصـارع على السـلطة في القيـادة الحديثـة والتيقـة لتتنفس بعيداً عن الحرب الباردة ، ان الثبات الدبلوماسي سـيأتي عليـه مـا لم يحقق سلطة مطلقــة . ومن ناحية أخرى ، توجسوا خيفة من استمرار التوتـرات وكـرور تشرتشـل في عـــام ١٩٤٦ ان ستالين أراد تمار دون أن يخوض غمارهـا وصبـا خلفاءه في عام ١٩٥٣ ، الى جني ثمار ترضيـض التوتـرات دون رغبـة أو مستطاع لوهب الامتيازات . لقد أوصد ستالين في عام ١٩٤٥ الباب الدبلوماسي ليسـتتب موضعه المفاوض بوجـه الغـرب وارتمـى خلفـاءه في عـام ١٩٥٣ الى بـاب موصد ليحافظ كل واحد على خياراته قبالة الآخر .

ويعرض الساسـة عـادة الحـوار كـي يكسبوا الوقـت ، حيـث دعـا رئيس الوزراء مالنكوف في السادس عشر من آذار وغـداة أكثر مـن أسبوع على وفـاة الدكتاتور ، الى الجلوس الى طاولة المفاوضات دونما تحديد لفحواها :

[ليس ثمة مسألة تظل متداعية ودونما حل في الوقت الراهن ولا تحسمها الوسائل السلمية بأساس من الاتفاق المتبادل للدول المعنية . وهذا يهم علاقتنـا مع كافة الدول ، بما فيها الولايات المتحدة] .

لم يقم مالنكوف باقتراحات ملموسة . كان القـادة السـوفيت الجـدد غـير متبينين من تحقيق رفع التوترات ولهم سلطة أضعف ممـا يصنعـه ستالين مـن طرائق جديدة . وفي الوقت عينه ، كانت ادارة ايزنهــاور الجديـدة في خشية مـن عـرض

التفـاوض مـع السـوفيت ، بـالقدر تمامـه لمـا اعـترى السـوفيت مـن خـوف لادلاء الامتيازات الى الأميركيين .

وكان باعثا التوجس سيين لجانبي الخط الفاصل - خشـيا اقليمـاً مجهـولاً . واعتورتهما معضلة تماثل التغييرات التي طرأت بالمحيط العالمي منـذ نهايـة الحـرب . كان الكرملن في خشية من انحلال الدول التابعة عند التخلي عن المانيـا الشـرقية - كمـا حصـل بعـد جيـل . وراود الولايـات المتحـدة القلـق مـــن يـأتي الشـروع بالمفاوضات على حلف الناتو ، وهكذا يقايضون الحلف لقاء مؤتمر .

وعقيب وفاة ستالين مباشرة ، اقتضى رسم حلول للثلاثة مشكلات لتقريـر مدى ضياع الغرب لأية فرصة . هل قاد حلف الأطلسي دفـة مفاوضـات عظيمـة مع السوفييت دون تشطيره ؟ وهل سيقدم الاتحاد السوفيتي عروضاً ، لو رزح تحت الضغوط ؟ وهل تغتنم القيادة السوفيتية المفاوضات كسبيل لكبح تسلح المانيا كـرة أخرى وتوحد الغرب من دون تسليم المانيا الشرقية الخاضعة لها أو ترفع قبضتها عن شرقي أوروبا ؟

ولقادة أميركـا الحـق في تقييمهـم لمـدى الضيـق الهـائل لهـامش المفاوضـات الحقيقـي . وسـتطرح المانيـا المحـايدة خطراً أو دعـوة للابتـزاز . وثمـة تجـارب في الدبلوماسية لا يمكن محاولتها لأن الاخفـاق فيهـا مدعـاة لخطـر لا يبطـل . وكـان خطر انهيار كل ما شيد في حلف اطلسي على جانب من الجسامة .

وفي الحقيقة ينتفع الجميع - وأولهم الاتحاد السوفيتي - من بقـاء الجمهوريـة الفيدرالية شطراً من النظام الغربي الموحد ، برغم من أن قـادة السـوفيت المتقلقلين

احجبوا عن الاعتراف بذلك . وسيقدر بقاء المانيا في حلف الأطلسي على الاتفاق علـى مديات الانتشار العسكري في امتداد الخطوط الحديثة للتأريف (وهذا الأمر في جوهره سيضعف القدرة العسكرية لألمانيا الموحدة) . ولكن اذا ضربت المقاطعة المحايدة بدن المانيا كامله ، سيفت ساعد الناتو وتقرح أوروبا الوسطى بصدع أو تهدد بخطر عظيم .

ولن يجنح خلفة ستالين الى قبول المانيا الموحدة في بطن الناتو (برغم من التقييدات العسكرية) الا اذا تأهبت الديمقراطيات لتهديد المخاضات العسكرية ، أو في أقل تقدير ، استشراء للحرب الباردة . وهذا ما جال في ذهن تشرتشل ، الذي انقلب الى رئاسة الوزراء عام ١٩٥١ ودونها جون كولفل ، سكرتيره الخاص :

[أسرني ونستون غير مرة في رجاءاته لتفهم مشترك مع ستالين . فلو كان الروسيون متقاعسين عن التعاون ، ستبلغ الحرب الباردة وطيسها ، وبايدينا نحن] .

وليس ثمة قائد غربي رغب أن يمتطي مثل هذه الاخطار ، أو يطرح مقترحات تستسيغها السنة نقاد الحلف بيسر فتتهمها بالافراط من جانب يتيم . وأحجم القادة الأميركان عن أية مبادرة كبيرة وأمسكوا عن أيما محاولة خطرة لاعتنام الارباك الذي حل في السوفيت عقيب رحيل ستالين . ومن جانب آخر صانوا لحمة حلف الأطلسي .

كان ثمن هذا التأزل نقلاً للجدال نائياً عن لب المفاوضات وميمماً أهواءهم . وتبوأ تشرتشل الداني من نهاية عمله منبر حديث المفاوضات ، في ذلك الوقت ، ولم يفقه أي ذي علم قناعته بوجه من الدقة وكان ثمة أشجاء له بعد خبر توازن القوى على مدى عمره الثمانيني ، للحث على قمة لقاء كنهاية بحد ذاتها .

لقد ظلم القادة الأميركان تشرتشل ، عندما أعزوا توقه للتفاوض الى فساد عقله الوشيك ، لأنه ما فتيء مصراً بنحو عظيم على التفاوض ابان الحرب وبعيدها مباشرة وحتى عندما أرسيت معالم سياسة الاحتواء . وما تباين هي الظروف التي انضوت تحت طائلها الاقتراحات . ولم يقذف تشرتشل عنه قط تفاصيل التسوية العالمية التي كان يحث عليها فترة الخمسينيات . ولاح هذا الأمر ، أبان الحرب ، متجذراً على فرضية الانسحاب الأميركي أو عدم التعسكر بقطعاتها باية صورة ، في أوروبا كما أصر روزفلت مراراً . وأنس تشرتشل ، قائد المعارضة لما بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥١ العناصر التالية لأية تسوية شاملة مع الاتحاد السوفيتي : المانيا موحدة ، وحيادية ونظام تحالف غربي على امتداد الطرف الفاصل بين فرنسا والمانيا وتقهقر القوات السوفيتية الى الحدود السوفيتية مع البولندية واقامة حكومات باساس من النمط الفنلندي في الدول القائمة على حدود الاتحاد السوفيتي – أي حكومات محايدة ديمقراطية تحترم مصالح السوفيت وحرة في احتذاء سياستها الخارجية المستقلة .

وستعيد تسوية ما على امتداد هذه الخطوط قبل عام ١٩٤٨ أوروبا سيرة مدياتها القديمة . لقد سبق تشرتشل عصره كثيراً ، ابان الحرب وغداتها بعدة

سنوات . ولو ظفر بانتخابات عام ١٩٤٥ لسار بالحرب الباردة ، الظاهرة ، في مطرق آخر شريطة أن ترغب الولايات المتحدة وبقية حلفاءها بخطر المواجهة التي لاحت موسمة لاستراتيجية تشرتشل المأثورة .

ومع ذلك غدت التسوية التي أنسها تشرتشل متعذرة تقريباً في عام ١٩٥٢ ، بعجز من الزلزلة السياسية . وكان اجراء عبقرية ادينير بحيث أن ما خلقه من هيئة المانيا الفيدرالية لم يكن بمنصور قبل عام ١٩٤٩ . وبعد ثلاث سنوات اقتضى العالم الذي أنه تشرتشل قبل عام ١٩٤٤ نهاية لوحدة الجمهورية الفدرالية مع الغرب والزامها بالعودة سيرتها الأولى كدولة وطنية حرة . وفي عام ١٩٤٥ شكلت الأنظمة ذوات الطابع الفنلندي في شرقي أوروبا عودة الى الحالة الطبيعية و لم تشيد اصرحتها في عام ١٩٥٢ بالمفاوضات : انها لن تحصل الا بانهيار سوفيتي أو مواجهة عظيمة . وعلاوة لذلك ستنقاد هذه المواجهة بدفة قضية الوحدة الألمانية – و لم تتأهب أيما دولة أوروبية لامتطاء مثل هذا الخطر لمصلحة عدو مهزوم بعيد الحرب عاجلاً .

ولو كان الحلف الأطلسي أمة واحدة .بميسورها توجيه سياسة موحدة ، ربما تبنى دبلوماسية تسعى لحل شامل لتفاصيل تشرتشل بحذافيرها . وغدا هذا الحلف في عام ١٩٥٢ جد هزيل على مثل هذه المقامرة و لم يستشعر رئيسا الحزبيين السياسيين الأميركيين الكبيريين أي خيار ما حاشا المنحى الموجع لانتظار تحرك في فؤاد السوفيت من دبر مواقع القوة .

أدرك جون فواستر دالس ، وزير خارجية ايزنهاور الجديد ، ان الصراع بين الشرق والغرب مسألة أخلاقية وتفادى الانخراط في مفاوضات لأيما قضية ريثما يطرأ تحول جذري في النظام السوفيتي – وهكذا يهدد الاراء البريطانية الطويلة الأجل . ولم تنعم بريطانيا العظمى في تأريخها الكامل ، باقتصار المفاوضات مع دول صديقة أو متناغمة فكرياً . وطالما لم توهب ما لأميركا من هامش الأمن فقد تفاوضت مع خصومها العقائديين كمنحى يضع نصب أعينه التدبيرات العملية المتعلقة بالتعايش السلمي . وقدر العامة البريطان على حكم فاعلية ساستهم من خلال التعريف الجلي للمصلحة الوطنية . وربما يتخاصم البريطان ، بعض الأحايين ، في الداخل حول مسألة تخص تسوية ما بيد أنهم لن يقدموا على مثل هذا الأمر في حكمة التفاوض .

وسعى تشرتشل ، التقليد البريطاني الصادق ، الى تعايش سلمي أكثر تحملاً مع الاتحاد السوفيتي بوسيلة المفاوضات شبه الدائمة . وشاء القادة الأميركان ، من جانب آخر ، تغيير النظام السوفيتي وليس التفاوض معه ، فاستحال الجدل البريطاني – الأميركي حواراً حول الرغبة وليس كنه المفاوضات . وأقترح تشرتشل ، في حملته الانتخابية عام ١٩٥٠ والتي أفضت الى الهزيمة عقد قمة للقوى الأربع – فكرة ثورية في تلك المرحلة من الحرب الباردة :

[ما برحت عاجزاً عن عدم الانقلاب الى فكرة حوار آخر مع روسيا السوفيتية في أعلى مستوى . وهذه الفكرة تروق لي لأنها ذات جهد أجهد لجسر الهوة بين العالمين ، وبذا يحيا كل جانب حياته بسلام دون بغوص الحرب الباردة ، لو شاءوا نزع ثياب الصداقة عنهم].

واعتقد دين أشسون الناقه من تأسيس حلف الأطلسي ان مثل هذه الفكرة سبق لأوانها :

[علمتنا خبرتنا الطويلة مع الاتحاد السوفيتي ، ان فضلى السبل لاستطبابه تكمن في خلق مواقف قوة ... واذا ما سلخنا كل مواطن الضعف التي نستطيع – سنقدر على انجاب اتفاقيات عمل مع السوفيت ... اننا لن نصيب حسنه لو بادرنا بالدعوة الى محوارات في هذه المرحلة] .

لم ينقلب تشرتشل الى منصب رئيس الوزراء حتى تشرين الأول عام ١٩٥١ ، وآثر الاّ يحث على عقد قمة لما تبقى من فتره رئاسة ترومان . لقد استطاب له أن يتريث ريثما تأزف الادارة الجديدة ، بقيادة رفيقه الحربي الأقدم دوايت د. ايزنهاور . وبين الأوانين ، وافق تشرتشل على التيار المهيمن لتبرير القمات بباعث ان القائد السوفيتي ، أيما كان ، سيرحب باتفاقية عالية المستوى . وفي حزيران من تلك السنة ، أخبر تشرتشل كولفل أن حظاً أوفراً آخراً سيتهيأ ، لو انتخب ايزنهاور ، وبذا يعقد السلام بوسيلة اجتماع الثلاثة الكبار ... واعتقد أن استتباب الأمن في عهد ستالين لأعظم صورة مما عليه عندما فارق الحياة لأن خلفه شرعوا بالتضارس بينهم سعياً للظفر بالمنصب .

وعندما ودع ستالين هذا العالم ، بغتة وعقيب تبوأ ايزنهاور منصب الرئيس ، تبنى تشرتشل مفاوضات مع القائد السوفيتي الجديد . ومع ذلك ، برهن ايزنهاور أنه غير طرباً كسلفه لفكرة تشرتشل على استئناف المفاوضات مع السوفيت . ورداً على مبادرة مولنكوف في السابع عشر من آذار عام ١٩٥٣ ،

حث تشرتشل ايزنهاور في الخامس من نيسان الاّ يفوت أية فرصة " لأستغوار السبيل الذي يتأهب به نظام ملنكوف على التعاون في ترضية التوترات " . وأجاب ايزنهاور أن ينتظر تشرتشل بياناً سياسياً أزمع ايزنهاور على الادلاء به امام هيئة محرري الصحف في السادس عشر من نيسان ، والذي أبى فيه اقتراح تشرتشل . وجادل ايزنهاور أن أسباب التوتر مألوفة ، كعلاجه ، وشخصها : معاهدة كوريا ومعاهدة دولة النمسا والاعتداءات المباشرة وغير المباشرة على أمن الهند الصينية ومالايا . لقد كان تقييمه غير صائب للعلاقات بين الصين والاتحاد السوفيتي مما تمخض عنه ، وكما أجلت الأحداث ، ظروف مشطورة طالما أن مالايا والهند الصينية خارج السيطرة السوفيتية . وأفصح ايزنهاور أن المفاوضات غير ضرورية لأن السيف أصدق أنباءً من القول .

وتوجس تشرتشل خيفة ، بعد أن أطلع على مسودة خطاب ايزنهاور سلفاً . وهدفاً في اظهار اختلافه مع ايزنهاور اقترح اجتماعاً لقوى بوتسدام يضم الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي – يسبقه جلسة تحضيرية بين تشرتشل ومولوتوف ، الذي أعيد تنصيبه وزيراً للخارجية . وتكتم تشرتشل في الرسالة التي بعثها الى ايزنهاور على مسودة الدعوة بالتذكير بعلاقته العقيمة مع مولوتوف :

[بميسورنا أن نجدد علاقتنا في عهد الحرب ....وبمستطاعي أن أقابل السيد مالنكوف وقياديك . ومن الطبيعي الا أتخيل أننا سنحسم أية قضايا جسيمة تطف المستقبل المباشر للعالم ... ويقيناً أني لاأفصح بعدم توقعي لقرارات

جليلة في هـذا الاجتمـاع غيـر الرسمـي ، لأنه لا يتوخى الا استعادة الأساس الحميم الهاديء بيننا] ٠

ومع ذلك ، كانت القمة لايزنهاور تقذف امتيازاً خطراً للسوفيت فكرر مطلبه في تلبية السوفيت لبعض الشروط المسبقة :

[عبرت عن رأيي ، في المذكرة التي بعثتها اليكم في الخامس والعشرين من نيسان ٠ اننا لن ندفع بالأمور كثيراً والا نأذن لشعور بلدينا للقاء رئيسي الدولتين أو الحكومات كي نتحاشى المبادرات المتهورة] ٠

اعترف تشرتشل ، برغم رفضه ، ان توكأ بلده على الولايات المتحدة لن يجيزه على نعمة المبادرات الحرة في أمور تجابهها واشنطن بعنف ٠ واتخذ الخطوه الثانية الفاضلة ، دون الاتصال بمالنكوف مباشرة ، واطلع مجلس العوام بكثير مما أسراه الى رئيس الوزراء السوفيتي عن القرار ٠ وشخص في الحادي عشر من أيار عام ١٩٥٣ السبيل الذي تباين فيه تحليله مع ما لايزنهاور ودالس : فالقادة الأميركان يتوجسون خيفة من أخطار لحمة الحلف الأطلسي واعادة التسلح الألماني ، في حين كان تشرتشل ، فوق أي اعتبار ، غير مكترث بالمخاطرة في ولادة آملة داخل الاتحاد السوفيتي :

[ستكون ايماءة عطف لو اثبطت الرغبة الطبيعية لتحقيق تسوية عامة لسياسة العالم أي ولادة معافاة تلقائية قد تطرأ في بدن روسيا ٠ لقد عددت بعض التجليات الداخلية والتغير الواضح وهي أهم بكثير مما طرأ في الداخل] ٠

وقبيل رحيل ستالين ، حث تشرتشل على المفاوضات لأنه أبصر في ستالين القائد السوفيتي الأجود و الأقدر على الايفاء بوعده ٠ وانبرى تشرتشل ، وقتئذ ، ساعياً لعقد قمة كي يصون الآفاق المنشودة التي أشرقت عقب وفاة الدكتاتور ٠ وبعبارة أخرى ، لا تأبه المفاوضات لما يحصل في بطن الاتحاد السوفيتي أو من يستوي على عرشه فالمؤتمر الأرفع مستوى ، يراه تشرتشل ، حاسماً لمباديء المفاوضات المقبلة ومنحاها :

[على المؤتمر أن لا يسيره جدول صارم ، أو ينقاد تشعبات التفاصيل الفنية ٠ يجب أن يقتصر قدر الامكان على أصغر عدد من القوى والأشخاص ، والاّ يختتم باتفاقيات شاقة ٠ ينبغي أن يسود جو بين المجتمعين على الأقدام بعمل أجود من تقطيع أوصال الجنس البشري ، بما فيهم أنفسهم ، ارباً ارباً] ٠

ولكن ما الذي يعتمل في فكر تشرتشل ؟ وأنى يعبر القادة عن قرارهم بتفادي الانتحار الجماعي ؟ والاقتراح اليتيم الملموس الذي قدمه تشرتشل يتمثل باتفاقية تماثل ميثاق لوكارنو عام ١٩٢٥ ، أدعنت فيه المانيا وفرنسا بحدوديهما وضمنت بريطانيا العظمى الجانبين كليهما من اعتداء الطرف الآخر ٠

ولوكارنو ليس بخير مثال لأنه ما تنفس الا عقداً واحداً و لم يحسم قط أزمة منفردة ٠

لم تعتمد قضية تشرتشل على أيما مبوأ مفاوض خاص ودحض في الأول من تموز عام ١٩٥٣ النظرية القائلة أن سياسات الكرملن راسخة وان الاتحاد السوفيتي لهو المجتمع الأبكر المتحصن من انسحات التأريخ ٠ ويرى تشرتشل ان شرك الغرب

ينتصب في اباءه الاعتراف بالدول التابعة للاتحاد السوفيتي ورغبته عن المخاطرة بحرب للاتيان عليها . والسبيل الأوحد يتمحض بشن " استطلاع بكامل القوة " لمعرفة متبطنات الواقع السوفيتي . وكتب الى ايزنهاور :

[ليس لي رغبة أعظم مما كانت في فلوتن ، أو في عام ١٩٤٥ ، عندما أخذني السوفيت بالحيلة . ومع ذلك يساورني الاعتقاد أن ثمة تغيير في توازن العالم ، بباعث عظيم لفعل أميركا واعادة التسلح ، وبفعل التيار الفلسفي الشيوعي الذي يبرر الدراسة الواقعية المبيتة للأمم الحرة ولما يستتب وحدة وقوة].

كانت رجاءة تشرتشل أن " عشر سنين من السكينة والمعرفة الخصيبة ستحيل العالم سيرة أخرى " . وهجر اقتراحه لتسوية عالمية ما حاشا تبني سياسة أمست تعرف لما ردف من عهد بـ " الانفراج " . وشخص تشرتشل معضلة الصيغة الأصلية للاحتواء ، برغم قوة تحليها ، في توظيباتها العملية التي سمت الى تجشم مسعاها ريثما يأزف اليوم القاصي مأذناً بتغيير النظام السوفيتي ذاتياً بنحو ما . وربما تجتنح نظرية الاحتواء غاية مهيبة ولكنها تكرمت بالنزير عن قوامها ، وعلى امتداد مسيرتها . وكان بديلها تسوية شاملة فورية ، بين دفتيها رحلة ايسر شطر غاية أقل استقطاباً ، لكنها تخاطر بلحمة الحلف الأطلسي وترابط المانيا مع الغرب -الثمن الباهظ لأي تعويض مدروك الاّ اذا طالب قادة المانيا ذواتهم بهذا الأمر . وما اقترحه تشرتشل ، وقتئذ ، أرضية وسطى - تعايشاً سلمياً ، والاذن بانسحاب الزمن وتهدئة السياسة السوفيتية طويلة الأجل .

وتجلت آية التوتر النفسي لعهد المواجهة بلا قضية في تغير وجهة نظر جورج ف. كينان . فعندما أيقن أن لمفهوم الحقيقي للاتحاد السوفيتي كان ينقلب تحليلاً عقلياً لمواجهة عسكرية لا أجل لها ، طور فكرة تفاوض لتحقيق تسوية شاملة تماثل كثيراً ما لاح معتملاً في فكر تشرتشل .

كان المرمى الأول لما يقال له برنامج كينان المنعزل في ازالة القطعات السوفيتية من قلب أوروبا وسيشرع ، من جانبه وبغية تحقيق هذا الأمر ، بقهقرة القوات الأميركية بنحو مماثل في المانيا . لقد استهجن كينان الاتكاء الفارط على الاستراتيجية النووية عندما برهن بقوة ان الولايات المتحدة لقادرة على الذود عن أناها بأسلحة تقليدية ، كما فعلت ما حييت لو زحف الاتحاد السوفيتي بشكل خاص عبر شرقي أوروبا قبيل أن ينتهي الى الحدود الألمانية . وأيد اقتراح آدم راباكي ، وزير خارجية بولندا ، على اقامة منطقة مجردة نووياً في وسط أوروبا وتألف المانيا وبولندا وتشيكوسلفاكيا .

وتماثل معضلة خطتي كينان وراباكي ما لمذكرة سلام ستالين : فهي تقايض لحمة المانيا مع الغرب لقاء الانسحاب السوفيتي في شرقي المانيا ومن بعض مناطق الشرق الأوروبي التي اذا لم تعانقها ضمانات قبالة التدخل السوفيتي لحماية الأنظمة الشيوعية ، ستفضي الى أزومة مزدوجة : احداها في شرقي أوروبا والثانية في العثور على دور مسؤول لألمانيا التي برهنت أنها لغز مذ توحدها عام ١٨٧١ . وفي ضوء المعرفة التقليدية للعصر ، كان مفهوم راباكي - كينان في مقايضة الانسحاب الأميركي لنحو من ثلاثة آلاف ميل مقابل تقهقر السوفيت بضعة مئات

من الأميال ركوباً لخطر آخر في اعلاء صنف الأسلحة ، صيّر الاتحاد السوفيتي ، الاعتداء هائلاً . وهذا هو خاصة رأيي .

وتمتع تشرتشل ، كما سبق أيضاً ، بتبصر صائب برغم من افتقاره للعلاج المناسب . ولن يتجشم عامة الديمقراطيات وطأة المواجهة المبهمة الا اذا أفرزت حكوماتهم ، سلفاً وبيقين قاطع ، ان كل الخيارات الأخرى لغير الحرب ، لعقيمة ، ولو أخفقت الديمقراطيات في تنشأة برنامج حقيقي للتنفيس عن التوترات مع السوفيتي ، سيركب عامتهم وحكوماتهم خطر أغواءهم بفعل هجمات السلام التي سيجهر فيها تحول المجتمع السوفيتي الذي طال انتظاره ما كان هذا الا تحولاً في النغمة السوفيتية . ولو قدر للديمقراطيات أن تتفادى النيوس بين تطرفات التعند والاستعتاب ، عليها أن تمتطي دبلوماسيتها بهامش ضيق : ما بين مواجهة آبدة كان تغدو عقيمة طالما تنفست الترسانة النووية في كلا الجانبين ، وضرب من الدبلوماسية الذي يهدأ مدارك الناس عن الحرب الباردة من دون تطوير حقيقي للموقف الفعلي .

وفي الحقيقة استوت الديمقراطيات على مبوأ قوي يسخر مدى ضيقاً ، لأن مدارات نفوذها أشد بأساً مما للسوفيت وان الصدع الاجتماعي والاقتصادي بين القوى العظمى ما كان مرجحاً لها غير الاتساع . ولاح التاريخ مستحيلاً جانبهم ، شريطة أن يزاوجوا الخيال بالنظام . وهذا الأمر بأية حال مرد الرشاد الذي كمن وراء سياسة الانفراج التالية لنيكسون . وفي حقيقة الأمر تضمين لموقع تشرتشل المرتد في رسالته الى ايزنهاور في الأول من تموز عام ١٩٥٣ عندما تحدث عن " عشر سنين من السكينة والمعرفة الخصبة " التي تجيد العالم .

كان جون فوستر دالس ، بالاضافة الى ادينير ، السياسي الغربي الذي عارض بجزم اخطار وحدة الغرب الصعبة المنال بمفاوضات متذبذبة . وثمة صواب جوهري لتقييم دالس خطر ما أقترحه ستالين الذي طرحته بعدئذ نظريات الانعزال ، بيد أنه أنجب عجزاً نفسياً عندما حث الى تفادي المفاوضات برمتها كأيسر سبيل لاستتباب لحمة الغرب – كما يتبين من نغمة الحذر :

[ثمة نبض من الخطر الحقيقي لعدالتنا يلوح متوطناً في مبادرات السوفيت هذه . ولن يغشى علينا ما يفعلون بباعث من الضغوط الخارجة ، ولا أعتقد أن هناك فعلاً أخير من الالقاء على هذه الضغوط في هذا الوقت بالذات] .

انتهى دالس ، بهذه الاعلانات الى مديات سياسة الاحتواء وعازت المجتمعات الديمقراطية بعض السعي التي لا يستطاع له صبراً كي تبرر الحرب الباردة . وبالرغم من توافق البرامج السياسية على طاولة المفاوضات مع مصالح الديمقراطيات ، تطلب الأمر مفهوماً سياسياً بديلاً للتطور المسالم لأوروبا الوسطى – برنامج يوكد ابقاء المانيا في جسد الهيئات الغربية بالاضافة لاجراءات ترخية التوترات التي ضربت طول الخط الفاصل عبر أوروبا . واعتصم دالس من ذكر هذه الحاجة وآثر تأزيل حوارات وزراء الخارجية بالمواقع المألوفة كي يتمتع بالوقت اللازم لتعزيز حلف الأطلسي واعادة التسلح الألماني . جنبت مثل هذه السياسة ، لدالس ، الشقاق بين الحلفاء ، بينما أغنت قيادة ما بعد ستالين المتزعزعة عن مشقة اتخاذ القرارات المضنية .

واذ أيقن القادة السوفيت ان الديمقراطيات لن تضغط على قضايا أوروبا المركزية ، سعوا الى التأجيل الأحوج مع الغرب بالتركيز على ما عرفه ايزنهاور ودالس باختبارات حسن النية : كوريا ، الهند الصينية ومعاهدة الدولة النمساوية وفي كانون الثاني من عام ١٩٥٤ ، وصل اجتماع لوزراء الخارجية حول قضية المانيا الى طريق موصد . لقد انتهى دالس ومولوتوف الى خلاصات متطابقة تقريباً . لم يشأ الطرفان الانغماس في دبلوماسية متذبذبة واستحبا تعزيز مداري نفوذهما من خلال سياسة خارجية مغامرة .

ومع ذلك لم تكن مباديء الطرفين متناظرة حيث خدمت سياسة التأزل مرامي موسكو الداخلية والتكتيكية المباشرة ولكنها أوقعتها في أيادي الاستراتيجية الأميركية الطويلة الأمد - حتى لو لم يفقه جميع القادة الأميركان رمة الأمر . ولطالما التزمت الولايات المتحدة وحلفاءها بالظفر بسباق التسلح ومدار نفوذها الذي يتمتع بقوة اقتصادية أعظم ، تطلبت المرامي السوفيتية الآجلة والمبصرة سليماً استرخاء متأصلا للتوترات وتسوية واقعية لقضايا أوروبا الوسطى . تحاشى مولوتوف تقديم الامتيازات التي ستنقذ الاتحاد السوفيتي ، بالرغم من ألمها من الافراط الاستراتيجي والانهيار الأخير . وتفادى دالس المرونة ، فنقد لقاء ذلك ثمن الجدل الداخلي الفائض و العرضة الى مبادرات السلام السوفيتية الكونية ، ولكن مثل هذا الأمر قد وطد نصر أميركا الاستراتيجي الأخير .

وظب دالس فترة السكون لمداعبة مرماه في ضم المانيا الى الناتو وأمست ملذعة معضلة السبيل لمماشاة الجمهورية الفيدرالية داخل الهيكل العسكري الغربي كان الفرنسيون غير تيقين تماماً لرؤية المانيا في كامل سلاحها و لم يطب لهم نحر

أمنهم الوطني لقاء التحصين الغربي الموحد الذي يتبطن المانيا . وعنى هذا الأمر ، في شطره ، تسليم دفاع بلدهم الى اياد عاثت بفرنسا دماراً وخراباً قبل عقد من الزمان وخنقت قدرة فرنسا على مواصلة حروبها الاستعمارية . وهذا علة انهيار مخطط هيئة الدفاع الأوروبية بفعل المقاومة الفرنسية . وانقلب دالس وانتوني ايدن الى تحقيق الضم البسيط لجمهورية المانيا الفيدرالية بالناتو . واكبت فرنسا ، بفعل الضغوط ، هذا الأمر وأصرت في الوقت عينه على الزام بريطانيا قواتها بالتعسكر أبد الدهر في الثرى الألماني . وعندما أيد ايدن هذا الاقتراح ، وهبت فرنسا الضمانات العسكرية القاطعة التي قد أبتها بريطانيا ، غاية الاباء ، لما تصرم من عهد غداة الحرب العالمية الأولى . ومنذئذ فصاعداً ، لن تبرح القطعات البريطانية والفرنسية والأميركية المانيا ، لأنها بمثابة حلفاء للجمهورية الفيدرالية . ان ما استهل بمبادرة ستالين لانهاء تقسيم المانيا (الذي صادق عليه تشرتشل في ذات وقت بشكل مبهم قد خلص الى تأكيد تبعيض أوروبا . وما يثير السخرية أن تشرتشل ، داعية مدارات النفوذ ، قد صبا نهاية المطاف الى تهدئة أثارها أو ربما اجهاضها عن بكرة أبيها بينما انبرى دالس ، وزير خارجية أمة قذعت على الدوام هذه المدارات ، ليكون المتحدث الأول للسياسة التي جمدتها في محلها .

شعرت أميركا ، بعد أن امتلأت ثقة بوحدة مدارها ، بالسكينة للتحاور مع السوفيت . والحقيقة أن الكتل الأميركية والسوفيتية في أوروبا ، مهما كان مبلغ قوتها ، قد امسى التطرق اليها يتضاءل رويداً رويداً . وأيقن الجانبان بالتحرر الكافي لعقد قمة لا تحسم الحرب الباردة ، ولكن ليقينهم الدقيق انها ستغرب عن كافة القضايا الجوهرية . لقد تقاعد تشرتشل وتوطنت الجمهورية الفيدرالية في

الناتو وقرر الاتحاد السوفيتي ان استتباب مدار نفوذه في شرقي أوروبا لأمن من محاولة افتتان الجمهورية الفيدرالية على الانخراط من روابطها مع الغرب .

هكذا برهنت قمة جنيف في تموز عام ١٩٥٥ ، انها استغاثة قاصية لما اقترحه تشرتشل أصلاً . وذكر القادة المؤتمرون القضايا التي تمخضت عنها الحرب الباردة ، وعلى نحو عار ، دون استعراض بواعث التوتر . وناس جدول الأعمال بين المحاولة له لاحراز قضايا دعائية واحالة حل معضلات الشرق والغرب الى علم نفس محترف . وخاطر قليلاً اقتراح ايزنهاور على " التحليقات المفتوحة " لاستطلاع الجوي في أراضي الطرفين ، لأنها لا تعلم السوفيت بأمر لم تسره اليهم مخابراتهم ومصادرهم العامة ، في حين كشف الأمر النقاب لأميركا عن لغز الامبراطورية السوفيتية . وأنا أعرف من خاصة خبرتي أن مخططي السياسة في حاشية ايزنهاور الذي أرسوا ملامحها – وأغلبهم تحت رعاية نلسون روكفيلر ، الذي غدا بعدئذ مستشار الرئيس – ستعتريهم أيما دهشة لو أذن لهذا الأمر . ولم يستلزم رفض خروشوف فرض أية عقوبات على الاتحاد السوفيتي . لقد طرقت قضية أوروبا الوسطى أبواب وزراء الخارجية ، دون تشخيص الخطوط العريضة .

كانت النتيجة الرئيسة للقمة اجلاء المقتضى النفسي للديمقراطيات ليتنفسوا الصعداء بعد عقد من المواجهة . وبعد أن انتصبت الديمقراطيات ، بعناد ، بوجه اقتراحات ستالين الأول الخاصة ، رضخت الآن الى تغيير في النغمة السوفيتية . انها تماثل عداء الماراثون الذي يسقط خائر القوى على جانب السباق وهو مرآى من خط النهاية ، ليحلل لمنافسيه فرصة اللحاق به .

وكبت ايزنهاور ودالس بحذقة واحكام جماح ما تخلف عن مذكرة سلام ستالين ودعوات تشرتشل البليغة لعقد قمة عندما أصرا على حلول محددة للمعضلات الخاصة تماماً . ومع ذلك خلصا في نهاية المطاف ان انتظار تغيير سوفيتي لرسالة قاسية وان ابتكار مواقع تفاوضي خيارية لأمر جد حاسم . ان الاحتواء لا نطاق الاّ اذا بعث في أناسها بعض الرجاءة لوضع أوزار الحرب الباردة . وعوضاً عن الخروج ببرنامج سياسي من خاصتهم ، انقادوا الى ما كانوا يهابانه : الميل المتعاظم لتفسير أسلوبي خروشوف وبلغانن ، الأقل تحدياً ، كآية لتغيير أساس في وجهات نظر السوفيت .

ان الحقيقة العارية لعدم حصول الاجتماع ذي اللقاء ، برغم هشاشته ، قد سحت أمل الديمقراطيات بيسر التحول السوفيتي المنتظر طويلاً .

وحتى قبل انعقاد القمة ، بعث ايزنهاور بنغمة للاجتماع حيث سبك مرامي الدبلوماسية الشرقية – الغربية بمصطلحات نفسية واسعة هاجراً اصدار الادارة السابق لتحقيق تقدم مفصل وملموس :

[توسمت الكثير من مؤتمراتنا لما بعد الحرب أعظم التوسم بالاهتمام الى التفاصيل بفعل جهد يهدف بنحو واضح الى حل مشكلات خاصة ، دون خلق روح وموقف يدلف اليها] .

امتلأت الأوساط الاعلامية غبطة وأجمعت على القول أن أمراً جوهرياً قد طرأ في القمة بالرغم من بقاءه مبهماً . فكتبت النيويورك تايمز ، مقالاً افتتاحياً جاء فيه :

[لقد أتى السيد ايزنهاور أمراً ، أعظم في كنهه من دحر عدو في ساحة الوغى ، كما حصل قبل عقد من الزمان • لقد دلى دلوه لتفادي الحرب ..... ولعب رجال آخرون بالقوة على القوة ، أما هو فسار بالآخرين بفعل موهبته شطر نيته الحسنة] •

لقد انقاد حتى دالس الى " روح " جنيف حيث أخبر وزير الخارجية البريطاني ، هورالد ماكملان :

[جبلت السياسة الروسية من التعصب ، قوام العقيدة السوفيتية • أما الآن ، فتتجذر سياستهم على المرونة التي تشتمل على العلائق الحسنة مع الجميع لقد باتت القمة ، واجواءها الحائطة ، خاصة مكاسبهم] •

وجادل هورالد ماكملان بعد أن التمس لب الأمور أن الفائدة الحقيقية بقمة جنيف تكمن في العلاقات الخاصة التي أعانت على اقامتها بين القادة ، وليس الاتفاق على أمر خاص • فحتى في موطن دبلوماسية توازن القوى ، كان ثمة مناخ يسمو صوب عامل أساس للسياسة الخارجية :

[لم القى هذا الاجتماع قبساً من الرجاء وتوقعاً من أنحاء في أنحاء المعمورة ؟ ولم يكن بالنقاشات العظيمة ، على نحو خاص ... والذي أدهش خيالات الكون حقيقة الاجتماع الودي الذي ضم رئيسي أعظم فريقين انقسم دونهما العالم • والتقى هذا الزعيمان ، المعتوران اعباءً وشيكه ، ليتجاذبا أطراف حديث ويتمازحا معاً كسائر البشر ... ليس بميسوري الافراغ عن التفكير أن منظر جنيف في الصيف المنصرم ما كان مبهماً أو زائفاً] •

فليت التاريخ يكون غفوراً أكثر ، كان القادة الأميركان على صواب في تقييمهم البكر للحرب الباردة كمآل لأفعال السوفيت وليس لبلاغتهم أو خاصة سلوكهم • واضطر قادة الطرفين ، بفعل أباءهم للانصرام الى بواعث التوتر — الى تخليد هذه المعضلات وتقريحها • واذا ما آثر هذا اللقاء المجرد في الرأي الغربي ، فما الحافز الذي بقي للسوفيت ليدلوا بامتيازات كبيرة ؟ وفي الحقيقة لم يتجل أياً منها في جميع الشؤون السياسية لما تلى من عقد ونصف عقد •

الفصل الخامس

هنغاريا : ثورة في الامبراطورية

اذن عام ١٩٥٦ بتغيير مخطط العلاقات الدولية لما بعد الحرب ، بفعل تزامن حدثين ٠ فأزمة السويس قد أرخت فض بكارة التحالف الغربي ، وعجز الحلفاء الغربيون ، منذئذ ، عن الايمان كاملاً بخاصة بمجاهراتهم بالتناسب التام للمصالح ٠ وفي الوقت عينه أظهر القمع الدموي للانقلاب الهنغاري أن الاتحاد السوفيتي ليذود عن حمى مدار نفوذه ، بالقوة عند الضرورة ، وأن الحديث عن التحرر لأمر واه ٠ ولم يعد أدنى دابر من الشك ان الحرب الباردة ستمسي متمادية مريرة ، تتقابل فيها الجيوش المتناحرة عبر الخط الفاصل لأوروبا ، في أي قادم من الزمن يستطيع المرء تخيله ٠

كان مرد النضال الهنغاري المستميت ضد الهيمنة السوفيتية الى خليط متفجر من الاستعمارية الروسية التاريخية والعقيدة السوفيتية والوطنية الهنغارية الثاقبة ٠ فهنغاريا ، من جانب ، مجرد ضحية للتوسع الروسي ، الصائل والجائل ، دون رادع ، مذ عهد بطرس الأكبر ٠ وعلى مدى التاريخ سعت الدولة الروسية لقمع الأمم الصابية الى قيادة دفة سياسة مستقلة حقيقة على حدودها – الطمع الذي تمادى الى فترة ما بعد الحرب الباردة ٠ وما كان هذا الأمر الا غيث المعضلات الروسية حيث أرغم الروس ، غداة اخماد الاستقلال ، لمدائبة الحضور العسكري المضني في الدول المجاورة ، منضبة ثروة روسيا من دون تعضيد أمنها ٠ وتكرر المخطط أناه في عهد الشيوعيين حيث استعاد ستالين كل المقاطعات القيصرية التي

فقدت عند اختتام الحرب العالمية الأولى ، مضفياً لها ما غدت تعرف بالدول التابعة في شرقي أوروبا ، بعد أن رزحت لاحتلال الجيش الأحمر وسيطرت عليها حكومات سوفيتية تتلقى تعليماتها من موسكو ٠ وأصبح الحكم الملكي ، المستعصي عظيماً في عهد القياصرة ، معضلة أكبر في عهد الشيوعيين حيث بثقوا بفعلهم مقت السكان للحكم الخارجي ولما يضربوا عليهم نظاماً اقتصادياً شاقاً ٠

وبرهن التخطيط المركزي ذو الطابع السوفيتي مجزعاً ، نهاية المطاف ، حتى في ربوع الاتحاد السوفيتي وكان كارثة في الدول التابعة منذ تنفسه ٠ فمثلاً كان مستوى العيش في تشيكوسلفاكيا ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، يناظر ما لسويسرا وانخفض غداتها الى درجة رتيبة كالحة مصوراً حال كل المدار الشيوعي ٠ أما بولندا فكانت قاعدة صناعية عظيمة ، كايطاليا ، وذات مناهل أوفر ، ولكن حكم عليها الأقتيات مثل أوروبا الشرقية الفقيرة ، وأنس الألمانيون الشرقيون في النظام الشيوعي عقبة تعتور التحامهم بالرخاء الاقتصادي للجمهورية الفيدرالية ٠

وأيقن سكان أوروبا الشرقية قاطبة انهم ينحرون رفاهيتهم قرباناً للعقيدة الشيوعية والتسيد السوفيتي ٠

واذا ما طرحت شيوعية الاتحاد السوفيتي نفسها كظاهرة عسيرة ، لم يكن أدنى دابر للشك في أوروبا الشرقية انها فرضت تعسفاً وأن الطبائع الوطنية العتية قد أخذت بالاختناق ٠ وحتى بفعل سيطرة الشرطة الكاملة ، وأوساط الاعلام ، والنظام التعليمي ، كان الشيوعيون في الدول التابعة – واستشعروا أنفسهم – كأقلية محاربة ٠ وكتب لينين أن من الحماقة احتذاء البلاشفة للسياسات التي

فرضها القيصر نيقولا الثاني على جيرانه . والفارق بين الحكم الشيوعي ، وقت رحيل ستالين ، والحكم القيصري الفردي أن ستالين كان عاشقاً للدماء وأرفل اليدين . لقد دارت دائرة الاتحاد السوفيتي حتى انتهت الى ذات المعضلة التي قابلت روسيا بواكر تاريخها : ان أوروبا الشرقية ، التي تشيوعت لتشديد ازر الأمن الدولة السوفيتية ، قد أتت على الموارد وانها ، بفعل ما تجلى من الاهتمام العالي ، لعبأ أكثر مما هي منغم استراتيجي .

آمن ستالين ان دول أوروبا الشرقية التابعة لا تحكم في موقعها الا بفعل سيطرة تامة موجهة من موسكو . وفي عام ١٩٤٨ أفصح تيتو ، القائد الشيوعي الوحيد في شرقي أوروبا الذي تبوأ السلطة بخاصة جهوده ، ان بلغراد ستشق طريقها دائبة مستقلة عن ارشادات موسكو . ورد ستالين ثائراً بطرد يوغسلافيا من الكومنفورم* . لقد خاب توقع ستالين في انهيار تيتو ، حيث نبض بالحياة بفعل معونة الديمقراطيات الغربية فعلقت مؤقتاً اعتراضاتها الفكرية لاعتبارات توازن القوى العتيق .

كان خلفة ستالين جد متحوطين بحيث لم يواصلوا سبل قمع الطاغية ، وأخذ منهم الانقسام كل مأخذ بحيث طردوا عنهم البدعة الى ما وراء الكتلة السوفيتية . لقد أطبق عليهم خوفان متناقضان : ربما يجهض القمع في شرقي أوروبا على ترخية التوترات ، مع الغرب وهي الفاقة الأعوز ، وان تحرر الدول التابعة قد يفضي الى انهيار صرح الشيوعية برمته . (ولم تحل مخاوفهم من الغرب

* الكومنفورم (Cominform) : مكتب أسس عام ١٩٤٧ لتبادل المعلومات وغيرها بين دول أوروبا الشرقية الشيوعية .

دون ارسال الدبابات لاخماد انتفاضة المانيا الشرقية في حزيران عام ١٩٥٣) . وفي عام ١٩٥٥ ، استحبوا الحياة مع وطنية أوروبا الشرقية ، طالما مكث قادة الأمة شيوعيين سالمين ، وآثروا الصلح مع تيتو كآية أيسر لمفهومهم الجديد . وفي أيار عام ١٩٥٥ ، زار خروشوف وبلغانين بلغراد لرأب الصدع . ومع ذلك أطلقت محاولة التحرر ، كشأن محاولات الاصلاح الرادفة ، مسارب الفيضانات على مصارعها .

وبعد أن أدلى خروشوف خطابه في الجلسة العشرين للحزب ، شباط عام ١٩٥٦ ، مفصلاً جرائم ستالين ، غدت الشيوعية على جانب أكثر خيانة ما خلا في يوغسلافيا ، ففيها أبرمت قضية واقعية . وترشح سريعاً أن ستالين قد فقه التهديد التيتوي للاتحاد السوفيتي . ويكمن الايهام الذي صادفه قادة الدول التابعة في حاجتهم لحظوة بعض أوراق التصديق الوطنية ، لو صبوا الى تحقيق اي ضرب في التأييد الشعبي . وعليهم أن يقدموا ذواتهم كبولنديين وتشيك وهنغاريين وليس كبابوات من الكرملن . لقد أمست قبضة الكرملن على الأنظمة التابعة في شرقي أوروبا ، عقب زيارة خروشوف ، مبقورة بضغط شديد .

تبنت الولايات المتحدة ، أبان هذه الأحداث ، موقفاً سلبياً من حيث الجوهر وانبغى على سياسة الاحتواء ، بفعل بديهيتها المركزية ، ان تنذر حرية أوروبا الشرقية الى تسحت الزمن دون مجابهة السيطرة السوفيتية ميدانياً . وتهجم جون فوستر دالس ، في حملته الرئاسية عام ١٩٥٢ ، على هذه السياسة لافراطها السلبية في مقال عنونته مجلة اللايف " السياسة الملساء " .

وجادل دالس أن أمم أوروبا الشرقية – التي الصق بها مصطلح " الدول المأسوره " – قد شفت صوب اليأس ، " لأن الولايات المتحدة ، الامام التاريخي لقوى الحرية ، تلوح منغمسة في سياسة الاحتواء السلبية والتأزل " . وحث الولايات المتحدة " للجهر علناً بحاجتها للحرية وتوقعها ذلك " .

ولكن ما تكنه " الحرية " عملياً ؟ كان دالس تلميذاً جد جاد بالشؤون السوفيتية بحيث لم يعتريه الشك ان الاتحاد السوفيتي سيقمع أية ثورة . فبعد كل امر ، كان ستالين على قيد الحياة وقت كتابة دالس للمقالة ، لذلك أبى علناً التشجيع على " سلسلة من الاقماعات الدموية الثأرات " . وذكر دالس أن ما يجول في فكره " انفصال سلمي عن موسكو " على طراز تيتو ، تؤازره في ذلك الدعاية الأميركية والاجراءات الأخرى غير العسكرية .

وحين عاضد أشسون تيتو ، لانفصاله من موسكو على أساس **السياسة الواقعية** ، عنى دالس سياسة تماثل جوهراً مسحة المثالية العالمية فخلع عليها لقب " التحرر " . وعملياً كانت نظرية التحرر الدالسية محاولة لاعباء التكلفة السوفيتية ولما تعزز مستعمراتها دون ركوب الولايات المتحدة أية أخطار . كان دالس يشجع التيتوية ، لا الديمقراطية ، والفاصل بين أفكاره وما لأشسون قد انقلب تبايناً بلاغياً .

ويقيناً ان نقاد دالس قد ألصقوا به اراء منادية بتحرر أوروبا الشرقية التي لم يعبر عنها حقيقة فهي قضية كف عن تصحيحها . كان دالس المجير الأول لمؤسسات مثل صوت أوروبا الحر وصوت الحرية ، الساعية قبل كل شيء للابقاء

على رمق مبادىء الحرية حية في أوروبا الشرقية ولما تشجع على العواطف القادرة على اشعال فتيل الثورة . لم يكن ثمة أمر دقيق اذاعة أوروبا الحرة . فنظرياً ، كانت اعلاناتهم غير رسمية وتبنت " الحرية " بمفهوم الكلمة الحرفي الحيوي . وما يؤسف له أن الفصل بين التأملات " الخاصة " و " الرسمية " للمؤسسات الأميركية التي تمولها الحكومة قد برهن أنه جد متملص بحيث لم يهظمه محاربو الحرية الأوروبيون الشرقيون .

وهكذا تزامن انشغال الديمقراطيات بقضية السويس في اللحظة عينها وبوجه من الدقة مع الغاء الاتحاد السوفيتي نفسه بازاء مضايق شاقة صوب تابعيه الرئيسين ، بولندا وهنغاريا .

لقد استبقت بولندا الى اشعال الفتيل ، ففي حزيران أخمدت بدموية ثورات الشعب في المدينة الصناعية ، بوازن ، فمنيت بعشرات القتلى ومئات من الجرحى . وفي تشرين الأول ، قرر قادة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولندي ، وبعد أن نجوا من حملة تصفية ستالين قبل عام ، أن يلحموا أنفسهم بقضية الوطنية البولندية . وطلب من غومالكو ، التي طرد وشهر عام ١٩٥١ ، الرجوع بصفة السكرتير الأول للحزب الشيوعي ، وحضر اجتماع المكتب السياسي الأول في الثالث عشر من تشرين الأول عام ١٩٥٦ . ونحي المارشال السوفيتي ، قسطنطين روكوسوفسكي ، المتبوأ منصب وزير الدفاع والعضو المفروض على المكتب السياسي البولندي ، فأرخ بطرده نهاية لأرذل آيات الوصاية السوفيتية . وأصدر الحزب الشيوعي البولندي بياناً ، أعلم فيه أن بولندا ستطرق ،

منذئذ ، درباً الى الاشتراكية " ، الاعلان الذي اقضى على موسكو مضجعها لو استشعرت العواطف البولندية بالوطنية واللاكتراث صوب الاشتراكية .

لقد عبث الكرملن ذات لحظة بفكرة التدخل العسكري ، فشرعت الدبابات السوفيتية بالتحرك قاصدة المناطق الرئيسة . ونزل وارشو ، في التاسع عشر من تشرين الأول ، خروشوف يصاحبه رفاق المكتب السياسي مثل كاغانوفيش وميكويان وفولوتوف .

لم يغض القادة البولنديون طرفهم فاعلموا الأمين العام السوفيتي أن زيارته ليست بلقاء حزب بحزب ولن يحظى باستقبال في حرم المقرات القيادية للجنة الحزب المركزية . وعوضاً عن ذلك ، سألوا الوفد السوفيتي على التوجه الى قصر بلفدير ، اللائق بضيوف الدولة .

لقد عاد خروشوف القهقري ، في آخر لحظة ، وأمر القطعات السوفيتية ، في العشرين من تشرين الأول ، بالانقلاب الى قواعدها . وفي الثاني والعشرين من الشهر عينه ، صادق خروشوف على تعيين غومالكا أميناً عاماً في الحزب الشيوعي لقاء تعهد القادة الجدد على استتباب النظام الاشتراكي والحفاظ على عضوية بولندا في حلف وارشو . لقد مكث نظام الدفاع السوفيتي ، على ما يرام ، بيد أن ثقة القطعات البولندية في أية حرب مع الغرب ما عادت جزافاً ، اذا ما أعلينا من شأنها .

لقد جذف الاتحاد السوفيتي دبراً وأذن للشيوعية الوطنية أن تحمل أمرها في بولندا ، بباعث شطره أن القمع سيعني مغفرة لاناس يشكلون أكثر من ثلاثين

مليوناً ، عظمت شجاعتهم المتجلية والرغبة لمقاومة الأجانب بذكريات الارهاب الروسي التاريخي وحكم الافراد السوفيت . والأعلى أهمية أن الكرملن ، في الوقت عينه ، يمر بمرحلة اختبار أكثر صرامة في هنغاريا .

لقد رزحت هنغاريا ، ذات التسعة ملايين نسمة ، لدائرة القمع السوفيتي عنيها كما طرأ لجيرانها ومنذ الأربعينيات ، ظلت تحت حكم ماتياس راكوسي ، الحاكم الطائش والستاليني الأرثوذكسي . لقد افتداه ستالين عام ١٩٣٠ ، ليطلق سراحه من سجن بودابست لقاء اعلام هنغارية اغتنمتها الجيوش القيصرية عام ١٨٤٩ . لقد عضّ كثير من الهنغاريين أصابع الندم على هذه الصفقة ، لأن راكوسي قد قفل ومعه الجيش الأحمر وضرب نظاماً من القمع عد قاسياً حتى بالمعايير الستالينية .

وعقيب انتفاضة برلين عام ١٩٥٣ ، أزفت ساعة راكوسي . فلما دعي الى موسكو أعلمه بيريا ، بثوب ستاليني وحشي لا يضاهى ، أن هنغاريا لم تتمتع قط بحاكم يهودي ، برغم ضلوعها لحكم وطنيات عديدة وأن القيادة السوفيتية غير موشكة من تعيين أحد منهم . وتنحى راكوسي عن منصبه ليتبوأه إمر ناجي ، ذو السمعة الطيبة كمصلح شيوعي ويهودي ، كما صدف الأمر - بالرغم من تطبيقه وسائل أقل وحشية . وغداه سنتين من الاطاحة بجورجي مالنكوف في موسكو ، طرد ناجي وعاد راكوسي رئيساً للوزراء ، ففرض نظاماً شيوعياً صارماً طوراً آخراً . وهكذا تم قمع الأدباء والمفكرين وفصل ناجي من الحزب الشيوعي .

وانعدم في خلفه ستالين استقلاليته المضنية . فناجي لم يأذن له بالحياة حسب ، بل نشر بحثاً يهدد فيه حق الاتحاد السوفييتي في التدخل بالشؤون الداخلية لدول شيوعية تابعة . وبرهن راكوسي ، في الوقت ذاته وأبان جولته الثانية في السلطة ، عدم اكتراثه لتطلعات شعبه ، كشأنه في الجولة الأولى . وبعد أن شجب خروشوف ستالين ، في الجلسة العشرين للحرب ، استبدل راكوسي كرة أخرى ، وهذه المرة بمساعده القريب ، ايرنو غيرو .

وبالرغم من ادعاء غيرو بالوطنية ، تطابق كثيراً مع راكوسي بحيث عجز عن استئصال التيار الوطني الحماسي الذي عصف بالبلاد . وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول ، وبعد يوم من عودة غومالكا الرسمية الى بولندا ، ثارت ثائرة العامة في بودابست . لقد أقدم الطلاب على توزيع قائمة من المطالب تخطت عظيماً الاصلاحات في بولندا : فاستوعبت حرية الكلام ومحاكمة راكوسي ومساعديه وانسحاب القطعات السوفيتية وعودة ناجي الى الحكم . وعندما ظهر ناجي أما حشد غفير جداً في البرلمان ، كان حتى ذلك الحين ، شيوعياً مصلحاً واشتمل برنامجه على ادخال بعض الاجراءات الديمقراطية الى النظام الشيوعي . لقد أسرى الى الجمهور المحبط بزرع الثقة ، فالحزب الشيوعي سينجز الاصلاحات المطلوبة .

لقد طفح كيل الشعب الهنغاري بحيث شق سؤاله على الثقة بالحزب الشيوعي البغيض ليصلح تجاوزاته . وما طرأ بعد حين كان جزءاً مستقيماً لفيلم تعزى شخصيته الرئيسة ، بتردد وربما دون ادراك ، على تجشم مهمة لم يصطفيها هو بحيث تنقلب غداتها لتكون مصيره . ولاح ناجي ، الشيوعي الغيور والمصلح

طوال حياته ، منقذا للحزب الشيوعي في مراحله الأولى أبان الانتفاضة ، بالقدر تمامه لفعل غومالكو في بولندا . وبتصرم الأيام ، استحال بفعل عواطف شعبه الى رمز حي من الصدق ، كما صور الأمر دي توكوفيل قبل قرن :

[تفصح التجربة أن أكثر اللحظات خطورة ، لحكومة شريرة ، عندما تشرع باصلاح ذاتها . وما هي الاّ العبقرية العظيمة لتنقذ الأمير الذي يولي أموره راحة بعد قمع طويل . أن المعاناة التي يستطاع لها صبراً طالما هي قضاء وقدر ستغدو مترفضة في اللحظة التي يتنفسها فيها أي خلاص . ولن يخدم الاصلاح الاّ في كشف النقاب عما هو قمعي شديد الوطأة] .

وكان على ناجي أن ينحر حياته لقاء رؤيا الديمقراطية التي أدركته بعد فوات الأوان . وعقيب سحق الشيوعيين للثورة ، عرضوا على ناجي فرصة الارتداد . لقد نقله اباه واعدامه التالي الى مكان يتوسط مضرح شهداء قضية الحرية في أوروبا الشرقية .

وفي الرابع والعشرين من تشرين الأول ، استحالت التظاهرات الشعبية الى ثورة متفجرة شاملة حيث أضرمت النيران في الدبابات الروسية ، الداخلة حثيثاً الى المعمعة ، وتم الاستيلاء على مقرات الحكومة . وفي اليوم ذاته ، عين ناجي رئيساً للوزراء ووطأ الأراضي الهنغارية اثنان من أعضاء المكتب السياسي السوفيتي ، وهما ميخويان وسسلوف ، لتقييم الموقف . وخلص الزوار السوفيت ، في الثامن والعشرين من الشهر عينه ، الى محصلة تماثل مما استنبطها خروشوف في وارشو – أن يحسم الأمر لصالح هنغاريا التيتوية . وشرعت الدبابات السوفيتية

بالتقهقر من بودابست . بيد أن هذه الخطوة لم تهدأ من ثائرة الأمور كما حصل في بولندا ، فالمتظاهرون يرتضون الا بتحقيق نظام متعدد الأحزاب ، ومغادرة القطعات السوفيتية من كافة الثرى الهنغاري والانسحاب من ميثاق وارشو .

ومكث أميركا ، عند تجلي هذه الأحداث ، لائذه بالتحفظ و لم تتكهن واشنطن على وجه من الدقة ، بالرغم من حديثها عن " الحرية " ، بانفجار عظيم الأركان . لقد كانت نائسة بين الرغبة على معاونة العملية في السير قدما ، ما استطاعت سبيلاً ، والخشية أن تهيأ السياسة الحثيثة العذر للسوفيت على التدخل . والأعلى من ذلك كله ، أفصحت واشنطن بعجزها كاهلها عن تجشم أزمتين جليلتين في وقت واحد . وعندما جابه الطلبة والعمال الهنغاريون الدبابات السوفيتية في الشوارع ، لاذت واشنطن بالصمت و لم تتلق موسكو أي انذار بمخاطرة علاقاتها مع واشنطن لو لجأت الى التهديد أو استخدمت القوة .

لقد ناشدت الولايات المتحدة مجلس الأمن في السابع والعشرين من تشرين الأول ، في ضوء " الموقف الذي خلقته القوات الأجنبية في هنغاريا " . بيد أنها استطبت الأمر بوشاح جد متندد بحيث لم يحصل تصويت في قرار الأمن التالي حتى الرابع من تشرين الثاني ، غداة ما تحقق التدخل السوفيتي فعلاً .

وتجشم صوت اذاعة أوروبا الحر ، في الفترة الفاصلة ، عناء ترجمة وجهات نظر أميركا لتبعث في الهنغاريين الهمة على المسير بثورتهم واباءة أيما مساومة . فمثلاً استقبلت هذه الاذاعة ، في التاسع والعشرين من تشرين الأول ، تنصيب ايمري ناجي في رئاسة الوزراء الجديدة ببيان عدائي :

[يود ايمري ناجي ومساعدوه اعادة عهد حصان طروادة وتحديثه ويرغبون بوقف اطلاق النار بحيث أن الحكومة الحالية في بودابست ستحتفظ بمبوأها ما استطاعت قدراً . وعلى محاربي الحرية الآ يغشوا بصرهم ، حتى لحظة من الزمن ، عن مخططات الحكومة التي تضدهم] .

وعندما ألغى تاجي نظام الحزب الواحد ، في الثلاثين من تشرين الأول ، وأعاضه بحكومة ائتلافية تجتنح ممثلي كل الأحزاب الديمقراطية المساهمة في الانتخابات الحرة الأخيرة في عام ١٩٤٦ ، لم تبدد اذاعة أوروبا الحرة عنها الشك :

[لم تني وزارة الدفاع ووزارة الداخلية مقلدة بأيادي الشيوعيين . اياكم ، يا مقاتلي الحرية ، ان تهبوا لهذا الأمر مسير ، أو تلقوا ببنادقكم الى أظهر جدرانكم] .

وبالرغم من تمويل أميركا لصوت أوروبا الحرة بالمال ، كان في ادارته مجلس مستقل لمدراء لم يتلقوا تعليماتهم الرسمية من الادارة . ومع ذلك يشق على محاربي حرية هنغاريا معرفة الفاصل بين حكومة الولايات المتحدة واعلانات محطة اذاعية أنشأت كأداة لبث سياسة " الحرية " وأدعى وزير الخارجية أنها من بنات خلقه .

لقد تفوهت ادارة ايزنهاور بالكلمات ، في مناسبات قلائل ، فلاحت تيقه قبل كل اعتبار لطمأنة السوفيت عهداً آخراً . ولكن اعلاناتها ، ودونما قصد قد برهنت ملتهبة كحال اذاعة أوروبا الحرة . وعندما نكصت القوات الروسية

على عقبيها ، في السابع والعشرين من تشرين الأول من العاصمة الهنغارية أدلى دالس بخطاب في دالاس أظهر كأن الولايات المتحدة تغري هنغاريا بالابتعاد عن المدار السوفيتي ، دون ملاحظة موسكو للأمر . وأعلن دالس أن أي بلد أوروبي شرقي يثور بوجه الاتحاد السوفيتي سيرتكن الى المعاضدة الأميركية . ولن يشترط هذا التعاون " على تبني هذه الدول لأيما نظام اجتماعي خاص " . وبعبارة أخرى ، لا تلتزم هذه الدول ، لتحظى بمساعدة أميركا ، بانتهاج الديمقراطية ، فيكفي لها أن تحذو حذو الطراز التيتوي ، وتهجر ميثاق وارشو . لقد زاوج دالس ، في بيان أميركي أسمى شأناً ، بين هذا التعليق وتأكيد الأثرة . ويرى وزير الخارجية الأميركي أن الولايات المتحدة لا تتمتع " بأي هدف مضمر في ترغيب استقلال الدول التابعة " ، ولا تحملهم مشقة " الحلفاء العسكريين الأقوياء " .

وبرهنت بلاغة أميركا الدبلوماسية - الدعوى بغياب الحافز الباطني - انها آية لعدم التكهن أو الاستبداد ، كما ترجمها القادة غير الماركسيين . وعلى أية حال ، كانت موسكو في ذلك العهد في خشية حول الأفعال الأميركية بنحو أعظم من بواعث أميركا . وقبل ثمانية أعوام منصرمة ، رفعت موسكو حق النقض لما يتعلق بمساهمة أوروبا الشرقية في مشروع المارشال لأدراكها أن المعونة الأميركية الاقتصادية لضرب من الشرك الرأسمالي . وأكد هذا المضمار عرض دالس على المعونة الاقتصادية للمتقهقرين في حلف وارشو .

وماثل منحى دالس في التطمين المحرض للروس ، خطاب ايزنهاور الذي أدلى به في الواحد والثلاثين من تشرين الأول ، والذي كان آية بينة بنحو خاص على تكبيل الاتحاد السوفيتي بالعقوبات لو لجأ الى القمع . وربما كان ايزنهاور

موقناً ليتفوه بنغمة محرضة ، لأن الاتحاد السوفيتي في اليوم المنصرم قد صاغ دستوراً مقبلاً ، وان غامضاً ، يبقي القطعات السوفيتية في شرقي أوروبا . وفي الوقت عينه ، ربما كان ايزنهاور مرغماً على الاطلاع على حركة التعزيزات السوفيتية الهائلة الى سائر هنغاريا ، التي تزامنت بشروعها . كان لوذ ايزنهاور بالصمت حيال الاتحاد السوفيتي ، لفي أعظم صورة عند مقارنته بتعنيفه لبريطانيا العظمى وفرنسا ، في قضية السويس ، في البيان نفسه .

وبالنسبة لقضية هنغاريا ، أكد ايزنهاور أن الولايات المتحدة ، برغم رجاءها لنهاية للهيمنة السوفيتية على شرقي أوروبا ، " لا توكد تنفيذ هذه السياسة باللجوء الى القوة " . فهذا المنحى " يتناقض مع المصالح الأجود لشعوب أوروبا الشرقية ، ومع المباديء التي تلتزم بها الولايات المتحدة " . ذا حقيقة راغ منها صوت اذاعة أوروبا الحرة ومقاتلو الحرية ، ولما يترجوا المعونة الأميركية . وفي تلك الأثناء استطرد ايزنهاور حديثه وشمر على ساعده :

[تبديد كل المخاوف الواهية والتطلع لحكومات جديدة في دول شرقي أوروبا كحلفاء عسكريين أشداء . وليس لنا مثل هذا السعي المستتر ، لأننا نأنس هذه الشعوب أصدقاء ، ويحلو لنا أن يكونوا أصدقاء للمتحررين] .

وتكمن سخرية بياني ادارة ايزنهاور الرسميين في خضم الثورة الهنغارية أن انهما مستنفران ، بنحو غير مقصود تماماً . لقد أقضى مضجع القادة الروس ما أعادت تأكيده الولايات المتحدة على اعتصامها عن ايجاد حلفاء لها في شرقي أوروبا ، لأن الأمر قد لاح كأن أوروبا الشرقية حائزة الخيار على قلب

الأحلاف ، عاليها سافلها • ومن ناحية أخرى ، بركن* الأزمة الشجب الأميركي للقوة ولما أمنت مخاوف السوفيت من رد الفعل الأميركي لـو أخمد الجيش الأحمر الانتفاضة •

ووقتئذ ، خرجت الأمور في بودابست حتى من قبضة القيادة السياسية المصلحة حيث استولى الثوريون ، في الثلاثين من تشرين الأول ، على مكتب الحزب الشيوعي في بودابست وذبحوا قاطنيه بما فيهم أحد أقرب مساعدي ناجي • وفي تلك الظهيرة ، أعلن ناجي تكوين حكومة جديدة على ماقام بأساس ما قام عام ١٩٤٥ ، أبان عهد نظام ائتلاف الأحزاب الديمقراطية • وتمثل اسدال الستار عن حكم الحزب الشيوعي الواحد بالحضور في وزارة بيلاكوفازك وقبل سنوات قلائل ، اتهم كوفازك بالخيانة بينما أفرج عن الكاردينال مندزنتي ، الشعار الشامخ لمعارضة الشيوعية ، وتحدث الى الحشود المتحمسة • وشرع ناجي بمفاوضاته مع مبعوثي المكتب السياسي ، ميكويان وسسلوف ، مطالباً اياهم بانسحاب كل القطعات السوفيتية من كافة ارجاء هنغاريا • وشرعت جمهرة في الأحزاب السياسية بفتح مقراتها ونشر الصحف والكتيبات •

وبعد أن أبصم الرسولان السوفيتيان في ناجي الانطباع بتفاوض اقتراحه ، قفلا الى موسكو ليتدبرا الحلقة المقبلة من الحوارات • وفي تلك الأمسية بالذات ، نشرت البرافدا وازفستيا بياناً رسمياً للكرملن ، أصدر في اليوم السابق ، يقضي بحاجة مصادقة الدولة المضيفة وحلف وارشو برمته اذا ما شيء للقوات الأجنبية المكوث في دولة شيوعية تابعة :

---

* بركن هنا معناها أثارها كالبركان •

[ان تعسكر قطعات دولة عضو في معاهدة وارشو فوق أراض دولة أخرى عضو في تلك المعاهدة لن يتم الا باتفاق كل الأعضاء وبرضا وطلب من الدولة التي تجثو على ثراها هذه القطعات ، أو مقدر لها ذلك الفعل]•

وعلى أساس هذه المفردات ، بطن ايزنهاور تفسيراً جد متفاءل لاعلان الحكومة السوفيتية الرسمي في بيانه الذي أدلى به في الواحد والثلاثين من تشرين الأول ، كما ذكرناه سلفاً :

[اذا ما احتذى الاتحاد السوفيتي باخلاص مرماه المعلن سيخطو العالم أعظم فرجة صوب العدالة والثقة والتفاهم بين أمم عصرنا] •

وعندما بدا البيان السوفيتي مواكباً لقضية المبدأ العام ، غضت واشنطن طرفها عن تحذيرين حرجين : أولهما الكناية أن انسحاب القوات ليقتضي ذات اجراء تعسكرها ، فمنح الأمر الاتحاد السوفيتي صوتاً • وثانيهما أن الفقرات الموجهة خاصة الى هنغاريا ، وتبطن انذاراً مشؤوماً " يحرم على " الاتحاد السوفيتي تخليه لما شخصه " بالمنجزات الاجتماعية" الهنغارية ، وسيذود عنها سواسية مع سائر الأقطار الاشتراكية ، لو اقتضى الأمر ذلك :

[لقد كانت حراسة المنجزات الاشتراكية لأناس هنغاريا الديمقراطية واجباً مقدساً وأساسياً يلقى على عاتق العمال والفلاحين وأهل الفكر ، وكل الشريحة الهنغارية العاملة هذا الوقت • وتعرب الحكومة السوفيتية عن ثقتها الا يأذن أناس الأقطار الاشتراكية للقوى الرجعية الداخلية والأجنبية لتهز عروش

نظام الشعب الديمقراطي .... انهم سيأصرون الوحدة الأخوية والتعاون المتبادل للأقطار الاشتراكية لظأر القضية العظيمة للسلام والاشتراكية] .

وما أشار اليه البيان بـ " هنغاريا الشعب الديمقراطية " قد انفك عن نعت نفسه بهذا الاسم وما عاد في باءة تقدره على تدريع منجزاته الاشتراكية . وما كان ناجي ، العضو الذي له باع طويل في الكادر الشيوعي ، بمخفق عن استيعاب فحوى التحذيرات السوفيتية ، أو التغييرات التي تبناها هو . ومع ذلك ، تفخخ ناجي بين غضب شعبه وضراسة الاحلاف الشيوعية ، فآثر أن يشق تياراً لا يستطيع له قدرة وتوجيهاً . وبخلاف الشعب البولندي ، طالب الهنغاريون اجهازاً على النظام الشيوعي ، وليس تحرراً منه وانفصالاً من الاتحاد السوفيتي ، لا تناظراً معه .

واحتذى ناجي في الأول من تشرين الثاني ، وبعد أن خلق لتوه حكومة ائتلافية ، خطوته النهائية القاطعة ، باعلان حيادية هنغاريا وانسحابها من حلف وارشو . لقد تخطى هذا الأمر أقصى ما حاوله غومولكا في بولندا ، وأعلن تاجي في راديو هنغاريا بياناً جليلاً أدانه بعقوبة الاعدام :

[ان حكومة هنغاريا الوطنية ، المتجشمة مسؤولية غائرة صوب شعب هنغاريا وتاريخها ، ولكي تعبر عن الرغبة الواحدة لملايين الهنغاريين ، لتعلن حيادية جمهورية هنغاريا الشعبية . ويرجو الشعب الهنغاري ، على أساس الاستقلال والمساواة المواكبة لروح ميثاق الأمم المتحدة ، بالعيش في صداقة حقه مع كافة الجيران ، مع الاتحاد السوفيتي وكافة شعوب المعمورة . ان أناس

هنغاريا ليطيب لهم تعزيز منجزاتهم وتقدمها أكثر ، لما يخص ثورتها الوطنية ، دون اعتناق أيما كتل قوة] .

وفي الوقت عينه ، سأل ناجي الأمم المتحدة على الاعتراف بحيادية هنغاريا ، لكنه لم يتلق رداً . وما يشجي مناشدة ناجي ذلك اللااكتراث الذي قابله به ما يدعى بالمجتمع الدولي . لم تطرق الولايات المتحدة ولا حلفاءها الأوروبيون أية خطى لحث الأمم المتحدة على دراسة رسالة ناجي بأساس عاجل . وتخطى السوفيت أي التماسات للتمدن حيث شرعت قواتهم ، الدافقة الى هنغاريا منذ عدة أيام ، بتوجيه نار حممها ودون انذار صبيحة الرابع من تشرين الثاني ، فأخمدت بوحشية الثورة الهنغارية .

أما يانوس كادار ، الضحية السابقة لتصفيات ستالين والشخص الذي بوأه تاجي منصب الأمين العام للحزب الشيوعي والمختفي ، بنحو غامض ، قبل بضعة أيام ، فقد أقفل وفي صحبته القطعات السوفيتية لاقامة حكومة شيوعية حديثة . والقي القبض على بال ماليتر ، قائد الجيش الهنغاري ، عندما كان يفاوض في مسألة انسحاب قطعات السوفيتية من هنغاريا . أما ناجي ، المحتمي في سفارة يوغسلافيا ، فقد قبل بالوعد على المرور سالماً الى يوغسلافيا ، ولكن القي القبض عليه حال برحه البناية . والتجأ الكاردينال منذزنتي الى دار المفوضية الأميركية ، ومكث فيها حتى عام ١٩٧١ . لقد حكم على ناجي ومولتير بالموت . ان روح ستالين ظلت نابضة بالحياة صاحية في الكرملن .

وبعد تلك الفترة الخطيرة الكاملة من اعداد القطعات السوفيتية عدتها ، يممت شطر المأساة الهنغارية الأمم المتحدة وجهها ، في الرابع من تشرين الثاني غداة انهماك خاص بشجب بريطانيا العظمى وفرنسا لأفعالهم في السويس ، وطالب قرار لمجلس الأمن بانسحاب القوات السوفيتية ، ولكنه تعرض لنقض السفير السوفيتي ، على نحو عاجل ، وصوتت جلسة خاصة للجمعية العمومية على قرار مماثل يؤكد حق هنغاريا بالاستقلال ويطالب بارسال بعثه من مراقبي الأمم المتحدة الى هنغاريا . لقد كان هذا القرار المقدر الثاني ، في اليوم ذاته ، ولما تنشأ الجمعية العمومية قوات طواري تابعة للأمم المتحدة في الشرق الأوسط . وقوبل قرار الشرق الأوسط بالاجماع ، حتى ان بريطانيا العظمى وفرنسا قد انضمتا الى هذا التصويت ، أما قرار هنغاريا فأقر باغلبية خمسين صوتاً مقابل ثمانية ، و امتناع خمسة عشر عن التصويت . فالحلف السوفيتي قد صوت ضد القرار ، وامتنعت دول عدم الانحياز ، كالهند ويوغسلافيا عن التصويت ، بمثلى ما فعلت دول الغرب . لقد وضع قرار الشرق الأوسط خير التنفيذ ، بينما انغض الطرف عن قرار هنغاريا .

وعقابيل القمع الوحشي لثورة هنغاريا ، أثير السؤال حول مدى اجهاض الدبلوماسية الغربية ، الشديدة كثيراً والواهمة للمأساة أو تخفيف وطأتها . ومن الجلي أن القوات السوفيتية قد عززت ، بأكثر التعزيزات ، فترة أيام عديدة . ألم يكن الأمر في قدرة الديمقراطيات على كبح هذه القطعات من توجيه الضربة ؟ لقد رفعت الحكومة الأميركية ، بنفسها أولاً ، بيرق الحرية وبعثت دعاياتها في صوت اذاعة أوروبا الحرة شلال الأمل تحظى حتى ما تكهن به دالس ، في مقالة اللايف

عام ١٩٥٢ . وعندما ثارت ثائرة هنغاريا ، تحتم على دار المفوضية الأميركية في هنغاريا أن تنقل الى قسم الدولة ما يفقهه أي صحفي : انحلال القوام السياسي لهنغاريا الشيوعية . وبحضور الصف الباهر من خبراء المشورة في أمور الكرملن مثل تشارلز بوهلن ولولن ثوميسون وفوي كوهلر وجورج كينان ، سيغدو من المتعذر التخيل أن قسم الدولة لم يضع في أدنى اعتباراته امكانية التدخل السوفيتي . وعلى أية حال ، لم تبذل ادارة ايزنهاور أي مجهود لاثارة عبأ التدخل السوفيتي .

لقد هبطت أميركا ، أبان ثورة هنغاريا ، قاصية دون اعلاناتها البليغة ، وتجلت في السياسة الأميركية ، عقداً من الزمان ، الرغبة عن ركوب خطر الحرب لقلب الهيمنة الشيوعية على شرقي أوروبا . ولكن خيبة أميركا في ابرام خيار دون الحرب لبقر الأحداث ، قد قرّح صدعاً هائلاً بين ما تجهر واشنطن به وما تعاضده حقاً . لم تفسر الولايات المتحدة قط مديات المآزرة الأميركية الى الحكومة الهنغارية الناهضة ، على غير خبرة ، ولم تسد عبر القنوات المفتوحة المتيسرة النصح للهنغاريين أنى يعززوا مغانمهم قبيل اتخاذ خطوات لارجعة فيها . لقد ارتكنت الولايات المتحدة ، في اتصالاتها مع القيادة السوفيتية ، على البيانات العامة بشكل كبير فخلصت هذه الاعلانات الى خلق بواعث تناقض تماماً ما صبت اليه ادارة ايزنهاور .

وكان ثمة ضرورة لوقفة أميركية ، أشد حزماً ووضوحاً ، لتعرض الروس عن قرارهم في التدخل ، أو في أقل احتمال لا تخلو من المآل الواضح . كان على الكرملن أن يتلقى تهديداً بخطر أعباء اقتصادية وسياسية ثقيلة ، وجمود للعلاقات بين الشرق والغرب ، في المستقبل المنظور ، لو لجأ الى القمع في هنغاريا . لقد

تصرفت الولايات المتحدة وحلفاءها كمتفرجين ، من دون احداق الخطر بالنتيجة .

كانت الديمقراطيات في مبوأ يؤهلها على ركوب الحرب في هنغاريا ، لكنها اثارت هول الأعباء السياسية والاقتصادية للقمع السوفيتي ، ولم يدفع الكرملن أي ثمن لافعاله ، حتى الاقتصادي منه . وبعد نحو ينيف بعضاً على السنتين ، وبرغم التحذير السوفيتي الى برلين ، زار هورالد ماكملان موسكو ، وهي أول زيارة يقوم بها رئيس وزراء بريطاني عقب الحرب . وفي خضم ثلاث سنوات ، يحتفل ايزنهاور وخروشوف بروح كامب ديفيد .

لقد وهبت أزمة السويس الباعث للدول العربية ، وقادة دول عدم الانحياز كالهند ويوغسلافيا ، لتصول على بريطانيا العظمى وفرنسا . وأبت هذه الدول ، عندما مس الأمر قضية هنغاريا ، انتقاد الأعمال السوفيتية أو حتى ادانتها في الأمم المتحدة . وثمة وشيجة مرضية بين أصوات الأمم المتحدة في قضيتي هنغاريا والسويس . وكان من المقدر لاجراءات الولايات المتحدة حيال بريطانيا العظمى وفرنسا ، أن تكيف دول عدم الانحياز في أسوء احتمال على قلب اراءها ضد الاتحاد السوفيتي في هنغاريا . وما تجلى أن الاتحاد السوفيتي لم يعبأ بتأثير دول عدم الانحياز ، بينما لم تضمر الولايات المتحدة أي فعل آخر لهذه المجموعة ، كمآل لموقف هذه الدول في قضية السويس .

وابان الخمسينيات ، مثلت ما تسمى بمجموعة عدم الانحياز فكرة واسعة للعلاقات الدولية . لقد نبضت الأمم المحايدة على الدوام ، ولكنها توسمت بسياسة

خارجية سلبية . وعلى النقيض من ذلك ، لم تستشعر دول عدم الانحياز في عهد الحرب الباردة بحياديتها ليقتضيها الأمر امساكاً عن أيما فعيل . وفي الحقيقة كانوا ممارسين على جانب من الفعالية في تطوير جداول الأعمال والمحافل الصابية لتعزيز أثرهم ، أو بالأحرى ، صياغة أحلاف لهم . وبالرغم من بجاهراتهم الصاخبة في شكواتهم عن التوترات الدولية ، خبروا أنى ينتفعون منها ، وكيف يدقون اسفيناً بين القوى العظمى . وبباعث من خشيتهم من الاتحاد السوفيتي على نحو أعظم من الولايات المتحدة ، جانبوا الشيوعيين من دون أي شعور بالحاجة المقابلة لتطبيق الحجة الأخلاقية عينها مع الاتحاد السوفيتي ، كما أقدموا مع الولايات المتحدة .

وفي السادس عشر من تشرين الثاني ، تقدم جواهر لال نهرو ، رئيس وزراء الهند الى البرلمان الهندي بحجته العقلية المتحذلقة عن سبب اباء الهند للمصادقة على قرار الأمم المتحدة الذي يدين الأفعال السوفيتية في هنغاريا . وقال ان الحقائق مكتنفة " بالغموض " والقرار غير صائب الكلمات وان الدعوى لانتخابات حرة باشراف المتحدة لخرق لسيادة هنغاريا الوطنية .

ويمكن خلع الحقائق بكل النعوت ماخلا الغموض . ان رد فعل الهند مواكبة لممارسات **السياسة الواقعية** حيث رغبت الهند عن تخلي المؤازرة السوفيتية في المحافل الدولية . ولم تر أيما باعث ليحل عليها الغضب السوفيتي وتنحر الامدادات العسكرية القوية قرباناً لبلد أوروبي قاص ، ولما تنتصب الصين والباكستان على حدودها ولا يبتعد الاتحاد السوفيتي عنها كثيراً .

لم تستشعر الهند في السياسة الخارجية نقاشاً بالرغم من زعم دبلوماسييها بتمتعهم المتميز بالحق على اصطفاء الظافر على أساس محض من الحسنة الأخلاقية . لقد التحق قادة الهند بمدارس في بريطانيا وقرأوا الأدب الكلاسيكي الأميركي . وزاوجوا بين بلاغة ولسون وكلادستون وممارسات دزرائيلي وثيودور روزفلت . وفي رأي الهنود ، أصاب هذا الأمر فحوى رفيع المقام طالما لم ينخدع محاوروهم بالاعتقاد أن البلاغة الهندية دليل الى عمل الهنود ، أو أن السياسة الخارجية الهندية تحكمها الأخلاقية الأسمى المجردة .

وفي الثامن عشر من كانون الأول ، وغداة ستة أسابيع على المأساة الهنغارية ، أوضح دالس في مؤتمر صحفي رشادة رد أميركا للانتفاضة . وما من المدهش أنه لم يكف عن تطمين الاتحاد السوفيتي بنوايا أميركا المسالمة :

[.....ليست لدينا رغبة باحاطة الاتحاد السوفيتي بطوق من الدول المعادية واحياء المسعى الذي طورته فرنسا بنحو عظيم في أعقاب الحرب العالمية الأولى بقصد محاصرة الاتحاد السوفيتي بدول معادية . وفي هذا المضمار ، أفصحنا عن سياستنا التي تأمل بنشوء مسالم للدول التابعة صوب الاستقلال الأصيل] .

وهذا بيان يثير العجب حقاً . فما الذي تبتغيه الاحتواء غير تحويط الاتحاد السوفيتي بقوى قادرة على مقاومة توسعه ؟ ان ما يلفت الأنظار حقاً نغمة دالس الاعتذارية عقيب ما أفصح الاتحاد السوفيتي عن وحشيته في هنغاريا وتهديده في الوقت ذاته بشهر القوة في الشرق الأوسط .

وأوجز دالس موقف أميركا في مؤتمر صحفي عقد في أستراليا في الثالث عشر من آذار عام ١٩٥٧ :

[ليس ثمة أي أساس لنهب المعونة العسكرية الى هنغاريا . وليس لنا التزام في ذلك ، ولا نعتقد أن هذا الأمر سيعضد شعب هنغاريا أو شعب أوروبا أو بقية العالم] . واستمر دالس في ابتعاده عن بيت القصيد ، فما القضية بقانونية أو متعلقة بتحقيق أميركا لالتزاماتها . انها لذات صلة بمدى السير وفقاً لتطبيقات الاعلانات .

وتحتم على أميركا ، المنادية برسالة عالمية ، أن تواجه الهوات بين مبادئها ومصلحتها الوطنية . لقد كان التأثير المتزامن لقضيتي السويس وهنغاريا أحد هذه الأحداث . أما حلم أميركا العظيم مكان سياسة خارجية تنضوي فيها طبيعة عالمية لمبادئها .

كانت هنغاريا أمراً أكثر تعقيداً ، بحيث تطلبت تطبيقاً للقوة بهيأة ما . ومع ذلك ، لم يرق للقادة الأميركان المخاطرة بأرواح الأميركيين من أجل قضية لا تبطن منفعة أمنية أميركية مباشرة ، بصرف النظر عن مدى اهانتها لضميرهم . ان المبدأ لا يأذن بالابهام والتدرج . أما في هنغاريا ، فقد وضح المبدأ للسياسة الواقعية ، كما تفعل الأمم الأخرى تماماً ، لأن الاصرار على المبدأ يحمل خطر حرب لا مندوحة منها ، وربما حتى حرباً نووية . وعندما يحيق الخطر بالاحياء ، يغدو من واجب رجل الدولة نحو شعبه وذاته أن يشرح الصلة بين الأخطار والمنافع مهما وسع تعريفها . كان الاتحاد السوفيتي متأهباً بكل جلاء لركوب الأخطار

كي يستتب موقعه في أوروبا الشرقية ، بنحو أعظم من الولايات المتحدة المحبذة للاقدام كي تحرر هنغاريا . وما من أمر يلتف بالمعادلة . لقد كانت سياسة أميركا في هنغاريا واهنة حقاً ، بمفردات بلاغتها التي سبقت الانتفاضة . أما بلغة المصالح ، فكان الامساك عن المخاطرة بحرب محتوماً وملائماً - بالرغم من انها لا تفسر الاكتراث في ابهاض نفقة التدخل السوفييتي بوسائل غير عسكرية .

وانجب خطر هنغاريا والسويس نظراء الردح المقبل من الحرب الباردة . لقد قدر الاتحاد السوفييتي على صيانة موقعه في أوروبا الشرقية ، في حين منيت الديمقراطيات - بما فيها الولايات المتحدة - بانحدار نسبي في موقعها في الشرق الأوسط . والفى الاتحاد السوفييتي مخرجاً ليروغ من الاحتواء . وفي اليوم الذي أعقب تدمير القطعات السوفييتية لبودابست بوحشية ، هدد خروشوف ، والقتال دائر الرحى ، بالهجوم بصواريخه على أوروبا الغربية ودعا الولايات المتحدة للاضطلاع بفعل مشترك في الشرق الأقصى ضد حلفاءها الأقربين . لقد تركت الولايات المتحدة هنغاريا هائمة في يم النشوء التاريخي وبرحها حلفاءها الغربيون بعدما وسموا عجزهم في أي فعيل من أجلها .

لم يكن مبهماً في ذلك الوقت الوهن المتأصل في الاتحاد السوفييتي . وما يثير السخرية أن ينطلق نصراء علاقة القوة الشيوعيون بأنفسهم في مغامرة لا يستطيعون لها صبراً . ولكن ظلت حقيقة تقول أن الثورات الطارئة في الأقطار المتطورة حسب تضطرم داخل المدار الشيوعي . وكان في مقدور الاتحاد السوفييتي ، نهاية المطاف ، أن يغدو على جانب أعظم من الأمان والاقتصاد لو أحاط نفسه بحكومات على الطراز الفنلندي في أوروبا الشرقية ، اذ لن يكون مشروطاً عليه

تجشم مسؤولية الاستقرار الداخلي والتقدم الاقتصادي لهذه الدول . وعلى نقيض ذلك ، استنزفت الامبريالية في أوروبا الشرقية الموارد السوفييتية وارعبت الديمقراطيات الغربية ، من دون أن تعضد القوة السوفييتية . وما كان في ميسور الشيوعية ترجمة هيمنتها على الحكومة والأوساط الاعلامية الى قبول شعبي . واذا لم يشأ قادة أوروبا الشرقية الشيوعيون القعود على الحراب السوفييتية الكاملة ، سيضطرون للتكيف مع برامج معارضيهم الوطنيين . وهكذا يمم (كادار) تدريجيا صوب المقاصد التي منشدها (ناجي) . وبعد تصرم جيل ، أفرغ الوهن السوفييتي الكامن نفسه في ثورة هنغاريا مبشراً بالافلاس الأخير للنظام الشيوعي . وبالرغم من كل ما حصل ، أمست هنغاريا في ما تلا من سنين عشر أحرر داخلياً من بولندا ومتمتعة بسياسة خارجية أكثر استقلالاً من الاتحاد السوفييتي . وفي ما ردف من خمسة وثلاثين عاماً ، أضاع السوفيت كامل سيطرتهم على الأحداث ، في الردح الثاني من محاولة موسكو للتحرر .

لقد أدلى مآل عام ١٩٥٦ دلوه في جيل آخر من المعاناة والقمع . ومهما لاح الفاصل الذي استبق الانهيار الأخير قصيراً في مباصر المؤرخين ، فمن المتعذر تخيل الخنق الذي فرضه الدأب الدكتاتوري على ضحاياه الجمة .

الفصل السادس

انذار خروشوف النهائي

أزمة برلين ١٩٥٨ – ١٩٦٣

قرر المنتصرون الثلاثة ، في مؤتمر بوتسدام أن يحكم برلين القوى المحتلة الأربع – الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا والاتحاد السوفيتي – وتتآصر هذه القوى في قيادة شؤون المانيا أيضاً . واتضح أن ادارة القوى الأربع لألمانيا لم تعمر الا ما ينيف على السنة ، حيث تعانقت المناطق الغربية ، في عام ١٩٤٩ ، بالجمهورية الفيدرالية وأمست المقاطعة السوفيتية جمهورية المانيا الديمقراطية .

واتفقت القوى الأربع في ترتيبها أمر برلين ، الا تكون هذه المدينة شطراً من المانيا – شرقها أو غربها – فهي ستخضع رسمياً الى حكم الحلفاء الأربعة ، ابطال الحرب العالمية الثانية . واحتل السوفيت قطاعاً عظيماً شرقياً من المدينة ، وحظي الأميركان بجزء في الجنوب ، بينما تمتعت بريطانيا العظمى وفرنسا باراضيهم في الغرب والشمال . وكل ما بقي في برلين ، وقتئذ ، جزيرة في بدن ما صار جمهورية المانيا الديمقراطية . واذ دهرت السنين دهرها ، الفى الالمان الشرقيون والسوفيت أن القطاعات الغربية الثلاث لشوكة تعتور سبيلهم ، فهي الخزانة التي تعرض رخاءً في خضم الشيخوخة التعسة للكتلة الشيوعية . والاشأن من ذلك كله ، مهدت برلين الغربية كممر لهجرة الألمان الشرقيين الى الغرب ، فما عليهم الا أن يلجوا أحد المنافذ الغربية للمدينة ثم يقدمون طلب الهجرة .

وما يثير الدهشة الاغفال عن التفاوض في التدبيرات الواضحة لدخول هذه المدينة ، برغم من تمتعها بباءة القوى الأربع . ومع أن هذه القوى صممت دروباً عديدة وممرات جوية للانتهاء الى برلين ، لم تتفق علناً على مكننات المرور . وفي عام ١٩٤٨ حاول ستالين اغتنام هذه الهوة لينشأ حصار بدعوى ان طرق العبور قيد التصليح . وعقب سنة من النقل الجوي الغربي ، سيعاد اذن العبور في حين مكثت السلطات المحلية ، برغم من ذلك ، مبهمة دائماً .

وفي خضم السنوات التي ردفت الحصار مباشرة ، أصبحت برلين مركزاً صناعياً رئيساً ذات بضائع لا يلبيها النقل الجوي ، عند الطوارىء ، وبالرغم من اعتمالها ، فنياً ، كمدينة القوى الأربع ، واضطلاع الاتحاد السوفيتي بمسألة دخولها ، وهيمنت المانيا الشرقية ، التابعة ، حقيقة على مخارج العاصمة ، برلين الشرقية ، وهكذا كان مبوأ برلين عارياً وان طرق الاتصال ، جواً أو بالقطار ، طعم سهل للانقطاعات المبتذلة كثيراً ، بحيث يشق الذود عنها بالقوة ، مع انها تهدد بنحو مطرد حرية المدينة . وكان من المفترض نظرياً أن يخضع المرور العسكري لنقاط تفتيش يسيطر عليها السوفيت . وما هذا الأمر الا ضرب من الخيال حيث حرس الألمان الشرقيون البوابات ، بينما اضطجع الضباط السوفيت في سكن مجاور ، لحالة الاختلاف .

ووطد خروشوف العزم على استغلال عرضة برلين ولما ينقب عن بقعة يجلي فيها التحوير الدائم لترابط القوى . وأشار في مذكراته :

[علينـا أن نقر بأثر قـدم أميركـا المرجـع في أوروبـا ، خاصـة في برلـين الغربيـة · ومثلما شئنا الضغط على اقدام الأميركان واشعارهم بالألم ، كل ما علينا أن نفعله تعويق الاتصالات الغربية مع المدينـة عبر أراضي جمهوريـة المانيـا الديمقراطية] ·

وأصاب تهديد خروشوف لمكانة الغرب في برلين من اللحظة تمامها عندما أقنعت الديمقراطيات نفسها ، طوراً آخراً ، ان الأمين العام المعين لخير رجاءهم في السلام · وحتى جون فوستر دالس ، المراقب المرتاب كثيراً من المسرح السوفيتي ، قد رد على خطاب خروشوف في جلسة الحزب العشرين في شباط عام ١٩٥٦ بالاستشهاد بتبصره لـ " تحول ملحوظ " في السياسة السوفيتية · وذكر أن القادة السوفيت قد خلصوا :

[بأزوف الوقت لابدال مفهومهم ، جذرياً ، عن العالم غير الشيوعي .... لقد انطلقوا ، الآن ، على مدائبة مراميهم السياسية الخارجية بأوهن تجلية للتعصب وأقل تأكيداً على العنف] · وعلى هذا الأساس كتب السفير لولن ثومسون من موسكو ، أيلول عام ١٩٥٧ ، وبعد أقل من حول على أزمتي السويس وهنغاريا : " ليروق لخروشوف حقاً وهو مرغم حقاً تقريباً ، على الانفراج بعلاقاته مع الغرب] ·

لم يعزز خروشوف بتصرفه هذا التفاءل · وعندما أطلق السوفيت ، في تشرين الأول عام ١٩٥٧ قمرهم الصناعي ، سبوتنك ، الى المدار الأرضي ، ترجم خروشوف هذا الانجاز ، وحيد الطلقة ، كبينة لاستباق السوفيت

الديمقراطيات في الميدانين العلمي والعسكري · وحتى في الغرب ، زرعت بذور القناعة ان نظام مخطط سيبرهن تفوقه في اقتصاد السوق ·

لقد وقف ايزنهاور يتيماً ، تقريباً ، في اباءه لحالة الذعر وخبر الفاصل ، بحكم عسكريته ، بين الطراز الأول وسلاح عسكري عملي · ومن ناحية أخرى ، حمل خروشوف اغتراراته ، بكل جدية فانصرف الى هجوم دبلوماسي متماد بفسر التفوق السوفيتي المزعوم في ميدان الصواريخ بضرب من الاختراق الدبلوماسي · وأخبر صحفياً دانماركياً ، في كانون الثاني عام ١٩٥٨ :

[ان اطلاق صواريخ سبوتنك السوفيتية ، باديء ذي بدء ، ليظهر ... حصول تغيراً خطيراً في توازن القوى بين الدول الاشتراكية والدول الرأسمالية ، لكنة الأولى] ·

وفي خيال خروشوف ، سيتخطى الاتحاد السوفيتي ، الفائق أميركا علمياً وعسكرياً ، هذه الدولة في العائد الصناعي أيضاً · وفي الرابع من حزيران عام ١٩٥٨ ، أخبر الحاضرين في جلسة الحزب الشيوعي البلغاري :

[اننا لذو ثقة عظيمة بدنو عهد الدول الاشتراكية على بز نظيرتها الرأسمالية ، ليس في التطور حسب ، بل حتى في حجم الانتاج الصناعي]·

لقد عاز خروشوف ، الشيوعي القانت ، عملياً لترجمة هذا التغيير المزعوم الى صياغة دبلوماسية · كانت برلين محطته الأولى وشرّع مصراعي تحديه بمبادرات ثلاث · وفي العاشر من تشرين الثاني عام ١٩٥٨ ، أدلى خروشوف

بخطاب يطالب انهاء حال برلين ذي القوى الأربع ، وحذر من نية الاتحاد السوفيتي على قلب سيطرته على ممره العابر الى تابعته ، المانيا الشرقية . وقطع خروشوف على نفسه ، ومنذ ذلك اليوم فتالياً :

[لتبني الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا علاقاتها مع جمهورية المانيا الديمقراطية ويذعنون للاتفاق معها ، لو أهمتهم برلين بأي أمر] .

ونقل خروشوف ، في السابع والعشرين من تشرين الثاني ، جوهر هذا الخطاب الى مذكرات رسمية قدمت للولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا ، معلناً ابطال اتفاقية القوى الأربعة لبرلين وصيرورة برلين الغربية " مدينة حرة " نازعة السلاح . واذا لم تبرم مثل هذه الاتفاقية في خضم ستة أشهر ، سيوقع الاتحاد السوفيتي معاهدة سلام مع المانيا الشرقية ويسلم الجمهورية الألمانية حقوقه الاحتلالية ودروبه العابرة اليها . لقد أدلى خروشوف بما يناظر الانذار النهائي للحلفاء الغربيين .

وفي العاشر من كانون الثاني عام ١٩٥٩ ، نقل خروشوف مسودة معاهدة سلام الى القوى المحتلة الثلاث ، شخصت باءة جديدة لبرلين والمانيا الشرقية . وقذف خروشوف ، أرذل ذلك الشهر ، بتعليل هذه السياسة أمام الجلسة الحادية والعشرين للحزب الشيوعي . لقد اعلى في تقييمه لقوة الاتحاد السوفيتي كثيراً في ذلك الوقت ، لكأنه رجل واثق من بيعه للخزف ، واظهر أنه ان لو تآصر مع جمهورية الصين الشعبية ، سينتج الاتحاد السوفيتي ، **حالا** ، نصف خراج العالم الصناعي ، لذا " سيتغير الموقف الدولي عن بكرة أبيه " .

واصطفى خروشوف موعد الهجوم بحذقة حاذقة وكان التهديد النام عن تسيد المانيا الشرقية على ممرات العبور الى برلين غير مباشر . وقفت الديمقراطيات قبالة مواجهة هذا الأمر : أما خيار الاعتراف بالمانيا الشرقية تابعة ، أو امتطاء دابة الحرب على قضية فنية تتعلق بهوية من يطبع وثائق النقل . ومع ذلك وسمت زخورة خروشوف ، التي جبل منها بطبيعته ، الهزل الحقيقي لموقع الاتحاد السوفيتي . لقد كانت المانيا الشرقية ، من ناحية ، تفقد قوتها العامله بمعدل مئات الآلاف من مواطنيها وأكثر علمائها المهرة عندما يفرون الى المانيا الغربية عبر برلين . كانت برلين تستحيل فرجة هائلة في الجدار الحديدي ولو دأب هذا التيار على السير قدماً ستنضب المانيا الشرقية ، المدعاة بـ " فردوس العمال " ، من أية أيدي عاملة .

كانت دولة المانيا الشرقية الرابط الأهش في مدار نفوذ الاتحاد السوفيتي وانعدمت شرعيتها بعد أن قابلتها على أطرافها المانيا الغربية الأوسع كبراً وازدهاراً ، ولم يعترف بها دبلوماسياً الا من توابع الاتحاد السوفيتي محلياً . وتهدد صرح كيانها بفعل منزفة اليد العاملة واسترشد القادة الألمان الشرقيون أن الدولة ، برمتها ستهوي في بحر سنوات ، لو وقفوا مصفودي الأيادي .

سيلكم الأمر بضربة قاضية الى مدار نفوذ الاتحاد السوفيتي ، الذي يسعى خروشوف لشد أزره . وترجى أن تنتفس الصعداء المانيا الشرقية التابعة ، ولما يقطع طريق الفرار ، في حين سيزعزع الروابط الغربية للجمهورية الفيدرالية ، بارغام التقهقر الغربي .

لقد أصاب انذار خروشوف النهائي كبد سياسة ادينير الذي أبى بنحو عقد من الزمان كل اقتراحات الوحدة لقاء نحر علاقته مع الغرب . وكان الاتحاد السوفيتي قد أدلى بحيادية المانيا قبالة الشعب الألماني ، في خطة سلام ستالين عام ١٩٥٢ ، وأيدها خصوم أدينير السياسيون . وخاطر أدينير بمستقبل بلده بدعوى تطابق المصالح الألمانية والأميركية . وتتبطن الاتفاقية انضمام الجمهورية الفيدرالية الى نظام الدفاع الأطلسي وتصيير الحلفاء لالمانيا جزءاً لا يتجزأ من دبلوماسية الشرق والغرب . لذا نظر أدينير الى أزمة برلين بعدسة أوسع كثيراً من قضية اجراءات دخول ، فهي اختبار الى ادراك التوجه الغربي للجمهورية الفيدرالية .

لم ير أدينير منفذاً من حقيقة أن أي تعزيز لوضع المانيا الشرقية ليشدد مطالبة الروس بنذر التوحيد للمفاوضات المباشرة بين الألمانيتين . ومثل هذا الاعتراف الواقعي لحلفاء جمهورية المانيا الديمقراطية ، أبان حيادية الحزب الديمقراطي الاجتماعي ، سيصيب ثورة في سياسة المانيا الداخلية . ويقول ديغول أن أدينير قد أفصح في قمة غربية ، في كانون الأول عام ١٩٥٩ :

[اذا ما كتب على برلين الضياع سيغدو مبوأي السياسي على غير منعة . وسيتقلد الاشتراكيون زمان الحكم في بون ويثبون خطوتهم التالية في الاتصال المباشر مع موسكو ، مأذنين برحيل أوروبا] .

يرى أدينير في انذار خروشوف هدفاً أولاً لعزل الجمهورية الفيدرالية . وأجلس جدول السوفيت التفاوضي بون في موقع لاظفر له . وسيحظى الغرب ، في أحسن مغنم ولقاء جميع الامتيازات التي يقدمونها ، بالاذن الى برلين . وستمنح

المانيا الشرقية التابعة ، في الوقت ذاته ، صوتاً في توحد المانيا يفضي الى التآزل أو الى مآل وصفه أدينير في مذكراته :

[لنا الاّ نبتاع وحدة المانيا بثمن حلها عن الكتلة الغربية وسلخ منجزات الالتحام الغربي . وستغرى المانيا ، لما ستؤل اليه في قلب أوروبا محاطة دون دفاع ، على ايقاع الشرق في حبائل الغرب] .

وبايجاز ، لم يأنس أدينير ضرورة لأية مفاوضات في ظل شروط خروشوف . ومع ذلك لو انقلبت المفاوضات حتمية ، طاب له أن يعليها آية لحكمة توكأه على الغرب . لقد أبى ، غاية الاباء ، الاذعان لانذار خروشوف ذي الامتيازات ، وآثر أن يهيكل الغرب خططه التوحدية على أساس الانتخابات الحرة .

لم يتشاطر مع أدينير في آرائه الحلفاء الانغلو – أميركيون ، وبنحو أسوء ، بريطانيا العظمى . وكان الرئيس البريطاني ، هورالد ماكملان ، وشعبه غير آبهين للمخاطرة بحرب حول عاصمة مدحورة لعدو في عنقه المسؤولية الكبيرة في اجهاض بزوغ أمتهم الوشيك كقوة عظمى . ولم تناظر بريطانيا العظمى ، بعكس فرنسا ، أمنها الأجل بمستقبل المانيا . لقد استغيثت بريطانيا العظمى مرتين في هذا العصر وهي عارية بفعل التدخل الأميركي لصد الاكتساحات الألمانية التي اجتاحت أكثر أوروبا . وبالرغم أنها تستحب استتباب حلف الأطلسي ، فانها ستخاطر بالعزلة عن أوروبا ، لو أقمحت على الاختيار ، من دون الانفصال عن أميركا .
وأصابت معضلات أدينير الداخلية في قادة بريطانيا العظمى مبلغاً اوهن مما فعل

ايزنهاور ، الذي أثرت قدرته على توجيه المعاضدة الداخلية في أزمة أخيرة ، أثراً عظيماً في بقاء بريطانيا العظمى . وبازاء كل هذه العلل ، أبت بريطانيا أية مغامرات على وحدة المانيا ، وترجمت تحسبات أدينير كوطنية تتنمس خلف متحذلقة شرعية .

لذا أمسى ماكملان نصيراً متحمساً للمفاوضات – أيا كانت – بحيث قد تسهل " اجراءات العبور وتسلخ وقتاً ، في أسوء احتمال . وذكر بعدها :

[لو جاب كل رؤساء الدول في حوالي أراضي الغير ، سيشق على المرء الايمان بثمة انفجار مباغت ومهلك] .

وتجشم ايزنهاور ، بين كل قادة الحلفاء ، على كاهله أعتى المسؤوليات ، فقرار المخاطرة بحرب نووية يتشمر على ساعده في نهاية المطاف . وذكرت أزمة برلين الولايات المتحدة أن الأسلحة النووية ، غداة توظيب أميركي لعقد من الزمان ، قد لاحت درباً للأمن عاجلاً يسير التكاليف . وفي عصر التكافؤ النووي الوشيك ، ستتقيد رغبة أميركا بالمراد ، على المخاطرة فتستعبد حريتها في المناورة الدبلوماسية .

لقد وهبت الأسلحة النووية أميركا ، بباعث من بقاءها حائلاً دون الاعتداء ، تقدماً لم تألفه أمة قط على هذه البسيطة . وبحكم العادة ، تطرأ الصيغة الأكثر تفصيلاً لهذا المنفع لحظة دنوها من شفا الاختفاء . لقد طور دالس مفهوم " الثأر الشامل " ، قرابة أفول فترة الاحتكار النووي ، أو شبهه ، لردع الاعتداء السوفيتي وتفادي المصائد المتمادية ، مثل كوريا ، مستقبلاً . وسترد الولايات

المتحدة على مصدر المعضلة في ساعتها وبالسلاح الذي ترتأيه ، لا أن تصد العدوان عندما يقع . ومع ذلك شرع الاتحاد السوفيتي بتطوير أسلحته النووية الحرارية والصواريخ الاستراتيجية العابرة للقارات ، تماماً كأن انفتاحاً شاملاً قد دب . لذلك شرعت مصداقية هذه الاستراتيجية تتبخر سريعاً – بنحو أعجل مما يصدقه الواقع . وكانت الحرب النووية العامة ، ببساطة ، استطباباً لا يتواءم وكثر من الأزمات المرئية ، كخاصة برلين . ويقينا أن قادة الديمقراطيات قد حملوا بتبجحات خروشوف المبالغة كثيراً ، عن قدرة الصواريخ السوفيتية ، بمحمل جد حرفي (مع استثناء ايزنهاور) . ولكن لا جدال أن عام حرب نووية عامة ، ١٩٥٨ ، سيصيب خسائر شتان ما بينها والاجماليات المجملة للحربين العالميتين كلتيهما .

وتمخض عن هذه المعادلة البحتة تضاد جوهري بين ضرب الدبلوماسية المقتضى للهداية الى صدق تهديد الحرب النووية ، وما اعتيز لرصف الرأي العام على مواجهة الطبيعة النبوئية للخطر . وتبطنت المصداقية قبالة أرمجدون* رد فعل بمطرق الزناد للتحديات وتجلية من اللامبالاة تتخطى كثيراً الحسابات الاعتيادية بحيث لن يجرؤ المعتدي ، البتة ، على اختبارها . بيد أن جميع الديمقراطيات قد طابت لها ، دبلوماسية مستكنة ورشيدة ومحصية وراسخة تستفهم أيضاً أميركا عن ازماعها في تجانب الحرب النووية .

وقرر ايزنهاور ، مع استهلال أزمة برلين ، أن من الأفضل تهدئة الشعب الأميركي لا اصدام قادة السوفيت فتقدم بجملة شروط ، في مؤتمر صحفي عقد في

* أرمجدون (Armageddon) : موقعة فاصلة بين قوى الخير والشر .

الحادي عشر من شباط عام ١٩٥٩ ، لابطـال التهديـد النـووي ، وذا أمـر يصـور استراتيجية أميركا :

[من اليقين اننا لنمضي لحرب بريـة في أوروبـا] وشـاء ألا يخلـف وراءه هوة فاستثنى المدافعة عن برلين بالأسلحة النووية أيضا :

[ليس بوسعي أن أعرف أنى تحررون أمراً بالأسلحة النووية] ٠

لقد أرست هذه البيانات الانطباع أن رغبة أميركا في المخاطرة بحرب حول برلين لجد محدودة ٠

ومرد اناءة ايزنهاور ، شطره ، الى تقييمه لخروشـوف الـذي يعتـبره أغلب القادة الأميركان ، خير رجاءة الغرب في السلام ٠ ولم يغير انـذار خروشـوف اراء السفير ثومبسـون قبل حولـين وكـرر هـذا السـفير ، في التاسـع مـن شـباط عـام ١٩٥٩ ، الانطباع أن اهتمامات خروشوف الرئيسة داخلية ٠ وجـاء علـى لسـان هذا السفير أن سياسة شفير* الهاوية هي منحى خروشوف لتجييد نمط من التعـايش يؤدي كطلب مقدم للاصلاح الاقتصادي والتحرر الداخلي ٠ ولم يفصح أنى يقيـم تهديد الحرب نمط التعايش ٠

لم يرث مثل هذا التحليل أثراً في الأعضاء الأربعة العالميين الآخرين – حيث عاد الرئيس الفرنسي ، تشارلز ديغول الى منصبه ، بعد اثنتي عشـرة سـنة في الفـلاة السياسية ٠ ولم يتفق مع التقييم الانغلـو أميركي حـول دوافـع خروشـوف وكـان

* سياسة شفير الهاوية (Blinkmanship) : المضي بسياسة عن عناد الى حد يكاد يودي الى وقوع الحرب

عازمـاً علـى أن توضـح أزمـة برلـين لادينير أن فرنسـا شـريك لا يسـتغنى عنـه للجمهورية الفيدرالية ٠ لقد توجس خيفة في احياء الوطنية الألمانية بنحو أعظم مـن تهديدات خروشوف ، فشاء أن يكون لادينير مرساة في الغرب ، ويسعى لدرجه ، قدر الامكان ، في الهيكل الغربي الذي لا تطوله يد الهيمنة الأميركية كثيراً ٠

وعندما خطى ايزنهاور وماكملان للعثور علـى مطلـب سـوفيتي يلبـى بـأثر محدود من الضرر أو طويل الأجل ، قابل ديغول هذه الاستراتيجية بعناد صلد وأبى " المحادثات التوضيحية " التي يحث عليها شركاؤه الانغلو أمـيركيون ، اذ لم يـأنس ثمة منفعة للغرب يمكن سبر غورها ٠ وأنف برامـج تغيـير الاجـراءات ، المفصلـة في واشنطن ولندن ، بدعوى انها ربما " تحسـن " عمليـة العبـور ٠ ومـا كـان بـاعث خروشوف على اصدار انذاره لتحسين مسـألة العبـور ٠ ويـرى ديغـول أن موطـن التهديد في البناء الباطني السوفيتي ، وليس ذا صلة بأية مظلمة سوفيتية غيرها ٠ لقد فقه ايزنهاور قوة الاتحاد السوفيتي ، التي لا تكافئه ، بينما وثب ديغول خطوة أبعـد فعزا انذار خروشوف الى نظام سياسي هش ومتشعب أصلاً وسيء بنحو كبير :

[..... يتجوهر في هائجة الدعوات والمطالب التي نظّمها السوفيت أمـر جـد اسـتبدادي وعظيـم الاصطنـاع بحيـث يعـزوه المـرء الى الانطـلاق المتعمـد للمطامح المتعصبة ، أو للاشاحة بالانتباه بعيداً عن المعضلات العظيمـة : ويلـوح الافتراض الثاني لي موهماً لأن الانعزال واعمال القـوة هـو مـا يحيـط بـه النظـام الشـيوعي الأول الخاضعـة لنـيره ... وفي الحقيقـة استشـعرت الصفـوات والجماعات بهوات الشيوعية وعيوبها واحفافاتها الداخليـة ، والأسمى في ذلـك كله سمتها بالقمع غير الانساني ، بحيث لم يعد ثمة خداع وخضوع] ٠

وهكذا كانت القوه العسكرية السوفيتية واجهة لابهام الصراعات الداخليـة الآبدة والمتأصلة في النظام السوفيتي :

[يفضي التناحر في تيـاراتهم السياسـية ، ودسـائس الارهـاط وعـداءات الافراد الى أزمـة ضروس تكون جرائرها – وحتى دلائلها المسبقة – على غير وقف ، لانها لن تفض] .

ان الخنوع للضغط السـوفيتي سيشـجع خروشـوف على تشـديد مغامراتـه الخارجية كسبيل لصرف الانتباه عن الازمة الداخلية الجوهرية لنظامه ، وربما يبعث المانيا " باحثة في الشرق عن مستقبل عقمت عن ضمانه في الغرب .

ويتحمل ديغول ، بنحو أكمل ، مثل هذه المنافذة الواضحة لأنه لا يتجشم المسؤولية النهائية في اطلاق شرارة الحرب النوويـة ، بخلاف الرئيـس الأميركي . وأمسى في قاصية الشك أن ديغول متأهب لمخاطرة حرب ، أكـثر مـن ايزنهـاور ، وسيغدو في درجة أدنى لو كانت بلاده عرضة من الخارج . وعندما أيقن تمامـا ان خطر الحرب الأول خور الغرب وان اميركا للبلد الوحيد القادر علـى ردع الاتحاد السوفيتي ، أطلق لنفسه العنان للتناور بطرق ترغـم أميركـا علـى الوقـوف بحزم أو تشمر على ساعدها مسؤولية كل الامتيازات التي ينبغي تقديمها . ومـا هـذه بلعبة ظريفـة لأن **مصلحـة الدولـة** تعلم دروس شـاقة ، فـارتكن ديغـول الى **مصلحة الدولة** لقلب دأب راشليو على ابقاء المانيا خـائرة متبعضـة ، وهـو جوهـر سياسة فرنسا الأوروبية الوسطى لثلاثمئة سنة .

ولم ينته ديغول في انقطاعه الى الصداقة بين فرنسا وبريطانيا بتوائم مفـاجي من العواطف . لقد هدفت سياسة فرنسـا ، قـد عهـد راشـليو ، الى الابقـاء على جارتها المانيا المشؤومة متشطرة أو هزيلة ، والأخير كلاهمـا . وفي القـرن التاسـع عشر ، أدركت فرنسا بانعدام قدرتها على احتواء المانيـا بنفسـها ، فـآل الآمـر الى احلاف مع بريطانيا العظمى وروسيا وجمهرة من الدول الصغيرة . وغـداة الحـرب العالمية الثانية ، أخذت مثل هذه الخيـارات بـالتوازي ، فمـا كـان تحـالف بريطانيـا العظمى وفرنسا بالقوي على دحر المانيا في الحربين العالميتين .

وكان من المرجح للتحالف مع موسكو ، بانتشار جيوش الاتحـاد السـوفيتي على امتداد الألب وخضوع المانيا الشرقية لسيطرته ، أن يأتي بهيمنة السوفيت على أوروبا وليس احتواء المانيا : وهذه العلة وراء هجر ديغول لرابطة الخصومة التقليدية مع المانيا واستامانه مستقبل فرنسا على علاقتها مع العدو المورو‌ث .

لقـد وهبت أزمة برلين ديغول الفرصـة على التقـدم باسـتراتيجيته مبوأ ، بحذق ، فرنسا في دور الذائد عن هوية أوروبـا . وأظهـر مـن خـلال هـذه الأزمـة ادراك فرنسا للواقعيات الأوروبيـة وحساسيتها للمصـالح الألمانيـة الوطنيـة . كـان ديغول مدخلاً معقداً يقتضي أعتى أعمال التوازن بين اظهار المعونة للمرامي الألمانية الوطنية واحباط عزيمة الألمان عن مواصلة مراميهم بعاتقهم أو التعارض مـع الاتحاد السوفيتي . وهكذا استشـرى الخوف في ديغول فلربمـا يقـدر القـادة السـوفيت ، باحكامهم القبضة على المانيا الشرقية ، على البزوغ حماة لوحـدة المانيـا أو يقيمـون المانيا حرة على امتداد الحد الفرنسـي . وهكـذا انقلـب كـابوس فرنسـا العـاهد ، بسبب المانيا ، شبحاً للاتفاق الألماني – السوفيتي .

ورد ديغول بجرأة متميزة ، لأن فرنسا ستسلم المانيا القوة العسكرية والاقتصادية ، وتوازر وحدة المانيا لقاء اعتراف بون بفرنسا قائداً عسكرياً لأوروبا . كان هذا الحساب شبحاً وليس بعاطفة متقدة ، وقضى ديغول نحبه دون أن يحقق ذلك لأن المانيا ما توحدت في أيامه .

ولجأ دالس ، ليصيب توازناً بين منافذة ديغول الزاهرة وطلب ماكملان لعقد مفاوضات توضيحية ، صوب أساليبه المألوفة لارباك القضية ولما يعانقها بتفصيل شرعي مهد له كما تصور ، السبيل كثيراً أبان أزمة السويس . وطفق دالس ، في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٥٨ وبعد أسبوعين من خطاب خروشوف المتوعد ، يستغور الخيارات لابدال اجراءات الدخول دون التخلي ، حقيقة ، عن الجوهر . وكتب لأدينير أنه يسعى " لحمل السوفيت على الرضوح لالتزاماتهم " ولما يعالج الأمر بأساس واقعي مع موظفين صغار من جمهورية المانيا الديمقراطية . وفي المؤتمر الصحفي الذي عقد في السادس والعشرين من تشرين الثاني ، ولد دالس الانطباع أن موظفي المانيا الشرقية ربما يعملون " عملاء " للاتحاد السوفيتي .

ووثب دالس خطوة تالية ، في مؤتمر صحفي عقد في الثالث عشر من كانون الثاني عام ١٩٥٩ ، فأرخ تغييراً لموقف أميركا التاريخي في قضية الوحدة الألمانية . فبعد أن حث على الانتخابات الحرة كـ " سبيل طبيعي " لتوحيد المانيا ، أضاف :

[أنا لا أعني أنها المنحى الوحيد الذي تحقق به الوحدة طورها الثاني] .

وألمح أيضاً أن بعض ضروب التوحد بين الألمانيتين ربما يكون محرماً :

[ثمة سبل تمكن جميعها الأقطار والشعوب على التكافل سواسية] .

وعني في أمره ، بقوة ، تحويل مسؤولية التوحد من الحلفاء ، الى الألمان أنفسهم داقاً اسفيناً في جوهر سياسة أدينير .

كان الرد الألماني محسوباً بالرغم من عدم التكهن به . وعبر ولي براندت ، رئيس بلدية برلين ، عن " صدمته وجزعه " وذكر أن نظرية دالس ستشجع السوفيت على تبني موقف " لا هوادة له " .

وما توسم أسلوب أدينير الطبيعي بالقساوة ، فقد راق كثيراً لدالس . ومع ذلك ، رد على تأملات الأخير بالقدر تمامه عندما فعل ايدن في أزمة السويس . وجادل أدينير بحماس ، في حواره مع السفير ديفيد بروس ، أن بيانات دالس تشكل الأساس لسياسة حكومته ، حيث سعى الى التوحد من نافذة الغرب وعلى قاعدة الانتخابات الحرة ، حيث قال :

[ان الاتحاد ، بايما هيئة ، لمحرم برمته] .

ان تباين الآفاق قد لاح جلياً ، بنحو مؤلم ، نواصف كانون الثاني عام ١٩٥٩ ، عندما بعث أدينير هربرت دتمان ، الوكيل الدائم لشؤون وزارة الخارجية

السياسية ، الى واشنطن للتعبير عن " خيبته " ازاء مقترح السوفيت الرامي الى معاهدة سلام المانيا والحث الى موقع مفاوض يرتكن لسياسة الغرب المقامة . وأفصح ليفنغستون مرشانت ، وكيل وزير الخارجية الأميركية للشؤون السياسية ونظير دتمان في هذه المحادثات ، أن أدينير لن يتوكأ ، في هذه الأزمة ، على مؤازرة دالس الشاملة المألوفة وقال ان دالس يود تفادي أي " موضع متطرف " و " يود الاتيان بالسوفيت الى طاولة المفاوضات " . ومن الأخير لمشاركة الألمان أن يطرحوا أفكار جديدة . وعندما تطورت الأزمة ، وكلما سألهم الأميركيون والبريطانيون " أفكار جديدة " ، طرحوا تلطيفاً للكلام لتعزيز باءة نظام المانيا الشرقية أو ايجاد صيغة لتلبية بعض المطالب السوفيتية .

ومن السخرية أن تحث أميركا وبريطانيا العظمى المانيا لطرق سبيل يفضي يقينه الى وطنية المانية كبرى ، في حين مكث أدينير ، الأوهن ثقة برجاله ، موطن العزم ألا يعرضهم الى هذا الاغراء . لقد أقعد ايزنهاور وماكملان ايمانهم في الحوار الألماني ، في حين لم يغفل أدينير عن خطيتهم الأصلية .

كان ماكملان أول من عبر الصفوف فشد الرحال لوحده ، في الحادي والعشرين من شباط عام ١٩٥٩ ، ميمماً موسكو بهدف " حوارات استطلاعية " . وبعد أن دحض أدينير المشروع بكامله في ظل غياب اجماع حليف ، كان على " استطلاع " ماكملان عن الامتيازات المقدمة أن يستوعب نمط " التجييدات " المألوفة وقتها عن اجراءات الدخول ، علاوة على مناشدته المألوفة للسلام بأساس من العلائق الشخصية بين قادة العالم .

ترجم خروشوف زيارة ماكملان توكيداً آخراً للانحراف المستحب في توازن القوى وفأل بقدوم أمور أجود . لقد أدلى خروشوف ، أبان زيارة ماكملان ، بخطاب صاخب يعيد التأكيد على مطالبه بهيئة لاتلين . ودحض في خطاب آخر له ، غداة رحيل ماكملان ، دعوى الأخير أن العلائق الشخصية الطيبة بين قادة العالم لتعبد الدرب الى السلام :

[يطالعنا التاريخ أن المؤتمرات لن تحور من الدول حدودها ، وقرارات مثل هذه المؤتمرات لا تعكس الا انحيازاً جديداً ، وهذا مآل النصر أو الاستسلام عند وضع الحرب أوزارها ، أو لظروف أخرى] . انها حذقة غراء **للسياسة الواقعية** التي نطقت بها أفواه راشليو وبسمارك .

وعقيب احتدام غضب أدينير ، عاد دالس القهقري فهجر ، في التاسع والعشرين من كانون الثاني " **نظرية الوكيل** " وعزف عن التلميح بالاتحاد كسبيل لوحدة المانيا . ومع ذلك ، كان ارتداد دالس ، عظيمه ، تكتيكياً لأن الأفكار ، كالاشخاص ، لا تتحور . لقد توكأت سياسة فرنسا ، في أزمة السويس قبل عامين ، على توفيق التباين بين مفاهيم دالس وايزنهاور . وفقه دالس في كل احتمال ، ولما يدلي بتقييمه للنظام السوفيتي ، وجهة نظر أدينير وتشاطر عظيمها . وكان عليه ، كالسابق ، أن يشخص السبيل لمعانقة استراتيجيته بمفهوم ايزنهاور الأكثر طبيعية .

وبعد أن لبست كل الأقوال ثياب الفعل ، صعقت ايزنهاور كل القضايا التي أهمت أدينير ، لأنها نظرية ، أو غير ملائمة . ومن حسن الحظ حقاً أن يكون

خروشوف على غير دراية بتأمل ايزنهاور الشخصي ٠ وعندما تنفس السابع والعشرون في تشرين الثاني عام ١٩٥٨ – يوم الانذار الرسمي لخروشوف – أشار ايزنهاور بمهاتفته دالس الى ترحيبه بفكرة المدينة الحرة دون بعث القطعات الأميركية ، شريطة أن تخضع برلين ومداخلها لتشريع الأمم المتحدة ٠

وعندما لا يتفق مستشارو الرئيس أو أعضاء الوزارة مع رئيسهم ، عليهم أن يقرروا تقديم قضيتهم عندما يكون اللااتفاق نظرياً ، أو ينتظروا لحظة القرار الفعلي ٠ وتقرر الاجابة تأثير المستقبل لأن الرؤساء ، عامة ، أشخاص أقوياء الارادة بحيث لا يمكن تخطيها عادة ٠ واذا ما استحب المستشارون تحدي القضايا الافتراضية ، بوسعهم أن يتأتوا حدة غير لازمة فلربما يقلب الرئيس فكرته ، من جراء ذاته ٠ واذا ما تمهلوا للأحداث ، فانهم يركبون خطر الانجفال ٠ لقد استحب دالس أرضاً وسطى فحذر ايزنهاور من " اتفاقيات الورق " وأعلمه ان بقاء برلين حرة ليقتضي حضوراً للقوات الأميركية ٠ واتضح أن فرصة القرار الحقيقي لم تنر ٠ وابان ذلك العهد ، كان دالس في آخر صرعات المرض ، فقضى نحبه في الرابع والعشرين من آيار عام ١٩٥٩ وبعد ستة أشهر ٠

عاد ايزنهاور ، في الأول من تموز ، الى مبدأه الموائم وصرح في لقاءه مع فرول كوزلوف ، نائب رئيس الوزراء السوفيتي ، الذي قدم الشكوى السوفيتية حول موقع أميركا غير المنطقي لما يخص برلين :

[اننا نقر بلا منطقيتنا ، ولكننا لن نسلخ عنا حقوقنا ومسؤوليتنا – مالم يكن سبيل آخر لنا " ٠ وبالكاد أن يحتفظ المرء بحقوقه ريثما يتدبر أمراً لهجرها ، كاستغاثة مثيرة في ساحة الوغى] ٠

وفي كامب ديفيد أيلول عام ١٩٥٩ ، أعلم ايزنهاور خروشوف أن أميركا لا تنوي البقاء في برلين الى دهر الداهرين وقال :

" اننا ، بوضوح ، لا نتأمل خمسين عاماً من الاحتلال " ٠

وفي الثامن والعشرين من أيلول ، وثب ايزنهاور قاصياً وذكر أن الموقف في برلين كان " شاذاً " حقاً :

" لقد أتى بهذا الأمر هدنة عسكرية ، عقيب الحرب ، وتسوية أرست ، بنحو غريب ، بضعة – أو عدد من الناس الأحرار في موقع متخلف " ٠

كان من المؤلم تخيل ما سيحصل لو توجه خروشوف بضغط التحدي السوفيتي أو صاغ ضرباً من " التسوية " على أساس التلميحات الكثيرة التي تتناهى الى مسامعه ٠ من حسن الطالع أن يستغرق انتباه خروشوف المحدود ، فتآمرت تقييماته الخائبة لقوته النسبية ، وربما الانقسامات في القيادة السوفيتية ، على اضفاء نسمة مبتورة ، بنحو شاذ ، للتصرف السوفيتي ٠ لقد تعاقبت انذارات خروشوف بهدوء أزفت أبانها المواعيد النهائية وانسلخت دون أن يحث القائد السوفيتي حتى على تحقيق مطالبه أو التفاوض عليها ٠ ويصور الأمر الأول عزم الحلفاء الحقيقي ، بينما اختبر الأخير الرغبة الواضحة لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة على تجييد

الدخول الى برلين وتطوير حالها . لقد نأى حلف الأطلسي ، عما بدا كأعظم أزمة ستواجهها ، بباعث من خيبة خروشوف في التمسك بمرماه .

لم يسع خروشوف ، باصرار ، الى المواجهة أو التفاوض فأثار هذا الأمر وحده شكاً في أفكار الغرب حول لحمة النظام السوفيتي . وأثبت تهديد الحرب النووية ، وتحدي الواقع الأوروبي من دون تطوير استراتيجية مفضية الى مكاشفة دبلوماسية ، انه اختبار مسبق للشلل الذي سيستفحل بقبضته على النظام السوفيتي في نحو من عشرين سنة قادمة . لقد تفخخ خروشوف ، بشكل جلي ، بين " الصقور " في مكتبه السياسي ، المؤمنين بتبجحاته حول انحراف في توازن القوى و " الحمام " ، الراغبين حتى عن ركوب أوهن خطر للحرب مع الولايات المتحدة ، لاطلاعهم بالواقعيات السياسية الحقيقية .

وفي خضم هذه العملية الغريبة ، هجر خروشوف انذاره الأول دون أن يظهر له أمراً ما حاشا مؤتمر لوزراء الخارجية قبيل انتهاء موعده باسبوعين ، وفشل هذا اللقاء لأن اندريه غروميكو ، وزير الخارجية الحديث ، قد اغتنم هذه المناسبة لاصقال مهارته الهائلة في اعاقة المشروع ، كي يلوع وزراء خارجية الديمقراطيات جيلاً كاملاً . وفي الحقيقة ، لم يحتج السوفيت الى توقف تام لأن أجل الانذار قد شفا من نهايته . ووهب هذا الأمر ايزنهاور متسعاً في الوقت ، عندما دعا خروشوف لزيارة الولايات المتحدة .

واستغرقت زيارة الزعيم السوفيتي الى الولايات المتحدة فترة ما بين الخامس عشر والسابع والعشرين من أيلول عام ١٩٥٩ ، مثيراً الضرب عينه من الصدى

العام الصاخب الذي أتت به قمة جنيف قبل أربع سنوات . وكرة أخرى أكد لقاء رئيسي الحكومتين على اطار الجوهر ، كما مثله شعار " روح كامب ديفيد " . ونشرت مجلة النيوزويك بطاقة تشير الى أن مرامي الزيارة المنشودة قد أكثرت من اخفاقاتها . وقيل ان الاخفاقات مهما كانت ، فانها تعني في المقام الأول عجز الرؤساء في اصابه تقدم في قضية برلين - كما لو أنها قضية تافهة . واستوعبت قائمة الانجازات التبادلات التجارية وزيادة التجارة وتعاون علمي أعظم ، القضايا التي لا تقتضي لقاء رؤساء الحكومات .

وأظهر اقتراع النيوزويك أن الأميركان قد آمنوا بمعرفة خروشوف " عن رغبة شعب أميركا ، نزولا من الرئيس ، بالسلام ، على نحو أصيل " . واذا ما كان هذا تقييم خروشوف الحقيقي ، سيكون الأثر ذا حدين . وعلى أية حال ، فانه استبقى هذا التبصر الخاص كسر للدولة . وتبجح متناظراً ، عندما تحدث في أوائل كانون الأول ، أي بعد بضعة أسابيع :

" ان العالم الرأسمالي ليرزح باركاً لضربات المخيم الاشتراكي ... اننا مصممون على النصر " .

وقفل ايزنهاور من القمة بالفكرة عينها ، عندما دخلها : ومكث مستملحاً ، ان لم يكن متلهفاً ، الى تغيير حال برلين . وعند اختتام القمة ، في الأول من تشرين الأول ، وصف طريقته المثلى ، التي استنبطها من الأزمة ، الى غوردن كري ، مستشاره لشؤون الأمن القومي :

[علينا أن نتذكر برلين موقفاً شاذاً ، وأن نتكيف للعيش معها ، لأنها مخاض لاغلاط قادتنا – تشرتشل وروزفلت • ومع ذلك استشعر [ايزنهاور] الى الحاجة لانماء طراز لمدينة حرة ، ربما تكون شطراً من المانيا الغربية ، بحيث قد يقتضي الأمر انخراط الأمم المتحدة كفريق لضمان حرية وأمن مدينة يتجرد حالها من السلاح ، ما خلا قوات الشرطة • وأكد أن الوقت ليدنو ، وربما قريباً ، عندما نرغم ببساطة على اخراج قواتنا] •

وتمكن القادة الغربيون ، برغبة خروشوف عن استغوار مثل هذه الأفكار أو سائرها ، من تحقيق هدفهم الأساس في كسب الوقت ، بالتخلف عن الحضور • وقدر خروشوف ، في قمة جنيف عام ١٩٥٥ ، على تحقيق رأب للأصداع دون منح امتيازات جوهرية • وحقق ايزنهاور عام ١٩٥٩ ، النتيجة عينها عندما حفز الى ما أسماها روح كامب ديفيد •

كان المخاص الرئيس لكامب ديفيد ارجاءً آخراً واتفق ايزنهاور وخروشوف على عقد لقاء للقوى الأربع المحتلة برلين • وأبى ديغول دعوة القمة ، الا اذا قام خروشوف بزيارة رسمية الى باريس قبلها • وازاء كل هذه الشروط ، أرخت القمة ، كأبكر موعد لها ، في باريس أيار عام ١٩٦٠ • وقبيل هذا الموعد المضروب بأسبوعين ، أسقط السوفيت فوق أراضيهم طائرة تجسس أميركية ، يو – ٢ ، فمهد هذا الأمر الحجة لخروشوف لفض المؤتمر برمته ، بعد فترة حمل دامت ما يناهز السنة • واتضح أيضاً أنها بباعث من خطة أميركا " للمدينة المضمونة " ، المؤتلفة لكثير من تأملات ايزنهاور لغوردون

غري • وعملياً ، تباينت الخطة مع مقترح خروشوف عن المدينة الحرة مبدئياً في المسمى المخلوع على باءة المدينة الجديد •

وبالرغم من قلق الحلفاء الغربيين بضعة أيام من حظوة خروشوف ، في نهاية المطاف ، على العذر لحسم الأمر ، سرعان ما اتضح أنه يروم الشفا الأخرى – الحجة لتحاشي الحسم • وأمست الشراسة الشفوية بديلاً للمواجهة التي هدد بها خروشوف بعزم ، بمثلي ما نكص عنها تماماً • لقد خالف كل التوقعات عندما توقف في برلين بعد أن قفل من قمة باريس المجهضة ، ليعلن ارجاءً آخراً لموعده النهائي ، وهذه المرة ، الى ما بعد انتخابات الرئاسة الأميركية •

وعندما تبوأ جون أف • كنيدي منصب الرئيس ، دهر انذار خروشوف النهائي ما يقارب سنوات ثلاث • لقد أوهن الزمن ، بمروره ، مصداقية هذا التهديد والنكهة الكاملة للخطر • وعندما هدأت قضية برلين وخابت محاولة ادارة كنيدي للاطاحة بكاسترو في خليج الخنازير ، وبازاء في قضية لاوس ، اقتنع خروشوف أن كنيدي طعم يسير • وعندما التقاه خروشوف في فيينا بواكر حزيران عام ١٩٦١ ، أضاف ستة أشهر أخرى الى الموعد النهائي ، محتفلاً بأولى أعصب فترات المواجهة للحرب الباردة برمتها •

وأعلن خروشوف للعالم في الخامس عشر من حزيران ، وفي معرض تعليقه على القمة ، أن نتيجة معاهدة سلام المانيا لن ترجأ ، بعدئذ :

[ينبغي لنا أن نهتدي الى تسوية سلام أوروبا هذا العالم] • وظهر خروشوف ، في أحد خطاباته ، بزي فريق (في الجيش) ، الرتبة التي كان يتفاخر

ستالين عندما يراه متوشحها أبان الحرب . وفي مناسبة أخرى أعلم خروشوف السفير البريطاني أن الأمر لا يكلفه غير ست قنابل ذرية للاجهاز على بريطانيا وتسع لسحق فرنسا . وفي أيلول عام ١٩٦٠ ، أنهى خروشوف خطر الاختبار النووي غير الرسمي ، الذي راقبه الطرفان نحو ثلاث سنوات . لقد أطلق الاتحاد السوفيتي ، كجزء من برنامجه الاختباري ، انفجاراً هائلاً ، يعدل قرابة خمسين مليون طن .

لم تكن مطالب خروشوف لتسوية ما بعد الحرب أمراً محدثاً ، فتشرتشل قد حث على هذه التسوية مع تنفس عام ١٩٤٣ ، وأقترح ستالين واحدة عام ١٩٥٢ في مذكرة سلامه ، في حين تبنى جورج كينان تسوية لقضية المانيا نواصف الخمسينيات . وبخلاف بقية الحروب ، ما كان ثمة حل لما بعد الحرب العالمية الثانية . لقد أقيمت مدارات النفوذ الأميركية والسوفيتية خطوة فخطوة بالمطابقة مع الأمور الواقعة وليس بالاتفاقات الرسمية .

واستهل العمل الأخير لتعريف مدارات النفوذ الأوروبية مع الساعات الأول للثالث عشر من آب عام ١٩٦١ . لقد أفاق سكان برلين الغربية ليجدوا أنهم محبوسون تقريباً حيث نصب الألمان الشرقيون متاريس من الأسلاك الشائكة بين القاطع السوفيتي في برلين والأقسام التي تحتلها القوى الغربية الثلاث ، وضربوا سياجاً حول مدينة برلين ، برمتها . أما العوائل الكائنة على جانبي الجدار فقد فصلتا الى قسمين . وعندما مضت الأيام ، قوي هذا الجدار فغدا الأسمنت والألغام الأرضية وكلاب الحراسة آيات للمدينة المنقسمة ووحشية الشيوعيين . وتجلى للعالم كله افلاس النظام الشيوعي وعجزه على حمل خاصة مواطنيه للبقاء داخل

الوطن . ومع ذلك ، جسر القادة الشيوعيون الهوة في جدار الكتلة الشيوعية - مؤقتاً ، في أقل احتمال .

وذكر تشييد صرح الجدار الديمقراطيات بفخ برلين . كانوا متأهبين للذود عن حرية برلين ازاء الاعتداء الوقح ، ولكنهم لم يقرروا ردهم لما هو أدنى من هذا الأمر ، أو في الحقيقة ، أنى يعرفون الاعتداء . وعقيب ذلك مباشرة . وطد كينيدي العزم بقوله أن بناء هذا الجدار لا يتواءم وتعريف أميركا للاعتداء ، وآثر ألا يهدد صرح كيانه عسكرياً . وأظهرت أميركا احتقارها لصرح الجدار عندما مضى كنيدي ، يوم تشييده ، في رحلة بالقارب ، في حين حضر وزير الخارجية ، روسك ، مباراة لكرة السلة . لم يكن ثمة جو أزمة في واشنطن .

وفي الحقيقة ، كانت خيارات كنيدي العسكرية جد محددة . واذا ما أزال الجنود الأميركان الحاجز الفاصل لمنطقة الحدود ، ربما يواجهون بنياناً لجدار آخر بنحو بضعة مئات الياردات أبعد الى الخلف . فهل يخطون ، اذن ، في برلين الشرقية ليقلبوها عاليها سافلها ؟ وهل يؤيد الرأي الغربي حرباً لأجل حركة حرة (في بدن) برلين ؟ وعملياً أقرت برلين الشرقية ، منذ أمد طويل ، كعاصمة لألمانيا الشرقية الشيوعية التابعة .

وعندما تجلى موقف أميركا ، المتفرجة دون أن تفعل أمراً للحيلولة بالقوة دون بناء الجدار ، أصبحت برلين الغربية والجمهورية الفيدرالية بخيبة كمن يواجه حقيقة بها شاعر باطناً لكنه يخشى سماعها . وفي أواخر فترات ما أعقب الثورة الهنغارية ، كان من المنبغي أن تتوضح حقيقة عدم مواجهة الغرب عسكرياً لمدارات

النفوذ القائمة – وكان على براندت الادعاء بعدها أن سياسته التي اعترفت بنظام المانيا الشرقية ، قد تمخضت عن خيبته لرد أميركا على تشييد الجدار ٠ ومع ذلك ، ستكون صدمة المانيا ، في كل الأحوال ، أعظم لو نجمت الحرب من السعي الى تدميرها ٠ وحتى أن أدينير قد أسر اشسون أنه لا يود لبرلين أن يدافع عنها بالحرب النووية ، وهو على أتم الاطلاع بانعدام السبل الأخرى لتحصينها ٠

ما برحت القوتان العظميان تخادع احداهما الأخرى في مسعى منهما لتحديد التزاماتهما ومدياتها ٠ فقد ازاد الرئيس كنيدي في شهر تموز الميزانية الدفاعية الأميركية بشكل جد كبير واستدعى الاحتياط وأرسل قوات اضافية الى أوروبا ٠ وفي آب من عام ١٩٦١ ، وبعد بناء الجدار ، أرسل كنيدي قوات قوامها (١٥٠٠) رجل عبر المنطقة السوفيتية متحدياً السوفيت في ايقافهم ٠

فلما وصلت تلك القوات لا يردعها رادع ولا تخشى تحدياً ، استقبلها نائب الرئيس (جونسون) بخطاب حماسي بعد هذا بفترة قصيرة ، تم تعيين الجنرال (لوسيس كلي) ، بطل حصار برلين عام ١٩٤٨ ، بمنصب الممثل الشخصي للرئيس في برلين ٠ ها هنا يكون الرئيس كنيدي قد وضع المصداقية الأميركية على كفي عفريت مقابل حرية برلين ٠

مكر خروشوف ، بنفسه ، مرة أخرى الى النهاية الموصدة ذاتها أبان ادارة ايزنهاور ، وأصاب وعيده صدى أميركياً برهن أنه راغب عن تحديه ٠ وأماطت اللثام تقارير الكولونيل (أوليغ بنكوفسكي) ، الجاسوس الأميركي في الاستخبارات السوفيتية العسكرية ، أن ضباطاً سوفيت كبار مطلعون تماماً بانعدام

التأهب ، وكانوا متذمرين ، في دواخلهم ، حول حماقة خروشوف ٠ وأعلم ايزنهاور زائراً له ، مع استهلالة عام ١٩٦٠ ، أنه أنس في مخادعة خروشوف خشية عظيمة ، في حالة الحرب ، من خطر السقط الذري لغبار الأسلحة الأميركية ذاتها أكثر من انتقام السوفيت ٠ وعندما تبوأ كنيدي الرئاسة أيضاً ، أدرك أن الاتحاد السوفيتي لا يدانيه في القوة الاستراتيجية الكاملة ٠

وترجح مثل هذه الحالة كفة الطرف الصابي لاستتباب **الوضع الراهن** ٠ وفي الوقت عينه كان كنيدي أكثر صراحة من ايزنهاور في اكتراثة لاضرام أوهن خطر للحرب النووية حول برلين ٠ وذكر في يوم عودته من اجتماع قمة مع خروشوف في فيينا :

[يلوح من السذاجة ، بنحو بارز ، أن نخاطر بنحر مليون أميركي بسبب الجدال حول حقوق الدخول ..... أو أن يود الألمان دولتهم موحدة ٠ فلو قررت أن أهدد روسيا بحرب نووية ، ينبغي أن يكون الأمر لعلل أعظم شأناً وأكثر أهمية] ٠

نهل ايزنهاور استراتيجيته من نص الاحتواء الأصلي وجاهد الى عزل السوفيت حيثما هددوا الغرب ٠ كانت غايات كنيدي طامحة وأمل أن يجهز على الصراع بين الاتحاد السوفيتي وأميركا الى الأبد ، ومن خلال المفاوضات المباشرة للقوى العظمى – ويغتنم أزمة برلين كنقطة تحول ٠ لذا حث البيت الأبيض الكنيدي على دبلوماسية أمرن في قضية برلين ، تكون متفردة ، لو تطلب الأمر ٠ أما ايزنهاور ، فقد الفى في هذه الأزمة تحدياً ينبغي تحمله بصمود أكبر ، في حين

كانت لكنيدي محطة في سبيل تصميمه لنظام عالمي جديد . لقد أصاب ايزنهاور ودالس صيغة لاحباط تهديد خاص ، بينما راق لكنيدي قطع دابر عقبة آبدة تعتور طريق السلام .

وتباينت آراء الرئيسين صوب الناتو أيضاً . فعندما قاد ايزنهاور تحالفاً في أوروبا ، عهد الحرب ، اضطلع كنيدي بالحرب في الباسفيك ، حيث كان الجهد الأميركي في أسمى صورة من الوطنية والوحدة . وما كان كنيدي بالمتأهب لمنح الحلفاء صوتا في المفاوضات وجنح ، حقيقة ، الى استطباب الأمر وجهاً لوجه مع الاتحاد السوفيتي ، كما يلاحظ من توجيهاته الرئاسية الى وزير الخارجية ، دين روسك ، المؤرخة في الحادي والعشرين من آب عام ١٩٦١ ، أي بعد أسبوع من تشييد جدار برلين :

[لقد مكث جدول المفاوضات وجوهر الموقف الغربي على غير حسم ، وما عدت أؤمن بتحقيق تقدم مرض بقرار القوى الأربعة لوحدها . وأعتقد أن علينا العمل ، بحزم ، لنحقق أقوى باءة للولايات المتحدة في المنطقتين كليهما والافصاح أننا لا نقبل صوتاً من أية قوة أخرى .

.....علينا أن نفصح ، هذا الأسبوع ، للقوى الحليفة الثلاث ما نبغي فعله وينبغي لهم أن يواكبونا أو يردفونا] .

وعملاً بالأوامر ، هجر دين روسك مفاوضات القوى الأربع ، واستحب الحوار المباشر مع موسكو . لقد التقى روسك بغروميكو عدة مرات في الأمم

المتحدة ، بينما طرأت الأحاديث الأخرى بين السفير تومبسون وغروميكو في موسكو . ومع ذلك لا يود السوفيت كثيراً جدولاً للتفاوض على قضية برلين .

وكان المأزق في الفاء كل فريق نفسه مفخخاً في شرك يمس العهد النووي . وبمقدورهما شهر القوى النووية لحماية بقائهم ، ولكن مثل هذه الأسلحة لا تحدث نقلات ايجابية . ومهما كان المستوى النظري للقوة المحصاة ، فان خطر الحرب النووية بعيد عن مدى أي غرض تحققه . وحتى أن نسبة الخمسة بالمائة من خطر الحرب لغير مطاقة ، ولما تبطن العقوبة محق مجتمع ما ، عن بكرة أبيه وفي الحقيقة محو للحضارة . لذا لاذ كل طرف ، نهاية اليوم ، بالانتكاص عن خطر الحرب .

وفي الوقت ذاته ، لم ير أي جانب في الدبلوماسية خياراً عن القوة وغلبت النقاشات المؤيدة للحالة الراهنة ، بالرغم من تشديد التوتر ، الدافع لتطويرها . وبرهن التصويت الحليف لجانب الديمقراطيات متعذر المنال ، بينما أثارت تبجحات خروشوف ، من الجانب الشيوعي ، توقعات رفاقه الى حد أن حتى الامتيازات العظيمة التي يستعد الغرب لمنحها لم ترق لعتاة الكرملن . وفي نهاية المطاف ، حاول خروشوف عبور النهاية الموحدة بمغامرته المهلكة عندما نصب الصواريخ في كوبا ، الأمر الذي يجلي عظمة الأخطار التي ينبغي اثارتها قبيل أن تؤثر القوة العسكرية في الدبلوماسية .

وحكمت تيارات الركود هذه على ادارة كنيدي بالوثوب من النهاية المغلقة بمبادرات دبلوماسية . وكل امتياز يراه خروشوف مقبولاً ليوهن الحلف

الأطلسي ، في حين أن أي تسوية تصبر عليها الديمقراطيات لتدب في خروشوف الهزل .

لقد خابت مساعي ادارة كنيدي على استغوار قائمة المطالب السوفيتية التي تلبى من دون الخطر ، وفي الثامن والعشرين من آب عام ١٩٦١ ، أوجز ماك جورج باندي ، مستشار كنيدي للأمن القومي ، تفكير البيت الأبيض في مذكرة بعثها الى الرئيس :

[ان المنحى الرئيس لفكر العاملين في لب موضعنا المفاوض يحتمون علينا أن ننتقل جوهرياً للقبول بجمهورية المانيا الديمقراطية ، وخط الأودر – نيس ، واتفاقية عدم الاعتداء ، وحتى فكرة معاهدتي سلام] . ولم تفصح المذكرة ما تتقاضاه الولايات المتحدة بالمقابل .

وأوصدت مثل هذه المواقف كل نوافذ واشنطن ، بحيث أرغمها على الانحدار بنفسها عن أدينير . وأوضح مصدر لادارة الرئيس ، في الثاني والعشرين من أيلول :

[دعا مصدر مخول في الولايات المتحدة ، المانيا الغربية اليوم الى الموافقة ، على " حقيقة " وجود الدولتين الألمانيتين .

وذكر المصدر أن المانيا الغربية ستتمتع بفرص أجود لاعادة الوحدة الألمانية " بالحوار مع الألمان الشرقيين " ، لا تجاهلهم] .

سعى باندي ، في كانون الأول عام ١٩٦١ ، الى طمأنة بون بالاشارة الى أن مسعى أميركا " الأساس " الاّ يتمتع الشعب الألماني " بسبب مشروع للندم على ثقتهم بنا " . وحذر في الوقت ذاته من التباس هذا التأكيد :

[ليس بمقدورنا أن نمنح – واذ لم يسألنا سياسي الماني – نقضاً لألمانيا ضد سياسة الغرب ، فمشاطرة الرجال الأحرار لا تحصل بنداء عضو واحد] .

وفي الحقيقة أتت هذه الجمل الاسترضائية أحدها على الأخرى ، وطالما أن المواقع الأميركية والألمانية المعلنة على غير اتفاق ، ولأن المانيا قد توكأت كاملاً على الولايات المتحدة لتحصين برلين ، أحدث حجب صوت واحد عن (بون) أحد المآلين : المخاطرة بحرب لباعث أفصحت ادارة كنيدي أنها لا تؤمن به ، أو فرض آراء على بون ، كان القادة الألمان قد أبوها . وما كان المصبا الأول في طاقة الكونغرس الأميركي أو الرأي العام ، أما الآخر فيوهن التزام المانيا بالغرب ويهزل لحمة حلف الأطلسي .

أمست العلاقات بين واشنطن وبون محتدمة ، باطراد ، وتقهقرت ادارة الدولة ، للخشية من نهاية المدة والاختلاف مع أدينير ، لبضعة أشهر ولم تضع قيد التنفيذ أمر كنيدي على توجيه مفاوضات مباشرة مع موسكو – أو بالأحرى ، عقد عدة لقاءات دون تقديم أفكار محدثة . ولو أدرك خروشوف معنى التقسيم ، ربما وعا أن هذه اللحظة ايذان لتقرير أي التلميحات ستترجم الى وجه سياسي شاق . وخلافاً لذلك ، استبقى على اثارة الأخطار وتفادي المفاوضات .

وفي خضم فترة الدبلوماسية المدهشة هذه ، والتوتر الذي ألمّ بالحلفاء ، كنت منهمكاً ، كلية ، في رسم سياسة البيت الأبيض ، بصفتي مستشار فيه . وبالرغم من اطلاعي على قضايا المناقشة ، والتيارات المختلفة المحيطة بالرئيس ، لم أساهم شخصياً في القرارات النهائية . كان المتمسكون باعراف الناتو – خاصة اشسون الذي كان مستشاراً خارجياً في هذه الفترات – متأبين من التفاوض ، بالمرة . كانوا مثل ديغول وأدينير ، على غير بصيرة لأيما تطور في اجراءات جديدة للدخول ، ولم يتوقعوا الا جفوة محاولات التفاوض على قضية الوحدة الألمانية .

وبقدر اعجابي باشسون ، لم أؤمن بالصبر على استراتيجية التأخير . فكلما قام خروشوف باختياره ، أرغم على المفاوضات ، ولم يكن ثمة قائد غربي ، حتى ديغول ، بقادر على مواجهة الشعب بمقتضى المكاشفة ما لم يوضح أولاً استغواره كل الوسائل لتفادي أحدها . وراودني الاعتقاد ، لما اعتبرت من الخطر التفاوض على أساس تقويم السوفيت ، ان من الحيوي السبق على أي خطورة هذا الأمر بالاستنتاج الى خطة أميركية لمستقبل المانيا . وتوجست خيفة على رصفة الحلفاء لو نذرت القرارات الى المؤتمر أو تركت لرحمة الانذارات الأخيرة . لقد استحببت التفاوض عملاً ودنيت جوهراً من المواقع التقليدية لأدينير واشسون .

لقد مكنتني فترتي القليلة في البيت الأبيض أبان سني كنيدي على اللقاء عدة مرات بادينير . ومن المؤلم أن تطالعني هذه اللقاءات بمدى اللائقة التي انجبتها أزمة برلين في الحلفاء المتقاربين في ذلك الوقت . وفي عام ١٩٥٨ وبعيد نشر كتابي

الأسلحة النووية والسياسة الخارجية ، دعاني أدينير لزيارته ، بالرغم من انني كنت فيها استاذاً حديثاً على غير شهرة . وخلال اللقاء ، أسرني أدينير الاّ انخدع بشروق كتلة شيوعية أحادية تتسع من البلطيق حتى جنوب شرق آسيا . ويرى أن ثمة انفساخ محتوم سيحصل بين الصين والاتحاد السوفيتي . وعبر عن أمله في اغتنام الديمقراطيات للفرصة ، ولما يطرأ هذا الأمر .

لم أسمع قط بمثل هذا الافتراض وما آمنت به . وتوجب على أدينير ترجمة صمتي المدهش اذعاناً ، لذلك خلص في لقاءه مع كنيدي بعد سنوات الى فذلكة للانشقاق المحتوم بين الصين والاتحاد السوفيتي ، بذكر مشاطرتي اياه الرأي . وبعيد ذلك الحدث ، تسلمت رسالة من كنيدي يعبر فيها عن امتنانه لو أشاطره أنا التبصرات الجيوسياسية وليس مع المستشار الألماني حسب .

وفي مستهل عام ١٩٦٢ ساءلني البيت الأبيض ، ولما يفترض بقرابتي من أدينير بنحو أقرب من الواقع ، للمحاولة في تهدئة مخاوف المستشار المتعاظمة من سياسة ادارة كنيدي تجاه برلين . وكان عليّ أن أوجز أدينير بمدخل أميركا للمفاوضات والتخطيط العسكري الطارىء لبرلين ، وباعتبار خاص لقدرة أميركا النووية ، التي أعلمت أن حلفاء أميركا لا يشاطروها الأمر ما خلا بريطانيا العظمى .

وبرهنت هذه المهمة عقمها . فما كدت أشرع بادلاء اقتراحاتي حتى قاطعني أدينير :

[لقد أخبروني بهذا الأمر في واشنطن ، وما أصاب فيّ أثراً . فعلامّ تعتقد أن ذلك سيؤثر فيّ هـا هنا ؟] وأجبت بجدية أنني لست مستخدماً حكومياً ، فقد طلب مني أن أدعوه لتخفيف مطالبه ، وان يصيخني السمع قبل أن يستنبط خلاصاته .

لم يبهت أدينير لهذا القول وسألني عن الوقت الذي أسلخه في عملي مستشاراً للبيت الأبيض . وعندما أجبت أنني أقضي نحواً من ربع الوقت ، رد بهدوء : " في هذه الحالة افترض انك تخبرني بثلاثة أرباع الحقيقة " . وردد هذا القول بحضور السفير الأميركي والترس. داولنغ ، الذي كان يقول الكذب في كل الاوقات ، طبقاً لصيغة أدينير .

ومع كل هذا الوطوء في العلاقات بين المانيا وأميركا ، أوضح ادينير أنه يرى الثقة أمراً أخلاقياً وثمّن بعمق امارة الثقة الجلية في مطالعة واشنطن له من خلالي ، بالرغم من أن الاستراتيجية النووية ما كانت مسرح اهتمامه . ولأنني هاجرت من المانيا في عمر الخامسة عشرة ، قبل خمس وعشرين سنة سابقة ، لم استشعر بكفاءة مفرداتي الألمانية لمناقشة الأسلحة النووية ، فتحدثت من جانبي بالانكليزية . كان المترجم عضواً ضمن هيئة المستشار . وبعد خمس وعشرين عاماً ، كتب اليّ هذا الموظف وقد أخذ منه الكبر مأخذاً وبات متقاعداً عن عمله السابق أنه قد سجل ، كشأن أي مترجم يستحق موقعه ، حيث المسألة النووية وقدمه الى أدينير الذي كانت اجابته أنه قد وعد أن يبقى هذا الحديث سراً وعليه فان استعادة حتى مقتطف منه سيناقض وذاك الوعد . فأمر لذلك باتلاف جميع السجلات المتعلقة بذلك الحديث .

وعندما تنفس نيسان عام ١٩٦٢ ، أفلتت العلاقات الألمانية – الأميركية من عقال السيطرة . وفي الحادي والعشرين من ذات الشهر ، شيع عن خطة أميركية تدعو لخلق سلطة عبور دولية للسيطرة على مرور مداخل برلين ومخارجها . وتضم هذه الخطة خمسة أحزاب غربية (القوى الغربية المحتلة الثلاث والجمهورية الفيدرالية وبرلين الغربية) ، وخمسة مساهمين شيوعيين (الاتحاد السوفيتي وبولندا وتشيكوسلفاكيا وجمهورية المانيا الديمقراطية وبرلين الشرقية) وثلاثة دول محايدة (السويد وسويسرا والنمسا) . وسيعزز الوحدة عدد من اللجان التي تضم اطراف متكافئة من مسؤولي المانيا الغربية والشرقية .

وليس من المدهش أن يعارض أدينير بشدة خلق سلطة العبور ، خاصة ما يتعلق بتناظر باءة المانيا الشرقية والغربية فيها . وعلاوة لذلك ستوهن مساهمة ممثلين من جانبي برلين المدينة التي تتمتع بمبوأ هش تحت سيادة القوى الأربع ، مما يعضد من دور المانيا الشرقية . وطالما تكافأ عدد الشيوعيين في سلطة المرور بنظرائهم الديمقراطيين ، ستتمتع الدول الثلاث الهزيلة المحايدة والخاضعة للابتزاز السوفيتي بالصوت الحاسم . لقد عد أدينير كل ذلك خياراً بئيساً لالتزام أميركي .

ووطد أدينير العزم على وثوب ما خالها الخطوة الفريدة عندما انتقد علنا حليفه الأول . وفي المؤتمر الصحفي الذي عقد في السابع من آيار عام ١٩٦٢ ، رفض بحزم سلطة المرور الدولية :

[ان الخطوة ، برمتها ، تبدو لي مشلولة الحركة . فانتم تدركون جيداً أن ثلاث دول ، وهي السويد وسويسرا والنمسا ، لها صوت حاسم طالما

تتوازن أصوات الناس من الغرب والشرق . ثم انني أود ان استفهمكم عن مدى اجابة هذه الدول بالاثبات لو سئلت عن رغبتها في هذا الدور ؟ انني لا اعتقد ذلك !]

وبقر أدينير بطعنة مرة محاولة ادارة كنيدي في وهب أولوية عظمى للعالم المتطور :

[إنني ضد المستعمرات وأؤيد مساعدة التطور ، بكل ضروبه . ولكنني أطالب أيضاً بالاذن لستة عشر مليون الماني [في المانيا الشرقية] أن يحيوا حياتهم الخاصة . وعلينا ان نعلم أصدقائنا وأعدائنا بالأمر] .

وبقيت هذه الخلافات معلقة . وفي السابع عشر من تموز عام ١٩٦٢ ، أعلم كنيدي السفير السوفيتي الجديد ، أنتولي دوبرنين " بوجود قضايا أخرى نرغب أن يطبع الألمان بها بشدة ، كهيكل سلطة المرور " . وطالما أجلى أدينير علنا وبتفصيل دقيق أباءه لهيكل مثل هذه السلطة ووظيفتها ، تيقن خروشوف أن بيده زمام اطلاق أزمة كبيرة ضمن حلف الأطلسي .

ما يثير العجب أن ينحرف خروشوف بمسيره ، ولمّا كان النصر السوفيتي قاب قوسين أو أدنى . وفي مسعى له في تحقيق الاختراق الذي فتنه في ما تصرم من سنوات ثلاث بضربة واحدة ، أقعد الصواريخ السوفيتية المتوسطة المدى في كوبا . ويقيناً أن خروشوف قد خال مبوأه التساومي في مفاوضات برلين النهائية ساحقاً لو ظفر بهذه المغامرة . وللعلة عينها ، لن يأذن كنيدي بتوسيع مثل هذه القوة السوفيتية الاستراتيجية لتمتد الى النصف الغربي . ولم يقسر استطبابه الجسور

والحذق خروشوف على سحب الصواريخ السوفيتية حسب ، بل عرّى دبلوماسيته في برلين من كل ما اعتمل من مصداقية .

وأعلن خروشوف في كانون الثاني عام ١٩٦٣ أن " نجاح " جدار برلين قد صيّر عبث ابرام معاهدة منفصلة مع برلين . لقد قضت أزمة برلين نحبها ، في نهاية المطاف ، بعد حياة دامت خمس سنوات . وفي معمعتها ، حافظ الحلفاء على مبوأهم في أغلب القضايا الجوهرية . ما قدر خروشوف من جانبه على أكثر من تشييد جدار يحول ابتلاع المانيا الشرقية لاراضي الشيوعية .

وبلغة المادة ، احتفت بالخطر الشديد الخطط المتنوعة التي وضعت نصب أعين ادارتي ايزنهاور وكنيدي . وكل هذه الخطط قد دلت دلوها في تعويق اطار العمل القائم بالمنحى الذي حث عليه السوفيت . وما كان له أن يدرب سبيلاً آخراً لأن الاتحاد السوفيتي لم ينو قط من شروعه بالأزمة أن يدهور موقعه . وارغم كل تعويض مقترح الاتحاد السوفيتي على المتاجرة بتهديد ما صبا البتة من وراءه الى تطوير هادف في كينونة المانيا الشرقية ، تابعته ، أو اجراء تعديل في عمليات الدخول . وفي كل الجداول التفاوضية المقترحة تأصل في أدينير كابوس مزدوج - اغتنام شيوعيي المانيا الشرقية وسائل استثمار انكشافية برلين وتقرح الهوة بين التزامات بون للحلف وتطلعها للوحدة الوطنية .

وأنس هذا الأمر ، بوضوح ، دين أشسون الذي كان حاضراً في صيرورة نظام حلف ما بعد الحرب . وفي الرسالة التي بعث بها الى ترومان في الحادي والعشرين من أيلول عام ١٩٦١ ، تكهن بانحدار غربي مذل في برلين " يتوشح

لباس سياسة النظام الجديد " . وجادل أشسون أن مثل هذا الانحدار لو تحتم ، سيتوكأ مستقبل الحلف الغربي على هوية الذي سيتجشم مسؤولية النكسة . وكتب الى الجنرال لوسيس كلي في كانون الثاني عام ١٩٦٢ : [**من الأحسن أن يكون لنا اتباع وقد هجروا قائدهم من قائد يردف اتباعه . فمن ذا سيلم الشمل ؟ ومن ذا الذي أهل بالثقة ليشرع باستلالة جديدة ؟**] انها استراتيجية ديغول المعكوسة .

ومع مرور أزمة برلين ، تحورت الأولويات الألمانية . كان اعتماد أدينير الرئيس ، في العهد الذي تلى الحرب ، على الولايات المتحدة ، ولكن الأمر سلك منحى آخراً بعد عام على انذار خروشوف . وأشار تقرير لاستخبارات وزارة الخارجية ، في السادس والعشرين من آب عام ١٩٥٩ ، أن مرد بلاء أدينير الى انعدام اجماع الحلفاء . وذكر التقرير أن أدينير قد أمل من عودة وحدة الحلفاء . ولكن اذا ما بدا التلاحم بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ميمماً شطر التفاهم مع خروشوف ، سيرغم أدينير على الاشاحة باعتماده الرئيس ليقصد فرنسا .

وأبان الأزمة ، تصرف خروشوف كأنه لاعب شطرنج أدلى بنقلة افتتاحية مبهرة وجلس ينتظر استسلام خصمه ، الذي تمأزق في معضلته ، دون أن يلعب المباراة حتى نهاياتها . وعند الاطلاع على السجل الدبلوماسي ، يغدو من الصعب استيعاب العلة التي عزف بسببها خروشوف تماماً عن استغوار أي من الخيارات التفاوضية العديدة التي عرضت أو طرحت للنقاش أو المح اليها كثيراً . وكان من بينها سلطة العبور ومعاهدتا السلام وفكرة " المدينة المضمونة " . وفي نهاية المطاف ، أمسك خروشوف عن العمل في جميع انذاراته أو الخيارات التي أرغم

الحلفاء الغربيين على الجلوس في طاولة المفاوضات . وغداة ثلاثة أعوام من الانذارات والتهديدات التي تنشف الدماء هلعاً ، كان " نجاح " خروشوف اليتيم في تشييد جدار برلين الذي وسم في آخر المطاف اخفاق سياسة برلين السوفيتية .

لقد القى خروشوف نفسه في حبائل شرك متشبص من خاصة خلقه . والفى ان لا رجاءة له في تحقيق مطالبه من دون اشعال فتيل الحرب . وبرهن في هذا المسعى عجزه التام ولم يجرؤ على اشغال الغرب بعروضهم على التفاوض لكي لا يتهمه " صقور " الكرملن لحسم قدر محدود من الأمور . وانبرى خروشوف ، الذي أفرط في هزله بحيث لم يقدر على توجيه " حمائمه " صوب منحى أكثر مواجهة والذي ما كان متيقناً من موقعه لفرض امتيازات على " الصقور " ، مرجئاً الأمور ما استطاع سبيلاً ، ثم قامر بكل ما في جعبته في قذفة نرد يائسه عندما نصب الصواريخ في كوبا .

وأرخت أزمة برلين – وما رافقها من تصعيد في أزمة الصواريخ الكوبية – نقطة تحول في الحرب الباردة بالرغم من أنها لم تستشعر بهذا المنحى وقتها . فلو لم تنهمك الديمقراطيات كثيراً بتناحراتها الداخلية ، ربما فسرت أزمة برلين كتوضيح كامن للوهن السوفيتي . لذلك أرغم خروشوف على التعايش مع الغرب وقد ثغروا عميقاً في الاقليم السوفيتي ، بعد أن خاب في احراز أي من المرامي التي رسمها ولما يشن الأزمة . وهكذا أعيد تأكيد انقسام أوروبا الى كتلتين ، كما في عهد ثورة هنغاريا عام ١٩٥٦ ، حيث تذمر الطرفان من وضع الأمور ، دون السعي لتحويرها بالقوة .

وكان ذروة مخاض فشل خروشوف في مباديء برلين وكوبا امساك الاتحاد السوفيتي عن طرح أي تحد مباشر بوجه الولايات المتحدة ، باستثناء ما حصل في الفترة الذي أذنت باسدال ستار حرب الشرق الأوسط عام ١٩٧٣ . وبالرغم من صنع الاتحاد السوفيتي لصواريخ بعيدة المدى ، لم يقدر الكرملن قط أهليتها لتصعيد تهديد مباشر الى الحقوق الأميركية المقامة . وعلى خلاف ذلك انحرف الضغط السوفيتي صوب معاضدة ما يقال لها حروب التحرير الوطنية في مناطق العالم النامي كانغولا وأثيوبيا وأفغانستان ونيكاراغوا .

وطيلة عقد من الزمان ، اعتصم السوفيت عن أية محاولات لاعاقة المرور الى برلين ، الذي استمر في طائلة اجراءات مقامة . وفي تلك الفترة البينية ، حظيت المانيا الشرقية باعترافها تدريجياً بفعل قرار لألمانيا الغربية معاضداً بجميع الأحزاب الألمانية الكبيرة ، وليس لمبادرة فرضتها الولايات المتحدة . وفي ذلك العهد ، اغتنم الحلفاء توق السوفيت الى الاعتراف بالمانيا الشرقية ليصروا على شرطهم المسبق في طرح الاتحاد السوفيتي ، عملياً ، اجراءات مرور الى برلين وتأكيد باءتها ذات القوى الأربع . ووافق الاتحاد السوفيتي رسمياً على هذه الشروط في اتفاقية الأطراف الأربعة لعام ١٩٧١ . ولم يوجه أيّما تحد الى برلين أو لطرق الدخول ريثما انهار – الجدار عام ١٩٨٩ معلناً توحد الألمانيتين . لقد دلت الاحتواء دلوها بعد كل ما طرأ .

الفصل السابع

مفاهيم الوحدة الغربية

ماكملان ، ديغول ، ايزنهاور ، وكنيدي

أرخت أزمة برلين المطاف الأخير لتعزيز مداري النفوذين المتداحمين ، بنحو من عقدين تقريباً ، على امتداد الخط الفاصل والشاطر لقارة أوروبا . ففي الفترة الأولى لهذه العملية ، من عام ١٩٤٥ وحتى ١٩٤٨ ، أقام ستالين مدار نفوذ سوفيتي محيلاً أقطار أوروبا الشرقية توابعاً له ، ومهدداً ، علناً ، أوروبا الغربية . وفي الفترة الثانية ، من عام ١٩٤٩ وحتى ١٩٥٦ ، رد الديمقراطيات بصياغة الناتو ، وتقوية المناطق التي تحتلها في الجمهورية الفيدرالية ، والشروع بعملية وحدة أوروبا الشرقية .

وأبان فترة التعزيز ، سعى كل طرف ، بين أوان وآخر ، الى الاجهاز على مدار نفوذ الآخر ، بمحاولات قدرت كلها بالفشل . فمذكرة سلام ستالين عام ١٩٥٢ ، التي صبت الى فتن الجمهورية الفيدرالية بالانحدار عن الغرب ، لم تصب لها أي موقع بباعث بعضه الى وفاة ستالين . وبانت الهوة في استراتيجية دالس لتوحيد أوروبا الشرقية أبان الثورة الهنغارية العقيمة عام ١٩٥٦ . ومثل انذار برلين ، الذي جهر به خروشوف عام ١٩٥٨ ، محاولة أخرى لسلخ الجمهورية الفيدرالية عن الغرب . بيد أن السوفيت قد اضطروا ، نهاية المطاف ، الى الاستواء الى سيطرتهم على المانيا الشرقية التابعة . وغداة أزمة الصواريخ

الكوبية ، شدد السوفيت على الولوج في العالم المتطور ، فآل الأمر الى ثبات ذي قطبين في أوروبا ، الطبيعة الايهامية التي خلص اليها في عام ١٩٥٨ ، ريموند آرون ، الفيلسوف والعالم السياسي الفرنسي :

[يتسم موقف أوروبا بالغرابة والسخف ٠ ولكن من الجلي تماماً ، كما خبر الجميع ، موطن خط التأريف دون ان يتوجس الجميع خيفة عظيمة مما سيحصل ٠ واذا ما طرأ أمر في الجانب الآخر من الستار الحديدي – مثل تجربة العام المنصرم – لن يقع شيئاً من هذا الجانب ٠ لذا ينتصب في أعين الاعتبار تبعيض أوروبا ، بحق أو بغير حق ، بأنها ذات خطر أوهن من سائر الترتيبات] ٠

اذا ما توخينا الدقة ، فان هذا الاستقرار قد قدر الاختلافات المضمرة في ما يقال له المجتمع الأطلسي لتطفو الى السطح ٠ وفي الفترة التي أعقبت أزمة برلين مباشرة ، اضطر ماكملان ، الممثل لبريطانيا وديغول عن فرنسا وكنيدي عن الولايات المتحدة الى ترضية أفاقهم المتنافرة حول طبيعة التحالف ودور الأسلحة النووية ومستقبل أوروبا ٠

كان ماكملان الرئيس البريطاني البكر الذي يواجه ، صراحة ، الحقيقة المؤلمة بانحدار بلده عن مصاف القوى العظمى ٠ لقد تعامل تشرتشل مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي نظيرين له واقدم ، برغم موقفه الذي لم يعكس توازناً صائباً للقوى ، على جسر الهوة بين التفكير المتأمل والواقع ، بعبقريته والتحفيز لدور بريطانيا العظمى البطولي عهد الحرب ٠ وعندما حث تشرتشل على

المفاوضات مع موسكو في الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة ، عند قيادته المعارضة وكرة أخرى عقب وفاة ستالين ، بصفته رئيس الوزراء ، فقد أقدم على هذا الأمر لكأنه ناطق بلسان قوة كبيرة قادرة على التأثير في حسابات الآخرين ، مع أنها متقهقرة عن الشريحة المتقدمة ٠ وفي أزمة السويس ، لم يفتأ ايدن قيادة نفسه كزعيم لحكومة قوة عظمى منفردة جوهرياً ولها القدرة على توجيه فعل بعاتقها ٠ وعندما واجه ماكملان أزمة برلين ، تبدد الوهم البريطاني على القدرة في تحوير حسابات القوى العظمى ٠

انسحب ماكملان الى (١٠ داوننغ ستريت) بفعل أزمة السويس التي شكلت الحد الفاصل لتقهقر بلاده عن الامساك بالدور العالمي ٠ فهو قد لاعب يديه بمهارة جد فائقة دون أن تتجرد ، مع ذلك ، من شيء من الامتعاض ٠ وهو قد خبر بصفته وزيراً سابقاً للمالية ان الاقتصاد البريطاني قد شرع بالتراجع وان دور بلاده العسكري لم يعد ليضاهي الترسانة المرعبة للقوى العظمى النووية ٠ لقد رفضت بريطانيا مقترح (السوق المشتركة) يوم عرض أول الأمر ، فيما تجلت اشارة شامبرلن الى تشيكوسلفاكيا عام ١٩٣٨ باعتبارها بلاداً صغيرة بعيدة لاتفقه عنها بريطانيا الاّ النزر القليل الوصف الدقيق للانفصالية التي يرى من خلالها بلد أمضى قرناً ونصف القرن يخوض حروباً استعمارية في الجانب الآخر من العالم أزمات أوروبا على بعد مئات الأميال عنه ٠

مثل ماكملان ، الدمث والجاحد الظريف ، اخر المحافظين العتق ٠ كان ثمرة للعهد الادواردي ، يوم كانت بريطانيا العظمى قوة العالم الوشيكة وشمخ البيرق البريطاني في كل ركن من أركان المعمورة ٠ وبالرغم من امتلاكه روح

دعابة خبيثة ، كـان ثمـة منخوليا (سوداوية) لا تنفصل عـن ارغامـه بالمساهمة من أفول بريطانيا الدؤوب من علياء القوة ، بعـد التجربـة الملوعـة للحـرب العالميـة الأولى ٠ وأبان اضراب عمال الفحم عام ١٩٨٤ أخبرني ماكملان – المعتزل عمله لنحو من عشرين سنة ٠ انه مع احترامه الكبير وفهمه لما تقدم عليه السيدة تاتشر ، فانه لن يلزم نفسه البتة في قتال حتى الرمق الأخير مع نجلاء اباء أبلوا بلاءً حسناً في الحرب العالمية الأولى وضحوا بأنفسهم بسخاء ٠

وفي أواخر الخمسينيات ، لم تعد بريطانيا العظمى تبصر أوروبا ، عن بعد ، الموطن الذي انطلقت منه القوات البريطانية أحياناً للتدخـل في الاجهـاز علـى (مـا سيكون) طاغية ٠ لذلك قلب ماكملان سياسة العزلة عـن أوروبـا والـدأب على عضوية في المجتمع الأوروبـي ٠ وبـالرغم مـن أزمـة السـويس ، اهتمامـه الأهـم في فلاحة " علاقة خاصة " لبريطانيا العظمى مع الولايات المتحدة ٠

لم تعـد بريطانيـا العظمـى نفسـها قـوة أوروبيـة ، حصـراً ، فقـد تـأصلت أخطارها ، أغلب الأحـايين ، في أوروبـا بينمـا تحققـت سـلامتها ممـا وراء المحيـط الأطلسي ٠ وأبى مـاكملان المقـترح الديغـولي القـائل أن أمـن أوروبـا سـيعضده الانخراط عن الولايات المتحدة ٠ وحينما ترجمت كل الأقوال وتحققت الأفعـال ، كانت بريطانيا العظمى ، في أقل تقدير محتمل ، بقدر منـاظر لمـا فرنسـا في الدفـاع عن برلين بالرغم من أن دافعها على ذلـك ، لمؤازرة أميركـا ولمـا تقـدر أن تهديـد توازن القوى العالمي لرازح تحت التهديد ، وليس بـاعث كثير الى تشريع المفهـوم المبهم لحقوق غزو الحلفاء ٠

وفي أعقاب أزمة السويس ، خلصت بريطانيا العظمى وفرنسا الى محصلتـين جد متناقضتين لازدراءهما على يدي أميركا ٠ حثت فرنسا خطى استقلالها ، بينما جنحت بريطانيا العظمى لتعضيد شراكتها مع اميركا ٠ لقـد سبقت رؤيـا التـآصر بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الحرب العالمية الثانيـة ، وتطبعـت منذئـذ ٠ وعندما طلع عام ١٩٣٥ ، عبر رئيس الوزراء ، ستانلي بـادون ، عنهـا في خطـاب أدلى به في (البرت هول) :

[لقد آمنت ، ما حييت ، أن الأمان الأعظم من شرور حرب ، في أي بقعة تدور رحاها ، في أوروبا أو الشرق أو سائر المعمـورة ، ليكمـن في التعـاون الحميم بـين الامبراطوريـة البريطانيـة والولايـات المتحـدة الأميركيـة ...... ربمـا تقتضي هذه الخاتمة المنشودة انسـلاخ مئـات السـنين لتتحقـق أو ربمـا لـن تمـر ، فالأحلام ، تراودنا احياناً ٠ انني لأتطلع الى القـادم مـن الزمـن ، وأبصـر توحـد القوى ليعم السلام في العالم ويبث العـدل ٠ وليـس لي الا أن أتـأمل ، حتـى لـو عجـز الرجـال عـن الحـوض عليهـا علنـاً ، أن أولئـك الذيـن يشـيعوننا سيأنسونها ، ذات يوم في ذات عهـد .....] ٠

و لم يسلخ هذا الحلم مائة عام ليمسي حقيقة ، لأن الحرب العالمية الثانية قد أطلقت العنان لترابط بريطانيا العظمى والولايات المتحدة بضرورات متبادلة ، حتـى لو رشحت هذه الضرورات بمصفاة التجارب التاريخية المتباينة ٠

وينهل أحد العوامل المهمـة في لحمة الأمتين الى مقـدرة بريطانيـا العظمـى الخارقة على التكيف مع الظروف المتحولة ٠ ولدين اشسـون الحق ، كـل الحق ،

عندما أشار أن بريطانيا العظمى قد تشبثت بوهم امبراطورية وخابت في التعريف بدور معاصر لها في أوروبا ٠ ومن ناحية أخرى أنمت بريطانيا العظمى بأساس يومي تقريباً في علاقتها مع واشنطن ، أنها بلد عتيق لا يخدع نفسه بقضايا جوهرية ٠ وعندما فطن البريطان الى عجزهم عن تأطير السياسة الأميركية بالمناحي البالية في موازنة الخطر والفائدة ، اصطفى القادة - خاصة غداة أزمة السويس - الى طرق درب التأثير الأعظم ٠ وحاول قادة حزبي بريطانيا أن يصيروا أنفسهم عناصر لا يستغنى عنها في عملية صياغة القرار الأميركي بحيث أن الرؤساء ومن حولهم قد أمسوا يتطلعون الى المشاورات مع لندن كعامل حيوي ، لخاصة حكمهم ، لا أن يكون هذا الأمر احساناً خاصاً لحليف أضعف ٠

ومع ذلك لم تتفق بريطانيا العظمى مع فلسفة أميركا عن العلاقات الدولية الا بشق الأنفس ٠ ولم يشاطر البريطان رأي الأميركيين ، قط ، لكمال الانسان ، وما نادوا بالمطلقات الأخلاقية ٠ لقد توقع القادة (البريطان) بلغة فلسفتهم الأسوأ من الانسان ، ونادراً ما استشعروا بخيبتهم ٠ وفي مضمار السياسة الخارجية ، مالت بريطانيا العظمى ، على الدوام ، لتطبيق شكل واف من الأنا الأخلاقية : ما هو خير لبريطانيا العظمى ، لخير لسائر العالم أيضاً ٠

وتطلب الظفر بمثل هذه الفكرة ثقة بالذات عظيمة لا تتحدث عن معنى التفوق البريء ٠ فعندما أعلم دبلوماسي فرنسي ، في القرن التاسع عشر ، رئيس الوزراء البريطاني ، بالمرستون ، أن فرنسا قد تطبعت على شهر بالمرستون ورقة دبلوماسية خارج كمه في آخر لحظة ، أجاب البريطاني المقدام : " لقد أنبت الله البطاقات في مكامنها " ٠ ومع ذلك وضع البريطان الأنا الوطنية قيد التنفيذ بمعنى

حدسي من التحديث بحيث أن افتراضهم لتمثيل الخير العام ، قد كان له ما يبرره على الدوام ٠

تحولت بريطانيا العظمى ، في عهد ماكملان ، من القوة الى التأثير وقرر رز سياسة بريطانيا في السياسة الأميركية لتوسيع مدى الخيارات البريطانية ، عند توجيه العلاقات مع واشنطن ، بنحو حذق ٠ لم يحتج ماكملان قط على مسألة فلسفية أو فكرية ، ونادراً ما طرح تحدياً صريحاً الى سياسات أميركا الرئيسة ٠ لقد خول واشنطن بالمنصة المركزية ، ولما يسع لتأطرة المسرحية من ما وراء الستائر ٠ أما ديغول فقد دأب على التصرف بجهر كي يوجع من يتجاهله ، في حين يسر ماكملان للولايات المتحدة التماس الآراء البريطانية ، بحيث غدت مسألة تجاهله محرجة ٠

وتبطنت أساليب ماكملان هذا المفهوم أبان أزمة برلين فلاحت مسألة الدخول الى هذه المدينة غير ذات أهل لمحرقة نووية ٠ وفي صعيد آخر ، كانت المخاطرة بفقدان الرابطة بأميركا أعظم اللعنات ٠ أنه سيرتصف بجانب الأميركان حتى في حالة المجالدة النووية ، الأمر الذي يعلو ما يوكده أكثر الحلفاء الآخرين ٠ ومع ذلك كان عليه أن يسبر أغوار الخيارات الأخر المتيسرة قبيل مواجهة هذا القرار النهائي ٠ لقد صبا الى الخروج بفضيلة من الضرورة فأنطلق ليمثل نفسه بصفة المتبني الأول الغربي للسلام ، ويكبح أعمال أميركا المتسرعة ، ويوضح لشعبه البريطاني أن " قائدهم قد بذل الجهود كلها لبلوغ اتفاق وتفاهم " ٠

لقد استحالت الوسائل غايات ، على حين غرة ، وتمتع ماكملان بالقدرة الكافية في خاصة لباقته ليسعى الى استقطاب وحزة التهديد السوفيتي بالانغماس بمفاوضات يتدبر أمرها بمهارة . كانت العملية الدبلوماسية لأسلوب ماكملان في التفكير خادمة ، بذاتها ، في ابطال انذارات خروشوف ولما يوظب المفاوضات المبتورة ، واحدة فواحدة ، لاتساع حدود الأماد التي ربما يعلن عنها قادة السوفيت الهوج .

قام ماكملان برحلة أمدها أحد عشر يوماً الى الاتحاد السوفيتي ، بين شهري شباط وآذار عام ١٩٥٩ ، بالرغم من أن خروشوف أعاد التوكيد مرات عديدة غداتها على انذاره الأول . لقد أغتاظ أدينير ، أشد الغيظ ، لهذه الزيارة ، ولم يحقق ماكملان فيها أمراً جوهرياً ، في حين اغتنم خروشوف فرصة حضوره لتكرار تهديداته . ومع ذلك دأب رئيس الوزراء ، بعناد ورباطة جأش ، على جدولة سلسلة من المؤتمرات لأنها أكثر السبل عملية في التغلب على آماد خروشوف النهائية . وصور هذا الأمر في مذكراته :

[تملكني القلق من تعزيز مفهوم سلسلة اللقاء التي تنتقل ، بأناة ، من نقطة لأخرى يسود فيها " التعايش المسالم " – اذا لم يكن السلام – دون أن يقابله تهديد في هذا العالم] .

ومع ذلك حين غدت المحاورات مصباهم ، كانت تحت رحمة الحزب الأكثر تأهباً بالاجهاز عليها ، أو بالأحرى ، الفريق القابل على توليد مثل هذا الانطباع . وهكذا ألفى خروشوف في نفسه القدرة على تشخيص ما هو " قابل

للتفاوض " ، بينما وظب ماكملان ، المتلهف لمواصلة الحديث ، عبقرية فذة في السعي لاستغوار بعض ما ينحدر في جدول السوفيت يمكن تواصله بأمان نسبي . وكتب ماكملان الى (سلون ليولد) ، وزير خارجيته ، في اليوم الذي أعقب تسلمه لمذكرة خروشوف الرسمية عن برلين ، في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٥٨ :

[لن نكون بقادرين على تنحية المفاوضات جانباً . فأنى الشروع بها ؟ وهل ستفضي ، ضرورة ، الى مناقشة مستقبل المانيا الموحدة " وخطط الانفكاك " الممكنة ؟] .

كانت السمة المشتركة لخطط الانفكاك اقامة مناطق تسلح محدود في قلب أوروبا شخصت في المانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ، وانسحاب الأسلحة النووية من هذه الأقطار . كان موطن هذه الأسلحة ذا أهمية رمزية ابتدائية ، بالنسبة لماكملان ولقادة أميركا أيضاً ، الذين يدنونه درجة . لقد لاحت مناقشة خطة انفكاك مع السوفيت أسلوباً حميداً نسبياً لابتياع الوقت ، سيما أن الاستراتيجية النووية ، لتتوكأ على ترسانة أميركا النووية (الحصة الساحقة التي لا تكمن في قارة أوروبا) .

عارض أدينير كل هذه الخطط لأن الأسلحة النووية الأميركية اذا ما أبعدت عن المانيا عليها أن تعود لأميركا ، فتخرق ما عده هو الرابطة السياسية الحرجة في التحصين النووي بين أوروبا وأميركا . كان تبصره – وكذلك خبراء الدفاع في الأقل – أن الاتحاد السوفيتي لن يخاطر بالانقضاض على أوروبا الشرقية دون

الاتيان على الصواريخ النووية ، المنتصبة في ثرى المانيا ٠ وطالما يقتضي هذا الأمر هجوماً نووياً ، سيكون رد أميركا ذرياً ٠

واذا ما أبعدت الأسلحة النووية الى أميركا ، سيلوح في الأفق ثمة هجوم تقليدي على المانيا ٠ وما كان أدينير فاقهاً برد القادة الأميركان على اشعال فتيل حرب نووية ، في ضوء الدمار الذي تعيشه في بلادهم ٠ وهكذا غدا الابحار في خيارات المفاوضات المتعلقة ببرلين بديلاً للنقاش المستمر حول الاستراتيجية العسكرية لحلف الأطلسي ٠

وكلما اضطلع ماكملان أو ايزنهاور بمبادرة دبلوماسية متفردة ، كان رد فعل الطرف الآخر تجلية للزهو الذي لا يبرح قط علاقات الساسة ٠ وبالرغم من صلاتهم الطيبة ، اغتاظ ايزنهاور في مستهل عام ١٩٥٩ ٠ لزيارة ماكملان الى موسكو ، بينما استحال الأخير فظاً ، في السنة ذاتها ، عندما دعا ايزنهاور خروشوف الى كامب ديفيد :

[يسعى الرئيس الان الى التحرر بعد أن شرك نفسه في مبدأ " لا قمة دون تقدم في اجتماع وزراء الخارجية " ٠ ولم يفكر الا بسبيل ابدال البهجة محل النقاش ، لذا يسأل خروشوف البقاء معه في أميركا ووعده برد الزيارة الى روسيا ٠ وكل هذا يلوح دبلوماسية غريبة حقاً] ٠

وما هذه السياسة بغريبة على نحو يناظر حتميتها ٠ فعندما أيقن خروشوف أن بريطانيا العظمى لن تنحدر عن أميركا ، شدد على ايزنهاور ٠ لقد حقق ماكملان هدف خروشوف ، كما أبصره ، عندما فتن أميركا على التفاوض ٠

وهكذا أمسى الرئيس الأميركي المحاور اليتيم الذي يؤدي مسعى خروشوف ، في آخر تحليل ٠ وباتت النقاشات الأساسية والجوهرية ما بين خروشوف وايزنهاور في كامب ديفيد ، وما بين خروشوف وكنيدي في فيينا ٠ ومع ذلك ، كلما احتكر الأميركان والسوفيت الحوار العالمي ، عظم الحافز بين بعض حلفاء الناتو للسعي الى تحقيق بعض من الحرية للمناورة بأنفسهم ٠ وعندما توارى التهديد السوفيتي عن أوروبا الغربية والخوف المشترك من موسكو ، بات الاختلاف بين صفوف حلف الاطلسي أقل خطراً ، وحاول ديغول توظيب هذا الأمر للتشجيع على سياسة أوروبية أكثر استقلالاً ٠

ومع ذلك لم تتخاصم بريطانيا العظمى حول خيار راية القائد الذي ستنضوي تحت لوائه ٠ وحين استحب ماكملان الخضوع لأميركا على الاذعان لأوروبا ، لم يكن لديه الباعث لتشجيع طراز ديغول ، ولم يمض قط قدماً في مواكبة الحركات الساعية لفصل أوروبا عن أميركا ، مهما كانت الذريعة ٠ ومن جانب آخر برهن ماكملان في دفاعه عن المصالح البريطانية الحيوية حكمة متشبثة كما لديغول تجلت في خضم ما تسمى بقضية (**سكايبولت**) ٠

قررت بريطانيا العظمى ، لأطالة أجل أسطولها القاصف العتي ، ابتياع سكايبولت ، وهو صاروخ جوال أميركي بعيد المدى يطلق من الجو ، ما زال رهن التطوير ٠ وبحلول عام ١٩٦٢ الغت ادارة كنيدي من دون اشعار مسبق ، هذه الصفقة بدعوى أسباب فنية ٠ ولكن هذا الأمر ، في حقيقته ، يعود الى خفض الاعتماد على الطائرات الجوية ، الأكثر انكشافية من الصواريخ ، وثمة يقين شبه مؤكد الى اثباط عزيمة الانكليز في بناء قدرة نووية ذاتية ٠ وهكذا حكم قرار

أميركي منفرد ، دون استشارة مسبقة لبريطانيا العظمى ، على القوات القاصفة البريطانية بالانقضاء السريع . لقد بدت تحذيرات فرنسا من مغبة الاعتماد على واشنطن موكدة .

وأبان الردح الثاني من قضية سكايبولت بانت مكاسب " العلاقة الخاصة " مع أميركا . وأستذكر ماكملان بعض الأمور التي جمعها خلال فترة تبنيه الصبور للروابط مع أميركا :

[لو استخدمت المعضلات التي انجبها تطور سكايبولت ، أو لاحت كذلك ، كأسلوب لاقحام بريطانيا على الخروج من دائرة قدرة نووية مستقلة ، ستكون النتائج خطرة حقاً . وسوف يحول دونها عظيماً أناسنا الذين يأثرون قدرة نووية مستقلة وأولئك الذين يجابهونها . أنها لتهين معنى الكبرياء الوطني ولسوف نقف بوجهها بأي وسيلة نقدر عليها] .

التقى كنيدي وماكملان في ناسا ، في الواحد والعشرين من كانون الأول ، واتفقا على تعديل المشاركة النووية بين أميركا وبريطانيا والعظمى . وعوضت أميركا بريطانيا ، لقاء السكايبولت ، ببيعها خمسة غواصات بولاريز (Polaris) وصواريخ مساعدة ، كي تقدر بريطانيا على تطوير رؤوس حربية نووية لها . وتلبية لقلق أميركا حول ادراك سيطرة مركزية للاستراتيجية النووية ، وافقت بريطانيا العظمى على " تحويل " هذه الغواصات الى الناتو ، باستثناء الحالات التي تتعرض فيها المصالح الوطنية المطلقة للخطر .

واتضح انخراط القوات البريطانية في صفوف الناتو شاهداً عظيماً . فطالما عتقت بريطانيا العظمى الحرية على استخدام غواصاتها بجانب " مصلحتها الوطنية المطلقة " وأن استخدام الأسلحة النووية ، تعريفاً ، لن يوضع بالاعتبار الا اذا تعرضت مصلحة وطنية للخطر ، فقد منحت اتفاقية ناسا بريطانيا العظمى ، بشكل فعال وبالمشاورة ، الحرية عينها التي تسعى فرنسا لاستقطاعها بالمواجهة . وكان التباين بين وجهتي النظر البريطانية والفرنسية صوب أسلحتهم النووية أن بريطانيا العظمى كانت مستعدة لنحر الشكل قرباناً للجوهر بينما كان الشكل والجوهر سيين لديغول ، المجاهد لتوكيد الهوية الفرنسية كرة أخرى .

ويقيناً أن فرنسا استعشرت الموقف الغريب برمته ، لأنها لا تمتع بأفق بريطانيا العظمى في التأثير على قرارات أميركا . وهكذا أثارت فرنسا ، في عهد ديغول ، القضية الفلسفية لطبيعة التعاون الأطلسي بأسلوب انقلب احتجاجاً لقيادة أوروبا . أما لأميركا ، فكان تعريفاً ثانياً بالأسلوب التاريخي لدبلوماسية أوروبا .

كانت الولايات المتحدة تستبق شؤون العالم منذ الحرب العالمية الثانية بمنحى ما كان يسيراً لأمة ما في منصرم عهد . وكانت تنتج ثلث بضائع العالم وخدماته ، بالرغم من تمتعها بنسبة صغيرة من سكان المعمورة . واستطاعت بفعل ما تعزز فيها من التكنولوجيا النووية النهائية في التفوق على أي خصم مدروك أو خصوم متحدين .

ولعقود عدد ، أغفل قادة أميركا وقد اتخمت امتهم البركات ، أنى كانت التوجهات غير ممثلة لأوروبا الخربة المهزوزة والمغلوبة على أمرها ، أطواراً ،

بالمقارنة مع السلوك الأوروبي عندما تسيدت هذه القارة على شؤون العالم قرنين من الزمان . وخاب الأميركان أيضاً في استذكار دينامية أوروبا التي أطلقت الثورة الصناعية والفلسفة السياسية التي انجبت مفهوم السيادة الوطنية ، أو منحى الدبلوماسية الأوروبية الذي سخر نظام توازن قوى معقد ، نحواً من ثلاثة قرون . وعندما تماثلت أوروبا الى الشفاء ، بالاستغاثة الأميركية ، كان على بعض الهياكل التقليدية لدبلوماسيتها أن تسترد ، خاصة في فرنسا ، الموطن الذي تأصلت فيه السياسة الحديثة في عهد راشليو .

ولم يستشعر أحد بهذه الحاجة أعظم من ديغول . ففي الستينيات ، أوج جداله الدائر مع الولايات المتحدة ، أمسى من المتعارف عليه اتهام هذا الرئيس بمعاناته من خرافات الشيخوخة . ولكن معضلته كانت على الشفا النقيض الآخر تماماً – أنى يعيد هوية بلد نقشت فيه روح الخيبة والتعري . وعلى خلاف أميركا ، لم تتمتع فرنسا بقوة جبارة و لم تأنس الحرب العالمية الثانية ، بعدسة بريطانيا ، التي تراها تجربة موحدة ومهذبة . وخبرت دول قليلة مخاضات فرنسا ، التي فقدت كثيراً من شبابها في الحرب العالمية الأولى . وأيقن الناجون من هذه الكارثة أنها لن تستطيع صبراً لمثل هذه المحنة . وفي تلك الفترات ، غدت الحرب العالمية الثانية كابوساً حقيقياً ، مترجماً انهيار فرنسا عام ١٩٤٠ الى مصيبة نفسية وعسكرية . وعندما بانت فرنسا من الحرب ، فنياً ، كأحد الظافرين ، أيقن قادتها في أحسن صورة أنها أنجدت بالجهود العظيمة للآخرين .

لم يأت السلام بالفرج ومارست الجمهورية الرابعة ، كالثالثة ، التقلقل الحكومي ذاته فكان عليها أن تقطع المسلك الملتهب للتحرر من الاستعمار .

وأقحم الجيش الفرنسي ، العاري تنظيماً بعد نكسة عام ١٩٤٠ ، بالانخراط في حربين استعماريتين خائبتين ، نحواً من عقدين ، أولهما في الهند الصينية والثانية في الجزائر ، واختتمتا باندحار فرنسي . ان أميركا ، المسبغة بنعمة الحكومة الراسخة وثقة ذاتية بالنصر الكامل ، لتقلي بنفسها الى أية مهمة تفرضها القيم . وفي بلد عصف به جيل من الصراع وعقود من الاذلال ، حكم ديغول على السياسات بمدى مساهماتها في اعادة احترام النفس الفرنسي ، وليس بمرآة المعايير العملية .

وبات الصراع النام بين فرنسا والولايات المتحدة مراً تماماً عندما أشرق الطرفان ، الملتبس عليهما مفاهيم الآخر عملياً ، لا يتحدثان قط عن الموضوع عينه . وجنح القادة الأميركان الى قناعة تامة بحتمياتهم العملية . وعثر ديغول على ضرورة لتعويض شعبه الذي غدا متشككاً بعد تعثر الانتصارات العظيمة ووهن الاحلام الراسخة ، بسيرة متعجرفة ، وحتى مفرطة . لقد عرف الهوة النفسية بين أميركا وفرنسا تفاعل التواضع الشخصي للقيادة الأميركية والعناد التأريخي ، ولما ديغول من تعنت شخصي **وتواضع تأريخي** .

وطالما تعهدت واشنطن بضمان وحدة مصالح أعضاء الحلف القوي ، أبصرت في التشاور استطباباً شاملاً لكل الاختلافات . وفي رأي أميركا يماثل التحالف هيئة تعقد علنا يعكس التأثير فيها الشطر المتعادل لملكية كل حزب ، وأن يحض بنسبة مباشرة الى مساهمة البلد المادية في العمل المشترك .

ولم تنته الى مثل هذه الخلاصات عادة فرنسا ، قروناً عدداً ، عند توجيه الدبلوماسية . ومنذ عهد راشليو ، كانت مبادرات فرنسا مخاضاً ،

بنحو متباين ، لحسابات الأخطار والمكاسب . ولم يبال ديغول ، نتاج هذا الطبع ، الى طبيعة مكننة الاستشارة .بمثل اهتمامه لتجميع خيارات لما يطرأ من الاختلافات . وآمن ان هذه الخيارات لترسي معالم المواقع التفاوضية النسبية . ويرى ديغول في العلاقات السلمية بين الأمم ارتكاناً على حسابات النفع ، لا على المناحي الرسمية لفض النزاعات . ولم يبصر التواؤم حالة طبيعية ، فهي أمر ينتزع من تناحر المصالح :

[ان الانسان " المكبح بسجيته " " لا يحده حد لرغباته " . وهكذا العالم قوى متضادة ظفرت الحكمة الانسانية ، بنحو مؤكد ، على عصم هذه الخصامات من الاتيان بتناحرات مفنية . بيد ان تنافس الجهود لشرط الحياة .... وهي ، في التحليل الأخير ، المعيار اليتيم الذي يأنس فيه الكون سلاماً] .

وتهبني معرفتي الخاصة الموجزه بديغول مولجاً تاماً لمبادئه . لقد حصل لقاءنا أبان زيارة نيكسون الى باريس ، اذار عام ١٩٦٩ ، حيث قصدنا قصر الأليزيه ، وفيه ضرب ديغول له استقبالاً كبيراً . تقدم لي مساعد في الحشد ليعلمني برغبة الرئيس الفرنسي على التحدث معي . لقد راودني شيء من الخوف فيممت قريباً من هذه الشخصية العارمة ، الذي طرد حاشيته ، حالما أبصرني ومن دون كلمة تحية أو عبارات الكياسة الاجتماعية ، استقبلني بالسؤال : " لم لا تخرجون من فيتنام ؟ " فأجبت ببعض التهيب أن التقهقر المنفرد سيقوض مصداقية أميركا . لم يتأثر ديغول وسألني عن مطراً ضياع مثل هذه المصداقية . واذ أشرت الى الشرق الأوسط استحالت انعزاليته سوداوية وقال :

[ما أغر بك ! فقد خلت أن في الشرق الأوسط يواجه أعداؤك معضلة المصداقية] .

وفي اليوم التالي سألني الرئيس نيكسون ، بعد لقاءه بالنظير الفرنسي ، للتعليق على رؤية ديغول لأوروبا مؤلفة من دول أمم - في كتابه " أوروبا الأحزاب " .

لم يستطب ديغول الحديث مع مساعدين أو أنه ، في هذا الأمر ، لم يشأ تواجد المساعدين . لقد استعملت منه عن ماهية المقترح الفرنسي لابقاء ألمانيا بعيدة عن الهيمنة الأوروبية التي أشار اليها هو تواً . فكان واضحاً أن ديغول لم يأخذ بالاستفهام مأخذ الجد ويمنحه جواباً شاملاً . وأكتفى (من خلال الحرب) بمجرد ست سنوات بعد توقيعه اتفاقية صداقة دائمة مع أدينير .

ووسمت دبلوماسية ديغول المنعزلة والمتشائمة بانقطاعها المتبصر الى مصلحة فرنسا الوطنية . وعندما حث القادة الأميركان على المشاطرة ، أكد ديغول على مسؤولية الدول في النظر الى خاصة أمنها . وحيث نشدت واشنطن ارساء حصة للمهمة الكاملة لكل عضو في الحلف ، أمن ديغول أن قرار العمل هذا سيستنزل بفرنسا الى دور ثانوي ويجهض على كنه الهوية الفرنسية :

[لن تطيق أمة عظيمة استخلاف مصيرها لقرارات وعمل دولة أخرى ... مهما كانت صداقتها ..... فالبلد الموحد ليخسر مصلحته في دفاعه الوطني ، لأنها غير منوطة به] .

ولـم يهتم ديغول الى أمر أعظـم مـن رؤيـة الفرنسـيين لأنفسـهم ، ويستشعرهم الآخرون ، كفاعلين بدافع من رغبتهم الحرة المخضة . وعالج ديغـول اذلال عام ١٩٤٠ كنكسة مؤقتة ترضض بالقيادة القاسية غير المتفائلة . ويرى في فكرة أن فرنسا لن تأذن بأوهن بارقة للخضوع ، حتى بالنسبة لحليفها الأميركي الموقر :

[.... وفي ما يخص الولايات المتحدة – الثرية والقوية والنشطة – تأنس فرنسا نفسها في مبوأ استقلال . لقد احتاجت فرنسا ، على الدوام ، الى المعونة كي تدرأ عنها الانهيار النقـدي ، فمولتها أميركا بعدة لجنودها . كان أمن فرنسا متوكأ تماماً على تدريعها .....] .

وما كان ديغول مناوءاً لأميركا من حيث المبدأ . واستملح التعاون حيثما يرى تواردًا للمصالح الأميركية والفرنسية ، بنحو أصيل . وهكذا دهش المسؤولون الأميركان ، في أزمة الصواريخ الكوبية ، عندما قدم ديغول يد المساعدة الشاملة – غير المشروط أغلبها من لدن قائد حليف . وعـارض برامج الانفكاك المتعددة في أوروبا الوسطى ، بباعث أهمه الى أن الأمر يقصي القوات الأميركية كثيراً ويدني القطعات السوفيتية ، بنحو قريب جداً :

[ليس ثمة معنى " للانفكاك " أو " الانفلات " بالنسبة لنا يحوي أيما قيمة . فاذا لم تستوعب عملية نزع السلاح مقاطعة جد قريبة من الأورال ، كدنوها من الأطلسي ، فأنى تحصن فرنسا ؟ ومـا الـذي سيحـول دون تخطي المعتدي ، في حالة الحرب ، أرض الحرام الألمانية العارية ؟] .

وكان من شأن اصرار ديغول على الاستقلال أن يعتمل نظرياً لو أنه لم يأطره بعدد من اقتراحات مآلها العملي اضعاف دور أميركا في أوروبا . كان أولها التأكيد أن أميركا ليست بأهل للثقة كي تبقى في أوروبا الى أجل غير مسمى . كان على أوروبا أن تجهز نفسها – تحت راية القيادة الفرنسية – لتواجه مستقبلها لوحدها . ولم يناد ديغول باستثاره مثل هذه النتيجة ، ولاح ساهياً عن افتراض انقلاب تأكيداته الى غيبيات ذاتية التحقق .

وعندما زار ايزنهاور باريس عام ١٩٥٩ ، عالج قضية الزعامة عندما ساءل الرئيس الفرنسي : " علام تشكك أن أميركا ستطابق مصيرها بأوروبا ؟ " . وفي ضوء دأب ايزنهاور في أزمة السويس ، كان هذا السؤال غريباً ومصلحاً ذاتياً . وأجاب ديغول ، بأدب ، مذكراً ايزنهاور بالعبر السحيقة لبلده . ان أميركا لم تركب الحرب العالمية الأولى الا غداة ثلاث سنوات من الخطر المهلك ، وولجت الحرب الثانية بعد احتلال فرنسا . وفي العصر النووي ، سيغدو مثل هذين التدخلين جد متأخرين .

لم يفوت ديغول أية فرصة للافصاح أن تقييم أميركا ، في ضوء قضايا محددة ، لأقل أوروبية من فرنسا واستغل بقسوه انذارات خروشوف عن برلين . طاب لديغول أن تأنس بون في فرنسا حليفاً أعظم ثقة من أميركا ، وهكذا يبوأ فرنسا ، رويداً رويداً ، موقع القيادة الأميركية . وعندما أقعدت مبادرات أميركية منفردة عدة مذاهب مصانة لسياسة برلين الغربية لما بعد الحرب بجدول أعمال دبلوماسي ، طرحت قسوة أدينير المتعاظمة خطراً وفرصة لفرنسا . فالخطر " لو اضطر الألمان لتغيير جانبيهم ، حيث سينقلب توازن أوروبا عاليه سافله يغدو

اشارة للحرب " ، والفرصة بباعث من مخاوف الألمان التي ربما تعزز نفوذ فرنسا في المانيـــا " .

وحثت على مخيلة ديغول صورة أوروبا المنظمة على امتداد خطوط المانيا بسمارك – أي موحدة على أساس الدول تلعب احداها (فرنسا) الدور المهيمن ، الذي يماثل تماماً ما قد تمتعت به بروسيا في جسد المانيا الملكية . وسيحضى الجميع بشطر في تكرار ديغول رسم هيئة الحلم البالي لفرنسا راشليو الوشيكة : الاتحاد السوفييتي يود تقسيم المانيا ، والولايات المتحدة في دفاع أوروبي غربي قبالة الاتحاد السوفييتي ، وفرنسا العارجة الى وسم التطلعات الألمانية الوطنية بوحدة المانيا . وعلى النقيض من بروسيا ، لم تكن فرنسا بالدولة الأقوى في أوروبا الغربية و لم تتمتع بالعضلة الاقتصادية في الهيمنة على الآخرين ، وما كان لها ، نهاية المطاف ، باءة تتسيد منها على توازن يستوعب القوتين العظمتين .

وربما نذرت هذه الاختلافات لمرور الزمن ، خاصة أن أدينير متلهف باستتياس للبقاء على مقربة من الولايات المتحدة . وعلاوة لذلك ، كان جميع القادة الألمان جد شاعرين ببون القوة بين فرنسا والولايات المتحدة بحيث لم يرجحوا المتاجرة بالحماية الأميركية النووية لقاء احتراس فرنسا العظيم من الشؤون السياسية .

ومع ذلك كان ثمة قضية واحدة تتعلق بالاختلاف الوطني بين فرنسا والولايات المتحدة بنيت لضرورة المعضلة بالذات ، و لم تحتمل ارجاءً : سيطرة الاستراتيجية العسكرية في العصر النووي . وهنا كان اصرار أميركا على التوحد

ودعوة فرنسا بالحكم الذاتي ، على غيري رجعة ، و لم يكن ثمة فواصل لتهدئة الخلاف . وطالما كانت قوة الأسلحة النووية على غير سبق ، لم يدل التاريخ بارشاد موثوق لصياغة أيما استراتيجية عسكرية . وكل سياسي كان يحلق بصيراً ولما يحاول تقييم أثر التكنولوجيا الحديثة في السياسة والاستراتيجية ، وبانت خلاصاتها من نظريات أكاديمية لا تتمتع بخبرة تجريبية أو معلومات .

وفي العقد الأول لفترة ما بعد الحرب ، لاح الاحتكار النووي كأنه استكمال لرؤى أميركا في القدرة على كل الأمور . وعندما بلغت الخمسينيات عتيها ، تجلى واضحاً أن أياً من القوى العظمى سيكون بنحو عجل ، قادراً على أحداث مستوى من الدمار في الآخر ما تخيله قط مجتمع سابق ، مما هدد بقاء الحضارة نفسها .

كان هذا الادراك في واقع ثورة توشك أن تحيل بالذات طبيعة العلاقات الدولية . وبالرغم من أطراد تطور الأسلحة كثيراً ، ظلت تأثيراتها التدميرية محدودة نسبياً ، حتى اختتام الحرب العالمية الثانية . واقتضت الحروب تعبئة هائلة للمواد واليد العاملة ، الأمر الذي سلخ وقتا لجمعها وتوظيبها ، بينما تزايدت الخسائر بشكل طفيف . ان أية حرب ، نظرياً ، يمكن اخمادها قبيل أن يغلب على أمرها .

وطالما أن القدرة لا تتعاظم الا بنسب نزيرة نوعاً ما ، فقد لاحت منافية الدعوى القائلة بامتلاك دوله قوة جد عظيمة لأغراض سياسية رشيدة . ولكن هذا ما حصل أبان العهد النووي ، حيث أمسى شرك الدول الكبرى المركزي

الاستراتيجي في كيفية تحويط الترسانات العظيمة تحت متناولهم ، وليس مسألة السبيل في تراكم قدرة اضافية . ولم يتدبر أيما جانب حل هذا التحدي ، فأمست التوترات السياسية ، المفضية الى حروب سابق عهد ، مبتلعة في مخاوف الأوار النووي ، فانجبت ردحاً جديداً من الخطر استتب السلام فيه نحواً من نصف قرن . ولكن مثل هذا الأمر قد أتى بحالة من الاحباط السياسي صير التهديدات غير النووية واهمة ومتكررة . وما كانت قط الهوة عظيمة بين دولة عظمى وأخرى غير نووية ، وما هي البتة بمرجحة للظهور . فكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية لم يردعا بالترسانة النووية الأميركية لقطع مراميهما ، حتى ضد القوات الأميركية ، ولم يردع المحاربون الأفغان بالقدرة النووية للاتحاد السوفيتي .

ولأول وهلة في التاريخ ، مكن العصر النووي تحوير توازن القوى بوسائل التطور الحاصلة ، برمتها ، في أراضي دولة ذات سيادة . فامتلاك بلد مفرد لقنبلة ذرية قد حور التوازن ، بنحو أعظم من أيه حظوة اقليمية سابقاً . الا أننا اذا استثنينا ضربة اسرائيل للمفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١ ، لم يستطع أي بلد في كامل الحرب الباردة اللجوء الى القوة للحيلولة دون بلوغ مثل هذا التفوق لخصمه .

لقد أحال العصر النووي الاستراتيجية ردعاً والردع تمريناً فكرياً لا يفقهه الا حصر . وطالما لن يتحقق الردع بغير الاختبار السلبي ، وباحداث لن تطرأ ، وان من المتعذر توضيح عدم حصول مثل ذلك ، غدا من الصعب جداً تقييم مدى السياسة الحالية كأفضل واحدة ممكنة أو أنها مؤثرة ومجردة تماماً . ان الردع لضرب من العبث . اذ يتعثر برهنة مصبا الخصم في استباق الهجوم . وحملت مثل

هذه المبهمات النقاشات العالمية والمحلية المتعلقة بالشؤون النووية لترفع نغماتها من الهدوء الى المنافذة ومن الشك العقيم الى احساس طاغ من القوة ومن نظريات دفاعية مشلولة الى نظريات لا يمكن توضيحها عن السيطرة على الأسلحة .

أثارت مثل هذه الشكوك حفيظه المشقة الكامنة في أي تحالف - امكانية المصالح المتشعبة . ويطالعنا التاريخ أن الأمم عامة وليس دائماً ، قد أذعنت الى الأحلاف لأن مغبات هجر الحليف لأخطر من تحقيق التزاماته . وفي العصر النووية ، ماعادت هذه القاعدة تنبض بالحياة ، على نحو مفيد ، فالتخلي عن حليف مجازفة بكارثة **ختامية** ، أما اللجوء الى حرب نووية بجانب حليف ليتأتى بفاجعة **آنية** .

وفي مبغى لشد أزر الردع النووي ، كان لأميركا وحلفاءها الحافز للتشديد على شراسة ردهم وحزمهم قبالة التحدي . وتمتعت أميركا أيضاً ، لتعظيم مصداقية التهديد وحفض مدى الكارثة عند فشل الردع ، بباعث أشد عظمة لاستغوار السبل التي تصير الحرب النووية أقل دماراً وأكثر حسباناً . وطفق مفكرو الدفاع الأميركي ، باطراد ، يواكبون ما يدعو الى تمييز التهديف ، والقيادة والسيطرة المركزيتين واستراتيجية الرد المرن . ومع ذلك عارض كل حلفاء أميركا هذه الاجراءات لخشيتهم أن الاعتداء قد يلوح مرجحاً ، مهما كانت مبلغة الحرب النووية من حسابات أفضل وتحمل أعباً . وربما أيضاً تتقهقر أميركا في اللحظة الأخيرة قبل اعطاء الضوء الأخضر لترسانتها النووية بالانطلاق ، مهما كان الخيار محدداً ، بحيث تفزع أوروبا بما هو أسوأ من العالميتين : ردع منخفض واستراتيجية مشوهة .

كانت هذه التوجسات أبعد من التفاهة تماماً كما كان قلق القادة الأميركان ، في الوقت عينه ، حول معضلة المطرق المزدوج الذي طرحته القوتان النوويتان المستقلتان لبريطانيا وفرنسا . فلو دأبت القوات الأوروبية على لطم الاتحاد السوفيتي ، ربما توقع أميركا في حرب نووية . لذلك كانت احتمالية قائمة تماماً بانتقام الاتحاد السوفيتي من أميركا لكي يحول دون اغتنامها للضرر التي تدركه في الاتحاد السوفيتي . وكان السيناريو الأرجح أن الاتحاد السوفيتي سيرد بصورة جد عنيفة على حلفاء أميركا بحيث تثير قضية موقف أميركا السلبي ولما يعث الدمار في أقرب حلفاءها - مهما كان المحفز .

وهكذا وطد قادة أميركا العزم الاّ يقسروا على حرب نووية رغماً عن مشيئتهم . وكان قرار المخاطرة بتدمير مجتمعهم مشؤوماً بما فيه الكفاية دون الخشية من املاء حلفاءها عليها ذلك . ومن جانب آخر لاقى " حل " أميركا للورطة - تجريد حلفاءها عن القدرة من توجيه فعل - كوابيس التاريخ الأوروبي . لقد ألف القادة الأوروبيون جداً الاجبار على التخلي ، من جانبهم أو من جانب الآخرين ، ولبواعث أوهن شدة من التدمير النووي . انهم يرون لبقاءهم توكأً على تعرية أميركا ، الى أقصى درجة ممكنة ، في خيار انفصالها عن أوروبا ولما توشك طبول الحرب النووية أن تقرع - واذا ما خاب ذلك ، عليهم أن يتمتعوا بقوات وطنية نووية كضرب من استتباب الطمأنينة .

لقد طرحت التباينات بين المفاهيم الأميركية والأوروبية للاستراتيجية النووية معضلة مستعصية ، وكانت رغبات بريطانيا العظمى وفرنسا على الابقاء ببعض الهيمنة على القرارات المؤثرة بمصائرهم عويصة وتناغماً مع مواضيهم .

وتمتع بالشرعية القلق الأميركي على عدم تأليف مهالك العصر النووي بالمبادرات المنفردة . ومن وجهة نظر الردع ، ثمة حسنة حقاً في توطيد بريطانيا العظمى وفرنسا العزم على صيرورة مراكز لصياغة القرارات : فحسابات المعتدي ستتعقد كثيراً عندما يضع نصب أعينه تنفس القوات النووية المستقلة . أما من وجهة نظر التمتع باستراتيجية مطاقة لتوجيه الحرب ، فان اصرار أميركا على هيمنة موحدة لذو معنى متناظر . لقد كانت الاهتمامات المتضاربة على غير رجعة ، ممثلة محاولة الأمم على تقرير مصائرها تحت طائل ظروف غير مسبوقة النظير وقبالة أخطار لا يمكن تخيلها . كان رد أميركا الى هذا المأزق بمحاولة " حلها " ، بينما سعى ديغول ، الذي يعدها مستعصية ، الى تعضيد استقلال فرنسا .

وعمت السياسة الأميركية في فترتين مميزتين ، عكستا شخصية الرئيس المتبوأ منصبه . وسعى ايزنهاور الى حمل ديغول القلق على الاقتناع بعدم ضرورة القوة النووية الفرنسية المستقلة واعتبار محاولات خلق هذا الأمر آية من اللائقة . لقد نقب ايزنهاور ، الخليط الأميركي المتميز من القانونية والمثالية ، عن حل في لكابوس أميركا في حرب نووية يشعل الحلفاء فتيلها . وعندما زار باريس عام ١٩٥٩ ، تقدم بالسؤال الى ديغول عن السبيل للحمة القوى النووية الوطنية المتعددة داخل الحلف لتكون خطة عسكرية منفردة . ووقتئذ ، أعلنت فرنسا برنامجاً نووياً دون أن تختبر فيه سلاحاً .

واستنبط ايزنهاور ، بطرح هذا السؤال ، اجابة ما كان عنها راضياً . كان دمج القوات النووية لديغول صعوبة سياسية ، لا فنية ، لكنها ، حقيقة ، امارة للصدع بين هذين المفهومين بحيث بدا ايزنهاور غافلاً عن اجابة ديغول لمساءلته

قبل عام باقتراحه لتشكيل ادارة . لقد جاهد ايزنهاور سعياً للخيارات الاستراتيجية وانصب جل اهتمامه بهيكلة قيادة وافية للحرب . أما ديغول ، فرام الخيارات السياسية وما كان مهتماً بخطط قيادة الحرب العامة ، لأنه آثر اكثار خياراته الدبلوماسية بالابقاء علي حرية العمل الفرنسي الذي يسبق الحرب .

وفي السابع عشر من أيلول عام ١٩٥٨ ، تقدم ديغول بمذكرة الى ايزنهاور وماكملان نقلت أفكاره حول تركيب سليم للناتو . لقد اقترح مجلس ادارة سياسي داخل الحلف الأطلسي يؤلف رؤساء حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا . وسيجتمع مجلس الادارة دورياً ، ويعين هيئة مشتركة ، ويصوغ استراتيجية موحدة ، خاصة لما يتعلق بأزمات مناطق خارج الناتو :

[..... ينبغي لمسائل الأهمية العالمية السياسية والاستراتيجية أن تعهد الى هيئة حديثة ، تؤلف الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا العظمى وفرنسا . وعلى هذه الهيئة أن تضطلع بمسؤولية اتخاذ القرارات المشتركة لكل الأمور السياسية المؤثرة ورسم الخطط الاستراتيجية ، ووضعها قيد العمل عند الضرورة ، خاصة تلك المتضمنة شهراً للأسلحة النووية . وينبغي لها أيضاً أن تأخذ على عاتقها تنظيم الدفاع ، حيثما كان مناسباً ، للمناطق العملية المنفردة كالقطب الشمالي والأطلسي والباسفيك والمحيط الهندي . وهذه المناطق يمكن تقسيمها طوراً آخراً ، لو اقتضت الضرورة] .

وأرفق ديغول هذه الاقتراحات كي يفصح عن مدى جديته ، بتهديد انسحاب فرنسا من الناتو ، فأشار :

[تنظر حكومة فرنسا بعين الاعتبار الى مثل هذا التنظيم الأمني كأمر لا يستغنى عنه . ومنذئذ سيكون التطور الكامل لمساهمتها الحالية في الناتو مبنياً على هذه الاقتراحات] .

كان ديغول ، على صعيد واحد ، يطالب لفرنسا بباءة تماثل علاقة أميركا الخاصة ببريطانيا العظمى . وفي الصعيد الأسحق ، كان يقترح تدبيراً أمنياً يناظر فكرة روزفلت عن الشرطة الأربعة ، تحل فرنسا محل الاتحاد السوفييتي ، كأحد المضطلعين بالأمر – المفهوم الشامل للأمن الجماعي العالمي المشيد على أساس أسلحة مبهمة من أن قدرة فرنسا النووية ما برحت جنباً ذلك الوقت .

لقد اخترق ديغول قلب المعضلة النووية : ففي العصر النووي ، ليس هنالك ذرائع فنية لضمان التنسيق . كان الخطر في استخدام أي سلاح نووي جد فادح بحيث جنح تفاديه الى جرجرة ممارسيه لتبني مواقف عالية الوطنية . وكان الرجاء اليتيم للعمل المشترك في معانقة العلاقات السياسية بشكل جد حميم بحيث يألف المساهمون المختلفون في الاجراء الاستشاري كأنهم كيان واحد . ومع ذلك مثل هذه العلاقة لأشق صعوبة بين أمم ذات سيادة . وفي كل حال ، صير ديغول هذا الأمر مستحيلاً تقريباً ، بأسلوبه الدبلوماسي .

ولكن أكان ديغول يأنس في مجلس الادارة سدادة غور ريثما تقوى القدرة النووية الفرنسية للتهديد بفعل منفرد ؟ أم كان يرمي لتعاون مستحدث ، لم يسبق

بنظير ، يشمر على فرنسا دوراً قيادياً خاصاً في القارة ؟ ان الاجابة لم تعرف قط لأن فكرة الادارة حظيت بترحيب جد بارد في ايزنهاور وماكملان ٠ لم تتأهب بريطانيا العظمى لتفتير " علاقتها الخاصة " مع الولايات المتحدة التي لم تعد الباعث لنشر الأسلحة النووية ولما تخلق بمجلس ادارة تناط به مهمة هذه الأسلحة ٠ وأبى أعضاء الناتو الآخرون أحداث شريحتين في عضوية الناتو – أولهما للقوى النووية والأخرى للبقية ٠ واستحب قادة أميركا ، التعامل مع الحلف الأطلسي كأنه كتلة واحدة ٠

كان ردا ايزنهاور وماكملان مراوغين ، فبعد أن الفا طبع رئيس وزراء الجمهورية الرابعة ، اللين المتنقل بتطرف ، قدما الى ديغول برامج بيروقراطية جوهراً لحدسهم بتبدد مقترحه مع مرور الزمن ٠ لقد وافقا على مبدأ المشاورات المنتظمة ، لكنهما سعيا الى تحديدها الى ما دون مستوى رؤوساء الحكومات ، وعبر أن تفضيلهما للجدول الزمني المتعلق بالشؤون السياسية ٠

ان أساليب ايزنهاور وماكملان – في السعي لطمر الجوهر في العمل – لن تكون مجدية الا افترض المرء أن ديغول دعاماً ، بنحو متفيهق ، وليس له مقصد ينشده ، وذا ادعاءان تجليا واهيين كلية ٠ وعندما كبحت مساعي ديغول ، لجأ الى أسلوبه في تذكير محاوريه أن له خيارات أخرى ٠ لقد أمر بتقهقر الأسلحة النووية الأميركية من ثرى فرنسا وسحب الأسطول الفرنسي من قيادة الناتو الموحدة وأقدم في عام ١٩٦٦ على فرنسا من قيادة الناتو برمتها ٠ ولكن قبيل أن يشرع ديغول بهذه الخطوة الأخيرة القدرية ، فقد اصطدم بالرئيس الأميركي الهمام اليافع ، جون ف ٠ كنيدي ٠

مثل كنيدي جيلاً محدثاً من قادة أميركا ٠ لقد حاربوا في الحرب العالمية الثانية دون أن يوجهوها ، وعاضدوا تركيب نظام ما بعد الحرب ، من دون أن يتوسطوا خالقيه ٠ شدد أسلاف كنيدي ، " حاضرو الخلق " ، على استتباب ماشيدوا صرحه ، بينما ناضلت ادارة كنيدي لاستحداث طراز معماري ٠ كان مبغى حلف الأطلسي ، كما آنسه ترومان وايزنهاور ، مقاومة للاعتداء السوفيتي ، في حين راق لكنيدي اقامة مجتمع أطلسي يقود زمام درب نظام عالمي جديد ، كما قيل له ٠

وتحقيقاً لهذه الغاية ، طورت ادارة كنيدي مدخلاً ذا حدين بقصد العثور على تطبيق رشيد للأسلحة النووية ولما تنمي تعريفاً سياسياً عما تفقهه عن المجتمع الأطلسي ٠ لقد ارتاح كنيدي للمآلات الجوّاحة المتعلقة بالانتقام الشامل ذي العقيدة العسكرية المحكمة ٠ وفي ظل قيادة روبرت ماك نمار ، وزير الدفاع الرائع ، جاهد كنيدي لأنماء استراتيجية تخلق بدائل عسكرية غير امارجدون أو الاستسلام ٠ وهكذا عظمت ادارة كنيدي من تشديدها على القوى التقليدية ونقبت للعثور على استخدام تمييزي للأسلحة النووية ٠ لقد أفضت عرضة أميركا المتزايدة ، للهجوم الاتحاد السوفيتي النووي ، الى ما يقال لها استراتيجية الرد المرن ، صيغت خياراتها المتعددة ونظامها القيادي لاقدار الولايات المتحدة كي ترتأي ، للحد الذي ينسق له العدو ، أنى وبأية أسلحة تدور رحى القتال ، وبأي صيغ سيضع أوزاره ٠

ولكن لتوظيب استراتيجية كهذه ، ينبغي ابقاء الأسلحة النووية تحت سيطرة مركزية – أميركية ٠ وأشار كنيدي الى البرنامج النووي الفرنسي ونعته

" بالمناويء " للناتو ، في حين انتقد وزير دفاعه فكرة القوى الأوروبية النووية ، بما فيها بريطانيا العظمى ، وخلع عليها القاب عديده مثل " الخطرة و " الباهظة " و " معدمة المصداقية " . وجادل جورج بل ، نائب وزير الدفاع ، أن " الطريق صوب الانتشار النووي على غير خاتمة " .

حثت ادارة كنيدي " ارتصاف " كل قوات الناتو النووية وخلصت الى مشروع يحقق هذه الغاية – قوة الناتو المتعددة . وستزود السفن ببضعة مئات من الصواريخ متوسطة المدى يبلغ بعدها من ١ر٥٠٠ – ٢ر٠٠٠ ميل ، ويخضع هذا الأمر لاشراف الناتو . ولرسم الطبيعة الخلفية لهذه القوة ، ستؤلف السفن من طواقم يمثلون جنسيات الأمم المساهمة . بيد أن المشروع لم يفض معضلة الناتو الأساس وأثبت أنه ضرب من العبث عديم الجدوى ، طالما أبقت الولايات المتحدة على حق النقض .

وفي الرابع من تموز عام ١٩٦٢ ، أفصح كنيدي عن **اعلان التكافل** بين الولايات المتحدة وأوروبا الموحدة . وهكذا ستغدو أوروبا الموحدة اقتصاديا وسياسياً شريكاً سيا للولايات المتحدة ، تشاطره أعباء والتزامات قيادة العالم . في خطاب آخر في بولسكرخ في فرانكفورت ، حيث كانت قد اجتمعت الجمعية الوطنية الألمانية التحريرية لعام ١٨٤٨ ، أوسع كنيدي مفهوم هذه الرمزية وزاوج أفاق الشراكة الأطلسية بوحدة أوروبا :

[ان أوروبا لن تمنحنا جميعاً درعاً قبالة تبعض الحلف الا اذا التحمت برمتها . ومثل أوروبا هذه ستأذن بتكافل المعاملة عبر المحيط ، اذا ما استقبلنا

جدول أعمال الأطلسي ، وستمتعنا بتسوية عادلة بين النظراء وتشاطر حق للمسؤوليات ، ومستوى متكافؤ من التضحية] .

لقد قضى تحدي كنيدي البليغ نحبه في سبخة التناقض الأوروبي ، المؤلف من القوة الاقتصادية المتنامية ونفح القصور العسكري ، وبنحو متميز في المضمار النووي . ونقلت هذه المزايا الرد المرن جد مستقطب وعلى جانب عظيم من الضرورة ، لا سيما أن الولايات المتحدة قد أثارت الشكوك بين حلفاءها في الناتو . وآلت استراتيجية الرد المرن ، عملياً ، بالاذن لواشنطن بتحقيق حرية أعظم في الخيار السياسي حول قرار ركوب الحرب – وهو المرمى الذي سعى ديغول لتقييده ، عندما تنفست القوة الفرنسية النووية بالظهور في الستينيات . وعضدت وصفة الحصر والمرونة ، التي استطابت لأميركا كثيراً ، مطالب فرنسا بالاستقلال النووي كوقاء قبالة تمتع أميركا بفكرة أخرى ساعة المحنة . وبالرغم من صوب أميركا لشد أزر الردع ، بتصيير التهديد النووي أعظم ثقة ، استحب معظم حلفاءها على تسيير الردع بالمنحى المقابل – بتعظيم قوة خطر الخصم ، ولما تلتصق لاستراتيجية الثأر الشامل ، مهما كانت العواقب الوخيمة . فما العمل اذا لم تعرض مسألة المخادعة للنقاش ، مع أن خيار الاستسلام لم يهجر ؟

يتوسم الجدال حول التكامل العسكري بمنقبة دينية . كانت قيادة الناتو ، عهد السلام ، كادر تخطيط أولي : وعملياً تمكث القوات العسكرية لكل حليف تحت قيادة وطنية ، حيث يتيسر كثيراً حق سحب القطعات ، بحيث لم تلق تحدياً قط . وصور هذا الأمر بانسحاب القوات الفرنسية العاملة في الجزائر والقطعات الأميركية أبان سلسلة أزمات الشرق الأوسط – في لبنان عام ١٩٥٨ ، وفي

الحرب بين العرب واسرائيل عام ١٩٧٣ ، وخلال حرب الخليج عام ١٩٩١ . وعندما نبرت الولايات المتحدة وفرنسا بالنقاش حول حسنات " وحدة الصفوف " ، لم يعرفا قط العمل المشترك المحتمل تحت علامة " الوحدة " الذي سيصده مفهوم فرنسا المتراخي عن التعاون . وليس ثمة تدبير قيادي لحل المعضلة السياسية جوهراً ، كما حللها ديغول :

[تملك الأميركان ، حلفاءنا وأصدقائنا عهداً عاهداً ، ترسانة نووية بأيديهم حسب . ولطالما أن لهم وحدهم مثل هذه الترسانة وأظهروا رغبة باستخدامها حالما تتعرض أوروبا لهجوم ...... فان الأميركان قد تصرفوا بمنحى ترى فيه فرنسا مسألة الغزو نادرة ، لأن الاعتداء استقصى عن كل الاحتمالات ....لقد تمتع السوفيت أيضاً بترسانة نووية شديدة بما فيه اللازم لأخطار حياة الأميركان بالذات . انني لا أضطلع بتقييم – وفي الحقيقة ثمة احتمال لايجاد رابطة بين درجة موت امرء وما لسواه – ولكن اجلاء حقيقة جديدة وعظيمة] .

أسمى جدال سكوبيولت كل هذه المناحرات الكامنة . وعارض ديغول ، أبان حياته السياسية " أية صلة خاصة " بين أميركا وبريطانيا العظمى لأنه ، بدقة ، يرى فيها تمثيلاً لبريطانيا العظمى كقوة عظمى تناظر ما للولايات المتحدة ، بينما تنقل فرنسا الى المصاف الثاني . ومن اليقين أن كنيدي قد عرض المساعدة لبرنامج الصواريخ الفرنسي ، بمثلى ما أقدم على فعله مع بريطانيا العظمى . وبالنسبة لديغول ، يشخص الفارق الدقيق بين الوحدة والتعاون جوهر سياسة مستقلة حقيقية . وعلى أية حال قدر لأتفاقية ناسا ، التي تفاوض عليها القادة

الأنغلو أميركان ونقلت الى ديغول علنا بوسائل الاعلام ، أن تحظى برفضه . وأبى أيضا معانقة قدرة بلده النووية بتقنية ، ربما تلغى في أية لحظة ، كسكايبولت . وهكذا دحض ديغول ، في المؤتمر الصحفي الذي عقد في الرابع عشر من كانون الثاني عام ١٩٦٣ ، عرض كنيدي علنا ، بمثلى ما استقبله ، وقال : " يقيناً أنني لا أتحدث الا عن اقتراحه واتفاقه لأنهما نشرا وطرحت مكنوناتهما " .

اغتنم ديغول فرصة رسم الخط لنقض دخول بريطانيا العظمى الى السوق المشترك ، ورفض رؤية كنيدي أن النهاية الأوروبية للأعمدة التوأم لتقتضي تنظيماً على امتداد الخطوط الفوقومية :

[أن أي نظام يبنى على تسليم سيادتها الى جمعيات دولية مهيبة لن يواكب حقوق الجمهورية الفرنسية وواجباتها . وسيجد مثل هذا النظام ، دون شك أيضاً ، أن لا حول له في السير قدماً وقيادة الشعوب الى ممالك تخص اواخنا وأجسادنا] .

وأثيرت أعظم مرحلة في تحدي ديغول للقيادة الأميركية بعد أيام قلائل . لقد وقع ديغول وأدينير معاهدة صداقة متبادلة تقدم استشارة دائمة لكل القضايا الرئيسة :

[ستتشاور الحكومتان ، قبل كل قرار ، في كافة القضايا المهمة للسياسة الخارجية . ويتبوأ المقام الأول ، أمور الاهتمام المشترك ، بهدف الانتهاء الى موضع متماثل قدر الامكان] .

ولا يتصف جوهر هذه الاتفاقية بالعظمة ، فهو ، حقيقة ، مركب أجوف سيملأ بما يحلو للقيادة الألمانية والفرنسية أن تمليا في السنوات الرادفة . ومع ذلك ، ثمة أهمية جليلة للاتفاقية ، رمزياً . فمنذ عهد رحيل بسمارك عام ١٨٩٠ ، وقفت بريطانيا العظمى وفرنسا بوجه المانيا في كل الأزمات العالمية . وحين عزل ديغول بريطانيا العظمى من السوق المشترك ، برغم الضغط الأميركي الشديد ، كان المستشار الألماني هو المعين من منع عزلة فرنسا . وربما تكون فرنسا على غير قوة لفرض حلولها الخاصة للقضايا البارزة ، ولكنها ستستطيع اغشاء شؤون الآخرين بفصل المؤازرة الألمانية .

وفي نهاية المطاف ، انطرحت قضية العلة في تعاون الأمم . فأميركا ترى انتهاء الشعوب العاقلة الى الخلاصات عينها ، وهكذا تؤمن الغايات تقريباً ، وينصب جل الاهتمام في المكننة التي توظب التواءم التحتي . وينطلق المفهوم الأوروبي من تاريخ طويل للمصالح الوطنية المتضاربة وتسويتها كانت جوهر الدبلوماسية الأوروبية . ويستشعر القادة الأوروبيون في التواءم كامر يقتضي اقتصاداً في المحيط من قضية لأخرى ، أبّان الأعمال المبيتة للسياسة . وكان هذا المعتقد ، بدقة ، القضية المتعلقة بالسيطرة النووية في عهد الستينيات . فهو جوهر رفض ديغول لأوروبا الفوقومية . وتكرر هذا الأمر في جدال معاهدة ماسترخت في التسعينيات . وليس ثمة أدنى شك من انجراف ديغول بحوافز فلسفية محدودة . لقد استشعر مروض الراشيلوية تهديداً لدور فرنسا المهيمن في المجتمع الأوروبي بفعل الدخول البريطاني ، لما مثلته بريطانيا العظمى من ثقل وتفان في علاقتها مع الولايات المتحدة .

ومهما كانت أجوبة ديغول أنانية ، فقد أصابت أسئلته فؤاد دور أميركا العالمي ، خاصة في ردح ما بعد الحرب الباردة . ومن بين أشق العبر التي ينبغي لأميركا تعلمها أن الأمم لن تتعاون عهود عاهدة الآ اذا تشاطرت الغايات السياسية الموحدة ، وان تبؤر أميركا سياستها في هذه الغايات وليس في المكننات الموظبة للانتهاء اليها . وعلى النظام العالمي العامل أن يخلف حيزاً وافياً لتباين المصالح الوطنية . وبالرغم من وجوب التوفيق بينها ، لا ينبغي عليها أن تنحيها جانبا ، بكل بساطة .

وكانت رؤية كنيدي الشامخة ، عن شراكة الأطلسي المتجذرة في العمودين التوأم لمعاضدة أوروبا وأميركا سطحاً مشتركاً ، قد قابلت رفضاً متعنتاً من ديغول الذي طرح فكرة كثيرة التعقيد في سلسلة العلاقات . وصور كلا ال . فهومين قيم بلديهما وتاريخهما . لقد استحدث كنيدي شرعيات ولسون وفرانكلين ديلانو روزفلت ، في حين كان ديغول صيغة معقدة لتوازن أوروبا التقليدي المستند على تبعيض المانيا ورجحان الاقتصاد الألماني الغربي وهيمنة فرنسا السياسية على مجتمع أوروبا والحماية النووية الأميركية كهيئة ضمان .

وبعد أن ذكرت الأقوال وفعلت كل الأفعال ، انحدر ديغول بفعل التأكيد عينه على المصالح الوطنية البالية التي حفز عليها بنحو جد فعّال . وأفسد تحليل ديغول البارع فشله في الوضع بالاعتبار تباين المصلحة الوطنية الفرنسية باختلافات عظيمة مع الولايات المتحدة الى الدرجة التي ربما تحمل أميركا على الانحلال من أوروبا – ولما يكون الاتحاد السوفيتي معافى . لقد كانت فرنسا

بقادرة على الاطاحة بنوايا أميركا هنا وهناك ، من دون أن تتمتع بالقوة على فرض ارادتها .

وحتى لو كان ديغول متجاهلاً لهذه الحقيقة أو مترفعاً بكبريائه عن الاطلاع عليها ، فقد غاير مراراً الاقتراحات الفلسفية ظاهراً الى هجوم على النوايا الأميركية ، لكأن جوهر السياسة الأميركية تأسيس جو منسق من اللائقة في صفوف الناتو . وفي هذا المنحى ، أحبط ديغول مرماه الخاص . وحصحص الحق كفاية في اقتراحه ان قرار الحرب والسلام سياسي ، في أعمق كنه . واستقطبت فكرة الادارة الانتباه الى أمر توحيد المرامي السياسية ، خاصة في المنطقة التي لا تستظل بخيمة حلف الأطلسي .

الاّ أن ديغول قد جنح الى نقل حجج شرعية للتطرفات المخذلة . وكان من أحد أموره أن يأبى الهيكل المبقي على الاتفاقية ملزمة وسعى للحيلولة دون فعل منفرد ولمّا يشير الى الوسائل الاجرائية . ونادى أيضاً لتوجيه علاقات أطلسية بصيغة المواجهة الدائمة بين أوروبا وأميركا . ودربت أساليبه المستبدة سبيلاً يناقض تماماً ما يفقهه الأميركان عن العلاقات الدولية ، خاصة ما يتعلق بالأحلاف ، ولم تتناغم مع آراء أعضاء الناتو الآخرين الذين يستحبون أميركا على فرنسا لو اذن لهم بالاختيار .

وصح هذا الأمر في ما يتعلق بعلاقة فرنسا مع المانيا . وصير ديغول التعاون بين فرنسا والمانيا عصام سياسته الخارجية . وبالرغم من خطوته على تأييد المانيا لسياسته في برلين وتعاطفها العظيم مع آرائه لما يتعلق بالسيطرة النووية ، كان ثمة

مدى لا يستطيع القادة الألمان الوثوب الى ما بعده في انسلاخهم عن الولايات المتحدة . ومهما كانت توجساتهم عن السياسات الأميركية المتفردة ، لم تحبذوا أن يتركوا قبالة الاتحاد السوفيتي بمساعدة يتيمة من لدن فرنسا . وبصرف النظر عن مدى تقييم القادة الألمان للمنافع النسبية للباءات البريطانية - الأميركية في قضايا السيطرة النووية ووحدة أوروبا ، لم يستحب أي منهم الارتكان للقوات الفرنسية الهزيلة على الترسانة النووية الأميركية الهائلة ، أو التأييد الفرنسي السياسي على الأميركي . لذلك كان ثمة مدى متأصل لما يقدر ديغول على تحقيقه بدربه منحى مناوىء لأميركا ، وأثارت جهوده المجهزة على شروق المانيا وطنية خطر افتنان الوطنية الألمانية على المناورة بين خياراتها المتعددة .

وتوسمت أزمات الستينيات انها قد مضت أدراج الرياح . فغداة أزمة برلين أعوام ١٩٥٨-١٩٦٣ ، ما عاد ثمة تحديات سوفيتية ميدانية للمصالح الأوروبية في أوروبا . وفي أعقاب أزمات الأطلسي في الأعوام ١٩٦٠-١٩٦٦ ، سكنت قضايا الناتو في تعايش سلمي بين المفاهيم الأميركية والفرنسية . وآبان السبعينيات ، سعت ادارة نيكسون ، في " سنتها الأوروبية " ، الى احياء نفح من روح مفهوم كنيدي على أساس اقتراحات أكثر تعديلية . وانهارت على الصخرة العتيقة لمعارضة ديغول ، وللبواعث عينها . لقد سعت فرنسا ، بين أوان وآخر ، لخلق قدرة أوروبية عسكرية مستقلة حقيقية ، بيد أن هذا الأمر لم يتمتع بدرجة من الأهمية بفعل تحفظ أميركا وازدواجية المانيا . وعندما انقضت العقود ، اتت الأحداث على المفاهيم الأميركية والفرنسية .

وما يثير السخرية أن يألف الخصمان نفسيهما ، في فترة ما بعد الحرب الباردة ، في خضم محيط غدا تعاونهما المطلق فيه أساساً لعلاقة أطلسية وأوروبية خلاقة . وكانت رؤية ولسون عن مجتمع دول ديمقراطية بأساس الفعل المشترك وتقسيم العمل مواكبة للنظام العالمي في الخمسينيات والستينيات ، المتمثلة بالتهديد الخارجي الجامح للفكرة الدكتاتورية وشبه الاحتكار النووي الأميركي والتفوق الاقتصادي . ولكن ما يفرض النظام الدولي حاجة الى توازن أدق للمصالح الوطنية والاقليمية هو غروب التهديد الواحد المتوحد والانهيار الفكري للشيوعية وحتى توزيع القوة الاقتصادية . لقد انهارت الشيوعية ، كما تنبأ لها كينان وأشسون ودالس . ومع ذلك ما كان انتظار نهاية الدرب هذه بعالم المثالية الولسونية ، فهي صيغة جد حقود للوطنية عينها التي خلع عليها ولسون واتباعه لقب " العتيقة " . ولم يدهش ديغول بالعالم الجديد هذا . وليس ثمة شك انه بالكاد سيعده " حديثا " وسيحاول ان الأمر كامن وقد أغشته الظاهرة الزائلة للقوتين العظميين .

وفي الوقت عينه ، أجهز انهيار الشيوعية وتوحد المانيا على اغلب فرضيات ديغول . وانبرى ديغول ، المرتاب من كل الأمور ما خلا دور بلده العالمي ، مفرطاً في تقديره لقدرة فرنسا على تدبير الاجراءات التاريخية كلية على عاتقها . ولم يستطب " النظام العالمي الجديد " كثيراً لحلم ديغول في تسيد فرنسا السياسي على أوروبا . وما عادت المانيا الموحدة في فاقة الى تصديق حلفاءها للشرعية المتفوقة عبر ندها ، المانيا الشرقية . ان فرنسا لتألف نفسها معدمة من القوة لتنظيم توازن أوروبي جديد على عاتقها وحدها وبازاء توابع الاتحاد السوفيتي الأوروبيين الشرقيين سابقاً والممارسين دوراً الان في اللعبة . وما أحجب الخيار الفرنسي

التقليدي في احتواء المانيا بالتواءم مع روسيا هي النتائج المدروكة لاحياء الاتحاد السوفيتي السابق : اذا انتهى الأمر الى فوضى واضطراب ، ستكون روسيا جد هزيلة لا تقوى على موازنة المانيا ، واذا ما خيمت الوطنية الروسية وعاود التمركز ستغدو الدولة الجديدة ، المالكة لالاف الأسلحة النووية ، قوية لا تخدم شراكة مع فرنسا . ما هذا بنتيجة محتومة لاصطفاء مثل هذه الدولة لفرنسا ، لأنها يقيناً ستفتن بالخيار الأميركي أو الألماني . والأسمى من ذلك كله ، ستضعف أية محاولة لتحويط المانيا الوطنية عينها التي ما زال قادتها يحاولون القاءها الى البقية ، والتي هي كابوس فرنسا الدؤوب . وهكذا تظل أميركا شريك فرنسا الائق والتوكيد الوحيد المتيسر لسياستها الصديقة الضرورية مع المانيا . وعليه وفي نهاية الدرب الذي ابتغى منه ديغول صيرورة الولايات المتحدة قوة لا يستغنى عنها والذي منه أملت أميركا جر فرنسا الى الناتو قلباً وقالباً ، طفق التعاون بين هذين الخصمين القديمين في صداقتهما مفتاح للتوازن تماماً كما كان لزاماً عليه أن يكون قبل جيلين يوم ظهر ولسون في فرنسا محرراً للعالم القديم من جهالته وليرفع أنظاره الى ما وراء دولة الأمة .

الفصل الثامن

فيتنام : الانسباخ في المستنقع

ترومان وايزنهاور

استهلت الأحداث كلها بنوايا أصدق . فبعد عقدين من وضع الحرب العالمية أوزارها ، استبقت الولايات المتحدة الدول جمعاء في تشييد صرح نظام عالمي جديد من رحم أشطار كون متبعض . وردت أميركا اعتبار أوروبا وأحيت اليابان ، في حين قابلت برباطة جأش التوسع الشيوعي في اليونان وتركيا وبرلين وكوريا وولجت تحالفات السلام الأولى وشرعت ببرنامج المساعدة التقنية الى العالم المتطور . لقد كانت الدول المتفيئة بالمظلة الأميركية تمتع بالسلام والرفاهية والاستقرار .

ومع ذلك تبددت كل هذه الخطط الأميركية في الفعل الخارجي على ثرى الهند الصينية . كانت هذه الوهلة الأولى لتجربة أميركا الدولية في القرن العشرين حيث تجردت الصلة المباشرة ، والعرضية أغلبها ، التي تمتعت بها هذه الأمة من قيم ومنجزات . وانبرى الأميركان ، بباعث من التطبيق الشامل لمبادئهم ، في التساؤل عن كنهها والعلة في نقلها الى فيتنام في المقام الأول . فغرت هوة وسط معتقدات الأميركان بالطبيعة الاستثنائية لتجربتهم الوطنية والفرضيات والمبهمات المتجذرة في جيوسياسية احتواء الشيوعية لقد انقلبت استثنائية أميركا على نفسها في بوتقة فيتنام . ولم يجادل المجتمع الأميركي بخلاف ما سواه ، عن العيوب العملية لسياساتها ، ما خلا في جدارة أميركا لاحتذاء أي دور عالمي . كان هذا أفق الجدل الفيتنامي الذي شق جروحاً موجعة كثيراً يتعذر وقفها .

ونادراً ما تنقلب مآلات أفعال الأمة على تباين عظيم مع منشدها الأول .
وفي فيتنام فوّت الأميركان مطرق المبدأ الأساس للسياسة الخارجية الذي طرحه راشليو قبل ثلاثة قرون : " على الأمر المساند والقوة المساندة أن يتناسبا هندسياً "(راجع فصل ٣ ج (١)) . وسيميز المفهوم الجيوسياسي المواكب لتحليل المنفعة الوطنية بين ما كان مهماً استراتيجياً وما كان هامشياً . وسيساءل هذا الأمر أميركا عن الباعث الذي نقلها في بر أمانه لتجثو في عام ١٩٤٨ ، ولما فتح الشيوعيون مغنماً كبيراً في الصين ، مشخصة أمانها الوطني ببلد جد حقير في آسيا لم يتمتع باستقلاله نحواً من مائة وخمسين عاماً وما كان متحرراً بحدوده الحالية .

وفي دائرة القرن العشرين ادعى رؤساء أميركا أجمعهم ان دولتهم لا تسعى لمصالح أنانية وأن مصباها الدولي الأول ، ان لم يكن فريداً ، في ادراك السلام العالمي والتقدم .

وفي هذا المضمار الزم ترومان شعبه ، في خطابه الافتتاحي الذي أدلاه في العشرين من كانون الثاني عام ١٩٤٠ ، على تحقيق عالم " تنعم كل أممه وشعوبه بالحرية على حكم أنفسهم أنى يرونه مناسباً . وليس ثمة مصلحة وطنية مخصصة ينبغي طرق سبيلها :

[لم نسع الى اصابة اقليم لنا ، أو فرض ارادتنا على سائرنا ، ولم نسائل عن امتيازات لا توسعها للآخرين . ان الولايات المتحدة لتشدد من أزر الأمم

المحبة للسلام في مواجهة الاعتـداء بتقديم المشـورة العسكرية والمعدات للأمم الحرة التي تتعاون معنا لاستتباب السلام والأمن] ٠

وهكذا غدت حرية كل أمة مستقلة وحيدة غاية وطنية ، بصرف النظر عن أهمية هذه الأمم الاستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة ٠

وتناول ايزنهاور الموضوع عينه ، بلغة رفيعه ، في خطابيه الافتتاحيين ٠ ووصف عالماً مشـطت فيه أشواكه ونحيت امبراطوريته العظمى وأشرقت أمم جديدة ٠ وفي أوج هذا الأوار ، حمل القدر على أكتاف أميركا مهمة الذود عن الحرية من دون رادع لاعتبارات جغرافية أو حسابات المصلحة الوطنية ٠ وفي الحقيقة عنا ايزنهاور ان مثل هذه الحسابات لتسير في الشفا المناقضة الأخرى لنظام المبدأ الأميركي ، حيث تعامل كل الأمم والشعوب سواسية ٠ وقال :

[ان ادراك الذود عن الحرية ، كالحرية عينها ، جزء لا يتجزأ فنحن نزن كل القارات والشعوب بمعيار وشرف سويين] ٠

لم يصف ايزنهاور سياسة أميركا الخارجية بهذا المنحى ، فهي اتساع لمسؤوليات أميركا الأخلاقية وليست مخاضاً لتوازن الأخطار والمكاسب ٠ وما كان اختبار سياسات أميركا على جانب عظيم من السهولة ، كجدارتها : " لا يخول التأريخ كثيراً ثقته أمر الحرية بالضعفاء والرعاديد " ٠ كانت القيادة مكافئتها ، وشخصت أميركا منفعتها في امتياز مساعدة الآخرين للوقوف بأنفسهم ٠ ان الايثار المدروك عظيماً ليصوم عن المقاصد السياسية أو الجغرافية ٠

وعبر كنيدي ، في خطابه الافتتاحي حصراً عن ايثار أميركا وواجبها تجاه العالم بشكل أوسع ٠ وحين جهر الى جيله ليغدو سليل الثورة العالمية الديمقراطية البكر ، فقد الزم ادارته ، بلغة طنانة " الاّ تأذن لأدنى انحلال في الحقوق الانسانية التي التزمت بها الأمة وأخذناها على عاتقنا اليوم في الداخل وفي سائر أنحاء العالم ٠ ولتعلم الأمم جميعها ، أكانت راغبة بنا أم عنا ، أننا سننقد الأثمان كلها ونتحمل العبأ ونلبي المشقات ونعين الصديق ونجابه العدو ليضمن بقاء الحرية ونجاحها " ٠

ان التزام أميركا العالمي الساحق ليس بذي صلة مع مصلحة أمنية وطنية معنية تستثني أيما بلد أو منطقة ٠ كانت فذلكة كنيدي البليغة صورة مقلوبة لرأي بالمرستون ، ان بريطانيا العظمى لا أصدقاء لها خلا المصالح ، أما أميركا في مسعى التحرر فلا مصالح لها عدا الأصدقاء ٠

وفي الوقت الذي أدلى فيه لندون ب ٠ جونسون خطابه الافتتاحي في العشرين من كانون الثاني عام ١٩٦٥ ، سمت الحكمة التقليدية بدعوى أن التزامات أميركا الخارجية ، المنطلقة في هيكلها من النظام الداخلي للحكومة ، قد محت تماماً الفارق بين المسؤوليات الداخلية والدولية ٠ وأكد جونسون أن أميركا لا ترى أمراً غريباً عن رجاءها : " ان المتاعب والأخطار المروعة التي خلعنا عليها لقب " الخارجية " ذات مرة ، لتحيا بين صفوفنا ٠ واذا ما قدر لحياة الأميركيين أن تنضب وتنفذ الخزانة الأميركية مما في جعبتها في أمم بالكاد نعرفها ، سيكون ذلك ثمنا يطلبه تغيير المبدأ والالتزام الشاق ٠

وغداة ذلك ، امست اثارة مثل هذه البيانات أمثلة لتعنت القوة أو حججاً افتراضية لمطالبة أميركا بالتسيد . ومثل هذا الاستهكام الطري ليسيء الى جوهر اخلاص أميركا السياسي ، " الساذج " ذلك الوقت ، وينتهل من تلك السذاجة الباعث لاعباء شاذة . وتركب أكثر الدول دابة الحرب لتواجه تهديدات ملموسة ومنظورة لخاصة أمنها . وفي هذا القرن مضت أميركا الى الحرب – بدءاً بالحرب العالمية الأولى حتى حرب الخليج عام ١٩٩١ – بشطر أعظم لتحقيق ما استشعرته التزامات أخلاقية لمجابهة العدوان والظلم .

ونطق بهذا الالتزام ، على نحو متميز ، قادة أميركا الذين أنسوا في شبابهم مأساة ميونيخ . وكانت عبرتهم منها ان الاخفاق في مقاومة الاعتداء – اين وأنى طرأ – ليوكد مقاومته بعدئذ تحت طائلة ظروف جد أسوأ . في عهد كوردل هول وما تلاه ، ردد كل وزراء خارجية أميركا هذا المبدأ ، وكانت بعينها المسألة التي أجمع عليها دين أشسون وجون فوستر دالس . وقضي على التحليل الجيوسياسي لأخطار معينة الذي طرحه الغزو السوفيتي لبلد ناء ، أن يخضع للشعارات المزدوجة لمقاومة العدوان ، مطلقاً ، وان يحول دون بث عظيم للشيوعية . لقد عزز النصر الشيوعي في الصين تفهم صناع السياسة الأميركية بان التوسع الشيوعي القادم لن يستطيعوا له اجهاضاً .

وتظهر الوثائق السياسية والبيانات الرسمية لتلك الفترة بأن هذا اليقين قد حرق أعظمه دون أن يلقى تحدياً . وخلصت الوثيقة الرسمية المرقمة ٦٤ ، في شباط عام ١٩٥٠ وقبيل الحرب الكورية بأربعة أشهر ، أن الهند الصينية " منطقة رئيسة لجنوبي شرق آسيا وتقبع تحت التهديد المباشر " . وأظهرت

المذكرة اشراقة ما يقال لها **نظرية الدومينو** التي تتكهن أن الهند الصينية اذا ما هوت ، ستسير بورما وتايلاند على خطاها عاجلاً وسيمسي " توازن جنوب شرق آسيا تحت رحمة خطر جسيم " .

وأعلن دين روسك ، في كانون الثاني عام ١٩٥١ أن " التخلي عن احتذاء مرمانا الحالي ، بأقصى ما أوتينا من قدرة ، ليأتي بكارثة لمصالحنا في الهند الصينية ، وفي سائر الجنوب الشرقي لآسيا بالنتيجة " . وفي نيسان من العام السابق (١٩٥٠) ، خلصت وثيقة الأمن القومي رقم ٦٨ أن التوازن العالمي لمخطور في الهند الصينية :

[ان أي توسع آخر جوهري للمناطق التي يهيمن الكرملن عليها سيثير امكانية استبعاد مقاومة أي ائتلاف ذي قوة عظمى للكرملن] .

ولكن أكان حقاً ، كما تضمنت الوثيقة ، بأن أي مغنم شيوعي ليوسع الرقعة التي يهيمن الكرملن عليها – خاصة اذا استحضرنا التجربة التيتوية ؟ أم كانوا يبصرون في انخراط الهند الصينية بالمعسكر الشيوعي ليطيح ، وحده ، بتوازن القوى العالمي ؟ وطالما مكث هذان السؤالان من دون اثارة ، لم تنته الولايات المتحدة الى معرفة الواقع الجيوسياسي بأنها كانت تدنو في جنوبي شرق آسيا الى الحد الذي ينقلب فيه الالتزام العالمي افراطاً ، بوجه من الدقة كما نبه اليه محذراً والترلبمان .

وكان في الحقيقة تباينات جلية في طبيعة التهديد . ففي أوروبا انبثق الخطر الأول من القوة العظمى السوفيتية . أما في آسيا فقد عصف تهديد المصالح

الأميركية من قوى ثانوية كانت ، في أحسن أحوالها ، بدائل للاتحاد السوفيتي وكانت هيمنة الاتحاد السوفيتي عليها موضع ريبة – أو فهمت بهذا المنحى . وفي الواقع مضت أميركا الى الحرب الفيتنامية لتجابه بديل البديل وكلاهما لا يأتمن الشريك الأكبر المبجل . ويضع الأميركان في تحليلهم أن التوازن العالمي قد تعرض لاعتداء فيتنام الشمالية ، الخاضعة فرضاً الى هيمنة بكين ، الواقعة بدورها تحت قبضة موسكو . كانت أميركا تذود في أوروبا عن دول ذات أسفار ، وفي الهند الصينية ، عالجت مجتمعات كانت تتبنى صروح دول ، في ابعادها الحالية . لقد دأبت أمم أوروبا منذ عهد طويل على كيفية التعاون للدفاع عن توازن القوى ، بينما كانت الدولة في جنوبي شرق آسيا في حالة ولادة ومفهوم توازن القوى لغريب عليها ، ولم يخبروا سابقة للتعاون بين الأمم النابضة بالحياة .

لقد قبرت كل الاختلافات بين جيوسياسية أوروبا وآسيا ، ومصالح أميركا في كليهما ، في مفهوم أميركا العالمي والفكري للسياسة الخارجية . وكان انقلاب التشيك وحصار برلين واختبار السوفيت للقنبلة الذرية والنصر الشيوعي في الصين والهجوم الشيوعي في جنوب كوريا قد استجمعها القادة الأميركان بتهديد عالمي واحد – وفي الحقيقة مؤامرة عالمية مسيطرة مركزياً . كان بمقدور السياسة الواقعية أن تقصر الحرب الكورية الى أضيق بعد ممكن ، فيما عملت رؤية أميركا المانوية للصراع بالمنحى المناقض . وعانق ترومان ، الواهب كوريا أهمية عالمية ، بين ارساله للقطعات الأميركية وبين اعلانه عن زيادة كبيرة في المعونة العسكرية لفرنسا في حربها بوجه العصابات الشيوعية في الهند الصينية (التي قيل لها فيتمين بعدئذ) ، وحرك الأسطول السابع لحماية تايوان . لقد رسم صاغة السياسة الأميركيون

تماثلاً بين الهجومين الألماني والياباني المتزامنين في أوروبا وآسيا أبان الحرب العالمية الثانية ، ومناورات موسكو وبكين في الخمسينيات ، حيث تبوأ الاتحاد السوفيتي محل المانيا ، والصين في محل اليابان . وفي عام ١٩٥٢ حلت الولايات المتحدة محل القطعات الفرنسية التي كانت قد أرسلت الى الهند الصينية .

وأنجب دخول أميركا الحرب في الهند الصينية قضية معنوية مستحدثة بالكامل . لقد دافع الناتو دون الديمقراطيات ، بينما جلب الغزو الأميركي لليابان المؤسسات الديمقراطية صوب هذه الأمة ، ودارت رحى حرب كوريا لترد أعقاب هجوم على استقلال أمم صغيرة . ومع ذلك أفرغت قضية الاحتواء في الهند الصينية مبدئياً بالمصطلحات الجيوسياسية المستثنية ، معسرة جداً دمج هذا الأمر بالعقيدة الأميركية السائدة لأن الدفاع عن الهند الصينية قد سار ضد دأب أميركا في مجابهة الاستعمار ومكنت دول الهند الصينية ، الخاضعة فنياً لاحتلال فرنسا ، لا تنعم بالديمقراطية أو الاستقلال . وبالرغم من أن فرنسا قد أقدمت في عام ١٩٥٠ على نقل مستعمراتها الثلاث في فيتنام ولاوس وكمبوديا الى " رابطة دول الاتحاد الفرنسي " ، توقف هذا المقصد دون تحقيق الاستقلال ، للخشية ان فرنسا اذا وهبت السيادة الكاملة هنا ، ستمنح الأمر مثيله الى ممتلكاتها الثلاث في شمالي أفريقيا – تونس والجزائر والمغرب .

وأنصب جل اهتمام العاطفة الأميركية المناوئة للاستعمار على الهند الصينية باضطرام خاص أبان الحرب العالمية الثانية . لقد مقت روزفلت ديغول وما كان معجباً عظيماً بفرنسا ، خاصة غداة انهيارها في عام ١٩٤٠ . وعلى مدى الحرب استهزأ ايزنهاور بفكرة تصيير الهند الصينية وصاية للأمم المتحدة ، بالرغم من أنه

أمسك عن ذكر الخطة في يالطا . وتخلت ادارته عن الأمر أيضاً ، لأنها متلهفة للمعونة الفرنسية في تشكيل حلف الأطلسي .

قررت ادارة ترومان في عام ١٩٥٠ أن تحفظ الهند الصينية عن مقابض الشيوعية ، بمقتضى أمن العالم المتحرر - الأمر الذي يعني عملياً جنوح المباديء الأميركية المناوئة للاستعمار صوب مؤازرة فرنسا في صراعها في الهند الصينية . لم يأنس ترومان وأشسون خياراً آخراً لا سيما أن هيئة الأركان المشتركة قد خلصت الى بلوغ رقعة القوات الأميركية الحد النهائي ، نظراً لالتزاماتها المتزامنة بالناتو وكوريا ولا يمكن التضحية بأحدهما لقاء الدفاع عن الهند الصينية - حتى لو احتلتها الصين . وهكذا لم يروا خياراً ما خلا الارتكان الى الجيش الفرنسي ، الذي ينبغي له مقاومة شيوعيي الهند الصينية بالمعونة الأميركية المالية والسوقية* - وفي أعقاب هذا الظفر بالصراع ، صبت أميركا المواءمة بين أفكارها الاستراتيجية والمناوئة للاستعمار بالضغط على تحقيق الاستقلال .

واتضح ان التزام أميركا الأولي للهند الصينية عام ١٩٥٠ قد أرسى مخططاً لاضطلاعها المستقبلي : كبيرة بما يكفي لدخول أميركا ، وليست على جانب من الكفاية لتغدو حاسمة . وكان سبب هذه الورطة في مراحلها الأولى هو الجهل في الظروف الحقيقية والتعذر الوشيك على قيادة العمليات من خلال شريحتين لسلطات فرنسا الاستعمارية ، والسلطات المحلي أيا كانت والمسماة برابطة دول فيتنام ولاوس وكمبوديا .

* السوقية (Logistical) : معناها السياقي هنا يتعلق بنقل الجنود وايواءهم وتموينهم .

سعت هيئة الأركان المشتركة ووزارة الخارجية ، ولكي لا يتلوثان بالاستعمار ، الى حماية جانب بلدهم المعنوي بالضغط على فرنسا لتحقق الاستقلال في نهاية المطاف . لقد هبط هذا العمل التوازني الدقيق في حضن وزارة الخارجية التي عبرت عن معرفتها بالملابسات عندما خلعت على برنامج الهند الصينية اسم " عملية قشر البيضة ". وما يؤسف له أن تقدم التسمية فهماً للمأزق أعظم بكثير مما يدلي فحوى برنامجها بالحل . كانت الفكرة تستنهض فرنسا لتمنح الاستقلال الهند الصينية ولما تحثها على مواصلة شن الحرب ضد الشيوعية . ولم يفسر أحد العلة التي ترغم فرنسا بمخاطرة أرواحها في حرب تصير وجودها في المنطقة أمراً غير ضروري .

وصف دين أشسون المأزق بحدة متميزة . فذكر من جانب أن الولايات المتحدة " ستهزم " لو دأبت على معونة " أفكار فرنسا الاستعمارية العتيقة " . ومن جانب آخر لو أفرطت أميركا بالضغط على فرنسا ، ربما تتنازل الأخيرة كلية عندما تحاجج : " حسناً ، تولوا أمر هذا البلد كامله لأننا في غنى عنه " . وأفصح " حل " أشسون أنه بيان آخر لتناقضات السياسة الأميركية : " تعظيم المساعدة الأميركية للهند الصينية وحث فرنسا باو داي ، والقائد المحلي الذي اختارته ، لنقل الوطنيين الى جانبه " . ولم يعرض حلاً لهذه المعضلة .

وعندما تأهبت ادارة ترومان للرحيل ، بلغت المراوغة أشدها في السياسة الخارجية . ففي عام ١٩٥٢ صاغت وثيقة لمجلس الأمن القومي **نظرية الدمينو** ووهبتها سمة ساحقة . وهكذا وصفت الاعتداء العسكري على الهند الصينية بخطر " متأصل بكينونة الصين الشيوعية العدائية الغاشمة " . وادعت أن ضياع

حتى بلد صغير في جنوبي شرق آسيا ليفضي الى خضوع حثيث نسبياً أو انحياز البقية الباقية الى الشيوعية . وعلاوة لذلك ، سيحتذي خطى الانحياز الى الشيوعية بقية دول آسيا الجنوبية الشرقية ودول الشرق الأقصى في نهاية المطاف (مع امكانية استثناء الباكستان وتركيا) .

ويقينا أن هذا التقدير لو أثبت صحة ، فان هذا الانهيار الواسع سيهدد أمن أوروبا واستقرارها أيضاً " ويعسر ، أشد العسر ، من الحيلولة دون تناغم اليابان مع الشيوعية " . ولم تقدم مذكرة مجلس الأمن القومي تحليلاً لعلة . تلقائية الانهيار وعالمتيه . والأسمى من ذلك كله ، أنها أخفقت في استغوار احتمالية اقامة قاطع ناري على حدود مالايا وتايلاند ، المتمتعتين باستقرار أعظم جداً من الهند الصينية – مثلما اراد قادة بريطانيا العظمى . ولم تشاطر أمم أوروبا الحليفة لأميركا مفهوم الخطر الآمد لأوروبا ، فأبت هذه الدول ، باصرار ، المساهمة في الدفاع عن الهند الصينية ، لما تلى من سنين .

وتبع تحليل اضطرام الكارثة في الهند الصينية علاج لا يتماشى كثيراً والمعضلة – وفي الحقيقة لم يكن هذا الأمر بايما علاج هذه القضية . لقد أجهض مأزق أميركا في كوريا – في الأقل لوهلة واحدة – الرغبة في خوض حرب برية أخرى في آسيا . وقال آشسون :

" ليس بميسورنا أن نشهد كوريا ثانية ، ولا نبعث بقطعاتنا المسلحة الى الهند الصينية ، فمن العبث والخطأ مجابهة الهند الصينية في عقر دارها " . وعنت هذه الاشارة الخفية أن الهند الصينية لو غدت مفصلا للتوازن العالمي ، وكانت

الصين مصدر المتاعب ، **ستترغم أميركا لمهاجمة الصين نفسها** ، بالقوة الجوية والبحرية في الأقل – الأمر الذي وقف قبالته أشسون بكل قوة فيما يتعلق بقضية كوريا . وفتحت أيضاً مصراعي السؤال عن كيفية استجابة أميركا لو دحرت فرنسا وحلفاءها الهند الصينيون على يد القوات الشيوعية المحلية وليس بانخراط الصين الى الحرب . فلو كانت هانوي وكيلة لبكين ، وبكين نائبة لموسكو ، كما آمن القسم التنفيذي والكونغرس ، ستضطر الولايات المتحدة للانتقاء بنية صادقة بين يقينياتها الجيوسياسية والمناوئة للاستعمار .

ونعرف اليوم أن الصين الشيوعية قد أنبرت ، غداة الظفر بالحرب الأهلية ، تبصر في الاتحاد السوفيتي أعظم خطراً لاستقلالها ، في حين تملك فيتنام الخوف عينه من الصين . لذلك كان الظفر الشيوعي في الهند الصينية أبان الخمسينيات سيعجل في كل الاحتمالات من هذه المناحرات أجمعها . وهذا الأمر سيصوب تهديداً للغرب ، من دون أن يعني مؤامرة عالمية منظمة مركزياً .

ومن ناحية أخرى ، لم تكن دلائل مذكرة مجلس الأمن القومي على جانب من الضحالة كما بانت بعدها . فحتى في غياب المؤامرة المركزية وما خبره الغرب ذلك الوقت ثمة احتمال ، **برغم ذلك** ، لشرعية نظرية الدومينو . لقد تأمل هذا الأمر (لي كوان يا) ، رئيس وزراء سنغافورة المتبصر والفقيه ، وأثبت صحة رؤيته . وفي الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة ، تملكت الشيوعية دينامية فكرية جوهرية ، في حين قدر لأفلاس النظام الاقتصادي أن يتجلى بعد حين . وخال كثير من الديمقراطيين ، خاصة الدول المستقلة حديثاً ، ان العالم الشيوعي قد بزّ الرأسمالي في القدرة الانتاجية . لقد كانت حكومات هذه الدول المستقلة حديثاً

هشة تهددها الفتنة الداخلية • وفي اللحظة عينها لاعداد مذكرة الأمن القومي ، أضرمت حرب عصابات شيوعية في مالايا •

ولصاغة سياسة واشنطن الصواب الصائب في الخشية من غزو الهند الصينية على يد حركة طوقت شرقي أوروبا وأستولت على الصين • واذا ما صرفنا النظر عن تنظيم التوسع الشيوعي مركزياً ، سيلوح أنه يمتلك دافعاً كافياً لجرجرة أمم جنوبي شرق آسيا الحديثة والهشة الى المعسكر المناوىء للغرب • وكانت القضية الحقيقية لا تتعلق ببعض قطع الدومينو التي ربما تهوي في جنوبي شرق آسيا ، ولكن احتمالية عدم وجود مواطن أخرى في هذه الرقعة لرسم الخط – حول الأقطار المتولية أعمالها السياسية والأمنية ، كملايا وتايلاند ، على سبيل المثال • ويقينا أن البيان السياسي لمجلس الأمن القومي قد خلص الى أن الهند الصينية اذا ما خرت صريعة ، لسوف تؤمن أوروبا واليابان بصمود التيار الشيوعي •

أرث ، دوايت د• ايزنهاور من سلفه ترومان برنامج مساعدة عسكرية سنوي الى الهند الصينية بنحو مائتي مليون دولار أميركي (ما يعدل أكثر من مليار دولار في عام ١٩٩٣) ، ونظرية استراتيجية تبحث عن سياسة ما • وما كانت ادارة ترومان بالملزمة على مواجهة الهوة الكامنة بين مبدأها الاستراتيجي ويقينياتها الأخلاقية ، أو بضرورة الانتقاء بين رشادها الجيوسياسي وقدرات أميركا : اضطلع ايزنهاور بمسؤولية استطباب التحدي الأول ، بينما قابل كنيدي وجونسون ونيكسون التحدي الثاني •

لم تستفهم ادارة ايزنهاور عن تعهد أميركا بأمن الهند الصينية ، التي أرثتها وسعت لتوافق مبدأها الاستراتيجي ويقينياتها الأخلاقية بالتعجيل من ضغوط الاصلاح في الهند الصينية • وفي آيار عام ١٩٥٣ ، وبعد أربعة أشهر من ادلاء ايزنهاور بقسم اليمين ، طلب من السفير الأميركي في فرنسا ، دوغلاس ديلون ، على حث فرنسا لتعيين قواد جدد قادرين على " الظفر بنصر " في الهند الصينية ويقومون ، في الوقت عينه ، بتوجيه " بيانات عامة صريحة وواضحة تكرر بقدر ما تقتضي الرغبة " لتفصح أن الاستقلال سيمنح " حالما يتحقق النصر ضد الشيوعية " • وفي تموز تذمر ايزنهاور الى السناتور رالف فلاندرز بان التزام الحكومة الفرنسية على ادراك الاستقلال قد طرق سبيلاً " مبهماً وملتوياً ، بدل أن يكون جسوراً ومباشراً ومتكرراً " •

لقد تخطت القضية بالنسبة لفرنسا مسألة الاصلاح السياسي حيث علقت قواتها في الهند الصينية بحرب عصابات مخيبة ، لا يتمتعون بأدنى تجربة فيها • وفي الحرب التقليدية ذات الخطوط الجبهورية المقامة ، ينسلخ اليوم باطلاق ناري كثيف وعلى النقيض من ذلك ، لا تخاض حرب العصابات من مواضع ثابتة ويختبأ جيش العصابات بين السكان • وتتعلق الحرب التقليدية بالسيطرة على منطقة ما ، أما حرب العصابات فمنشدها أمن السكان • وطالما لا يرتبط جيش العصابات بالدفاع عن منطقة ما ، فانه يتربع على مكمن يقرر منه على درجة عظيمة ساحة الوغى وينظم خسائر الطرفين •

وفي الحرب التقليدية يتحقق الظفر بدرجة من النجاح تقدر بخمس وسبعين بالمائة • وفي حرب العصابات ، فان حماية خمس وسبعين بالمائة من السكان ليوكد

الاندحار . أن واحداً بالمائة من الأمن في خمس وسبعين بالمائة من السكان لأجود كثيراً من خمس وسبعين بالمائـة أمنـاً في مائـة بالمائـة مـن السـكان . ولـو عجـزت القوات المدافعة عن أحداث أمن تام تقريباً بين السكان - في أقل اعتبار علـى ثـرى المنطقة التي يخالونها حيوية - ستظفرر العصابات بالحرب عاجلاً أو آجلاً .

والتماثل الأساس لحرب العصابات أنهـا يسيرة التنفيـذ وعسيـرة ، فجيـش العصابات سيظفر طالما يتحاشى الخسارة ، في حين سيخسر الجيش التقليـدي ان لم يحسم الحرب لمصالحه . وبمقدور جيش العصابـات مواصلـة أساليب أبكـر والفـر لوقت طويل وقبالة حتى القطعات القليلة جداً . ان النصر الجلي لنادر جـداً حيـث تضمحل حروب العصابات في ردح من الزمن طويلاً . وأعظم أمثلة الظفر بحـرب العصابات قد طرأت في ملايا واليونـان ، حيـث نجحـت القـوات المدافعـة بعـد أن قطعت العصابات من خطـوط الامـداد الخارجيـة (في ملايـا جغرافيـاً وفي اليونـان بسبب انفصال تيتو من موسكو) .

ولم يقدر الجيش الفرنسي والأميركي من حل لغز حرب العصابات . لقـد خاضا طرازاً واحداً من الحرب التي خبراها وتدربا عليها حسب - حـرب تقليديـة تعتمد على خطوط جبهويـة واضحـة . وجـاهد الجيشـان ، المرتكنـان الى اطـلاق ناري أعظم ، مـن أجـل حـرب استنزافية . وأنـس الجيشـان الاستراتيجية منقلبـة عليهما على يد خصم أعياهم كل الاعياء برباطة جأشه وبالضغوط الداخلية لانهاء القتال . وهكذا تفادحت الخسائر وتملصت المعايير التي تقرر التقدم .

وأذعنـت فرنسـا بالاندحـار أسـرع مـن أميركـا لان قواتهـا المسلحـة قـد انتشرت بنحو دقيق في محاولة لوقف الفيتناميين جميعاً بثلث القوة التي ستلتزم أميركا بعدها في تحصين نصف البلاد . كانت فرنسا تتقطع ارباً ارباً كمـا حصـل أميركـا بعد عقد : فكلما كثفت قطعاتها حول مراكز السكان ، هيمـن الشيـوعيون على أطراف البلاد ، وكلما تحرك الفرنسيون للهيمنة على الأطراف ، هاجم الشيوعيون على المراكز والحصون ، واحدة فواحدة .

كان ثمة اصرار فيتنامي أتى على قدرة الاستـدلال العقلي للأجانب الذيـن غامروا بالدخول اليها . وما يستغربه الجميع أن الحرب بين فرنسا وفيتنام قد سمت الى ذروتها في ملتقى طريق يقال لـه ديـان بيـان فـو ، الكـائن في الجـانب الشمـالي الغربي القصي لفيتنام وعلى مقربة من حدود لاوتيان . ونصبت فرنسا هنـاك خيـر قوتها رجاءة اغراء الشيوعيين على الانخـراط في معركـة استنـزاف معينـة ونـاورت بنفسها ، جراء ذلك ، الى موضع لا نصر له . واذا ما أصطفى الشيـوعيون تجـاهل الانتشار الفرنسي ، ستغوص هذه القوات في مبـوأ نـاء عـن منـاطق ذات أيـة مـآل استراتيجي . ولو ابتلع الشيوعيون الطعم سيكون باعثهم اليتيم ايمـانهم بـالدنو مـن رؤية النصر الحاسم . وهكذا خفضت خياراتها الى اللاملائمة أو الاندحار .

لقد أساءت فرنسا عظيماً لعبقرية خصومها وصرامتهم - كمـا أقـدم عليـه الأميركـان بعـد عقـد . وفي الثالـث عشـر مـن آذار عـام ١٩٥٤ ، شنـت فيتنـام الشمالية هجوماً شاملاً على ديـان بيـان فـو وأستولت على الحصنـين البعيديـن ، المفترض أنهما يهيمنان على أرض سامقة . واستخدموا لهـذا الفعـل مدافـع هـاون كـان لا يعتقد امتلاكها حيث زودتهـم الصين بهـا غـداة الحـرب الكوريـة .

ومنذئذ ، كانت مسألة وقت أمام بقية القوات الفرنسية في التقهقر • وبعد أن أخذت حرب الاستنزاف في فرنسا كل مأخذ ، ولم تأنس في القتال بعض الهدف ما خلا الاجبار على التقهقر تحت ضغط أميركا ، قبلت حكومة فرنسية جديدة اقتراح السوفيت على عقد مؤتمر لقضية الهند الصينية يشرع به في جنيف في شهر نيسان •

ودفع هذا المؤتمر مباشرة الشيوعيين لتعجيل ضغوطهم العسكرية وحملوا ادارة ايزنهاور على الاصطفاء بين نظرياتها وامكانياتها • وأرغم سقوط ديان بيان فو فرنسا على استقطاع جزء حيوي ، ان لم يكن كاملاً ، من فيتنام الى الشيوعيين • وفي الوقت نفسه لن ينجد ديان بيان فو غير تصعيد عسكري عظيم لا تقدر فرنسا على موارده ورغبته • وكان على الولايات المتحدة أن تقرر احتمالية دعم نظرية الدومينو بفعل عسكري مباشر •

وعندما زار واشنطن الجنرال بول ايلي ، رئيس هيئة الأركان الفرنسية في الثالث والعشرين من اذار ، زرع فيه الأدميرال آرثر رادفورد ، رئيس هيئة الأركان المشتركة ، الانطباع أنه يوصي بضربة قوية شاملة ضد مواقع الشيوعيين المحيطة بديان بيان فو - وبامكانية اللجوء الى استخدام الأسلحة النووية • ومع ذلك ، أفرط دالس كثيراً في التزامه بالأمن الجماعي بحيث لم يتأمل لمثل هذه الخطوة من دون تهديد السبيل الدبلوماسي لها • وحث فعلاً ، في خطابه الكبير في التاسع والعشرين من آذار عام ١٩٥٤ ، على الأمن الجماعي لنجدة الهند الصينية من الشيوعيين ، مستشهداً بالحجة التقليدية للمدرسة المناوئة للترضية - ان خيبة الفعل الفوري ليتطلب أفعالاً مبهظة جداً لكامل الدرب :

[ان فرض نظام روسيا الشيوعية وحليفتها الصين الشيوعية على جنوب شرق آسيا ، بايما وسائل ، سيحدق تهديداً هائلاً بالمجتمع المتحرر كلية • وترى الولايات المتحدة أن الأمر سيلبى بالفعل بالفعل المشترك ، وليس بالرفض السلبي • ويتبطن الأمر اخطار جدية أوهن مما تلاقينا بعد سنوات قلائل لو تقاعسنا عن اتخاذ القرار] •

اقترح دالس ، بخطر " العمل الموحد " ، اقامة ائتلاف يضم الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا ونيوزلندة وأستراليا ودول الهند الصينية الموحدة لكبح مسيرة الشيوعيين في الهند الصينية • أيد ايزنهاور رأي دالس بالحث على الفعل الجماعي ، بالرغم من جنوحه الموكد تقريباً لمنع التدخل وليس تعزيزه • ووصف شيرمان آدم ، رئيس الأركان في عهد ايزنهاور ، رأي الرئيس بما يلي :

[عندما تحاشى ايزنهاور حرباً شاملة مع الصين الحمراء قبل عام في كوريا وحظي بدعم الأمم المتحدة ، ما كان يحلو له أن يشعل فتيل حرب أخرى في الهند الصينية ..... من دون بريطانيا والحلفاء الغربيين] •

جسد ايزنهاور ظاهرة غريبة لسياسة أميركا ينقلب فيها الرؤساء ، اللاهثون دون هدف ، الى أشخاص جد معقدين • وفي هذا المضمار ، غدا ايزنهاور رائداً لرونالد ريغان ، الذي حاول اغشاء مهارات ماكرة غير اعتيادية خلف قناع من اللطف الحميم • وانتشر خط عريض في كلمات دالس أبان أزمة السويس بعد عامين وفي أزمة برلين • حبذ ايزنهاور ، بنحو موكد تقريباً ، تحاشي الفعل العسكري برمته لا سيما أنه خبر الكثير عن الشؤون العسكرية بحيث لم

يصدق أن ضربة جوية يتيمة ستكون حاسمة ، ورغب عن اللجوء للانتقام الشامل (الاستراتيجية الرسمية) قبالة الصين . ولم يكن لايزنهاور ميل للحرب البرية الشاقة في جنوبي شرق آسيا ، وخبر كثيراً دبلوماسية الائتلاف بحيث استشعر الاحتمالية المطلقة لخلاصة الفعل المشترك ، في اطار زمني ملائم ، الى المصير عينه لديان بيان فو . ويقينا أن هذا الأمر فغر لايزنهاور مخرجاً ملائماً لأنه استحب فقدان الهند الصينية على بصم أميركا بتهمة التأييد للاستعمار ، كما أشار في جزء غير منشور في مذكراته :

[ينظر العالم الحر الى موقف أميركا ، القوة العظمى بين سائر القوى المناوئة الاستعمار ، كمصدر لا يقدر بثمن ...... وهكذا لنا أن نذود عن حمى المكانة الأخلاقية للولايات المتحدة وليس تونكن دلتا ، وفي الحق كل أنحاء الهند الصينية] .

بذل دالس وايزنهاور ، بصرف النظر عن خاصة تحفظاتهم ، جهداً عظيماً لأصابة فعل مشترك . وناشد ايزنهاور برسالة طويلة في الرابع من نيسان عام ١٩٥٤ ، تشرتشل الذي كان في آخر سنة له في رئاسة الوزراء :

[اذا ما انخدع الفرنسيون ومضت الهند الصينية الى حوزة أيادي الشيوعيين ، ستحل الكارثة على مبوأنا ومبوأك الاستراتيجي ولما يتحور توازن القوى في آسيا والباسفيك . اننا لنأبى هذا الأمر ، ولكن يشق علينا حماية تايلاند وبورما والهند الصينية من قبضة الشيوعيين . وذا أمرو لا طاقة لنا به طالما أن التهديد مباشر الى مالايا واستراليا و نيوزلنده] .

ومع ذلك لم يقتنع تشرتشل ، ولم يبذل ايزنهاور جهداً آخراً لحظوة تأييده . واستشعر تشرتشل ، الطراز الانكليزي الأول والمخلص " للعلاقة الخاصة " مع أميركا ، أن أخطار الهند الصينية لأعظم مما يصيبونه من غنائم . ولم يوافق على دعوى سقوط أحجار الدومينو كأمر لا مندوحة منه ، أو أن هزيمة استعمارية واحدة لتفضي ، تلقائياً ، الى كارثة عالمية .

آمن تشرتشل وأنتوني ايدن أن حدود مالايا لأفضل مكان حري بالمدافعة عنه في جنوب شرقي آسيا ، لذلك أجاب بنحو غير ملزم أن ايدن سيسلم قرار الوزارة الى دالس الموشك على السفر الى لندن . وخلف تحاشي تشرتشل لجوهر المسألة قبساً من الشك على استجماع بريطانيا العظمى السبل كي تعضد أباءها للفعل الموحد . فلو كانت الأخبار على ما يرام ، لنقل تشرتشل بنفسه الرسالة . وعلاوة لذلك ، كان مقت ايدن لدالس مشهوراً حيث اعتقد ايدن ، حتى قبل وصول وزير الخارجية " أنه ليس من الواقعي التكهن بفرض شروط المنتصر على عدو لم يندحر " .

وأفصح تشرتشل في السادس والعشرين من نيسان عن تحفظاته الى الأدميرال رادفورد أبان زيارته لندن . وذكرت الوثيقة الرسمية أن تشرتشل قد حذر من " حرب على الأطراف يستطيع ازاءها السوفيتيون بقدرتهم على تعبئة حماس الوطنيين والشعوب المقموعة . وفي الحقيقة ليس من الصواب السياسي انخراط بريطانيا العظمى في قضية وصفها تشرتشل بالمنحى التالي :

[لن يغلب الشعب البريطاني على أمره ، بيسر ، تحت طائلة ما دارت دائرته في الأدغال النائية لجنوب شرق آسيا . بيد أنهم يجهلون أمر قاعدة أميركا القوية في انغاليا الشرقية والحرب مع الصين ، الأمر الذي سيحفز على الميثاق بين الصين والاتحاد السوفيتي ، مما قد يعني هجوماً بالقنبلة الهيدروجينية على هذه الجزر] .

وأسمى ما في هذا الأمر أن الحرب قد بددت الحلم العظيم لشيخ المحاربين في آخر سنة في حكمه – اعداد قمة مع القيادة التي أردفت ستالين " يخطط لها أن تذكر السوفيت بالمكونات الكاملة لقوة الغرب وأبصامهم بحماقة الحرب .

أما الآن ، وبعد أن دهر وقت عظيم ، فان العمل الموحد بصرف النظر عن قرار بريطانيا العظمى ، لن يغيث ديان بيان فو التي خرت صريعة في السابع من آيار حتى عندما كان الدبلوماسيون يناقشون قضية الهند الصينية في جنيف . لقد انقلب العمل الموحد غدراً لعدم ادراك أيما فعل .

وأبان النقاش حول التدخل في ديان بيان فو ، فوق كل اعتبار ، الارتباك الذي أخذ يخيم على سياسة فيتنام والمعضلة المستفحلة في التوفيق بين التحليل السياسي والمبدأ الاستراتيجي مع اليقين الأخلاقي . فلو حصحص الحق أن ظفراً شيوعياً في الهند الصينية سيهوي قطع الدومينو من اليابان الى أندونيسيا ، كما تكهن بها ايزنهاور في رسالته الى تشرتشل وفي مؤتمره الصحفي في السابع من نيسان ، فعلى أميركا أن ترسم الخط من دون اعتبار رد الدول الأخرى طالما أن

المساهمة العسكرية لأطراف أشداء في الفعل الموحد سيكون رمزياً ، على نطاق واسع .

وبالرغم من مأثرة العمل الجماعي ، لم يكن بشرط مسبق للذود عن التوازن العالمي ، لو كان هذا الأمر على كف عفريت . ومن جانب آخر ، انبرت الادارة الأميركية ، ولما تحاول تنظيم الفعل الجماعي ، الى تصيير مبدأها العسكري " انتقاماً شاملاً " . وعنت بصب الضربة الى مصدر العدوان حرباً حول الهند الصينية تصوب ضد الصين . ومع ذلك لم يكن ثمة أرضية سياسية أو أخلاقية للضربات الجوية الموجهة على بلد ما كان الاّ مساهم غير مباشر في حرب فيتنام ولباعث وصفه تشرتشل لرادفورد أنه شديد الخطورة والهامشية بحيث لن يصطبر عليه الرأي العام الغربي أمداً آمداً .

وليس ثمة أدنى بارقة من الشك أن الزعماء السوفيت ، خلفة ستالين ، قد تقاعسوا كثيراً في أول سنة من حكمهم على مواجهة أميركا من أجل الصين . وطالما عجز القادة الأميركان العسكريون في وصف مصابيهم أو المآل المرجح للانتقام الشامل ضد الصين (أو في نطاق الهند الصينية ، لهذا الغرض) ، ولأن استقلال الهند الصينية كان مجرد خطة ، لم تلح أساس واقعي للتدخل . أرجأ ايزنهاور بحكمة الحسم ريثما تتناغم الخطوط المتنوعة للمفهوم الأميركي . ومن سوء الحظ لم يحصل هذا التوافق بعد عقد من الومان ، عندما تجشمت بكل ثقة أميركا الساهية عن محيط المغامرة ما أخفقت فرنسا في تحقيقه بنحو مخز .

وازاء خشية الاتحاد السوفيتي والصين من التدخل الأميركي ، أعانت دبلوماسية ايزنهاور / دالس ، ذات التهديدات الصريحة ، على اصابة ثمرة لمؤتمر جنيف كانت في ظاهرها أفضل بكثير مما أسبغه عليهم الموقف العسكري براً . ومهدت اجتماعات جنيف في تموز عام ١٩٥٤ ، تشطير فيتنام على امتداد الخط السابع عشر . ووصف هذا التبعيض ، لا بلقب " الطرف العسكري " ، وانما اجراء اداري لتسهيل مهمة استجماع القوات العسكرية ، كرة أخرى ، وقبيل الشروع بانتخابات دولية الاشراف التي ستعقد في بحر عامين . وعلى كافة القوات الخارجية الانسحاب من دول الهند الصينية الثلاث في غضون ثلاثمئة يوم ، في حين حظرت القواعد الأجنبية والتحالفات مع الدول الأخرى .

ومع ذلك ، سيمنحنا فهرس الفقرات المتنوعة انطباعاً مضللاً لشكلية اتفاقات جنيف وقوة حجتها . وكان ثمة موقعون كثر لأطراف مختلفة لهذه الاتفاقية ، من دون فئات متعهدة ، لذا لم تتحقق " التزامات جماعية " . وأوجز ريتشارد نيكسون هذا الهرج كما يلي :

[اجتمعت تسعة أقطار في المؤتمر وخلصت ستة منها الى اعلانات فردية ، وثلاث اتفاقيات ثنائية لوقف اطلاق النار ، واعلان يتيم غير موقع] .

وكل ما ارتقت اليه الأمور هو سبيل لانهاء الخصومات وتشطير فيتنام ونذر المآل السياسي الى المستقبل . ويجلي التحليل غير المتقن عادة لغموض مثل هذه الاتفاقيات آيه للأضطراب أو لمخادعة المفاوضين - التهمة التي وجهت بعدها

لاتفاقيات سلام باريس عام ١٩٧٣ . ومع ذلك تصور الاتفاقيات المبهمة كاتفاقيات جنيف الواقع وتفض ما تقدر عليه حسماً ، بمعرفة تامة أن التنقيح الأكثر سينجم عن تطور الأحداث . وأحياناً تأذن الفترة الفاصلة باشراقة آفاق سياسية جديدة من دون صراع في حين يستأنف القتال فينة أخرى ، مرغماً الحزبين على اعادة النظر في عرضيهما .

وفي عام ١٩٥٤ ، تطور تأزل مشوب بالحذر لم يستطع أي الأطراف تخطيه . فالاتحاد السوفيتي لم يتأهب لمواجهة حال رحيل ستالين ولباعث من تمتعه بمصالح هامشية في جنوب شرق آسيا . وخشيت الصين من حرب أخرى مع الولايات المتحدة في أقل من حول على اختتام الحرب الكورية (خاصة في ضوء عقيدة أميركا ذات الانتقام الشامل) . أما فرنسا ، فكانت تنسحب من المنطقة في حين افتقرت الولايات المتحدة للاستراتيجية والتأييد الشعبي للتدخل . وما كان بوسع الفيتناميين مواصلة الحرب من دون خطوط الامدادات الخارجية .

وفي الوقت عينه ، لم يحور أي انجاز في مؤتمر جنيف آراء النصراء الأساسية . لم تقلب ادارة ايزنهاور تقييمها ان الهند الصينية صمام التوازن الآسيوي -وربما العالمي - ولم تنبذ التدخل العسكري ، ما خلا التدخل لصالح فرنسا الاستعمارية . ولم تهجر فيتنام الشمالية مبغاها في توحيد جميع الهند الصينية تحت مظلة الحكم الشيوعي ، الأمر الذي قاتل من أجله قادتها عقدين من الزمان . وواصلت القيادة السوفيتية الاقرار بالتزامها بالصراع الدولي . وبمفردات المبدأ ، كانت الصين أكثر الأقطار الشيوعية راديكالية ، بالرغم من أنها رشحت مفاهيمها العقائدية في موشور مصلحتها الوطنية . وانبرت الصين ، بفعل ادراكها

للمصلحة الوطنية ، متناقضة عظيماً حول امتلاكها لقوة عظمى ، حتى الشيوعية منها ، على الطرف الجنوبي – النتيجة المحتومة لتوحد الهند الصينية تحت خيمة الشيوعية .

وسبر دالس بحذق في خضم هذه الأمواج . ويقيناً تقريباً أنه قد استحب التدخل العسكري والاجهاز على الشيوعية ، حتى في الشمال . فمثلاً أوضح في الثالث عشر من نيسان عام ١٩٥٤ ان النتيجة " المرضية " تتجسد بالانسحاب الكامل للشيوعية من الهند الصينية . وبخلاف ذلك ، الفى نفسه في مؤتمر نتيجته الممكنة اليتيمة وهب الحكم الشيوعي في فيتنام الشمالية جواً من الشرعية التي ستوسع بدورها التأثير في الهند الصينية . وجاهد دالس لصياغة تسوية " تخلو من شائبة الاستعمار الفرنسي " بالرغم من أنها " أمر لذنا بالصمت حياله " . وللوهلة الأولى في انخراط أميركا في فيتنام يتزامن التحليل الاستراتيجي والمفهوم الأخلاقي . وشخص دالس مرمى أميركا في المعاونة " لبلوغ قرارات تساعد أمم تلك المنطقة بسلام في التمتع بوحدة اراضيها واستقلالها السياسي في ظل حكومات مستقرة وحرة تتمتع بالفرصة على توسيع اقتصادها " .

وكانت المعضلة المباشرة هي رفض الولايات المتحدة المساهمة الرسمية في مؤتمر جنيف ، حيث سعت لتكون حاضرة وغائبة . وتجلى الغموض الأميركي بأحسن صورة في البيان الختامي الذي أعلن أن الولايات المتحدة " تنظر " الى الاعلانات النهائية وسوف " تكف عن التهديد أو شهر القوة لأرهابهم " . وفي الوقت عينه ، حذر البيان " انه سينظر بقلق بالغ لأي تجدد في العدوان الذي ينتهك البيانات المذكورة ، مما سيهدد بخطورة السلام والأمن الدوليين " . انني لم أعرف

أمراً آخراً في التأريخ الدبلوماسي لأمة تضمن تسوية رفضت توقيعها وعبرت ازاءها مثل هذه التحفظات الشديدة .

وعجز دالس عن الحيلولة دون تعضيد الشيوعية في فيتنام الشمالية ، لكنه آمل أن يمنع قطع الدومينو من السقوط في بقية الهند الصينية . واذ واجهته ما أنسه ايزنهاور الشرين المزدوجين من الاستعمار والشيوعية ، خاطر بالاستعمار الفرنسي وعتقت له الحرية على التشديد في احتواء الشيوعية . ورآى في جنيف فضيلة خلق اطار العمل السياسي الذي ناغم مرامي أميركا السياسية والعسكرية ويسر الأساس القانوني لمقاومة الحركات الشيوعية الأخرى .

وانهمك الشيوعيون من جانبهم باقامة نظام حكومي شمالي الخط السابع عشر ، وذا مهمة دأبوا عليها بوحشية متميزة ، فقتلوا في الأقل خمسين ألفاً وزجوا مائة ألف في معسكرات الاعتقال . ويمم صوب الشمال ما بين ثمانين ألفاً الى مائة ألف من العصابات الشيوعية ، في حين فرّ مليون فيتنامي شمالي الى الجنوب حيث اكتشفت الولايات المتحدة في (نغو دن ديام) قائداً متعاوناً . لقد أفصح سجله عن وطنية لا غبار عليها ، بيد أن الديمقراطية ليست قبلة يتوجه اليها .

وبرهن قرار ايزنهاور الحكيم في تفادي الانخراط في فيتنام عام ١٩٥٤ انه تدبيراً حربياً لا استراتيجياً . ومكث هو ودالس ، غداة جنيف ، مقتنعين في أهمية الهند الصينية الاستراتيجية الحاسمة . وفي أيلول عام ١٩٥٤ أشرقت منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا تضم الولايات المتحدة والباكستان والفلبين وتايلاند وأستراليا ونيوزلندة والمملكة المتحدة وفرنسا . وما افتقرت اليه المنظمة هدف سياسي

مشترك أو وسائل التعاون المتبادل . وفي الحقيقة ، كانت الدول التي أبت المساهمة في المنظمة أهم من أعضائها . فقد آثرت الهند وأندونيسيا ومالايا وبورما الحيادية ، في حين حظرت اتفاقيات جنيف على دول الهند الصينية الانضمام اليها . وبالنسبة لحلفاء أميركا ، ما كان من المرجح أن تركب بريطانيا العظمى وفرنسا الأخطار لمصلحة بقعة خرجا منها قبل حين . وفي الحقيقة انخرطت فرنسا - والى درجة أوهن بريطانيا العظمى - في المنظمة للحصول على حق النقض حول ما خالاه الأعمال الأميركية الهوجاء .

واتسمت الالتزامات الرسمية في منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا أنها مغمومة . لم تحدد المعاهدة معايير تعريف الخطر المشترك أو مكننة الفعل المشترك - كما فعل الناتو . ومع ذلك مهدت منظمة جنوب شرق آسيا هدف دالس ولما تيسر اطار عمل قانوني للدفاع عن الهند الصينية . وذا العلة وراء تحديد المعاهدة حول الاعتداء الشيوعي ضد أمم الهند الصينية الثلاث - المحظورة من العضوية بموجب اتفاقيات جنيف - بنحو أعظم فيما يتعلق بالهجوم الشيوعي على الموقعين . وشخصت اتفاقية منفصلة أن التهديدات الى لاوس وكمبوديا وجنوب فيتنام سيكون عدواناً لسلام الموقعين وأمنهم .

وارتكنت الأمور أجمعها على مدى تحول دول الهند الصينية الجديدة ، خاصة فيتنام الجنوبية ، الى أمم تقوم بعملها على أكمل وجه . ولم تحكم أية منها ككيان منفصل ضمن حدودها الحالية . وقسم الفرنسيون فيتنام الى ثلاثة مناطق - تونكين وأنام وكوشنشينة - التي حكمتها هانوي وهو وسيغون على التعاقب .

وأحتل الفيتناميون المنطقة المحيطة بسيغون وميكونغ دالتا في فترة حديثة نسبياً ، أبآن القرن التاسع عشر وفي الوقت عينه لوصول الفرنسيين .

كان ديام ، الحاكم الجديد ، نجل موظف في محكمة هيو العليا . ودرس في المدارس الكاثوليكية حيث عمل بضع سنين بصفته موظفاً في الادارة الاستعمارية في هانوي ، لكنه تقدم باستقالته عندما أبى الفرنسيون الشروع ببعض اصلاحياته المقترحة . وسلخ ما تلا من عقدين في بلده وفي المنفى خارجاً - خاصة في أميركا - حيث رفض العروض ، التي تقدم بها اليابانيون والشيوعيون والقواد الفيتناميون الذين تعينهم فرنسا ، على المساهمة في حكوماتهم .

كانت سجايا ديام الشخصية قد أسبغتها عليه العادة السياسية الكنفوشية لفيتنام . وبخلاف النظرية الديمقراطية التي ترى الحقيقة اشراقة لاختلاط الأفكار ، تجزم الكنفوشية ان الحقيقة مرمى لا تنتهي اليها الاّ الدراسة الدؤوب والقلة القليلة من الناس . ولا تعالج الأفكار المتضاربة التي تقدم عليها النظرية الديمقراطية ، ذات حسنة متكافئة . ان الكنفوشية ذات مراتب وتسلم الأمور الى علية الأمة ، حيث تكثف ولاءها الى العائلة والمؤسسات والسلطة . وما من مجتمع قد أثرت فيه أنجب نظاماً متعدداً قادراً على العمل .

وفي عام ١٩٥٤ ، كان ثمة تشكيل طفيف لصورة القومية في جنوب فيتنام ، وهيئة أوهن في الديمقراطية . ومع ذلك لم تضع مثل هذه الحقائق نصب أعين التقييم الأميركي الاستراتيجي أو الايمان باغاثة فيتنام الجنوبية بالاصلاح الديمقراطي . لقد تقدمت ادارة ايزنهاور في الدفاع عن فيتنام الجنوبية قبالة العدوان

الشيوعي واضطلعت بمهمة بناء أمة كي تقدر مجتمعاً ذا حضارة متباينة عظيماً مع ما للولايات المتحدة كي يستتب استقلاله الحديث ويمارس الحرية بالمعنى الأميركي .

وحث دالس على الدوام مساندة ديام لأنه " الحصان الوحيد المتيسر " وفي تشرين الأول عام ١٩٥٤ ، أخرج ايزنهاور صنيعاً من ضرورة عندما كتب الى دايم واعداً اياه بمساعدة مشروطة بمعايير الاداء ... في تبني الاصلاحات " المطلوبة " و " سيتظافر " العون الأميركي مع فيتنام مستقلة ((تقف عليها حكومة قوية .... تجد مستجيبة للطموحات القومية لشعبها)) وبذا تستطيع قيادة مسؤولياتها المحلية والدولية .

وفي بحر من بضع سنوات ، لاح كل أمر مستوطناً محله . وعندما شدت ادارة ايزنهاور الرحال ، وهبت الولايات المتحدة فيتنام الجنوبية أكثر من مليار دولار مساعدة وأكثر من ألف وخمسمائة من كادرها وأمست سفارة أميركا في فيتنام الجنوبية من أعظم البعثات في العالم . وهكذا غض فريق أميركا الاستشاري المكون في ٦٩٢ عضواً الطرف عن مديات الكادر العسكري الأجنبي الذي نصت عليه اتفاقيات جنيف .

وبخلاف كل التوقعات مع مؤازرة الاستخبارات الأميركية الهائلة ، قمع ديام المجتمعات السرية ووطد أركان الاقتصاد وسعى الى اقامة سيطرة مركزية - المنجزات العظيمة التي رحبت بها الولايات المتحدة أجل الترحيب . وذكر السناتور مايك مانسفيلد بعد زيارته الى المكسيك في عام ١٩٥٥ ان

ديام يمثل " وطنية أصيلة أضفى اليها ما فقدته من حرية " . وصادق السناتور جون ف . كنيدي على ركني سياسة أميركا في فيتنام ، الأمن والديمقراطية ، واصفاً فيتنام " أرض الديمقراطية البرهان في آسيا " .

كشفت الأحداث في عجلة النقاب عن احتفال أميركا بالهدوء الذي يسبق عاصفة الضغط الشيوعي ، وليس الانجاز الدائم . وانقلب متشعباً افتراض أميركا أن جذوتها الديمقراطية يمكن تصديرها الى سائر الشعوب . وفي الغرب ترعرعت التعددية السياسية في خضم مجتمع متلاحم ترسخ فيه الاجماع الاجتماعي القوي منذ عهد عاهد بحيث يأذن للمعارضة من دون تهديد كيان الدولة . ولكن في مجتمع لم يصر بعد ، قد تبدو المعارضة تهديداً الى الكيان الوطني ، خاصة ان لم يهب المجتمع المدني شبكه أمان . وتحت طائلة هذه الظروف ، تكون الفتنة مستبدة وأحياناً ساحقة ، لمناظرة المعارضة بالخيانة .

واتضحت كل هذه التيارات في حرب العصابات . ان استراتيجية العصابات لتمحو بنحو منسق أية ترابط تحاول الأجهزة الحاكمة تحقيقه . وفي فيتنام ، لم يتوقف نشاط العصابات قط ، حيث بلغ ذروته في عام ١٩٥٩ . والهدف الأول للعصابات في الحيلولة دون تعزيز الأجهزة الشرعية والثابتة ، وغاياتهم الفضلى في موظفي الدولة ، صالحهم وطالحهم . اهم يهاجمون الطالحين لكي يحظو بالعواطف الشعبية عندما " يعاقبون " المفسدين والمتجبرين ، ويعتدون على الأخيار لأنها أيسر السبل لمنع الحكومة من تحقيق الشرعية .

وفي عام ١٩٦٠ كان ثمة محاولات اغتيال بنحو ألفين وخمسمائة موظف فيتنامي جنوبي في كل عام . لقد درت العصابات عظيم المنفعة من الاحتجاج الدائر بين بناء الأمة والفوضى وما بين الديمقراطية والقمع . وحتى لو كان ديام مصلحاً على الطراز الأميركي ، فثمة سؤال حول مدى ظفره بالسباق غير المتكافىء بين الوقت المقتضى للأصلاح والوقت الذي يفي بأحداث الفوضى . وبصفته موظفاً كبيراً ، فقد أمسك كنموذج له الحاكم الكونفوشيوسي الذي يحكم بالفضيلة لا بالاجماع والذي يبلغ الشرعية ، أو ما تسمى تفويض السماء ، بالنجاح . لقد ارتد ديام بالفطرة عن مفهوم المعارضة الشرعية ، مثلما واجه جميع قادة الطراز الصيني في الحكم من بكين حتى سنغافورة أو ما يقارب جميع قادة جنوب شرق آسيا مصاعب داخلية أقل حدة . لقد أحجبت لفترة ما انجازات ديام في بناء الأمة الحظوة غير المرئية أصلاً في الاصلاح الديمغرافي . ومع هذا ، وبينما تدهور حال الأمن في فيتنام الجنوبية ، أمست الخلافات العالقة بين القيم الأميركية وتقاليد فيتنام الجنوبية أقرب الى التعمق منها الى طيبها .

وبالرغم من التحشيد الذي رعته أميركا لجيش فيتنام الجنوبية ، تدهور الموقف الأمني باطراد . وتحفز الجيش الأميركي بالتطمينات عينها التي وسمت المصلحين لأميركا السياسيين . وكان كلاهما مقتنع أنهما عثرا على العلاج الراسخ للنجاح في بلد قاص جغرافياً وثقافياً عن الولايات المتحدة . وشرعا بخلق جيش فيتنامي كنسخة لخاصتهما . لقد انطلقت القوات الأميركية المسلحة الى الصراع في أوروبا وكانت تجربتهم الوحيدة في العالم المتطور تجسدت في كوريا حيث كانت مهمتهم في خوض غمار مقاتلة جيش تقليدي عبر خط تأريف

معترف به دولياً ويتوسط شعباً متعاوناً عامة . وماثل الموقف كثيراً ما حدس المخططون العسكريون حصوله في أوروبا . أما في فيتنام ، افتقرت الحرب الى خطوط جبهوية واضحة و لم يذد العدو ، الذي ساندته هانوي ، عن أي مواقع وكان يهاجم خبط عشواء : انه في كل مكان وفي لا مكان .

ومنذ اللحظة التي وطئت فيها البعثة العسكرية الى فيتنام ، بدأت بتطبيق أسلوب الحرب المألوف : الاستنزاف المعتمد على القوة النارية واستآلة الجيش والتعبئة . لقد انشلت كل هذه الأساليب في فيتنام والفى جيش فيتنام الجنوبية الذي أعدته أميركا انه متفخخ بالشرك عينه الذي أصاب القوة الفرنسية قبل عقد من الزمان . ويدلي الاستنزاف أجود دلوه قباله خصم لا خيار له سوى الدفاع عن غنيمة حيوية . ولكن بالكاد للعصابات مغنماً يذودون عنه . وهكذا أمسى الجيش الفيتنامي بفعل الآلية والتقسيم الى فرق غير آهل لصراع في بلده الخاص .

وفي الأيام الأول لانهماك أميركا في فيتنام ، كانت حرب العصابات في مهدها و لم تستفحل المعضلة العسكرية بعد . وحتى عندما شدت ادارة ايزنهاور الرحال ، لم تعجل هانوي من نشاط العصابات وبقي في جعبتها وقت طويل حتى تقيم نظاماً تعبوياً للمؤازرة في حرب عصابات كبيرة . ولهذا المبغى احتلوا لاوس ، وهي أمة محايدة مسالمة صغيرة فأسسوا من خلالها ما غدا يعرف بـ (**ذيل هوشي مينه**) .

وعندما أوشك ايزنهاور على الرحيل ، لم تنفك لاوس عن كونها اهتمامها الرئيس . ووصف هذا البلد بأنه عصام نظرية الدومينو :

[ان سقوط لاوس بأيدي الشيوعيين ليعني الاطاحة بجيرانها الأحرار كمبوديا وجنوب فيتنام ، وفي الأرجح أيضاً ، تايلاند وبورما ، وسيشرع مسلسل الأحداث هذا الطريق للشيوعيين على احتلال جنوب شرق آسيا ،]

وخال ايزنهاور استقلال لاوس حد مهم بحيث تأهب " للقتال ...بحلفاء أو من دون حلفاء " . وكان الذود عنها احدى أهم التوصيات الخاصة التي أسدى بها الى الرئيس المنتخب كنيدي أبان الفترة الانتقالية التي سبقت كانون الثاني عام ١٩٦١ .

وعندما تغيرت الادارات ، لم يبلغ مستوى العمل الأميركي في الهند الصينية وطبيعته المدى الذي يخاطر بمصداقية أميركا العالمية في ما وراء نقطة الاصلاح . وما برح الجهد الأميركي حاملاً بعض الصلة ببرامج الأمن الاقليمي وما كانت من العظمة بحيث يقتضي تشريعها تبريراً خاصاً .

وأمست نظرية الدومينو حكمة تقليدية ونادراً ما رزحت للتهديد . ولم تمسس القضايا التي طرحتها فيتنام مقاومة الشيوعية في آسيا ، بل مدى أهلية الخط السابع عشر ، ولم تضع في اعتبارها ما سيحصل في الهند الصينية لو هوت فيتنام الجنوبية ، بل في رسم خط دفاع آخر ، ولنقل على حدود مالايا . ولم تفحص المسألة بامعان في العدسة الجيوسياسية . وطالما كانت ميونخ عبرة أصيلة لجيل قادة أميركا آنذاك ، عدّ الانسحاب منها ذا معضلات وخطأً أخلاقياً أيضاً .
وعبر ايزنهاور عن السبيل الذي تدافع فيه أميركا في عام ١٩٥٩ :

[....تتطلب مصالحنا القومية بعض المعونة منا للاضطلاع بتقدم فيتنام المعنوي والاقتصادي والقوة العسكرية الضرورية لتدوم فيها روح الحرية ....] . ولا يأذن طبع أميركا العالمي لها أن تفرق بين ضحاياها الأقوياء على أساس المواءمة الاستراتيجية . وعندما أثار قادة أميركا مأثرة أمتهم ، كان الباعث لذلك ايمانهم العميق بها ، وهم في الأرجح يدافعون عن حمى بلد بمبدأ مشروع أكثر مما يتعلق الأمر بمصلحة وطنية أميركية .

وعندما اصطفت أميركا فيتنام كموقع تضرب فيه خطاً لكبح التوسعية الشيوعية ، فقد أكدت أن الطريق أمامها محفوف بالمآزق الخطرة . ولو كان الاصلاح السياسي السبيل الى دحر العصابات ، أتعني القوة المتنامية أن توصيات أميركا لم تطبق على الصراط المستقيم ، أم انها غير مواكبة ، في مرحلة القتال ؟ واذا ما كانت فيتنام مهمة حقاً للتوازن العالمي كما شدد في ذلك جميع قادة أميركا تقريباً ، ألا يعني الأمر أن الضرورات الجيوسياسية تعني على ما سائرها وترغم أميركا على ركوب دابة حرب في بلد يبعد عنها بنحو اثني عشر ألف ميل ؟ لقد عهدت الأجوبة الى خلفاء ايزنهاور ، جون ف . كنيدي ولندون ب . جونسون .

الفصل التاسع

في الطريق الى اليأس : كنيدي وجونسون

أرث جون أف. كنيدي حلقة من الفرضيات السياسية الراسخة بصفته الرئيس الثالث ، على التوالي ، المرغم على استطباب قضية الهند الصينية . وأعتبر كنيدي ، كأسلافه ، فيتنام وشيجة عصيبه لموقع أميركا الجيوسياسي ، برمته . وشاطر ترومان وايزنهاور الايمان أن درأ الانتصار الشيوعي في فيتنام لمن اهتمامات أميركا الحيوية ، وألفى في القيادة الشيوعية في هانوي ، كأسلافه ، بديلة للكرملن . وبايجاز ، اتفق كنيدي مع الادارتين السابقتين : أن دحر فيتنام الجنوبية لضرورة لاستراتيجية الاحتواء العالمية الشاملة .

كان ثمة تباينات بين سياسة كنيدي ، في قضية فيتنام ، مع مالايزنهاور ، مع أنها تواصل لها في كثير من المناحي . أنس ايزنهاور الصراع بعيني جندي – حرب بين كيانين منفصلين : شمالي فيتنام وجنوبها ، ولم تمثل هجمات فيتكونغ على فيتنام الجنوبية ، بالنسبة لفريق كنيدي ، حرباً تقليدية بقدر ما هي صراع شبه مدني توسمه ظاهرة حرب العصابات الحديثة نوعاً ما . وآثر كادر كنيدي ، كأفضل حل للولايات المتحدة ، أن تبني في فيتنام الجنوبية أمة اجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية لتدحر العصابات من دون المخاطرة بأرواح الأميركان .

وفي الوقت عينه ، ترجم كادر كنيدي الأفق العسكري للصراع بمصطلحات أكثر ومبية ، مما فعل أسلافه . فعندما أبصر ايزنهاور التهديد العسكري لفيتنام

بموشق الحرب التقليدية ، آمن فريق كنيدي – في أوان باكر – أن المأزق النووي قد تنفس ، وقتئذ ، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بحيث أخرجت الحرب الشاملة عن طوق التفكير ، كما خلع عليها هذه الكلمات روبرت ماكنمارا ، وزير الدفاع . وأقتنعت الادارة أن هيكلها العسكري ليأتي على فرصة السوفيت بشن حرب محدودة ، على غرار الكورية . وبطريقة العزلة ، عدت أميركا حرب العصابات موجة المستقبل ومقاومتها أقصى اختبار لطاقة أميركا على احتواء الشيوعية .

وفي السادس من كانون الثاني عام ١٩٦١ ، وقبيل أسبوعين من تولية كنيدي منصب الرئيس الأميركي ، نعت خروشوف " حروب التحرر الوطنية " بـ " المقدسة " وناشد السوفيت في مؤازرتها . عاملت جبهة كنيدي الجديدة والفتية هذا الالتماس باعلان للحرب على رجاءها في وهب توكيد حديث لعلاقات أميركا مع العالم المتطور . وينظر اليوم ، بنحو واسع ، الى حديث خروشوف كمصبى أجله الى معذبيه الأيديولوجيين في بكين ، الذين اتهموه باللينينية المرتدة لأنه أرجأ انذار برلين كرة ثالثة وباعث في تحفظاته التي عبر عنها أغلب الأوانات عن الحرب النووية . ومع ذلك عامل كنيدي في خطابه الذي أدلاه في الحادي والثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٦١ خطاب خروشوف برهاناً للمطامح السوفيتية والصينية على تسيد العالم .

وحصل مثل هذا الالتباس طوراً آخراً ، في أيلول عام ١٩٦٥ وأبان ادارة جونسون . تعلق هذا الأمر بقضية الصين حيث تحدث بيان وزير الدفاع الصيني لن بياو " للحرب الشعبية " عن " تحويط " قوى العالم الصناعية بالثورات التي

ضربت العالم الثالث . فسرت ادارة جونسون هذا الأمر انذاراً أن الصين ربما تتدخل في هانوي ، وتجاهلت اشارة لن الموكدة على حاجة الارتكان الذاتي بين الثورات . وقصد ماو ، بدعواه امساك الجيوش الصينية عن المسيرة الى الخارج ، تحلية لرغبة الصين عن الانخراط مرة ثانية في حروب التحرر الشيوعية . ويقينا أن الجانبان قد تلقنا الدرس عينه : ووطدا العزم الا يعاوداه .

ولم تعد الهند الصينية ، في ظل تفسيرات ادارتي كنيدي وجونسون للتصريحات الشيوعية ، معركة في رحى الحرب الباردة الطويلة . مثلت الهند الصينية ، للجبهة الجديدة ، المعركة الحاسمة التي ستقرر وقف حرب العصابات وظفر الحرب الباردة . وخلص كنيدي ، بباعث من ترجمته للصراع كمؤامرة عالمية منسقة ، أن جنوب شرق آسيا لهي البقعة التي تنهض منها مصداقيته ، بعد أن أرهبه خروشوف في قمة فيينا حزيران عام ١٩٦١ . وأفصح كنيدي الى جيمس روستون ، كبير محرري النيويورك تايمز : " تواجهنا معضلة الآن في صيرورة قوتنا أهلاً بالثقة ، وفي تماثل فيتنام بالمكان " .

وكما يحصل في المأساة التقليدية التي ينقاد فيها البطل خطوة فخطوة وباحداث عشوائية صوب مصيره ، كان مولج ادارة كنيدي الى فيتنام بسيماء أزمة عفا عنها أسلافه – مستقبل لاوس . وأقدم شعب لاوس ، المحصور بين سلسلة جبال مانعة قبالة تايلاند ونهر ميكونغ الواسع الذي يفصلهم عن فيتنام ، على مساءلة جيرانهم المحاربين أن يدعوهم وشأنهم . وكان هذه أمنية ما وهبتها قط فيتنام الشمالية . وعندما شنت هانوي حرب العصابات في فيتنام الجنوبية عام ١٩٥٩ ، تشددت الضغوط على لاوس . ولو لجأت هانوي على امداد قوات

العصابات في الجنوب عبر الأراضي الفيتنامية ، تطلب عليها التسلل عبر ما يقال لها بالمنطقة المجردة من السلاح ، وهو خط التأريف الشاطر لفيتنام والممتد على طول الخط السابع عشر . وبوسع جيش فيتنام الجنوبية قطع هذه المسافة بالمعونة الأميركية . وبخلاف ذلك ، ستضطر فيتنام الشمالية على شن هجوم بوحدات عسكرية منظمة عبر الخط السابع عشر ، الذي حمل على التدخل الأميركي ومقاومة فيتنام الجنوبية – الأمر الذي لم تحبذه هانوي حتى عام ١٩٧٢ ، في آخر أنفاس الحرب الفيتنامية .

وازاء المنطق المبيت الذي وسم الاستراتيجية الشيوعية للحرب الكاملة ، انتهت هانوي الى أن التسلل صوب فيتنام الجنوبية عبر لاوس المحايدة وكمبوديا سيلقى عقوبات دولية أقل من الاندفاع الصريح على امتداد الخط السابع عشر . لقد تصرمت هانوي في حكمها ، بالرغم من ضمان حيادية لاوس وكمبوديا بمواثيق جنيف عام ١٩٥٤ ، وأعادت منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا توكيدها . وفي الحقيقة ، الحقت هانوي بها الأرض الشراك المتمتعة بسيادة لاوس وأقامت لها مناطق أساسية في هذه الرقعة وفي كمبوديا ، دون أن تلقى معارضة كبيرة من المجتمع العالمي . وواقعاً تناغم الرأي العالمي مع تفكير هانوي الناشز : وأمست جهود أميركا وفيتنام الجنوبية على كبح شبكة التدخل الواسعة عبر ثرى محايد ما يقال له " توسع " الحرب .

ويسرت أرض هانوي الشراك مداخل للفيتناميين الشماليين عبر سماء من الأدغال تمتد بنحو من ٦٥٠ ميل على طول كامل حدود فيتنام الجنوبية مع لاوس وكمبوديا . لقد وطأ لاوس في عام ١٩٥٩ أكثر من ستة آلاف فيتنامي شمالي

بدعوى مآزرة باثت لاو ، الشيوعي الذي فرضته هانوي غداة اتفاقيات جنيف على الأقاليم الشمالية الشرقية لطرف فيتنام ٠

وخبر ايزنهاور ، رجل الحرب ، أن تدريع فيتنام يبدأ من لاوس ويتضح أنه أسرى لكنيدي ، أبان الفترة الانتقالية ، بأهبته للتدخل في لاوس ولوحده أن تطلب الأمر ٠ كانت بيانات كنيدي البكر دأباً لتوصيات ايزنهاور ، وحذر في مؤتمر صحفي عقد في الثالث والعشرين من آذار عام ١٩٦١ :

[سيحدق الخطر بأمن جنوب شرق آسيا ، كلية ، لو أضاعت لاوس استقلالها المحايد ، فأمنها يدور في فلك أمننا – بحيادية حقيقية نراها جميعاً] ٠

ومع ذلك أصر كنيدي ، حين عرض سياسته الدفاعية الجديدة عقب خمسة أيام في هذا المؤتمر :

" ان المعضلة الأساس الحائقة بعالمنا اليوم لا تستهوي الحل العسكري " ٠

وبالرغم من عدم مواكبة البيان على نحو غير كامل ، بقرار الذود عن لاوس ، لم يمثل تماماً نداءاً صادحاً للعمل العسكري ٠ لم تراود هانوي رؤيا الحرب ، وستشهر كل بيدها من أسلحة لتظفرها ٠ لقد كان كنيدي مبهماً تماماً فأمل بالهيمنة لاحتواء الشيوعيين بالسبل السياسية ، وبالمساومة ، لو قدر هذا الأمر ٠

وفي نيسان من عام ١٩٦١ وقف كنيدي ، الذي صعقته هزيمة خليج الخنازير ، بوجه التدخل فآثر الارتكان الى المفاوضات لتأييد حيادية لاوس ٠ وعندما اعتصم التدخل الأميركي من التدخل ، اكدت مفاوضات الحيادية من

خناقها لهانوي ، التي باعت حيادية لاوس للمرة الثانية ، بعد أن اضطلعت باحترامها في مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤ ٠

لقد أرخ آيار عام ١٩٦٢ نهاية المطاف عندما بعث كنيدي بغواصات الى تايلاند المجاورة ، عجل هذا الأمر خاتمة المفاوضات وسأل كل الجنود والمستشارون الأجانب على شد الرحال من لاوس ، عبر نقاط تفتيش دوليه ٠ لقد غادر جميع المستشارين الأميركان والتايلنديين كما كان مجدول لهم ، بينما برح عبر نقاط التفتيش الدوليه أربعون حسب من مجمل الكادر العسكري لفيتنام الشمالية ، الذين انتقلوا الى لاوس بعدد ينيف على الستة آلاف ٠ أما البقية الباقية ، فانكرت هانوي بوقاحة حتى وجودهم في تلك البقعة ٠ لقد شرّع الطريق الى فيتنام الجنوبية مصراعيه ٠

وحصحص الحق في جانب ايزنهاور ، فلو كانت الهند الصينية حجر عثرة تعتور أمن أميركا في الباسفيك ، كما أدعى قادة واشنطن عقداً من الزمان ، لكانت لاوس أحق مكان بالتحصين من فيتنام ٠ وفي الحقيقة ، كانت المكان اليتيم الذي يدرع الهند الصينية ٠ وبالرغم من نأي لاوس وانغلاقها ، لم يقدر الفيتناميون الشماليون على حرب عصابات على ثراها ، بباعث من خشيتهم ومقتهم للأجانب ٠ وحينئذ ، كان بمستطاع أميركا شن طراز من الحرب التقليدية تدرب لها جيشها ، ويؤازر جهدها هذه القطعات التايلندية ، بنحو يقيني تقريباً ٠ وبازاء هذه الآفاق ، ربما تتقهقر هانوي في انتظار أسنح لحظات الحرب الشاملة ٠

ومع ذلك قدر للتحليل الاستراتيجي المبيت كثيراً ألا يتواءم مع صراع استشعرت المفردات الفكرية أعظمه (ولم يكن خاصة رأيي في ذلك الوقت) . وطيلة عقد من الزمان ، عكف قادة أميركا على خلق قضية للدفاع عن فيتنام ، لا سيما أنها مثلت عاملاً أساس في فكرة الدفاع الآسيوي . وربما سيضطرم الاجماع الداخلي عن تغيير هذه الاستراتيجية بالانتقال على حين غرة صوب مملكة جبلية قاصية ومتخلفة لتمسي عصام نظرية الاحتواء .

وبباعث من كل هذه العلل ، خلص كنيدي وكل مستشاريه الى وجوب الدفاع عن الهند الصينية في فيتنام الجنوبية ، فثمة بعض من الفحوى للأميركان في الاعتداء الشيوعي ، بصرف النظر عن ادراك الأميركان لقرار تعذرت معه المهمة عسكرياً . وبالاضافة لفتح طرق الامداد عبر لاوس ، كان السبب عائداً الى قرار الأمير شيهانوك ، حاكم كمبوديا المخادع والمتقلب بانتهاء اللعبة والاذعان لاقامة قواعد شيوعية على طول حد كمبوديا مع فيتنام الجنوبية وهكذا أمسى الموقف حرجاً : اذا تركت القواعد الكمبودية سليمة ، ستهاجم فيتنام الشمالية الجنوب وتنتقل الى البقية وهي معافاة ، شالة دفاع فيتنام الجنوبية . ولو تعرضت هذه القواعد للهجوم ، ستدان فيتنام الجنوبية وحلفاءها بشن " عدوان " ضد " بلد محايد " .

وبات من المعروف مواجهة الرئيس لأزمة برلين وعدم اكتراثه بخطر الحرب من لاوس ، على حدود الصين ، وفي بلد لم يسمع به قط من العامة ما خلا واحد بالمائة . ولم يضع باعتباره بديلاً لذلك : هجر الهند الصينية عن بكرة أبيها . كان كنيدي متأب لقلب عقد من التعهد للطرفين ، خاصة في أعقاب خليج الخنازير .

وعنا الانسحاب أيضاً الاذعان بالاندحار ، فيما أبصر كأختبار لغلب حرب العصابات ، الاستراتيجية الشيوعية الحديثة . وأسمى ما في الأمر ايمان كنيدي بالنصائح التي تسدى له ، مقدرة القوات العسكرية للفيتناميين الجنوبيين بفعل المعونة الأميركية على الحاق الهزيمة بالعصابات الشيوعية . وفي تلك الأيام البراء ، لم يراود أدنى شك قيادي أميركا ، في كلا الحزبين ، أن أميركا تتقدم صوب المسبخة .

احتفظ كنيدي بسجل لتعليق الشعب حول قضية الهند الصينية ، أكثر من عقد زمان . لقد تطرق مع استهلالة تشرين الثاني الى شأو لم يهجره قط : القوة وحدها لا تفي بوقف الشيوعية ، وعلى حلفاء أميركا في هذا الصراع أن يشيدوا أساساً :

[اننا لو شئنا اختباراً لمسيرة الشيوعية ، سينقل الأمر في معناه ارتكاناً لقوة السلاح . والأحرى بنا ان نبني عاطفة وطنية متقدة غير شيوعية في هذه المناطق والتوكأ عليها كقيدوم للدفاع ، لا على جحافل الجنرال دي لارتر القائد الفرنسي في الهند الصينية] .

وفي نيسان عام ١٩٥٤ وأبان حملة العمل الموحد التي نادى اليها دالس لنجدة ديان بيان فو ، عارض كنيدي ، في خطاب أمام مجلس الشيوخ ، التدخل طالما أن الهند الصينية ما برحت مستعمرة فرنسية . وغداة الانسحاب الفرنسي عام ١٩٥٦ وتحقيق استقلال فيتنام الجنوبية ، تأهب كنيدي للارتصاف بجانب

المعتقد السيد : " هذا هو مشرعنا – لا يمكننا التخلي عنه " . وفي الوقت عينه ، أكد أن التناحر ليس هو بعسكري ، بقدر ما هو تحد أخلاقي وسياسي :

[في البلد الذي تفرع فيه مفاهيم المغامرة الحرة والرأسمالية ، ولا يمثل الفقر والمجاعة أعداءً لهم عبر الخط السابع عشر ، لأن أعدائهم بين ظهرانيهم .... لا يسعنا الا أن نهبهم ثورة – سياسية واقتصادية واجتماعية – أعظم بكثير مما يعرضه الشيوعيون . واذا ما خرت أميركا ضحية لكل ما يهدد وجودها – الشيوعية والفوضى السياسية وما سائرها – ستتحمل أميركا ، ببعض التبرير ، هذه المسؤولية ، وسينحدر امتيازنا في آسيا الى درجة أخرى] .

ولاحت الحيلة التي يتفوه بها كنيدي في عدم تعريض الضحايا للعدوان . ويتطلب هذا المدخل ولادة مفهوم جديد لا تزخر به المفردات الدبلوماسية الذي لم يفارقنا حتى هذا اليوم – فكرة " بناء أمة " . وأستملحت استراتيجية كنيدي شد أزر الفيتناميين الجنوبيين بحيث يقاوموا ، أنفسهم ، الشيوعيين . وأعطيت الأهمية للعمل المدني والاصلاح الداخلي وتحورت البلاغة الرسمية لتفصح أن امتياز أميركا ومصداقيتها ، وليس ضرورة أمنها ، لعلى خط فيتنام .

وبدت كل ادارة مرغمة على استطباب الهند الصينية تسبخ في المستنقع بنحو أسحق . لقد وضع ايزنهاور وترومان لبنة برنامج المعونة العسكرية ، وأفضى توكيد كنيدي على الاصلاح الى تعاظم مساهمة أميركا في سياسة فيتنام الجنوبية العالمية . وكانت المعضلة أن الاصلاح وبناء الأمة ليسلخ عقوداً من الزمان ريثما تينع ثماره . وفي أوروبا أبان الاربعينيات والخمسينيات ، عاضدت أميركا دولاً

متأسسة ذات طبائع سياسية راسخة عندما أوسعت معونة خطة مارشال وحلف الناتو العسكري . بيد أن فيتنام جذوة لبلد جديد لا يتمتع بايما مؤسسات . كان المأزق المركزي أن مرمى أميركا السياسي في تقديم ديمقراطية صلبة في واقع فيتنام الجنوبية لم يتحقق ، وقتئذ ، لزوي نصر العصابات كما نشدت الاستراتيجية الأميركية . وعلى أميركا أن تعدل غاياتها العسكرية أو السياسية .

وعندما تبوأ كنيدي منصبه ، بلغت حرب العصابات في فيتنام الجنوبية مرحلة من العنف تكفي بالحيلولة دون تعزيز حكومة نغو دن ديام ، وألا تثير الشكوك في بقاءها . وفتنت هذه البساطه الظاهرة لنشاط العصابات ادارة أميركا بوهم تحقيق انتصار كامل باخفاء جهد اكبر نسبيا . الا أن هذه السكينة المؤقتة كانت بباعث أكبره الى انهماك هانوي بقضية لاوس ، واتضح أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة ، وعندما افتتحت مصاريع المداخل الجديدة عبر لاوس ، استفحلت حرب العصابات في الجنوب ، واستعصت مآزق أميركا على الحل .

وأنهمكت ادارة كنيدي في رحلتها الى مسبخة فيتنام ايار عام ١٩٦١ بمهمة قام بها جونسون ، نائب الرئيس ، كي " يقيم " الموقف . ومثل هذه المهام تكون آية لاتخاذ قرار قبل حين . وليس بميسور أي نائب رئيس القيام بتقييم مستقل عن حرب عصابات أمدها عقد زمان في زيارة بضعة أيام . وبالرغم من تمتعه بالاطلاع على تقارير المخابرات الهائلة (والأمر يعتمد على الرئيس) ، كان كادره غير كفء للتحليل الواسع ، وما من أحد واكبه السير . وتنشد مهمات نائب الرئيس عامة المخاطرة بامتياز أميركا أو معانقة المصداقية بالقرارات التي أبرمت تواً .

كانت رحلة جونسون الى فيتنام مثالاً تعليمياً لهذه القواعد . وقبيل الاعلان عن المهمة ، التقى كنيدي بالسناتور ج.وليم فلبرايت ، رئيس لجنة العلاقات الأجنبية لمجلس الشيوخ ، وحذره أن الجنود الأميركان ربما يبعثون الى فيتنام وتايلاند . ووعد السناتور فلبرايت أن يكون متعاوناً ، شريطة أن تطلب الأقطار المعنية هذه المساعدة - كان فلبرايت اعتمالاً أميركياً تقليدياً . وعندما يستفهم راشليو وبالمرستون وبسمارك عن المصلحة الوطنية التي تؤدى ، كان فلبرايت قلقاً ،بنحو أعظم ، عن موقع أميركا الأخلاقي والقانوني .

وتزامن مع رحيل جونسون اصدار أمر لمجلس الأمن القومي ، في الحادي عشر من آيار ، ينادي بمنع الهيمنة الشيوعية على فيتنام الجنوبية كمرمى وطني لأميركا . وتدعو الاستراتيجية الى " خلق مجتمع ديمقراطي متعاظم وحيوي في هذا البلد " ، من خلال الأعمال العسكرية والسياسية والاقتصادية والنفسية السرية . لقد انقلبت الاحتواء الى بناء أمة .

وكتب جونسون أن التهديد الشيوعي ليس بالخطر الأعظم في الهند الصينية - ووصفها " بالمؤقتة ، دون أن يفسر الأسباب - لأن خطرها الجليل في المجاعه والجهل والفقر والمرض . وأبدى جونسون اعجابه بديام لكنه " نـاء " كثيراً عن شعبه وليس لأميركا الخيار الاّ ما بين مساندة ديام والانسحاب عن فيتنام . ويمكن نجدة فيتنام الجنوبية شريطة أن تتقهقر الولايات المتحدة بعجلة وحسم . لم يجل جونسون أنى تقدر الولايات المتحدة على محو المجاعة والفقر والمرض ، في بحر من الزمن يتواءم مع جري حرب العصابات .

وبعد أن نطقت الادارة بهذا المبدأ ، أرغمت على اقامة سياسة . ومع ذلك ، لم تني هذه الادارة منهمكة بنحو من ثلاثة أشهر في أزمة برلين . وفي الوقت الذي قدرت فيه على الاشاحة صوب فيتنام طوراً آخراً ، بتنفس عام ١٩٦١ ، تدهور الموقف الأمني الى قدر لن يهوّنه الا ضرب من التدخل الأميركي العسكري .

ولتطوير سياسة مناسبة زجّ الى فيتنام الجنرال ماكسويل تايلور ، مستشار الرئيس العسكري ، ووات روزتاو ، رئيس هيئة التخطيط السياسي في قسم الدولة . وبخلاف نائب الرئيس ، تمتع تايلور وروزتاو بعضوية حلقة مستشاري كنيدي الداخلية وشاطرا جونسون في آراءهم الصلدة عن سياسة أميركا في فيتنام ، حتى قبيل أن يشدا الرحال من واشنطن . كان المصبا الحقيقي للبعثة في تقرير المدى والأسلوب التي يتحتم على أميركا تعظيم التزامها .

واتضح أن تايلور وروزتاو قد أوصيا بزيادة هائلة في دور أميركا الاستشاري ، يستوعب كل مستويات الادارة الفيتنامية . وكانت سترسل بعثة من ثمانية آلاف جندي ، بدعوى المساعدة في أحكام الفيضانات في دلتا ميكونغ ، حيث تجهز هذه القدرة التعبوية المزعومة بمعدات قتالية تفي بحماية أنفسهم . وكان ثمة توصية أيضاً على زيادة عدد المستشارين المدنيين .

كانت النتيجة مساومة بين أولئك الراغبين في ادارة كنيدي بتوسيم مساهمة أميركا في فيتنام بدور استشاري ، وأولئك المستحبين دخولاً مباشراً للقطعات العسكرية . لقد نأت هذه المدرسة الأخيرة قصيباً عن الاجماع بالمرمى الذي ننشده

القطعات الأميركية المحاربة ، فهم أساءوا عظيماً لهول المعضلة . وقدر وليم بندي ، المعاون الوكيل لوزير الدفاع ، أن دخول نحو من أربعين ألف جندي مقاتل ، كما أوصت هيئة الأركان المشتركة ، ليتمتع بفرصة ٧٠٪ في " استتباب الأمور " . وطالما لا ترى حرب العصابات ملاذاً بين النصر والهزيمة ، ستؤجل " استتباب الأمور " ، بشكل موكد ويقين النكبة ولما تخاطر بمصداقية أميركا العالمية . وأطرد بندي أن ما وصفه ثلاثين بالمائة من الاخفاق ينطوي على مغبة تناظر ما أدركت فرنسا عام ١٩٥٤ . وفي الوقت عينه ، قدر روبرت ماكنمارا ، وزير الدفاع ، وهيئة الأركان المشتركة أن النصر يتطلب تضحية نحو من ٢٠٥ ألف أميركي لو تدخلت هانوي وبكين علناً . واتضح فيما بعد أن هذا الرقم أقل من نصف عدد الجنود الذين اضطرت أميركا لاشراكهم ، نهاية المطاف ، لمقاتلة هانوي وحدها .

وتعكس التسوية الحكومية عادة الأمل الباطني بحصول أمر ما ، في الفترة الفاصلة ، لتفض المعضلة تلقائياً . وفي قضية فيتنام ، ما كان ثمة أساس مرئي لمثل هذا الرجاء . كان على ادارة كنيدي ، بازاء التخمينات الرسمية بين ٤٠ر٠٠٠ رجل للتآزل ومائتين وخمسة آلاف للنصر ، أن تعيد النظر في التزامها بارسال ثمانية آلاف جندي فهو اما غير متناغم بنحو مفجع أو زراعة أولى بذور الدور العظيم الآبد . وعندما تستقطب رجحان سبعين بالمائة لـ " استتباب الأمور " ، كان عليها أن توزن قبالة الأثر العالمي لكارثة كتلك التي عصفت بفرنسا .

وكانت اليد الطولى كلها في صالح التعظيمات الأكثر ، سيما أن كنيدي لم يحور تقييمه لما خاله في خطر . واخبر كادره ، في الرابع عشر من تشرين الثاني

عام ١٩٦١ ، ان رد فعل الولايات المتحدة " للاعتداء " الشيوعي " سيختبر على جانبي الستار الحديد كاجراء لنوايا الادارة وتصميمها " . ولو استحبت أميركا التفاوض على ارسال التعزيزات ، " ستحكم حقيقة بأنها أوهن من لاوس " . وأبى اقتراح تقدم به تشتر باولز وآفريل هاريمان " للتفاوض " من أجل مواثيق جنيف لعام ١٩٥٤ حيز التنفيذ .

ولكن اذا ما رفضت المفاوضات وتحتمت التعزيزات ، لن يغدو بالامكان تفادي الالتزام الأميركي المستديم الا اذا تخلت هانوي عن دعواها . ومع ذلك يتطلب هذا الأمر تعزيزاً هائلاً ، وليس اضافياً ، لو افترضنا حصوله . لم تتأهب أميركا للتصدي بعزم لو كان الخيار الحقيقي التزاماً كاملاً أو تقهقراً ، وان المنحى الأكثر خطراً يتجسد في التصعيد التدريجي .

ومن المؤسف أن يكون التصعيد النهائي وشاح ذلك اليوم . وسيحمل وقف العدوان من التطبيق الكبير للقوة غرضاً واسعاً للحيلولة دون انطلاق التخطيط العسكري مصطحباً قرارات سياسية ، كما حصل عشية الحرب العالمية الأولى . وأدرك الرد النهائي أصلاً في الحرب النووية – المتفاقم زيادة ومتحاشياً المحرقة الكاملة . ومع ذلك لو طبقنا هذا الأمر على حرب العصابات ، سينجب خطر التصعيد الآبد . وتتبطن جميع الالتزامات المحدودة خطر ترجمتها امتناعاً لا حلاً ، فيستجمع الخصم شجاعته على التسلق في سلالم التصعيد .

وسيطالعنا التمعن الدقيق لسفر التأريخ أن قادة هانوي لم يحبطوا بفعل النظريات الاستراتيجية الأميركية المضمرة . أن لهم الحذقة على غلبة التكنولوجيا

الغربية وما كانت الديمقراطية أحد مراميهم أو نظاماً راق لهم . لم تتلق مسرات البناء السلمي اغراءً في محاربين صلّب عودهم عقود من حرب العصابات والانحباس الفرنسي المنفرد . لقد أوقظت صيغة أميركا الاصلاحية امتهانهم وجاهدوا فتكبدوا كل تضحياتهم لاقامة فيتنام موحدة شيوعية تقذف بالأجانب الى خارج فلكها ، فكانت الحرب الثورية حرفتهم الوحيدة . ولو جابت أميركا أنحاء المعمورة ، لن تلقى خصماً أشد مراساً من فيتنام .

لقد ناورت أميركا بنفسها الى مبوأ خيره مأزق ، طبقاً لتكهن بندي المتطلب أربعين ألفاً من الجنود ، التي هي أقل بكثير من الحاجة . وعندما تبوأ كنيدي منصبه ، كان عدد الكادر الأميركي العسكري في فيتنام بنحو من تسعمائة شخص وارتفع الى ١٦٤ر٣ بانتهاء عام ١٩٦١ . وعندما أغتيل كنيدي في عام ١٩٦٣ ، بلغ الرقم ٢٦٣ر١٦ والكثير في طريقهم . بلغ عدد الأميركان القتلى في عام ١٩٦٠ خمسة ، وارتفع الى ستة عشر في عام ١٩٦١ وبلغ مائة وثلاثة وعشرين في عام ١٩٦٣ ، وتجاوز المائتين بحلول عام ١٩٦٤ . ومع ذلك لم يتحسن الموقف العسكري بنحو عظيم .

وكلما توسع دور أميركا في فيتنام الجنوبية ، شددت من أزر الاصلاح السياسي . بقدر ما أصرت واشنطن على التغيير الداخلي ، أبصمت الحرب بالطابع الأميركي . أكد كنيدي ، في استعراضه الدفاعي في الثامن والعشرين من آذار عام ١٩٦١ ، على مغزاه المركزي ، بأن أميركا ربما تجهض ببطء على الأطراف ، بصرف النظر عن قوة أسلحتها بفعل " القمع والتسلل والتوسط والعدوان غير المباشر أو غير الصريح والثورة الداخلية والابتزاز الدبلوماسي وحرب

العصابات – الأخطار التي لا يغلبها الا الاصلاح السياسي والاجتماعي الذي يقدر الضحايا الأشداء على معاونة أنفسهم .

ووضعت ادارة كنيدي في بديهياتها ما أتضح أنها احدى معضلات الهند الصينية المستعصية : أنجب الاصلاح السياسي والنصر العسكري المتزامنان حلقة مفرغة . كانت العصابات ، بحدود عظيمة ، في موضع يقدرها على تقرير هول الحرب ومستوى الأمن الذي كان مستقلاً تماماً عن معدل الاصلاح . وكلما استفحلت الفوضى ، رجحت حكومة سيغون في ظلمها . وطالما عدت واشنطن نجاحات العصابات مآل بعضه عن الاصلاح المتأخر ، كان بميسور هانوي المراوغة بأسلوب يهوّل ضغوط أميركا على حكومة سيغون التي تسعى لتقويضها . لقد تفخخت حكومة ديام بين العقائد المتعصبة في هانوي ومثاليي واشنطن الغر ، فآثرت التعنت بموقفها ريثما بركت في موقعها نهاية المطاف .

وسيجد أي قائد عسكري أقل تأطرة من ديام بالعادات الصينية أن من الخذلان بناء ديمقراطية تعددية في خضم حرب عصابات وفي مجتمع مزقته الأديان والطوائف والارهاط . لقد تجذرت هوة مصداقية في كامل المغامرة الأميركية ، ليس بباعث لتضليل القادة الأميركان لشعبهم ، ولكن مرده الى انخداع هؤلاء القادة بقدراتهم ، بما فيها سهولة نقل مؤسساتهم المألوفة الى الثقافات الأخرى . كانت ادارة كنيدي توطب ، في الأساس ، فرضيات واشنطن . وطالما آمن ولسون بنقل مفاهيم أميركا عن الدبلوماسية والديمقراطية الى أوروبا ضمن نقاطه الأربع عشرة ، سعت ادارة كنيدي الى منح الفيتناميين القواعد الأميركية ،

جوهراً ، ليحكموا أنفسهم . فلو أقلع الطغاة في الجنوب وحل محلهم ديمقراطيون
طيبون ، سيخمد الصراع الضارب بالهند الصينية .

وسعت كل ادارة أميركية جديدة لزيادة معونتها الى شرط فيتنام على
الاصلاح . أقدم ايزنهاور على هذا الفعل في عام ١٩٥٤ ، وأصر عليه كنيدي
بنحو أعظم في عام ١٩٦١ ، مزاوجاً بين المؤازرة المتعاظمة كثيراً ومنح أميركا
دوراً استشارياً في كل أنطقة الحكومة . ومن المتكهن أن يأبى ديام ذلك ، فنادراً
ما يرى قادة صراع الاستقلال حسنة في الوصاية . وقلب السناتور مانسفيلد ،
الذي زار فيتنام عام ١٩٦٢ ، حكمه الأول ، واتفق أن حكومة ديام " تلوح نائية
" كثيراً ، وليست دانية ، من تحقيق الحكومة المسؤولة والمستجيبة للشعب " .

وذا حكم على جانب الحق ، ولكن القضية الأساس الى أي مدى تسببت
هذه الظروف باضطرابات الحكومة ، اهي بباعث من الفجوة الحضارية بين أميركا
وفيتنام ، أم الى عبث العصابات . وتدهورت العلاقات بين الادارة وديام ، أبان
عام ١٩٦٣ ، بينما انقلبت عدائية أوساط الاعلام التي تنقل اخبارها من سيغون ،
بعد أن كانت مؤيدة لمساهمة أميركا حتى ذلك الردح . لم تشكك الانتقادات
بمرامي أميركا ، كما أقدمت عليه بعدئذ ، ولكن في سهولة تصيير فيتنام الجنوبية
ديمقراطية غير شيوعية ، بالمساهمة مع قائد قامع كديام . لقد راود القلق ديام
حتى في اعتبار التسوية مع هانوي - المنحى عينه الذي سيدان لرفضه رئيس فيتنام
التالي ، نغيان فان ثيي.

وطرأ الخصام الأخير مع سيغون عندما نشب قتال بين بوذيي فيتنام الجنوبية
وديام ، الذي أصدرت حكومته مرسوماً يحرم رفع بيارق الطوائف والتجمعات
الدينية والأحزاب السياسية . وعملاً بالأمر ، فتح الجنود نيرانهم على المتظاهرين
البوذيين المحتجين فأردوا بضعة منهم قتلى ، في الثامن من آيار عام ١٩٦٣ . وكان
للمحتجين مظالم حقيقية نقلتها بسرعة أوساط الاعلام - بالرغم من أن انعدام
الديمقراطية ما كانت بمنشد لهم . وأبى البوذيون الافصاح عن أيما شروط ربما
يستجيب لها ديام . وفي نهاية المطاف ، تعلق الأمر بالسلطة أكثر من
الديمقراطية . ورفضت حكومة ديان ، المشلولة بفعل حرب العصابات وخاصة
قصوراتها ، طرح الامتيازات . وضاعفت أميركا من ضغوطها على ديام ليقدم
على هذا الفعيل وحثته على تنحية أخيه ، نغو دن نهو ، المسؤول عن قوات
الأمن . وترجم ديام هذه الخطوة كلعبة قوة تتركه تحت رحمة أعدائه . وطرأ
الخرق الأخير في الحادي والعشرين من آب عندما قصف عملاء نهو عدداً في
المعابد وأسروا ألفاً وأربعمائة راهباً .

وفي الرابع والعشرين من آب تلقى السفير هنري كابوت لوج أمراً بمطالبة
نهو على الرحيل وتحذير ديام أن الولايات المتحدة " ستواجه امكانية لا يستطيع
ديام نفسه الصبر عليها " لو أبى هذا الأمر . وأعلم قادة سيغون العسكريون ،
بمذكرة رسمية ، ان مصير المعونة الأميركية ليرتكن الى ابعاد نهو ، الأمر الذي فقهه
محاورو لوج الفيتناميون كفحوى بوجوب الاطاحة بديام . وكرر كنيدي
وماكنمارا المطالب عينها ، جوهراً ، بشكل علني . وأعلمت العصابات ، كي لا
تخفق في تقييمها لهذا التلميح ، أن الولايات المتحدة ستمدهم " بالمعونة المباشرة

في أية فترة بينيه عندما تتعطل مكننة الحكومة المركزية " . وسلخ هذا الأمر من جنرالات فيتنام الجنوبية شهرين ليستجمعوا شجاعتهم ويعملوا بدوافع من حليفهم المصر . وفي نهاية المطاف أطاحوا بديام ، في الأول من تشرين الثاني ، وقتلوه هو ونهو .

لقد أفرغت أميركا ، بتشجيع الاطاحة بديام ، مساهمتها في فيتنام بقالب من الفولاذ . ان كل حرب ثورية لتسعى في النهاية الى الشرعية الحكومية وأن دق أسفين فيها لهو مبغى العصابات الأول . وحملت الاطاحة بديام هذا الهدف الى هانوي مجاناً ، وأثرت تنحيته في كل وشيجة للادارة المدنية حتى على صعيد القرية ، كمخاض لطرازه الحكومي الاقطاعي . وعلى السلطة الآن أن تضرب لها جذوراً أخرى في القاع . ويطالعنا التاريخ بهذا القانون الصلد للثورات : كلما اشتد الاجهاز على السلطة الحالية ، تعاظم توكأ خلفاءها على القوة المجردة لينهضوا بذواتهم . ولقاء ذلك تتضمن الشرعية في النهاية اذناً للسلطة من دون القسر : فغيابها يحيل كل صراع اختباراً للقوة . وقبيل الانقلاب ، نبضت بالحياة ، نظرياً في أقل احتمال ، احتمالية عدم انخراط أميركا بشكل مباشر في العمليات العسكرية ، بالقدر مثيله عندما قفل ايزنهاور في شفا ديان بيان فو قبل عقد تقريباً . وبعد أن برر الانقلاب كتيسير لمواصلة أكثر فاعلية للحرب ، تبدد الانسحاب كخيار سياسي .

لم يوحد الانقلاب الشعب القابع وراء الجنرالات ، كما كانت أميركا ترجو له حدثاً . وطرأ الأمر المناقض لما استبشرت به النيويورك تايمز بفرصة الانقلاب " للاتيان على غزوات الشيوعيين عبر جنوب شرق آسيا " . لقد أطاح

الانقلاب بالهيكل الذي شيد في نحو ينيف على العقد ، مخلفاً في محله فئة من الجنرالات المتناحرة دون خبرة سياسية .

وفي عام ١٩٦٤ وحده ، طرأت سبعة تغييرات على الحكومة لم يأت أي منها بسيماء الديمقراطية ، وكانت أجمعها مخاضات الانقلابات بنمط أو آخر . وافتقر خلفة ديام ، غير المتمتعين بامتيازه الوطني وشخصيته كأب للطراز الصيني لخياراتهم ما خلا تسليم الأميركان مهمة الحرب . وفي أعقاب الاطاحة بديام ، أثير الجدل عدلاً " ان القضية لا تتعلق بكيفية تشجيع نظام في فيتنام الجنوبية ، بدعم أميركا ، ولكن في ايجاد أحد يواكبها في الصراع ضد الشيوعيين الطربين " .

واغتنم سماسرة السياسة في هانوي فرصتهم حالاً وأكد اجتماع للجنة مركزية للحزب الشيوعي ، عقد في كانون الأول عام ١٩٦٣ ، على استراتيجية جديدة : تعزيز وحدات العصابات والتعجيل في التسلل الى الجنوب . والأسمى من ذلك كله ، ستدخل وحدات نظامية للفيتناميين الشماليين : " أزف الوقت للشماليين على تعظيم معونتهم للجنوبيين ، وأن يمارسوا دوراً أكبر كقاعدة ثورية للأمة كلها " . وعقيب ذلك ، شرعت فرقة فيتنام الشمالية النظامية ، ٣٢٥ ، بالزحف الى الجنوب . وقبيل الانقلاب ، شمل اكثر التسلل من الشمال الفيتناميين الجنوبيين حتى عام ١٩٥٤ ، وأطرّد ، غداتها عدد الشماليين ، بنحو متصاعد ليمثل العدد كله تقريباً ، بعد هجوم تت في عام ١٩٦٨ . لقد نفذت سهام الطرفين بدخول وحدات جيش فيتنام الشمالية النظامية .

وعقيب الاطاحة بديام ، أغتيل كنيدي وترجم الرئيس الجديد ، لندون باينس جونسون ، تدخل وحدات فيتنام الشمالية النظامية كقضية تقليدية للاعتداء الصريح ٠ والتباين جلي في توظيب هانوي استراتيجية ، بينما رزحت واشنطن تحت وطأة نظريات متضاربة ، لم توكد جميعها الى ما ستؤول الأمور اليه ٠ وواجهت أميركا ، النائسة بين الشوق لنصر غير عسكري وفألها كبادئة عسكرية ، حيرة محزنة ٠ وفي الحادي والعشرين من كانون الأول عام ١٩٦٣ ، كتب ماكنمارا الى الرئيس الجديد يعلمه باضطراب الموقف العسكري في فيتنام ٠ وما عاد بميسور أميركا الاشاحة عن الخيار المضمر : التصعيد المثير لدورها العسكري أو انهيار فيتنام الجنوبية ٠ لقد خشيت ادارة كنيدي من دخول الحرب الى جانب الحليف غير الديمقراطي ، بينما اعترى القلق حكومة جونسون من هجران حكومة سيغون الجديدة غير الديمقراطية ، أكثر من مساهمتها في الحرب ٠

ولو استرجعنا شريط الأحداث ، سنرى أن آخر فرصة سنحت لأميركا بالانسحاب ، بثمن يحتمل وان باهض ، كانت قبيل الاطاحة بديام أو بعيده تماماً ٠ كانت ادارة كنيدي مصيبة بتقديرها الخسارة ، بجانب ديام ، في حين أوهمت ادارة جونسون نفسها بالاعتقاد أن النصر بجانب خليفته ٠ وفي ضوء ما أردف الانقلاب من أحداث ، كان من السهل لأميركا الانفكاك عن الأمر ، ولما تدع الانقلاب يطرأ تلقائياً بفعل هفوات ديام ، أو في أقل احتمال ، بالاشاحة عن المفاوضات التي اتهمت بتخطيطها مع هانوي ٠ لقد أصاب كنيدي ، بشكل تحليلي ، عندما أبى مثل هذه الخطة بدعوى أنها ستؤول الى تبوأ الشيوعيين على

الموقف - كانت المعضلة في تقاعس أميركا عن مواجهة مستترات العلاج أو الاذعان للنتيجة المحتملة ، لو تركت الأمور تشق مجراها الخاص ٠

وحاجج بعض من أعضاء ادارة كنيدي السابقين أن الرئيس* قد صبا ، غداة انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٤ ، على سحب القطعات الأميركية التي لم تني تتعاظم عدداً ٠ ونفى آخرون ، ذوو مركز عال ، هذا الأمر ٠ وكل ما يستطيع المرء قوله في عزم كنيدي الأخير على الانسحاب ، أن أية تقوية أخرى لفيتنام تعظم خيارتها وتبهظ الاحتواء والتقهقر ٠ وفي كل شهر ينقضي ، تكثر أخطار أميركا عسكرياً بداية المطاف وتصيب بعيدها موقفها الدولي أيضاً ٠

وعسر اغتيال كنيدي كثيراً انفلات أميركا من فيتنام ٠ فلو استشعر كنيدي حقاً قبس الادراك في انهماك أميركا بمنحى مجزع ، فقد عكس خاصة قراره ، في حين أقسر جونسون ، من جانب آخر ، على الالقاء بالسياسة الواضحة لسلف مبجل مصروع ٠ وهذه المسألة على جانب من التميز لأن جميع مستشاريه الذين أرثهم من كنيدي لم يقترحوا التوصية بالانفكاك (باستثناء جورج بول ، نائب وزير الدفاع ، الذي لم يكن من الحلقة الداخلية) ٠ لقد حمل هذا الأمر قائداً ذا معرفة ورباطة جأش عظيمة حقاً ليضطلع بالتقهقر على هذا القدر من الكبر بعيد تولية المنصب مباشرة ٠ وعندما مس الأمر السياسة الخارجية ، كان جونسون غير ثاق بنفسه كثيراً ٠

* يتعلق السياق هنا بالرئيس جونسون ٠

واذا ما تذكرنا ما تصرم من أحداث ، سنرى أن الرئيس الجديد قد دلى أجود دلوه ليضطلع بتحليل عن مدى ادراك المرامي العسكرية والسياسية التي كستها أميركا بالكثير ، بأي الوسائل والأمد الزمني - وفي الحق التحقيق في صحة الفرضيات التي أنجبت هذه الالتزامات . وبصرف النظر عن عثور جونسون على معاونين متطورين ، أرثهم من كنيدي واستمالوا بنحو خاص (باستثناء جورج بول أيضاً) للظفر بحرب فيتنام ، فثمة شك أن النتيجة ستتباين عظيماً لو شرع بهذا التحليل . كانت كوادر قسم الدفاع والبيت الأبيض نهمة في تحليلها ، فهم رجال بألباب غير اعتيادية وكل ما افتقروه معايير لتقدير تحد تباين خبرة أميركا وعقيدتها .

كان الدافع الأول لانخراط أميركا الخشيه ان يفضي فقدان فيتنام الى انهيار آسيا غير الشيوعية وتكيف اليابان مع الشيوعية . وبمفردات هذا التحليل ، قاتلت أميركا ، في ذودها عن فيتنام لخاصتها بصرف النظر أن فيتنام الجنوبية غير ديمقراطية أو ستصير كذلك . ومع ذلك يتسم هذا التحليل بالجيوسياسية المفرطة ومائل بالقوة لصالح الأميركيين متوشحاً بنحو مباشر المثالية الولسونية . وحاولت كل الادارات مهمة مزدوجة ، عصي تحقيق كل شطر منها لوحده : دحر جيش العصابات بقواعد آمنة حول محيط واسع والاتيان بالديمقراطية لمجتمع لم يتطبع على التعددية .

وفي بوتقة فيتنام ، تلقنت أميركا المديات التي تلاقي حتى أقدس المعتقدات ، فأرغمت عن تفقه الصدع الناشيء بين القوة والمبدأ . وطالما رغبت أميركا ، بدقة ، عن الاذعان للعبر المتناقضة مع تجربتها التأريخية ، ألفت أن خفض خسائرها

لمستعص تماماً . وهكذا كان الألم المقترن بهذين الاحباطين مخاضاً لخير مناقبها لاشرها . ضاعت أميركات ، بفعل رفضها للمنفعة الوطنية كأساس السياسة الخارجية ، في يم المثالية المتلاطمة .

وفي آب عام ١٩٦٤ ، أفضى هجوم فيتنامي مزعوم على مادوكس ، طرادة أميركية ، الى ضربة أميركية انتقامية ضد كوريا الشمالية ، صادق عليها مجلس الشيوخ بشكل اجماعي تقريباً عبر ما يسمى **قرار خليج تونكين** . واستخدم هذا القرار لتبرير الغارات الجوية الانتقامية قبل بضعة أشهر . وفي شباط عام ١٩٦٥ ، أدى هجوم على مبنى السفير الأميركي في مدينة السنترال هايلاند في بليكو الى غارة أميركية ثأرية على فيتنام الشمالية ، انقلب على حين غرة الى حملة قصف منتظمة ، باسمها الرمزي " الرعد العارم " . وهكذا اضطلعت وحدات القتال الأميركية عام ١٩٦٥ ، بالتزام كامل وأطرّد موجود العدد الأميركي ، ليبلغ خمسمائة وثلاثة وأربعين ألفاً في مستهل عام ١٩٦٩ .

وهكذا أصبح شطراً من الجدل الاذع حول فيتنام قضية مدى اخلاص ادارة جونسون الكامل مع الشعب الأميركي في قضية الاعتداء على **مادوكس** . وجردت هذه المسألة الثقة من قرار خليج تونكين ومساهمة أميركا في الصراع . ويقيناً أن قرار تونكين لم يستند لحضور الحقائق كاملها ، بحيث أربك حتى القتال ، ولم يكن عاملاً حاسماً في التزام أميركا بالقتال البري في فيتنام . أنه وثبة قصيرة على امتداد درب انقادت به أميركا الى عين المصير ، بعد أن أدلت بمفاهيم كل شخصياتها القائدة .

ان الوسائل التي حققت قرار تونكين لن تستطيع العمل في يومنا هذا . وفي الوقت عينه لم تكن مسالك جونسون وصراحته على تباين عظيم مع ما لفرانكو ديلانو روزفلت عندما شفا بأميركا صوب ركوب الحرب العالمية الثانية - مثلاً تعليل روزفلت غير المخلص كلية لضرب المدمرة **كرير** ، ذريعة انخراط أميركا في حرب برية في الأطلسي عام ١٩٤١ . وفي كلا الحالتين ، كان الرئيس يشخص فردياً ما لا تصبر عليه اميركا : نصر المانيا في الأربعينيات ، واحتلال الهند الصينية في الستينيات . كان الرئيسان متأهبين لاقعاد قوات بلدهما العسكرية في طريق الألم والرد لو أوجعهم هذا الألم حقاً ، كما كان مرجحاً . وفي الحالتين ، تخطى قرار الحرب الأخير ، باعتباراته ، الأحداث المباشرة بنحو قصيّ .

لم يتعلق كابوس فيتنام بالسبيل الذي ولجت به أميركا الحرب ، ولكن عن الباعث في قدومها على ذلك من دون تقييم أمعن للتكاليف المرجحة والمآلات الكامنة . وعلى الأمة الاّ تزج نصف مليون من شبابها الى قارة نائية ، أو المخاطرة بموقعها الدولي ولحمتها الداخلية مالم يصف قادتها مباغيهم السياسية ويعرضون استراتيجية واقعية لادراكها - كما فعلها الرئيس بوش بعدئذ في حرب الخليج . كان على أميركا أن تساءل نفسها سؤالين : أمن الممكن اقامة ديمقراطية وتحقيق نصر عسكري في وقت متزامن تقريباً ؟ والأحرج ، هل تبرر الثمار النفقات ؟ لقد ضمن الرؤساء أو مستشارو الرؤساء ، الذين الزموا أميركا بحرب برية في فيتنام ، اجابة مؤكدة .

ويقتضي التوجه السليم لحرب العصابات مزاوجة دقيقة بين الاستراتيجيات العسكرية والسياسية . ومع ذلك ، كان قادة أميركا العسكريون كارهين دوماً

تعشيق المصابي السياسية بالعسكرية ، فكانت الوسائل طوال حرب فيتنام غير وافية بالغايات المنشودة ولا ينتهي الى مثل هذه الغايات الا الأخطار التي ستصوم أميركا عن ركوبها .

من بين أولى عبر حرب كوريا أن الحروب المبتورة المتمادية قد شتت اجماع الأميركيين في الداخل . الا أن واشنطن ، وكما يبدو ، قد أنست الدرس المناقض : مصدر الاحباط في كوريا هو زحف ماك آرثر صوب يالو وطلبه النصر الشامل . وفي ظل هذا ، ترجمت نتيجة كوريا طوراً آخراً الى نجاح كبح الظفر الصيني . وأختطت أميركا باضطلاعها في فيتنام هدفاً مماثلاً : توضح للفيتناميين الشماليين ، من دون تدخل الصين ، الا يتقلدوا زمام فيتنام الجنوبية وأن خيارهم اليتيم في التفاوض . ولكن تفاوض لايما غايات - خاصة في ضوء عدو عادل التسوية بالهزيمة ؟ لقد سها القادة الأميركان أن السنتين الآخرتين في حرب كوريا وحقبة ماكارثي قد أجزعت تقريباً المجتمع الأميركي جراء التمأزق المتمادي .

ونظرياً ثمة استراتيجيتان لهما الفرصة في الهيمنة على حرب عصابات . واحداها دفاعية ، من حيث المظهر ، وتسعى لتجريد الخصم من هيمنته على السكان . وتقتضي هذه الاستراتيجية اقامة أمن كامل لكفاية من السكان بحيث لا تتناظر مكاسب العصابات من جعبة البقية ، مع قاعدة سياسية محكمة . وتلوح مثل هذه الاستراتيجية مختمرة في فكر الجنرال ماكسويل تايلور عندما أوصى بتشييد سلسلة من المحوطات تحميها القطعات الأميركية ، في وقت سعى فيه الفيتناميون الجنوبيون للحيلولة دون تعزيز منطقة شيوعية واضحة معالمها من دون المحاولة للامساك بكل مقاطعة أخيرة ليل نهار . وترمي الاستراتيجية الثانية للهجوم على

أهداف تحصنها العصابات كالمقدسات ومستودعات التموين والقواعد الداخلية ٠ وربما يتمخض عن هذه الاستراتيجية حرب استنزاف سريعة نسبياً ، جاهد الأميركان اليها جهاد اليائسين ، وأرغموا نتيجة تفاوضية ٠

وما أنشلّت في فعله الاستراتيجية التي تبنتها أميركا حقيقة : سراب اقامة مائة بالمائة من الأمن في كل حدب وصوب في البلد ، والسعي لدك العصابات بعمليات البحث والتدمير ٠ ومهما عظمت قوة أميركا المبعوثة ، لن تبرهن كفاية حيال عدو تكمن خطوط امداداته خارج البلاد ويتمتع بمقدسات كثيرة وارادة شرسة ٠ وبتصرم عام ١٩٦٦ أعلم فام فان دونغ ، رئيس وزراء فيتنام الشماليه ، هارسون سالزبري ، المحرر في النيويورك تايمز ، أن الولايات المتحدة ستخسر في نهاية المطاف ، بالرغم من قوتها العسكرية الأعظم ، لأن الفيتناميين أكثر تأهباً للتضحية من الأميركان من أجل دولتهم ٠ انه لمصيب في تقييمه ٠

وأبى جونسون ، غاية الاباء ، أي " توسع " للحرب ٠ وحملت واشنطن نفسها على الاقتناع أن دول الهند الصينية الأربع كيانات منفصلة ، بالرغم من تعامل الشيوعيين معها كمسرح واحد في فترة عقدين من الزمان ، ووجهوا سياسة منسقة تتعلق بها جميعاً ٠ وعلاوة لذلك ، انبرت واشنطن ، بفعل تقييمها للمقام الدولي الكامل ، جد منهمكة بتدخل الصين ، غافلة عن تصريح لن بياو عن اعتصام الجيوش الصينية في المسير خارجاً ، وتأكيد هذا البيان ، مرة أخرى ، بلسان ماو الى ادغارسنو ، الصحفي الأميركي المتعاطف مع شيوعيي الصين : لقد أسرى ماو الى سنو أن الصين لا تحوز جيوشاً خارج حدودها ولا ترنو الى مقاتلة أي طرف ما لم تهاجم خاصة أراضيها ٠

وهكذا نقدت أميركا في حربين منفصلتين سلخا عقداً ونصف عقد ثمن عدم حملها البيانات الصينية محمل الجدية : ففي كوريا تجاهلت التحذيرات الصينية وزحفت صوب يالو باعثة الصينيين على التدخل ٠ وفي فيتنام تغاضت عن التأكيدات الصينية في عدم التدخل ، فأبت أميركا الاستراتيجية الوحيدة التي ربما تدر النصر ٠

وحيال قلق جونسون من تدخل الصين وعزمه على ابقاء خيار رأب الصدع مع الاتحاد السوفيتي وشوقه الى استتباب اجماع البرنامج الداخلي لمجتمعه العظيم ، اصطفى الاجراءات الوسطى التي خاطرت بمقام أميركا العالمي دون تحقيق الغايات المنشودة ٠ ولم تستطع السياسة الأميركية الاّ استسخاف أناها عندما حاولت التوفيق بين الاجهاز على مؤامرة عالمية وتفادي تناحر كوني ٠

ان الاستنزاف لن يدلي دلوه طالما تستطيع العصابات اصطفاء مكمن القتال وموعده ٠ وبرهنت العمليات الجوية ضد فيتنام الشمالية ، القاصدة اصابة الم موجع مطرد فيها ، انها مشوهة طالما كان نظام النقل هناك جد بدائي بحيث لا يعطل ، وانها غير ضرورية تماماً من دون أن تخدم هدف موجع ٠ لقد سخر التمأزل غرض هانوي – خاصة ذلك التأزل المقتصر على أراضي فيتنام الجنوبية والمكبد أميركا خسائر فادحة ٠ وأضاءت كل هذه الاخفاقات الدرب لولادة معارضة متعاظمة للحرب في أميركا – المعارضة التي صبت أولاً الى الجهر على قطع حملة القصف بالذات ، المزعم أنها تذكر هانوي بعجزها عن الظفر بالحرب ٠

كانت واشنطن تحاول برهنة عقم الاعتداء وان حرب العصابات ليست بموجة المستقبل . وما أخفقت في فهمه كيفية حساب خصمها للكلف والمغانم . واعتقد جونسون أنه منفذه للافصاح عن التعديل وطمأنة هانوي ثانية وعرض التسوية . ومع ذلك شجعت كل هذه الكيفيات هانوي على الاصرار ، وأن تلقن واشنطن أنها لا تجازي التعديل . ووضح جونسون غايات أميركا :

[اننا لا نسعى الى محق فيتنام الشمالية ، ولا نقصد تغيير حكومتها أو اقامة قواعد دائمية على ثرى فيتنام الجنوبية ..... فنحن على تلك البقعة لنبعد نيران شيوعيي فيتنام الشمالية من الانطلاق الى جيرانهم ..... ونجلي أن حرب العصابات ، التي تشعل فتيلها أمة على أختها ، غير ذات جدوى ..... علينا أن نواصل مصابانا ريثما يدرك الشيوعيون في فيتنام الشمالية بهظ ثمن العدوان ..... وأما يتفقوا على تسوية سلمية أو يوقفوا اطلاق النيران] .

وشاء أن يعي القادة الشيوعيون :

[..... ان اللحظة التي تدركون في غضونها تعذر النصر وتغمدون أسلحتكم ، ستجدون أننا متأهبون وراغبون في مبادلتكم الأمر ...... فسلام مشرف في فيتنام ليروق لنا . ان في أيديكم مفتاح السلام وأنتم من يديره حسب] .

ولا يستحق جونسون البعض والسخف الذي أتت به مثل هذه المناشدات ، لأنه كان يرمي الى توكيد الحقائق الأميركية ، كرة أخرى ، بيد أنه هو ومجتمعه قد

اخفقا في فهم خصم ألفى هذه التطمينات استهزائية ولاح له تعريف أميركا بالتسوية استسلاماً لصراع طوال الحياة .

لم يفقه قادة هانوي الأجلاد معنى عملياً في مفهوم الثبات . لقد سلخوا نضارة شبابهم في محاربة الفرنسيين أولاً ، ثم بوجه قوة عظمى . وجلبوا الى شعبهم معاناة تفوق التصديق ، باسم الشيوعية . وارث قادة هانوي الاّ يدعوا " جيرانهم لشأنهم " . وذكر بسمارك ذات مرة أن وحدة المانيا لا تتأتى بالحوار ، ولكن " بالدم والحديد " ، وذا رأي هانوي بدقة عن وحدة فيتنام .

وأستمر الأميركان من كل الطوائف على التماس هانوي في المضالعة في نتيجة ديمقراطية ما وأضنوا أدمغتهم في ابرام خطط لانتخابات عملية . ومع ذلك لم تستقطب هانوي جميع أعمدة الفكر الأميركي عن الشؤون الدولية ، بأدنى صورة ما خلا أنها أدوات لارباك الأميركيين . وعندما أقامت هانوي واحدة من أصرم دكتاتوريات العالم ، لم تقبل لجنتها التنفيذية أن تغدو ببساطه حزباً واحداً بين كثر في الجنوب . لم تتمتع هانوي بحافز لاغماد القوة ، وكان لها أن تنتصر طالما لا تفقد شيئاً ويقينا أنها ما كانت تضيع أمراً - فاستراتيجية أميركا الرامية بوضوح الى التأزل قد نبذت خسارة هانوي . وتناهى الى اذان صماء عرض جونسون لبرنامج اعادة البناء الشامل الذي شرع مصراعيه حتى لفيتنام الشمالية . لقد رامت هانوي النصر لا التطور وعملت بعنادها المتميز كأن الحاجة للاصطفاء بين الأمرين قد توارت .

وعندما انقلب تيار الشعب الأميركي بوجه الحرب ، صبّ نقاد جونسون لومهم عليه بنحو لاذع بسبب التأزل الدبلوماسي . لقد أضاع هؤلاء قصيدهم عندما تبطنت هذه التهم تقاعس جونسون عن التفاوض . كانت لهفة جونسون الى التفاوض محسوسة حتى مبلغة الخذلان الذاتي . وحمل هذا الأمر هانوي على الاقتناع أن المماطلة قد تسبغ عليها عروض سخية . أمر جونسون فترة قصف ، واحدة تلو الأخرى (ذكر أنها ست عشرة في مذكراته) ، بحيث لم يخلف أدنى بادرة من الشك أن الولايات المتحدة ستنقد مقابله ثمناً مكافئاً للدخول الى المفاوضات : ولهانوي الحافز على تبهيض هذا المبلغ أنى قدرت .

كنت عاكفاً على احدى المبادرات التي أجلت شوق ادارة جونسون للتفاوض ومهارة هانوي في تسخير هذا الشوق لخدمة غاياتها . لقد نما انهماكي بفيتنام تدريجياً ، حيث كنت أبان الخمسينيات منصرفاً بتفكيري السياسي صوب أوروبا والاستراتيجية النووية . وعجت ادارة كنيدي بكثير من الأفراد الذين أكن لهم اعجاباً ، وكنت ميالاً كثيراً صوب جهدها في الهند الصينية دون اكساء القضية بعظيم تفكير . وبدأت جدياً بالتفكير بفيتنام بعد ثلاث زيارات لهذا البلد ، عامي ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، بصفتي مستشار سلام للسفير لوج . منحتني هذه المناسبات الفرصة على التنقل الى مقاطعات فيتنام الجنوبية واجراء المناقشات مع ما يقال لهم صحفيين اقليميين للسفارة الأميركية – فريق ضباط خدمة أجانب شباب لهم والقدرة العجيبة ، ومبثوثين في الأقاليم المحيطة بالبلد . وأعلمتني هذه الزيارات ان الحرب لن تظفر بالاستراتيجية المهيمنة ، وتحتاج أميركا لنجاة أناها بالتفاوض

مع هانوي بالرغم من عدم اعتمال ذاكرتي بأفكار دقيقة عن كنه هذه المفاوضات .

وفي صيف عام ١٩٦٧ ، حضرت احدى جلسات مؤتمرات العلماء المهتمين بنزع السلاح النووي . وتقدم اليّ باقتراح غريب اثنان من المشاركين ، الذين سمعا بزيارتي الى الهند الصينية . لقد تعارف ريموند ادبراك ، مسؤول في منظمة الصحة العالمية ، الى هوشي مينه عام ١٩٤٦ عندما لم يبرح القائد الفيتنامي الشيوعي منزله في باريس ابان مفاوضات مع فرنسا . عرض اوبراك زيارة هانوي ، برفقة زميله هوبرت ماركوفيش ، العالم في حركة السلام ، ليناشدا هوشي مينه في موضوع التفاوض . وأعلمت بالأمر باندي الذي أمسى مساعد وزير الخارجية ، ووزير الدفاع ، مكنامارا . وافقا على هذه الزيارة شريطة أن يرحل العالمان على عاتقهما والاّ يوحيان بتمثيل آراء أميركية رسمية .

شد أوبراك وماركوفيش الرحال الى هانوي وأستقبلهما هوشي مينه . وبعد أن أدلى منه بادانة تقليدية " لعدوان " أميركا ، المح برغبته للتفاوض ، شريطة أن تعزف أميركا عن قصف فيتنام الشمالية . وعين مي فان بو ، ممثل هانوي الدبلوماسي في باريس ، كحلقة اتصال رسمية .

أردف هذا الأمر عدة عمليات تبادلية بوسائل معقدة وغير دبلوماسية قصداً . وطالما لم تتصل هانوي مباشرة بواشنطن قبيل وقف القصف ، عملت أنا ، المواطن الخاص ، وسيطاً . وحتى أن هانوي ، الحاجزة آخر ورقة تفاوضية لها بالذات ، لم تخول ممثلها للتعامل حتى مع أميركي غير رسمي . وهكذا كانت

الرسائل تنتقل اليّ من واشنطن ، عادة من وزير الدفاع ، وأسلمها بدوري الى اثنين من الفرنسيين الذين ينقلاها الى مي فان بو ، مطعمة بأية توضيحات لي التخويل على اضافتها . كان مكنامارا متلهفاً لانهاء الحرب واستغورني مراراً ليستبط من محاوريي المرئيين تلميحاً مهما كان مائلاً يقدره على تنمية سبب للنتيجة المتفاوضية .

وحضرت شطراً من الاجتماع بين الرئيس جونسون ومستشاريه ، الذي أعد فيه العرض الأميركي الأخير . كانت تجربة سوداوية حيث تصدت كل غرائز جونسون بجلاء الى وقف القصف . كانت لجونسون ، غير المتوكد بسطوته في الشؤون الخارجية ، خلفية كافية في السياسة ليشكك في منفعة الشروع بمفاوضات ذات امتياز منفرد . الا أنه كان يائساً من وضع أوزار الحرب ومبقوراً بضغوط النقاد في الداخل وراغباً عن اقحام المستشارين التواقين الى محاولة الدبلوماسية . لقد قطف جونسون ثمرته ، نهاية المطاف ، وكانت الخاتمة **صيغة سان انتونيو** ، التي ابتكرت بعد أن برحت القاعة ، وعرضها جونسون في خطاب له في تلك المدينة ، في التاسع والعشرين من أيلول عام ١٩٦٧ :

[يطيب للولايات المتحدة أن تعتصم عن كل الضربات الجوية والبحرية ضد فيتنام الشمالية عندما يؤدي هذا الأمر ، بفاعلية ، الى حوارات مثمرة . ويقيناً اننا نفترض ألاّ تغتنم فيتنام الشمالية وقف القصف أو تحديده ، ولما تتقدم المحاورات] .

كانت صيغة سان أنتونيو احدى نقاط التحول الحاسمة في الحرب . عرضت أميركا وقف العمل العسكري ضد فيتنام الشمالية – الزام دقيق – لقاء حوارات " مثمرة " ، طالما لم تغتنم هانوي فرصة وقف القصف . لم تطرح أية معايير تشخص فحوى " المثمرة " و " الاغتنام " . ومع ذلك اعترى هانوي ، المجلية قدرتها في توظيب حوار أميركا الداخلي ، بعض الشكوك بأن محاولة أميركا على الغاء وقف القصف كان مثيراً للجدل واستنزافاً للوقت . و " عدم اغتنام " وقف العمليات لم يعن ارغام هانوي على وقف حرب العصابات ، أو هجر أيما فعل كانت قادمة اليه ، فالبند عنا الاّ تصعد هانوي استراتيجية رابحة .

وكان من خصال أساليب هانوي التفاوضية أن تدحض حتى عرض من جانب واحد . وفي الحقيقة سخرت هانوي هذا العرض كشبكة أمان تدرع بها الجهد العسكري الشامل الذي يوشك أن يفلت من عقاله . وفي غضون أيام قلائل انطفأت محطة اتصالي مع هانوي وسعى الفيتناميون الشماليون ، غداة ما استقطعوا ثمناً لوقف واشنطن القصف ، الى تصعيد الضغوط على جونسون قبيل أن يجلس للحوار أو يتولى الاقتراح . كان هجوم تيت مسألة أشهر قلائل .

وأستنبطت هانوي برجحان أن امتعاض الأميركيين المتنامي لن يصبر على التأزل في فيتنام بقدر ما حصل في كوريا . ومع ذلك ، كان ثمة تباين كمي في طبيعة الجدالات الداخلية الناجمة . ولم تلق تحدياً حكمة الانخراط الأميركي في كوريا ، في حين أصاب الاختلاف الاجراءات المقتضية للاتيان بالنجاح . وفيما يتعلق بفيتنام ، فقد توارى على حين غرة الاجماع الواسع الأصيل لسياسة الولايات المتحدة . وفي كوريا ، أراد نقاد الادارة من الولايات المتحدة فعلاً ، فكان

خيارهم لسياسة ترومان استراتيجية ماك آرثر التصعيدية . وفي فيتنام ، حثت الأغلبية الساحقة من النقاد على خفض الجهد الأميركي – والتخلي عنها برمتها ، في ذات وقت ، فتراوحت آراءهم بين تعديل الاستراتيجية الأميركية والانسحاب غير المشروط . وفي كوريا ، كان خصوم أميركا سيواجهون خياراً سيئاً للغاية لو تسيدت المعارضة . وحالما بانت مديات الانشقاقات الباطنية في فيتنام ، أيقنت هانوي أن السياسة المتمأزقة والضغوط العسكرية ليعملان في كفتها .

واستهل نقد سياسة أميركا في فيتنام بنحو تقليدي تماماً ، وبأسئلة تقليدية تثار حول مدى حسم الحرب بالظفر وعلاقة الوسائل بالغايات . وفي الحادي عشر من أيار عام ١٩٦٨ ، طبق والترليبمان نظرته الناقدة الراسخة للاحتواء في فيتنام . وجادل أن أميركا قد أبهظت ذاتها وان سياسة الاحتواء لتأتي على أي توازن معقول بين المرامي الوطنية والموارد التي تحققها :

[تتجسد الحقيقة في تعدد المرامي من دون تحديد ، فهم يعدون بتهدئة كل أرجاء آسيا . ولمثل هذه الغايات العديدة يتعذر الظفر بالحرب من خلال وسائل قاصرة . وطالما أن مرامينا لا حصر لها ، فاننا واثقون من " فشلنا "] .

لقد أثيرت القضية ذاتها في عام ١٩٦٦ ، عندما انتقد السناتور فلبرايت الولايات المتحدة للانقياد الى " عناد القوة " ولما تلاطم " قوتها بالفضيلة والمسؤوليات الرئيسة برسالة عالمية " . وقبل أقل من عامين اسبقين ، وبّخ فلبرايت ديغول " لتأزيمه الموقف " باقتراحه حيادية . وقدر فلبرايت ، في ذات الوقت ، أن هذا المنحى " ليضرم سلسلة أحداث لا يمكن تكهنها قبالة فرنسا التي ليست بقوة

عسكرية كبيرة أو بقدرة اقتصادية عظيمة في الشرق الأقصى ، لذلك فهي عاجزة عن السيطرة أو التأثير البالغ في أحداث تنم عن مبادرتها " . وعرض فلبرايت في عام ١٩٦٤ " خيارين واقعيين " حسب : " توسيع ساحة الوغى بطريقة أو بأخرى ، وتجديد الجهد لدعم قدرة الفيتناميين الجنوبيين للمواظبة على الحرب بنجاح في مداها الحاضر " .

فما الذي طرأ في بحر عامين بحيث يقتنع السناتور بتوطيء باءة فيتنام من الحيوية الى الهامشية ؟ و لم يصور الأمر عناداً عندما شرعت ادارة جونسون في الوقت عينه بتطبيق وصيتي فلبرايت ؟ كان قادة أميركا ، المخلصين لطبائعهم الوطنية ، على غير قناعة باستناد قضية المعونة الأميركية لفيتنام على أسباب أمنية ستأذن ، عاجلاً أو آجلاً ، بالجدل حول الكلف والمنافع . واذا ما خلعنا على القضية مسميات نقل الدبلوماسية الى جنوب شرق آسيا ، فانها قد تخلت عن نقاط التوقف في طريق الدخول والخروج أيضاً .

وكان منتقدو الحرب يطرقون على امتداد السبيل عينه الذي وجه به القادة الحرب بالمنحى المناقض . وشرعوا بتجذير خلاصاتهم على مراسي عملية وشيكة : الحرب لا ظفر لها ، وتخطي النفقات للعوائد وابهاض أميركا لنفسها . ولكن أوسع النقاد ، الذين هم مخاضات المثالية الأميركية عينها ، نقدهم الى المستوى الأخلاقي في مرحلتين : أولهما أخلاقي بدعوى وجود تباين طفيف بين هانوي وسيغون ، بحيث استغنى عن السبب الفكري للحرب . وثانياً ، عكس الاصرار الأميركي على الحرب تفسخاً أخلاقياً في لب النظام الأميركي وليس تقييماً عملياً متشعباً . ونتيجة لذلك ، انقلبت سياسة تمتعت بتأييد عالمي تقريباً الى

اتهام لأخلاقية كامل السياسة الخارجية الأميركية والى نقد للمجتمع الأميركي نفسه ٠

وحالف الحظ أميركا ، في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، بحيث أنها لم تنتق بين مفاهيمها الأخلاقية وتحليلها الاستراتيجي ٠ وبررت كل قراراتها الرئيسة بسرعة على أنها تعزيز للديمقراطية ودرأ للعدوان ٠ ومع ذلك لا يمكن وصف فيتنام الجنوبية بالديمقراطية ولو بقبس من الخيال ٠ وشعرت كل الأنظمة التي أعقبت ديام أنها محاربة ، في حين استشعر جنرالات فيتنام الجنوبية ، المجهولون حتى في هذا الوقت ، ببعض الخشية من اختبار شعبيتهم بالاقتراع ٠ وقد يثار جدل مقنع بفرضية تقول أن حكام سيغون الجدد أوهن قمعاً من سيغون ٠ وفي الحقيقة أثيرت مثل هذه الحجة مراراً و لم تحمل قط محمل الجدية ٠ وما كان ثمة حيز للنسبية الأخلاقية لأمة ترعرعت في كنف الايمان بالفارق المطلق بين الخير والشر ٠

وجادل النقاد بشكل متعاظم أن سيغون لو فشلت في تلبية المعايير الديمقراطية التامة – التي أيقنوا استحالتها عن ظهر قلب – ليستحق الأمر المخاطرة كلية ٠ وعندما تصرم الدهر ، هجرت ومن ثم استسخفت نظرية الدومينو ، فرضية الأمن المركزية التي تجذر عليها دفاع فيتنام نحو عقدين من الزمان ٠ وفي احدى المقالات الشاملة ، زاوج ريتشارد رنفيلد ، أستاذ جامعة بيل ، بين انتقاد لبمان للافراط الاستراتيجي والاتهام بتناظر طرفي القتال في فيتنام أخلاقياً ، لذلك أمست الحرب واهية ٠ وجادل أن أميركا لم تقاوم في فيتنام العدوان لأنها كانت تعاضد قوى التحفظ قبالة التغير الاجتماعي ٠

وأشار النقاد الى قصورات سيغون الكثيرة في توضيح الاباء الأخلاقي للجهد الأميركي ٠ وطرح جيمس رستون في عام ١٩٦٨ السؤال الذي لوّع من الأميركيين كثيراً جداً : " ما هي النهاية التي تبرر المذبحة ؟ وانى ننجد فيتنام ولما نجهز عليها في المعركة ؟ " وأعلن فلبرايت في عام ١٩٧٢ أن جونسون لم يفقه قط أن " القضية لم تكن بين شعب متحرر ونظام دكتاتوري ، لأنها بين نظامين دكتاتوريين : حقيقة أن الحرب ما كانت عدواناً دولياً مباشراً أو في أيّما سيماء أخرى ، فهي حرب مناوئة للاستعمار تستحيل غداتها حرباً أهلية " ٠

واستجاب الأميركيون في عهد ما بعد الحرب الى مناشدات قادتهم للتضحية سعياً لمعونة المجتمعات القاصية ٠ وفي بوتقة فيتنام ، انقلبت على نفسها الانعزالية الأميركية – الايمان بتطبيق عالمي للمباديء الأميركية وتبنت ضرباً أخلاقياً في سياسة الأرض المحروقة ٠ وعندما فدحت الخسائر ، انحدر نقد سياسة أميركا الخارجية من تحدي فاعلية السياسة الى الاستفسار عن ضرورتها – من المهاجمة على أهلية فيتنام كحليف لأميركا الى أهلية أميركا عالمياً ، لا في فيتنام حسب ٠

وما أعار اشجاءً خاصاً للهجومات على قدرة أميركا في توجيه سياسة عالمية تأصل هذه الهجومات الى حد واسع في الجامعات والمؤسسات الفكرية ، التي تجتنح حتى يومنا هذا مدافعين عن مثالية أميركا الدولية ٠ وتشتت كثير من القادة المفكرين والمساهمين في صياغة قرار كنيدي عندما أنهى اغتياله المفاجيء الجبهة الجديدة وأصيبوا بصدمة أعظم باحتجاج تلامذهم المناوئين للحرب ٠ وما عادت صيغ الانفلات من فيتنام لتصيب فيهم أي أثراً فجنح كثير من الأساتذة ، تحت ضغط طلبتهم ، صوب الانسحاب المنفرد غير المقرون بشروط ٠

ولاحت مثل هذه الاحتجاجات صدمة حقة لقاده الجيل الذي ترعرع في واقعيات مسالمة للحرب الباردة . وألفى لندون جونسون ، الصائغ الرئيس لاجماع ما بعد الحرب ، أنه قد أضلّ السبيل في معالجة هجوم شنه رجال ونساء من جامعات ريادة وأيقن بعجزه عن ايجاد لغة مشتركة للتحادث معهم . وجادل ديفيد هالبرستام ، الذي غدا في عام ١٩٦٦ ناقد الحرب اللاذع ، " أن فيتنام شطر مشروع من التزام أميركا العالمي .... وربما هي احدى الأمم الخمس أو الست الحيوية فعلاً لمصالح الولايات المتحدة . فلو كانت تجسد هذه الأهمية حقاً ، ستستحق التزاماً أعظم على كاهلنا " .

ورد جونسون باسترضاء بدع أسلافه ، من ترومان وحتى كنيدي بيد أن هذه البدع قد لاحت عتيقة ، وحتى غير ملائمة للنقاد . وقوبلت برفض قادة هانوي عروضه على المفاوضات غير المشروطة لأن هؤلاء القادة كانوا جد ادقاء في صنعتهم لتهيأة صمام أمان يحكم الجيشان الأميركي الداخلي . ولكي يقطع دابر التيار ، حور جونسون تدريجياً مبوأه المفاوض من مطالبة انسحاب فيتنام الشمالية قبيل وقف أميركا عداءاتها الى صيغة سان أنتونيو من أجل تعليق القصف السابق للمفاوضات ، ومن رفض الحوار مع جبهة هانوي في الجنوب الى الموافقة على الحديث مع الممثلين افراد في هذه الجبهة ، ريثما حصل الاعتراف بهذه الجبهة ككتلة في المفاوضات . وسعى أيضاً الى اغراء هانوي ببرنامج المعونة الاقتصادية لكل أنحاء الهند الصينية . وأبت هانوي كل هذه الخطوة لعدم ملائمتها ، وكذلك نقاد أميركا في الداخل لأنها غير صادقة وهكذا غدا الجدل الوطني متذبذباً بين النصر من دون استراتيجية وانسحاب من دون سياسة .

وحث على تسوية مفاوضية نقاد الادارة الأكثر اعتدالاً - الحزب الذي انتمي اليه أنا . ومع ذلك كانت هانوي ، لا واشنطن ، العقبة الحقيقية التي تعتور الأمر . فما كان لشيوعيي فيتنام الشمالية ، الذين سلخوا حيواتهم في صراع حتى الرمق الأخير ، أن ينهوه بمشاطرة السلطة أو تفتير حرب العصابات التي هي أكثر وسائلهم فاعلية في الضغط . وما كان الشيوعيون الفيتناميون باقدر من ستالين الذي قدر قبل جيل على التشبث برجاء غير واقعي يفصل المفاوضات عن توازن القوى الكامن ، أو ذلك الذي خلفه لعملية التفاوض عينها . ولاحت توكيدات جونسون المتكررة لهانوي ساذجة وغير أهلية .

وما يثير السخرية أن تنقد أميركا ثمن التسوية ، بالقدر عينه للانتصار . ولن تقبل هانوي التسوية الاّ اذا تيقنت بعجزها عن النصر - أي بعد أن تذوق طعم الهزيمة . وليس بمقدور أميركا ان تظهر التعديل أبان الحرب ، الاّ بعد اختتامها . ولقيت جميع " الحلول " المعقولة - التي تراها الادارة والنقاد المعتدلون - برفض ضروس من هانوي . فوقف اطلاق النار ، الذي تراه أميركا سبيلاً محبذاً لوضع حد للقتل ، تأنسه هانوي تجريداً لباعث أميركا على الانسحاب . وبدت لقادة هانوي أية حكومة ائتلافية ، التي هي ورقة خاوية في درب السيطرة الشيوعية ، ضمان لبقاء سيغون .

وشرع الخيار الحقيقي بوجه أميركا بين النصر والاندحار ، وليس بين الظفر والتسوية . وتكمن الهوة بين فيتنام الشمالية والأميركيين في احكام هانوي على مجريات الواقع ، في حين لم يحمل جونسون ولا نقاده اللطفاء أنفسهم على

الاعتراف بذلك . وأيقن مسخرو **السياسة الواقعية** أن مصير فيتنام سيحسم بتوازن قوى بري – وليس على طاولة المؤتمر .

وإذا ما استعدنا شريط الأحداث ، فثمة حيز يسير على عدم حاجة أميركا لدفع أيما ثمن لفتح المفاوضات . وما هدفت هانوي بالتفاوض قبل الانتخابات الرئاسية الأميركية عام ١٩٦٨ الاّ لتلزم الحزبين السياسيين كليهما بنتيجة تفاوضية . ولن يقدم حكام هانوي على الدخول في مفاوضات من دون أن يبذلوا قبلها جهداً جباراً لاستمالة التوازن العسكري الى كفتهم . وغدا هجوم تت وسيلتهم التي يعززون بها مبوأهم المفاوض حيث طرأ هذا الهجوم في السنة القمرية الجديدة . لقد عقدت هدنة لذلك الوقت من كل سنة ، حتى في عام ١٩٦٨ . ومع ذلك شنت القطعات الشيوعية ، في الثلاثين من كانون الثاني ، هجوماً واسعاً ضد ثلاثين قاعدة اقليمية في فيتنام الجنوبية . وتمكنوا بفعل هجومهم المباغت من احتلال اهداف رئيسة في سيغون ، فبلغوا حتى أراضي السفارة الأميركية ومقرات الجنرال وستمورلاند . لقد سقطت العاصمة القديمة (هو) بايادي الشيوعيين وسيطروا عليها خمسة وعشرين يوماً .

ويعد هجوم تت الآن ، في المنظار العسكري ، هزيمة شيوعية كبرى – فهذه الوهلة الأولى التي تطأ فيها العصابات المناطق الأرضية وتنهمك في قتال مفتوح . وأقسرهم قرار شن هجوم واسع على القتال في سوح الوغى التي لم يصطفوها . لقد أتت مصادر النيران الأميركية الشديدة على كامل جذور العصابات تقريباً ، وكما تنبأت النصوص العسكرية الأميركية . وما عادت عصابات فيتونغ ، لما

تبقى للحرب من ارماق ، بقوة مؤثرة حيث جاهد في القتال وحدات فيتنام الشمالية النظامية .

ومنح هجوم تت ، في بعض النواحي ، شرعية المبدأ العسكري الأميركي . وإذ خاطر الشيوعيون بكل ما في جعبتهم بقذفة واحدة للفرد ، فقد ارتضوا بمعركة الاستنزاف التي تاق الأميركان لها طويلاً . فربما تكبدوا خسائر أعظم من مما أظهرته التقارير الرسمية ، أو ربما حسبوا في تلهف أميركا للتفاوض تيسيراً لشبكة أمنهم .

الاّ أن هجوم تت قد انقلب نصراً نفسياً كبيراً لهانوي . ويستطيع المرء أن يتصور ببعض السوداوية منحى الأحداث لو شددت أميركا ضغطها على وحدات فيتنام الشمالية الرئيسة ، المجردة وقتئذ من ستار العصابات .

ومع ذلك تمتع القادة الأميركان بالكثير من مورهم ليس بسبب تخلي الرأي العام عنهم . وأظهر الاقتراع رغبة واحد وستين بالمائة ليغدو صقوراً وثلاثة وعشرين بالمائة حمائم بينما استحب سبعون بالمائة مواصلة القصف . ومثل الفريق الذي فقد أعصابه الشخصيات عينها التي تعمل وراء الأحداث والتي ساندت التدخل بكل أحداثه . وضم جونسون جمع قادة الادارات السابقة ، الصقور أغلبهم بما فيهم دين أشسون وجون ماكلوي وماكجورج بندي ودوغلاس ديلون . وأشار أغلبهم بالنصح لوقف التصعيد والشروع بتصفية الحرب . لقد كان هذا القرار مستهل الانحدار اذا ما تفحصنا اراء هانوي ، التي لم تتجلى

وقتئذ . وعليّ الانصاف بالقول ، فقد أيدت هؤلاء " الحكماء " ، حيث يظهر الأمر نقاط الانقلاب أسهل تشخيصاً مما عندما تطرأ فعلاً .

الفصل العاشر

فيتنام : الانفلات من المأزق ، نيكسون

تخلصت الولايات المتحدة ، في عهد ادارة كنيدي ، من أولى تجارب حرب خائبة ، ومن أبكر التزام خارجي تلاطمت فيه يقينيات أميركا الأخلاقية بما كان ممكناً . لقد برهنت طائفة قليلة من مهام السياسة الخارجية مأساتها ، ولم يتدبر أي بلد هذا التحول من دون مرارة .

وبالرغم مما أثير مراراً عن الانسحاب الفرنسي من الجزائر كطراز لما احتذته أميركا ، ففي الحقيقة سلخ الأمر من ديغول أكثر من أربع سنوات ، الأمد الذي أنهت فيه ادارة نيكسون انهماك أميركا في الهند الصينية . لقد تحمل ديغول على كاهله ، ولما يتقهقر من الجزائر ، عبأ هجر مليون مستوطن فرنسي وطنت عوائل بعضهم هناك أجيال عدداً . وكان على نيكسون ، ليسحب القطعات الأميركية من فيتنام ، أن يطهر الالتزام الذي نادى أربعة رؤساء أميركان ، بنحو عقدين من الزمان ، كأمر حيوي لأمن الشعوب الحرة .

اضطلع نيكسون ، المفجوع فؤاداً ، بمهمة تحت طائل ظروف داخلية أشد شراسة منذ الحرب الأهلية . وحتى اذا ما نحيت خمسة وعشرون عاماً ، سيعصف فجأة انهيار اجماع أميركا الوطني في فيتنام كأنه اعصار . ففي عام ١٩٦٥ ، كانت أميركا منقطعة بنفسها - في خضم تأييد عام - للظفر بحرب عصابات قبالة ما شوهد كأنه مؤامرة شيوعية عالمية ، وببناء أنظمة حرة في جنوب شرق آسيا .

وبعد عامين ، أي في ١٩٦٧ ، لم تأنس المغامرة عينها بعدسة الخيبة حسب ، بل انها سياسة منحرفة لساسة مجانين حرب . وذات أوان ، كانت المجتمع المتبصر يحتفل بمقدم رئيس شاب تقدمي ، وفي الهزيع الثاني تقريباً ، اتهم المجتمع خليفة هذا الرئيس ، بقساواته ورياءه المنظم وشهوته للحرب ، بالرغم من أن استراتيجية الرئيس الجديد – أو بالأحرى استراتيجيوه – يماثلون جوهراً مالسلفه المكروب . وعندما قضى جونسون نحب رئاسته عام ١٩٦٨ ، انقطع عن الظهور الى العامة ما خلا في القواعد العسكرية أو في الأماكن الأخر التي تكبح فيها الاحتجاجات العنيفة . وبالرغم من أنه رئيس معين ، لم يألف حتى الظهور في اجتماع عام ١٩٦٨ الوطني لخاصة حزبه .

وبعد توقف دام أشهراً قلائل ، استأنفت المقاومة العنيفة للحرب وعجلت كثيراً في عهد ريتشارد نيكسون ، خليفة جونسون . وما أمرّ الجدل الداخلي كثيراً وصيره مستعصي الحل جداً ان الاختلافات المحلية بدائل لجدل غائر فلسفي الجذور . كان نيكسون تيقاً للتفاوض على مخلص مشرف ، شخصه بكل الحلول ما حاشا تسليم شيوعيي فيتنام الشمالية ملايين البشر الذين قادهم أسلافه ليثقوا في أميركا . لقد حمل المصداقية والشرف محمل الجدية لا سيما أنه عرف قدرة أميركا في تأطرة نظام عالمي سلمي .

وفي صعيد آخر خال قادة حركة السلام الحرب بغيضة جداً بحيث لاح الانفلات من فيتنام سخافة كبرى . وما استشعرته ادارة نيكسون اذلالاً وطنياً مهيناً ، أنسه المحتجون الفيتناميون كتطهير وطني محبذ . ونشدت الادارة نتيجة تقدر أميركا على مواصلة دورها العالمي لما بعد الحرب ، كذائدة عن الشعوب

الحرة – الدور عينه الذي يود له وقفا كثير من أعضاء حركة السلام لأنهم أبصروا فيه عناداً وغطرسة لمجتمع متشعب .

وفي بحر جيل واحد ، تخطت أميركا عقبة الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية وعقداً ونصف عقد من الحرب الباردة . وبرهنت فيتنام طائلاً مبهضاً ، وتضحية مجزعة لأنها على تباين تام مع قيم أميركا التقليدية وتكهناتها . وفي العشرينيات والثلاثينيات ، سني مراهقة جيل نيكسون وجونسون ، نظرت أميركا أنها الأعلى بين أقرانها الأوروبيين ، ذوي الوسائل الميكافيلية . وعندما بلغ هذا الجيل أشده ، في الأربعينيات والخمسينيات ، آمنت أميركا أنها داعية لحمل رسالة الحق العالمية . واذ شارف هؤلاء الرجال على أوج صنعتهم السياسية ، استجوبت حركة سلام فيتنام هذه الرسالة . وفي السبعينيات ، وطأ مسرح الأحداث جيل حديث من الأميركان وأشاحوا بأبصارهم عن دور أميركا البالي . لقد رأوا أن على أميركا ، لتكون أهلاً بالانخراط الى الصعيد العالمي ، أن سلخ عهد من التركيز على خاصة تطورها .

وهكذا انقلبت الأجيال في اللحظة عينها عندما واجهت أميركا أبهم تحد أخلاقي لكامل عهد ما بعد الحرب . لقد أثبطت صور التلفاز الحية عن وحشية الحرب عزيمة النقاد وكانوا في ريبة متعاظمة عن مبوأ حليف أميركا الأخلاقي . وبعد أن اقتنعوا بالحاجة لوجود بعض الحل الذي يأذن بوقف دائم للقتل ، ضل طبعهم . لقد مرّت الانعزالية الأميركية بواحدة من عهود عظام لسياسة أميركا ، بمثاليتها وبراءتها وتفانيها ، واستحالت الآن قاسية في مطالبتها للكمال عينه ،

حلفاء أميركا ، وغياب الابهام عن الخيارات الأميركية . وعندما ذهبت هذه المساعي أدراج الرياح ، لم تأنس الا العار لأميركا والهلاك لحليفها .

وأحال الحق الأميركي الأخلاقي دون دبلوماسية مرنة . وصورت فيتنام في أفضل هيئة خيارات مشوهة وبدائل فاجعة . كان الدافع الحدسي لحركة السلام في الانقطاع عن العالم والتنقيب عن خاتمة لرؤية أميركا الأصيلة لنفسها كعماد من الفضيلة طاهر . ومن المرجح أن يعثر رؤساء موهوبون مثل فرانكلين روزفلت وجون كنيدي ورونالد ريغان على سبيل لاستطباب مثل هذا الحنين الى الماضي . وعلى خلاف جونسون ، كان نيكسون متبصراً ثاقباً في الشؤون الخارجية وولج الرئاسة وهو مقتنع ، كسائر الكثيرين من منتقدي الحرب ، بتعذر النصر الواضح في فيتنام ، أو بالأحرى أنه مستحيل تماماً . وفقه نيكسون ، في أولى أيامه ، أن القدر قد صبغه باليد الكنود ليتدبر أمر الانسحاب أو طرازاً من الانفلات من صراع فاسد . وما عجز عن فعله ، فكراً وعاطفة ، ما أقدم عليه متخرجو أفضل المدارس ، الذين أعجبوه كثيراً ، بمطالبته بفعل يراه هو انهياراً مذلاً لأميركا وخيانة لحليف .

وآثر نيكسون أن يترجم الاحتجاجات المتكررة العنيفة ، على الاشطار التي عدها ذات امتياز ، كتصعيد لاعتداء شخصي ضده يوجهه أعداءه الفكريون ، مادام حياً . وفي قريرتيه ، نقل هذا الأمر قضية فيتنام الى معترك سياسي . وتمتع نيكسون ، مع ماله من حساسية وصقل في منحى دبلوماسيته ، بقدرة على قتال الشوارع عندما تمس القضية السياسية الداخلية ، متوكاً على محتذيات لم يني قط يؤمن أنها عدة كثير من أسلافه .

ولن يتضح البته مدى أطفأ انعام الرئيس ثورة الغضب التي استشاطت قبل تولي نيكسون منصبه بعهد طويل . وعندما بلغت الستينيات عتيها ، استحال الاحتجاج العارم للطلبة ظاهرة عالمية فضربت فرنسا وهولندا والمانيا - لم تتعرض أيا منها لموقع يناظر ما لفيتنام أو تتمتع بتمييز عنصري بالمعنى الأميركي . كان نيكسون جد قلق ومتجرداً كثيراً بحيث لم يشرع ببناء الجسور في تلك المرحلة من حياته .

واذا ما توخينا الانصاف ، يجب القول أن نيكسون لم يتلق الا النزر اليسير من مساعدة أصحاب السياسة الذي تركوه ، بعد أن نطقت كل الكلمات وفعلت الأفعال ، قبالة المشكلة التي يواجهها وتشاطر يقينيات ادارة نيكسون مسؤولون كبار في كثير من الادارات السابقة ، التي سارت بأميركا الى معمعة الحرب الفيتنامية . وكان الأشخاص ، أفيريل هاريمان ووزير الدفاع السابق ، كلارك كليفورد ، من بين طلائع المزاولين لاجماع الطرفين في عهد ما بعد الحرب في السياسة الخارجية ، وطبيعيا أن يستشعروا الالزام على استتباب درجة معينة من اللحمة الوطنية وقت أزمة .

ومع ذلك ، أغرب مؤطرو اجماع السياسة الخارجية ، وقتئذ ، عن معاضدة الرئيس . وفي الحقيقة ، كانوا الأهداف الأول لمظاهرات السلام - القدر الذي ألفوه قاسياً لأنهم يكنون اعجاباً الى طليعة حركة السلام من رجال ونساء واعتبروهم ، منذ عهد طويل ، لب دائرتهما الانتخابية .

وطد نيكسون العزم على المثابرة لاصابة سلام مشرف . وبصفتي مساعده الأول ، تأثر اعتباري بالدور الذي مارسته وفي ما زامنني من افتراضات أساسية .

وفي الفترة التي فصلت بين الانتخابات والتنصيب ، سألني نيكسون على اعلام الفيتناميين الشماليين بالتزامه بنتيجة متفاوضة . كان ردهم تقديماً لما عرف بمطلب هانوي النموذجي : انسحاب أميركا غير المشروط والاطاحة ، في الوقت ذاته ، بحكومة بغيان فان ثيي في سيغون .

لم تكترث هانوي حتى باختبار مصداقية نيكسون فشنت ، في خضم ثلاثة أسابيع من تنصيبه ، هجوماً جديداً – ما يقال له هجوم تت البسيط – مكبدة الأميركان من الخسائر ما يعدل الفاً منهم في كل شهر لما تلى من أشهر أربعة . ومن الجلي أن يفشل غرض نيكسون على التسوية في تجييش أي مشاعر متبادلة في هؤلاء القادة القساة . ولم ترتدع هانوي بأوهن هيئة بباعث من " فهمها " مع ادارة جونسون عام ١٩٦٨ ، بعبث وقف القصف . لقد تولت ادارة نيكسون المنصب رجاءة تطوير اجماع وطني من خلال اقتراحات تسوية معقولة ، وبذا تواجه هانوي كامة موحدة في جوهرها . وتجلى عاجلاً أن نيكسون ، كأسلافه ، قد أساء في حساباته لشدة هانوي وعزمها . وبات هوشي مينه موقنا بنحو مطرد أنه اذا ما وهب قيادة سيغون والتزام أميركا المتخاذل ، ستظفر هانوي بنصر غير مشروط . ولم يتأهب هوشي مينه ، ممارس **السياسة الواقعية** للتسليم في طاولة المفاوضات ما حدسه أن الدم والرصاص سيرجحه في ساحة الوغى .

وليس بميسور الرؤساء هجر قضية بمرد انها أشق مما يتكهنون . وأمر نيكسون ، حتى قبل تنصيبه ، باستعراض منتظم للكيفية التي تسدل ستار الحرب فحللت هذه الخيارات : انسحاب من طرف واحد ، وحسم الأمر مع هانوي بسلسلة من الاجراءات السياسية والعسكرية ، وتحويل تدريجي لمسؤولية الحرب صوب حكومة سيغون لتأذن الولايات المتحدة بالتقهقر رويداً رويداً .

وأمسى الخيار الأول ، الانسحاب من طرف واحد ، موضوعاً لعظيم من الحدس التوسيعي ، وقيل أن على نيكسون ، عند تبوأه المنصب ، أن يضرب موعداً معلناً للانسحاب ونهاية الحرب بقرار أميركي منفرد .

أو كان ذلك العهد يسيراً كالصحافة ؟ ان الرؤساء ، برغم مما يتمتعون بسعة حيز الاجتهاد ، لملزمون بالمناخ السياسي والواقع العملي . وعندما تقلد نيكسون زمام منصبه عام ١٩٦٩ ، لم يتبن أيما حزب سياسي انسحاباً من جانب واحد ولم يظهر أي اقتراع للرأي العام تعزيزاً له . وأبى منهاج حزب " الحمائم " هذا الأمر ، في المؤتمر الديمقراطي الوطني عام ١٩٦٨ ، نادى الى خفض عمليات الولايات المتحدة الهجومية وانسحاب متبادل للقوات الخارجية (بما فيها الفيتناميين الشماليين) وتشجيع سياسة الاصلاح بين حكومة سيغون وجبهة التحرير الوطنية . لقد كان التبادل هاديها ولم تتطرق الى الانسحاب من جانب واحد .

وتم التعبير عن برنامج سلام ادارة جونسون في (**صيغة مانيلا**) ، التي اقترحت بدأ الانسحاب الأميركي بعيد ستة أشهر من انسحاب فيتنام الشمالية ، وغداة ما يهبط مستوى العنف . وحتى ان حصل ذلك ، ثمة ابقاء على قوة

أميركية جوهرية في فيتنام ، على غرار كوريا • ودعا منهاج الحزب الديمقراطي الى منافسة سياسية حرة في فيتنام الشمالية ، بعد أن تضع العمليات العسكرية أوزارها وأخيراً ، دعا منهاج الحزب الجمهوري الى " تجرد أميركية " الحرب ، وتغيير في الاستراتيجية العسكرية ، والتفاوض الذي لا يستند الى " سلام بأي ثمن " أو استسلام مذل • لذلك أصر كل جناح في الحزبين السياسيين الكبيرين ، عند تقلد نيكسون الرئاسة ، على نتائج جميعها ، ذات شروط لن تحققها هانوي الا غداة الانسحاب الأميركي • لقد استترت في جميعها تسوية ، وليس استسلام •

وسيطرح الانسحاب الفوري غير المشروط من طرف واحد معضلات عملية كؤود • ففي جانب واحد ، كان أكثر من نصف مليون أميركي يقاتلون جيش فيتنام الجنوبية الذي يشكل نحو سبعمائة الف مقاتل ويواجهون في أقل تقدير ربع مليون جندي من قطعات جيش فيتنام الشمالية وعدداً مناظراً من العصابات • وفي أيام ادارة نيكسون ، كان أي التزام مباشر للانسحاب المنفرد يعني تفخخ القوة الأميركية بين حنق الفيتناميين الشماليين ، وحلفاء أميركا الخونة وهجوم فيتنام الشمالية الكاسح •

وقدر قسم الدفاع أن الانسحاب المنظم لن يتحقق الا ببحر من خمسة عشر شهراً ، ووقتئذ ، سيهزل موقع القوات الأميركية تدريجياً الى المبلغة التي تنقلب فيها بقية القوات الباقية رهائن لدى الشطرين الفيتناميين • وحتى لو افترض المرء انهيار جيش فيتنام ، لا مهاجمته لحلفاء أميركا ، ستكون المحصلة انسحاباً في خضم جيشانات يعجز وصفها ، خاصة أن هانوي ستسعى بكل يقين الى توظيب

مبوأها المتسامي قوة لتفرض بنود سلام أصرم • ان الانسحاب من جانب واحد سورة لخيبة دموية مهلعة •

والأسمى من ذلك كله ، اقتنعت ادارة نيكسون أن انسحاباً من جانبها سيستحيل كارثة جيوسياسية ، فقد تصرم عشرون عاماً لبناء ثقة في مصداقية أميركا ، بنحو مؤلم ، وهي المتمم الرئيسي في هيكل العالم الحر • أن انقلاباً بمائة وثمانين درجة لالتزام أميركا الرئيس ، على مدى ادارات أربع وبيد رئيس معروف بسياسة خارجية متحفظة ، ليأتي بخيبة عميقة بين حلفاء أميركا ، خاصة لأولئك المتوكأين عليها كثيراً ، بصرف النظر عن مدى اتفاقهم بتفاصيل سياسة أميركا في فيتنام •

وتحت طائلة هذه الظروف ، خلصت ادارة نيكسون بحاجتها الى استراتيجية لتؤثر في حساب هانوي عن حتمية نصرها وقدرتها على فرض انسحاب من طرف واحد • وهكذا كان الخيار الثاني المدروس يتعلق بتعجيل الأمور من خلال مزاوجة بين الاجراءات العسكرية والسياسية • كانت هذه الاستراتيجية ما آثرتها أنا لايماني أنها سترسم نهاية للصراع الداخلي المستنزف وتقدر الادارة على التوجه صوب مهمات الوحدة • ويستوعب هذا الخيار ثلاثة عناصر : (١) مصادقة من الكونغرس على مواصلة الحرب •

(٢) جهد جهيد في المفاوضات تحيل أميركا كل امتياز مسموحاً يقصر دون تآمر الشيوعيين على توليه •

(٣) استراتيجية عسكرية متحورة في بطن فيتنام الجنوبية تصب جل جهد في الذود عن المناطق الآهلة بالسكان ولما تسع الى تدمير طرق امدادات هانوي

وتمشيط مناطق القواعد في كمبوديا وتلغيم موانيء فيتنام الشمالية . وفي بحر أربعة أعوام ، تم تبني كل هذه الاجراءات ودلت دلوها في ارغام هانوي على قبول بنود عام ١٩٧٢ التي أبتها ، غاية الاباء نحواً من عقد زمان . فلو تم الشروع بهذه الاجراءات جملة ولما تتمتع أميركا بمنطقة قتال بري شاسعة في فيتنام ، ربما برهن الأثر حسماً .

وفي بواكير فترته الرئاسية ، طرق نيكسون باب الكونغرس وأسرهم بفكرته عن نتيجة مشرفة لحرب فيتنام مساءلهم المصادقة حيث أكد أن هذه الفكرة لو نحيت ، لن يكون أمامه الا الانسحاب ، مهما كان وخيماً . وأبى نيكسون النصح لهذا الأمر لباعثين . لقد رأى فيها تنازلا عن مسؤولية سياسية وانه ، ثانيا قد ترسخ اعتقاد ، غداة ما خدم في الكونغرس ست سنوات ، أن الكونغرس ليروغ عن اعطاء خيار جلي وسيمنحه – في أحسن صورة – شيئاً من المصادقة المنبهمة ، تعانقها ظروف جد كثيرة تزيد الطين بلة .

تردد نيكسون ، أول الأمر ، من مهاجمة نظام فيتنام التعبوي ، في حين تدهورت العلاقات مع الاتحاد السوفيتي والصين كثيراً وربما أرجأ هذا الأمر ، أو أطاح ، بمثل العلاقة التي ساهمت كثيراً في مرونة سياسة أميركا الخارجية ، بعدئذ . وربما الهبت رجاءات العامة الخائبة في رأب الاصداع ثائرة حركة السلام . لقد بدت النتيجة العسكرية مبهمة والتكلفة الداخلية بجزعة . وهكذا صادفت " الاستراتيجية المتقدمة " مقاومة جد عظيمة بين أقرب مستشاري نيكسون بحيث أنها لم توظب الا باعادة تنظيم الوزارة وبطائل من الجهد الرئاسي ربما يأتي على آفاق المبادرات الأخرى الحيوية الآمدة .

ولاح الأميركان يساءلون حكومتهم على احتذاء مرميين متنافرين ، في واقت واحد : شاءوا انتهاء الحرب والا تستلم أميركا . وتشاطر نيكسون مستشاريه هذا التناقض . وفي مسعى لتمخر سياسة أميركا عباب هذه الازدواجيات ، استحب نيكسون خياراً ثالثاً : ما يسمى بطريق الفتنمه* – ليس لأنه خاله رائعاً ، بل لأنه أنس فيه استتباباً نسبياً لأمن توازن تقيم عليه العناصر الثلاثة التي تنجد أميركا من فيتنام :

فهو يتناغم مع معنويات أميركا الداخلية ويهب سيغون فرصة فاضلة للوقوف على أقدامها ويمهد لهانوي الباعث لفض الأمر . أن الحفاظ على الأبعاد السياسية الثلاثة في علاقة ترتيبية ما فيما بينها قد أمسى الاختبار الأخير لانفلات أميركا من فيتنام .

وكان سيطمأن شعب أميركا بانسحابات القطعات الأميركية وجهود التفاوض الجدية ، وتوهب فيتنام الجنوبية فرصة أصيلة للدفاع عن أناها من خلال المعاضدة والتدريب الأميركيين الواسعين ، بينما تواجه هانوي بترغيب مبادرات السلام وترهيب الانتقام الدوري لاستنزافها وانذارها ان للتقييد الأميركي حدوده . ومع ذلك ربما تنضوي الفتنمة ، هذه الاستراتيجية المعقدة على خطر جسيم بحيث أنها لا تبرهن بكل بساطة على ابقاء عناصر الاستراتيجية الثلاث متزامنة : فالوقت قد ينقضي وتنتهي السياسة الى الاهواء بين مقعدين . انه تجشم ثاقب ، بحيث يشد كل انسحاب عزيمة هانوي ، وتشيط كل اطلاقة غضب حركة السلام .

* الفتنمة (Vietnamization) : مصطلح يتعلق بالحالة الفيتنامية .

وتمشيط مناطق القواعد في كمبوديا وتلغيم موانيء فيتنام الشمالية . وفي بحر أربعة أعوام ، تم تبني كل هذه الاجراءات ودلت دلوها في ارغام هانوي على قبول بنود عام ١٩٧٢ التي أبتها ، غاية الاباء نحواً من عقد زمان . فلو تم الشروع بهذه الاجراءات جملة ولما تتمتع أميركا بمنطقة قتال بري شاسعة في فيتنام ، ربما برهن الأثر حسماً .

وفي بواكير فترته الرئاسية ، طرق نيكسون باب الكونغرس وأسرهم بفكرته عن نتيجة مشرفة لحرب فيتنام مساءلهم المصادقة حيث أكد أن هذه الفكرة لو نحيت ، لن يكون أمامه الا الانسحاب ، مهما كان وخيماً . وأبى نيكسون النصح لهذا الأمر لباعثين . لقد رأى فيها تنازلا عن مسؤولية سياسية وانه ، ثانيا قد ترسخ اعتقاد ، غداة ما خدم في الكونغرس ست سنوات ، أن الكونغرس ليروغ عن اعطاء خيار جلي وسيمنحه – في أحسن صورة – شيئاً من المصادقة المنبهمة ، تعانقها ظروف جد كثيرة تزيد الطين بلة .

تردد نيكسون ، أول الأمر ، من مهاجمة نظام فيتنام التعبوي ، في حين تدهورت العلاقات مع الاتحاد السوفيتي والصين كثيراً وربما أرجأ هذا الأمر ، أو أطاح ، بمثلث العلاقة التي ساهمت كثيراً في مرونة سياسة أميركا الخارجية ، بعدئذ . وربما الهبت رجاءات العامة الخائبة في رأب الاصداع ثائرة حركة السلام . لقد بدت النتيجة العسكرية مبهمة والتكلفة الداخلية مجزعة . وهكذا صادفت " الاستراتيجية المتقدمة " مقاومة جد عظيمة بين أقرب مستشاري نيكسون بحيث أنها لم توطب الا باعادة تنظيم الوزارة وبطائل من الجهد الرئاسي ربما يأتي على آفاق المبادرات الأخرى الحيوية الآمدة .

ولاح الأميركان يساءلون حكومتهم على احتذاء مرميين متنافرين ، في واقت واحد : شاءوا انتهاء الحرب والا تستلم أميركا . وتشاطر نيكسون مستشاريه هذا التناقض . وفي مسعى لتمخر سياسة أميركا عباب هذه الازدواجيات ، استحب نيكسون خياراً ثالثاً : ما يسمى بطريق الفتنمه* – ليس لأنه خاله رائعاً ، بل لأنه أنس فيه استتباباً نسبياً لأأمن توازن تقيم عليه العناصر الثلاثة التي تنجد أميركا من فيتنام :

فهو يتناغم مع معنويات أميركا الداخلية ويهب سيغون فرصة فاضلة للوقوف على أقدامها ويمهد لهانوي الباعث لفض الأمر . أن الحفاظ على الأبعاد السياسية الثلاثة في علاقة ترتيبية ما فيما بينها قد أمسى الاختبار الأخير لانفلات أميركا من فيتنام .

وكان سيطمأن شعب أميركا بانسحابات القطعات الأميركية وجهود التفاوض الجدية ، وتوهب فيتنام الجنوبية فرصة أصيلة للدفاع عن أناها من خلال المعاضدة والتدريب الأميركيين الواسعين ، بينما تواجه هانوي بترغيب مبادرات السلام وترهيب الانتقام الدوري لاستنزافها وانذارها ان للتقييد الأميركي حدوده . ومع ذلك ربما تنضوي الفتنمة ، هذه الاستراتيجية المعقدة على خطر جسيم بحيث أنها لا تبرهن بكل بساطة على ابقاء عناصر الاستراتيجية الثلاث متزامنة : فالوقت قد ينقضي وتنتهي السياسة الى الاهواء بين مقعدين . انه تجشم ثاقب ، بحيث يشد كل انسحاب عزيمة هانوي ، وتنشيط كل اطلاقة غضب حركة السلام .

* الفتنمة (Vietnamization) : مصطلح يتعلق بالحالة الفيتنامية .

وأشرت الى اخطار الفتنمة في مذكرتي التي بعثتها الى نيكسون في العاشر من أيلول عام ١٩٦٩ - وأعاد صياغة كثيراً منها أنتوني ليك ، مساعدي التنفيذي الذي أمسى الآن مستشار الأمن القومي للرئيس كلنتون . وحثت المذكرة أن الفتنمة لو عهدت عهيداً ، ربما يتعاظم جزع الشعب ، لا أن يتوارى ، وقد تلقى الادارة نفسها في أرض حرام بين الصقور والحمائم - جد مياسرة للصقور ومشارسة للحمائم . ومهدت بيانات الحكومة الصبابة الى ترضية الفريقين " الى ارباك هانوي وطمأنتها على انتظار خروجنا " .

[..... سيتمم " الفتنمة : صوب مآزق خطرة متفاقمة ، كلما دربنا طريقها .

- سيماثل انسحاب القوات الأميركية ، الى الشعب ، كفول مملح : كلما كثر العائدين الى أهليهم ، عظمت مطالبة الأميركيين ، وهذا الأمر سيفضي ، بالمحصلة ، الى مطالبة بانسحاب من طرف واحد - في غضون سنة ربما - وكلما عظم عدد المنسحبين ، شددت هانوي من وزرها ......

كل جندي أميركي ينسحب سيكون مهماً نسبياً الى الجهد في الجنوب ، طالما أنه يمثل نسبة أعلى من قوات الولايات المتحدة ، وأعظم من سبقه ....

- ربما لا تسبغ " الفتنمة خفضاً لخسائر الولايات المتحدة حتى المراحل الأواخر ، كما يمثل عدم تعلق نسبة الضحايا باجمالي عدد الجنود الأميركان في فيتنام الجنوبية . فلو شاء العدو قتل مائة وخمسين أميركيا كل شهر ، لااحتاج الى التعرض على جزء يسير من قواتنا ......] .

وبرهنت المذكرة أن هذه الأمور اذا ما بانت حقيقة ، ستبؤر هانوي جهدها في أحداث هزيمة نفسية لا عسكرية في الولايات المتحدة وستطيل أمد الحرب وتبقي المفاوضات ، بانتظار انقلاب للموقف الداخلي في أميركا - التخمين الذي انجلى واقعاً .

تنبأت المذكرة بكثير من المآزق التي تلت ، ولكن حكم عليها بالعقم . وبالرغم من أنها طرقت مكتب الرئيس ، لم اقتفي أثرها الى المكتب البيضوي ، ولباعث واحد . ان الأفكار في واشنطن لا تبيع نفسها ويجد كثير من مؤلفي المذكرات الراغبين عن المجاهدة من أجلها كأن كلماتهم ليست بدلائل عمل . وعندما أعرضت عن المعارضة الحرة والجيشان الداخلي الذي أثار خيار اقحام تسوية مع هانوي ، فأنني لم أقسر قط اعتباراً منتظماً لمثل هذا الخيار . لم يتهيأ لنيكسون الحافز للأعراض عن قراره لصالح خيار الفتنمة طالما لم تعبر عن تحفظاتها جميع وكالات الحكومة المعنية بفيتنام . ولم تفعل جميعها هذا الأمر بعد أن صعقتهم موجات المظاهرات للمسير الى خط النار .

واستعرضت مضض هذا الخيار لأفصح أن الخيارات المتيسرة كانت شروراً متقابلة وقت تبوأ نيكسون لمنصبه . والحقيقة التي انجلت ان الفتنمة كمعضلة مبرحة لم تصير الخيارات الأخرى مستقطبة أعظم . وهذه الواقعة المركزية قد راغت عن النقاد الأميركان في حرب فيتنام ، كما فعلت مع كثير من عامة الأميركان في قضايا أخرى : يعتمل في السياسة الخارجية تقرير بين خيارات مشوهة . وما قابله نيكسون في فيتنام من خيارات كانت في أكثرها على

جانب متظاه من الصخب . وغداة عشرين عاماً من الاحتواء ، كانت أميركا
تدفع ثمن الافراط و لم تخلف خيارات بسيطة .

وبالرغم من اعتوار منحى الفتنمة بالخطر ، كانت أفضل الخيارات المتيسرة
للتوازن . ودلت دلوها في تطبيع الأميركان وشعوب فيتنام الجنوبية على مطرق
الانسحاب الأميركي المتحتم . فلو ظفرت أميركا بتقوية فيتنام الجنوبية -
بتخفيض القوات - لتحقق المصبا الأميركي . ولو خاب مسعاها و لم يبق لها خيار
سوى الانسحاب من جانبها ، سيطرأ الانفلات الأخير بعد أن تتقلص القوات
الأميركية الى مستوى يوهن أخطار الهيجانات والاذلال .

وعندما أبصرت هذه السياسة الضياء ، وطد نيكسون العزم على بذل جهد
جبار للتفاوض ، وسألني أن أضطلع بهذه المهمة . وأوجز الرئيس الفرنسي ،
جورج بومبيدو ، بما هو امامي . وطالما تدبر مكتبه اجراءات مفاوضاتي السرية في
باريس مع الفيتناميين الشماليين ، فقد أوجزت له الأمور بعد كل جلسة
تفاوضية . وذات جلسة ، كنت أشعر مخلوع الفؤاد ، بنحو متميز حول المأزق
القادم فأشار بومبيدو بروحه المرحة الاعتيادية : " انك محكوم بالنجاح " .

وتعتق الحرية للمسؤولين العامين بتحديد فترة خدمتهم لبلدهم أو المهام التي
تنتظرهم . فلو وهبت خياراً للقضية ، سأنتقي بنحو موقن مفاوضات مع طرف
أكثر مواءمة من لي دك ثو . لقد عززت التجربة ما أسبغته العقيدة على هو
وزملائه في اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي الخاص بهانوي - ان حروب
العصابات بين المنتصرين والمدحورين ، وليست تعلقاً بالتسوية . وفي مراحل

الفتنمة البكر ، لم ينطبع أمرها في هكذا أشخاص حيث سألني لي دك ثو ، الواثق
عظيماً ، في عام ١٩٧٠ " أنى لك أن تبصر هيمنة بجيش فيتنام الجنوبية وحدها ،
عندما لم تظفر بحرب ، يعاضدها في ذلك نصف مليون أميركي ؟ "

لقد كان سؤالاً متردداً أغاظنا أيضاً . وفي بحر أربع سنوات ، أوشك
مؤازرة سيغون وأضعاف هانوي من حظوة النتيجة المحبذة . وحتى في ذلك
الأمر ، سيقتضي حصاراً واحباطاً لهجوم فيتنام الشمالية وقصفاً شديداً لحمل
هانوي على التفاوض .

وتنافت التجربة الأميركية مع ظاهرة خصم ضروس كلية ولا يأبه للتسوية
- وفي الحقيقة يسعى لصد الأمور بقوة السلاح في حين تاق عدد هائل متسام من
الأميركان الى التسوية . بيد أن قادة هانوي قد شنوا حربهم ليظفروا ، لا يبرموا
عقداً . وهكذا لم تتواكب مع حسابات هانوي ، ضروب الجدال الأميركي -
الاقتراحات المتعددة لوقت القصف ووقف اطلاق النار ومواعيد مضروبة
للانسحاب الأميركي وتشكيل حكومة ائتلافية . و لم تفاوض هانوي الا عندما
بقرت بضغط شديد - بعد تلغيم موانيء فيتنام الشمالية . ومع ذلك كان اللجوء
الى الضغط بدقة ما أشاط غضب النقاد في الداخل .

وحصلت المفاوضات مع الفيتناميين الشماليين على صعيدين ، وكان ثمة
لقاءات رسمية لأطراف النزاع الأربعة ، في فندق ماجستيك في باريس حيث ضمت
الولايات المتحدة وحكومة ثيو ومنظمة جبهة فيتنام الجنوبية وحكومة هانوي .
وبالرغم من سلخ أشهر في النقاش حول صورة الطاولة التي ربما تجثو عليها منظمة

جبهة فيتنام الجنوبية من دون أن تعترف بها سيغون ، فقد شقت المفاوضات الرسمية درباً لها . كان المحفل واسعاً كثيراً ، ولم ينثن العامة عن مطالبهم بينما كانت هانوي راغبة تماماً عن منح سيغون باءة مماثلة .

وهكذا واصلت ادارة نيكسون ما يقال لها الحوارات الخاصه - أي السرية - التي كانت مقصورة على وفود أميركا وفيتنام الشمالية وأعطاها الضوء الأخضر أفيريل هاريمان وكايرس فانس فاستهلت في الأشهر الأخيرة من ادارة جونسون . لقد أرخ وصول لي دك ثو الى باريس استعداد هانوي الى جولة من المحاورات . وبالرغم من أنه الشخص الخامس في ملكية هانوي ، ازدهى بالدعوة أنه بمجرد مستشار خاص الى كسان ثي ، موظف وزارة الخارجية والرئيس الفني لوفد فيتنام الشمالية في فندق الماجستيك .

كان مبوأ أميركا التفاوضي يفصل بين القضايا العسكرية والسياسية ولم يتحور بعد عام ١٩٧١ ودعا هذا البرنامج الى وقف اطلاق النار يردفه انسحاب كامل للقوات الأميركية ووقف لحملات الامدادات والتعزيز من الشمال . وسيندر المستقبل السياسي لفيتنام الجنوبية الى منافسة سياسية حرة . ومكث موقف هانوي المفاوض ، حتى اكتوبر عام ١٩٧٢ ، يطالب بموعد نهائي لانسحاب أميركي غير مشروط وحل حكومة ثيي . كان هذا الموعد النهائي ثمناً لطرق مفاوضات جميع القضايا الأخرى ، التي ستتوقف بصرف النظر عن نجاح سائرها . كانت أميركا تطالب بالتسوية وهانوي تسأل عن الامتياز ، وما كان ثمة درب وسط ريثما تدرك التسوية بتوازن القوى - الأمر الذي طال ما دام توازن القوى ينبض بالحياة .

ومكثت أميركا ، من جانبها حسب ، تطالب بالاجتماعات حيث صيرت وسيطا الجنرال فيرنون والترز ، الملحق العسكري في سفارة الولايات المتحدة بباريس . (تمتع والتر في ماتلا من عهد بمهنة متميزة بصفته نائباً لمدير المخابرات المركزية وممثلاً دائماً للأمم المتحدة وسفيراً في المانيا ، زد على اضطلاعة بكثير من المهمات الرئاسية الحساسة) . وراوغت هانوي لتجعل الولايات المتحدة أول من يثب الخطوة الأولى ، لتقيم سيادة نفسية . أظهر هذا الأسلوب مدى روعة أحكام هانوي لازمة أميركا الداخلية . فلو أطال لي دك ثو فتره بقاءه في باريس من دون أن يتصل بحكومة الولايات المتحدة سيمنح يقيناً كثيراً من التلميحات الى الصحفيين وأعضاء الكونغرس الزوار حول اخفاق ادارة نيكسون في استغوار نوايا هانوي بالسلام على نحو جلي . وفي ضوء حالة الجدل الأميركي الداخلي ، ستلقى هذه التلميحات موكداً تياراً باحراً ، وكان بامكانه فعل ذلك عندما كانت الحوارات جارية .

وأبان زيارات لي دك ثو الى باريس بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٢ ، تعقد خمسة اجتماعات أو ستة في خضم أشهر قلائل . (كان ثمة اجتماعات أيضاً مع كسان ثي لوحده وبرهنت أنها أضاعة من الوقت ، عند غياب لي دك ثو) .

لقد احتذت المفاوضات منحى رتيباً حيث يبدأ كسان ثي ، بصفته الرئيس الرسمي لفريق فيتنام المتفاوض ، بالرد عينه الذي لا ينقطع عن مبوأ فيتنام التفاوضي والذي ألفناه منذ جلسات فندق ماجستيك ويمهد الطريق بعدها الى مستشاره الخاص ، لي دك ثو " . يوجه بعدها ثو ، ذو اللباس الأسود والقصير على الطريقة ما ، خطاباً مطولاً مماثلاً يبؤر القضايا الفلسفية بعدسته الخاصة

مزاوجاً اياها ببعض التفسيرات الملحمية لصراعات فيتنام السابقة من أجل الاستقلال ٠

وريثما شارفت المفاوضات على اختتامها ، بالذات تقريباً ، مكث فحوى لي دك ثو عينه : رجحان كفة توازن القوى لصالح هانوي ، وأطراده على ذلك ، وسعي الحروب المخاضة الى بلوغ غايات سياسية ، مما يعني سخف وأباءة اقتراح أميركا على وقف اطلاق النار وتبادل الأسرى ٠ وأصر أيضا ، في سعي لادراك حل سياسي ، أن تطيح الولايات المتحدة بحكومة فيتنام الجنوبية ٠ (وبلغ من أمر لي دك ثو أن يقترح آملاً باجراء يكمل هذا المعنى – اغتيال **ثـي**) ٠

وكمن في دبر طريقة لي دك ثو الجمود استراتيجية أساسية في الابلاغ أن الوقت لمصلحته لأنه في مكمن يقدره على تسخير انقسامات أميركا لخاصته ٠ وبتصرم الحلقة الأولى من الاجتماعات بين شباط عام ١٩٧٠ ونيسانه ، دأب على اباءة وقف اطلاق النار والانسحاب في بحر خمسة عشر شهراً وتفيتر حدة القتال وحيادية كمبوديا ٠ (وما يثير الدهشة ألا يتطرق قط ثو الى القصف " السري " للمقدسات في كمبوديا ، مع أنه لم يغفل في قائمته عن جميع التفاصيل) ٠

وأبان الحلقة الثانية من المفاوضات ، من أيار عام ١٩٧١ وحتى تموزه ، قذف لي دك ثو بصورة أخرى من الاستهكام ٠ واقترحت منظمة جبهة فيتنام الجنوبية في محفل عام خطة ذات سبع نقاط بينما اقترح لي دك ثو برنامجاً مختلفاً ذا تسع نقاط أكثر تخصصاً وبعداً في محادثاته السرية مصراً أن ذلك أمره لبنة المفاوضات الحقيقية ٠ وفي الوقت عينه تعرض المتحدثون الشيوعيون المجاهرون

باجابة الى خطتهم ذات النقاط السبع وادارة نيكسون لهجوم بسبب الامساك عن الرد لاقتراح أجلى من خلاله المفاوضون الفيتناميون رغبتهم عن التفاوض ٠ ودأب هذا اللغز في سيره ريثما كشف نيكسون النقاب عنه علناً ، فنشرت هانوي " تفصيلاً " ذا نقطتين من النقاط السبع ، الأمر الذي شدد من الضغط على نيكسون ٠ وعندما أسدل الستار عن المفاوضات الأخيره ، ساءلت لي دك ثو عما فصّله ، بدقة ، الأطناب ذو النقطتين ، أجاب مبتسماً " لا أمر " ٠

وفي الجولة الثالثة من المفاوضات ، بين آب عام ١٩٧٢ وكانون الثاني عام ١٩٧٣ ، استجدت الأمور ٠ ففي الثامن من تشرين الأول ، أمسك لي دك ثو عن مطالبته أن تطيح أميركا بحكومة ثي ووافق على وقف اطلاق النار ٠ ومنذئذ ، جرت الأمور الى غاياتها ٠ أفصح لي دك ثو أنه كان متأصلاً في العثور على الحلول ، كما كان سادراً في غلوائه أبان فترة الاخفاق ٠ لقد صير حتى حديثه الافتتاحي شوقاً للتقدم ، بالرغم من طوله كالسابق ٠ ومع ذلك ، لم يأذن لاشراقة المفاوضات أن تعجز نزعته في خلع صفة القباحة على نفسه ٠ وكانت الجملة التي لفظها تعاقباً في كل صباح ، كشطر من ابتهاله : " أنك تبذل جهداً جهيداً وستحتذي حذو فعلك " ٠ وذات صباح ، أجهز على الموضوع والزم أميركا ببذل جهد عظيم حيث سيبادلنا الأمر ٠

وشطر من المعضلة ان قبالة لي دك ثو مصبا واحداً بينما أمام أميركا ، كقوة عظمى ، مصابي كثر ٠ وطد لي دك ثو العزم على تصعيد حرفته الثورية بالنصر ، بينما كان على أميركا موازنة الاعتبارات الداخلية قبالة الدولية ومستقبل فيتنام بازاء الحفاظ على دور أميركا العالمي ٠ لقد استطب لي دك ثو النفسية

الأميركية كجرّاح حذق يقوم بعملية جراحية على مريضه ، بينما كان على ادارة نيكسون القتال في جبهات عديدة بحيث نادراً ما سنحت لها الفرصة على شن هجوم دبلوماسي ٠

وفي الحقيقة ، كان على ادارة نيكسون مذ استهلال المفاوضات وغضونها أن تكرس قدراً هائلاً من الطاقة لدرأ نفسها من الاعتداءات على تفانيها الطيب ٠ وبالرغم من الايحاءات الكثيرة المنفردة من جانب ادارة نيكسون الى هانوي ، جرّ الرئيس على نفسه غداة توليه الرئاسة مباشرة تقريباً الانتقاد بعدم تفانيه الكافي للسلام ٠ وفي أيلول عام ١٩٦٩ عرضت الولايات المتحدة مساهمة منظمة جبهة فيتنام الجنوبية في العملية السياسية فانسحب نحو من عشر قواتها ووافقت على انسحاب كامل للبقية بعد التسوية ٠

ومع ذلك ادعى السناتور تشارلز كوديل من نيويورك ، في الخامس والعشرين من أيلول عام ١٩٦٩ ، بطرح حل يقتضي انسحاب كل القطعات الأميركية من فيتنام مع تصرم عام ١٩٧٠ ٠ وفي الخامس عشر من تشرين الأول ، ضربت البلاد موجات من المظاهرات بسبب أرجاء الأمور ٠ وأدان الحرب تجمع يضم نحو مائتي ألف شخص تجمهروا في مقاطعة نيويورك المالية ليستمعوا الى بل مويرز ، مساعد الرئيس جونسون وسكرتيره الصحفي ٠ وتجمع في نيوهيفن كرين ثلاثون ألفاً وفي واشنطن خمسون ألفاً على مبصرة من البيت الأبيض ، بينما احتشد في بوستن مائة ألف شخص ليستمعوا الى خطاب السناتور ماكفورن ، وشرعوا باطلاق طائرات تحمل كتابات وعلامات عن السلام وتفصح عن امتعاض الادارة للسلام ٠

ومثلما تجسد في حركة السلام ، لم تأذن انعزالية أميركا بمناقشة عمليات الانفلات وعاملت محاولات من هذا القبيل كايماءة خفية للادارة على مواصلة الحرب ٠ وعندما عصفت الحرب في الداخل كتناحر بين الخير والشر استحبت حركة السلام - لبواعث أنستها عالية الأخلاق - انهيار أميركا في فيتنام على النتيجة التي ربما ترهف جهازها الحكومي من أجل مغامرات خارجية أخرى ، بالرغم من أن هذه النتيجة " مشرفة " ٠

وهذه العلة في استحالة العثور على أرضية مشتركة بين حركة السلام والادارة ٠ وخفض نيكسون حجم القوات الأميركية في فيتنام من ٥٥٠ الفاً الى عشرين ألفاً في ثلاث سنوات ، وقل حجم الخسائر من ستة عشر ألفاً أو ثماني وعشرين بالمائة لأجمالي عام ١٩٦٨ الى نحو ستمائة ، أو حوالي واحد بالمائة ، لاجمالي عام ١٩٧٢ ، السنة الأخيرة للحرب ٠ ولم يضع هذا الأمر حداً للخشية والألم ٠ ولجسر هذا التباين الجوهري ، طاب لادارة نيكسون أن تودع فيتنام بشرف بينما آمنت حركة السلام أن الشرف ليتطلب خروج أميركا عن فيتنام ، بدون شروط ٠

ولو كان نهاية الحرب بالمصبا الوحيد ، لغدت حكومة سيغون في بصائر النقاد عائقاً للسلام لا نصيراً ، وتبدد منذ أمد آمد المفهوم الأول عن كينونة فيتنام الجنوبية عاملاً أولاً لأمن أميركا ٠ وكل ما اعتمل في فيتنام الاستشعار بأميركا كرفيق قذر ٠ وكانت بدعة النقاد الجديدة استبدال ثيو بحكومة ائتلافية ، وحتى لو كان ضرورياً قطع معونات أميركا الى فيتنام الجنوبية ٠ وتحولت فكرة حكومة ائتلافية كعلاج سيادة للجدال الداخلي في اللحظة عينها عندما أجلى مفاوضو

فيتنام الشمالية أن الحكومة الائتلافية ، بتعريفهم ، كناية عن تبوأ الشيوعيين زمام الأمور في الجنوب ·

وفي الواقع أعد الفيتناميون صيغة ذكية لارباك مستمعيهم الأميركان · وأقروا أن مصباهم هو حكومة " ائتلافية " ثلاثية تستوعب منظمة جبهة فيتنام الجنوبية (من خاصتهم) وعنصراً حيادياً وأعضاء من ادارة سيغون الذين وقفوا بجانب " السلام والحرية والاستقلال " · وككثير من مناورات هانوي الوقحة ، على المرأ أن يطلع على المطبوع الدقيق ليقرر الفحوى الحقيقي للاقتراحات التي تلوح رشيدة · ومنذئذ تجلى أن هيئة الأطراف الثلاثة لن تحكم سيغون ، ولكن ستتفاوض مع جبهة تحرير فيتنام الجنوبية من أجل التسوية النهائية · وبعبارة أخرى ، ستتفاوض هيئة شيوعية مع الفريق الشيوعي الكامل حول مستقبل فيتنام الجنوبية السياسي · كانت هانوي تقترح نهاية للحرب بالحوار مع أناها ·

ومع ذلك ، لم يكن هذا بالسبيل الذي طرقته القضية في نقاشات أميركا · وأكد السناتور ج وليم فلبرايت ، في كتابه " العملاق الواهن " أن الأمر بين حكومات متناحرة تستأثر الحكم لنفسها · وحث السناتور مكوغرن ، الذي أنس " حكومة خليط " في سيغون عام ١٩٧١ ، على انسحاب القوات الأميركية وقطع المعونة العسكرية الى جنوب فيتنام · كانت ادارة نيكسون متأهبة للمخاطرة بحكومة ثيي في انتخابات حرة يشرف عليها دولياً · وما أبت فعله الاطاحة بحكومة حليفة نصبها سلفها لكي تنفلت أميركا ·

وتعلقت معايير حركة السلام للنجاح ، ببساطة ، عن مدى نهاية الحرب حقيقة · ولو كانت الاجابة سلبية سيحكم على دور أميركا المفاوض بالتشعب · ولن تدين حركة السلام هانوي ، لموقفها المفاوض أو لطريقتها في رسم الحرب ، وهكذا تهب هانوي كل باعث على التخبط · وفي عام ١٩٧٢ ، سحبت الولايات المتحدة من جانبها حسب نصف مليون جندي · عرضت سيغون رسمياً اقامة انتخابات حرة وسحب البقية الباقية لقوات أميركا في خضم أربعة أشهر من الاتفاقية ، ووافق ثيي على الاستقالة قبيل الانتخابات بشهر واحد · اقترحت الولايات المتحدة تكوين بعثة مختلطة للاشراف على الانتخابات ، مشروطة جميعها بوقف اطلاق ناري يشرف عليه دوليا وعودة أسرى الحرب · ولم تلغ كل هذه الاجراءات الهجوم على بواعثها وسياساتها ·

وعندما انسلخت الشهور ، عظم الجدل الداخلي في شرط هانوي المسبق لضرب الولايات المتحدة ، من جانبها ، موعداً للانسحاب كصيغة لانهاء الحرب · وعلى حين غرة غدت المواعيد النهائية المحددة وصمة لقرارات الكونغرس المناوئة للحرب (كان ثمة اثنان وعشرون في عام ١٩٧١ وأربعة وثلاثون في عام ١٩٧٢) ·

وبعد اللقاء بالفيتناميين الشماليين ومفاوضي جبهة تحرير فيتنام الجنوبية ، واصل أعضاء حركة السلام الأميركان ذكرهم لما " عرفوه " أن اطلاق سراح الأسرى وفض القضايا الأخرى ليتبع بعجلة عندما تلزم أميركا نفسها بموعد ثابت لا رجعة عنه · وفي الحقيقة لم تقطع هانوي على نفسها قط مثل هذا الوعد ، مصغية سمعها الى المخطوطة العتيقة عينها ذات المبهمات الملوبة التي احتذتها أبان

وقف القصف عام ١٩٦٨ . وأجزم لي دك ثو أن ضرب موعد سيخلق " شروطاً محبذة " لحل المعضلات الأخرى ، بيد أنه أصر ، عند بلوغ أمر المفاوضات حقيقتها ، أن الموعد النهائي اذا ما تقرر سيلتزم هو من دون النظر الى ما يطرأ في المفاوضات الأخرى حول وقف اطلاق النار واطلاق سراح الأسرى . وفي العالم الحقيقي ، ربطت هانوي أمر اطلاق سراح الأسرى ووقف القتال بالاطاحة بحكومة سيغون . ومكث لي دك ثو يفسر سبب بدأ الحرب ، لكأنّه ناشيء يدير محاضرة في العلم السياسي .

واتضحت أعظم سخريات الجدل الأميركي الداخلي أن هانوي في حقيقتها لغير مكترثة تماماً لانسحاب أميركا . وما برحت هذه الفكرة ملتبسة فهما في كثير من مادة الحرب . وريثما وضعت النقاط على الحروف تقريباً ، لم تعدل هانوي قط عن صيغتها الرسمية : موعد لا رجعة فيه لانسحاب أميركا والاطاحة بحكومة فيتنام الجنوبية . لقد كانت غير آبهة تماماً بنسبيات جداول الانسحاب المتنوعة ، التي صبا كثير من أعضاء الكونغرس المتبصرين القاءها الى أقدام هانوي ، ما خلا في ترويج الانشقاق الأميركي لأنها لم تبصر للصراع حسماً الا بالقوة . وشاءت بغبطة أن تتجيّب كل العروض التي تلقى في طريقها دون أن تترك الأمر يؤثر في موقفها التفاوضي . وأعتقد نقاد الحرب أن هانوي ستترشد لو أبانت أميركا رغبتها في درب ميل أبعد . ولكنهم ما أصابوا في حكمهم . وكل ما تناهى الى واشنطن من هانوي كان مبلغة المطالبة المتكررة بالاستسلام والانسحاب غير المشروط والاطاحة بادارة فيتنام الجنوبية الحالية واستبدالها بأدوات هانوية .

وبعدئذ وعندما تنضب أميركا من أوراق اللعب ، سيحصل التفاوض على الأسرى ، الذين من المتيسر اعادتهم كي تستقطع هانوي امتيازات أعظم .

وعندما استبانت الأمور ، أزف نقاش الانسحاب بمنقلب لحرب فيتنام بعد أن تحلت انتصارات الادارة انها نجاحات سيئة . وأستكن نيكسون في موقعه الذي يأبى ، خرب موعد نهائي للانسحاب الاّ لقاء أهداف أميركية ضرورية أخرى . ولكن عليه أن ينقد ثمن الاتفاق على نصر كامل **بعد** أن تلبى شروطه . وهكذا أرغمت فيتنام الجنوبية على موقع يحتم عليها الذود عن أناها يتيمة قبالة أشرس عدو ، بنحو أشد من كل حلفاء أميركا ، ، وتحت طائلة ظروف لم تسأل فيها أميركا قط أي حليف على تحقيقها . كانت القطعات الأميركية تجوب أوروبا منذ جيلين وذادت عن معاهدة صلح كوريا قوات أميركا نحواً من أربعين عاماً . وما هي الا فيتنام التي أرغمت أميركا ، بعد أن عصف فيها الانشقاق الداخلي ، على ألاّ تخلف قوات هناك . وفي هذا المنحى ، تعرت عن أي هامش للأمن عندما مس الأمر حماية الاتفاقية التي أدركت في نهاية المطاف .

وطرح نيكسون البنود الأميركية للتسوية في خطابين رئيسيين ، في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٧٢ وفي الثامن من آيار العام نفسه . وكانت هذه البنود : وقف اطلاق ناري دولي الاشراف وعودة الأسرى وأحصائهم وتواصل العون الاقتصادي والسياسي الى سيغون وترك المصير السياسي لجنوب فيتنام لتقرره الأحزاب الفيتنامية على أساس انتخابات حرة . وفي الثامن من تشرين الأول عام ١٩٧٢ ، وافق لي دك ثو على اقتراحات نيكسون الأساسية ، وتخلت هانوي في نهاية المطاف عن مطالبتها بتواطء أميركا معها في تنصيب

حكومة شيوعية في سيغون ٠ ووافقت على اطلاق النار وعودة الأسرى الأميركان والتحقيق بأمر المفقودين في العمليات ٠ لقد تركت حكومة ثيي معافاة ، وأذن للولايات المتحدة على مواصلة تزويدها بالعون الاقتصادي والعسكري ٠

لقد أبى لي دك ثو ، حتى ذلك الحين ، مناقشة هذه البنود ٠ وهذا الباعث لادخاله الاقتراح الذي أشار الى الاختراق ، في بيانه التالي :

[...... هذا الاقتراح ما رام تماماً الرئيس نيكسون اقتراحه : وقف اطلاق النار وانتهاء الحرب واطلاق الأسرى وانسحاب القطعات .... ونقترح عدداً من المباديء لحل المعضلات السياسية ، التي اقترحتها أنت أيضاً ٠ وسندع لأحزاب فيتنام الشمالية حسم هذه القضايا] ٠

ان كل ما تلى من مآس وجدالات لم يقدر على اثارة البهجة التي أصابتنا نحن ، مؤطري سياسة أميركا ، عندما أدركنا أننا كنا قاب قوسين أو أدنى من بلوغ مسعى أربعة أعوام عارمة ، وان لا تهجر أميركا الناس الذين ائتمنوا بها ٠ وأعلن نيكسون في مرات عديدة عن رغبته في حسم الأمر بسرعة لو لبيت شروطه ٠ وفي الرابع عشر من آب عام ١٩٧٢ ، أعلمت ثيي أن هانوي لو رضخت لاقتراحات الرئيس نيكسون ، ستنتهي أميركا على عجلة الى الاتفاقية ٠ ففي عنقنا أن نصون التزامنا وليس أمامنا غير خيارات يسيرة ٠ فلو أرجأنا هذا الأمر ، ستشرع هانوي باقتراحتها لترغم الادارة على تفسير علة أباءها لخاصة بنودها وتضرم في الكونغرس صوتاً يطالب بقطع المعونات ٠

ويمت هانوي بفعل خليط من العوامل باقدامها صوب الرضوخ لما أبته مراراً : الاستنزاف المتعاظم لمواردها نتيجة لتلغيم موانيء فيتنام والهجوم على المقدسات الكمبودية والليثوانية عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١ واخفاق هجومها ربيع عام ١٩٧٢ وغياب المؤازرة السياسية في موسكو وبكين عندما استأنفت ادارة نيكسون عملية قصف فيتنام الشمالية والخشية من أن نيكسون سيسوق الأمور الى حسمها ، لو أعيد انتخابه ٠

وربما كان العامل الحاسم أن حسبة هانوي الحذفين قد أخطأوا في اعتباراتهم ذات مرة في تقدير ما ستؤول اليه انتخابات عام ١٩٧٢ الرئاسية ٠ ولاحت هانوي كانها تؤمن أن فوز نيكسون الساحق الوشيك في الانتخابات سيطلق له العنان في مواصلة الحرب ٠ وأيقنت ادارة نيكسون أن الكونغرس الجديد لن يكون ودياً لسياسة نيكسون في فيتنام ، وربما أكثر عداءً لشخصه ٠ فمن بين مرامي قرارات الكونغرس قطع معونات الحرب ، الذي أوشك ان يحظى موافقة – ومن المرجح أنه أدرج الى القائمة التزويدية التي سوف تدخل في بداية عام ١٩٧٣ لتدفع نفقات الدفاع عن هجوم الشيوعيين الربيعي ، عام ١٩٧٢ ٠

وحييت أفق السلام رجاءة اقدار أميركا على الشروع بعملية الرأب الوطني واعادة الاجماع الحزبي الذي أطر السياسة الأميركية الخارجية عهد ما بعد الحرب ٠ وبعد كل الذي حصل ، فقد بلغت حركة السلام الى منتهاها في السلام بينما استشعر أولئك المجاهدون من أجل نتيجة مشرفة بأن عناءهم قد فاء بدينه ٠ وفي موجزي الذي شخص بنود الاتفاق الأخيرة ، لخصت خصوم أربع سنوات من الصراع الداخلي :

[ينبغي أن نفصح الآن أن ما من طرف في هذه الحرب قد سخر الغضب وما ان فئة في هذه الجدالات بيدها أحكمت التبصر الأخلاقي . وفي نهاية المطاف حققنا اتفاقية لم تبدد المستقبل السياسي لحلفاء أميركا ، وهي اتفاقية تحتفظ بعز جميع الأطراف احترامهم الذاتي . اننا عندما برأنا من جروح الهند الصينية فقد شفينا جروح أميركا] .

ومع ذلك توارى أوهن آفاق الوحدة القومية من دون رجعة في قضية كمبوديا . فطالما كانت كمبوديا المسرح الوحيد في صراع أميركا في الهند الصينية التي لم يرثها نيكسون من أسلافه أضرمت جدالات مشايعة محيلة ذلك الأمر الى أسوء جادلات حقبة فيتنام .

ولست أنوي نفض الغبار عن هذه الجدالات هنا ، فتفاصيلها في مكان آخر . وتختصر اتهامات نقاد للادارة في مسؤوليتين مركزيتين : توسيع نيكسون غير الضروري لحلبة الحرب صوب كمبوديا ، وهكذا غدا في عنق السياسة الأميركية وزر المسؤولية الأولى للمذبحة الذي نفذها الشيوعي خمر روج بعد نصره في عام ١٩٧٥ .

كانت فكرة توسيع نيكسون العابثة لحلبة الحرب تجسيداً آخراً للوهم الاستراتيجي في عامي ١٩٦١-١٩٦٢ في قضية لاوس ، المعني اقصار دور أميركا في الحرب على فيتنام الجنوبية حتى لو كانت هانوي تقاتل في حربها على ثرى الدول الثلاث من مسرح الهند الصينية . وشيد جيش فيتنام الشمالية شبكة من المقدسات في بدن كمبوديا عبر حدودها مع فيتنام الجنوبية تماماً فأطلقت منها

تعرضاتها على قوات أميركا وفيتنام الجنوبية . وزودت هذه المحارم بالمؤن عبر مجر هوشي مينه المار بلاوس أو عبر ميناء كمبوديا البحري في شبها نوفكيل - وكلها خروق فاضحة لحيادية كمبوديا . وعندما حثت عمليات الانسحاب الأميركية خطاها ، كان على الموقف العسكري في فيتنام الجنوبية والقوات الأميركية أن يتعرى لو تركت شبكة التعبئة موفورة وانخفض عدد القطعات الأميركية قبالة عدد هائل من جنود فيتنام الذين يتمتعون بموارد لا تنضب . وهكذا أصدرت ادارة نيكسون قرارها الحربي على مهاجمة أراضي المحرمات جواً في عام ١٩٦٩ ، وبراً في عام ١٩٧٠ . كانت هذه الهجمات رداً ثأرياً على موجة اعتداءات فيتنام الشمالية على الجنوب ، التي كانت تردي أربعمائة أميركي كل أسبوع ، وخرقاً " لجهل " هانوي لما أقدم عليه الرئيس جونسون في وقت القصف عام ١٩٦٩ : ان التعرضات البرية استراتيجية لتدريع انسحابات الجنود الأميركان ، التي كانت تبلغ مائة وخمسين ألفاً كل عام .

ومن دون تهديد قواعد فيتنام الشمالية التعبوية ، لن ينبض بالحياة أيما استراتيجية أميركية مرئية . وفي كل حال ، طربت السلطات الكمبودية لهجوم أميركا ، حيث أبصرت فيه تدريعاً لحيادية بلادهم ، فما من أحد قد وجه الدعوة الى فيتنام الشمالية للقدوم الى كمبوديا .

ومع ذلك غدت الخطوتان الأميركيتان العسكريتان من القضايا العاطفية العظيمة في الولايات المتحدة . وأمست كمبوديا ، على حين غرة ، متمثلة في نقاش فيتنام الأساس . لقد عكست سياسة الادارة استراتيجية ، بينما صب النقد جل اهتمامه في الشرعية الأخلاقية للحرب نفسها . وما هول هذا الأمر عجز

الأمة في سبر أغوار طبيعة العقيدة الثورية ولدادتها . وتشير كل الأدلة أن خمر روج كان متعصباً عقائدياً في مستهل دراسته في الخمسينيات في باريس . ووطد العزم على استئصال مجتمع كمبوديا الحالي والاجهاز عليه وفرض خرب ممن الطوبوية باباده كل من لهم حتى أوهن صورة من التعليم " البرجوازي " .

ولا ترمي هذه الصفحات لايجاد حكم نهائي لأمور جاشت فيها المشاعر بأعظم صورة بحيث أنجبت لها مادة متوهنة في الفتره البينية . ولكن في عنق أميركا الاقرار ان خمر روج هو القاتل وان الكمبوديين من نقد عقوبة الانشقاقات الأميركية ، بصرف النظر عن الحكم الأخير لحكمة أميركا الحربية في كمبوديا . و لم يدرك النقاد الذين عسروا مواصلة المعونة الأميركية للحكومة الكمبودية في سعيها لمقاومة مذبحة خمر روج ، ان حمام الدم سيردف قطع المساعدة الأميركية التي كانوا يتبنونها وأحدثوها بعدئذ . ويقيناً أنهم هلعوا من أمرها .

ويكمن اختبار المجتمع في مدى جسره للهوات في درب تحقيق الغايات المشتركة ومدى معرفته بفلاح هذه المجتمعات في الاصلاحات ، وليس في الصراعات . لقد أخفقت أميركا في هذا الاختبار في الهند الصينية .

ومع ذلك كانت الجروح جد غائرة بحيث لم يصب السلام من البهجة الا نزراً . وفي كل الفرص التي سنحت للاتفاقية لتغدو عجلة الشفاء الوطني ، فقد أهزلتها الأشهر الثلاثة من التوقف لما بين الوصول الى الاتفاقية المبدأية ووقت توقيعها ، والأسمى من ذلك كله ، قصف الطائرة ب - ٥٢ منطقة هانوي في الشطر الثاني من كانون الأول عام ١٩٧٢ . وبالرغم من طفافة الضرر المدني ،

أحدثت الموجة الصاخبة من المظاهرات المناوئة للحرب استنباطاً لحالة من الراحة المستنفدة والقلقة ، عند توقيع الاتفاقية في السابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٧٣ .

كان المحتجون ، من جانبهم ، غير راضين بقبول هانوي لبنود سلام أميركا . وتوجسوا خيفة أن مفهوم نيكسون عن السلام لو نهض ، قد تستقطب أميركا كرة أخرى الى نفس الالتزام الدولي المفرط الذي سمت فيه فيتنام آية محتقرة . وهكذا استقبلوا اتفاقية السلام بالشك عينيه الذي كانوا قد أبصروا فيه سنة منحى أميركا في الحرب ودبلوماستها . وجادل النقاد ، ان الاتفاقية روغة سياسية ، فالبنود عينها مذكورة قبل أربع سنوات ، وانها خيانة ثيي - بالرغم من أن الاطاحة بثيي كان مغزى مركزياً من مطالب حركة السلام ، سنوات عدداً .

وما من أمر نأى عن الحقيقة ، كما فعل الاقتراح أن الاتفاقية مع هانوي قد ابرمت للتأثير في الانتخابات الوطنية . وفي الحق ، عد نيكسون مسألة البلوغ الى اتفاقية قبيل الانتخابات ملزومية تدرع تقدمه في الاقتراعات عن أي هجوم ، ما خلا الخطر الذي يحدق به من جراء الجدل حول بنود السلام . وكان على حافزه التقدم بالاتفاقية الى شفا نقيض تماماً من زعم النقاد : لم يشأ للاعتبارات الانتخابية أن تعتور درب اتفاقية وعد الأميركيين بها مراراً وتكراراً ، وانه سينتهي اليها حالما تلبى شروط الادارة .

وادعت احدى الخرافات اللجوج حول سياسة ادارة نيكسون في فيتنام أن نيكسون عمر الحرب أربع سنوات سدى طالما كان من الممكن تحقيق هذه

الشروط قبل أعوام أربعة • ومعضلة هذا الطرح في تناقضه مع كل الحقائق الجلية • ويفصح السفر التأريخي بامر لالبس فيه ان أميركا حسمت الأمر بعجلة حالما تحققت الشروط التي أبتها فيتنام الشمالية مراراً أبان السنوات الأربع السابقة •

ويقيناً أن عام ١٩٧٥ قد أزف بانهيار الجهد الأميركي في الهند الصينية ، الأمر الذي كان سيطرأ في مرحلة أبكر لو كان مقصد أميركا الامتياز • بيد أن الادارة الأميركية والشعب لم يتوخيا مثل هذه الهدف حيث عبر كل مرشحي الانتخابات الرئاسية في عام ١٩٧٢ في حملاتهم الانتخابية انهم يرومون التسوية لا الامتياز • ومع ذلك للقاريء الحرية في استنباط الأمر عندما يعيد شريط الأحداث لمعرفة مدى قدر الامتياز كمرمى لعام ١٩٦٩ • وليس هنالك أمر في الحملة السياسية لعام ١٩٦٨ ما يفصح بتفضيل الشعب الأميركي والأحزاب السياسية لهذا المآل •

ولم يتوار هذا الكرب مع اتفاقية باريس • وحالما وضعت الحرب أوزارها ، يمم الجدل صوب حق أميركا على اقحام السلام • وساورت الشكوك جميع أفراد ادارة نيكسون حول تزعزع الاتفاقية • ولقد انتهينا الى أقصى حد نستطيع طرحه ، كما وعد نيكسون على الدوام أن يفعل • وخلف الجيشان الدخلي الادارة قبالة حيز تناوري ضائق •

ومع ذلك آمن نيكسون وأنا وكثير من أعضاء الادارة أن بنود الاتفاقية العسكرية والاقتصادية لتقدر فيتنام الجنوبية على مقاومة الضغوط المدروكة من

الشمال ، شريطة أن تذعن فيتنام الشمالية الى شطر الاتفاقية الذي يحرم معاودة التسلل • واعترف نيكسون مراراً أن الخروقات ستطرأ وبقوة لا تردع أو تقاوم من دون المعونة الأميركية • وتأهب لتشجيع فيتنام الشمالية في الانخراط ضمن المجتمع الدولي ببرامج التعاون الاقتصادي • ولكن اذا ما قدر للمحاولات بالخيبة ، فلن تحكم القوة الجوية في فرض الاتفاقية حتى في اخلاد اعضاء ادارة نيكسون أو في اعلاناتها العامة •

وعندما اختتمت الحرب ، حرّقت الادارة أسنانها لاختبار القوة التي علمتها التجارب برجحان حصولها عند تنفيذ الاتفاقية • ووضعنا على عاتقنا الحق - أو بالأحرى المسؤولية - في الدفاع في اتفاقية ضحى خمسون ألف أميركي بأرواحهم من أجلها • واذا لم يأذن لأمة على تعزيز بنود السلام ، فمن الأحرى لها أن تهجر قضيتها بصراحة وببساطة • وأعلن نيكسون وكبار مستشاريه عن نيتهم للذود عن الاتفاقية في مناسبات عديدة - فمثلاً ذكر التقرير السنوي لسياسة نيكسون الخارجية في الثالث من آيار عام ١٩٧٣ :

[مثل هذا المنحى (الخروقات الكبيرة) ليهدد غنائم سلام الهند الصينية التي تحققت بالمشقة ....ولقد أخبرنا هانوي سراً وعلانية أننا لا نطيق انتهاكات الاتفاقية] •

ويعيد مخطط السنوات الخمس المنصرمة دائرته • وربما يصر رئيس سليم جديد الانتخاب على اجراءات عسكرية حادة تتطلب لارغام الاتفاقية • ولكن مثل هذه الفرصة قد توارت حين أضنت ووترغيت الرئاسة •

وما كانت الاتفاقية بارغام ذاتي ، لقصور مثل هذا الأمر • ولم تكف فيتنام الشمالية عن هدف وحدة فيتنام في ظل حكمها وما كان لها أن تشيح عن مراميها الدائمة بمجرد توقيع ورقة في باريس • لقد انجدت اتفاقيات باريس الولايات المتحدة من الصراع العسكري في فيتنام ، بيد أن خط فيتنام الجنوبية في العيش ليتوكأ على المعونة الأميركية • وكان على الكونغرس أن يقرر مواصلة سياسة بأسلوب الاحتواء في الهند الصينية غداة انسحاب قطعاته • لقد قرر ضد هذه السياسة •

وشرعت حتى المعونة الاقتصادية الى فيتنام بالاختناق • ففي عام ١٩٧٢ صوت الكونغرس ببليوني دولار مساعدة ، وانخفضت في عام ١٩٧٣ الى بليون وأربعة أعشار البليون ، في حين بلغ هذا الرقم نصفه في عام ١٩٧٤ ، بالرغم من أن أسعار النفط قد تضاعفت أربع مرات • وفي عام ١٩٧٥ ناقش الكونغرس منحة نهائية بمقدار ستمائة مليون دولار • أما كمبوديا ، فقد قطعت عنها المعونات تماماً • وفي عام ١٩٧٥ ، استولى الشيوعيون على كمبوديا وفيتنام الجنوبية في مدى أسبوعين بينهما ، واضعين حداً لبؤس أميركا العاطفي من دون أن تتنفس الهند الصينية الصعداء •

لقد دحرت المثالية الأميركية ، الالهام الأكثر للنظام العالمي لما بعد الحرب ، نفسها بخاصة أسلحتها ، وشخص أربعة رؤساء فيتنام حيوية لأمن أميركا • وعرف رئيسان من الأحزاب المختلفة شرف أميركا دون التخلي عن أولئك الذين يأتمنون بتصريحات أميركا • وقد ظفر نيكسون بفوز ساحق في انتخابات عام ١٩٧٢ على أساس صحة هذه الافتراضات • وبوشاح أميركي تقليدي ، أدرك

جانبا النقاش في قضية فيتنام مراميهم بصيغ مطلقات أخلاقية دون أن يعثروا قط على الوسيلة التي تجسر هوتهم •

وحتى بعد عشرين عاماً ، لم ينته الجدل العام الى أفق موضوعي ويلوح تيقاً الى صب اللوم لا استنباط العبر من هذه التجربة • وحسم النصر الشيوعي السريع احدى النقاشات المستديمة لعهد الحرب الفيتنامية – مدى كون شبح حمام الدم المتوقع في أعقاب تولي الشيوعيين من صنع بحث صاغة السياسة عن حجج لمواصلة الحرب •

لقد حصلت المجزرة في كمبوديا فنحر القادة الجدد في أقل تقدير خمسة عشر بالمائة من شعبهم • وكانت مأساة فيتنام أوهن شدة • ومع ذلك زج مئات الآلاف من الفيتناميين الجنوبيين الى " معسكرات اعادة التعليم " ، الاسم الآخر لمخيمات الاعتقال • واعترفت السلطات الشيوعية ، مع استهلال عام ١٩٧٧ ، باحتجاز خمسين ألفاً من السجناء السياسيين ، بالرغم من أن أكثر المراقبين استقلالاً ليعتقدون أن هذا الرقم يدنو من المائتي ألف • وفي ما يتعلق بالجبهة الوطنية لتحرير فيتنام الجنوبية ، أجلى غزو فيتنام الشمالية أن مراميهم الحقيقية متباينة تماماً • وفي عام ١٩٦٩ ، مسخت هذه الجبهة الى ما يقال لها حكومة الثورة الاقليمية لجمهورية فيتنام الجنوبية • وفي حزيران عام ١٩٧٥ ، وبعيد شهرين من سقوط سيغون ، التقت " وزارة " الحكومة وقررت استعادة محدودة للتسهيلات المصرفية في فيتنام الجنوبية ، وأقيمت لجان استشارية في المساعدة بتدبير البلاد ، بما فيهم بعض السياسيين غير الشيوعيين الذين جابهوا ثيو • لقد أقامت جمهورية فيتنام الجنوبية علاقات دبلوماسية مع ثمانية وعشرين بلداً •

وكان استقلال فيتنام الجنوبية أدنى ما تطالب به هانوي ، حتى الشيوعي ضربه : أي قمع الفتنة وهي في مهدها . لقد ألغي قرار " الوزارة " بعجلة ولم تهب اللجان الاستشارية أيما دور ، في حين لم يرسل سفراء جمهورية فيتنام الجنوبية الى الخارج قط . ومكنت حكومة فيتنام الجنوبية بأيادي السلطات المحلية العسكرية التي يديرها حزب فيتنام الشمالية الشيوعي والمسؤولون الحكوميون . وفي حزيران عام ١٩٧٥ ، شرع قادة هانوي والصحافة بحملة اعلانية تدعو الى وحدة مبكرة للبلد – أي ضم رسمي للجنوب – الأمر الذي تحقق بعد عام .

وبالرغم من سقوط كمبوديا ولاوس حسب من قطع الدومينو ، استشعرت الثوريات المناوئة للغرب في العديد من مناطق المعمورة بالشجاعة . وثمة شك يعتري تدخل كاسترو في أنغولا والاتحاد السوفيتي في أفغانستان ، لوما الاحساس بانهيار أميركا في الهند الصينية وخذلانها في ووترغيت . وفي الوقت ذاته ، أثير الجدل بمعقولية عظيمة ان فيتنام الجنوبية لو خرت صريعة مع بداية الستينيات ، سيطيح بالحكومة انقلاب الشيوعيين الذي ظفر تقريباً عام ١٩٦٥ وينجب كارثة استراتيجية أخرى .

ونقدت أميركا لمغامرتها في فيتنام ثمناً لا يضاهي أي مكسب مبصور . ومن الفداحة الواضحة المغامرة بالكثير لقضايا سيئة التعريف . لقد انهمكت الولايات المتحدة في المقام الأول لأنها طبقت حرفياً مبادىء سياستها الأوروبية الناجحة في رقعة تتباين ظروفها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية جذرياً . ولم تأذن المثالية الولسونية بتباين حضاري .

وعجزت أميركا عن التحكم بمعضلة استراتيجية غريبة التوت فيها المرامي العسكرية والسياسية ، وفي وقت كانت أميركا جد مثالية بحيث لم تجذر سياستها بالمصلحة الوطنية وشددت من أزرها على متطلبات الحرب العامة في مبدأها الاستراتيجي . واساءت أميركا في حساباتها لمعوقات الديمقراطية في مجتمع هيكلته الكنفوشية ، وفي شعب يناضل من أجل الهوية الوطنية وفي معمعة هجوم شنته القوى الخارجية .

وربما كان التحام المجتمع الأميركي أخطر قطع الدومينو التي تهاوت بفعل حرب فيتنام . وملئت المثالية الأميركية في المسؤولين والنقاد مفهوماً واهماً في انحدار المجتمع الفيتنامي بيسر وسرعة صوب ديمقراطية على الطراز الأميركي . وباتت الخيبة محتومة عندما اضمحل هذا الافتراض المتفائل وبانت فيتنام أقصى كثيراً من الديمقراطية . وكان ثمة التباس مبتور عن طبيعة المعضلة العسكرية وأساء المسؤولون في اجلاءهم الأمور ، لأنهم افتقروا لمعايير التقييم والتبست عليهم القضايا . وعندما جهر هؤلاء المسؤولون بابصارهم الضياء في منتهى النفق ، كان ذلك حقيقة ما أنسه أكثرهم . ومهما وهمت تقييماتهم مسارها فقد خدعوا أنفسهم فوق كل اعتبار .

ودأبت العادة ان تطرق القضايا العامة المعقدة أبواب أعلى صاغة السياسة ، لأن الأمور اليسيرة غير الجدلية تحسم بالاجماع ضمن مستويات أوطأ في الحكومة . وحالما يتخذ القرار ، مهما عظمت شكوكه في الداخل ، يلتزم صاغة السياسة كلية لذلك يغدو من الموهم تماماً التأكيد على تقديمه . وعلاوة لذلك يؤلف هذا الانطباع الخاطيء مراراً الجنوح صوب البيروقراطيات لتنميق خاصة

منجزاتهم . وتتواصل هذه الجدالات المرة لاضطرام ما حصل فعلاً في الهند الصينية ، منجبة هوة فكرية في ردح تسن أكثر من عقدين وشغل أربع ادارات من الحزبين السياسيين كليهما . ولن تتماثل أميركا الى الشفاء الاّ عندما تشرع باستنباط عبر من هذه التجربة الملهبة .

وباديء ذي بدء ينبغي للولايات المتحدة ، قبيل الزام نفسها بصراع ، أن تتفهم بوضوح طبيعة التهديد الذي ستواجهه والمرامي التي ستنتهي اليها واقعياً . ويجب أن تتمتع باستراتيجية سياسية رائقة وتعريف غير مبهم لما يؤلفه المخاض السياسي الظافر .

وعندما تقطع الولايات المتحدة على نفسها عهداً بالفعل العسكري ، لن يكون لها خيار غير النصر ، كما نصح الجنرال دوغلاس ماك آرثر . ان الايجاسات لا يحققها التنفيذ المتردد وستنخر الحرب المطولة ومستطاعه ورغبة الشعب الأميركي . ويقتضي ذلك تفصيلاً دقيقاً للغايات السياسية واستراتيجية عسكرية لتحقيقها قبيل اصدار قرار الحرب .

ان الديمقراطية مشلولة عن قيادة سياسة خارجية جادة اذا لم تتعهد فئاتها المجاهدة باوهن التزام مع بعضها . ويغرب الالتحام حالما يغدو الظفر على الخصوم في الداخل مرمى السياسة اليتيم . كان نيكسون ذا ثقة ان من مسؤولية الرئيس الأخيرة الذود عن مصلحة وطنية ، حتى لو سلك الأمر منحى يضد منشقي بلده المتأججين . وأظهرت فيتنام عجز الرؤساء عن قيادة دفة الحرب بأمر تنفيذي . وطرق نيكسون ، المواجه للمظاهرات الصاخبة والقرارات الكونغرسية المائلة

للانسحاب المنفرد ، باب الكونغرس مع استهلال رئاسته وشخص استراتيجيته وطالب بتصديق واضح لسياسته . فلو لم يخط بمثل هذا التصديق ، كان عليه أن يطالب بصوت لتصفية الحرب وينصب المسؤولية على كاهل الكونغرس .

وذكرنا في موضع سابق أن نيكسون قد أبى مثل هذه المشورة لأنه أدرك التاريخ غير غافر للمآلات المروعة التي عدها تنازلاً عن مسؤولية تنفيذية . انه لقرار سليم فكرياً ومشرق وسامي المبدأ حقاً . ولكن في النظام الأميركي للزواجر* والضوابط ، ما عنا العبأ الذي شمره نيكسون على كاهله أن يحمله امرء واحد .

وأرغمت أميركا في العهد الفيتنامي على ضرب حد لمدياتها . لقد نادت الانعزالية الأميركية في اجل اوقاتها بالتفوق الأخلاقي الذي عاضده فيض الأمة المادي . ولكن أميركا قد ألفت نفسها في فيتنام في طائلة حرب مبهمة أخلاقياً لا تناغمها فوقتها المادية ، بنحو كبير . وكانت الصور الكاملة للعوائل التي زينت شاشات التلفاز في الخمسينيات فريقاً مسانداً حضارياً للتبصر الأخلاقي الثاقب لدالس ومثالية كنيدي الشامخة . ونقبت أميركا ، التي أطاحت بها هذه الالهامات ، عن روحها فانقلبت على نفسها . ويقيناً أن ما من مجتمع آخر يتمتع بثقة مناظرة في ترابطة النهائي الى حد أنه يبتر شطراً منه لثقته أنه سيرتصف به ثانية .

* الزواجر والضوابط (checksand balance) : وسائط الاشراف على سير الأعمال لأخذ الحيطة من سوء استعمال السلطة .

وفي ما يتعلق بالنتيجة المباشرة ، كانت المسرحية الداخلية مأساة بالرغم من أن الغضب قد انقلب في آخر المطاف الى ثمن كان على أميركا أن تنقذه كي تزاوج كمالها الأخلاقي الذي الهم عظيم الجهود الأميركية مع ضرورات المحيط الدولي الأوهن تكيفاً والأعقد من كل ما سلف .

وتظل تجربة فيتنام ضاربة جذوراً غائرة في النفسية الأميركية ، في حين يلوح التاريخ كانه قد قلب لنفسه أكثر العبر المفصحة . وبعد البحث عن الذات ، استعادت أميركا في نفسها الثقة في حين اقتطع الاتحاد السوفيتي ، برغم ظهوره الوحداني ، ثمن عقوبة مهلكة لافراطه الأخلاقي والسياسي والاقتصادي . وغداة نزقة التوسع ، الفى الاتحاد السوفيتي نفسه متوحلاً في التناقض ريثما هوى في النهاية .

وتثير هذه التطورات بعض الانعكاسات الساخرة لطبيعة العبر التاريخية . لقد يممت الولايات المتحدة شطر فيتنام لتجهض ما خالتها مؤامرة شيوعية موجهة مركزياً وخابت في مسعاها . واستنبطت موسكو من اخفاق أميركا الاستنتاج الذي هابة كثيراً متبنو نظرية الدومينو - تأرجح العلاقة المتبادلة للقوة لصالح كفتها . لذلك حاولت التوسع في اليمن وأنغولا وأثيوبيا وأفغانستان ، نهاية المطاف . بيد أنها ألفت تطبيق الواقعيات الجيوسياسية في المجتمعات الشيوعية ، بالقدر عينه في المجتمعات الرأسمالية . لقد أتى الافراط السوفيتي تفككاً ، وليس تطهيراً كما حصل في أميركا .

ويبقى السؤال عن مدى تحرك الأحداث في السبيل ذاته لو وقفت أميركا مصفودة الأيادي متوكأة على نشوء التاريخ ليستطب التهديد السوفيتي . أو هل سيولد مثل التنازل دافعاً ويقيناً بالنصر المحتوم على عالم شيوعي قادر على ارجاء ، أو الانهيار الشيوعي أو حتى وقفه ؟

وبصرف النظر عن الاجابة العلمية ، ليس بمقدور السياسي تبني تنازلاً كمبدأ للسياسة . وسيتعلم أنى يعدل ثقته في تقييماته ويأذن للغيب . بيد أن الارتكان الى انهيار أخير لخصم سيهدد سياسة تلهم السلوى الى ملايين الضحايا المباشرة ، وتصير صياغة السياسة مقامرة متهورة تستند للحدس .

كان فورة غضب أميركا في فيتنام عهداً غريباً لتورعاتها الأخلاقية التي هي بحد ذاتها جواب فاضل لجميع الاستفسارات المتعلقة بالأهمية الدينية لخبرة أميركا . وبعد فاصل قصير نسبياً ، اهتدت أميركا الى دربها في الثمانينات . وفي التسعينات ، تتطلع الشعوب الحرة في كل حدب وصوب لها في قيادة بناء نظام عالمي جديد . ان خشيتهم العظيمة لا تتعلق بانهماك أميركا المفرط في العالم ، بل في تقهقرها منه . وهذا الباعث الذي يحتم على غمة ذكريات الهند الصينية أن تذكرنا بوحدة أميركا كواجب الكون ورجاءه .

الفصل الحادي عشر

السياسة الخارجية في منظارها الجيوسياسي

دبلوماسية نيكسون الثلاثية

أضحى هدف العملية المؤلمة لاخراج أميركا من أوحال فيتنام ، بالنسبة نيكسون ، الحفاظ على مكانة أميركا في العالم . فلم يكن من مفر من اعادة تقييم كبرى للسياسة الخارجية الأميركية حتى بغياب سورة الغضب تلك - ذلك أن عهد هيمنة أميركا شبه التامة على الحلبة العالمية قد أذن بالأفول . فذا تفوقها النووي قد تآكل ، وتلك أفضليتها الاقتصادية عانت تحدي القوة الدينامية لأوروبا واليابان اللتين أعادتهما مصادر أميركا لوضعهما الطبيعي واستظلتا بضماناتها الأمنية . فأفصحت أحداث فيتنام أخيراً أن الساعة قد أزفت لاعادة تقييم دور أميركا في العالم النامي ، ولايجاد أرضية صلبة بين فرط الاتساع ونبذه . من الناحية الأخرى ، تسنت فرص جديدة للدبلوماسية الأميركية متمثلة بحصول شروخ خطيرة في ما اعتبر " الشيوعية المتراصة " طيلة الحرب الباردة . فقد خفت النداء الأيديولوجي للشيوعية في بقية أرجاء البسيطة جراء كشف خروشوف النقاب في عام ١٩٥٦ عن بشائع حكم ستالين ، وكذلك الغزو السوفيتي لتشيكوسلفاكيا عام ١٩٦٨ . أهم من هذا ، الأثر السيء للقطيعة بين الصين والاتحاد السوفيتي على هيبة موسكو باعتبارها زعيمة الحركة الشيوعية الموحدة . فذا ما أوحى بوجود حيز لمرونة دبلوماسية جديدة .

لقد أتاحت المثالية الولسونية لقادة أميركا ، طيلة عشرين عاماً ، ان يلعبو دورهم العالمي بقوة تنهل من روح الرسالة الأميركية . على أن أميركا أواخر الستينات المتورطة في الهند الصينية والمثخنة بجراح الصراع الداخلي - احتاجت لتعريف اعقد وأدق لدورها العالمي . اذ قاد ولسون بلداً حديث عهد بالشؤون الدوليه وواثق من قدرته على متابعة أي مشكلة حتى حلها أخيراً ، فيما ورث نيكسون مجتمعاً استبد به الاحباط ، مستقبله معلق على قابليته على صياغة أهداف بعيدة المدى قابلة للتحقيق ، وعلى المثابرة على بلوغها حتى بوجه الحظ العاثر دون أن يعتوره الشك بالنفس .

وجد نيكسون نفسه في خضم ظروف شبيهة بظروف الحرب . وبرغم شكه العميق بالمؤسسة ، وبذلك لم يحظ بثقة ممثليها ، تشبث باعتقاده ان زعيمة الديمقراطية في العالم لن تتخلى عن مسؤولياتها ولن تتنازل عن قدرها . وقلة من الرؤساء ضارعوا نيكسون في تعقيده : فهو خجول لكنه عزوم ، وغير آمن الا انه ذا تصميم ، وشكوك بالمفكرين بيد انه يستجيب لهم سراً ، وضعيف في خطاباته أحياناً لكنه صبور بعيد النظر في مخططاته الاستراتيجية ، وعليه وجد نفسه في موضع يفرض عليه قيادة أميركا بالانتقال من الهيمنة الى القيادة . ومع أنه شحيح في خطاباته غالباً وقاصر عن اشاعة الدفء فيها ، أفلح ، في أقسى الظروف ، في الاختبار الحاسم للزعامة حين نقل مجتمعه من المألوف الى عالم لا يعرفه قط .

لم يحصل أن تمتع رئيس أميركي بمعرفة وافية بالشؤون الدولية . ولم يسافر أي منهم ، باستثناء تيودور روزفلت الى الخارج بكثرة ، أو حاول برغبة جارفة الوقوف على آراء قادة آخرين . اذ لم يكن نيكسون تلميذ تاريخ مثل تشرتشل

وديغول . فهو لم يعرف عن سفر بلاده الا ما يكفيه لاستيعاب مبادىء الحقائق الخاصة بظروفه – وحتى هذا ليس لحد كبير مع هذا تمتع بقدرة خارقة على الامساك بزمام القوى المحركة لأي بلد يلفت انتباهه . كما حظي بفهم رائع للحقائق الجيوسياسية . وان فشل بتصريفه للسياسة الداخلية جراء الطمع وانعدام الأمن الشخصي ، فهو قد كرس في السياسة الخارجية مهاراته التحليلية المدهشة وحدسه الاستثنائي للمصالح الأميريكة .

كفر نيكسون بالحقائق الولسونية القائلة بالطبيعة الخيرة للانسان أو الانسجام الكامن بين الأمم الذي يصونه الأمن الجماعي . فهو قد رأى عالماً يحث خطاه نحو السلام والديمقراطية ، ورسالة أميركا فيه المساعدة على استمرارية هذا الشيء المحتوم . بيد أن نيكسون رأى العالم مقسم الى اصدقاء وأعداء ، وأخرى تعاون وأخرى تتضارب فيها المصالح . ولم يعد السلام والانسجام طبيعة في الأشياء ، بل واحات عابرة في عالم محفوف بالمخاطر لا يمكن حفظ الاستقرار فيه بغير مجهود شجاع .

رام نيكسون المسير واضعاً مصلحة أميركا القومية نصب عينيه. – ما امقتها من فكرة لعديد من المثالين التقليديين . فقد رأى من منطلق حركة التنوير في القرن الثامن عشر – أن القوى العظمى ، بضمنها أميركا ، لوسعت لمصالحها الخاصة بصورة عقلانية ، لاستتب التوازن بفعل تصادم المصالح المتنافسة . واعتمد – شأنه شأن تيودور روزفلت ، وبخلاف جميع الرؤساء الأميركان في القرن العشرين – على توازن لاحداث الاستقرار ، ورأى أميركا القوية ركناً لازباً للتوازن الكوني .

ابتعد هذان الرأيان عن اللياقة كثيراً في زمنهما . فأوضح نيكسون في مقابلة مع مجلة " تايم " في ٣ كانون الثاني ١٩٧٢ :

[علينا أن نتذكر أن الوقت الوحيد في تاريخ العالم الذي نتفيأ به ظلال فترات طويلة من السلام هو الذي نشهد فيه توازناً في القوى . ذلك أن خطر الحرب ينشأ حين تتقوى أمة ما أكثر من منافسها المحتمل . لذلك ، أؤمن بعالم تتمتع به أميركا بالقوة . وأعتقد أن رايات السلام سترفرف على العالم أكثر لو برزت فيه أميركا وأوروبا والاتحاد السوفيتي والصين واليابان كلها قوية وكل يجذب خيط التوازن من جانبه ، وليس العمل ضد الآخر] .

كشف نيكسون في الوقت ذاته عن التناقض الأساسي في مجتمعه – الذي هو بحاجة لاعتباره عنيداً في نظر الآخرين ، ومع ذلك يعتمد بقوة على استمداد قوته الداخلية من مثاليته التقليدية . ان ما يوحي بالتضاد ، أن نيكسون – الذي نأت مبادؤه عن الولسونية شططاً ، قد أغرم بولسون نفسه . فاذ يختار كل رئيس جديد صور أسلافه معلقاً اياها في غرفة مجلس الوزراء ، استهوت نيكسون صورتا ولسون وايزنهاور . فيوم أمر بوضع طاولة ولسون القديمة في المكتب البيضوي ، لاح أمر طريف : فالطاولة التي أتى بها حراس البيت الأبيض لم تكن طاولة وودرو ولسون ، بل طاولة هنري ولسون (نائب رئيس أليس غرانت) .

طالما استشهد نيكسون بالبلاغة الولسونية . قال مرة : " قدرنا أن نهب العالم أكثر من المثال الذي استطاعت أمم أخرى في الماضي ان تهبه اياه . انه مثال

القيادة الروحية والمثالية التي لا تأتي بها أي قوة مادية أو عسكرية " . بذلك اشترك نيسكون بسعي أميركا العظيم لسياسة خارجية منزهة عن المصلحة الذاتية :

[بوسعي القول وأنا أتحدث للولايات المتحدة : لا رغبة لدينا بأراضي آخرين ، ولا نسعى للهيمنة على أي شعب كان ، فمرامنا العيش بسلام ليس لنا فحسب بل ولجميع قاطني المعمورة . وسنستنجد بقوتنا لحفظ السلام فقط لا لتعكيره ، وللدفاع عن الحرية لا تدميرها] .

ما أعجبه من ازدواج تشهره التجربة الأميركية .. فهذا الايثار نطق به رئيس أصر في عين اللحظة على وجوب تقرير خمس قوى عظمى مستقبل العالم ، تلك التي تسعى لمصالحها الذاتية . فقد تبنى نيكسون المثالية الأميركية بحيث أغرم بعالمية المبادىء الولسونية العاطفية والاعتقاد بعدم استحالة التخلي عن دور أميركا . على أنه شعر بنفس المستوى باضطراره الى وصل رسالة أميركا باستنتاجاته عن السبيل الذي يسلكه العالم فعلاً . وحتى حين حبذ نيكسون تمسك بلاده بالمبادىء الولسونية ، شعر بمرارة أن القدر فرض عليه مهمة غير محمودة وهي تراجع أميركا عن حملاتها من أجل تلك القيم بارسال الجيوش لارجاء العالم .

جسدت نقطة اختراق نيكسون التفرد الأميركي ، برغم انه خبر بفضل علاقاته الواسعة مع القادة الأجانب أن قليلاً منهم ايثاريون . فمعظمهم مال لشيء من الوثوق بالسياسة الخارجية الأميركية واعتبروا مصلحتها الذاتية أكثر جدارة بالاعتماد من الايثارية . فهنا سبب عمل نيكسون على مسارين بوقت واحد :

الاستشهاد بالخطابات الولسونية لايضاح أهدافه وفي عين الوقت الاستعانة بالمصلحة القومية لدعم تكتيكاته .

من المثير للسخرية ان التزام نيكسون بدور أميركي لتوطيد السلام كان سيضعه أمام معارضة حشد من معاصريه البارزين المعروفين سابقاً بتقمصهم الولسونية لكنهم يرفعون عقيدتهم اليوم لاتباع سياسات عدها نيكسون تخلياً عن دور أميركا الدولي . فرأى نيكسون العارف أن نظرته لمسؤولية أميركا الكونية تمثل انغلاقاً عند مقارنتها بنظرة أسلافه المتأخرين ، فهي تعني واجبه بتعريف دور ((مدعوم)) من أجل أميركا مثالية في محيط دولي معقد لا سابق له – انه المحيط الذي ستبرز فيه الولسونية والسياسة الواقعية .

نقلت استراتيجية الاحتواء في مطلع الحرب الباردة أميركا الى الخط الأول في أية أزمة دولية ، فقد عينت الخطابات المحلقة لحقبة كندي أهدافاً خارج قدرات أميركا المادية والعاطفية . لذلك تحولت استقامة أميركا كره للذات ، ونقد فرط الامتداد الى تخل عنه . في هذه الأجواء ، جعل نيكسون أولى مهامه التمعن في التجربة الفيتنامية . لقد بقيت أميركا عنصراً أساسياً في الاستقرار العالمي غير أنها عاجزة عن مواصلة التدخل المتواصل الذي نقل ٥٠٠ ألف أميركي الى الهند الصينية دونما استراتيجية للنصر . اذ اعتمد بقاء الجنس البشري بصورة رئيسية على العلاقة بين القوتين العظميين بيد أن سلام العالم توقف على قدرة أميركا التمييز بين المسؤوليات التي يكون فيها الدور الأميركي عاملاً مساعداً ، وتلك المسؤوليات التي لا يمكن الاستغناء فيها عن ذلك الدور ، يضاف لها ، قابليتها على مواصلة هذا الدور دون أحداث الانقسامات في صفها .

انتقى نيكسون مناسبة غير اعتيادية لتقديم اجابته على هذه المآزق . فقد وجد نفسه في ٢٥ تموز ١٩٦٩ في (غوام) في مستهل رحلة يتجول بها من جنوب شرق آسيا حتى رومانيا . اذ شهد في صبيحة ذلك اليوم هبوط أول رائدي فضاء الى الأرض عائدين من القمر في جزيرة (جونستون) في المحيط الهادي . فمن ناحية الصحافة الحديثة التي كانت راغبة عن متابعة حتى أغرب الأحداث الدرامية التاريخية امست بحاجة لحدث جديد يحرك عجلة كل خبر ، سيما أثناء رحلة رئاسية . وكانت غوام في الجانب الآخر من خط تغير التاريخ اليومي من الهبوط الأرضي (وهو ما يفسر تاريخ الهبوط في ٢٤ تموز) ، ولذلك أصبح جزءاً من عجلة أنباء أخرى .

انتقى نيكسون ، وقد أدرك هذا ، تلك المناسبة ليطرح المباديء التي من شأنها قيادة نهج بلده الجديد في العلاقات الدولية . وما كان ثمة سبيل لاعلان هذا النهج أمام الجماهير في هذه المناسبة الخاصة برغم مناقشة نيكسون ومستشاروه اياه كثيراً . ولذلك كان من مثار دهشة الجميع وبضمنهم انا ، اعلان نيكسون معايير أميركا الجديد لالتزاماتها الخارجية . وقد تم التوسع في شرح هذه المعايير – التي أطلق عليها منذ تلك اللحظة (مبدأ نيكسون) ، في كلمة تشرين الثاني ١٩٦٩ وثانية في عام ١٩٧٠ ، في أول تقرير سنوي للرئيس عن السياسة الخارجية ، وهو أمر جديد آنذاك باح به نيكسون بالأركان الأساسية لسياسته الخارجية .

تناول مبدأ نيكسون مفارقة أن تورط أميركا فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، في كوريا وفيتنام ، كان نيابة عن بلدان لم تكن أميركا ملزمة حيالها رسمياً ، وفي مناطق لم يغطها الحلفاء فنياً . لقد رنا مبدأ نيكسون حيال هذه المناطق

لاتخاذ سبيل بين فرط الامتداد والتخلي عنه ، باعتماد ثلاثة معايير للالتزام الأميركي :

* ستحافظ أميركا على التزاماتها التعهدية .
* ستوفر أميركا الدرع ، لو هددت قوة نووية حرية أمة حليفة لنا ، أو أمة نرى أن بقاءها حيوي لأمننا .
* في الحالات المنطوية على اعتداء لا نووي " ستنتظر أميركا للبلد المهدد مباشرة كي تمارس المسؤولية الأساسية بارسال القوات البشرية لاغراض دفاعية " .

على أية حال ، وجد الواقع نفسه يقاوم تعبئته في اطار معايير رسمية . فالتأكيد على وفاء أميركا بالتزاماتها كان مطاطاً ، ضعيف في مصداقيته طالما أن التخلي عنه غير محتمل اعلانه قبل حصول الحدث . ومهما كان الأمر ، فان المسألة الأساسية في العصر النووي ليست الوفاء بالالتزامات من عدمه ، بل كيفية تعريفها وتفسيرها . اذ افتقر مبدأ نيكسون لدليل يثير السبيل نحو حل منازعات الحلفاء المتعلقة بالاستراتيجية النووية : استخدام الأسلحة النووية ام لا وفي اقليم أي منهما بصريح العبارة ، وهل يتكل الحلفاء على حرب نووية عامة أم لا تؤثر أساساً على القوتين العظميين ، أم يستحسن لهم الاعتماد على " استجابة مرنة " قد هددت ضحايا العدوان أساساً .

انطوت عبارة توفير أميركا درعاً للبلدان " الحيوية لأمننا " في حالة تعرضها لتهديد قوة نووية على التباسين : اذا دافعت أميركا عن بلدان حيوية لأمنها فقط اذا تعرضت لتهديد قوة نووية ، فما موقفها لو تعرض بلد مهم لأمنها الى تهديد

قوة غير نووية ، أو تهديد قوة نووية لم تشأ استخدام الأسلحة النووية ؟ وان كـان الدعم تلقائياً لدرجة أو أخرى بوجـه تهديـد نـووي ، فهـل مـن ضـرورة لحلـف رسمي ؟

طالب مبدأ نيكسون البلدان التي يطالها التهديد أن تتحمل العبء الأكبر من دفاعها التقليدي . لكن ما ستفعل أميركا لو قامر البلد المهدد على الأسناد الأميركي بغض النظر عن فشله في تقاسم أعباء الدفاع - سيما بوجه ضغط قوة نووية ؟ مما يدعو للسخرية ان تركيز ادارة نيكسون على المصلحة القومية وفر اغراء للبلدان للتخلي عن بذل جهود كبيرة للدفاع عن نفسها . فان كانت المصلحة القومية الدليل الرئيسي حقاً ، لوجدت أميركا نفسها مضطرة للدفاع عن ((أي)) منطقة تعتبر ضرورية لأمنها دونما اعتبار لفائدة الضحية أو أسهامها في الدفاع المشترك . وهنا تكمن كل المعضلات التي برزت للسطح تحت عنوان تقاسم أعباء الحلفاء .

واذن ، لمبدأ نيكسون علاقة وطيدة بأزمات في مناطق طرفية لا تشملها الأحلاف الرسمية ويهددها وكلاء السوفيت ، وهم قليلون جداً كما تجلى ذلك بعدئذ . لقد صاغت ادارة نيكسون في مسعاها تحاشي صراع آخر كصراع فيتنام ، " مبدأ " انطبق أساساً على حالات مثل فيتنام والتي صممت على عدم تكرارها .

ما برحت علاقات الشرق - الغرب بحاجة ملحة لاعادة التقييم يوم ارتقى نيكسون السلطة . فقد دفع الصراع مع الاتحاد السوفيتي بأميركا الى التزامات

عالمية ، فاحتاجت استراتيجية ذلك الصراع لاعادة النظر في ضوء كارثة فيتنام . ان ما جعل عملية اعادة النظر جد عسيرة حقيقة ان معظم الجدل حول سياسة الاحتواء طيلة الحرب الباردة قد سارت وفق تصنيفات أميركية كلاسيكية تجاهلت الحساب الجيوسياسي ، حيث رأت احدى المجموعتين السياسة الخارجية باعتبارها جزءاً من علم اللاهوت ، فيما حسبها خصومها من المجموعة الثانية جزءاً من علم النفس .

لقد استوعب دهاقنة الاحتواء - أشسون ودولس وزملاؤهما ، عملهم حسب مصطلحات لاهوتية بالأساس وهذا عائد لسفسطتهم في الشؤون الدولية . فرأوا لأنهم اعتبروا نزعة السوفيت للهيمنة العالمية أمراً متأصلاً بنفوسهم .أن الزعماء السوفيت غير قمناء بالتفاوض حتى يتخلى الكرملين عن أيديولوجيته ، وطالما انطوت المهمة الرئيسية لسياسة أميركا الخارجية على الاطاحة بالسوفيت ، فقد أضحت المفاوضات الشاملة عديمة الجدوى (ان لم تكن شائنة) حتى تصنع " مراكز القوة " تبديلاً في أهداف السوفيت .

ما أصعب الصبر على سلوك سبيل قاس على مجتمع لا تجربة له مع صراع حامي الوطيس ويؤمن بشدة أن التسوية مفتاح حل النزاعات . لقد حاول كثير من مؤيدي مبادىء أشسون ودولس الأخلاقية تسريع الجدول الزمني للمفاوضات ، متذرعين بأن النظام السوفيتي نفسه قد غير جلده فعلاً ، أو أنه على وشك ذلك . بل وشكل توق الجمهور الأميركي لانهاء المواجهة مدرسة احتواء صارمة معرضة لتغيرات الجو ، كما تجلى في ما يسمى روح جنيف وكامب ديفيد حين كان دولس وزيراً للخارجية .

رأت " المدرسة النفسانية " أن الزعماء السوفيت لم يكونوا مختلفين كثيراً عن الأميركان برغبتهم بالسلام . فأحد أسباب تصرفهم العنيد تجريد أميركا لهم من الشعور بالأمان . لقد حثت " المدرسة النفسانية " على التدرع بالصبر بغية تقوية الجانب محب السلام في الزعامة السوفيتية ، التي قيل انها انقسمت بين الحمائم والصقور بطريقة شديدة الشبه بما حصل لدى الحكومة الأميركية . لذلك اتسع مدى الجدل القومي تدريجياً الى حد حدوث التغير السوفيتي الداخلي المزعوم دون القابلية على حل المعضلة الأصلية ، وهي ان سياسة الاحتواء التي لا تعرف ارضية وسطى بين المواجهة والوضع القائم ، لم تجب على سؤال ما يجب التفاوض حوله .

تعرضت في مستهل السبعينيات كلتا المدرستين الفكريتين لتحدي راديكالية جديدة . فقد أعيد احياء مفهوم (هنري والاس) لحظة الاربعينيات وحمل يافطات جديدة وناطقة بشعارات مدهشة على رأسها الاحتواء . فلم تكتف بالجدل الذي أثاره مبشريها والقائل ان أميركا لا تملك الحق الأخلاقي بمقاومة الشيوعية ، بل وأكدت على أن مقاومة الشيوعية قد أسهمت في تقويتها فعلاً . فهذه الراديكالية الجديدة ترى لا حاجة لاحتواء الشيوعية بل الابقاء عليها ، وتركت القول الأخير للتاريخ ليهزمها في النهاية ان استحقت الهزيمة .

أوجز الروائي (نورمان مايلر) هذا الرأي في غضون وصفه لمسيرة نحو واشنطن ، داعياً لانسحاب غير مشروط من فيتنام :

[لو دانت آسيا للشيوعية ، لبرزت الانقسامات ، وتجلت الانشقاقات ، وتعددت الطائفات ... وعليه سيثمر الانسحاب من آسيا عن كسب لتوازن القوى ... فكلما امتد اخطبوط الشيوعية ، تفاقمت مشاكله وتراخت عضلاته عن الامساك بفتح العالم . وهكذا يكمن احتواء الشيوعية في اتساعها] .

وعظت الراديكالية الجديدة بما هو النقيض التام للاحتواء حين قالت أن السبيل الأفضل وربما الأوحد لدحر الشيوعية هو انتصاراتها وليس المقاومة . اذ يجسد فرط الامتداد جذر الضعف الشيوعي ، وكلما زحفت الشيوعية أكثر زاد يقين انهيارها . انها نزوة روائي حقاً أن يقال أن تخلي أميركا عن مقاومة الشيوعية انما بذر بذور النصر عليها .

وأيد محللون أكاديميون آخرون أكثر سفسطة شاعرية مايلر من الذين لم يعبروا عن أنفسهم على نحو متميز . فركزت " نظرية التلاقي " التي نادى بها المفكرون الكبار من طراز (جون كينيث غالبرايت) على سخافة تجشم أميركا مخاطر مقاومة الشيوعية ، ما دام قدر هذين المجتمعين أن يتماثلا تدريجياً في دورة الأحداث الطبيعية .

بلغت علاقات الشرق - الغرب طريقاً مسدوداً على أثر افضاء مفهوم الاحتواء التقليدي الى مأزق دبلوماسي . فبديله الجوهري بدعة اقتضت التخلي عن جميع مبادىء جيل الاحتواء . مع ذلك ، لم يكن لأي رئيس أميركي تسليم قدر بلده ببساطة نحو قوى التاريخ المزعومة . اذ لاعزاء لقرطاجة بعد مئات السنين من سحق الغزاة الرومان لها أن تزول روما أيضاً .

رفض نيكسون المدارس الفكرية الثلاثة واعتمد المصلحة القومية معياراً لسياسة خارجية أميركية بعيدة الأمد . وخير دليل على هذا المجهود تقرير السياسة الخارجية الرئاسي السنوي . اذ بدأ صدور هذه التقارير السنوية حول السياسة الخارجية الأميركية في عام ١٩٧٠ ، وعكست آراء الرئيس وصدرت باسمه . كان لتأليف هذه البيانات أهمية أقل من تحمل الرئيس مسؤوليتها . لقد خان هذه التقارير التي طرحت النهج المفهومي للادارة الجديدة التوفيق التام في هذه المهام . اذ تجاهلت وسائل الاعلام ، المكرسة لمتابعة الأحداث وليس المفاهيم ، هذه البيانات لحد كبير عدا البنود المتعلقة بفيتنام . أما القادة الأجانب فعاملوها بمثابة نتاجات كادرية عليهم أن يتعاملوا معها ساعة حصول الظروف التي أشارت اليها التقارير فعلاً .

برغم ذلك ، تشكل هذه البيانات لدارس تلك الفترة ، أمثل مخطط للسياسة الخارجية في عهد نيكسون ، وكان لها أن تكون كذلك بالنسبة للصحفيين والقادة الأجانب الذين تبين أنهم افتقدوا لكثير من الالمامات الجلية في زحمة المراسلات الدبلوماسية اليومية فمحور تلك التقارير كان وجوب تركيز السياسة الخارجية الأميركية على تحليل المصلحة القومية ، والزام أميركا نفسها بقضايا سياسية بدلاً من تأويل المبادىء القانونية . فقد كشف التقرير السنوي الأول للسياسة الخارجية في ١٨ شباط ١٩٧٠ :

[أول أهدافنا تعزيز ((مصالحنا)) على المدى الطويل بسياسة خارجية سليمة ، فكلما ارتكزت تلك السياسة على التعتيم الواقعي لمصالحنا ومصالح الآخرين ، قوي دورنا في الساحة العالمية . فلسنا مرتبطين بالعالم لأن لدينا

التزامات ، بل ان لدينا التزامات لأننا مرتبطون بالعالم . ولذا لا بد من صياغة مصالحنا طبقاً لالتزاماتنا ، بدلاً من غيرها] .

لو صدر هكذا تقرير عن الحكومة في بريطانيا أو فرنسا ، لاعتبرت هذه البيانات حقائق بدهية . بيد أن أميركا لم تشهد من قبل أن يقامر رئيس بسياسته لمجرد التأكيد الصريح على المصلحة القومية . فما من أي أسلاف نيكسون في ذا القرن - باستثناء ثيودور روزفلت - قد عامل المثالية الأميركية بوصفها عاملاً ضمن عوامل كثيرة ، أو نظر الى المستقبل بمصطلحات الالتزام الأبدي مقارنة بالحملات ذات الأهداف النهائية المحددة .

لقد أشار التقرير في تعامله مع الاتحاد السوفيتي الى ارساء السياسة الأميركية على أساس الفهم الدقيق لطبيعة النظام السوفيتي الذي لا يحط من شأن العمق الأيديولوجي الشيوعي ، ولا يقع فريسة وهم " نبذ الزعماء الشيوعيين معتقداتهم أو انهم على وشك ذلك " . ولن تسمح أميركا لنفسها الاتكال عاطفياً على علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي ، ومعيار التقدم يجب أن يتمثل واقعياً باتفاقيات دقيقة تعكس المصالح المتبادلة وليس التقلبات المزاجية . وفوق كل ذلك ، ينبغي لتخفيف التوتر أن يجري في جبهة واسعة :

[سنتطلع الى خصومنا الشيوعيين أولاً والى الأبد باعتبارهم دولاً تسعى لمصالحها كما تفهمها هي ، تماماً مثلما نسعى لمصالحنا طبقاً لرؤيتنا لها ، وسنحكم عليهم من خلال أفعالهم كما نأمل أن يحكموا علينا بأفعالنا . وسنتبع

الاتفاقيات الخاصة وبنيان السلام الذي يبغونه ، من المواءمة الواقعية بين المصالح المتضاربة] .

وأعاد تقرير عام ١٩٧١ نفس النغمة : " ليس مما يعني سياستنا ، النظام الداخلي في الاتحاد السوفيتي ، ولو أننا لا نخفي رفضنا لعديد من خصائصه . فما يحدد علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتي ، وكذلك مع بلدان أخرى ، هو سلوكه الدولي " .

تعرض التركيز على المصلحة القومية الى هجوم قاس من المحافظين ، خاصة بعد حرب فيتنام وخمود الدعوات لتخفيف التوتر الدولي . والقضية على أية حال ليست اتكال نيكسون الزائد على القادة السوفيت أم لا ، مثلما قال النقاد آنذاك - وهو أمر ساذج لو تذكرنا تأكيد نيكسون على الصلابة ، ونظرته المتشائمة للطبيعة البشرية - بل على الاستراتيجية المثلى لايقاف التوسع السوفيتي . فقد آمن نيكسون في خضم اضطرابات فيتنام ، بتهيئة المصلحة القومية ، خير معيار لمقاومة التوسع السوفيتي ونيل الدعم الشعبي . فيما اعتبر نقاده التركيز على المصلحة القومية ، شكلاً من أشكال نزع السلاح المعنوي .

ليس من فرق بين آراء ادارة نيكسون وآراء أشسون ودولس السابقة لها ، وكذلك آراء ادارة ريغان اللاحقة ، بما يتعلق بالعزم على منع مزيد من الامتداد الشيوعي . لقد ردت ادارة نيكسون حتى أثناء ذروة حرب فيتنام ، بحدة على كل تهديد جيوسياسي أو استراتيجي سوفيتي محتمل : فذلك تصرفها حيال بناء السوفيت عام ١٩٧٠ قاعدة بحرية في كوبا ، وازاء تحرك صواريخ أرض - جو

السوفيتية صوب قناة السويس ، وبوجه الغزو السوري للأردن ، وكذلك أمام الدور السوفيتي في الحرب الهندية - الباكستانية عام ١٩٧١ ، وفي عام ١٩٧٣ أيضاً ضد تهديد ضمني من برجنيف بالتدخل العسكري في حرب العرب مع اسرائيل عام ١٩٧٣ . واستمر نفس الموقف حتى في عهد ادارة فورد بما يخص رد الفعل على ارسال القوات الكوبية الى أنغولا .

تباين نهج ادارة نيكسون ، في الوقت عينه ، عن نهج أشسون ودولس في عدم فرضه تغير المجتمع السوفيتي شرطاً لاجراء المفاوضات . فقد فسخ نيكسون شراكته مع أساطين الاحتواء واختار طريقاً يذكر بتشرتشل الذي دعا لمحادثات مع موسكو عقب موت ستالين عام ١٩٥٣ . اذ اعتقد نيكسون ان من شأن عملية المفاوضات وفترة طويلة من التنافس السلمي ، أن يعجلا من تحول النظام السوفيتي ويعززا الديمقراطيات .

جسد ما أسماه نيكسون بعهد المفاوضات استراتيجية لتمكين أميركا من استعادة المبادرة الدبلوماسية وحرب فيتنام مستعرة الأوار . فكان هدفه المحافظة على اقتصار حركة السلام على قضية فيتنام والحيلولة دون شلها نشاطات السياسة الخارجية الأخرى . وما كان نهجه تكتيكياً بالأساس ، اذ آمن ومستشاروه بامكانية تراكم المصالح بين القوتين النوويتين العظميين مؤقتاً . ولذلك بدا أن الميزان النووي أوشك على الاستقرار ، أو يمكن عمل ذلك من جانب واحد أو بفضل مفاوضات الحد من التسلح . فاحتاجت أميركا برهة لاسترداد انفاسها من مصاعب حرب فيتنام ولارساء سياسة جديدة لعهد ما بعد فيتنام ، بينما امتلك الاتحاد السوفيتي أسباباً أقوى ليسعى الى التأجيل . فقد أوحى حشد الفرق

السوفيتية على الحدود الصينية أن الاتحاد السوفيتي يعاني توترات على جبهتين متباعدتين بألوف الأميال ، فلعله مستعد تماماً لسبر حل سياسي مع أميركا ، سيما لو نجحنا في انفتاحنا على الصين – وهو حجر زاوية في استراتيجية نيكسون . ولذلك لا بد للقيادة السوفيتية ، مهما كانت قناعاتها الأيديولوجية ، من تحسين علاقاتها مع الغرب لارجاء المواجهة . وهنا كان رأينا أنه كلما طال أرجاء المواجهة مع الغرب ، عسرت مهمة الامساك بزمام الامبراطورية السوفيتية ، خاصة بعد تفاقم مشاكلها من جراء الركود الاقتصادي . بعبارة أخرى ، رأى نيكسون ومستشاروه أن الزمن لصالح أميركا وليس العالم الشيوعي .

اتسم رأي نيكسون بموسكو بدقة أكبر مما فعل اسلافه . فهو لم ير العلاقات مع الاتحاد السوفيتي بمنظار فرضية كل شيء أو لاشيء ، بل عدها حقيبة مليئة بالقضايا المختلطة ذات القابلية المختلفة للحل . فحاول حبك جميع العناصر المتعددة لعلاقة القوة العظمى في اطار نهج شامل لم ينطو على التصدي التام (كنهج اللاهوتيين) ولا على التصالح المطلق (كنهج النفسانيين) . كانت الفكرة تنمية الميادين الممكن التعاون فيها ، واستغلال التعاون لتعديل السلوك السوفيتي في ميادين اختصم فيها البلدان . فذا ما ادركته ادارة نيكسون من كلمة " الانفراج " ، وليست الرسوم الساحرة التي وصفت الجدل اللاحق .

اعترضت معوقات عدة سياسة " الربط " هذه كما سميت آنذاك – وهي ربط التعاون في ميدان معين باحراز تقدم في ميدان آخر . اذ تبين أن أحد هذه العراقيل هو الهوس بالحد من التسلح لدى كثير من الأميركان النشطاء . ذلك أن مفاوضات نزع السلاح في العشرينيات التي ركزت على خفض الأسلحة

لمستويات لا تهديدية ، فشلت لحد مريع ، حتى اذا جاء العصر النووي ، تعقد هذا الهدف أكثر ، لأن مصطلح المستوى " الآمن " للأسلحة النووية ينطوي على التناقض بحد ذاته . فما بوسع احد التحقق من المستويات المنخفضة المطلوبة في اقليم شاسع كالاتحاد السوفيتي . وهكذا لم تحصل اي تخفيضات حقيقية الا حين أوشكت الحرب الباردة على نهايتها . بيد ان نزع السلاح قد خضع طيلة الستينيات والسبعينيات لجهود تقليص اخطار معينة كان من أبرزها جهود الحيلولة دون شن هجوم مباغت – وهو المشروع الذي وضع تحت اسم الحد من التسلح .

لم يتوقع صانعو السياسة ان تقليص خطر الهجوم المباغت سيشكل القضية الأولى في مفاوضات الحد من التسلح . فالادراك السليم يوحي بقدرة الطاقة التدميرية الهائلة للقوتين العظميين على محو كل منهما الأخرى ، وبأن كلا الطرفين قادران على الحاق ضرر مرعب كل بخصمه بغض النظر عما فعله الخصم . ثم كشف (البرت وولستيتر) الذي كان انذاك محللاً لشركة راند ، في عام ١٩٥٩ ان الادراك السليم ليس بدليل كاف للعلاقات النووية . لأن حقيقة حمل الأسلحة النووية بطائرات ، على قواعد قليلة نسبياً ، قد تجعل من الممكن فنياً تدمير قوات الخصم الاستراتيجية قبل انطلاقها . وهنا قد يستطيع الطرف المهاجم تقليل أثر الضربة المقابلة الى مستويات مقبولة وبذا يتبوأ وضع القادر على فرض ارادته . وعلى المنوال نفسه قد يحرض الخوف من الهجوم المباغت على اتخاذ الضربة الأولى ، أي هجوم لا طائل دونه سوى احباط هجوم مباغت متوقع .

رأى وولستيتر أن التوازن النووي غير مستقر لحد بعيد . فالفجوة المزعومة بين ما دعي القابلية على توجيه الضربة الأولى والثانية قد تحولت الى هوس أصاب

المحللين الدفاعيين وخبراء الأسلحة . اذ انطوت الفكرة على احتمالية اهتمام الطرفين في التفاوض على ترتيبات لحماية نفسيهما ضد الخطر النهائي . ولذلك توسعت المؤتمرات الأكاديمية في (هارفرد) و (ستانفورد) في وضع نظريات ومقترحات عملية تتعلق بالحد من التسلح والاستقرار الاستراتيجي والتي هدفت مساعدة صناع السياسة خلال العقدين القادمين .

تناول مقال وولستيتر التحليل الاستراتيجي مثلما فعل مقال كينان الموسوم بالحرف " س " في التحليل السياسي عام ١٩٤٧ . وحتى بعد ذلك ، ركزت دبلوماسية الحد من التسلح على تقليص التنافس ووضع سمات للقوات الاستراتيجية بغية تثبيط دوافع الهجوم المباغت لأدنى ما يمكن .

بيد أن الحد من التسلح اتى بتعقيداته ايضاً . فقد كان الموضوع مقصوراً على فئة قليلة وبذلك ضاعف مواطن قلق صناع السياسة وكذلك الجماهير فهو قد تمادى في تبسيط طبيعة المشكلة .فما كان قرار المباشرة بحرب نووية بيد العلماء العارفين بهذه الأسلحة ، بل بيد الزعماء السياسيين المنهكين الواعين بأن أقل خطأ في الحساب سيسحق مجتمعاتهم وكذلك الحضارة نفسها . كما افتقر كلا الطرفان لأي تجربة عملياتية مع هذه التكنولوجيا الحديثة ، ناهيك عن وجوب اطلاق ألوف الرؤوس النووية لأجل الهيمنة في حرب نووية . أكثر من هذا أن الاتحاد السوفيتي لم يجرب طوال عهد الحرب الباردة أكثر من ثلاثة صواريخ بوقت واحد ، فيما لم تطلق أميركا حتى صاروخاً واحداً من منصته عملياتية (لوجود منصات أميركا في وسط البلاد فخشيت واشنطن نشوب حريق هائل لو سقط الصاروخ أرضاً) .

هكذا ، بولغ في تقدير خطر الهجوم المباغت على يد جماعتين ذوي أهداف متضاربة : فترى جماعة ارادت تضخيم الميزانيات الدفاعية تفادياً لخطر الهجوم المباغت ، وتلك أخرى نطقت بالقرع من الهجوم المباغت بوصفه سبباً لتقليص الميزانيات الدفاعية : ازاء هذا التعقيد ، عرضت المحفزات لمن يختصر الوصف ، وجاشت العواطف حتى عسر القول بما اذا توصل العلماء لاستنتاجاتهم عن طريق الدراسة العلمية ، أم هل أنهم استشهدوا بالعلم لدعم استنتاجاتهم المسبقة – والأخير هو الاحتمال الأغلب . والرثاء على صناع السياسة الذين باتوا رهينة نصيحة العلماء ذوي الآراء شديدة الاختلاف ، والذين سلخوا سنوات في دراسة المسائل النووية أكثر من عدد الساعات المتاحة للسياسي للنظر فيها . ولذلك اكتسبت المجادلات حول المواضيع السرية كالانكشاف والدقة والحسابات ، التعقيد الذي اتسمت به نزاعات العصور الوسطى حول اللاهوت بينما هي وجوه لخلافات فلسفية طويلة الأمد تعود الى أوائل أيام الاحتواء .

ففي أثناء اسخن الجدالات حول الحد من التسلح في السبعينات، حذر النقاد المحافظون من عدم امكانية الاتكال على الزعماء السوفيت ، ومن الطبيعة العدوانية للأيديولوجية السوفيتية . لذلك شدد مريدو الحد من التسلح على اسهام اتفاقيات الحد من التسلح في خلق جو عام من العلاقات الخالية من التوترات ، المستقلة تماماً عن فائدة الاتفاقيات الواقعية . ذا هو الجدل القديم بين اللاهوتيين والنفسانيين قد تطلس برداء تكنولوجي .

ولذا تم تطعيم الحد من التسلح بنظرية الاحتواء في البدء . فقد اجتمع الاعتماد على مراكز القوة مع مفهوم الحد من التسلح الذي اريد منه التقليل من

أخطار الاحتواء ، حتى تجلى مع مرور الوقت ان الحد من التسلح أدام الاحتواء أكثر ايضاً . فقد قل الحديث عن تسوية سياسية و لم تبذل غير محاولات أقل للتفاوض حول هكذا تسوية . وحقيقة الأمر ان العالم كلما ظهر أكثر أمناً في عيون أصحاب الحد من التسلح ، قل ما يراه الساسة من أسباب لمغادرة المواضع المعتادة لصالح بحر غير مسموح للمواءمة السياسية .

حلت الأزمات وعبرت . فقد نشبت المشاكل في جنوب شرق آسيا حتى الكاريبي وأوروبا الوسطى – غير أن كلا الطرفين انتظر السقوط التلقائي لخصمه تحت ضغط التطور التاريخي . وفي أثناء الفاصل الزمني أمام تجلي هيمنة أي من الطرفين ، أتيح تحمل الحياة أكثر بفضل مفاوضات الحد من التسلح . فلاحت مثل محيط منذور عليه ببلوغ مأزق . فلم يملك المبدأ السياسي (الاحتواء) رداً على سباق التسلح ، فيما فشلت النظرية الاستراتيجية (الحد من التسلح) في صنع حل للصراع السياسي .

ارتقى نيكسون السلطة في هذه الأجواء ، فتعرض لضغوط الكونغرس ووسائل الاعلام للهروع الى مفاوضات الحد من التسلح مع السوفيت . فنفر من تبني الدبلوماسية كما لو ان شيئاً لم يحصل قبل أقل من ستة أشهر على احتلال السوفيت لتشيكوسلفاكيا . فقد أراد في الأقل ، الحيلولة دون تحول الحد من التسلح الى صمام أمان للتوسعية السوفيتية . لذلك بدأت ادارة نيكسون بتحديد ما اذا كانت رغبة السوفيت بتهدئة ادارة اعتقدت أنها أكثر قوة من سابقاتها – وبذا فهي أشد تهديداً للمصالح السوفيتية – يمكن استخدامها لانجاز تعاون مع السوفيت برفع التهديد ضد برلين – وبذلك تخف التوترات في الشرق الأوسط

والأهم من ذلك ، انهاء حرب فيتنام . فذا النهج الذي أطلق عليه " الربط " فكان مثار خلاف لا أول له ولا آخر .

ان احد المهام الرئيسية لرجال الدولة ، فهم ما هية المواضيع المرتبطة مع بعضها حقاً ويمكن استخدامها لانعاش كل منها الآخر . ذلك أن لصانع السياسة في غالب الأحايين ، خياراً ضئيلاً في هذا الأمر ، وفي خاتمة الأمر فان الواقع لا السياسة هو الذي يربط الأحداث . فينطوي دور رجل الدولة على مراقبة العلاقة أنى وجدت – أي صنع شبكة من عناصر الترغيب والترهيب للخروج بأفضل النتائج .

أعرب نيكسون عن هذه الآراء برسالة الى اعضاء مجلس الوزراء تتناول الأمن القومي في ٤ شباط ١٩٦٩ ، بعد أسبوعين من آدائه قسم الولاية :

[قناعتي عظيمة باستحالة الابقاء على الأزمة أو المواجهة في مكان ما والتعاون الحقيقي في مكان ثان . لقد ادركت اقتناع الادارة السابقة بأننا حين نرى مصلحة متبادلة في قضية مع الاتحاد السوفيتي ينبغي أن نحاول عزلها لأقصى ما يمكن عن اهتزازات الصراعات في الأماكن الأخرى . وقد يصح هذا على أمور ثنائية وعملية عديدة كالتبادل الثقافي أو العلمي . ولكن حين يصل الحال الى قضايا اليوم الحاسمة ، فاعتقد بوجوب احراز تقدم في جبهة واسعة في الأقل بما يكفي لايضاح اننا نرى علاقة بين القضايا السياسية والعسكرية] .

دام الجدل حول هذا الربط لحد أوحى بالتشويش على بساطة مقترحات فريق نيكسون . فقد كانت الحرب الباردة علاقة عدائية بين القوتين العظميين .

ولم يقل نيكسون أكثر أو أقل من سخافة انتقاء ميدان واحد من تلك العلاقة لتحسينه فيما تستمر المواجهة في كل الميدان الأخرى . ولذا بدا التخفيف الانتقائي للتوترات في نظر نيكسون ومستشاريه استراتيجية مضمونة لاضعاف الديمقراطيات . فمن الحماقة أن يغدو موضوع معقد ومقصور على فئة صغيرة ، كالحد من التسلح ، اختباراً لآفاق السلام بينما تحرض الأسلحة السوفيتية على اذكاء سعير الصراعات في الشرق الأوسط وتزهق أرواح الأميركان في فيتنام .

لقي مفهوم الربط عاصفة عارمة لدى أسرة السياسة الخارجية . اذ يشغل بيروقراطية السياسة الخارجية الأميركية لحد كبير افراد نذروا أنفسهم لمهنة غير تقليدية في المجتمع الأميركي في مسعاهم نشر وتطبيق رؤاهم للعالم الأفضل . تلك الاراء التي شحذها نظام تبرز به السياسة من بين لهيب الصراعات البيروقراطية التي لا تلقى تسوية مطلقاً ، طبقاً لما قاله فيما بعد (جورج شولتز) وزير الخارجية . ان احداً لم ينظر الى سياسة أميركا الخارجية من منظار شامل ، سيما وقد تشتتت رؤاها ، وظهرت انعزالية في أوقات متفرقة ، اضافة الى تكريس المبادرات للمشاكل ذات الخصوصية الشديدة . فظهرت وفرة من المشاريع الوزارية الخاصة ونطق بها متحدثون رسميون مفرهون - أكثر من مشاريع ومتحدثي الاستراتيجية الشاملة التي لم ينبس بلسانها أحد .

ناوءت محاولة نيكسون لربط استهلال مفاوضات الأسلحة الاستراتيجية بالتقدم في قضايا سياسية الاعتقاد الراسخ لكل من مريدي الحد من التسلح التائقين لابطاء وتيرة سباق التسلح ، ومنظري الكرملين المقتنعين بوجوب نزوع سياسة أميركا الخارجية الى تشجيع حمائم الكرملين ضد صقوره عند خوضها في الجدالات

السياسية المزعومة . فسخرت البيروقراطية في افشاءاتها للصحافة ، من السياسة المبينة في رسالة الرئيس ، بالتأكيد على الحد من التسلح باعتباره غاية بحد ذاتها ، ولم ينقض أحد هذه الافشاءات برغم أنها " غير مرخصة " . ففي ١٨ نيسان ١٩٦٩ وصف " مسؤولون ": لصحيفة " النيويورك تايمز " مفاوضات التسلح مع الاتحاد السوفيتي بأنها " هدف طاغ في سياسة نيكسون الخارجية ، كما تنبأ " دبلوماسيون أميركيون " لصحيفة " التايمز " في ٢٢ نيسان بأن محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت) ستجري في حزيران . فيما اقتبست " الواشنطن بوست " في ١٣ مارس من مصادر في الادارة تقول أن ٢٩ مارس سيكون موعد افتتاح المحادثات . برغم ذلك ، لم تشكل هذه الضغوط من أجل التقدم في مشوار تعديل موقف نيكسون المعلن بربط الحد من التسلح بالقضايا السياسية ، أي تحد جدي ، بل تم استخدام سلسلة من التعليقات التكتيكية اليومية لدفع الأمور باتجاه الموقف الذي تحبذه البيروقراطية .

سرعان ما أطلق محللون من خارج الحكومة سهام نقدهم . فقد دعت " النيويورك تايمز " في ٣ حزيران ١٩٦٩ ، القيود التجارية الأميركية المربوطة بقضايا أخرى " هزيمة الذات " ، لأنها " سياسات حرب باردة " لا تنسجم مع نظرية ادارة نيكسون سنوح وقت الانتقال من عهد المواجهة الى عهد المفاوضات والتعاون وأدلت " الواشنطن بوست " دلوها بنفس البئر ، ذاكرة في ٥ نيسان أن " الواقع معقد ومتشابك لدرجة لا تسمح لأي رئيس أن يعتقد بقدرته على وصل قنوات كثيرة بصف واحد . والحد من التسلح يتمتع بقيمة والحاح تامي الانفصال عن حالة القضايا السياسية " . فسعى نيكسون لتوسيع الحوار مع موسكو بارجاء

محادثات سالت . ازاء ذلك ، اتحد الزخم البيروقراطي والخلاف الفلسفي على انفاق موجودات كان نيكسون سيدخرها .

لا يصح القول بنجاح نهج الادارة على الفور . فقد فشلت محاولة ارسال وزير الخارجية فيما بعد (سايروس فانس) الى موسكو في نيسان ١٩٦٩ مخولاً بالتفاوض الفوري حول الحد من الأسلحة الاستراتيجية وكذلك حول فيتنام . فاللاتناسب كان سمة هاتين المسألتين اذ كانت نتيجة مناقشات الحد من الأسلحة الاستراتيجية غير قاطعة لحد بعيد ، جراء موقف قيادة هانوي العنيد ، اضافة الى الصعوبة البالغة لتحديد المدى الزمني لأي من موضوعي المفاوضات هذين .

غير أن نيكسون ومستشاروه أفلحوا آخر الأمر في جعل كل وجوه السياسة يدعم أحدها الآخر . فبدأ الربط يؤتي ثماره بفضل نجاح ادارة نيكسون في تهيئة حافز معز للاعتدال السوفيتي عن طريق الانفتاح المثير على الصين . وان أحد الدروس الأولية لطلبة الشطرنج ، أنه عند الاختيار بين عدد من النقلات ، فمن الخير للاعب أن يعد المربعات التي يمكن أن يسيطر عليها في أية نقلة . فكلما زاد عدد المربعات التي سيطر عليها اللاعب ، زادت خياراته وتقلصت خيارات رسيله أكثر . عين هذا المنوال في الدبلوماسية ، فكلما ارتفع عدد خيارات طرف ما ، قلت خيارات الطرف الآخر ، وسيكون أكثر حذراً في السير نحو أهدافه . وحالة كهذه يمكن أن تهيء ، في الوقت المناسب ، حافزاً للخصم لاسدال الستار على دوره الخصيم .

فحالما لا يكون بوسع الاتحاد السوفيتي الاتكال على عداوة سرمدية بين أقوى أمة في العالم وأخرى أكثرها سكاناً – لضاق نطاق التصلب والعناد السوفيتي وربما تلاشى . فكان على القادة السوفيت الكف عن المراهنة لأن الموقف المهدد من شأنه تعزيز التعاون بين الصين وأميركا . لقد باتت العلاقات الصينية – الأميركية المتطورة في ظروف أواخر الستينيات ، شيئاً أساسياً في استراتيجية ادارة نيكسون تجاه السوفيت .

تبدد شعور أميركا بالصداقة مع الصين يوم كسب الشيوعيون الحرب الأهلية عام ١٩٤٩ ودخلوا الحرب الكورية عام ١٩٥٠ . وحلت بدله سياسة الانفصال المقصود عن حكام بكين الشيوعيين . وأسطع مظهر لهذه الذهنية ، رفض دولس مصافحة (زهاو انلاي) في مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤ حول الهند – الصينية – التصرف الذي ظل يعتمل في صدر رئيس وزراء الصين لما التقاني في بكين بعد سبعة عشر عاماً واستعلم مني ان كنت من بين الأميركان الذين رفضوا مصافحة زعماء الصين . فبقيت القناة الوحيدة للاتصال الدبلوماسي بين البلدين ، خلال سفيريهما المعتمدين في وارشو اللذين التقيا في مواعيد غير دورية ليتبادلا عبارات المدح والذم . وفي غضون الثورة الثقافية الصينية في أواخر الستينيات والسبعينيات – التي ضاهت تكاليفها بالأرواح والمعاناة تكاليف حملات ستالين التطهيرية تم استدعاء جميع سفراء الصين (عدا سفيرها في مصر لسبب غامض) الى الصين ، مقاطعين بذلك محادثات وارشو وتاركين واشنطن وبكين دونما أي اتصال دبلوماسي أو سياسي بأي مستوى كان .

من المثير أن الزعماء الذين أدركوا أولاً الفرص الكامنة في قطيعة صينية – سوفيتية هما عجوزا الدبلوماسية الأوروبية ، اديناور وديغول . فقد بدأ اديناور الحديث عنها حوالي عام ١٩٥٧ فور قراءته لكتاب عنها ، برغم أن الجمهورية الاتحادية لم تكن في وضع يؤهلها لممارسة سياسة عالمية . أما ديغول فلم يشعر بمثل هذه القيود . اذ أدرك بصورة صحيحة في مطلع الستينيات معاناة السوفيت من مشكلة عويصة على طول حدودهم الشاسعة مع الصين ، وانها ستحملهم على السعي لعلاقة أكثر تعاوناً مع الغرب . فآمن ديغول – ذو الصفات المتميزة – بأن هذه الحقيقة ستعجل بالانفراج الفرنسي – السوفيتي . فاذا ما أخذنا بالاعتبار مشكله – الصين موسكو مع الصين ، اضحى بوسع موسكو التفاوض مع باريس بعيداً عن الستار الحديدي وتحقيق رؤية ديغول لأوروبا " من الأطلسي الى الأورال " . بيد أن فرنسا ديغول ما كانت قوية لدرجة تفجير هكذا ثورة دبلوماسية . وعليه لم تعتبر موسكو باريس شريكاً مكافئاً للانفراج . على أية حال ، وبرغم سقوط اركان سياسة ديغول لانه نظر اياها من خلال المنظار الفرنسي ، كان تحليله الباطن بالغيب بصيراً . فقد اخفق صناع السياسة الأميركان الذين أعمتهم افتراضاتهم المسبقة دهراً طويلاً في تخمين تمثيل القطيعة الصينية – السوفيتية فرصة استراتيجية للغرب .

انقسم الرأي الأميركي حول الصين واتخذ الانماط المعهودة للحرب الباردة . اذ عزت جماعة صغيرة من المعنيين بالصين هذه القطيعة لعامل نفسي ، فحثت أميركا على معالجة آلام الصين بتسليم المقعد الصيني في الأمم المتحدة لبكين وتخفيف التوترات عن طريق الاتصالات واسعة النطاق . بينما عدت الغالبية

العظمى لأصحاب الرأي المطلعين ، الصين الشيوعية بلداً لاحد لتوسعه ، أيديولوجياً حتى النخاع ، وناذراً نفسه للثورة العالمية . لذلك أدخلت أميركا نفسها في الهند الصينية لسبب رئيسي هو احباط ما اعتبر مؤامرة شيوعية تقودها الصين للاستحواذ على جنوب شرق آسيا . اذ نطقت الحكمة التقليدية بأن النظام الشيوعي الصيني بحاجة أكثر من الاتحاد السوفيتي الى التغير قبل التفكير باجراء مفاوضات .

لقي هذا الرأي تشجيع جماعة غير متوقعة . فقد اتخذ المعنيين بالاتحاد السوفيتي الذين حثوا لأكثر من عقد على اجراء حوار مع موسكو ، موقفاً مغايراً تماماً بخصوص الصين . ففي مطلع ولاية نيكسون الأولى ، تقدمت مجموعة من السفراء السابقين في الاتحاد السوفيتي ، الذين أكدرتهم بالونات اختبار واشنطن الأولى لبكين ، الى الرئيس بتحذير كئيب ، مفاده ان الزعماء السوفيت أصيبوا بجنون الارتياب من الصين الشيوعية لدرجة أن أية بادرة لتحسين علاقات أميركا مع بكين ستنطوي على خطر مواجهة مع الاتحاد السوفيتي .

لم يرق لادارة نيكسون هذا الرأي عن العلاقات الدولية . فاستبعاد بلد بحجم الصين من خيارات أميركا الدبلوماسية يعني تصرف أميركا دولياً واحدى يديها مربوطة وراء ظهرها . فنحن مقتنعون بأن زيادة خيارات أميركا الخارجية من شأنها تلطيف موقف موسكو لا تصليبه . اذ أوضح بيان سياسي كتبت مسودته لدعوة " نلسون روكفلر " عام ١٩٦٨ الى تسمية رئيس جمهوري :

[..... سأبدأ حواراً مع الصين الشيوعية . ففي ظل مثلث علاقات بين واشنطن وبكين وموسكو سنطور امكانيات التـواءم كـل مـع الآخـر في الوقـت الذي نزيد به خيارات أحدنا تجاه الآخرين] .

وكان نيكسون قد عرض آراء مطابقة قبلي ، بلهجة ملائمة لأفكار أميركا التقليديـة عـن الأسـرة العالميـة . ففـي تشـرين الأول ١٩٦٧ ، دون في " الشـؤون الخارجية " :

[لو نظرنا بعيداً ، فما بوسعنا ترك الصين خارج رحبة الأمم الى الأبـد ، فتعشعش في خيالاتها ، وتتنامى أحقادها ، وتهدد جاراتها ، فليس ثمـة مكـان في هذا الكوكب الصغير لمليار من أقوى الشعوب ، للعيش في عزلة مقيتة] .

وأضحى نيكسون أكثر تحديداً بعد قصير وقت من تسـميته رئيسـاً ، دليـل ذلك في مقابلة مع احدى المجلات في أيلول ١٩٦٨ اذ قال :

[لا يجوز لنا نسيان الصين . فعلينا البحـث عـن فـرص للتحـدث معهـا كمكا فعلنا مع الاتحـاد السـوفيتي ....فـلا يمكننـا ترقـب التغيرات ، بـل علينـا السعي لاجراء التغييرات] .

في خضم هذا بلغ نيكسون هدفه برغم أن اندفاع الصين للانضمام للأسـرة الدولية جاء من أجل الحوار مع أميركا ، وهو سبب أصغر من خشيتها من تعرضها لهجوم حليفها الظاهري ، الاتحاد السوفيتي ، ومن جـانب أميركـا ، الـتي لم تـدرك هذا البعد للعلاقة الصينية – السوفيتية على الفور ، فقد تلقت انذاراً به مـن الاتحـاد

السوفيتي عينه . وما هذه المرة الأولى ولا الأخيرة التي تعجل بها سياسـة السـوفيت الخارجية الخرقاء بحصول أشد مما خشيه الكرملين .

في ربيع ١٩٦٩ ، وقعت مصادمات عنيفة بين القوات الصينيـة والسـوفيتية على امتداد رقعة طويلة من الحـــدود بينهمـا على طـول نهـر (أوسـوري) في سيبيريا . سلمت واشنطن ، بنـاءً على تجربـة عقديـن ، بـأن هـذه المناوشـات قـد زندها الزعماء الصينيون المتعصبون . غير أن الدبلوماسية السـوفيتية الحمقـاء حثتنـا على اعادة تقييم لرأينا . ذلك أن الدبلوماسيين السوفيت دأبوا على تزويد واشنطن بزبدة تفاصيل النسخة السوفيتية للأحداث مستفسرين عمـا سـيكون عليه الموقـف الأميركي لو تم تصعيد هذه المصادمات .

حدا هذا التشوق السوفيتي غير المسبوق لاستشارة واشنطن في قضيـة ليـس لأميركا اهتمام خاص بها ، بنا الى سؤال أنفسـنا فيمـا اذا كـانت الملخصـات غـير معدة لارساء أساس لهجوم سوفيتي على الصـين ، وتعـززت هـذه الشـكوك سـاعة كشفت دراسات الاستخبارات الأميركية التي دعت اليهـا الملخصـات السـوفيتية ، ان جميع المناوشات دون استثناء قد وقعت قرب قواعد التمويـن السـوفيتية الكـبرى وبعيداً عن مراكز الاتصالات الصينية – وهو وضـع لا يتوقعه المرء الا اذا كـانت القوات السوفيتية في الواقع هي المهاجمة . وتجسد مصداق هذا التحليل بـالتعزيزات السوفيتية الدؤوب على طـول الحـدود الصينيـة البالغـة أربعـة آلاف ميـل ، فبلغـت سراعاً ما يربو على أربعين فرقة .

اذا ما صح تحليل ادارة نيكسون ، فثمة أزمة دولية كبرى كانت تحاك خيوطها حتى وان لم تخبر بها معظم بلدان العالم . فالتدخل العسكري السوفيتي في الصين يمثل أخطر تهديد لتوازن القوى الكوني منذ أزمة الصواريخ الكوبية . وهنا ، يعني تطبيق مبدأ برجنيف على الصين أن موسكو تحاول اخضاع حكومة بكين مثلما اخضعت حكومة تشيكوسلوفاكيا لارادتها قبل عام . وهكذا ستغدو اكظ بلد سكاناً في العالم ، تابعاً لقوة نووية عظمى – انه لدمج مشؤوم من شأنه أن يعيد تشكيل الكتلة الصينية – السوفيتية ، الكريهة ، تلك التي أثارت طبيعتها المتراصة فزعاً في الخمسينات ، ولم يتضح ما اذا كان الاتحاد السوفيتي قادراً على بلوغ هكذا مشروع ضخم أم لا . على أن ما كان واضحاً – سيما لدى ادارة ترسي سياستها الخارجية على مفهوم جيوسياسي – ان ذلك الخطر عصي على التحمل . وعليه ، لو تم النظر لتوازن القوى بجدية ، فلا بد من التصدي الى ((أفق)) الاضطراب الجيوسياسي ، لأنه ان حصل ، سيكون السيف قد سبق العذل ، ففي الأقل سترتفع كلفة التصدي بنسبة مرعبة .

أفضت هذه الاعتبارات نيكسون الى اتخاذ قرارين استثنائيين صيف ١٩٦٩ أولهما ارجاء جميع القضايا التي تشكل الحوار الصيني – الأميركي القائم . ذلك أن محادثات وارشو وضعت جدول أعمال معقد مثلما هو مبدد للوقت . فقد شدد كل طرف على مظالمه : فها هي الصين أرادت التداول بمستقبل تايوان والموجودات الصينية المصادرة في أميركا . وذي أميركا تندد باستخدام القوة ضد تايوان ، ورفض مشاركة الصين في مفاوضات الحد من التسلح ، وكذلك سعيها لتسوية مطالب أميركا الاقتصادية من الصين .

لقد جنح نيكسون ، بدلاً من ذلك ، الى التركيز على القضية الأكبر وهي موقف الصين من حوار مع أميركا ، فأعطيت الأولوية لتحديد نطاق المثلث الصيني السوفيتي الأميركي البادي في الأفق . فان أفلحنا في تحديد ما شككنا به (وهو خوف الاتحاد السوفيتي والصين من بعضهما البعض أكثر من خوفهما من أميركا) ، فقد سنحت فرصة غير مسبوقة للدبلوماسية الأميركية . فان تحسنت العلاقات على ذلك الأساس ، سيعني جدول الأعمال التقليدي بنفسه ، وان لم تتحسن العلاقات ، فسيبقى جدول الأعمال التقليدي عصياً على الحل . أي أن القضايا العملية ستجد حلها ضمن سلسلة من التقارب الصيني – الأميركي ، وليس رسم المسار اليه .

أعلنت أميركا في تموز ١٩٦٩ ، تحقيقاً لاستراتيجية تحويل العالم ثنائي القوى الى عالم ثلاثي القوى ، سلسلة من المبادرات وحيدة الجانب لتوحي بتغير موقفها . فألغت حظر سفر الأميركان الى جمهورية الصين الشعبية ، وبات بوسع الأميركان جلب ما قيمته مائة دولار من البضائع صينية الصنع الى أميركا أجازت تصدير شحنات محدودة من الحبوب الأميركية الى الصين ، فهاتيك الاجراءات ، ولو انها غير هامة بحد ذاتها ، كانت معدة لنقلة في نهج أميركا الجديد .

أعلن (ورليام روجرز) وزير الخارجية هذه التلميحات على رؤوس الأشهاد في كلمة صادقها نيكسون . فهو أعلن في ٨ آب ١٩٦٩ باستراليا ترحيب أميركا بدور هام للصين الشعبية في الشؤون الآسيوية والهادية . ولو تخلى قادة الصين عن " نظرتهم الاستيطانية الى العالم " ، فستفتح أميركا قنوات الاتصال " . ولفت روجرز ، في أسخن تعليق على الصين ينطق به وزير خارجية

أميركي في عشرين عاماً ، الانظار الى المبادرات وحيدة الجانب التي اتخذتها أميركا في الجانب الاقتصادي ، وهي خطط مصممة " لتذكير شعب الصين بالصداقة التاريخية معه " .

ولكن لو كان ثمة خطر حقيقي لهجوم سوفيتي على الصين صيف ١٩٦٩ ، فلن يتسنى وقت كاف لتأخذ هذه المناورات المعقدة مداها التدريجي . وعليه اتخذ نيكسون ما هو ربما اجرأ خطوة في رئاسته ، اذ حذر الاتحاد السوفيتي من أن الولايات المتحدة لن تقف ساكنة حيال الصين لو ارتأى السوفيت الهجوم عليها . لقد عد نيكسون ومستشاروه استقلال الصين ، بغض النظر عن موقفها الفوري تجاه أميركا ، جزءاً لا يتجزأ من التوازن الكوني ، واعتبروا الاتصال الدبلوماسي مع الصين أمراً أساسياً لمرونة الدبلوماسية الأميركية . كما كان تحذير نيكسون للسوفيت تعبيراً صريحاً عن تأكيد ادارته الجديد على ارساء السياسة الأميركية على معطيات التحليل الدقيق للمصلحة القومية .

وعلى أثر شدة اهتمام نيكسون بالبناء العسكري السوفيتي على الحدود الصينية ، أصدر بياناً حاداً ذا حدين في ٥ أيلول ١٩٦٩ الى درجة أوضح فيها أنه " شديد القلق " من الحرب الصينية - السوفيتية . وكلف (اليوت ريتشاردسون) ، وكيل وزير الخارجية ، بتسليم الرسالة الأميركية لم يكن ريتشاردسون ، ذو المستوى الرفيع بما لا يدع مجالاً للشك أنه يتحدث نيابة عن الرئيس ، في عين الوقت ، صلباً لدرجة تحدي الاتحاد السوفيتي مباشرة :

[ليس استغلال العداء بين الاتحاد السوفيتي والصين مبغانا ، وما الخلافات الأيديولوجية بين العملاقين الشيوعيين من اختصاصنا . بيد أننا لا مناص لنا من القلق الشديد من تصعيد هذا النزاع الى ما يعكر الأمن والسلام الدوليين] .

عندما يتخلى بلد عن نيته باستغلال صراع بين طرفين آخرين ، انما يشير في الواقع الى قدرته على ذلك وان من الأسلم لكلا الطرفين العمل على الحفاظ على حياده . وكذا الحال عندما يعرب عن " قلقه الشديد " من الاحتمالات العسكرية ، فهو يوحي بأنه سيساعد - بطريقة ما - ضحية ما اعتبره عدواناً . وبذا تفرد نيكسون عن الرؤساء الأميركان لهذا القرن بابدائه الاستعداد لدعم بلد لا علاقات دبلوماسية لأميركا به طيلة عشرين سنة ، ولم يجر واياه ((أي)) اتصال على أي مستوى كان ، وما زال دبلوماسيوه ووسائل اعلامه يشنعون على ((الامبريالية)) الأميركية أنى كانت . وهكذا مثل هذا السلوك عودة أميركا الى عالم السياسة الواقعية .

تم التشديد ، تأكيداً على النهج الجديد ، ثم التشديد على أهمية العلاقات المتطورة بين الصين وأميركا في جميع التقارير السنوية الرئاسية عن السياسة الخارجية . ففي شباط ١٩٧٠ - قبل اجراء أي اتصال مباشر بين واشنطن وبكين - دعا التقرير الى مفاوضات عملية مع الصين ، مؤكداً على عدم تآمر أميركا مع الاتحاد السوفيتي ضد الصين . لا جرم أن هذا هو الاتجاه المعاكس لتحذير موسكو ، فقد انطوى على امتلاك واشنطن الدائم لذلك الخيار لو انها اضطرت

اليه . فيما كرر تقرير شباط ١٩٧١ رغبة أميركا باجراء اتصال مع الصين ، واعاد طمأنة الصين بعدم اضمار أميركا نية عدائية ضدها :

[نحن مستعدون لمباشرة حوار مع بكين . أجل أننا لا نقبل عقائدها الأيديولوجية أو فكرة أن الصين الشيوعية لا بد أن تهيمن على آسيا . غير أننا كذلك لا نرغب بفرض وضع دولي على الصين ينكر عليها مصالحها القومية المشروعة] .

وثانية أكد التقرير حياد أميركا في الصراع بين أكبر معقلين للشيوعية :

[لن نتحرك قيد أنملة لاذكاء ذلك الصراع - ولا تشجيعه . فمن السخف الاعتقاد بامكانية تآمرنا مع أحد الطرفين ضد الآخر .... وفي الوقت نفسه ، لن نسمح للصين الشيوعية ولا الاتحاد السوفيتي برسم سياساتنا وتصرفنا تجاه الطرف الآخر .... وسنحكم على الصين وكذلك الاتحاد السوفيتي من خلال أفعالهما لا أقوالهما] .

جسد الصدوف المتعالي عن التآمر مع أي من العملاقين الشيوعيين دعوة لكل منهما لتحسين علاقاته مع واشنطن ، وتحذيراً لكل منهما من عواقب العداء المتواصل .

وكان بجعبة كل من الصين والاتحاد السوفيتي ما يحفزهما على تحسين العلاقات مع أميركا ، الى حد أن كليهما حسب أنه يحتاج لنية أميركا الحسنة ، أو أنه خشي من تحول أميركا الى العداء معه . وقد ادرك كلاهما ، بأبسط صورة

ممكنة ، أن أهم متطلبات العلاقات الأوثق مع أميركا ، الاحجام عن تسليط تهديدات لمصالحها الحيوية .

تجلى من سير الأحداث ، ان تصميم خطة جديدة للعلاقات مع الصين أسهل من تنفيذها . ذلك أن العزلة بين أميركا والصين كانت مطبقة لدرجة أن كليهما لم يعرف كيفية الاتصال بالآخر ، أو ايجاد مفردات مشتركة تتيح لهما ضمان أن التقارب لم يقصد به نصب الفخاخ .

وفي هذا صادفت الصين صعوبة أكبر . وأحد أسبابها أن الدبلوماسية الصينية كانت غير مباشرة كثيراً ما صعب على واشنطن معرفتها . ففي الأول من نيسان ١٩٦٩ - بعد شهرين على اداء نيكسون يمين الرئاسة - تفوه (لين بيو) وزير الدفاع الصيني الذي أوشك أن يكنى بوريث (ماو) ، يقول ان أميركا عدو الصين الأساسي ، كما ورد في تقرير رفعه الى المؤتمر القومي التاسع للحزب الشيوعي . وحين وصف الاتحاد السوفيتي بأنه تهديد مماثل ، تحقق الافتراض الأساسي المسبق عن الدبلوماسية الثلاثية . لقد أعاد بيو تأكيد التصريح الذي أدلى به ماو للصحفي (ادغار سنو) ان الصين لا تملك قوات خارج حدودها ولا نية لديها بمقاتلة أي طرف الا اذا تعرضت لهجوم .

ان أحد أسباب تجاهل اشارات ماو هو مبالغة الصينيين في تقدير قيمة ادغار سنو في أميركا . فقد اعتقد زعماء الصين ان سنو ، الصحفي الأميركي شديد التعاطف مع الشيوعيين الصينيين ، يتمتع بمصداقية خاصة في أميركا بخصوص الشؤون الصينية . بينما اعتقدته واشنطن اداة شيوعية وغير جدير بتأمينه على

أسرارها . وأخفقت اشارة ماو باجلاسه سنو بجانبه على منصة التحية في استعراض عيد الاستقلال الصيني في تشرين الأول ١٩٧٠ . وكذا كان رد فعلنا ازاء المقابلة التي أجراها ماو مع سنو بكانون الأول ١٩٧٠ ودعا فيها نيكسون لزيارة الصين بصفته سائحاً أو رئيساً أميركياً . وبرغم أن ماو أمر مترجمته بنقل ملاحظاته الى سنو (توخياً للأمانة) فان واشنطن لم تعلم بالدعوة قط الا حين حسمت قضية زيارة نيكسون خلال قنوات أخرى بعد شهور عدداً .

استؤنفت الاتصالات الدبلوماسية ، في غضون ذلك ، بين الصين وأميركا في وارشو بكانون الأول ١٩٦٩ . ولم تثبت أنها أكثر فائدة مما كانت عليه سابقاً . فأوعز نيكسون (والتر ستويسل) وهو سفير أميركا الكفوء والحذر في وارشو ، بالذهاب للقائم بالأعمال الصيني في أول مهمة اجتماعية وجد الاثنان أنفسهما فيها ، ودعوته لاستئناف المحادثات السفاراتية . وجاءت فرصة ستويسل في ٣ كانون الأول ١٩٦٩ في مكان غريب - اذا في عرض أزياء يوغسلافي في قصر الثقافة بوارشو . فما كان من القائم بالأعمال الصيني ، الذي لم تكن لديه أي توجيهات للتداول مع مثل وصول دبلوماسي أميركي اليه ، الا أن هرب لا يلوي على شيء . ولم تصل الرسالة الا حين داهم ستويسل مترجم القائم بالأعمال الصيني وأبلغه الرسالة . ومهما يكن من أمر ، تلقى القائم بالأعمال توجيهات في ١١ كانون الأول حول كيفية التصرف مع الأميركان ، ودعا ستويسل للسفارة الصينية لاستئناف محادثات وارشو السابقة .

سرعان ما برز أحد المآزق . اذ لم يتكفل جدول الأعمال كلا الطرفين بسبر القضايا الجيوسياسية الكامنة ، التي كان لها برأي نيكسون أن تحدد مستقبل

العلاقات الصينية - الأميركية ، واتضح فيما بعد أن ذلك كان رأي ماو و (زهاو) أيضاً . أكثر من هذا أن تلك القضايا خضعت في الجانب الأميركي لغربلة العملية المربكة للتشاور مع الكونغرس والحلفاء الكبار ، الذين أجمعوا على ضمان أن التقدم -ان وجد -سيكون متأرجحاً وعرضة لكثير من الآراء الرافضة .

أسفرت النتيجة عن تسبب محادثات وارشو بخلافات كثيرة داخل صفوف الحكومة الأميركية أكثر مما كانت في اجتماعات الطرفين . ولذلك تنفس نيكسون وأنا الصعداء ساعة علمنا بمقاطعة الصين لمحادثات السفيرين احتجاجاً على الهجوم الأميركي على الملاجيء الكمبودية في مارس ١٩٧٠ . ومن حينها شرع كلا الطرفان باستكشاف قناة أكثر مرونة ، حتى حققت ذلك الحكومة الباكستانية أخيراً . وبلغ زخم هذه الاتصالات ذروته في زيارتي السرية لبكين في تموز ١٩٧١ .

لم أواجه جماعة من المفاوضين متقبلين لأسلوب نيكسون الدبلوماسي أكثر من زعماء الصين . فقد اعتبروا ، مثلما هو شأن نيكسون ، أن جدول الأعمال التقليدي له أهمية ثانوية ، واهتموا قبل كل شيء باستغوار امكانية التعاون على أساس المصالح المتطابقة . فذا سبب أحد أول أقوال ماو لنيكسون :

" القضية الصغيرة تايوان ، والقضية الكبيرة هي العالم " .

كان ما أراده قادة الصين ضمان عدم تعاون أميركا مع الكرملين في تنفيذ مبدأ برجنيف ، وما ابتغاه نيكسون معرفة امكانية تعاون الصين مع أميركا في التصدي للهجمات السوفيتية الجيوسياسية . ولذا كانت أهداف كلا الطرفين

معقولة ، وأن تطلب ذلك ترجمته الى دبلوماسية عملية آجلاً أم عاجلاً . فكان لا بد من تجلي شعور بالمصلحة المشتركة من ثنايا عرض كلا الطرفين لنظرته الى العالم - وهي مهمة كان نيكسون الاصلح اليها .

لهذه الأسباب ، ركزت المراحل الأولى للحوار الصيني - الأميركي بشكل رئيسي على مواءمة المفاهيم والمسارات الرئيسية . وكان (ماو وزهاو ودينغ) شخصيات استثنائية جميعاً . فقد جسد ماو الثوري الحالم والقاسي وعديم الشفقة والقاتل أحياناً ، فيما كان زهاو الاداري الأنيق والجذاب واللامع ، أما دينغ فهو اصلاحي المعتقدات الأساسية . ولذلك عكس الرجال الثلاثة تقليداً مشتركاً للتحليل الجاد الدؤوب واستخلاص تجارب بلدج عريق . متحلين بفطرة تميز بين ما هو دائم وبين ما هو تكتيكي .

يرى تحليل نيكسون ومستشاريه ، ان الصين ما دامت تخشى الاتحاد السوفيتي أكثر من خشيتها أميركا ، فان مصلحة الصين القومية تفرض عليها التعاون مع أميركا . وبنفس الاتجاه ، لم تقاوم الصين التوسعية السوفيتية خدمةً للولايات المتحدة حتى لو خدم ذلك أهداف كل من أميركا والصين . ولم تكن نيكسون الذي تأثر بوضوح أفكار زعماء الصين - سيما رئيس الوزراء زهاو انلاي - أية مصلحة مفهومة في ايضاف أميركا بجانب أي من طرفي الصراع الصيني - السوفيتي . ذلك أن خير وضع تساومي لأميركا سيتحقق عندما تقترب من ((كلا)) العملاقين الشيوعيين أكثر من قرب أي منهما للأخر .

يوفر انفتاح أميركا على الصين حالة دراسية شيقة عن دور الشخصيات في ممارسة السياسة الخارجية . أن ما تراه الأجيال القادمة انعطافاً جديداً ، يتمخض عادة عن سلسلة قصيرة أو طويلة من التصرفات العشوائية التي تجعل من الصعب تمييز أي منها خياراً واعياً وأي منها نتاج زخم صرف . فلأن العلاقات الصينية - الأميركية ظهرت للوجود بعد عشرين عاماً من العزلة شبه التامة ، كان كل شيء جديداً وعليه فهو مهم بمصطلحات ما حصل فيما بعد . وقد فرضت الضرورة عمل التقارب لدى كلا الطرفين وان المحاولة في سبيله يجب أن تتم مهما كانت هوية الحاكمين في كلا البلدين . غير أن السلاسة والسرعة التي تطور بها ، وكذلك المدى الذي بلغه ، يعزى لحد كبير الى لباقة واخلاص الزعماء في كلا البلدين الذين انجزاه ، وهو يعزى للجانب الأميركي تحديداً الى التركيز غير المسبوق على تحليل المصلحة القومية .

لقد نشر ماو ، الشيوعي العتيد ، الثقة بالنفس عن الاعلان بأنه وريث تقليد الحكم الذاتي غير المنازع الذي استمر ثلاثة آلاف عام . فبعد اخضاع بلده مترامي الأطراف للمنعشات الأيديولوجية ، وسفك الدماء المروع في الثورة الثقافية ، شرع بضخ شيء من الروح العملية في عروق السياسة الخارجية . واذا كانت المملكة الوسطى قد ضمنت أمنها لقرون عديدة بدفع البرابرة الى الجيران القريبين ، تبنى ماو الذي أقضت التوسعية السوفيتية مضجعه ، نفس الاستراتيجية في انفتاحه على أميركا .

لم يعبأ نيكسون بدوافع ماو . لقد كان هدفه الرئيسي استعادة المبادرة الأميركية في السياسة الخارجية . فلم يعتمد في سعيه لما أسماه عهد المفاوضات بين

أميركا والاتحاد السوفييتي صدمـــة فيتنام على العلاقات الشخصية ولا على تغير السوفيت ، بل على توازن الحوافز طريقاً لجعل الكرملين أكثر مرونة .

واجه الاتحاد السوفييتي ، عشية الانفتاح الأميركي على الصين ، تحديات على جبهتين – الناتو في الغرب والصين في الشرق . وفي فترة تعززت بها شقة السوفيت بأنفسهم وتردت ثقة الأميركان بأنفسهم ، أفلحت ادارة نيكسون في ادارة المائدة . اذ استمرت تعتبر الحرب العامة خطراً فادحاً على السوفيت . وبعد الانفتاح على الصين ، باتت ضغوط السوفيت تحت مستوى الحرب العامة خطيرة جداً أيضاً –لانطوائها على القدرة على تعجيل التقارب الصيني – الأميركي المقيت . فيوم انفتحت أميركا على الصين ، أضحى خير خيارات السوفيت البحث عن تخفيف لتوتراته مع أميركا وتصور الكرملين ، مؤمناً بنظرية امتلاكه ما يقدمه لأميركا أكثر مما تقدمه الصين ، ان بوسعه النجاح في المناورة مع أميركا لجرها الى شبه تحالف ضد الصين ، وهو ما أفضى به برجنيف بغموض الى نيكسون في عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤ .

ما كانت أميركا وهي تمارس نهجها الجديد في السياسة الخارجية ، لتدعم الطرف القوي ضد الضعيف في أي موقف لتوازن القوى . وازاء الاتحاد السوفييتي ذي أعظم قدرة على تعكير السلام ، ينبغي تقديم الحوافز له ليهدىء الأزمات الناشبة ويتجنب اثارة أزمات جديدة بينما يواجه مقاومة على جبهتين . أما الصين ذات القابلية على خلخلة التوازن الآسيوي ، فيجب تقييدها بدافع حاجتها لحسن نية أميركا عند وضع حد للمغامرات السوفيتية . فخلال كل ذلك ، على ادارة

نيكسون ان تحاول حل القضايا العملية مع الاتحاد السوفييتي بينما تواصل حواراً مع الصين بشأن المفاهيم الكونية .

لم يحصل غير عكس ما حذر به معظم الخبراء السوفيت نيكسون من افساد العلاقات السوفيتية – الأميركية بسبب تطور العلاقات بالصين . فقد شرعت موسكو وقبل زيارتي السرية للصين ترتب طيلة أكثر من عام لقمة بين برجنيف ونيكسون . وحاولت ، بنوع من الربط المعكوس ، ان تعليق لقاء القمة على قائمة من الشروط . وبعد شهر من زيارتي لبكين ، عكس الكرملين اتجاهه ودعا نيكسون الى زيارة موسكو . فبدأت جميع العلاقات السوفيتية – الأميركية تسير بوتيرة عاجلة حالما تخلى الزعماء السوفيت عن محاولاتهم لانتزاع تنازلات أميركية وحيدة الجانب .

كان نيكسون أول رئيس أميركي منذ عهد تيودور روزفلت ، يقود السياسة الخارجية باسم المصلحة القومية . اما عائق هذا النهج فهو ضعف التأييد له في صفوف الشعب الأميركي . فالبنى ليست سوى وسائل لا تؤدي بحد ذاتها الى التزامات في قلوب واذهان المجتمع – سيما مجتمع متشبع بتقليد أميركا التفردي حتى وان أكثر نيكسون في الحديث عن بنى السلام و لم تشر المصلحة القومية الى نفسها بنفسها مثلما انطوت عليه التقارير الرئاسية عن السياسة الخارجية . ففي غياب تقليد راسخ ، لم ترتح جماعات القيادة الأميركية لمفهوم المصلحة القومية مثلما ارتاحت جماعات القيادة البريطانية أو الفرنسية أو الصينية مثلاً . وحتى في أمثل الظروف وأهدئها ، كانت تنتقي أفضل حقبة من الولاية الرئاسية لارساء تقليد للسياسة الخارجية قائم على نهج نيكسون .

نال نيكسون في ولايته الأولى فرصة ضئيلة لانجاز هذه المهمة التثقيفية نظراً لانكباب مجتمعه على الاحتجاج ولكونه أسير الاعتقاد بانغماس حكومة أميركا بالتهديد الذي تسلطه الشيوعية ، فيما أفسدت فضيحة ووترغيت ولايته الثانية من مستهلها . فما كان مرجحاً لرئيس يواجه اتهاماً بالخيانة أن يقبلوه زعيماً لجهود اعادة صياغة التفكير القومي .

كذلك كانت الحالة التي عرض بها نيكسون واتباعه نهجهم بأسلوب يتناقض وتقاليد أميركا الأيديولوجية بشكل صارخ . فقبل عشرين عاماً ، خلع جون فوستر دولس على تحليلاته الواقعية لباس التفرد الخطابي ، فيما دفع رونالد ريغان ، بعد عشر سنوات ، الجمهور الأميركي الى تأييد سياسة خارجية لم تختلف في تفاصيلها العملياتية عن سياسة نيكسون ، بفضل اكسائها برطانة مثالية . تجسدت معضلة نيكسون ، الذي ظل يحكم مثلما فعل أيام فيتنام ، هي أن بلاغة دولس- أوريغان – الخطابية كانت كمن يسكب الزيت على النار ، ناهيك عن كونه ، حتى في الأوقات الهادئة ، أكثر عقلانية من تبني بلاغة دولس أوريغان الخطابية .

بات نهج نيكسون (ونهجي) منار خلاف مستعر الأوار ، نظراً لاعتبار انجازات نهج سياسة نيكسون الخارجية أمراً بدهياً ، ولبقاء الأخطار التي تحاشاها . فلولا ووترغيت ، لعل نيكسون كان قادراً على تسيير بلده على أسلوبه في الدبلوماسية ، وايضاح أن أسلوبه حقاً هو أكثر الأساليب واقعية في التحقق من المثالية الأميركية . غير أن تراكم ووترغيت مع فيتنام حال دون ظهور اجماع جديد . لقد نجح نيكسون برغم مأساة الهند الصينية ، أن يصل ببلاده الى موقع

الهيمنة على الشؤون الدولية ، بيد أن ولايته الثانية شهدت جدالاً حامي الوطيس حول دور الأمة الأميركية في شؤون العالم سيما ما يتعلق بموقفها حيال الشيوعية .

الفصل الثاني عشر

الانفراج وتعثراته

سعت ادارة نيكسون ، اذ أراحت نفسها من اراقة سيول الدماء في فيتنام وجهت اهتمامها لمسائل الدولية الأرحب ، الى العناية بما أسمته " بنية سلام " ، ذلك أن العلاقة الثلاثية بين أميركا والاتحاد السوفيتي والصين قد فتحت الأبواب لسلسلة من الاختراقات : نهاية حرب فيتنام ، والتوصل لاتفاق أتاح الدخول لبرلين المقسمة ، وتراجع مدهش للنفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط ، مع بدء العملية السلمية بين العرب واسرائيل ، اضافة الى انعقاد مؤتمر الأمن الأوروبي (الذي اكتمل أثناء ادارة فورد) . وقد أسهم كل من هذه الأحداث في الأحداث الأخرى ، كما ساير الثأر خطوات هذا الارتباط .

لقد أضفى الانفراج زخماً أقوى على سير الدبلوماسية الأوروبية ، ذلك المسرح الذي تحجر فعلياً منذ آخر تحديد لمناطق نفوذ الشرق - والغرب عام ١٩٦١ . فحتى ساعة انتخاب (فيلي براندت) مستشاراً في تشرين الأول ١٩٦٩ ، أصرت الحكومات الالمانية الغربية على وجود حكومة المانيا الشرعية في بون . اذ رفضت الجمهورية الاتحادية الاعتراف بالنظام الشرقي وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع أية حكومة اعترفت بها (عدا روسيا) - وهو ما أطلق عليه " مبدأ هولستين " .

وعشية اقامة جدار برلين عام ١٩٦١ ، غابت مسألة الوحدة الالمانية من جدول اعمال مفاوضات الشرق - الغرب تدريجياً ، وكفت المانيا عن التطلع للوحدة مؤقتاً . وفي تلك السنين سبر ديغول امكانية التفاوض مع موسكو بصورة مستقلة من أميركا بمناداته سياسة " الانفراج ، والحلف ، والتعاون " مع أوروبا الشرقية . وانطوى الأمل الذي حداه على أساس أن موسكو لو تطلعت الى أوروبا عنصراً مستقلاً لا تابعاً أمريكياً ، فلعلها ، نظراً لمشاكلها مع الصين ، تنزع لتخفيف قبضتها عن أوروبا الشرقية . لقد أراد ديغول انفصال المانيا عن واشنطن الى درجة معينة وان تهتدي بمسلك فرنسا مع السوفيت .

لقد أصاب ديغول في تحليله ، بيد انه تمادى في تقدير قدرة فرنسا على استغلال الوضع الدولي الأكثر ميوعة . اذ لم يرق للجمهورية الاتحادية ادارة ظهرها عن أميركا القوية . ومع ذلك حظيت فكرة ديغول بتقدير نفر من قادة المانيا الذين اعتقدوا بحيازة المانيا على نقاط مساومة افتقدتها باريس حيث توفق براندت الذي أصبح وزيراً للخارجية لحظة أنهى الجنرال مناورته ، في فهم مضامين رأي ديغول وقال ان الالمان الذين ايدوا مبادرة ديغول :

[لم يدركوا أن الجنرال لن يحقق احلامهم بتحقيق قوة ردع نووي أوروبي (حيث رفض المشاركة الألمانية بأباء) ، كما سهوا في استيعاب حقيقة انغماسه بسياسة انفراج لا يؤيدها يمين الاتحاد (الحزب الألماني المحافظ) ، وهي في الواقع كانت تعبد الطريق لنا لسلوك سياسة شرقية لاحقة من نواح كثيرة] .

قبر الغزو السوفيتي لتشيكوسلفاكيا عام ١٩٦٨ مبادرة ديغول غير أنه ويا للسخرية قد شرع الأبواب مفتوحة أمام براندت حين أزفت ساعة تنصيبه زعيماً لألمانيا الغربية عام ١٩٦٩ .

طلع براندت بأطروحة مذهلة تفرض الوحدة من خلال تقارب المانيا مع العالم الشيوعي ما دام الاتكال على الغرب قد أسفر عن عنق الزجاجة . فحث بلده على الاعتراف بالتابع الالماني الشرقي وقبول الحدود مع بولندا (خط أودر – نيس) اضافة لتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتي . وعند تحسن علاقات الشرق – الغرب ، لعل الاتحاد السوفيتي يبدي مرونة حيال قضية الوحدة ، وأقل ما سيتأتى من ذلك تحسن ظروف الشعب الألماني الشرقي .

تحفظت ادارة نيكسون في البدء على ما أسماه براندت بالسياسة الشرقية . فما دام شطري المانيا يغري أحدهما الآخر ، لربما انطلقا أخيراً ببرنامج قومي محايد وهو ما خشيه اديناور وديغول . فلدى الجمهورية الاتحادية النظام السياسي والاجتماعي الأكثر جاذبية ، وتمتع الشيوعيون بامتياز عدم التراجع عن الاعتراف بدولتهم متى ما حصل ذلك ، وبذا ستمسك بمفتاح الوحدة . وفوق ذلك ، أوجست ادارة نيكسون خيفة على وحدة الغرب . فقد شق ديغول جبهة الغرب الموحدة باتجاه موسكو ، بانسحاب فرنسا من الناتو وبذلك اتبع سياسته المستقلة القائمة على الانفراج مع الكرملين . فنظرت واشنطن لخروج المانيا الغربية بشيء من الذعر .

مع ذلك ، كلما سارت مبادرة براندت بزخم أسرع ، زادت قناعة نيكسون ومساعديه أن البديل لا زال خطراً مهما كانت مثالب السياسة الشرقية . كما اتضح استحالة تحمل مبدأ هولشتين مع مرور الزمن . ففي منتصف الستينات عدلته بون نفسها بالنسبة لحكومات أوروبا الشرقية الشيوعية متذرعة بأنها ليست طليقة اليد لتصنع قراراتها .

وتضخمت المشكلة أكثر على أية حال . فما كان معقولاً في الستينات أن تترك موسكو تابعها الألماني الشرقي ينهار دونما تعرضه لازمة فتاكة . وتضمنت أية أزمة ناشئة عن اصرار المانيا على تحقيق تطلعاتها القومية – أو حثها على السير بذلك السبيل – احتمالاً قوياً بشق صف الحلف الغربي ، ذلك بعد أن عزف أي حليف عن المخاطرة بالحرب من أجل توحيد بلد كان سبب محنته أيام الحرب . فانعدمت أية حركة نحو الحدود يوم لوح نيكيتا خروشوف بتسليم مداخل برلين الى الشيوعيين الالمان الشرقيين . فقد جفل الحلفاء الغربيون برمتهم عند تشييد الجدار الذي قسم برلين واذن بتقطيع المانيا . وان كانت الديمقراطيات طيلة سنين قد نطقت بالولاء الكلامي لفكرة الوحدة الالمانية فقد وضعت يدها على خدها ازاء آلية تحقيقها ، حتى بلغ المشوار أقصى احتمالاته فتهاوت سياسة المانيا تجاه حلف الأطلسي .

وعليه قبل نيكسون ومستشاروه السياسة الشرقية باعتبارها ضرورية برغم اعتقادهم بعدم ارتباط براندت عاطفياً بحلف الأطلسي سابقاً – بعكس اديناور . فهناك ثلاث قوى قادرة على تخريب الوضع القائم في أوروبا – القوتان العظميان والمانيا ، لو قررت تكريس كل شيء من أجل الوحدة . وكانت فرنسا ديغول في

الستينيات قد حاولت تعطيل ترتيب مناطق النفوذ وفشلت . لكن لو انكبت المانيا - وهي أقسى أسباب بلوى أوروبا وأقوى بلدانها اقتصاداً - على قلب نظام ما بعد الحرب ، لكانت العواقب جد كئيبة . فحين أبدى رغبته بمفاتحة الغرب ، استخلصت ادارة نيكسون وجوب دعمه بدلاً من اعاقته وبذا ستنشأ مخاطر ابتعاد الجمهورية الفدرالية عن قيود الناتو والأسرة الأوروبية .

أكثر من هذا ، أن التأييد الذي حظيت به السياسة الشرقية قد منح أميركا الفاعلية اللازمة لانهاء أزمة برلين التي دامت ٢١ عاماً . فأصرت ادارة نيكسون على الربط بين السياسة الشرقية ودخول برلين ، وبين هاتين المسألتين والقيد السوفيتي الشامل . ولأن السياسة الشرقية تشترط تنازلات المانية - الاعتراف بخط أودر-نيس وبنظام المانيا الشرقية مقابل أشياء غير ملموسة كتحسين العلاقات - تعذر على براندت نيل موافقة البرلمان ما لم تشفعها ضمانات موثوقة بصدد دخول برلين والحفاظ على حريتها . والا سقطت برلين فريسة للغارات الشيوعية داخل اقليم المانيا الشرقية على طول ١١٠ أميال ، هذه الدولة التي آل الاعتراف بها الى الأسرة الدولية - وهو عين الحال الذي سعى له ستالين وخروشوف عن طريق الحصار واصدار الانذارات . وفي الوقت نفسه عجزت برلين عن معالجة قضية برلين بنفسها فأميركا وحدها تمتعت بالقوة الكافية لمقاومة الضغوط المحتملة التي تنطوي عليها عزلة برلين ، وبالنقل الدبلوماسي الكافي لاحداث تغيير في اجراءات الدخول .

لقد استندت مكانة برلين القانونية باعتبارها اقليما دائراً في الفلك السوفيتي الى الفرضية القانونية بأنها " محتلة " فنياً على يد المنتصرين الأربعة في

الحرب العالمية الثانية . وهكذا ادعت الضرورة الى تفاوض أميركا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا العظمى وفرنسا بشأن قضية برلين . وفي خضم ذلك ، تقربت القيادة السوفيتية وبراندت (بفضل موثوقه البارع ، ايغون باهر) الى واشنطن لنيل عونها في التخلص من المأزق . حيث تمخضت المفاوضات المعقدة عن تشكيل حكومة رباعية القوى صيف ١٩٧١ لضمان حرية برلين الغربية ودخول الغرب للمدينة ، ومنذ ذلك الوقت اختفت برلين من قائمة الازمات الدولية ، حتى تصدرت جدول الأعمال العالمي ثانية يوم انهار جدار برلين وسقطت جمهورية المانيا الديمقراطية .

عرضت سياسة براندت الشرقية اضافة الى الاتفاق حول برلين ، معاهدات صداقة بين المانيا الغربية وبولندا ، والمانيا الغربية والشرقية ، والمانيا الغربية والاتحاد السوفيتي . فقد المح تأكيد السوفيت على اعتراف المانيا الغربية بالحدود التي رسمها ستالين بالضعف وانعدام الأمان . ذلك أن الجمهورية الاتحادية ، وهي بقية دولة ، ما كانت قادرة على تحدي قوى نووية عظمى . فمنحت هذه المعاهدات ، السوفيت حافزاً جباراً على ضبط النفس في الأقل أثناء التفاوض بشأنها ومصادقتها . فاذ بلغت المعاهدات طاولة البرلمان الألماني الغربي ، حاذر السوفيت من فعل أي شيء يؤثر على مصادقتها ، وبعدها بذلوا عنايتهم لعدم دفع المانيا لاتباع سياسة اديناور . وهكذا التزمت موسكو الصمت حين قرر نيكسون تلغيم موانيء فيتنام الشمالية واستئناف قصف هانوي . لقد ربط الانفراج ، طالما كان نيكسون بحالة رائعة في الداخل ، كل اهتمامات الشرق

والغرب بجميع أرجاء العالم . فإن اراد السوفيت جني ثمار تخفيف التوترات ، عليهم أن يساهموا في تحقيق الانفراج .

ان استطاعت ادارة نيكسون وصل مفاوضات مختلفة مع بعضها في أوروبا الوسطى ، فقد استخدمت الانفراج في الشرق الأوسط شبكة سلامة بينما قلصت النفوذ السياسي السوفيتي . اذ أضحى الاتحاد السوفيتي في الستينيات أعظم مزود أسلحة لسوريا ومصر ، وراعياً للجماعات العربية الراديكالية تنظيماً وفنياً . وتصرف في المحافل الدولية بمثابة متحدث عن مكانة العرب وغالباً ما كان ذلك من أجل وجهة نظره موغلة الراديكالية .

وطالما بقي الحال هكذا ، احتاج التقدم الدبلوماسي الدعم السوفيتي ، فاثار هذا المأزق خطر أزمات متكررة . فليس ممكناً الخروج منه الا باجبار جميع الأطراف على مواجهة الحقيقة الجيوسياسية للشرق الأوسط : ان اسرائيل قوية (أو يمكن جعلها هكذا) لا يقوى جمع جيرانها على قهرها ، وان الولايات المتحدة ستغلق منفذ التدخل السوفيتي . ولذا أصرت ادارة نيكسون على ابداء جميع الأطراف وليس حلفاء أميركا حسب رغبتها بتقديم التضحيات قبل التزام أميركا بعملية السلام . فالاتحاد السوفيتي جد قادر على تصعيد التوترات ، بيد أنه يفتقر لوسائل انهاء الأزمات أو تولي قضايا أصدقائه دبلوماسياً . وبوسعه التدخل كما حصل عام ١٩٥٦ ، غير أن التجربة أوضحت بجلاء ميل السوفيت للنكوص ازاء المعارضة الأميركية .

ولذلك ، وصل مفتاح السلام في الشرق الأوسط الى يد واشنطن ، وليس موسكو ، فلو أجادت أميركا لعب ورقاتها ، لأضطر الاتحاد السوفيتي الى المساهمة في حل حقيقي ، أو قطع أحد عملائه العرب علاقته معه والميل نحو أميركا . وفي كلتا الحالتين سيتقلص النفوذ السوفيتي في الدول العربية . وهذا سبب ثقتي في مطلع ولاية نيكسون بحيث أبلغت صحفياً ان الادارة الجديدة ستقوض النفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط . ومع أن تلك الملاحظة المرتجلة أثارت موجة غضب ، أصابت في وصف الاستراتيجية التي كانت ادارة نيكسون على وشك السير عليها .

حاول الزعماء السوفيت ، في غمرة غفلتهم عن المعضلة الاستراتيجية ، استدراج واشنطن لتأييد نتائج دبلوماسية من شأنها تعزيز موقف السوفيت في العالم العربي . بيد أن مصلحة واشنطن في التعاون مع موسكو قد انتفت ما دام الاتحاد السوفيتي مستمراً بتزويد بلدان الشرق الأوسط الراديكالية بمعظم أسلحتها ومطابقة برامجها الدبلوماسية لبرامجه – وان غم ذلك على انظار من اعتبروا التعاون مع الاتحاد السوفيتي غاية بحد ذاته . لقد تجسدت أمثل استراتيجية رآها نيكسون ومستشاروه في كشف النقاب أن الاتحاد السوفيتي وان استطاع اثارة الازمات لا يقوى ذات الحال على حلها ، وان السبيل لتشجيع الاعتدال العربي هو مكافأة القادة العرب المتحلين بالمسؤولية بتقديم الدعم الأميركي حين تكون مظالمهم مشروعة . وحينها اما ان يشارك الاتحاد السوفيتي أو يندفع لاقاصي ميدان دبلوماسية الشرق الأوسط .

تبنت أميركا في سعيها بلوغ تلك الغاية سياستين تكمل احداهما الأخرى : اغلقت كل تحرك عربي ناجم عن الدعم العسكري السوفيتي أو ينطوي على تهديد عسكري سوفيتي ، وتولت عملية السلام حالما حدا الاحباط الناجم عن تلك المعضلة ببعض قادة العرب الكبار الى الانفصال عن الاتحاد السوفيتي والاستدارة صوب أميركا . وتهيأ هذان الشرطان بعد الشرق الأوسط عام ١٩٧٣ .

صار على أميركا حتى ذلك الوقت أن تقطع طريقاً وعراً . ففي عام ١٩٦٩ ، قدم الوزير (روجرز) خطة سميت باسمه اقترحت قبول حدود اسرائيل لعام ١٩٦٧ ، مع اجراء تعديلات " ثانوية " مقابل عقد اتفاقية سلام شامل . فعانت المصير المعتاد للمبادرات المتخذة قبل تبدل الحقيقة الكامنة : فاسرائيل كفرت بها ، رافضة رسم الحدود ، والبلدان العربية رفضتها لعدم استعدادها للالتزام بسلام معها (وسيتضح خطر هذا الاجراء فيما بعد) .

ففي عام ١٩٧٠ نشبت مصادمات عنيفة مع اسرائيل . كانت الأولى على طول قناة السويس حيث استهلت مصر ما سمي بحرب الاستنزاف ضد اسرائيل . فثأرت اسرائيل بضربات جوية كبرى داخل مصر ، فيما رد الاتحاد السوفيتي بنصب منظومة دفاع جوية في مصر قوامها (١٥) ألف سوفيتي .

لم تقتصر الأخطار على مصر . ففي وقت آخر من نفس العام اختطفت منظمة التحرير الفلسطينية التي أقامت لها تقريباً دولة داخل الأردن أربع طائرات وحلقت بها الى الأردن . وهنا أمر الملك الحسين جيشه بمهاجمة المنظمة وطرد

قادتها خارج البلاد ، غزت سوريا الأردن وخسرت اسرائيل قواتها ، فبدا الشرق الأوسط على شفير حرب : ولذا عززت أميركا قواتها البحرية في البحر المتوسط معلنة عدم سماحها بأي تدخل خارجي . وسرعان ما بدا ان الاتحاد السوفيتي لن يجازف بمواجهة مع أميركا ، فانسحبت سوريا وانتهت الأزمة ،ومعها ابلاغ العالم العربي أولاً بالقوة العظمى صاحبة اليد الطولى في رسم مستقبل المنطقة .

بانت أولى امارات تأثير استراتيجية نيكسون عام ١٩٧٢ يوم طرد الرئيس المصري أنور السادات جميع المستشارين العسكريين السوفيت وطلب من الفنيين السوفيت مغادرة البلاد . فبدأت في الوقت عينه اتصالات دبلوماسية سرية بين السادات والبيت الأبيض برغم قلتها أولاً بسبب الانتخابات الرئاسية الأميركية ، ثم فضيحة ووترغيت .

وفي عام ١٩٧٣ شنت مصر وسوريا حرباً على اسرائيل ، فبوغتت اسرائيل وأميركا بذلك تماماً ، الأمر الذي أفصح عن ضيق دور الافتراضات المسبقة في صنع التخمينات الاستخبارية . فقد خضع التخمين الأميركي لاعتقاد راسخ بتفوق اسرائيل الذي يحيل التحذيرات العربية هباء . ولم يرد دليل على تشجيع السوفيت لمصر وسوريا على الحرب ، اذ أبلغنا السادات فيما بعد أن القادة السوفيت ضغطوا بغية وقف اطلاق النار منذ البدء . كما لم تكن اعادة تسليح السوفيت لاصدقائهم العرب بحجم وتأثير قابل للمقارنة مع جسر أميركا الجوي لاسرائيل .

تبين مع انجلاء غبار المعركة ، أن الجيوش العربية أبلت بأفضل مما فعلت في جميع صراعاتها السابقة . غير أن اسرائيل عبرت قناة السويس ووصلت لبعيد ٢٠ ميلاً عن القاهرة واحتلت أرضاً سورية قرب ضواحي دمشق . فدعت الحاجة أميركا لاعادة الأوضاع كالسابق واحراز تقدم نحو السلام .

كان أول زعيم عربي اعترف بذلك هو السادات الذي تخلى عن مفهومه السابق القائل " كل شيء أو لا شيء " واستدار عن موسكو نحو واشنطن لنيل عونها في العملية المتوالية نحو السلام . وحتى الرئيس السوري حافظ الأسد المعتبر أكثر راديكالية بين الزعيمين ، والأكثر ارتباطاً بالاتحاد السوفيتي ، ناشد الدبلوماسية الأميركية بخصوص مرتفعات الجولان . فعقدت في عام ١٩٧٤ اتفاقيات مؤقتة مع مصر وسوريا بدأت عملية انسحاب اسرائيل مقابل ضمانات أمن عربية . ووقعت اسرائيل ومصر عام ١٩٧٥ اتفاقية فك ارتباط ثانية . فيما وقعتا في عام ١٩٧٩ معاهدة سلام رسمية برعاية الرئيس كارتر . ومذ حينها أسهمت جميع الادارات الأميركية في عملية السلام بفعالية بما في ذلك أولى المفاوضات المباشرة بين العرب واسرائيل التي رتبها وزير الخارجية (جيمس بيكر) عام ١٩٩١ ، وكذلك الاتفاق الاسرائيلي – الفلسطيني برعاية الرئيس كلنتون في أيلول ١٩٩٣ . وغاب أي دور هام للكرملين في جميع هذه المبادرات .

ليس لهذه الخطوات ان تتعامل مع تفاصيل دبلوماسية الشرق الأوسط ، لأنها معنية أساساً بكيفية استخدام أميركا علاقتها مع موسكو لتقليص النفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط دون اشعال أزمة جديدة . ففي غضون جدل

السبعينات ، سخر منتقدو نيكسون من رغبته المزعومة بايقاع السوفيت في شرك اتفاقيات لمصلحتهم بهدف تخفيف وهمي للتوترات . مع ذلك كانت دبلوماسيته الشرق أوسطية صورة طيبة عن طريقة فهم نيكسون ومستشاريه بنية السلام التي طالما استشهد بها الرئيس . فما هو بحثاً متلهفاً عن التعاون بحد ذاته ، بله أسلوب للتنافس الجيوسياسي . فالاستراتيجية الأميركية قائمة على فرضية وجوب تخيير الاتحاد السوفيتي بين رفع يده عن عملائه العرب الراديكاليين أو قبول تقليص في نفوذه . ففي النهاية ، حجمت هذه الاستراتيجية النفوذ السوفيتي ووضعت أميركا بموضع بالغ الأهمية في دبلوماسية الشرق الأوسط .

لقد اتبعت ادارة نيكسون مسارين تحقيقاً لهذا الهدف . ففي حرب الشرق الأوسط ، فتحت قناة اتصالات يومية تقريباً مع الكرملين تحاشياً لاتخاذ قرارات تحت وطأة سخونة اللحظة ، أو بناء على معلومات غير دقيقة . نعم لم يمنع هذا حصول جميع التوترات المتأصلة في طبيعة المصالح المتضاربة ، بيد أنه قلل خطر أزمات سوء الفهم . وفي عين الوقت أجرينا مفاوضات بشأن وفرة من القضايا لاعطاء السوفيت نصيباً لن يطيب . فأسهمت مفاوضات برلين في تقييد حركة السوفيت في الشرق الأوسط حتى عام ١٩٧٣ . اذ ساعد مؤتمر الأمن الأوروبي بعد ذلك على تخفيف رد الفعل السوفيتي أثناء المناورات الدبلوماسية التي دفعت بالاتحاد السوفيتي الى أبعد حدود دبلوماسية الشرق الأوسط . وأحتيج لموازنة دقيقة بين تشخيص معيار للتقدم واعتبار الاتفاقيات غايات بحد ذاتها ، وبذا تحقق استقلالية حسن نية السوفيت . فلم يقتصر تأثير الانفراج على تهدئة

الوضع الدولي ، بل وسبب احباطات حدت بالزعماء السوفيت الى قبول ما يماثل تراجعاً جيوسياسياً خطيراً .

صادفت ادارة نيكسون برغم هذه النجاحات جدلاً حامي الوطيس حول سياستها الخارجية . فقد واجه أي تغيير فيها مقاومة من المتمسكين بالنهج السابق ، فصار على أي مفاوضات ناجحة ان تتقي هجوم الذين ينكرون كشف الاتفاق عن تنازلات متبادلة وليس رضى وحيد الجانب . اذ مثل الربط التصدي للتقاليد القانونية لمؤسسة السياسة الخارجية الأميركية ، وكذلك سلط الانفتاح على الصين هجوماً على اللوبي الصيني . فأحتك مزيج التصرف العدائي والتعاوني الكامن في طبيعة الانفراج مع الاتحاد السوفيتي بفرضية الأبيض والأسود التي تفرض على كل بلد أن يكون صديقاً أو عدواً وليس مزيجاً من الاثنين كما هو الحال في العالم الواقعي .

ضارعت نقاط الاختلاف هذه ما واجهه ولسون في الفترة (١٩١٥-١٩١٩) حين أناط ببلده المنعزل دوراً عالمياً ، وما صادفه روزفلت في الفتره (١٩٣٩ -١٩٤١) يوم صف أميركا بجانب بريطانيا العظمى ، وكذلك ما اضطر ترومان للتعامل معه في الفترة (١٩٤٦-١٩٤٩) ساعة رسم خطة الحرب الباردة .

يكمن الفرق الرئيسي في أن هذه المجادلات كانت تستعر وسط فوضى فيتنام التي تبعتها قضية ووترغيت مباشرة . فالرئيس في النظام الأميركي وحده هو المنتخب قومياً ، وهو أيضاً قطب الرحى في تحديد الأهداف القومية . ولمؤسسات

أخرى أن تتحدث عن السياسة الخارجية ، بيد أن للرئيس فقط أن تنفيذ سياسة ما طيلة أمد طويل . ولذا يميل الكونغرس ، بوصفه هيئة تشريعية ، الى تقسيم القضايا الى سلسلة من القرارات المفردة ، ثم تحل عن طريق التنازلات المتبادلة . وبوسع وسائل الاعلام التوصية بنهج معين ، غير انها ليست في وضع يتيح لها التداول مع تفاصيل التطبيق اليومي . على أن جوهر السياسة الخارجية تماماً هو القابلية على توظيف دقائق الأمور في سبيل أهداف بعيدة المدى . هكذا تقع على الرئيس مهمة رسم الطريق .

لقد أحدث جميع الانحرافات الخطيرة في سياسة أميركا الخارجية رؤساء أقوياء تماحكوا مع مؤسسات أميركية . فالرئيس هو المعلم الذي يرسم برؤيته الأخلاقية اطار الجدل . اما نيكسون بالنسبة لووترغيت ، فقد كان قادراً على ترجمة نجاحات سياسته الخارجية الملموسة الى مباديء فاعلة على الدوام - بالطريقة التي صنع بها فرانكلين روزفلت وطور منهجاً جديداً في السياة الداخلية أو التي اتبعها ترومان وأشسون في تحديد سياسة الاحتواء .

الا ان قدرة نيكسون على القيادة تلاشت بسبب ووترغيت . وليس هذا وقت البحث في تلك المأساة : اذ يكفي لغرضنا الحالي أن نؤكد تجريد ووترغيت لنيكسون من السلطة المعنوية الضرورية التي افتقرت اليها مهمته الارشادية . لقد واصل اداء مهامه اليومية حتى النهاية بفطنة وحزم ، بل انه بقي بصدد الجدل حول الأهداف بعيدة المدى أو الجدل المفاهيمي ، قادراً على اثارة قضايا حيوية ، بيد أنه لم يعد قوياً لحد يؤهله لرسم حلولها . فقد استطاعت كل الجماعات المتطاحنة عند افتقار رئيس قوي لعجلة توازن وهو يعمل وسيطاً وجامعاً ، دفع

وجهة نظرها الخاصة الى أقصى حدود المبالغة . هكذا أججت حقبة طويلة من السبعينيات الصراع على مفاهيم كانت جزءاً من مبادرات أميركية سابقة - مفتقرة الى العوامل المشتركة التي هيأت في فترات تقويمية أخرى ، المحرض على انحرافات أميركا الجديدة .

لقد تحدى سلوك نيكسون الجديد في السياسة الخارجية تفرد أميركا وحافزها على ارساء سياستها على أساس تأكيد القيم السامية . فالتحدي الأميركي ، كما يراه نيكسون ومستشاروه يكمن في تكييف هذه الحقائق التقليدية للمحيط الدولي الجديد . فقد أودت التجربة الداخلية بأميركا الى اعتبار النظام الدولي طيباً أصلاً ، وان دبلوماسيتها تعبير عن حسن النية والرغبة بالتسوية . وعليه بدا العداء شذوذاً ضمن هذا الاطار . من ناحية ثانية ، عدت سياسة نيكسون الخارجية ، العالم مليئاً بتحديات عويصة ، وأمماً مدفوعة بمصالحها بدلاً من حسن النية ، وبتغييرات متزايدة لا تعرف نهاية لها - انه باختصار ، عالم يمكن ادارته ولكن يستحيل السيطرة عليه أو رفضه . ففي هذا العالم لا يمكن الاشارة الى نقطة نهاية واضحة فيه ، وبه يفضي حل مشكلة ما الى الدخول في مشكلة أخرى .

وعليه ، اقتضى هذا العالم سياسة خارجية غايتها القوة الدائمة مثلما هي تنشد الخلاص . وقد ظلت قيم أميركا التقليدية مهمة كما هي سابقاً ، غير أنه تعذر ترجمتها الى جدول أعمال ينبغي نتائج نهائية فورية ، بخلاف ما حصل في عهد ولسون . فقد دعت الحاجة اليها لتزويد أميركا بالقوة الداخلية للانتقال من

غياهب النسيان ، نحو عالم أمل الجميع أن يكون خيراً من سابقه ، بيد أنه لن يتوقف بمحطة أخيرة .

لم ير نيكسون ومستشاروه أيما تناقض في معاملة العالم الشيوعي باعتباره خصماً ومعاوناً في أن : انه خصم في الأيديولوجية الأصيلة والحاجة لمنع الشيوعية من خلخلة التوازن العالمي ، ومعاون في منع انفجار الصراع الأيديولوجي على شكل حرب نووية . مع ذلك ، وبعد تجاوز الفراغ العاطفي لخيبة أمل فيتنام ، بدأ كثير من الأميركان يعيدون الاطمئنان من خلال التأكيد على الالتزام الأخلاقي بدلاً من حساب المصالح .

على أثر غياب رئاسة مرضية أخلاقياً ، انضم كثير من العائدين لاتباع المفهوم التقليدي لسياسة أميركا الخارجية - في كلا المعسكرين ، الليبرالي والمحافظ الى قوى مناوئة لسبيل نيكسون الجديد . فالليبراليون اعتبروا التأكيد الجديد على المصلحة القومية لا أخلاقياً ، بينما اعترض المحافظون لأنهم ملتزمون بالتنافس الأيديولوجي مع موسكو أكثر من التنافس الجيوسياسي .

ما كان ثمة جمهور جاهز لاستحسان أسلوب نيكسون الجديد في الدبلوماسية ، نظراً لتقولب الفكر الأميركي في السياسة الخارجية وفق الأفكار الليبرالية منذ عهد ولسون . اذ لم يأخذ نيكسون بالمفهوم العملي لكل حالة على حدة ، وهو ما آثره اختصاصيو السياسة الخارجية والقانونيون الذي صاغوا كثيراً من أفكار أميركا الليبرالية في العلاقات الدولية . كما نبذ المفاهيم الولسونية عن الأمن الجماعي ، والتسوية القضائية للنزاعات ، والتأكيد على نزع السلاح

باعتباره السبيل الوحيد أو حتى الرئيس للنظام العالمي . وبالتالي وجد الليبراليون أنفسهم في ورطة مقيتة : فالنتائج الدبلوماسية التي وافقوا عليها كتخفيف التوترات مع الاتحاد السوفيتي والانفتاح على الصين ، كانت نتاجاً لمبادىء تتناقض مع التقليد الولسوني ، كالتأكيد على المصلحة القومية وتوازن القوى . وحتى حين طورت ادار نيكسون بنجاح سياسات مستلهمة من المثل الولسونية كتشجيع الهجرة من الاتحاد السوفيتي ، فاقم ميلها لبلوغ هذه الأهداف بالدبلوماسية السرية ، عزلتها عن ممثلي السياسة الخارجية التاريخية .

كانت استراتيجية نيكسون القائمة على معاملة الاتحاد السوفيتي بوصفه ظاهرة جيوسياسية ، غير مألوفة وغير موفقة في نظر المحافظين . فجلهم رأوا الصراع مع الشيوعية أيديولوجياً فقط تقريباً . واذ اقتنعوا بحصانه أميركا ضد التحديات الجيوستراتيجية ، تعاملوا مع قضايا الاحتواء باعتبارها ذات أهمية هامشية ووثيقة الصلة بالمساعدة في الصراعات التقليدية للقوى الأوروبية التي اعتبروها ، بمجموعها ، ضئيلة الشأن . فتخلوا عن فيتنام فعلاً أثناء ادارة جونسون لأنهم حسبوها انحرافاً عن الصراع الرئيسي - وليس جزءاً حاسماً منه كما اعتبرها نيكسون . فلما كانوا متشددين أخلاقياً ، كفروا بأي مفاوضات مع الاتحاد السوفيتي معتبرين التسوية معه تراجعاً . اما الجناح المحافظ في الحزب الجمهوري فكان جاهزاً للسكوت عن الانفتاح على الصين على مضض ، بوصفه مساهمة في ارباك موسكو ، وضرورة تكتيكية لفك أميركا من فيتنام ، غير أنهم اعتبروا المفاوضات واسعة النطاق حول قضايا سياسية وعسكرية تخلياً عن القضية

الاخلاقية ، ذلك أنهم كانوا ازدواجيين على الدوام بشأن التفاوض مع موسكو ومفهوم أشسون - دولس الداعي لترقب انهيار الشيوعية وراء متاريس القوة .

انضم للمحافظين التقليديين وبشكل تدريجي ، انصار من جهة غير متوقعة ، انهم الديمقراطيون الليبراليون المناوئين للشيوعية الذين ابعدوا عن حزبهم أثر هيمنة الجناح الراديكالي . وجاء ترشيح (ماك كوفرن) عام ١٩٧٢ ليتمم خيبة أمل هؤلاء المحافظين المحدثين المزيفين ، ثم حلت حرب الشرق الأوسط عام ١٩٧٣ لتهيء لهم أول فرصة للخروج بآرائهم في السياسة الخارجية علناً باستمرار وعلى مستوى قومي .

لعل المحافظين المحدثين ، وهم مناوئون أشداد للشيوعية ، قد تحولوا الى داعمين أخلاقيين لادارة صمدت في فيتنام وأحد أغراضها المحافظة على مطلب أميركا بحشد المتاريس المعادية للشيوعيين بالرجال . كما كانوا ، كالمحافظين ، أكثر اهتماما بالأيديولوجية من الجيوسياسة . فقد عارض بضعة من كبارهم حرب فيتنام واتوا الى المعسكر الجديد بكل تحفظاتهم عن نيكسون ، مجردين اياه من أي ضمان لتحمل الصراع المرير من أجل سلام مشرف . فخشوا تخليه عن مصالح حيوية في مسعاه للحفاظ على رئاسته ، بسبب كرههم اياه وعدم الثقة به .

ما زاد الطين بلة ، علاج البيت الأبيض لبيروقراطية الحكومة بطريقة متعجرفة . فقد نقل نيكسون في ولايته الأولى ، ممارسة الدبلوماسية الى البيت الأبيض ، بعد اعلانه ذلك اثناء حملته الرئاسية . لكن ما ان علم الزعماء

السوفيت بعدم بت نيكسون بقرارات السياسة الخارجية الرئيسة ، حتى نشأت قناة خلفيه للاتصال المباشر بين السفير السوفيتي (أناتولي دوبرينين) والبيت الأبيض . وبذا استطاع الرئيس وكبار قادة الكرملين التعامل مع أهم القضايا مباشرة .

فاقم البيت الأبيض في عهد نيكسون الأمور سوءاً حين خرق اجراءاً ثابتاً بلا مبالاة . فقد كانت المفاوضات أصلاً حول تبادل تنازلات ، ومع ذلك يشعر الناجون من مد وجزر المفاوضات ، بحريتهم في الاعراب عن تصورهم المفاوضات التي قدم بها الطرف الآخر جميع التنازلات ، والتي كان ممكناً تجنب التنازلات الأميركية فيها لو تم سماع نصيحتهم . فوجد البيت الأبيض نفسه ، ازاء تجريده من شبكة السلامة البيروقراطية الاعتيادية ، وتعرضه لهجوم المحافظين المزعجين ، ناهيك عن الليبراليين المحبطين ، في موقف غريب جعله بوضع دفاعي بما يتعلق بسياسة خارجية ناجحة .

وبالتالي حث النقاد الادارة على اتخاذ سبيل المواجهة في وقت تعرضت به أميركا لهجمات حركة السلام ، وخضع فيه الرئيس لاتهامه بالخيانة (وأن خليفته جيرالد فورد قد تم تعيينه وليس انتخابه) ، وقلصت فيه جلسات الكونغرس صلاحية الرئيس بالتلويح بالقوة وفي عين الوقت سعت به لخفض الميزانية الدفاعية . فرأت ادارة نيكسون ان المهمة التي بين يديها هي الخروج من فيتنام دونما خسائر جيوسياسية ، ووضع سياسة تجاه الشيوعية معدة لميادين قتال ذات صلة بها . فرأى نيكسون في الانفراج تكتيكاً في صراع جيوسياسي طويل الأمد ، فيما عده نقاده الليبراليون غاية بحد ذاته ، أما المحافظون والمحافظون

المحدثون فرفضوا المفهوم الجيوسياسي على أساس أنه صورة لتشاؤم تاريخي كئيب ، مؤثرين سياسة مواجهة أيديولوجية لا انقطاع لها .

مما يثير السخرية أن سياسة نيكسون قد هدأت علاقات الشرق – الغرب سنة ١٩٧٣ لدرجة انتفى عندها خطر التحدي لتلك السياسة في عقر دارها . لقد استقرت في قلب الجدل القضية المتعلقة بما اذا كان ممكناً أم مرغوباً به فطم السياسة الأميركية عن ايمانها بالنتائج النهائية والالتزامات الفرعية . فقال نيكسون أن التغيير في عالم متعدد الأقطاب يجب بلوغه عن طريق التطور . وهذا يتطلب الصبر – وليس النهج التقليدي للدبلوماسية الأميركية . بينما أصر نقاد نيكسون الذين افصحوا عن تفرد أميركا ، على نذر اميركا نفسها لمهمة اعادة ترتيب المجتمع السوفيتي فوراً – وهو هدف لم يسع اليه أيما فرد حتى أيام احتكار أميركا النووي . وعليه كان من المحتم والضروري اجراء مناظرة قومية كبرى بين مريدي السياسة الخارجية باعتبارها استراتيجية ، ومناصري السياسة الخارجية باعتبارها نوعاً من الحملات المبدئية ، بين المؤمنين بأن أحصف المناهج بفرض تأديب قوة عظمى خصيمة ، والمصرين على اجتثاث الشر من أرومته فكان ما هو غير حتمي انهيار الرئاسة ، الشيء الذي حال دون اتخاذ قرار ذي معنى عن المناظرة .

لقد ركز كل طرف في الجدل ، في غياب مجموعة من المباديء الشاملة ، على تهديدات مختلفة . فكان كابوس نيكسون الانكشاف الجيوسياسي بوجه التوسعية السوفيتية ، بينما نبع خوف المحافظين من نزع السلاح المعنوي أو الحسم النووي الغامض الذي أثار احتماليته اختراق تكنولوجي سوفيتي ما . فقلق

الليبراليون من تأكيد أميركا المفرط على الأمن العسكري . وهؤلاء المحافظون خشوا من الهيمنة العسكرية السوفيتية ، وأولئك الليبراليون نزعوا لتجنب فرط الامتداد .

فاستحالت النتيجة دوراً هائلاً من الضغوط المتطاحنة والعنيدة . فالليبراليون راقبوا عن كثب أية امارة على التزام واه بالحد من التسلح . بينما قاوم نيكسون التهديدات الجيوسياسية بشجاعة ، من كوبا حتى الشرق الأوسط . أما المحافظون فهاجموا ما اعتبروه نكوص أميركا عن المواجهة الايديولوجية والاستراتيجية النووية . فأفضى هذا الى حالة غريبة هاجم فيها الليبراليون برنامج نيكسون الدفاعي لحجمه المهول ، بينما انتقد المحافظون سياسة نيكسون القائمة على الحد من التسلح لكونها موغلة في الهوادة . ولذلك وضع الكونغرس برامج الدفاع ، عن طريق نيكسون مع معونة المحافظين ضد معارضة الليبراليين ، وتمت المصادقة على اجراءات الحد من التسلح – حيث احتيج لمصادقة الكونغرس – بمساعدة الليبراليين ضد شيء من معارضة المحافظين .

مثلت زبدة جميع هذه الانتقادات (وفي النهاية انتقادات الليبراليين) دعوة للعودة الى الأركان الأساسية للاحتواء والانتظار وراء دفاعات قوية لتبدل النظام السوفيتي . أقر نيكسون بالحاجة لدفاعات قوية ، على أنه لم يؤمن بسياسة تحد بموسكو لتغيير جدول الأعمال الدبلوماسي ، وتجعل أزمة أميركا الداخلية عصية على السيطرة . بينما رأى النقاد أن من شأن دبلوماسية الشرق – الغرب الفاعلة أن تخمد شجاعة الشعب الأميركي . وهنا اعتقد نيكسون بالحاجة للمرونة الدبلوماسية لدعم رغبة أميركا بمقاومة الشيوعية ولذلك وطد نفسه للوقوف بوجه

أي تحرك توسعي سوفيتي – وهو ما فسره النقاد بأنه ادخال الأسلوب الجيوسياسي الأوروبي بما هو صراع ايديولوجي أساساً .

أفضى عضو مجلس الشيوخ (السناتور هنري جاكسون) الى لجنته الفرعية المعنية بالحد من التسلح بنقد للانفراج اعدته جماعة من الدارسين البارزين ، متضمناً :

[تشير كلمة " الانفراج " أو " التعايش السلمي " في القاموس السوفيتي الراهن الى البديل الاستراتيجي للعداء العسكري المفتوح ضد ما يدعوه السوفيت " البلدان الرأسمالية " ، فهو لا يتضمن تخلي الاتحاد السوفيتي وحلفائه عن الصراع مع البلدان الغربية الحرة ... فلا بد من اهتمام الصراع بأساليب غير مباشرة للتصدي ، باستخدام وسائل غير عسكرية موسومة بأنها " أيديولوجية ": حيث يشمل هذا المصطلح حسب التطبيق السوفيتي ، التدمير والرعاية والابتزاز السياسي والعمليات الاستخبارية] .

عبر (جورج ميني) عن ذات الشيء أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ :

[يرى الاتحاد السوفيتي الانفراج كالآتي : انه قائم على ضعف أميركا ويعني تكثيف الحرب الأيديولوجية ، وكذلك اضعاف الناتو . وهو يرمز الى تفوق السوفيت العسكري النهائي على الغرب . كما يشير الى اعتراف الغرب بامتلاك السوفيت لأوروبا الشرقية ، اضافة الى انسحاب القوات الأميركية من أوروبا] .

اغضبت هذه الانتقادات ادارة نيكسون التي لم تشك مطلقاً برؤية الكرملين للانفراج على أنه مطية لأهداف سوفيتية في أقل تقدير – والا لما التزمت به موسكو . أما المسألة الحقيقية فتعلقت بمدى خدمة الانفراج اهداف اميركا . وهنا اعتقد نيكسون ومستشاروه أن الوقت لصالح الديمقراطيات لأن ايجاد فترة سلام لا توسع فيها لها أن تساند القوى النافرة ضمن الشيوعية .

لقد شرحت الانفراج في آذار ١٩٧٦ أيام ادارة فورد ، التي سارت عملياً على نفس سياسة ادارة نيكسون ونجم عنها نفس العداءات :

[قوة السوفيت ليست سوية ، فما أجلى مواطن ضعف وخيبة النظام السوفيتي التي أخذت طريقها للتوثيق . فهذا الاتحاد السوفيتي ، برغم زيادة قوته الحتمية ، يبقى أقل شأناً بكثير منا ومن حلفائنا عند أي تقييم شامل للقوة العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية ، ولمن أقسى مظاهر الطيش أن يتحدى السوفيت الديمقراطيات الصناعية . كما لم يعد المجتمع السوفيتي بمعزل عن تأثير وعوامل جذب العالم الخارجي أو لايعي حاجته للاتصال بالخارج] .

لو ترك الجدل النظري بشأن الانفراج لحكم الزمن ، لربما قالت الأحداث فيه كلمتها . الا ان الزعيم الفكري للنقاد ، السناتور النشيط هنري جاكسون ، ما كان مستعداً لترك الانفراج يخضع للزمن ، فحشد التأييد لايقافه عند حده . لقد كان جاكسون ، ذلك الديمقراطي القادم من ولاية واشنطن وأحد المع موظفي أميركا ، طالباً جاداً في الشؤون الدوليه سيما شؤون الاتحاد السوفيتي ، وخبيراً في الشؤون الدفاعية من الطراز العالمي . وجمع بين ثقافته الواسعة ومعرفته

الحاذقة بكيفية ادارة فروع الحكومة المختلفة ، فقرب الكونغرس من الفرع التنفيذي . وضارعه كادره بزعامة (ريشارد بيرل) في معرفته وتفوق عليه بمهاراته الادارية البارعة .

تجلى أن جاكسون أصلب مناوئي سياسة الادارة الأميركية تجاه الاتحاد السوفيتي برغم أنه أول من اختاره نيكسون وزيراً للدفاع . لم يتزحزح قيد أنملة في موقفه حيال حرب فيتنام خلال جل ولاية نيكسون الأولى ، مبرهناً على دفاعه الراسخ عن جهود نيكسون في الحفاظ على مصادر قوة الدفاع الأميركي بوجه ضغوط الكونغرس الحثيثة لخفض الميزانية من جانب واحد . واليه يعود الفضل في تمرير منظومة نيكسون الدفاعية المزمعة الموسومة بـ " الصواريخ المضادة للبالستية " خلال مجلس الشيوخ . ومع ذلك ، فصل الاثنان شراكتهما عشية نهاية ولاية نيكسون الأولى ، حتى وان تطابق تفسيرهما للأهداف السوفيتية . فقد رفض جاكسون معاهدة الصواريخ المضادة للبالستية التي قلصت عدد مواقع الصواريخ الدفاعية باثنين لكلا الطرفين ، وسرعان ما مد معارضته لسائر نطاق علاقات الشرق – الغرب .

أزمع برنامج نيكسون الأصلي للصواريخ مضادة للبالستية ايجاد اثني عشر موقعاً دفاعياً لحدود الولايات المتحدة . وذلك بحد ضد القوى النووية الصغيرة كالصين وضد الهجمات السوفيتية غير الشاملة ، وحتى يمكن أن يشكل نواة لدفاع كامل النطاق ضد الاتحاد السوفيتي .

بيد أن الكونغرس قلص عدد المواقع كل عام حتى ادخل البنتاغون عام ١٩٧١ موقعين فقط في الميزانية التالية . الا أن هذا النشر لم يحقق أية أهداف استراتيجية ، لأن غرضه تجريبي . أضف لذلك أن غالبية الكونغرس ، مفصحة عن العقلية غير العسكرية لتلك الحقبة ، خفضت الميزانية الدفاعية المزمعة في جميع جلسات الكونغرس (بغض النظر عن البرامج التي لم تتقدم بها ادارة نيكسون لمعرفتها بأنها ستجابه بالرفض) .

حولت هذه الضغوط وزارة الدفاع الى اداة للحد من التسلح . ففي مطلع عام ١٩٧٠ ، حث نائب وزير الدفاع الأميركي (ديفيد باكارد) نيكسون على اتخاذ مبادرة " حد من الأسلحة الاستراتيجية " جديدة فوراً " نستطيع بها التوصل لاتفاقية في فيينا بمنتصف تشرين الأول أو في تشرين الثاني في الأقل " . لقد رأى ضرورة عقد اتفاقية عاجلة حتى ان كانت جزئية ، لأن " التقليص في الميزانية القومية " يمكن أن يسبب " تقليصات واسعة في برامج الدفاع بما في ذلك القوات الاستراتيجية " . وان عدمت هذه الاتفاقية ، " ستحط قرارات الكونغرس وحيدة الجانب ، من موقفنا التساومي على نحو متزايد " .

في خضم هذا الجو السياسي ، بادر نيكسون في صيف ١٩٧١ للاتصال برئيس الوزراء السوفيتي (اليكس كوسيجين) حيث وضعا اطاراً لاتفاقية لتحديد الأسلحة الاستراتيجية بعد سنتين . كان السوفيت حتى ذلك الوقت قد أصروا على قصر محادثات الحد من التسلح على الأسلحة الدفاعية التي تفوق بها الأميركان ، مع الغاء تحديد الصواريخ الهجومية التي كان الاتحاد السوفيتي ينتج منها ٢٠٠ صاروخاً سنوياً وأميركا لا تنتج أيا منها . فأوضح نيكسون رفضه

لمثل هذه الصفقة وحيدة الجانب . فأسفر الاتصال عن سلم السوفيت بتقليص الأسلحة الهجومية والدفاعية في وقت واحد .

تمخضت المفاوضات التالية عن اتفاقيتين . انهما معاهدة الصواريخ المضادة للبالستية لعام ١٩٧٢ التي قصرت الدفاعات على موقعين و ٢٠٠ منصة اطلاق صواريخ – وهي قليلة جداً لا تفي باحتواء هجوم صغير النطاق . فقد وافق نيكسون على السقوف حفاظاً على نواة دفاعية ولخشيته من الغاء الكونغرس حتى البرنامج التجريبي لو رفض المعاهدة . ولم يثر جدلاً آنذاك بعدد التقليصات الدفاعية .

كان مثار الضجة ، اتفاقية مؤقتة أمدها خمس سنوات فرضت على كلا الطرفين تجميد قواتهما الصاروخية الهجومية الاستراتيجية ، المطلقة من البر أم من البحر ، على مستويات متفق عليها . فقد وضعت أميركا مستوياتها قبل خمس سنوات واعتبرتها كافية لو لم يطرأ برنامج لزيادتها . فيما كان السوفيت ينتجون ٢٠٠ صاروخاً سنوياً . فتوجب عليه ، وصولاً للسقف المتفق عليه ، تفكيك (٢١٠) صواريخ قديمة بعيدة المدى . بينما لم تتطرق السقوف للقاصفات التي تتفوق أميركا بامتلاكها . فبقي كلا الطرفان حراً في تطوير تكنولوجيا قواته .

عسير مقارنة القوات الصاروخية للطرفين . فالأميركية أصغر وأكثر دقة ، ونصفها مزود برؤوس حربية متعددة (أي أن كل صاروخ يحمل وسائل تدميرية عدة) . بينما السوفيتية أكبر وأقل مرونة ، وأكثر من الأميركية

عدداً بـ (٣٠٠) صاروخ ، ولم يقلق التباين كلا الطرفين ما دام كلاهما يتخذ قراراته بنفسه ، يضاف اليها تمتع أميركا بأفضلية ساحقة في الطائرات ، وتفوق في الرؤوس الحربية - التي ستزداد في السنوات الخمس التي ستغدو فيها الاتفاقية سارية المفعول .

برغم ذلك ، سرعان ما ثار الخلاف حول التباين في عدد المنصات المتفق عليه فور توقيع معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت) في قمة موسكو في ايار عام ١٩٧٢ . انها لحالة غريبة ، فقد وضعت أميركا السقوف حتى قبل معرفة فحوى مفاوضات المعاهدة . ولم يبذل البنتاغون أي مجهود لرفع هذا المستوى طيلة ولاية نيكسون الأولى ، اذ لم يلق أي طلب للبنتاغون بزيادة القوات الاستراتيجية غير الاهمال . وحتى بعد الموافقة على سقوف أعلى ومتساوية في فلاديفوستوك عام ١٩٧٤ لاحقاً ، لم تقترح وزارة الدفاع أية زيادة لعدد المنصات التي تأسست عام ١٩٦٧ .

لو قدر لزائر أن يهبط من المريخ ليشهد جدل أميركا الداخلي ، لاصغى لحكاية عجيبة عن كيفية " رضوخ " أميركا لعدم مساواة في الصواريخ بموافقتها على تسوية برنامجها وحيد الجانب الذي لم تخطط لتغييره بغياب معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية ، ولم تغيره قط حتى بعد الغاء السقف بعد عامين - ولا حتى أثناء ادارة ريغان . فقد تم اعتبار مستوى القوات الذي تبنته اميركا طواعية لانه زودها برؤوس حربية أكثر مما زود الاتحاد السوفييتي به والذي لم تكن أميركا بوضع يؤهلها لتغييره كي تستمر الاتفاقية ، خطراً بشكل مفاجيء لما جرى التأكيد عليه باعتباره جزءاً من تلك الاتفاقية .

أضحى " عدم المساواة " ، لسوء حظ نيكسون ومستشاريه ، أحد الكلمات المتلازمة التي خلقت حقيقتها . فيوم قارن رد الادارة المنصات والرؤوس الحربية والسقوف المخطط لها والمفاوض عليها ، زاغت الأبصار موحية بالشعور المقرف بان الادارة انما تدافع عن " فجوة الصواريخ " المضرة باميركا .

رأت ادارة نيكسون في اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية وسيلة لحماية برامج الدفاع الأساسية ضد اعتراض الكونغرس بطريقين : اذا أصرت على اعتبار السقوف التي وضعتها الاتفاقية نقاط دلالة للكونغرس ، وأشفعت الاتفاقية بزيادة ٤ر٥ مليار دولار على ميزانية الدفاع لتحديثه . وهكذا وحتى الآن ، بعد مرور عشرين سنة ، نهلت معظم البرامج الاستراتيجية (بي-١ ، وطائرة الشبح ، وصاروخ أم.اكس ، وصواريخ كروز الاستراتيجية والصواريخ الثلاثية ، والغواصات) ، من أفكار ادارتي نيكسون وفورد أثناء سريان مفعول المعاهدة الأولى للحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت - ١) .

ان ما بدا كجدل حول القوات الصاروخية لكلا الطرفين كان في الواقع رمزاً لقلق عميق مشروع ، اذ رأى جاكسون ومؤيدوه في التأكيد المتزايد على الحد من التسلح - المتمثل بتهافت وسائل الاعلام والدوائر الاكاديمية عليه - تهديداً مبطناً (لأي) سياسة دفاعية جادة . فلقيت برامج عسكرية جديدة تبريرها بأنها تشكل رصيداً تساومياً في مفاوضات سالت مستقبلاً . لأن قوات جاكسون خشيت من الغاء هذا الاتجاه لأي مسعى استراتيجي للدفاع . وبعد كل شيء ، ما معنى تخصيص مصادر شحيحة لبرامج مكلفة الغاية الأساسية منها عرضها بغية تفكيكها ؟

وفي هذا السياق ، تحول الجدل بشأن بنود الاتفاقية بشكل رئيسي الى كيفية الابقاء على القبضة الأميركية مع نهاية تفوق أميركا الاستراتيجي . كان من المفهوم نظريا طيلة عقد أن الطاقة التدميرية للأسلحة النووية قد أفضت الى مأزق ، لأنها حالت دون النصر بأي ثمن يقبله زعيم سياسي عاقل . فحدت هذه المعلومة بادارة كنيدي الى المبدأ الاستراتيجي " التدمير المضمون " . الذي أسند الردع الى قدرة ((كلا)) الطرفين على تدمير الآخر .

لقد أعاد هذا المبدأ الاستراتيجي تعريف هذا القياس الأقرن بدلاً من حلها . ذلك ان الاستراتيجية القومية المستندة الى التهديد بالانتحار محكوم عليها ببلوغ طريق مسدود عاجلاً أم آجلاً . فقد كشفت سالت - ١ للجمهور ما كان الخبراء عالمين به قبل ما لا يقل عن عقد من الزمن . وعلى حين غرة ، القي باللائمة على سالت بسبب حالة كانت ستظهر بصورة أقسى في ظروف التسلح غير المكبوح . لقد كانت المعضلة حقيقية ، لكن سالت لم تكن سببها . فما دام الردع قد تمت معادلته بالتدمير المتبادل ، فالمثبطات النفسية ضد الحرب النووية طاغية . وعليه انغمست أميركا في صنع أسلحة تنفع فقط لاحباط استخدام الخصم للأسلحة النووية ، وليس لعلاقتها بأية أزمة سياسية منظورة . وحالما تم استيعاب هذا الموقف ، تحتم أن يحطم التدمير المضمون المتبادل المعنويات ويفض عرى الأحلاف الموجودة . فهذه هي المعضلة النووية ، وليست سالت .

وعليه ، عكس الجدل حول سالت - والانفراج كذلك - تمرداً ضد عالم يشن فيه صراع أيديولوجي قلباً وقالباً بوجود مأزق استراتيجي عصي على الاجتناب . فقد أثار الاصطدام الأصلي حول سالت تقييمات بالغة الاختلاف

للمأزق النووي . اذ استنتج نيكسون ومستشاروه أن الطرف القادر على تسليط تحديات عدا الحرب النووية ، سيكتسب بمرور الزمن قدرة عل الابتزاز وسيتمكن من اتباع سياسة التوسع زحفاً . فذا ما دفع نيكسون للتأكيد على مقاومة التهديد الجيوسياسي . ففي غياب قوة مقابلة - أي القدرة على ابطال سلاح الخصم أول ضربة - ستقل كفاءة قوة أميركا الاستراتيجية في الذود عن اقاليم ما وراء البحار حتى أوروبا في خاتمة المطاف .

انتبهت الجماعات المؤيدة لجاكسون لذلك ، فتاقت لاستعادة الأفضلية الاستراتيجية الأميركية . بل خلقت على قلقها خوفاً ليس من فقدان أميركا القدرة على تسديد أول ضربة فحسب وهو ما كان صائباً - بل ومن احتمالية اكتساب الاتحاد السوفيتي بمرور الوقت ، هذه القدرة - وهو ما لم يكن صائباً ، في الاطار الزمني لذلك الجدل .

كان كابوس جاكسون الانكشاف الاستراتيجي ، فيما كان الانكشاف الجيوستراتيجي كابوس نيكسون . فقد استبد بجاكسون القلق على توازن القوى ، فيما كان قلق نيكسون التوزيع العالمي للقوة السياسية . ولذلك حاول جاكسون وانصاره استغلال سالت لحمل الاتحاد السوفيتي على اعادة ترتيب مجمل القوة الاستراتيجية وفقاً لما ترتأيه أميركا . غير ان نيكسون ومستشاريه لم يؤمنوا بامتلاك أميركا الثقل الكفيل بهذا الترتيب في عهد التخفيضات التي فرضها الكونغرس على الميزانية الدفاعية ، برغم أن ريغان قد برهن فيما بعد الفائدة السياسية للبناء العسكري الأميركي العزوم . وشدد جاكسون وانصاره بصورة رئيسية على التوازن الاستراتيجي الذي اعتبروا التهديد الموجه له مشكلة

تكنولوجية كبرى . بينما سعت ادارة نيكسون لاعداد أميركا لدور غريب على تاريخها بيد أنه قديم قدم نظام الدولة : انه منع مراكمة خصم ما لمكتسبات هامشية ظاهرياً من شأنها بمرور الزمن ان تخل بتوازن القوى . لقد وسعت قوى جاكسون صدرها نسبياً تجاه التغييرات الجيوسياسية (اذ صوت جاكسون ضد مساعدة الجانب غير الشيوعي في انغولا عام ١٩٧٥) لكنها ابدت حماساً لمضامين تكنولوجيا الأسلحة الأشد سرية .

أودى مأزق جدل سالت الى تشعبات أعمق حتى سكن الجدل عند تفاصيل منظومات الأسلحة التي لا يفهمها الرجل الاعتيادي ، وانقسم خبراء الأسلحة أنفسهم بشأنها . فمن منظار دام عقداً ، تلوح المجادلات حول صواريخ كروز والقاصفات الخلفية السوفيتية ، والمجاميع الاجمالية المتساوية والرؤوس الحربية غير المتساوية ، مثل عملية تسجيل قطع الأراضي في القرون الوسطى بكتابات في دير منعزل مهجور .

لقد كانت المسائل المثارة في الجدل جوهرية لا مفر منها . فما صنع المأزق هو امتعاض الرئيس الذي جعل التقاء الاراء امراً محالاً . فهو لا يستطيع انزال عقوبة ولا نفح هدايا ، وهي الأصول التي ينطوي عليها منصبه . كما افتقر النقاد للحوافز لتعديل آرائهم . ولذلك اتخذ الجدل صورة لقاء هيئة تدريس في كلية بين أساتذة متشبثين بآرائهم . وعلى أية حال سيفيد المؤرخون من رؤية المواضع جلية أكثر من جعلها قضية في عملية سياسية . حيث دفعت أميركا ثمن ايذائها نفسها بتأجيل قرابة عقد لمواجهتها النهائية لضروراتها الجيوسياسية .

في آخر الأمر ، انهارت الشيوعية بسبب تصلبها ونتيجة لضغوط الغرب القوي . وذا هو السبب الذي سيجعل حكم التاريخ النهائي أكثر تساهلاً مع المعسكرات المعارضة في جدل اميركا الداخلي مما هي عليه في علاقتها مع بعضها سابقاً . فهو سيعتبر مفاهيم نيكسون والنقاد المحافظين كل متكامل لا متنافس ، حيث يركز أحد طرفي الجدل على الجانب الجيوسياسي بينما يؤكد الآخر على الجانب التكنولوجي لصراع جرى النظر لأساسه الأخلاقي من نفس الزاوية .

اتضح أن الحد من التسلح لا يفي فنياً بتحمل وزن الخلاف الفلسفي ازاء طبيعة السياسة الخارجية الأميركية . فقد انتقل الجدل تدريجياً الى قضية أكثر تجانساً مع المثالية الأميركية ، والى قضية ذات صدى أشد دوياً لدى الجماهير – مسألة وجوب ادراج حقوق الانسان ضمن الأهداف الرئيسية لسياسة أميركا الخارجية .

بدأ جدل حقوق الآنسان على شكل دعوة لاستخدام النفوذ الأميركي في تحسين معاملة المواطنين السوفيت ، غير أنه تنامى فغدا استراتيجية لاثارة اضطراب داخلي سوفيتي . فهذه القضية ، كما هو شأن الحد من التسلح ، لم تتعلق بالغاية منها ، التي لم تكن موضع خلاف ، بل مدى درجة المواجهة الأيديولوجية التي ينبغي أن تكون على رأس مهام سياسة أميركا الخارجية .

كانت هجرة اليهود من الاتحاد السوفيتي ، بوصفها شأناً دبلوماسياً ، احدى بنات أفكار ادراة نيسكون ، فهي لم تدرج في جدول أعمال حوار الشرق – الغرب قبل عام ١٩٦٩ ، وعاملتها جميع الادارات السابقة لكلا الطرفين

باعتبارها تنضوي تحت سلطة القضاء المحلي السوفيتي . فلم يكن من احد قد استعد لتحميل علاقات الشرق – الغرب ، المتوترة أصلاً ، عبءً جديداً . ففي عام ١٩٦٨ قد تم السماح لأربعمائة يهودي فقط بالهجرة من الاتحاد السوفيتي ، و لم يحرك القضية أي بلد ديمقراطي .

ومع تحسن العلاقات الأميركية – السوفيتية ، بدأت ادارة نيكسون بمناقشة الموضوع خلال القناة الرئاسية الخلفية بحجة أن تصرفات السوفيت لا تمر دون مراقبة أعلى مستويات الحكومة الأميركية . فشرع الكرملين بالاستجابة " للمقترحات " الأميركية ، سيما بعد بدء تحسن العلاقات مع أميركا . وارتفع عدد المهاجرين اليهود كل سنة حتى وصل الى (٣٥) ألف مهاجر سنة ١٩٧٣ . علاوة على تسليم البيت الأبيض للزعماء السوفيت ، دورياً ، قائمة بحالات التعسف – أي رفض منح تأشيرة خروج لبعضهم ، أو تشتيت عوائلهم ، وحبس بعضهم . الى أن سمح لمعظم هؤلاء السوفيت بالهجرة .

جرى كل ذلك ضمن ما قد يسميه طلبة الدبلوماسية " صفقات ضمنية " . اذ لم تتقدم أية طلبات رسمية ، و لم تصدر أي استجابات رسمية ، فقد تم تدوين تصرفات السوفيت دون الاعتراف بها . والواقع أن التحسن المطرد كان سمة اجراءات هجرة السوفيت ، برغم عدم مطالبة واشنطن بذلك المستوى ، فتشبثت ادارة نيكسون بهذه القواعد بتدقيق مشوب بالوسوسة حتى انها لم تثق بأي تحسن في اجراءات الهجرة السوفيتية – حتى أثناء الحملات الانتخابية – الى أن جاء هنري جاكسون ليخرج بالقضية لحيز المواجهة العلنية .

ما الهب جاكسون كان قراراً من الكرملين صيف ١٩٧٢ بفرض " رسم خروج " على المهاجرين بدعوى تعويض الدولة السوفيتية عن المبالغ المنفقة في تعليم مواطنيها المغادرين . و لم يصدر أي ايضاح لذلك ، ولعلها محاولة بتحميل صورة السوفيت في العالم العربي التي بانت رقاعتها بطرد القوات المقاتلة السوفيتية من مصر . وربما أزمع من رسم الخروج جني عملة صعبة على أمل أن يدفعها مشجعي زيادة الهجرة من الأميركان . وهكذا ناشدت الجماعات اليهودية ، خوفاً منها على توقف الهجرة ، كلاً من ادارة نيكسون ومؤيدهم الدائمي ، هنري جاكسون .

فأعد جاكسون ، ولما كانت ادارة نيكسون مستمرة في العمل بهدوء لحسم المسألة مع السفير دوبرينين ، طريقة بارعة للضغط العلني على الاتحاد السوفيتي . فقد وقعت أميركا اتفاقية (وهي جزء من مقررات قمة ١٩٧٢) تمنح بها الاتحاد السوفيتي لقب " أمة مفضلة " مقابل تسوية دين قانون الاعارة والتأجير العائد لزمن الحرب . واجرى جاكسون في تشرين الأول ١٩٧٢ ، تعديلاً يفرض حجب لقب " الأمة المفضلة " عن أي بلد يفرض قيوداً على الهجرة . ما اذكاها من حركة تكتيكية ! ذلك أن لقب الأمة المفضلة يبدو أكثر أهمية مما هو عليه واقعياً . لأن ما يشير اليه مجرد لقب لا ينطوي على التمييز ، فهو لا يمنح امتيازات خاصة بيد أنه يمد للمتلقي أية امتيازات متاحة لجميع الأمم التي تحتفظ أميركا معها بعلاقات تجارية اعتيادية (التي تجاوز عددها آنذاك المئة) . وعليه يشجع لقب الأمة المفضلة على التجارة ((الاعتيادية)) ، على أساس التبادل التجاري . وان اخذنا حالة الاقتصاد السوفيتي بالاعتبار ، لم يكن

متوقعاً أن يكون حجم التجارة معه مغرياً . فما أفلح تعديل جاكسون به هو تحويل هجرة السوفيت الى موضوع ليس ذي صفة دبلوماسية علنية حسب ، بل ومتصل بالاجراء التشريعي للكونغرس .

لم يبرز أي خلاف جوهري بين الادارة وجاكسون بهذا الصدد . فالحق ان الادارة اتخذت موقفاً حيال حقوق انسانية أخرى . فاذكر انني قد ناشدت عدة مرات دوبرينين باسم الكاتب المنشق (الكسندر سولجنتسين) والتي ساعدت على مغادرته الاتحاد السوفيتي . غير أن جاكسون لم يحبذ الدبلوماسية الهادئة في احترام حقوق الانسان ، والح على التأكيد الجلي للالتزام الأميركي بها – وفيها يثاب المصيب ويعاقب المسيء .

عززت ضغوط الكونغرس ، في البدء ، جهود الادارة في هذا الاتجاه ، ريثما بان الافتراق في هذا السبيل . فنيكسون الذي أبرز مفهوم الهجرة اليهودية ، قد فعل هذا لأسباب انسانية (وربما لغرض سياسي ثانوي برغم عدم استفادته منه على رؤوس الاشهاد) . غير أنه وضع جميع علاقات الشرق – الغرب على هامش قضية هجرة اليهود لعدم ايمانه بتعلق مصلحة أميركا القومية بها لهذا الحد .

شكلت قضية هجرة اليهود لجاكسون واتباعه بديلاً عن المواجهة الأيديولوجية مع الشيوعية . فلا غرو أن يعدوا الرضوخ السوفيتي قرينة على نجاح ضغوطهم التكتيكية . اذ الغى السوفيت رسم الخروج – سواء بناء على اعتراض البيت الأبيض أم تعديل جاكسون أم كليهما وهو الأرجح ، رغم اقتضاء الدليل

الحاسم على هذا انتظار فتح الأرشيف السوفيتي . فتشجع نقاد الادارة على المطالبة بمضاعفة اعداد المهاجرين اليهود ورفع القيود عن المهاجرين من الجنسيات الأخرى طبقاً لجدول تصادق عليه أميركا . كذلك فرضت قوى جاكسون قيوداً على القروض المقدمة للاتحاد السوفيتي عن طريق مصرف الاستيراد والتصدير (تعديل ستيفنسون) ، لينحدر الاتحاد السوفيتي في الشؤون التجارية الى وضع مزر بعد الانفراج أكثر مما كان عليه قبل زوال توترات علاقة الشرق – الغرب .

انبرى نيكسون ، قائداً بلداً خرج لتوه من حرب عسيرة وشاقاً طريقه لازمة الرئاسة ، الى تنكب المخاطر التي انطوى عليها فهمه للمصلحة القومية فقط ، والتي كان بلده مستعداً للاضطلاع بها . مع ذلك ابتغى نقاده ان تسقط الدبلوماسية الأميركية النظام السوفيتي عن طريق المطالبات وحيدة الجانب للحد من التسلح ، وقطع التجارة ، وتبني لحقوق الانسان بصورة تنطوي على التحدي . في غضون ذلك ، شهدنا انقلاباً استثنائياً في مواقع كبار المشاركين في هذا الجدل . فقد حذرت " نيويورك تايمز " في افتتاحية لها عام ١٩٧١ أن " تكتيك حجب التجارة الأميركية باعتباره ورقة قوية لصفقة مستقبلية ما بشأن قضايا غير تجارية انما هو بعيد عن احتمالية تأثيره الايجابي على السياسة السوفيتية ، وأكثر بعداً عن التجارة نفسها " . وما كادت تمضي سنتان حتى قلب كاتب الافتتاحية تلك الآية لما شجب زيارة وزير المالية (جورج شولتز) للاتحاد السوفيتي باعتبارها دليلاً على " أن الرغبة الجامحة انتابت الادارة بالتجارة والانفراج حتى تاقت لتجاهل الشؤون ذات الأهمية المكافئة لدى الشعب الأميركي المتعلقة بحقوق الانسان في كل حدب وصوب " .

حاول نيكسون تشجيع الاعتدال في تصرفات السوفيت " الدوليه " باحداث قيد في السياسة الخارجية السوفيتية ليكون مادة اختبار التجارة المعززة مع اميركا . فيما خطا خصومه خطوة اخرى بسعيهم لاستخدام التجارة وسيلة لاثارة القلاقل " الداخلية " في الاتحاد السوفيتي وهو ما فتيء قويا معتداً بنفسه . وتعرض نيكسون المقاتل في الحرب الباردة لاربع سنين خلت ، للتوبيخ لأنه وثق بالاتحاد السوفيتي – ولامراء انها المرة الأولى التي توجه بها هذه التهمة بعينها للرجل الذي بدأ سيرته في السياسية التحقيقات المناوئة للشيوعية أواخر الاربعينيات .

سرعان ما خضع مفهوم تحسين العلاقات السوفيتية – الأميركية للتحدي ، كما في افتتاحية " واشنطن بوست " .

[تمرق المسألة الشاقة المتعلقة بماهية " الانفراج " السوفيتي – الأميركي الآن من طور جدلي الى طور سياسي . ويلوح اليوم ان أعداداً كبيرة من الأميركان أمست مؤمنة أن تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتي أمر لا يكنون له رغبة أو امكانية أو أماناً ما لم يحرر الكرملين بعضاً من سياساته الداخلية] .

دوماً ما تطلعت أميركا لايمان أشسون ودولس الصادق وكذلك لوثيقة مجلس الأمن القومي لعام ١٩٦٨ : الاعتقاد بوجوب استباق المفاوضات الجادة بين أميركا والاتحاد السوفيتي باجراء تغيير جذري في النوايا السوفيتية والممارسات الداخلية . وحيث أن أوائل مقاتلي الحرب الباردة قنعوا بالاعتماد على الاحتواء

لاحداث هذا التغيير مع مرور الزمن ، وعد خلفاؤهم بحصول تغييرات شديدة في النظام السوفيتي نتيجة للضغط الأميركي المباشر والطلبات الأميركية العلنية .

تصدى نيكسون واصحابه ، في مناسبات عديدة أثناء حقبة بريجنيف ، للقيادة السوفيتية لما لم تتآكل بعد نزعتها للسلطة . حتى أصبح الطرفان خصمين لدودين . وتبين أن توجيه ضربة شاملة للنظام الشيوعي في ظروف التكافؤ النووي ستكون مريرة طويلة . وهكذا وجدنا أنفسنا بعيد حرب فيتنام وحادثة ووترغيت كسابح نجا لتوه من الغرق ، فاذا به يصادف من يطلب منه عبور القنال الانجليزي ، ثم يلقى تهمة التشاؤم حالما يبدي فتور همة . فاذ ابرز جاكسون نفسه في طليعة الصراع الجيوسياسي مع الشيوعية ، فلا يمكن اطلاق هذا الوصف على كثير من مجنديه الذين شككنا باخلاصهم بأقل بكثير من شكنا بقوتهم الدائمة .

ان الرئيس قطب رحى الحكومة في الأزمات الدولية . فمن هذا المنظار لوحده ما كانت فترة ووترغيت وقتاً مثالياً لممارسة سياسة مدروسة للمواجهة السوفيتية – الأميركية . فقد كان الرئيس يتعرض لتهمة الخيانة ، وما زالت جراح فيتنام راعفة ، وبلغ انعدام الثقة بالادارة درجة ان سأل صحفي محترم ، بعد ان هدد السوفيت علانية بالتدخل في حرب الشرق الأوسط ، في مؤتمر صحفي بتشرين الأول ١٩٧٣ فيما اذا دخلت القوات الأميركية انذاراً لصرف الانظار عن ووترغيت .

رجع الخلاف الى الجدل العائد الى عهد بون كونيسي آدمز حول ما هو أفضل لأميركا : الاقتناع بقيمها الاخلاقية امن شن الحملات من أجلها . وقد عرف عن نيكسون ربطه أهداف أميركا بقدراتها . فكان قادراً ضمن هذه الأطر على تجنيد نفوذ أميركا لانعاش قيمها ، فجاء موقفه حيال هجرة اليهود مصداقاً على ذلك . فيما اصر نقاده على قابلية التطبيق الفورية للمباديء العالمية ، ونبذوا ، في غمرة عجلتهم ، مسائل جدواها مخافة أن تفضح عدم الكفاءة أو التشاؤم التاريخي . فشعرت ادارة نيكسون باضطلاعها بمهمة تربوية حيوية عند حثها على اتصاف المثالية الأميركية بصفة التمييز . ما أمرها من سخرية حين تجد أميركا شخصيات قومية – وبعضها في طليعة منتقدي فيتنام – تحثها على تبني قائمة لانهاية لها من التدخلات في العالم من أجل قضايا انسانية ، في الوقت الذي تستمع فيه أميركا الى من يخبرها بوجوب تشخيص حدودها الجيوسياسية في فيتنام .

أوضحت السياسة الأشرس تجاه الاتحاد السوفيتي جدواها ، وهو ما تجلى أكثر في سني ادارة ريغان ، وأن لم تدن قطوف هذا النجاح حتى مرحلة تالية من نضوج العلاقات السوفيتية – الأميركية . لكن تعين على أميركا ، في غضون حمى وطيس جدل الانفراج ، ان تفيق من حرب فيتنام وتدفن ارهاصات ووترغيت . كما تحتم على الزعماء السوفيت ان يعانوا تحولاً في مسيرة الأجيال . ومهما يكن الحال ، حال الطريق الذي سلكه الجدل في مطلع السبعينيات دون استتباب توازن ملائم بين المثالية التي أطلقت شرر جميع المبادرات الأميركية الكبرى ، والواقعية التي فرضها المحيط الكوني المتبدل .

بالغ نقاد الانفراج في تبسيط قضيتهم ، فقد اسهمت ادارة نيكسون في صنع المأزق باستجابتها بدرجة مغالى فيها . فهو على أثر تألمه من هجوم سالف حلفائه وأصدقائه ، صرف النظر عن النقد باعتباره ناماً عن دوافع سياسية . ومهما كانت صحة هذا التقييم ، ما كان من العسير اتهام سياسيين محترفين بامتلاك دوافع سياسية . فما كان حرياً بالادارة أن تسأل نفسها به هو سبب ميل كثير من السياسيين الى جوقة جاكسون .

انه لمأزق خطير ذلك الذي بلغته السياسة الأميركية بنهاية ولاية نيكسون أثر حيرتها بين المثالية غير المحددة والتركيز المفرط على الأمور الجيوسياسية . فبعد حجب جزرة التجارة المزيدة ، لم تقرب عصا الانفاق الدفاعي السخي ، أو حتى عصا الرغبة بالتصدي للشؤون الجيوسياسية . وهكذا تعطلت معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت) ، وتوقفت الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي الا لماما ، كما استؤنف الهجوم السوفيتي الجيوسياسي يوم ارسال قوة حملات كوبية الى انغولا والتي وضعت حكومة شيوعية هناك في الوقت الذي عارض به " المحافظون " الأميركان رد فعل أميركي قوي . فأبنت الصعاب :

[اذا ما قللت جماعة ما من شأن مفاوضات الحد من الأسلحة والغت وجود أفق لروابط بناءة مع الاتحاد السوفيتي ، فيما خفضت جماعة أخرى ميزانيتنا الدفاعية وخدماتنا الاستخبارية ، واستنكرت مقاومة أميركا للمغامرات السوفيتية ، فمصير هذه الرغبة – شئنا أم أبينا – هو تدمير قدرة الأمة على ممارسة سياسة خارجية قوية ومبدعة ومعتدلة وحكيمة] .

هكذا دب الخلاف حتى حيال أجل الانجازات الدبلوماسية لهذه الحقبة . بحيث تم عرض الدبلوماسية الأميركية التي هيمنت على الشرق الأوسط منذ عام ١٩٧٣ ، وقلصت النفوذ السوفيتي في تلك المنطقة الاستراتيجية بحدة ، على مدى سنين على أنها تراجع ، ريثما مزق زخم عملية السلام تحفظات حتى المتشككين .

نفس المصير آل اليه ما عدته الأجيال انجازاً دبلوماسياً مشهوداً خاصاً بالشرق - الغرب ، انه مؤتمر الدول الخمس والثلاثين حول الأمن والتعاون الأوروبي ، الذي أسفر عن اتفاقيات هلنسكي . فهذه العملية الدبلوماسية الغربية اشعلت احساس موسكو العميق بعدم الأمان ، وبتعطشها الرهيب للشرعية . فبرغم بناء مؤسسة عسكرية جبارة والامساك بمقاليد عشرين أمة ، تصرف الكرملين كما لو انه بحاجة مستديمة لاعادة الاطمئنان . وطلب ، برغم كل ترسانته النووية المتنامية ، من الدول التي كان لها طيلة عقود مصدر تهديد ورمى بها في مزبلة التاريخ تزويده بصيغة يمكن له استخدامها في تعزيز مكتسباته . فجسد مؤتمر الأمن الأوروبي ، بناءً على ذلك ، بديل برجنيف عن معاهدة السلام الألمانية التي أخفق خروشوف في انتزاعها باصداره انذار برلين - وتاكيداً جازماً على الوضع القائم لما بعد الحرب .

ما كانت الفائدة الحقيقية التي رأتها موسكو واضحة لوحدها . فدرجة الاصرار التي كان مهد الثورة الأيديولوجية يسعى بها لتأكيد شرعيته من ضحاياه المزعومين للحتمية التاريخية ، كانت رمزاً للشك بالنفس لحد استثنائي . ولعل

الزعماء السوفيت عولوا على احتمالية ترك المؤتمر بعض المنظمات التي تقلل من شأن الناتو أو حتى نفي مهامه .

بذلك قد خدعوا أنفسهم . فما من بلد أوروبي كان ينتظر استبدال الممتلكات البيروقراطية المعلنة لمؤتمر الأمن الأوروبي بالحقيقة العسكرية للناتو أو وجود القوات الأميركية في أوروبا . فتبين أن لموسكو ما تخسره أكثر من الديمقراطيات من مؤتمر أسدل ستاره مانحاً جميع المشاركين به وبضمنهم أميركا ، صوتاً في الترتيبات السياسية لأوروبا الشرقية .

وافقت ادارة نيكسون على المؤتمر المزمع بعد لأي . وتوقعنا سنوح مناسبة طويلة الأمد برغم علمنا بامتلاك الاتحاد السوفيتي جدول أعماله المضاد لجدولنا . اذ تم الاعتراف أصلاً بحدود بلدان أوروبا الشرقية بمعاهدات عقدت عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية بين حلفاء الحرب وتوابع المانيا زمن الحرب في أوروبا الشرقية . كما جرى تأكيدها ثانية في اتفاقيات فيلي براندت الثنائية بين الجمهورية الاتحادية وبلدان أوروبا الشرقية ، اضافة الى ديمقراطيات أخرى سيما فرنسا مع بلدان أوروبا الشرقية (بضمنها بولندا والاتحاد السوفيتي) . ناهيك عن حث جميع حلفاء الناتو لعقد مؤتمر أمن في أي مؤتمر لهم مع السوفيت ، او اقترب قادة أوروبا الغربية أكثر من قبول جدول الأعمال السوفيتي .

هكذا قررت ادارة نيكسون في عام ١٩٧١ اضافة مؤتمر الأمن الأوروبي لقائمة حوافزها لتشجيع الاعتدال السوفيتي - فمارسنا استراتيجيتنا للربط التي أوجزها مستشار وزارة الخارجية (هلموت سوننفلدت) بأنها فخورة مثلما هي

دقيقة : " لقد مارسناها من أجل المعاهدة الألمانية – السوفيتية ، ومارسناها من أجل اتفاقية برلين ، ومارسناها مرة أخرى من أجل استهلال ((التخفيضات المتبادلة للقوة المتوازنة)) . وقد صاغت ادارة نيكسون وادارة فورد بعدها ، نتيجتها بربط حضورهما بضبط التصرف السوفيتي في جميع المسائل الأخرى . اذ أصرتا على النهاية المقنعة لمفاوضات برلين ، وعلى استهلالها بمسألة التخفيضات المتبادلة للقوات في أوروبا . فحضرت وفود خمس وثلاثين دولة الى جنيف بعد اتمام هذه الانجازات ، برغم عدم افشاء مفاوضاتها الشاقة في الصحافة الغربية الا قليلاً . حتى حل عام ١٩٧٥ ليشق المؤتمر حجب الاختفاء باعلان التوصل لاتفاقيات ستوقع في لقاء على مستوى قمة في هلنسكي . وساعد النفوذ الأميركي على قصر الاعتراف بالحدود على الالتزام بعدم تغييرها بالقوة ، وهو مجرد نسخة عن ميثاق الأمم المتحدة ، ونظراً لعدم وجود بلد أوروبي قادر على صنع تغيير بالقوة أو ممارسة سياسة لذلك الحد ، لم يكن التخلي الرسمي كسباً سوفيتياً الا قليلاً . وحتى هذا الاعتراف المحدود بالشرعية تم ابطاله بمبدأ سبقه – وهو ما تفاوضت أميركا بشأنه . حيث أعلن أن الدول الموقعة " ترى أن بالامكان تغيير حدودها ، طبقاً للقانون الدولي ، بالوسائل السلمية والاتفاق " .

استحال أهم بنود اتفاقية هلنسكي الى ما أطلق عليه السلة الثالثة حول حقوق الانسان (اذ تناولت السلة الأولى القضايا السياسية ، والثانية القضايا الاقتصادية) . أزمع من السلة الثالثة لعب دور لافت للنظر في تفكيك الفلك السوفيتي ، وغدت رمزاً لجميع نشاطات حقوق الانسان في بلدان الناتو . وقد ساهم الوفد الأميركي في صياغة البنود الأخيرة لاتفاقيات هلنسكي . غير أن

ناشطي حقوق الانسان هم من يستحق الثناء ، فلولا الضغوط التي مارسوها ، لبطؤ سير عجلة التقدم .

فرضت السلة الثالثة على جميع الأطراف ممارسة ورعاية حقوق انسان أساسية محددة . فرام صائغوها الغربيون تهيئة هذه البنود معياراً دولياً يمكن أن يخفف القمع السوفيتي للمنشقين والثائرين . ثم تبين أن المصلحين الأبطال في أوروبا الشرقية قد استخدموا السلة الثالثة حجر زاوية في قتالهم لتحرير بلدان من السطوة السوفيتية . فنال (فاكلاف هافيل) في تشيكوسلوفاكيا و (ليش فاليزا) في بولندا مكانهما في صومعة عظماء مقاتلي الحرية باستلهامهم لهذه البنود في الداخل والخارج أيضاً ، لكبح الهيمنة السوفيتية وحتى النظامين الشيوعيين في بلديهما .

وهكذا جنح مؤتمر الأمن الأوروبي الى تقمص دور ثنائي هام ، ففي مراحله البكر ، أفلح في تخفيف حدة التصرف السوفيتي في أوروبا ، وبعد ذلك عجل بانهيار الامبراطورية السوفيتية .

تم نسيان مواقف المعاصرين ازاء مؤتمر هلنسكي لحد يدعو للرثاء . فقد تعرض الرئيس فورد لتهمة الخيانة التاريخية بسبب حضوره المؤتمر وتوقيع الوثيقة الرئيسية المسماة " القانون الأخير " سنة ١٩٧٥ . وفي هذا كتبت " نيويورك تايمز " :

[ما كان يجب عقد مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ذي الخمس وثلاثين دولة ، الذي دنا الآن من ذروته بعد (٣٢) شهراً من الثرثرة اللفظية . اذ لم

يحصل مسبقاً ان تماحك وتشاجر مثل هذه الكثرة لهذه الفترة الطويلة بشأن هذه الأمور الصغيرة . فان فات الأوان لاسدال الستار على قمة هلنسكي .... فلا بد من بذل كل جهد علنياً وسرياً لايقاف امراح الغرب واتراحه بها] .

وفي كلمة لي بعد ثلاثة أسابيع أوجزت موقف ادارة فورد :

[تواصل أميركا عملية تخفيف التوترات من موقع القوة والثقة بالنفس لسنا من اتخذ وضعاً دفاعياً في هلنسكي ، ولسنا من تعرض لتحدي جميع الوفود كي نفي بالمباديء الموقعة . ففي هلنسكي ، تم لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية الاعتراف بحقوق الانسان مواضيع في مفاوضات ومداولات الشرق – الغرب ، وقد عرض المؤتمر ((معاييرنا)) للسلوك الانساني ، الذي كان – وما يزال – نبراس أمل الملايين] .

ما أحلكها من فترة كئيبة التي لم يجد بها الاقناع شروى نقير . فاذا حل اذار ١٩٧٦ ، تحديت أولئك المتحدين بشيء الغضب :

[ما من سياسة بوسعها اليوم ، ان وجدت ، القضاء على التنافس والخلافات الأيديولوجية العنيدة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وما خالني انها بقادرة على تنسيق جميع المصالح . فنحن ملتزمون بعملية مطولة لا مفر لنا فيها من يوم سعد ويوم نحس . بيد ان بديلاً لا يوجد لسياسة معاقبة المغامرين ومكافأة المنضبطين . ما الذي يزمعه المتحدثون بدرابة لسان

ومالذي تخلينا عنه تحديداً ؟ وأي مستوى مواجهة يرغبون ؟ وما هي التهديدات التي يسلطون ؟ وأية مخاطر سيتحملون ؟ ثم مالتغييرات الدقيقة في وضعنا الدفاعي يزمعون ؟ وأي مستوى انفاق دفاعي ولاية فترة يطلبون ؟ وما هي درجة جدتهم في اقتراح رعاية العلاقة الأميركية – السوفيتية في عهد التكافؤ الاستراتيجي ؟] .

لقد استجابت " بنية سلام " نيكسون لتوق الأمة لانهاء المغامرات الخارجية . بيد أن الأميركان اعتبروها شيئاً مسلماً به جل تاريخهم . فتعريف السلام بأنه عدم وجود حرب ، كان تقديراً مغرقاً في السلبية ومثبطاً للعزم حتى اضحى شعاراً لا يصلح لسياسة أميركا . اذ كان مفهوم ادارة نيكسون للعلاقات الدولية اكثر واقعية من الذي ورثته ، وجسد على المدى البعيد ، تعديلاً لازماً لسياسة أميركا الخارجية . الا أنه لم يرتكز على مباديء مألوفه – وهي ثغرة ملأتها ادارات تاليه . فقد غدى التفسير الجيوسياسي للشؤون الدولية ، في أميركا ، ضروريا مثلما هو غير كاف بحد ذاته . فتصرف نقاد نيكسون ، من الناحية الأخرى ، كما لو أن المحيط الدولي لا يعنيهم ، وان بالامكان فرض مشيئة أميركا من جانب واحد ودونما حاجة لغير اعلان أميركا لها .

انطلقت ادارة نيكسون ، سعياً منها لتفهم فاعل للتغييرات الثورية التي تتوجتها ، بعيداً جداً في اتجاه التشديد على ما اعتقدته ضرورات أميركا الجيوسياسية فحاول نقادها وخلفاؤها التعويض عن ذلك بالاستشهاد بالنسخ الكاملة للمباديء الأميركية . وقد حمي وطيس الخلاف الحتمي دونما داع بسبب تفكك الوحدة القومية تحت وطأة التأثير المزدوج لفيتنام ووترغيت .

مع ذلك ، اعادت أميركا اكتشاف قدراتها وأفلحت في قلب المائدة على خصمها السوفيتي ، أثر امساكها بزمام العالم أثناء الحرب الباردة . وبعيد تلاشي التهديد الجيوسياسي مع غياب التحدي الأيديولوجي سوية ، اندفعت أميركا ، ويالسخرية ، دونما أي خيار في التسعينيات نحو دراسة جديدة تماماً لمكامن مصلحتها القومية .

الفصل الثالث عشر

نهاية الحرب الباردة

ريغان و غورباتشوف

ما كادت أحلام السلم تداعب جفون الأمريكان حتى أشتعل فتيل الحرب الباردة . وما انطلقت حمامة انتهائها الا يوم تدجحت أمريكا لصراع طال أمده . فقد انهارت الامبراطورية السوفيتية بسرعة أعلى من سرعة امتدادها خارج حدودها . وبالسرعة عينها عكست أميركا موقفها حيال روسيا ، حيث تحولت من العداوة الى الصداقة في غضون أشهر ليس الا .

ما كان لهذا التبدل القدري أن يحصل لولا جهود راعيين غير متوقعين . فانتخاب (رونالد ريغان) جاء استجابة لفترة بدا فيها على أمريكا النكوص عن تأكيد حقائق التفرد الأمريكي . فيما عزم (غورباتشوف) الذي برز على المسرح أثر صراعات قاسية ضمن الهرم الشيوعي على انعاش ما عده الأيديولوجية السوفيتية المثلى ، ولذلك سكنت القناعة رأسي كل من ريغان وغورباتشوف ان يعقد النصر لواءه له بخاتمة المشوار . ومهما يكن من أمر ، ثمة فرق حاسم بين هذين الراعيين : فان استوعب ريغان التيارات الرئيسية السائرة في مجتمعه ، غم على غورباتشوف ذلك كلية . لقد أصغى كلا الزعيمين لما حسبه الأمثل في نظامه ، ولكن أن أطلق ريغان روح المبادرات من عقالها وأنعش الثقة بالنفس ، عجل غورباتشوف في انهيار نظامه بطلبه اصلاحاً ثبتت استحالته .

أعقب انهيار الصين الهندية (١٩٧٥) تقهقر أميركي من أنغولا وتعميق للانقسامات في الداخل وزحف استثنائي صوب التوسعيه من جانب الاتحاد السوفيتي . لقد انتشرت القوات المسلحة الكوبية بدءاً من أنغولا حتى أثيوبيا يرافقها خبراء هجوم سوفيت . وفي كمبوديا قهرت القوات الفيتنامية التي يدعمها ويمونها الاتحاد السوفيتي ذلك البلد الشقي . واحتل ما يربو على مئة ألف جندي سوفيتي أفغانستان . فيما سقطت حكومة شاه ايران الموالية للغرب وخلفها نظام راديكالي مناوىء للأمريكان ، فأحتجز (٥٢) أمريكياً رهينة جلهم مسؤولون حكوميون . وهكذا بدا مستهل اختلاط المنظر الدولي .

على أن الانحلال دب في أركان الشيوعية هي الأخرى مع تجلي امارات انحطاط مركز أمريكا الدولي . ففي لحظة واحدة بمطلع الثمانينيات ، بدا أن الشيوعية ستكتسح كل ما تراه أمامها ، ولكن ما ان حلت لحظة بعدها - والتاريخ يحسب بالوقت - حتى أخذت الشيوعية تهدم نفسها بنفسها ، ففي عقد واحد تلاشت التوابع في أوروبا الشرقية وتقطعت أوصال الامبراطورية السوفيتية متخلية عن جميع المكتسبات الروسية تقريباً منذ عهد بطرس الأكبر . فما من قوة عالمية سبق لها أن تقطعت بهذا الحجم وبهذه السرعة دونما اندحارها في أتون حرب ما .

يعود أحد أسباب تهاوي الامبراطورية السوفيتية الى أن تاريخها قد حثها على التوسع المفرط لحد لا يطاق . فقد ولدت الدولة السوفيتية خلافاً لجميع الحسابات ، ثم ظفرت في النجاة من حرب أهلية وعزلة خانقة وتوالي حكام اشرار على ادارتها . ثم أفلتت في الأعوام (١٩٣٤-١٩٤١) وبمهارة من حرب عالمية

ثانية لائحة في الأفق ، مطلقة عليها " حرب أهلية بين الامبرياليين " ريثما دحرت العدوان النازي بمعونة الحلفاء الغربيين . وأفلحت بعد ذلك وهي تراقب الاحتكار الأمريكي النووي ، الى تهيئة فلك تابع لها في أوروبا الشرقية ، ولتحويل نفسها الى قوة كونية ، عظمى في حقبة ما بعد ستالين . فباديء الأمر هدد السوفيت المناطق المتاخمة لهم ، وسرعان ما بلغوا قارات نائية . فأمست قواتهم الصاروخية تنمو بمعدل أخاف كثيراً من خبراء أمريكا من وشوك تفوق الروس الاستراتيجي . لذلك اعتقد ساسة أمريكا مثلما فعل قادة بريطانيا في القرن التاسع عشر ، دزرائيلي وبالمرستون ، باستهلال روسيا طريقها الى كل حدب وصوب .

العيب القاتل في كل هذه الامبريالية المميتة ، فقدان الزعماء السوفيت الشعور بالاتزان على طول المدى ، فتمادوا في تقدير قدرة النظام على تعزيز مكتسباته ، العسكرية والاقتصادية ، اضافة الى نسيانهم تحديهم الفعلي لجميع القوى الكبرى الأخرى منطلقين من قاعدة بالغة الضعف . كما نكصوا عن الاعتراف لأنفسهم بقصور نظامهم المفجع عن احتراج المبادرات وتشجيع روح الابداع ، وان الاتحاد السوفيتي في واقع الأمر - بصرف النظر عن قوته العسكرية - ما برح بلداً راسخاً في التخلف وعليه اخفقوا في اختبار البقاء الذي لا يرحم أحداً ، لأن المزايا التي برز بها المكتب السياسي (للحزب الشيوعي) خنقت روح الابداع الضرورية لتمكين مجتمعه من النمو ، ناهيك عن دعم الصراع الذي دقوا طبوله .

و لم يتحل الاتحاد السوفيتي بالقوة أو الدينامية اللازمتين لاداء الدور الذي أناطه به زعماؤه . فلعل ستالين قد هجس نذير شؤم بخصوص توازن القوى

الحقيقي يوم استجاب لبناء الأسلحة الأمريكي أثناء الحرب الكورية بتقديم مذكـرة السلام عام ١٩٥٢ (راجع الفصل ٢٠) ٠ وحل خلفاء ستالين ليسيئوا تفسير قدرتهم على البقاء في الفترة اليائسة بعده ، دون أن يتحداهم الغرب فعدوا ذلكم برهاناً على ضعفه ٠ فخدعوا أنفسهم بما عدوه اختراقات سوفيتية هامة في العالم النامي ٠ فقد استنتج خروشوف وأخلافه قدرتهم على التفوق على سلفهم الطاغية ٠ وعليه عدلوا عن استراتيجيته القائمة على بذر بذور الشقاق بين عناصر العالم الرأسمالي ، وآثروا دحرها باصدار الانذارات حول برلين ، ونشر الصواريخ في كوبا ، والاضطلاع بمغامرات في طول العالم النامي وعرضه ٠ فكان هذا المجهود على أية حال فوق طاقة السوفيت فأحال الركود انهياراً ٠

لقد تجلى تشرخ الشيوعية للعيان أثناء ولاية ريغان الثانية ، واستعصى على العلاج عشية مغادرته المسؤولية ، وفضل كبير يعزى لمن سبق ريغان من رؤساء ، اضافة الى دور خليفته المباشر جورج بوش الذي تداول بمهارة مع المراحل التنازلية لهذا الانهيار ٠ ومع ذلك فان ولاية ريغان هي الايذان بحصول نقطة الانعطاف الخطيرة ٠

لقد جسدت ولاية ريغان انجازاً رائعاً مذهلاً – أمسى في نظر المراقبين الأكاديميين انجازاً مبهماً ٠ فهو لم يكن يعرف شيئاً غير التاريخ ، وسخر هذا العلم القليل بعزم في تحقيق أفكاره المسبقة ٠ وأستخدم ارشادات التوراة معالم هداية خوض المعركة الفاصلة ٠ والحق أنه لا أساس واقعي للعديد من الحكايات التاريخية التي أولع بسردها ، باعتبارها حقائق مفهومة عموماً ، ففي حديث سري ناظر غورباتشوف ببسمارك محتجاً بتغلبهما على العراقيل الداخلية بانطلاقهما بعيداً عن

اقتصاد مركزي نحو السوق الحرة ٠ فأشرت على صديق لنا بضرورة تحذير ريغان من اعادة طرح هذا المقترح السخيف أمام مفاوض الماني ٠ على أن هذا الصديق لم ير حكمة في ابلاغ التحذير مخافة أن تتعمق المقارنة أكثر في ذهن ريغان ٠

ضاق ريغان ذرعاً بتفاصيل السياسة الخارجية ٠ فما استوعبه ليس غير قلة من الأفكار الأساسية المتعلقة بأخطار سياسة التهدئة ، وشرور الشيوعية ، وعظمة بلده ، بل أنه كان ضعيفاً حتى في تحليل القضايا الرئيسية الكبرى ٠ فحملني كل ذلك على القول في غضون ما اعتقدته حديثاً غير رسمي قبيل عقد مؤتمر للمؤرخين في مكتبة الكونغرس : " انكم اذ تتحدثون الى ريغان ، فانما تعلو الدهشة محياكم أحياناً ، مستغربين كيف يرتقي أي شخص عرش الرئاسة ، أو حتى يصبح حاكماً ٠ بيد أن ما يجدر بكم أيها المؤرخون شرح معالمه هو كيف دانت لمثل هذا الرجل الأبله كاليفورنيا لثمانية أعوام وواشنطن لقرابة سبعة ".

هرع الصحفيون الى تدوين الجزء الأول من ملاحظتي ، غير أن الجزء الثاني هو الأهم للمؤرخين الأكاديميين ، فاذ يتم تنفيذ كل ما يقال ، يتحتم اذن على الرئيس ذي الخلفية الأكاديمية الضحلة أن يتبع سياسة خارجية مترابطة ومتواصلة ٠ نعم ان لريغان أفكاراً أساسية ضئيلة ، بيد أنها أستحالت أيضاً جوهر قضايا السياسة الخارجية لعهده ، وهو ما يفصح عن أن وضوح الاتجاه ورسوخ الاعتقاد بالأفكار هما العناصر الرئيسية للزعامة ٠ وليس مما يعني شيئاً مسألة من الذي يصيغ قرارات ريغان حول السياسة الخارجية – وهل من رئيس يصيغ قراراته بنفسه لقد جرى الاعتقاد الشعبي ان ريغان كان بيد محرري خطاباته ، بيد أن هذا وهم أشاعه كثير من محرري الخطابات ٠ أضف الى ذلك أن ريغان اختار بنفسه

الأشخاص الذين أعدوا خطاباته ، فيما أحسن هو في عرضها . فمجرد لقاء قصير مع ريغان يبدد الشكوك بأنها لا تمثل آراءه الحقيقية حول بعض المسائل مثل مبادرة الدفاع الاستراتيجي التي بز بها حاشيته طراً .

ينهل الترابط في نظام الحكومة الأمريكي ، الذي ينتخب به الرئيس لا سواه قومياً ، من بلاغات الرئيس . فهي تمثل أجلى توجيه للبيروقراطية المستفحلة المتشبثة بآرائها ، كما تعين معياراً للجدل الجماهيري أو الكونغرس لقد استن ريغان مبدأ سياسة خارجية عظيمة الترابط تنم عن ذكاء خارق . فقد حظي بملكة حدس أصيل لأرومات الطموح الأمريكي . وهجس في عين الوقت التصلب السوفيتي – الأمر الذي سار به ضد معظم آراء خبرائه حتى بداخل معسكره المحافظ .

حظي ريغان بموهبة مدهشة لحشد الشعب الأمريكي ، وتمتع بشخصية دمثة مرحة لطيفة المعشر . وعسر حتى على ضحايا خطاباته البليغة ان ينالوا من شخصه ، كما أنهى حقدي عليه حتى بعد تقريعه أياي عشية فشله في انتخابات ١٩٧٦ برغم مواصلتي تزويده باستشاراتي باعتباري مستشاراً للأمن القومي سنوات عدداً دون احتجاج منه على السياسات التي قلب لها ظهر المجن اليوم . أما وقضي الأمر ، لم يلمع في ذاكرتي حملة خطاباته علي بل مزيج الشعور العام والنية الطيبة الساحرة التي اتبعها ريغان أثناء جلسات المشاورات .

ففي حرب الشرق الأوسط لعام ١٩٧٣ أبلغته بوجوب تعويض خسائر اسرائيل بالطائرات ، على أننا جهلنا كيفية ايقاف رد فعل العرب تجاه ذلك ، فأقترح :

" لم لا تقول أننا سنعوض اسرائيل عن جميع الطائرات التي يزعم العرب أنهم أسقطوها ؟ " . أنه لمقترح من يحرض الدعاية العربية الملتهبة على أربابها .

يخفي هذا السيماء اللطيف لريغان شخصية شديدة التعقيد . فكان انعزالياً شديد التحفظ ونأى عن الآخرين محتفظاً ببشاشته معهم . فهو اذ يعامل الجميع بنفس المودة ويبهجهم بسيل حكاياته المألوفة ، انما يدحض أي ادعاء ضده أنى كان مصدره . وصان نفسه عن أن يساء فهمه بتكرار سرده مجموعة النكات في حواراته . فهو أنموذج المتوحدين مثلما هو شأن كل الممثلين – جذاب السحنة وكل عنايته بنفسه . وأفادني أحد خلصائه بأنه كان أخلص وأسمح صديق عرفه في حياته بأسرها .

وبرغم بلاغة خطاباته في انتخابات ١٩٧٦ ، فما خال أحد وجود كبير فرق في تقييمات ادارات نيكسون وفورد وريغان للوضع الدولي . فهؤلاء الثلاثة قد شدوا العزم جميعاً على التصدي للهجوم السوفيتي الجيوسياسي وعدوا التاريخ نصيراً للديمقراطيات . ومهما يكن الحال كان ثمة اختلاف شاسع في تكتيكاتهم وفي أسلوب طرح كل ادارة سياساتها أمام الشعب الأمريكي .

آمن نيكسون ، مصعوقاً من الانشقاقات الداخلية بشأن حرب فيتنام ، أن الكشف المسبق عن الجهود الجادة من أجل السلم شرط أساسي للصمود مهما

كانت ضرورة التصدي للتوسع السوفيتي . ويوم تبوء ريغان عرش بلد أضناه الاندحار ، برر مقاومة التوسع السوفيتي بأسلوب هجومي صاخب . ذلك أنه قد أدرك ، مثلما فعل سلفه وودرو ولسون ، نفسية الشعب الأمريكي الذي طوى كل تاريخه متغنياً بتفرده ، ولذا سيواصل مسيره حسب هدي المثل التاريخية وليس التحليلات الجيوسياسية . وفي هذا السياق بات نيكسون بالنسبة لريغان ، كتيودور روزفلت لولسون . اذ فهم نيكسون ، مثل روزفلت ، آليات العلاقات الدولية ببراعة ، فيما استوعب ريغان ، وهو قد ضارع ولسون هنا ، كنه نفسية الأمريكان .

عكست خطابات ريغان عن مكانة أمريكا الأخلاقية الفريدة ما قاله كل الرؤساء تقريباً في مناسبة أو أخرى في ثنايا هذا القرن . بيد أن ما ميز ريغان عن غيره في أمد التفرد الأمريكي اعتماد تلك المكانة حرفياً لتكون دليلاً للسياسة الخارجية يوماً بعد آخر . واذا ما استشهد أسلافه بالمباديء الأمريكية لتغدو أساساً لمبادرة معينة – كعصبية الأمم أو خطة مارشال – استخدمها ريغان أسلحة في الصراع المتواصل ضد الشيوعية ، كما تبين في كلمته للجيش الأمريكي في ٢٢ شباط ١٩٨٣ .

[اننا اذ نزاوج بين الحقائق السرمدية والقيم التي باركها الأمريكان من جهة ، وبين حقائق عالم اليوم من الجهة الثانية ، فانما نستهل اتجاهاً جديداً بالمرة في السياسة الخارجية الأمريكية – انها السياسة القائمة على الافصاح غير الهياب وغير التسويفي عن مؤسساتنا الحرة الثمينة] .

ونبذ " عقدة الذنب " التي نسبها الى ادارة كارتر ، ودافع عن سجل أمريكا باعتبارها " أمضى قوة للسلم في عالم اليوم " . فقد أطلق في أول مؤتمراته الصحفية على الاتحاد السوفيتي لقب امبراطورية خارجية على القانون لا تتورع عن " اقتراف أية جريمة أو كذب أو دسيسة " وسيلة لبلوغ أهدافها . فكان هذا نذيراً لوصفه الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٣ بـ " امبراطورية الشر " وهو تحد أخلاقي مباشر أمسك عنه جميع أسلافه . وتجاهل الحكمة الدبلوماسية التقليدية حين تمادى في تبسيط فضائل أمريكا فداءً لرسالة كتبها على نفسه لاقناع الشعب الأمريكي بالأهمية الكبيرة لصراع الشرق – الغرب الأيديولوجي ، وبأن بعض الصراعات الدولية تخاض من أجل الغلبة وليس بهدف استمرار وجود القوة أو الدبلوماسية .

أفصحت خطب ريغان في ولايته الأولى عن النهاية الرسمية لعهد الانفراج . فما عاد هدف أمريكا تخفيف التوترات بل شن الحملات وقلب الاتجاهات . اذ تم انتخاب ريغان بفضل تعهده بمناوءة الشيوعية عسكرياً ، وبر بوعده فقد رفض ، عند تداوله بوضع ممتاز مع انحدار الاتحاد السوفيتي المفاجيء ، تأكيد نيكسون على المصلحة القومية باعتباره مغالياً في النسبية ، كما سما فوق أجفال كارتر حاسباً اياه انهزامياً ، فقدم بدلاً من ذلك رؤية رائعة للصراع الذي أمكن تحمله نظراً للحتمية التاريخية للنتائج . فوصف في كلمة له بقاعة (وستمنستر) بلندن في حزيران ١٩٨٢، صورته المسبقة للاتحاد السوفيتي :

[أصاب كارل ماركس ، من منطق السخرية ، فها نحن اليوم نشهد أزمة ثورية صاخبة ، أزمة تتطاحن فيها حاجات النظام الاقتصادي مع حاجات

النظام السياسي مباشرة ، الا ان هذه الأزمة مصطخبة اليوم ليس في الغرب الحر غير الماركسي ، بل في موطن الماركسية – اللينينية ، الاتحاد السوفيتي ....

ذا النظام السوفيتي الموغل في المركزية وبخيل الحوافز أو عديمها ، يوجه مصادره عاماً اثر آخر لعملية صنع آلات هرمه • وها هي الأزمة المستديمة للنمو الاقتصادي المترافقة مع تنامي الانتاج العسكري ، تثقل كاهل الشعب السوفيتي •

فما نلمحه هيكل سياسي لم يعد يتوافق مع قاعدته الاقتصادية ، ومجتمع تقف فيه القوى السياسية حجر عثرة بوجه القوى الانتاجية] •

وغداة قولي ونيكسون نفس الشيء تقريباً قبل عشر سنوات ، سخن وطيس انتقاد المحافظين للانفراج • اذ نبذ المحافظون تفجير الثورة التاريخية لخدمة الانفراج لخشيتهم من احتمال كون نزع السلاح المعنوي حصيلة المفاوضات مع الشيوعيين • على أنهم وجدوا في مفهوم النصر المحتم وسيلة للمجابهة •

رأى ريغان امكانية تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتي لو أفلح في اخافته هو الآخر من المعركة النووية الفاصلة • فقد صمم على فتح عيون الكرملين على اخطار استئناف التوسع • وكان لهذا الكلام لو قيل قبل عقد أن يثير عصياناً مدنياً لا سبيل لكبته وربما أودى الى مواجهة مع الاتحاد السوفيتي الذي ما فتأ عظيم الثقة بنفسه • أما وانطوى عقد ، فسيبدو قد عفى عليه الزمن • ففي ظروف الثمانينيات دشن ريغان عهداً من الحوار بين الشرق والغرب لا سابق له •

لا مناص أن تثير كلمة ريغان هجوماً عنيفاً من لدن معتنقي العقائد التقليدية • فالغضب المستعر كان رد فعل " تي • آر • بي " في صحيفة " الجمهورية الجديدة " يوم ١١ نيسان ١٩٨٣ حيال وصف ريغان للاتحاد السوفيتي بأنه " امبراطورية الشر ": ، فدعاه " ابتذال ساذج " ، وكذلك وصف (أنتوني لويس) في صحيفة " نيويورك تايمز " في ١٠ آذار ١٩٨٣ هذا الكلام بأنه " ساذج " • وكان استاذ جامعة هارفرد اللامع (ستانلي هوفمان) قد شجب في عام ١٩٨١ أسلوب ريغان العسكري بنعته اياه " قومية محدثة " ، ووجه لـ " رد الفعل المتطرف " الذي لن يشفي غليل العالم المعقد والذي لم تكن مشاكل أمريكا الاقتصادية فيه أهون من مشاكل الاتحاد السوفيتي •

خاب توقع النقاد بالغاء كلام ريغان امكانية اجراء مفاوضات على مستوى عال • اذ شهدت ولاية ريغان الثانية حواراً بين الشرق والغرب ، ليس له ما يماثله حجماً منذ عهد نيكسون • وعلى أيه حال حظيت المفاوضات هذه المرة بتأييد الرأي العام واستحسان المحافظين •

ان كان نهج ريغان في الصراع الأيديولوجي نسخة مصغرة عن الولسونية فلا بد من تجذر مفهومه عن ذلك الصراع في الطوباوية الأمريكية على حد سواء فهو عدل عن فكرة اتمام المنازلة حتى صافرة النهاية برغم أن القضية صراع بين الخير والشر • فالقناعة ملأت رأسه باستناد العناد الشيوعي الى الجهل أكثر منه الى الارادة الشريرة بالفطرة ، والى سوء الفهم أكثر منه الى العدوانية المحض • ولذلك رأى ريغان أيلولة الصراع الى الانقلاب على العدوانية • ففي عام ١٩٨١ أرسل غداة نجاته من عملية استهدفت حياته ، رسالة بخط اليد الى (ليونيد بريجنيف)

حاول فيها تبديد الشكوك السوفيتية من أمريكا - كما لو أن بالامكان محو خمس وسبعين سنة من عمر الأيديولوجية الشيوعية بمجرد نداء شخصي : لتنها عين التأكيد تقريباً الذي أوحى به ترومان الى ستالين عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية (راجع الفصل ١٧) :

[من المتفق عليه ضمناً في غالب الأحايين ان لدينا مخططات امبريالية ، وبذا نسلط تهديداً لأمنكم وأمن الأمم الناشئة حديثاً . لكن دليلاً لا يتوفر يسند هذه التهمة ، بل هناك دليل جلي على أن الولايات المتحدة لن تشرع بأي جهد في ذلك السبيل مهما كان نوعه ، وان سيطرت على العالم دونما خطر يحدق بها . اسمح لي أن أعلن انتفاء أي أساس لاتهام الولايات المتحدة بالامبريالية أو محاولات فرض ارادتها على بلدان أخرى بالقوة .

سيادة الرئيس ، ألنا أن نشرع بهدم العراقيل القائمة بين شعبينا والصادة عن تحقيق أهدافهما المباركة ؟] .

أنى للمرء أن التوفيق بين لهجة رسالة ريغان التصالحية وافتراض المؤلف بتمتعه بمصداقية خاصة مع قبول تأكيد ريغان الذي طلع به قبل عدة أسابيع من تاريخ تلك الرسالة بنزوع الزعماء السوفيت لارتكاب أية جريمة ؟ لم ير ريغان داعياً لتفسير هذا التناقض الواضح ، ربما لايمانه العميق ((بكلا)) الافتراضين - شر التصرف السوفيتي ، وتقبل الزعماء السوفيت للانقلاب الأيديولوجي .

وهكذا أرسل في أعقاب رحيل برجنيف بتشرين الثاني ١٩٨٢ ، مذكرة بخط اليد الى (يوري اندروبوف) خليفة برجنيف ، في ١١ تموز ١٩٨٣ نافياً صفة

العدوانية عن بلاده تارة أخرى . وبعد موت أندروبوف وتسلم (تشيرنينكو) المسن الزعامة ، دون ريغان في دفتر مذكراته :

[يساورني شعور بالرغبة في التحدث اليه رجلاً لرجل عن مشاكلنا بشجاعة وسبر امكانية اقناعه بجني السوفيت ثماراً ملموسة لو انضموا للأسرة الدولية ، الخ] .

آب ريغان الى دفتر مذكراته بعد ستة شهور ، في ٢٨ أيلول ١٩٨٤ يوم زار (غروميكو) البيت الأبيض لأول مرة أثناء ادارة ريغان وفيها أضحى هدفه الرئيسي دحض الشكوك الروسية للولايات المتحدة :

[يعتريني شعور بمراوحتنا في في امر خفض التسلح بينما يأكل الشك قلوبهم من دوافعنا مثلما هي شكوكنا بهم . ايماني أننا بحاجة الى الاجتماع لنرى قدرتنا على افهامهم بعدم امتلاكنا مخططات ضدهم بيد أننا نعتقد بوجود مخططات لديهم ضدنا] .

ان عزي التصرف السوفيتي الى الشك بأمريكا طيلة جيلين ، فلربما لفترض ريغان رسوخ هذا الشعور في النظام والتاريخ السوفيتي . ولن يجد الأمل الطاغي - سيما لدى معاد للشيوعية حرون - بابطال الحذر السوفيتي في محاورة واحدة مع وزير الخارجية (الذي جسد فوق ذلك انموذج الحكم الشيوعي) - تبريره بغير الاعتقاد الأمريكي الجامح بصيرورة التفاهم بين الشعوب أمراً اعتيادياً والتوتر شذوذاً ، وان بالامكان زرع الثقة من خلال الاستعراض الجلي للارادة الطيبة .

وهكذا لم يجد ريغان ، جلاد الشيوعية ، ما هو غريب في وصف بارحة أول اجتماعاته بغورباتشوف عام ١٩٨٥ ، واحساسه بالحدس بمصطلحات تنم عن أمل تسوية الاجتماع لصراعات جيلين – وهو موقف أقرب لموقف جيمي كارتر منه لموقف ريتشارد نيكسون :

[حلمت بدءاً من عهد برجنيف بمسيري مع الزعيم السوفيتي شخصياً لاعتقادي بقدرتنا على انجاز ما عجز عنه دبلوماسيونا لافتقارهم للصلاحية ، أي شعرت بأنه لو تفاوض الزعماء في قمة وخرجنا يداً بيد قائلين : " اتفقنا على هذا الأمر " ، فسيعجز البيروقراطيون عن عرقلة الاتفاق ، ولم تسنح لي فرصة لتجربة فكرتي حتى لقيت غورباتشوف ، وها أنا اليوم قد حظيت بفرصتي] .

لم يؤمن ريغان في قرارة قلبه بدواعي التوتر المؤسساتية أو الجيوسياسية برغم أحاديثه عن المواجهة الأيديولوجية وحقيقة خوض صراع جيوسياسي . فقد رأى ومساعدوه ضيق أفق ميزان القوى وما يكتنفه من تشاؤم شديد . فلم يضعوا نصب أعينهم التدرجية في الفعل ، بل الحصيلة النهائية . فأتاح هذا الايمان مرونة تكتيكية رائعة لفريق ريغان .

كتب مؤرخ عن أحد " أحلام " ريغان والتي سمعته يرددها :

[دارت أحد خيالات رونالد ريغان حول رغبته باصطحاب ميخائيل غورباتشوف في جولة في الولايات المتحدة ليرى الزعيم السوفيتي كيف يعيش الأمريكان الاعتياديون . وما أكثر ما تحدث ريغان عن هذا الأمر . فتصور طوافه مع غورباتشوف بمروحية فوق مجمع الطبقة العاملة ، مشاهدين مصنعاً

امتلأ مرآبه بالسيارات ثم مرورهم بالمناطق المجاورة لعمال المصنع القاطنين في بيوت " ذات مروج وفناءات خلفية وربما مع سيارة ثانية أو زورق في الطريق الفرعي ، وليس في الأحياء المكتظة بساكنيها كالأرانب التي رأيتها في موسكو " . وتحط المروحية ويدعو ريغان غورباتشوف لطرق الأبواب وسؤال المقيمين " كيف يرون نظامنا " . ويخبره العمال عن روعة العيش في أمريكا] .

آمن ريغان بضرورة تعجيل اعتراف غورباتشوف أو أي زعيم سوفيتي آخر بخطأ الفلسفة الشيوعية ، وبأن حقبة صلح سوف تحل سراعاً حالما تنقشع المفاهيم السوفيتية الخاطئة عن طبيعة أمريكا الحقيقية . وبهذا المعنى ظلت آراء ريغان بشأن أساس الصراع الأيديولوجي طوباوية أمريكية برغم حماسه الأيديولوجي . واذ اختفت المصالح القومية المتضاربة من قاموسه ، لم يعترف بصراعات بين الأمم عصية على الحل . فحالما يغير الزعماء السوفيت آراءهم الأيديولوجية سيوفر العالم على نفسه مشقة النزاعات التي طبعت الدبلوماسية الكلاسيكية بطابعها . ولم يؤمن بوجود مراحل وسطى بين الصراع السرمدي والصلح الأبدي .

مهما بلغت درجة " ليبرالية " آراء ريغان وتفاؤلها وتعلقها بالنتيجة النهائية ، رنا الى هدفه بالمجابهة العنيفة . لقد كان رأيه عدم اقتضاء انهاء الحرب الباردة تهيئة جو " مريح " أو اصدار التلميحات وحيدة الجانب الأثيرة لدى مريدي المفاوضات الدائمية . فأمسى ريغان الذي استعرض المفاهيم الأمريكية في اعتبار المجابهة والصلح مراحل سياسية متتالية ، أول رئيس لما بعد الحرب الباردة يهجم أيديولوجياً وجيواستراتيجياً في آن .

لم يضطر الاتحاد السوفيتي الى التعامل مع هذه الظاهرة منذ عهد (جون فوستر دولس) – وما كان دولس رئيساً و لم يحاول حتى تنفيذ سياسته " الليبرالية " بجدية . بخلاف ذلك وفى ريغان وأتباعه بمهامهم بالحرف الواحد . فقد سعوا منذ لحظة تقلد ريغان السلطة لهدفين في آن : مقاومة الضغط السوفيتي الجيوسياسي حتى يتحجم التوسع ثم يعكس اتجاهه لأول مرة ، ومباشرة برنامج اعادة تسلح لايقاف جهود التفوق الستراتيجي السوفيتي عند حده وتحويلها الى التزامات استراتيجية .

حقوق الانسان كانت الوسيلة الأيديولوجية لقلب الأدوار ، وهي التي استشهد بها ريغان ومستشاروه لنحز النظام السوفيتي والحق أن أسلافه الأخيرين شددوا هم الآخرون على أهمية حقوق الانسان . فذا ما فعل نيكسون بما يتعلق بالهجرة من الاتحاد السوفيتي . وحقق فورد أطول قفزة (بالسلة الثالثة) لاتفاقيات هلنسكي (راجع الفصل ٢٩) . وها هو كارتر جعل حقوق الانسان قلب سياسته الخارجية ودافع عنها بقوة حتى لدى ما يتعلق بحلفائه بحيث هددت دعوته للانصاف أسس التلاحم الداخلي أحياناً . وما فعله ريغان ومستشاروه ، انطلاقهم خطوة أبعد مستخدمين حقوق الانسان أداة لتهشيم الشيوعية واطلاق رياح الديمقراطية على الاتحاد السوفيتي ، ومن ثم تهيئة عالم ناعم بالسلام – مثلما ألمح ريغان في ٢٥ كانون الثاني ١٩٨٤ : " لن تقدح الحكومات المعتمدة على موافقة المحكومين شرارة حرب ضد جيرانها " . ودعا في وستمنستر عام ١٩٨٢ الدول الحرة عشية استحسانه انتشار الديمقراطية في رحاب المعمورة :

[... الى العناية بالبنية التحتية للديمقراطية ونظام الصحافة الحرة والجمعيات والأحزاب السياسية والجامعات التي تتيح للشعب اختيار طريقه الخاص وتطوير ثقافته ، كما ودعاها الى تسوية نزاعاتها سلمياً] .

كانت الدعوة لرعاية الديمقراطية في الداخل فكرة ولسونية : " اذا شيء لباقي أرجاء هذا البلد أن يشهد انتشاراً تدريجياً للحرية والمثل الديمقراطية فحري بنا أن نعزز مسيرة الديمقراطية " .

التزم ريغان بالولسونية حقاً حتى آخر المشوار . فليس بوسع أميركا الوقوف ساكنة ريثما تنشأ المؤسسات الحرة أو الاكتفاء بمقاومة التهديدات المباشرة لامنها . بل عليها سقي شجرة الديمقراطية ومكافأة البلدان الملتزمة بمثلها ومعاقبة المقصرة في ذلك – حتى ان لم تشكل تحدياً منظوراً آخر لأمريكا . هكذا قلب فريق ريغان مطالب البلاشفة الباكرة رأساً على عقب : فالقيم الديمقراطية وليست قيم البيان الشيوعي ستغدو موجة المستقبل . فيما واصل فريق ريغان مساعيه : اذ ضغط على كل من نظام (بينوشت) المحافظ في تشيلي ونظام (ماركوس) الاستبدادي في الفلبين لاصلاحهما : فاستجاب أولهما الى استفتاء للشعب واجراء انتخابات حرة أفضت الى تبديله ، بينما أطيح بالثاني بمعونة أميركية .

فجرت حملة الديمقراطيات في الوقت عينه أسئلة عميقة الصلة بفترة ما بعد الحرب الباردة . ما لسبيل للتوفيق بين هذه الحملة ومبدأ أمريكا طويل العهد المتعلق بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى ؟ ولأي مدى يفترض أن تخضع لها الأهداف الأخرى كالأمن القومي ؟ وكم ترغب أمريكا بدفعه ثمناً

لتعزيز قيمها ؟ وأنى يمكن تحاشي كل من فرط الامتداد والتخلي عنه ؟ تحتم على عالم ما بعد الحرب الباردة الذي جعل سني حكم ريغان الأولى تشبه تاريخاً بعيداً أن يجيب على هذه الأسئلة ٠

مع ذلك لم تقلق هذه المنغصات ريغان يوم تسلم الرئاسة مثلما اهتم بصياغة استراتيجية توقف التوغل السوفيتي المتواصل في السنين السابقة ٠ فانطوى هدف هجومه الجيوستراتيجي على افهام السوفيت بتجاوزهم حدهم ٠ وعليه عبرت استراتيجيته ولما رفض (مبدأ برجنيف) حول استحالة تعديل المكتسبات الشيوعية ، عن الاعتقاد بامكانية دحر الشيوعية وليس احتواءها حسب ٠ فقد أبطل ريغان (تعديل كلارك) الذي حظر المساعدة الأمريكية للقوى المناوئة للشيوعية في أنغولا ، وعزز الدعم للعصابات الأفغانية المعادية للسوفيت ، كما وضع برنامجا واسعاً لمكافحة العصابات الشيوعية في أمريكا الوسطى ، ومد يد العون الانساني الى كمبوديا ٠ انه لصنيع أحدث تأثيراً طيباً في التلاحم الأمريكي بحيث لم تكد تنقضي أكثر من خمس سنوات على الفشل في الصين الهندية ، حتى التقط الرئيس العزوم القفاز بوجه التوسع السوفيتي في العالم ، والنجاح كان حليفه هذه المرة ٠

أعيدت جل المكتسبات السوفيتية في السبعينات لأصحابها - ولو أن بعضاً منها لم يسترجع حتى قدوم جورج بوش ٠ فنهاية الاحتلال الفيتنامي لكمبوديا حلت عام ١٩٩٠ ، وأجريت الانتخابات عام ١٩٩٣ وأستعد اللاجئون للعودة لديارهم ، وتلك القوات الكوبية انسحبت من أنغولا بحلول عام ١٩٩١ : وذي الحكومات الأثيوبية المدعومة من الشيوعيين سقطت عام ١٩٩١ ، كما اضطر

(الساندينستيون) في نيكاراغوا لقبول الانتخابات الحرة عام ١٩٩٠ ، الخطر الذي لم تستعد حكومة شيوعية سابقاً لمجابهته ٠ ورب أهم كل هذه الأحداث انسحاب الجيوش السوفيتية من أفغانستان عام ١٩٨٩ ٠ فطبعت كل هذه التطورات تأثيرها السلبي على الحماسة الأيديولوجية الشيوعية والعقيدة الجيوسياسية ٠ عندئذ تطلع المصلحون السوفيت وهم يلاحظون مغامرات برجنيف المكلفة والعقيمة بما يسمى العالم الثالث ، على دليل افلاس النظام الشيوعي الذي لمسوا حاجته الماسة لتعديل أسلوبه غير الديمقراطي في صنع القرار ٠

لقد أحرزت ادارة ريغان هذه النجاحات بفضل تطبيق ما عرف بـ (مبدأ ريغان) القاضي بمساعدة التمرد ضد الشيوعية لاخراج البلدان الشيوعية من طوق النفوذ السوفيتي ٠ فأقتضى هذا تسليح المجاهدين الأفغان في صراعهم مع الروس ، واسناد العصاة في نيكاراغوا ، مع دعم القوى المعادية للشيوعية في أثيوبيا وأنغولا ٠ فان حرض السوفيت في الستينات والسبعينيات على التمرد الشيوعي ضد حكومات البلدان الصديقة لأمريكا ، نزعت أمريكا الآن الى تجريع السوفيت نفس الكأس ٠ وذلك ما أوضحه (جورج شولتز) وزير خارجية أمريكا في كلمة له بشباط ١٩٨٥ في (سان فرانسسكو) :

[لسنين طويلة شهدنا خصومنا يتصرفون دونما قيد على تحريضهم التمرد في العالم لنشر الدكتاتوريات الشيوعية ... واعتبر أي نصر مستحيل التغيير ... أما اليوم فأخذت الامبراطورية السوفيتية على أية حال تئن من مشاكلها الداخلية وتورطاتها الخارجية ... وتلك قوى الديمقراطية في أنحاء العالم

تدين لنا بوقوفنا معها . فلو تخلينا عنها لكان ذلك خيانة مخزية – خيانة ليس للرجال والنساء الأشراف حسب ، بل ولمثلنا السامية أيضاً] .

امتزجت اللهجة الولسونية لدعم الحرية والديمقراطية عالمياً بواقعية ماكيافيلية تقريباً . فأمريكا لم تذهب " بحثاً عن الشياطين لرجمها " كما قال (جون كونيس آدمز) ، بل تطلعت أستراتيجية ريغان لمساعدة عدو عدوها – الأمر الذي استحسنه ريشليو بكل لهفة . فقدمت ادارة ريغان المعونة ليس فقط للديمقراطيين الحقيقيين (كما في بولندا) بل وللأصوليين الاسلاميين في أفغانستان (بالتعاون مع ايران) ، والى اليمينيين في أمريكا الوسطى ، وكذلك الى زعماء الحرب القبليين في أفريقيا . فما كان يجمع بين أمريكا والمجاهدين شيء أكثر مما جمع بين ريشليو وسلطان الامبراطورية العثمانية . ولكنهما تقاسما عدواً مشتركاً وذلك ما جعلهما حلفاء في عالم المصالح القومية . فعجلت النتائج بانهيار الشيوعية بيد أنها تركت أمريكا وجهاً لوجه مع السؤال المحرج الذي تفادته خلال جل تاريخها ، وهو مأزق الساسة الرئيسي : أية غايات تبرر أية وسائل ؟

ثبت أن جوهر تحدي ريغان للاتحاد السوفيتي هو بناؤه العسكري . فقد رفع عبقريته في جميع حملاته الانتخابية من قصور الدفاع محذراً من التفوق السوفيتي الوشيك . ونعلم اليوم أن هذه المخاوف عكست تمادياً في تبسيط التفوق العسكري في العصر النووي . ولكن مهما كانت دقة فهم ريغان للتهديد العسكري السوفيتي ، سعى الى حشد جماهيره المحافظة أكثر مما حشد تلويح نيكسون بالاخطار الجيوسياسية .

جرى الاعتقاد التقليدي للنقد الراديكالي للسياسة الأمريكية في الحرب الباردة وقبل ادارة ريغان على عقم البناء العسكري بسبب مواكبة السوفيت دوماً لبناء أمريكا بأي مستوى كان . ثم تبين ان هذا الافتراض لأكثر خطأ من الاعتقاد بوشوك التفوق السوفيتي . اذ أنعش حجم وسرعة البناء الأمريكي في زمن ريغان جميع الشكوك القائمة في أذهان القيادة السوفيتية نظراً للفشل في أفغانستان وأفريقيا ، حول استطاعتها تحمل سباق التسلح اقتصادياً ، والأهم قدرتها على تحمله تكنولوجياً .

أعاد ريغان العمل بمنظمات الأسلحة التي حرمتها ادارة كارتر مثل قاذفة القنابل (بي – ١) ، واستهل نشر صواريخ (أم اكس) وهو أول صاروخ أمريكي عابر القارات بري القاعدة في هذا العقد . وكان أعظم قرارين استراتيجيين اسهما في انهاء الحرب الباردة ، نشر الناتو لصواريخ أمريكية متوسطة المدى في أوروبا وتبني أمريكا مبادرة الدفاع الاستراتيجي .

هدف قرار حلف الناتو نشر الصواريخ متوسطة المدى (١٥٠٠ ميل) في أوروبا ، الذي أرخ في عهد ادارة كارتر ، تلطيف غيظ المستشار الألماني الغربي (هلموت شميدت) من الغاء أمريكا من جانب واحد للقنبلة النيوترونية ، الهادف لتقليل القوة التدميرية للحرب النووية – الذي دعمه شميدت ضد معارضة حزبه الديمقراطي الاشتراكي . على أن الهدف الحقيقي لنشر الصواريخ متوسطة المدى (المكونة من صواريخ بالستية وصواريخ كروز برية القاعدة) معالجة مشكلة أخرى – مقابلة العدد الكبير للصواريخ السوفيتية (أس أس ٢٠) التي تصل جميع أهدافها في أوروبا من عمق الأراضي السوفيتية .

كان أساس الجدل لصالح الصواريخ متوسطة المدى سياسياً لاستراتيجيا ، ونابعاً من نفس المخاوف التي أثارت محادلات الحلفاء حول الاستراتيجية المناسبة قبل عشرين عاماً . وهذه المرة على أية حال شاءت أمريكا تسكين مخاوف أوروبا . صريح القول ، تعلقت المسألة مرة أخرى باستطاعة أوروبا الغربية الاتكال على استخدام أمريكا أسلحتها النووية لدرء هجوم سوفيتي مقصور على أوروبا أو عدم استطاعتها . فان آمن حلفاء أمريكا في أوروبا حقاً برغبة لجوء أمريكا للانتقام النووي من أرض أمريكا أو من الأسلحة المنصوبة في البحر ، انتفت ضرورة الصواريخ الجديدة في أرض أوروبا . غير أن الشك حام في رؤوس قادة أوروبا حول تصميم أمريكا على فعل ذلك ، اذ ان لقادة أمريكا من جانبهم دواعيهم للاستجابة لمطالب أوروبا ، فهي جزء من استراتيجية دفاعية مرنة لتوفير خيارات بين حرب شاملة مركزة على أمريكا والقبول بالابتزاز النووي السوفيتي .

ثمة تفسير أكثر تعقيداً من انعدام الثقة المتبادل وغير المحسوس بين طرفي شراكة الأطلسي ، الا هو ربط الأسلحة الحديثة العضوي بين الدفاع الاستراتيجي الأوروبي والدفاع الاستراتيجي الأميركي . فيمضي الجدل الى عدم هجوم الاتحاد السوفيتي بقواته التقليدية دون السعي أولاً لتحطيم الصواريخ متوسطة المدى في أوروبا التي نظراً لقربها ، يمكن أن تصيب مراكز القيادة السوفيتية ممهدة السبيل لضربة تدميرية أمريكية أولية بالقوات التقليدية . من ناحية ثانية تحف المخاطر بعملية الانقضاض على الصواريخ الأمريكية متوسطة المدى فيما تبقى قوة أمريكا الانتقامية سليمة . اذ ستتبقى صواريخ متوسطة المدى كافية لالحاق ضرر فادح فتتيح لقوة أمريكا الانتقامية بالظهور لتتحكم بسير الأحداث . هكذا ملأت

الصواريخ متوسطة المدى فجوة في سلسلة الردع . وعليه غدت دفاعات أوروبا ودفاعات أمريكا ، بالمصطلحات الفنية العصرية ، " مزدوجة " : فلن يقدر الاتحاد السوفيتي على مهاجمة أي منهما دون اثارة خطر استعار حرب نووية شاملة .

استجاب " الازدواج " الفني أيضاً الى الخوف المستطير في بقية أرجاء أوروبا من حياد المانيا ، سيما في فرنسا . اذ لاح بعد سقوط شميدت عام ١٩٨٢ ان الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني سيؤوب للوطنية والحياد - الى درجة أن أحد زعمائه (أوسكار لافونتين) حث في انتخابات عام ١٩٨٦ على انسحاب المانيا من قيادة الناتو الموحدة ، وعجت الجمهوورية الاتحادية بمظاهرات ضد نشر الصواريخ .

يوم استشعر برجنيف فرصة لتوهين علاقات المانيا بالناتو ، سعى وخليفته اندروبوف الى جعل حجر الزاوية في السياسة الخارجية معارضة نشر الصواريخ متوسطة المدى . فمع اطلالة عام ١٩٨٣ زار (غروميكو) بون ملوحاً بانسحاب السوفيت من محادثات جنيف للحد من التسلح ساعة وصول صواريخ (بيرشنغ) لألمانيا الغربية ، أنه تهديد لا مناص من الهابه مشاعر المحتجين الألمان . ويوم زار (كول) الكرملين في حزيران ١٩٨٣ ، حذره اندروبوف بأنه لو قبل بصواريخ بيرشنغ :

[سيتعاظم التهديد العسكري ضد المانيا الغربية أضعافاً مضاعفة ، لا مفر من دخول علاقات بلدينا في نفق المعاناة من تعقيدات لا مهرب منها . وسيتحتم على شعبي جمهورية المانيا الاتحادية وجمهورية المانيا الديمقراطية أن ينظر

أحدهما للآخر – حسب وصف صحيفة البرافدا – من خلال صفوف سميكة من الصواريخ] ٠

وأطلقت ماكنة دعاية موسكو حملة لا يحدها حد مسرحها جميع بلدان أوروبا ٠ وحثت تظاهرات حاشدة نظمتها جماعات سلام مختلفة على اعطاء الأولوية لنزع السلاح بدلاً من نشر صواريخ جديدة وتجميد الأسلحة النووية فوراً ٠

ومتى ما شغفت المانيا بالحياد ، وهو ما يعني الوطنية لدى فرنسا ، هرعت الأخيرة لعرض بديل أوروبي أو أطلسي عليها ٠ فدافع ديغول في الستينات بحدة عن رأي المانيا بخصوص برلين ٠ وفي عام ١٩٨٣ برز ميتران على حين غرة مؤيداً أوروبيا رئيسياً للخطة الأمريكية بنشر الصواريخ متوسطة المدى ٠ وجأر بذلك في المانيا نفسها قائلاً للبوندستاغ الألماني : " اننا نعتبر المقامرين بفصل قارة أوروبا عن أمريكا انما يخلخلون ميزان القوى وبذا يعكرون سلام أوروبا " ٠ لقد اتضح لرئيس فرنسا سمو مصلحة فرنسا القومية في تقييم نشر الصواريخ متوسطة المدى في المانيا على أية مودة يكنها زملاؤه الاشتراكيون الفرنسيون لاشقائهم الديمقراطيين الاشتراكيين الألمان ٠

ازاء ذلك ، طلع ريغان بخدعة لدحض الهجوم السوفيتي الدبلوماسي عارضاً رفع الصواريخ الأمريكية متوسطة المدى مقابل رفع الصواريخ السوفيتية (اس ٠ اس ٢٠) ٠ فنسج هذا المقترح شكوكاً أكثر حول " فصل ازدواج " دفاع أوروبا عن دفاع أمريكا مادامت صواريخ (اس ٠ اس ٢٠) حجة لنشر

الصواريخ الأمريكية أكثر من كونها مسبباً لنشرها ٠ ومهما كان الحال ، اذ كانت مجادلات " الازدواج " مقصورة على فئة قليلة ، سهل فهم مقترح ازالة سلسلة كاملة من الأسلحة ٠ ولما بالغ السوفيت في تقدير موقفهم التساومي رافضين مناقشة أي جزء من عرض ريغان ، مهد ما يسمى بخيار الصفر السبيل أمام حكومات أوروبا للانطلاق قدماً في نشر الصواريخ ٠ فعقد لذلك لواء نصر مذهل لريغان وللمستشار الألماني هلموت شميدت الذي ساند الخطة الأمريكية بكل اخلاص ٠ بينما كشف هذا النجاح فقدان القيادة السوفيتية قدرتها على تهدئة مخاوف أوروبا الغربية ٠

عزز مشوار الصواريخ متوسطة المدى سياسة رادعة ، بيد أن ريغان هدد باختراق استراتيجي يوم أعلن في ٢٣ آذار ١٩٨٣ عن تطوير دفاع استراتيجي ضد الصواريخ السوفيتية :

[.... أناشد رجالات العلم في بلدنا الذين صنعوا لنا الأسلحة النووية ، تحويل مواهبهم الفذة لخدمة الجنس البشري والسلام العالمي : أناشدهم بتزويدنا بوسائل ابطال هذه الأسلحة النووية وقبرها] ٠

لا مرية أن تفزع الكلمتان " ابطالها وقبرها " رجال الكرملين ، ذلك أن الترسانة النووية السوفيتية قطب الرحى لكل مكانة الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى ٠ كما ان تحقيق المساواة الاستراتيجية مع الولايات المتحدة كان الهدف الرئيسي للسوفيت طيلة عشرين عاماً من حكم برجنيف ٠ وها هو ريغان ينزع بحركة تكنولوجية يتيمة الى هدم كل ما أفلس السوفيت أنفسهم من أجل اتمامه ٠

ان دنا ادعاء ريغان الدفاعي الكامل الى التحقق ، لغدا التفوق الاستراتيجي حقيقة لا ريب فيها . اذ ستنجح الضربة الأمريكية الأولى بفضل قدرة المنظومة الدفاعية على احتواء قوة الصواريخ السوفيتية المتبقية الصغيرة والمبعثرة نسبياً . لقد نبهت مبادرة الدفاع الاستراتيجي الريغانية في الأقل ، الزعماء السوفيت أن سباق التسلح الذي استهلوه في الستينيات بلا هوادة سيستهلك مصادرهم أو يخلق احتراقاً استراتيجياً أمريكياً .

أصاب مقترح مبادرة الدفاع الاستراتيجي وتراً حساساً في الجدل حول السياسة الدفاعية فكان من السخف قبل العصر النووي اسناد دفاع بلد ما على انكشافية شعبه . ثم تطلس الجدل الاستراتيجي بطيلسان غريب سببه الجزئي اشتراك مجموعة جديدة باكملها فيه . لقد نوقشت الاستراتيجية العسكرية قبل العصر النووي في صفوف الأركان العامة أو كليات الأركان العسكرية بحضور بعض محبي الاستطلاع فقط مثل (ب . ليدل هارت) . ولذللك قلصت الطاقة التدميرية الهائلة للأسلحة النووية دور الخبراء العسكريين التقليديين ، فقد أمسى بوسع أي فرد يلم بالتكنولوجيا الحديثة أن يخوض مع الخائضين الذين كان جلهم علماءً انضم اليهم ثلة قليلة من الأكاديميين .

أقنع أكثر الخبراء الفنيين أنفسهم ، ازاء فزعهم من القوة التدميرية التي أشعلوا فتيلها ، بافتقار الساسة للشعور بادنى مسؤولية لدرجة أنهم لو أدركوا أقل سانحة لتحمل أهوال حرب نووية ، فربما يغتروا فيشعلوا فتيلها . وعليه بات واجب العلماء الأخلاقي تبني استراتيجيات كارثية ترعب حتى أشد صناع السياسة

طيشاً ورعونة . وموضع سخرية هنا ان من اعتبروا أنفسهم بحق أكثر المعنيين بمستقبل الحضارة ، قد انتهوا مؤيدين لاستراتيجية عسكرية رامية لافناء المدنية .

لم يتشرب علماء الدفاع بهذا الرأي الا خطوة خطوة . ففي أول عقود العصر النووي ظل عديد منهم يلح على الدفاع ضد تهديد جوي سوفيتي لم تنبت قرونه بعد . واذ أنكب العلماء على الحيلولة دون حرب نووية ، لا جرم أن يقر في بالهم فائدة تحويل المصادر من الأسلحة الهجومية وبذا يقلصون دوافع شن هجوم وقائي أمريكي . أما وبرزت للوجود قدرة سوفيتية نووية دائمة النموذات طاقة كفيلة بسحق الولايات المتحدة، تغير موقف العلماء المستشارون على نحو لا يخلو من مفارقة . فقد مالت غالبيتهم مذ حينها الى (مبدأ التدمير المتبادل الأكيد) القائم على افتراض احفال كلا الطرفين من الشروع بحرب نووية بسبب العدد المروع المحتمل من الضحايا المدنيين جراءها .

هكذا أفصحت نظرية التدمير المتبادل الأكيد عن افتراق شاسع عن الأساس المنطقي للنظرية الاستراتيجية ، باسناد الدفاع الى التهديد بالانتحار . فهو على الصعيد العملي يمنح فائدة دسمة معنوية خصوصاً للطرف القادر على تسليط تحديات لا يستطيع خصمه منها فكاكاً الا بحرب نووية شاملة . كان هذا الطرف في الستينيات والسبعينيات الاتحاد السوفيتي المتمتع بقوات تقليدية اعتبرت عموماً أفضل مما بجعبة الغرب . بيد أن هذه الاستراتيجية في الوقت نفسه حتمت تدمير الحرب النووية للحضارة نفسها . وهكذا وجدت مبادرة الدفاع الاستراتيجي انصارها بين الساعين لتجنب خيار لا يطاق بين الاستسلام أو خوض المعركة الفاصلة .

تمسك غالبية مفكري الدفاع والاعلام بالحكمة السائدة عموماً المناهضة لمبادرة الدفاع الاستراتيجي . فوضع (هارولد براون) ، وزير الدفاع في ادارة كارتر ، وأمين سر القوة الجوية في ادارة جونسون ، أمثل خلاصة للتحفظات المختلفة بهذا الشأن في كتاب له . آثر براون جهداً بحثياً ، مجادلاً في ذات الوقت أن تلك المبادرة غير عملية . اذ اتخذ (ريتشارد بتس) أحد المشاركين في الجدل موقف قدرة السوفيت على أي مستوى كان من النشر على اتمام منظومتهم الدفاعية وبكلفة أوطأ من كلفة النشر الأمريكي . فيما انبرى البروفسور (جورج ليسكا) في الاتجاه المعارض مفترضاً احتمال نفع مبادرة الدفاع الاستراتيجي مع تلاشي وازع أميركا للذود عن حلفائها الأوروبيين حالما تنال كفايتها من الحماية . وأسهم (روبرت أوكسفورد) في الانتقاد ببث خوفه من ابطال معاهدة (أي . بي . أم) لعام ١٩٧٢ وعرقلة جهود الحد من التسلح . كما تصدى (جوفري هاو) وزير خارجية بريطانيا ، ممثلاً لرأي كثير من الحفاء الغربيين ، ليحذر من محاولة اقامة " خط ماجينو جوي " :

[قد يجر ذلك الى سنين عديدة من نشر الأسلحة . وليس من أهدافنا اشاعة اللااستقرار وانعدام الأمان سنين طويلة . فلا بد أن يقف كل الحلفاء على مستوى واحد يتقاسمون به الشعور بأن أمن الناتو كل لا يتجزء . والا فليشرع طرفا حلف الأطلسي بالافتراق] .

لهو مفهوم غريب ومربك على المدى الطويل أن يغدو ثمن الحفاظ على عرى حلف تجريد مدنيي كلا الحلفين من الحماية تماماً . ومليء بالمغالطات

أيضاً ، لأن المؤكد أن رغبة أمريكا في المخاطرة بحرب نووية نيابة عن حلفائها الأوروبيين ستزيد قدرتها على حماية سكانها المدنيين بطريقة مباشرة تقريباً .

عد الخبراء جميع الحجج الفنية لصالحهم ، بيد أن ريغان تمسك بحقيقة سياسية أساسية : في عالم الأسلحة النووية ، ان نكص القادة عن بذل جهود لحماية شعوبهم من الحوادث والأعداء المجانين والانتشار النووي وكذلك من أخطار لا عد لها ولا حصر ، فانما يجلبون العار على الاجيال لو وقعت الواقعة – أما استحالةذلك في بداية برنامج الأبحاث المعقد لابراز مدى فاعلية المبادرة الأعظم فهي متأصلة في تعقيد المسألة ، فليس ثمة سلاح سار في طريق التطور لو أريد به الوفاء بمثل هذا المعيار التام .

لقد تجاهل الجدل الوجيه – بامكانية هزيمة أي دفاع عن طريق الاشباع – حقيقة أن الاشباع لا يسير بخط مستقيم . فمبادرة ريغان يمكن أن تنفع حسب وصف ريغان لحد معين ، وبعده ستنحدر فاعليتها تدريجياً . فان كان ثمن شن هجوم نووي باهظاً فسيتعاظم الردع سيما لعدم معرفة المهاجم أي رؤوس يمكنها الوصول للخصم أو لأية أهداف يجب توجيهها . أخيراً سيكون الدفاع القادر على امتصاص عدد كبير من الصواريخ الروسية أكثر فاعلية ضد الهجمات الأصغر بكثير القادمة من بلدان نووية جديدة .

لم يعبء ريغان بالنقد الفني لعدم صياغة مبادرته وفقاً للمعايير الاستراتيجية في المقام الأول . الا أنه قدمها باسم القضية " الليبرالية " بغية اسدال الستار على الحروب النووية . وها هو أشد رؤساء ما بعد الحرب انغماساً في بناء القوة

العسكرية بما فيها القدرات النووية قد تطلع في الوقت عينه الى عالم نظيف من جميع الأسلحة النووية . فلم تختلف مقولته التي طالما لهج بها : " محال جني ثمار الحرب النووية أو خوض غمارها " ، عن الأهداف المعلنة لمنتقديه الراديكاليين . ومع ذلك كان في غاية الجد وهو يتعامل بازدواجية مع الاتحاد السوفيتي بشأن بنائه العسكري وكذلك جنوحه للتهدئة والسلم . فقد سطر في مذكراته موقفه تجاه الأسلحة النووية :

[ما من أحد بوسعه كسب حرب نووية . مع هذا ما دامت الأسلحة النووية موجودة ، تبرز مخاطر احتمالات استخدامها ، ومتى ما أطلق أول سلاح نووي ، من ذا يعلم موعد انتهائها ؟] .

وتفاقم وقت ريغان للحرب النووية بفعل ايمانه الحرفي بنبوءة التوراة عن المعركة الفاصلة ، بين قوى الخير والشر . فقد تناهى لسمعي أفضاؤه بآرائه بسطور قريبة التطابق مع ما وصفه مترجم حياته :

[تكلم كما لو كان يسرد مشهداً سينمائياً ... فروى واقعة مرعبة في قصة المعركة الفاصلة بين قوى الخير والشر حيث يتحطم جيش غاز قوي قادم من الشرق قوامه ٢٠٠ مليون شخص بسبب الطاعون . يؤمن ريغان بأن هذا " الطاعون " نبوءة عن حرب نووية حيث " تحترق العيون من الرأس ويسقط الشعر من الجسد وهكذا دواليك " ، وهو يؤمن بأن هذا تكهن دقيق بنكبة هيروشيما] .

ليس من أحد في حركة السلام استنكر استخدام الأسلحة النووية بذرابة لسان أكثر من ريغان . ففي ١٦ مارس ١٩٨٣ زاوج بين اعلانه نشر صواريخ (أم أكس) عابرة القارات والاعراب عن أمله الطاغي بعكس العملية في يوم ما وابطال جميع الأسلحة النووية :

[ما أنا مصدقاً بامكانية استمرار بقاء هذا العالم بعد مضي جيلنا ليستمر مع الأجيال الآتية وهذا النوع من الأسلحة لدى كلا الطرفين مصوب ضد الآخر دون أن يحل يوم يشعل به أحمق أو مسعور أو حتى حادث ما ، فتيل حرب تكتب النهاية لكلينا] .

ويوم طلع ريغان بمبادرته على الملأ ، عرضها بلغة متعاطفة مثلما هي بعيدة عن الرأي القويم حتى بعد أن مرت خلال ثقوب " عملية الغربلة " البيروقراطية التي تخضع لها جميع الرؤساء . فستلجأ أمريكا لو طالت مفاوضات الحد من التسلح كثيراً الى أنهاء الخطر النووي من جانب واحد ببناء مبادرة الدفاع الاستراتيجي ذلك لايمان ريغان بقدرة علماء أمريكا على تجاوز الأسلحة النووية لتغدو شيئاً أكل الدهر عليه وشرب .

لم يتأثر القادة السوفيت بمناشدات ريغان الأخلاقية ، ولكنهم اضطروا للتعامل الجاد مع امكانات أمريكا التكنولوجية والانجاز الاستراتيجي لدفاع غير كامل . فكان رد فعلهم معاكساً لما توقعه مريدو الحد من التسلح ، وهو عين تصرفهم حيال مقترحات نيكسون المتعلقة بـ (اي . بي . أم) قبل ١٤ عاماً ، فأدت مبادرة الدفاع الاستراتيجي الى فتح الأبواب أمام الحد من التسلح . وعاد

السوفيت الى مفاوضات الحد من التسلح التي قطعوها بغتة يوم تعلقت بقضية الصواريخ متوسطة المدى ٠

زعم النقاد أن ريغان كان ساخراً وان دعايته الكاسحة عن محو جميع الأسلحة النووية كانت ستاراً لجهوده للفوز بسباق التسلح ٠ على أية حال يمكن ان يتسم ريغان بأي شيء عدا كونه ساخراً ، فقد انطق الايمان المتفائل المحتدم في صدور جميع الأمريكا بأن ما هو ضروري قابل للتحقيق ٠ وحقيقة القول ان ابلغ بياناته حول ابطال الأسلحة النووية قد قالها بارتجال ٠

هكذا بانت مفارقة ريغان ، فالرئيس الذي لم يأل جهداً في تحديث ترسانة أمريكا الاستراتيجية ، ساهم أيضاً بحماس في ابطالها ٠ فلم يستطع خصومه أو حلفاؤه الذين اتبعوا حرفياً ما يقوله علناً عن الأسلحة النووية وسراً عن اقتراب المعركة الفاصلة غير استنتاج أنهم يتعاملون مع رئيس من المستبعد للغاية أن يلجأ لنفس الأسلحة التي تدجج بها الدفاع الأمريكي ٠

كم مرة استطاع رئيس أن يكرر لازمته " حرام خوض حرب نووية " قبل أن تتلاشى جدية التهديد النووي ؟ وما عدد التخفيضات على الأسلحة النووية الممكن اجراؤها قبل التحقق من عدم الجدوى الفنية لاستراتيجية الرد المرن ؟ لقد استبد الضعف بالسوفيت في هذا الوقت لحسن الحظ ، فعجزوا عن التحقق من هذه الاحتمالية بينما أنشده حلفاء أمريكا القلقون بمنظر تهاوي الاتحاد السوفيتي المتسارع ٠

تجلى أن ريغان ليس ساخراً بالمرة أني أعتقد برؤيته فرصة لتنفيذ حلمه بعالم نظيف من الأسلحة النووية ٠ واذ اقتنع بالأهمية الطاغية لالغاء الحرب النووية بحيث يوافقه جميع العقلاء في ذلك ، شمر عن ساعديه للعمل ثنائياً مع السوفيت بشأن اهم القضايا دونما استشارة الحلفاء أصحاب المصالح القومية المتعلقة بهذا الأمر على نفس المستوى ٠ فذا ما حصل بأشد صوره اثارة في قمته مع غورباتشوف لعام ١٩٨٦ في (ريكافيك) ٠ حيث اتفقا مبدئياً أثناء رحلة صاخبة مسلية على طرق كثيرة الارتفاع والانخفاض طيلة ٤٨ ساعة ، على تقليص جميع القوات الاستراتيجية بنسبة ٥٠٪ في خمس سنوات ، وتحطيم جميع الصواريخ البالستية في غضون عشر سنوات ٠ ودنا ريغان من قبول عرض سوفيتي بابطال الأسلحة النووية برمتها ٠

اذن ، حقق لقاء ريكافيك الاتفاق المشترك الذي أوجس خيفة منه الحلفاء والمحايدون على السواء دهراً طويلاً ٠ فلو رفضت باقي القوى النووية احتذاء حذو الاتفاق السوفيتي الأمريكي ، فنصيبها التقريع الجماهيري ، وضغوط القوتين العظميين أو العزلة ، وان وافقت فستجبر الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كلاً من بريطانيا العظمى وفرنسا والصين على التخلي عن ردعها النووي المستقل ، أمر ما كان ميتران أو تاتشر أو قادة الصين مستعدين لتنفيذه لامن قريب ولا من بعيد ٠

ولكن أخفقت صفقة ريكافيك في آخر لحظة لسببين ٠ فقد تمادى غورباتشوف في التصرف ولما يزل في أول مراحل حكمه ٠ ذلك أنه حاول ربط ابطال الأسلحة الاستراتيجية بتحريم تجارب مبادرة الدفاع الاستراتيجي لمدة عشر

سنوات ، بيد أنه أساء الحكم على مكانته التساومية وعلى مفاوضه فأمثل تكتيك كان على غورباتشوف اتباعه ، اقتراح النشر الاعلامي لما تم الاتفاق عليه – أي الغاء القوات الصاروخية – والاشارة لقضية اختبار مبادرة الدفاع الاستراتيجي وفقاً لمفاوضات جنيف للحد من التسلح . فلو حصل هذا لامكن تجميد ما جرى الاتفاق عليه ، والمؤكد أنه سيثير أزمة كبرى لكل من حلف الأطلسي والعلاقات الصينية – الأمريكية ، بيد أن غورباتشوف اذ أصر على المزيد ، قفز للحصول على وعد قدمه ريغان قبل القمة – عدم استخدام مبادرة الدفاع ورقة للمساومة . اما والح غورباتشوف ، تصرف ريغان بطريقة لا يستسيغها أي محترف في السياسة الخارجية : فقد نهض وغادر الغرفة . وبعد مضي سنوات عدة ، سألت مستشاراً كبيراً لغورباتشوف حضر المقابلة عن سبب عدم موافقة السوفيت النهائية على ما قبلته أمريكا ، أجابني : " توقعنا كل شيء ، الا مغادرة ريغان الجلسة " .

وما هي الا برهة حتى القى جورج شولتز كلمة مؤثرة توضح أن نية ريغان لازالة الأسلحة النووية كانت في الواقع لصالح الغرب . على أن لغة هذه الكلمة التي سعت ببراعة الى تأييد " عالم بأسلحة نووية أقل " أوحت بأن نظرة وزارة الخارجية – التي أنبها ضميرها من مخاوف الحلفاء – لم تتطابق بعد مع نية ريغان بابطال الأسلحة النووية .

نفذت ادارة ريغان بعد انتهاء لقاء ريكافيك ، الجزء الممكن تطبيقه على الفور من مقررات ريكافيك : تقليص ٥٠٪ من القوات الاستراتيجية ، وهو ما اعتبر أول مرحلة من اتفاق شامل يحظر جميع الصواريخ . كما تم التوصل لاتفاق على تدمير الصواريخ السوفيتية والأمريكية البالستية متوسطة المدى في أوروبا . هنا

لم تصطخب النزاعات بين الحلفاء التي بدأت قبل ٢٥ سنة نظراً لعدم تأثير هذا الاتفاق على القوات النووية البريطانية والفرنسية . كما بدأت عملية تجريد المانيا من الأسلحة النووية ، وعليه بدأ أيضاً فصلها عن حلف الأطلسي . ما كان لألمانيا أن تستفيد من تجريدها النووي الباكر الا باتباع سياسة تنأى عن استخدام الأسلحة النووية في البدء – أي بخلاف استراتيجية الناتو والانتشار الأمريكي تماماً . ولو استمرت الحرب الباردة ، لآلت سياسة المانيا الاتحادية الخارجية الى اهتمام أقوى لها بشؤونها القومية وأضعف بالحلف ، الشيء الذي يفسر قلق تاتشر من الاتجاه البادي في مفاوضات الحد من التسلح .

لقد حول ريغان ما كان سباق ماراثون الى سباق قصير . ولعل أسلوبه القائم على المواجهة والمشتمل على دبلوماسية اقتحام المخاطر قد نجح أكثر في بدء الحرب الباردة نظراً لترابط المصالح بعد رحيل ستالين : وذي الدبلوماسية التي أشار بها تشرشل يوم عاد للسلطة عام ١٩٥١ . فمتى تم تجميد تقسيم أوروبا وطالما انتعشت الثقة بالاتحاد السوفيتي ، ستفضي محاولة فرض تسوية على الغالب الى تصادم مؤلم واجهاد حلف الأطلسي الذي نفر جل أعضائه من التوتر غير المسوغ . وجاء الركود السوفياتي في الثمانينات ليمهد السبيل أمام استراتيجية هجومية تارة أخرى . ترى ذلك نابع من استشفاف ريغان الانحلال في قوة الارادة السوفيتية ، أم أنه تزامن العناد مع تهيؤ الفرصة ؟

وفي النهاية سيان أكان ريغان يتصرف بوحي فطرته أم بهدي تحليلاته . فقد أسدل الستار على الحرب الباردة في الأقل جزئياً جراء فرض ادارة ريغان ضغوطاً على النظام السوفيتي . فعاد جدول أعمال الشرق – الغرب ، عشية نهاية

رئاسة ريغان الى نمط فترة الانفراج وتصدر الحد من التسلح نقاط مفاوضات الشرق – الغرب برغم التركيز الأشد على تقليص الأسلحة والرغبة الأعمق بابطال منظومات كاملة من الأسلحة . فوقف الاتحاد السوفيتي موقفاً دفاعياً بالنسبة للصراعات الاقليمية ، ولم تعد قوته بذات عون في اختلاق المشاكل . أما وخفتت حدة المخاوف الأمنية ، نشطت النعرات القومية في كلا شقي الأطلسي بالرغم من التظاهر بوحدة الحلفاء . فيما اتكلت أمريكا أكثر على الأسلحة المنصوبة في اقليمها أو في البحر ، بينما ضاعفت أوروبا خياراتها السياسية تجاه الشرق ، الى أن تهاوت حصون الشيوعية لتسطر نهاية تلك النوازع السلبية في خاتمة المطاف .

بيد أن أفظع تغيير كان نصيب طريقة عرض سياسة الشرق – الغرب على الجمهور الأمريكي . اذ أفلح ريغان بفطرته في تغليف سياساته الجيوستراتيجية القاسية المتعلقة بالحرب الباردة بحملة أيديولوجية وادعاء طوباوي بالسلام ، بحيث ناغم أهواء أكبر كتلتين في الفكر الأمريكي حول الشؤون الدولية – الرسالية والانعزالية واللاهوتية والمعنوية .

وهكذا اقترب ريغان على الصعيدالعملي من الانماط الكلاسيكية للتفكير الأمريكي أكثر من نيكسون فما كان لنيكسون أن يتفوه بعبارة " امبراطورية الشر " لوصف الاتحاد السوفيتي ، بيد أنه لن يعرض التخلص من جميع الأسلحة النووية ، ولا يتوقع أحد أنه سينهي الحرب الباردة بمجرد مصالحة شخصية كبرى واحدة مع الزعماء السوفيت في قمة واحدة . فقد حظي ريغان بحماية أيديولوجية متى أطلق تصريحات شبه سلمية كان لها أن تحط قدر أي رئيس ليبرالي . كما أعانه التزامه بتحسين علاقات الشرق – الغرب سيما أثناء ولايته الثانية ، اضافة الى

صدى نجاحاته على التخفيف من أثر خطاباته الداعية للحرب . ولو بقي الاتحاد السوفيتي منافساً كبيراً فالشك حائم حول قدرة ريغان على مواصلة هذا الشد لأجل غير مسمى . الا أن ولايته الثانية تصادفت مع بدء انفصام عرى النظام الشيوعي – تلك العملية التي عجلتها سياسات ادارة ريغان .

لقد نهض ميخائيل غورباتشوف ، سابع زعيم بعد لينين ، في بلد تمتع بقوة وهيبة لا سابق لهما ، ومع ذلك أريد له أن يشرف على سقوط الامبراطورية المشيدة بانهار الدماء وثروات قارون . وحين تسلم زمام السلطة عام ١٩٨٥ ، فانما أضحى زعيماً لقوة نووية عظمى ما لبثت أن وقعت فريسة للتفسخ الاقتصادي والانحلال الاجتماعي . وساعة أطيح به عام ١٩٩١ دان الجيش السوفيتي بولائه لبوريس يلتسين ، غريم غورباتشوف ، والغيت شرعية الحزب الشيوعي ، بينما تفككت الامبراطورية التي تم لم شتاتها بالقسوة الدامية التي اتبعها كل الحكام الروس بدءاً ببطرس الأكبر .

هذا الانهيار ، كان سيغدو من الأشياء الخيالية في آذار ١٩٨٥ يوم صار غورباتشوف سكرتيراً عاماً . فقد أشاع غوورباتشوف كلاً من الخوف والأمل ، وهو ما حصل مع كل سابقيه . الخوف لتزعمه قوة عظمى مشؤومة بسبب طبيعة عمل حكومتها الملغز ، والأمل بافتتاح الدرب الذي طال انتظاره نحو السلام . ولذلك خضع كل ما نطق به غووورباتشوف للتحليل بحثاً عن الماعة لتخفيف التوتر ، وكانت الديمقراطيات حسنة الاستعداد لتتوسم في غورباتشوف فجر عهد جديد ، تماماً مثلما كانت عليه بشأن جميع أسلافه بعد ستالين .

بدا لوهلة أن ايمان الديمقراطيات لم يترك حيزاً للتفكير التأملي . اذ كان غورباتشوف ابن جيل تختلف عن القادة السوفيت الذين سحق ستالين ذواتهم . فقد تنزه عن بربرية جميع الخريجين السابقين لدورات حفظ الأسماء . وضارع هذا الذكي الدمث ، الشخصيات التجريدية للروايات الروسية في القرن التاسع عشر - متحرر الفكر ريفي النشأة في آن ، وذكي لكنه عديم التركيز ، وقبولاً للآراء الأخرى غير أنه ينسى الورطة الأساسية .

لذلك أطلق العالم الخارجي تنهيدة أشفاق كادت تدرك الآفاق . فها هي في الأقل اللحظة التي طال انتظارها والمحيرة حتى الآن تماماً في مشوار التحول الأيديولوجي السوفيتي . فحتى عام ١٩٩١ ، اعتبر غورباتشوف في واشنطن شريكاً لا غنى عنه في بناء نظام عالمي جديد - الى حد اختيار الرئيس بوش البرلمان الأوكراني مسرحاً غير متوقع لمحفل يثنى فيه على سجايا الزعيم السوفيتي ودوره في المحافظة على لحمة الاتحاد السوفيتي . كما بات الابقاء على غورباتشوف في منصبه هدفاً رئيسياً لصناع السياسة الغربية الذين اقتنعوا بصعوبة التعامل مع أي شخص آخر . وفي غضون الانقلاب الغريب المناويء لغورباتشوف ظاهرياً (في آب ١٩٩١) ، اصطف قاة الديمقراطيات لجانب " الشرعية " في تأييد الدستور الشيوعي الذي أوصل غورباتشوف للسلطة .

الا أن السياسة العليا لا تعذر ضعيفاً حتى ان لم تكن الضحية سبب المشكلة . فقد كان غورباتشوف في قمة حيرته حين تلبس بمظهر الزعيم المصالح ممثلاً للاتحاد السوفيتي العدائي أيديولوجياً والمدجج بالأسلحة النووية . وبدأت مكانته بالانحدار نظراً لكشف سياسته عن ارتباك وليس وجود هدف مرسوم .

وعليه اقنعوه بالاستقالة بعد خمسة أشهر على الانقلاب الشيوعي الفاشل ، وتم استبداله بيلتسين باجراءات " غير شرعية ": مثل التي أثارت غيظ الغرب قبل خمسة شهور . لكن الديمقراطيات ساندت يلتسين هذه المرة محتجة بنفس الحجج تقريباً التي استشهدت بها قبل زمن قصير لصالح غورباتشوف . فسرح غورباتشوف أثر تجاهل العالم الخارجي له الذي طالما احتفى به ، في زوايا النسيان المكتوبة على الساسة المحطمين الذين تطلعوا لأهداف خارج نطاق قدراتهم .

حقاً لقد سطر غورباتشووف احدى أهم الثورات في عهده . فقد حطم الحزب الشيوعي الذي نظم خصيصاً للاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها ، والذي سيطر عملياً على كل مناحي الحياة السوفيتية . بيد أنه خلف بعد رحيله نثار بقايا امبراطورية جرى تجميعها بحد السيف على مر قرون عدة . ثم تحولت تلك البقايا المنظمة على أساس أنها دول مستقلة وما زالت ترتعد من حنين روسيا لامبراطوريتها العتيقة ، الى عناصر جديدة لزعزعة الاستقرار أثر تعرضها للتهديد بوقت واحد من أسيادها السابقين وكذلك من لدن الجماعات العرقية الخارجية المختلفة - وأغلبها روسية - أقامت في أراضيها طيلة قرون من الهيمنة الروسية . على أن غورباتشوف لم يرد أياً من هذه النتائج حتى بأضأل صورها . فقد نوى تحديث البلاد وليس الحرية ، وحاول ربط الحزب الشيوعي بالعالم الخارجي ، غير أنه فتح الباب بدلاً من ذلك أمام انهيار النظام الذي أعده والذي يدين غورباتشوف له بظهوره .

كلا لم يستحق غورباتشوف الاطراء ولا الخزي المتمثل بلوم شعبه اياه على حجم المصيبة التي نزلت أثناء رئاسته ، ونسيان الديمقراطيات له ، والحرج الذي

اعتراه لعجزه عن الاحتفاظ بسلطته . فقد غرس جملة من المشاكل العسيرة وربما العصية على الحل . فيوم ارتقى العرش لاح للعيان حجم الاخفاق الروسي لتوه . اذ شكلت ٤٠ سنة من الحرب الباردة حلفاً ركيكاً من جميع البلدان الصناعية تقريباً ضد الاتحاد السوفيتي . فيما انضم حليفه السابق الصين الى المعسكر المقابل لأسباب عملية . ولم يبق من حلفاء له غير توابعه في أوروبا الشرقية التي شدها اليه تهديد القوة السوفيتية الكامن في مبدأ برجنيف ، وجسدت نزيفاً لمصادر الاتحاد السوفيتي بدلاً منها مورداً ، علاوة على ذلك ، اتضاح التكاليف الباهظة للمغامرات السوفيتية في العالم الثالث وعدم اتيانها بنتيجة حاسمة ، فما أقسى معاناة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان وما أشبهها بما قاسته أمريكا في فيتنام ، والاختلاف الرئيسي أن الاتحاد السوفيتي اشتبك على حدود امبراطوريته مترامية الأطراف وليس في مكان خارجي ناء . ومن أنغولا الى نيكاراغوا ، حولت أمريكا التوسع السوفيتي الى مآزق مكلفة أو فشل مشكوك فيه ، في حين سلط بناء أمريكا الاستراتيجي سيما مبادرة الدفاع الاستراتيجي تحدياً عجز الاقتصاد السوفيتي الراكد المرهق عن البدء بمواجهته . ففي الوقت الذي شن به الغرب ثورة رقائق الحاسوب الخارق ، راقب الزعيم السوفيتي بلاده وهي تنزلق لهاوية التخلف التكنولوجي .

ان غورباتشوف ليستحق العرفان برغم اخفاقه الأخير ، ذلك أنه رغب بالتصدي لمعضلات الاتحاد السوفيتي . فقد برز اعتقاده في البدء بقدرته على اعادة احياء مجتمعه بتطهير الحزب الشيوعي وبادخال بعض عناصر اقتصاديات السوق الى التخطيط المركزي ، وأدرك بوضوح حاجته الى فترة من الاستقرار العالمي لتنفيذ هدفه برغم افتقاره الى صورة عن حجم ما وطد نفسه عليه في الداخل . وبهذا

الصدد لم تختلف استنتاجاته كثيراً عن استنتاجات أسلافه بعد ستالين . فان آمن خروشوف في الخمسينيات أن الاقتصاد السوفيتي سرعان ما سيبز النظام الرأسمالي ، أدرك غورباتشوف في الثمانينات بوجوب مرور وقت طويل على الاتحاد السوفيتي حتى يحقق أي مستوى من الانتاج الصناعي يمكن اعتباره ، ولو بمعيار صغير ، منافساً للعالم الرأسمالي .

كي يكسب غورباتشوف فترة لاسترداد الانفاس باشر باعادة تقييم كبرى للسياسة الخارجية السوفيتية . فتم التنكر للأيديولوجية الماركسية – اللينينية في مؤتمر الحزب السابع والعشرين عام ١٩٨٦ كلها تقريباً . ولقيت الفترات السابقة من التعايش السلمي تبريرها بأنها فترات راحة مؤقتة يعاد فيها ترتيب ميزان القوى فيما استمر الصراع الطبقي . وكان غورباتشوف أول زعيم سوفيتي يشجب الصراع الطبقي بأسره ، ويعلن أن التعايش غاية بحد ذاته . وهو اذ استمر في تأكيد الفروقات الأيديولوجية بين الشرق والغرب ، أصر أنها سوف تزول تحت وطأة الحاجة الى تعاون دولي : أكثر من هذا ، عدم فهمه التعايش كما هو عليه سابقاً – باعتباره فاصلاً قبل المواجهة المحتمة – بل اعتبره جزءاً من علاقة العالم الشيوعي بالرأسمالي ، قائلاً أنه ليس مرحلة ضرورية في السبيل نحو نصر شيوعي نهائي ، بل اسهام في رفاهية البشرية .

سرد غورباتشوف المفهوم الجديد في كتابه " البريسترويكا " الذي يعني " الاصلاح " :

[ان توخينا الدقة ، فالفروقات باقيـــة ، ولكن علينا أن نمتشـق الحسام بسببها ؟ أو ليس الأصح أن نسمو فوق ما يفرقنا ، من أجل مصالح البشـرية ، ومن أجل الحياة على البسيطة ؟ لقد صنعنا خيارنا ، مؤكدين على نظرة سياسية جديدة خلال التصريحات الملزمة والأقوال والأعمال الدقيقة . لقد أخذ التوتر والمواجهة من الشعوب كل مآخذ . وعليه فهي تؤثر السعي لعالم أكثر أمناً وثقة ، عالم يتيح لكل امرء الاحتفاظ بآراءه الفلسفية والسياسية والأيديولوجية ، وكذلك اختيار نمط حياته] .

كان غورباتشوف قد ألمح بهذه الآراء قبل سنتين أثناء مؤتمر صحفي بنهاية أول لقاء قمة مع ريغان عام ١٩٨٥ :

[يتميز الوضع الدولي اليوم بملح جد مهم يتحتم علينا وأميركا أخذه بنظر الاعتبار في سياساتنا الخارجية . ما أعنيه اننا في الوضع الراهن نتحدث ليس عن مجرد مواجهة بين النظامين الاجتماعيين ، بل عن الاختيار بين البقاء والابادة المتبادلة] .

لا جرم أن فرسان الحرب الباردة تجشموا عناءً في ملاحظة ذهاب غورباتشوف أعمق بكثير مما حصل في فترات التعايش السالفة . ففي مطلع عام ١٩٨٧ اجتمعت مع (أناتولي دوبرينين) ، الذي شغل انذاك رئيس القسم الدولي في اللجنة المركزية (ما يوازي مستشار الأمن القومي في البيت الأبيض قليلاً أو كثيراً) ، في مبنى (اللجنة المركزية) الغائر في موسكو . استخف دوبرينين بالحكومة الأفغانية التي كانت تدعمها موسكو ، لحد أنني سألته عما اذا

كان مبدأ برجنيف لا يزال ساري المفعول ، فرد بحدة : " ما الذي يجعلك تحسب حكومة كابل شيوعية ؟ "

وحين أبلغت واشنطن بانطواء هذا التعليق على استعداد سوفيتي للتنكر لدمية الكرملين الأفغانية ، تمثل رد الفعل العام بأن دوبرينين قد طغت عليه رغبته بتهدئة صديق قديم – انها لخلة لم ألحظها في قرابة عشر سنوات لي من التجربة مع النهاية السوفيتية لـ " القناة الخلفية " . مع هذا يجد الشك ما يبرره لعدم ترجمة تغييرات غورباتشوف العقائدية في السياسة الخارجية الى تغييرات سياسية ملحوظة في الحال . لأن القادة السوفيت جرياً على روتينهم وصفوا العقيدة الجديدة بأنها اجراء غايته " تجريد الغرب من صورة عدو " وبالتالي لاضعاف تماسكه . كما أعلن غورباتشوف في تشرين الثاني ١٩٨٧ أن " الفكر الجديد " " قد بدأ يشق طريقه في الشؤون الدولية ، محطماً قوالب العداء للسوفيت ومبدداً سحب الشك حول مبادراتنا وأفعالنا " . غير أن تكتيكات السوفيت في محادثات الحد من التسلح بدت اعادة لتكتيكاتهم في أوائل ولاية نيكسون – بذل كل محاولة لتحطيم المنظومات الدفاعية مع ترك التهديد الهجومي المستتر على وضعه .

تشبه حكومة القوة العظمى سفينة ضخمة تزن مئات الألوف من الأطنان وتدور في انصاف اقطار طولها عشرات الأميال . فحري بقيادتها أن الموازنة بين التأثير الذي يزمعون على العالم الخارجي ، وأخلاقيات بيروقراطياتهم . أجل أن رؤساء الحكومات قد امتلكوا أدوات تعيين اتجاه سياساتهم ، بيد أن البيروقراطيات الحكومية هي التي تتولى ما قد يدور بذهن الرؤساء . ولا يتاح لرؤساء الحكومات تقريباً وقت أو كادر للاشراف على التنفيذ اليومي لتوجيهاتهم في كل المراحل .

ومن السخرية أن هذه الحالة تتفاقم كلما تمددت البيروقراطية وتعقدت . كما أن التغييرات السياسية تحصل بفتور حتى لدى الحكومات الأقل صرامة من النظام السوفيتي .

تعذر مع مرور الزمن تفادي تغيير غورباتشوف العقائدي ، حتى على يد البيروقراطية التي تقولبت خلال قرابة ثلاثين عاماً من تولي غروميكو وزارة الخارجية . ذلك أن " فكر غورباتشوف الجديد " تجاوز كثيراً مدى تقبل السياسة السوفيتية القائمة للحقائق الجديدة ، ذلك أنه أطاح بالأسس الفكرية للسياسة الخارجية السوفيتية كلياً . فاذ أبدل غورباتشوف مفهوم الصراع الطبقي بالفكرة الولسونية للاتكال الدولي المتبادل ، فانما جنح لتعريف عالم ذي مصالح متوائمة ناعم بالانسجام الكامن – وهو قلب تام للعقيدة اللينية والماركسية التاريخية القائمتين .

لم تقتصر بلوى الانهيار الأيديولوجي على تجريد سياسة الاتحاد السوفيتي الخارجية من عقيدتها وأساسها المنطقي ، بل وفاقمت الحرج المتأصل في وضع الاتحاد السوفيتي . ففي منتصف الثمانينات واجه صناع السياسة السوفيت قائمة معضلات ما أصعب تذليل أي واحدة منها بل انها استعصت على الحل أثر تراكمها ، وهي : العلاقات مع الديمقراطيات الغربية ، العلاقات مع الصين ، التوترات في الفلك التابع ، سباق التسلح ، وركود النظام الداخلي الاقتصادي والسياسي .

لم تختلف تحركات غورباتشوف الباكرة عن النمط السوفيتي بعد موت ستالين – السعي الى تخفيف التوترات بتلطيف الأجواء ، أو في الأقل بما كان في الماضي ملطفاً للجو بصورة طيبة . ففي ٩ أيلول ١٩٨٥ نشرت مجلة (التايمز) مقابلة مع غورباتشوف طرح فيها فكرته عن التعايش السلمي :

[سألتموني عن أهم ما يسم العلاقات السوفيتية – الأمريكية ، أرى أن الحقيقة الثابتة هي عجزنا عن البقاء أو الفناء الا سوية سواء هوى أحدنا الآخر أم مقته . فالسؤال الجوهري الواجب اجابتنا عليه هو هل نحن مستعدون في الأقل للاعتراف بانعدام سبيل آخر للعيش سلمياً سوية ، وهل أننا متأهبون لتحويل اذهاننا وأسلوب تعرضنا من الأسلوب شبه الحربي الى الأسلوب السلمي] .

تمثلت معضلة غورباتشوف من ناحية في النظر الى بياناته من خلال منظار أقوال (مالينكوف) وخروشوف قبل ثلاثين سنة خلت ، ومن ناحية أخرى في كونها مشتتة وغير مشجعة على استجابة محددة . فوجد غورباتشوف نفسه ، بسبب انعدام مقترح لتسوية سياسية ، أسير مفاهيم عقدين من الزمن طبعا دبلوماسية الشرق – الغرب بطابع الحد من التسلح .

فقد بات الحد من التسلح موضوعاً عويصاً يتضمن نقاطاً غامضة تستغرق سنوات لحلها حتى عند صفاء النيات ، بيد أن ما احتاج الاتحاد السوفيتي اليه راحة فورية ليس من التوترات حسب ، بل ومن الضغوط الاقتصادية سيما سباق التسلح وقد تلاشى الأمل في تحقيق ذلك باجراءات جادة لارساء مستويات القوة المتفق

عليها والتشبه بالأنظمة الفائقة والتفاوض حـــول اجراءات تحقق مليئة بالثغرات ، ستسلخ بضعة أعوام لتنفيذها . فقد أمست مفاوضات الحد من التسلح بهذا الأسلوب وسيلة لتسليط الضغط على النظام السوفيتي المترنح - مع تفاقم تأثيرها لأنها غير معدة لذلك الغرض .

سنحت آخر فرص غورباتشوف لانهاء سباق التسلح أو في أقل تقدير زيادة الضغوط على الحلف في ريكافيك عام ١٩٨٦ غير أنه ارتبك بين صقوره وحمائمه مثلما حصل مع خروشوف في برلين قبل ربع قرن . فلعله أدرك ضعف موقف أمريكا التفاوضي ، ومن المؤكد تقريباً أنه فهم حقائق موقفه الصارخة . ولعل مستشاريه العسكريين أشاروا عليه بأنه لو وافق على رفع جميع الصواريخ مع الابقاء على مبادرة الدفاع الاستراتيجي فلعل الادارة الأمريكية تخرق الاتفاقية يوماً ما لتحرز امتيازاً حاسماً على قوة صواريخ سوفيتية صغيرة (أو منزوعة في أقسى الاحتمالات) . هذا صحيح فنياً ، بيد ان ما هو صحيح ايضاً صدوف الكونغرس عن تمويل مبادرة الدفاع الاستراتيجي لو تم التوصل لاتفاقية حد من التسلح على ضوء ريكافيك تطلب ازالة جميع الصواريخ . كما تجاهل استفادة الاتحاد السوفيتي من التشاحن المؤكد تقريباً الذي كان لخطة ريكافيك أن تثيره بين أمريكا وجميع القوى النووية الأخرى .

ان الأجيال مجبولة دوماً على تعليق الفشل على شماعة الأشخاص بدلاً من الظروف . فالحق أن سياسة غورباتشوف الخارجية - سيما بصدد الحد من التسلح - كانت تحديثاً دقيقاً للاستراتيجية السوفيتية لما بعد الحرب . كما كانت خطوة طيبة نحو نزع سلاح المانيا النووي وارساء أساس لسياسة المانية أكثر قومية

وفق مفهومين : أن أميركا أقل رغبة بالمخاطرة بحرب نووية نيابة عن بلد نأى عن مخاطر استراتيجية نووية دفاعاً عن نفسه ، واحتمال نزوع المانيا الى دعم نزع السلاح النووي مقابل حصولها على مكانة خاصة بها .

طرح غورباتشوف آلية لاضعاف أواصر حلف الأطلسي في كلمة له أمام مؤتمر أوروبا لعام ١٩٨٩ ، حين أبان فكرته عن " وطن أوروبي مشترك " - وهو بنية غامضة تمتد من (فانكوفر) الى (فلاديفوستوك) حيث ينال كل بلد اسناد الآخرين ، مضعفاً معنى الحلف لحد اعتباره عديم الحول أو الطول . وما افتقره غورباتشوف هو الوقت على أية حال - وهو المطلوب الرئيس لسياسته اذا ما أريد لها أن تؤتي ثمارها . وكان التغيير المفاجيء فقط يمكن أن يتيح له اعادة ترتيب أولوياته . بيد أنه اضطر بعد ريكافيك للعودة العملية الهادرة للوقت والمتعلقة بتخفيض ٥٠٪ من القوات الاستراتيجية وخيار الصفر بالنسبة للصواريخ متوسطة المدى الذي يتطلب سنين لاتمامه و لم يكن ذي صلة بمشكلته الأساسية : استنزاف سباق التسلح موارد الاتحاد السوفيتي .

تخلى غورباتشوف بحلول كانون الأول ١٩٨٨ عن المكتسبات طويلة الأمد الواقعة تقريباً بمتناول يده وأجرى تخفيضات وحيدة الجانب على القوات المسلحة السوفيتية . فقد أعلن في كلمة استشراف في الأمم المتحدة في ٧ كانون الأول تخفيضات وحيدة الجانب تبلغ ٥٠٠ ألف رجل مع ١٠ آلاف دبابة بما في ذلك نصف الدبابات المواجهة للناتو ، اضافة الى اعادة تنظيم بقية القوات المرابطة في أوروبا الوسطى لتبقى لمهمات دفاعية فقط . وأعلن ، تهدئة للصين ، انسحاب " القسم الأعظم " من القوات السوفيتية في منغوليا ، موضحاً بجلاء أن التخفيضات

ستكون " من جانب واحد " برغم قوله بشيء من الحزن : " نأمل باتخاذ أميركا وأوروبا أيضاً نفس الخطوات " ٠

بسط الأساس المنطقي لذلك ، (غيينادي غيراسيموف) المتحدث باسم غورباتشوف : " اننا نلغي أخيراً ما تواتر بلا نهاية عن أسطورة التهديد السوفيتي ، وتهديد حلف وارشو ، وتهديد هجوم على أوروبا " ٠ غير أن التخفيضات وحيدة الجانب تشير اما الى الثقة بالنفس أو الضعف المريع ٠ ان من المستبعد في هذه المرحلة من مسيرة الاتحاد السوفيتي أن تكون الثقة بالنفس لازمته ٠ وهذه الايماءة ، العصية على الافهام في أي لحظة في الخمسين عاماً المنصرمة ، كانت أيضاً آخر توثيق للنسخة الأصلية لنظرية الاحتواء (الكينانية) : فقد بنت أميركا مراكز قوة لها فيما أخذ الاتحاد السوفيتي يتهاوى من الداخل ٠

يحتاج الساسة للحظ بمقدار ما يحتاجون لحسن التدبير ولم يبتسم الحظ بوجه ميخائيل غورباتشوف ٠ ففي اليوم الذي القى به كلمته الدرامية في الأمم المتحدة ، اضطر لقطع زيارته لأميركا والعودة للاتحاد السوفيتي ، فقد ضرب أرمينيا زلزال مدمر ، سرق من أعمدة الصحف أنباء تخليه الدرامي عن سباق التسلح ٠

وفي الميدان الصيني ، لم يتم عقد أية مفاوضات حول الحد من التسلح ، كما لم تبد بكين أيما اهتمام بها ٠ اذ اتبع الصينيون دبلوماسية قديمة وربطوا تخفيف التوترات بنوع من التسوية السياسية ٠ وقد استهل غورباتشوف مفاتحته بكين باقتراح مفاوضات حول تحسين العلاقات ، قائلاً في كلمة بفلاديفوستوك في حزيران ١٩٨٦ : " يسرني التأكيد على استعداد الاتحاد السوفيتي في أنى لحظة ،

وبأي مستوى كان للنقاش مع الصين بشأن الاجراءات الاضافية اللازمة لتهيئة جو من حسن الجوار ٠ اننا لنأمل أن تغدو الحدود التي تقسمنا وأؤثر القول بأنها تجمعنا – خط سلام وصداقة "

غير ان بكين لم تحور مدرسة " نفسانية " للدبلوماسية معدة للتواؤم مع مجرد تغيير في اللهجة ، وعليه طرح قادة الصين ثلاثة شروط لتحسين العلاقات : انهاء الاحتلال الفيتنامي لكمبوديا ، انسحاب السوفيت من أفغانستان وسحب القوات السوفيتية من الحدود الصينية – السوفيتية ، وهذه المطالب مستحيلة التحقيق بسرعة ، فهي تقتضي أولاً موافقة القيادة السوفيتية ، وبعدها لا بد من فترة طويلة من المفاوضات قبل تنفيذها ٠ فكلف الأمر غورباتشوف ثلاثة أعوام لاحراز تقدم كاف في كل واحد من الشروط الصينية ليحث المساومين الغلاظ في بكين على دعوته اليهم لمناقشة تحسين العلاقات برمتها ٠

عبس الحظ بوجه غورباتشوف تارة أخرى ٠ فاذ وصل بكين في مارس ١٩٨٩ بلغت تظاهرات الطلبة في ميدان تيانانمن أوجها ، ولذلك تخللت مراسيم الترحيب به ، احتجاجات ضد مضيفيه ، وأمكن سماع صراخ المحتجين فيما بعد في غرفة المفاوضات (بقاعة الشعب الكبرى) ٠ وعليه لم ينصب اهتمام العالم على علاقات بكين بموسكو ، بل على دراما صراع القيادة الصينية للتشبث بالسلطة ٠ وتغلب زخم الأحداث مرة أخرى على طاقة غورباتشوف للتسوية ٠

واجه غورباتشوف نفس المأزق أنى كانت المشكلة التي عالجها ٠ فقد ارتقى السلطة لتطلع عليه بولندا المتململة التي أصبح فيها " التضامن " عاملاً أكثر

قوة مما سبق . اذ ظهر التضامن قوة سياسية مرة ثانية استعصى على الجنرال (جاروز لسكي) تجاهلها بعد أن قمعها عام ١٩٨١ . فيما تعرضت هيمنة الاحزاب الشيوعية في تشيكوسلفاكيا وهنغاريا والمانيا الشرقية الى تحدي الجماعات المطالبة بمزيد من الحركة ومناشدة تطبيق (السلة الثالثة) من اتفاقيات هلنسكي حول حقوق الانسان ، كما أذكت الاجتماعات الدورية لمؤتمر الأمن الأوروبي نار هذه القضية .

سقط قادة أوروبا الشرقية الشيوعيين في مأزق خانق لافكاك منه . فقد احتاجوا وهم ساعون لكبت التوترات الداخلية لاتباع سياسة أكثر قومية أجبرتهم بدورها على تأكيد استقلالهم عن موسكو ، غير أن السياسة الخارجية القومية لم تكف لتهدئة اضطرابات جماهيرهم نظراً لأن الأخيرة تعتبرهم أدوات بيد الكرملين . ولذا اضطر القادة الشيوعيون الى التعويض عن ضعف مصداقيتهم ، بادخال الديمقراطية لمؤسساتهم الداخلية ، فسرعان ما اتضح ان الحزب الشيوعي - مع أنه ما برح مسيطراً على الاعلام - غير أهل للمحاجحات الديمقراطية ، طالما هو أداة للاستيلاء على السلطة والتشبث بها لمصلحة الأقلية . فقد عرف الشيوعيون كيفية الحكم بمعونة البوليس السري ، لا بالاقتراع السري . وهكذا سار حكام أوروبا الشرقية الشيوعيين بحلقة مفرغة . فكلما اقتربت سياساتهم الخارجية من القومية تعاظمت المطالبات بالديمقراطية ، وكلما تحولوا الى الديمقراطية اشتدت الضغوط لتغييرهم .

بيد أن المأزق السوفيتي كان اشد عسراً . اذ يقول مبدأ برجنيف ان على الكرملين أن قمع الثورة المندلعة في توابع روسيا . غير أن غورباتشوف لم يكن غير

مستعد لهذا الدور فحسب ، بل سيعمل ذلك على هدم سياسته الخارجية بأسرها ، لأن قمع أوروبا الشرقية من شأنه أن يشد أواصر الناتو وأشراف الصين - أمريكا ، كما سيسخن وطيس سباق التسلح . فصار عليه أن يواجه خياراً بين الانتحار السياسي والتآكل البطيء لسلطته السياسية .

تبنى غورباتشوف الليبرالية علاجاً لذلك ، وهو علاج كان سينجح في السنوات العشر السابقة . فقد عجز غورباتشوف في أواخر الثمانينيات عن السير مع منحنى السلطة ، وعليه أفصح حكمه عن نكوص تدريجي عن مبدأ برجنيف ، فاستولى الشيوعيون الليبراليون على السلطة في هنغاريا ، وسمح لجاروزلسكي بالتعامل مع التضامن في بولندا . وفي تموز ١٩٨٩ المح غورباتشوف في كلمة له أمام مؤتمر أوروبا بالتخلي ليس عن مبدأ برجنيف وحده الذي يفرض حق السوفيت في التدخل في أوروبا الشرقية ، بل وعن الفلك التابع للاتحاد السوفيتي نفسه أيضاً ، بتنازله عن " مناطق النفوذ " :

[لقد تغيرت النظم الاجتماعية والسياسية في بلد أو آخر في الماضي وربما ستتغير في المستقبل . الا أن هذا التغير شأن خاص بشعب ذلك البلد وهو خياره ... فلا يجوز أي تدخل في الشؤون الداخلية أو أي محاولات لتضييق سيادة الدول سواء كانت صديقة أم حليفة أم أخرى .... فقد آن الأوان لنحفظ أركان فترة الحرب الباردة في الأرشيف ، تلك التي عدت أوروبا حلبة للاصطدام مقسمة الى " مناطق نفوذ "] .

هكذا أصبحت كلفة المحافظة على الفلك التابع من المحرمات . وحتى كلمة مجلس أوروبا كانت بالغة الغموض - وان كانت واضحة وفقاً للمعايير التاريخية السوفيتية . ففي تشرين الأول ١٩٨٩ تخلى غورباتشوف جهاراً عن مبدأ برجنيف يوم زار فنلندا . وقال متحدثه غيراسيموف للصحافة مازحاً أن موسكو اتبعت " مبدأ سيناترا " في أوروبا الشرقية ، اذ صرح : " انكم تعرفون أغنية فرانك سيناترا : " قد اتخذت طريقي ؟ " ، فذي هنغاريا وبولندا قد اتخذتا طريقهما " .

سبق السيف العذل على انقاذ الشيوعيين في أوروبا الشرقية أو الاتحاد السوفيتي . فقد آلت مقامرة غورباتشوف بالليبرالية لفشل افقد الحزب الشيوعي وحدة صفه فانحطت مكانته . وثبت عدم ملاءمة الليبرالية للحكم الشيوعي - لعجز الشيوعيين عن التحول الى ديمقراطيين دون الانسلاخ عن شيوعيتهم ، وهي معادلة لم يستوعبها غورباتشوف رغم فهم يلتسين لها .

ثانية ، في تشرين الأول ١٩٨٩ ، زار غورباتشوف برلين للاحتفال بالذكرى الأربعين لتأسيس جمهورية المانيا الديمقراطية ، ولحث الزعيم الستاليني (أريش هونيكر) على اتباع سياسة أكثر اصلاحاً . كان واضحاً أنه ما كان يحتفل بهذه المناسبة لو ظن أنها آخر مناسبة ، كما تبين في كلمته :

[كثيراً ما دعينا للقضاء على هذا التناحر أو ذاك ، وغالباً ما يقال لنا ، " دعوا الاتحاد السوفيتي يرفع يده عن جدار برلين ، حتى نؤمن السلمية نواياه " . اننا لا نضفي سمة أيديولوجية على النظام الذي استقر في أوروبا ، بيد أن الحقيقة هي أن الاعتراف بواقع ما بعد الحرب قد ضمن السلم في أوروبا

حتى الآن . فكلما حاول الغرب اعادة تشكيل خريطة أوروبا لما بعد الحرب ، عنى ذلك زعزعة الوضع الدولي] .

مع هذا ، ما كادت تنقضي أربعة أسابيع حتى انهار جدار برلين ، وفي غضون عشرة شهور وافق غورباتشوف على توحيد المانيا وضمها للناتو . وحينها تهاوت جميع الحكومات الشيوعية في الفلك السابق ، وتلاشى حلف وارشو . فانقلبت متفقات (مؤتمر يالطا) . وكشف التاريخ خطل تبجحات خروشوف بأن الشيوعية ستدفن الرأسمالية . فهذا الاتحاد السوفيتي الذي انهك نفسه أربعين سنة ليضعف التلاحم الغربي تارة بالتهديدات وتارة بالضغوط ، كتب عليه الآن أن يستجدي طيبة الغرب لحاجته لمعونته أكثر من حاجته لتوابعه ، اذ ناشد غورباتشوف رؤوساء حكومات الديمقراطيات الصناعية في قمتهم السابعة في ١٤ تموز ١٩٨٩ :

[ان اصلاحنا (البريسترويكا) غير منفصل عن سياسة تهدف لاشتراكنا الكامل في الاقتصاد العالمي . وحسب العالم ان يربح من فتح سوق بحجم الاتحاد السوفيتي] .

لقد خاطر غورباتشوف بكل شيء معولاً على افتراضين : ان الليبرالية ستحدث الاتحاد السوفيتي ، وحينئذ سيتمكن من الاحتفاظ بمكانته الدولية قوة عظمى . ولما لم يتحقق كلا الافتراضين ، انهارت قاعدة غورباتشوف الداخلية بمثل فداحة انفراط الفلك التابع .

يقول الفيلسوف الرياضي اليوناني (أرخميدس) : " أعطني مكاناً أقف عليه وسأحرك العالم " . فالثورات تستهلك أبناءها لعدم ادراكها أنه بعد فترة معينة من التفكك الاجتماعي ، لن يبقى أي نقاط أرخميدسية ثابتة يمكن فرض النفوذ منها . فغورباتشوف بدأ مشواره معتقداً أن بوسع الحزب الشيوعي المخضع للاصلاح ، أن يدفع المجتمع السوفيتي نحو العالم الحديث . غير أنه لم يتقبل أن الشيوعية هي الداء وليست الدواء . فطيلة جيلين خنق الحزب الشيوعي استقلالية التفكير وقتل المبادرات الفردية . حتى حل عام ١٩٩٠ فتحجر التخطيط المركزي . وراحت المنظمات المختلفة المعدة لضبط لجام كل مناحي الحياة ، تعمل بدلاً من ذلك على توقيع معاهدات عدم اعتداء مع نفس الجماعات التي يفترض أنها كانت تراقبها . واستحال الانضباط الى روتين ، أما محاولة غورباتشوف لاطلاق المبادرات فقد اشعلت فتيل الاضطرابات .

بدأت مصاعب غورباتشوف من أبسط محاولات تحسين الانتاجية وادخال بعض عناصر اقتصاد السوق . فسرعان ما اتضح عدم أهلية النظام المخطط للاعتماد عليه ولذلك غاب شرط أساسي للاقتصاد الفاعل . فقد سلمت النظرية الستالينية بسيطرة الخطة المركزية ، بيد أن الواقع مختلف تماماً . فما أطلق عليه " الخطة " كان في الواقع تواطؤاً واسع النطاق بين البيروقراطيات الكبيرة جعل منها مباراة استغلال الثقة لتضليل السلطات . وعليه هام المدراء المسؤولون عن الانتاج في الظلام ، وكذلك فعلت الوزارات المسؤولة عن الانتاج ، لافتقارها لاية فكرة عما سيكون عليه الطلب ، ولطريقة لتعديل أية برامج لو تمت صياغتها . وبالتالي انتقت كل وحدة من النظام أهدافاً دنيا فقط تغطي أية أزمات بعقد

صفقات سرية مع الوحدات الأخرى بمعزل عن الآلية المركزية الرسمية . كما وضعت جميع الحوافز بصورة مثبطة للتجديد واستحال اصلاح الحال لأن الزعماء المزعومين وجدوا أن من المستحيل تقريباً تمييز الصواب في مجتمعهم . وهكذا تقهقر الاتحاد السوفيتي الى بائد تاريخ الدولة الروسية لأنه حول نفسه الى قرية " بوتمكينية " * كبيرة .

أفشلت تعاسة الوضع الراهن المحرج جميع محاولات الاصلاح ، مثلما حصل سابقاً مع خروشوف ومن بعده (كوسيجين) . فاذ تم تخصيص ٢٥٪ من الميزانية القومية لدعم الاسعار ، تلاشى أي معيار موضوعي للكفاءة أو مقياس للطلب الاقتصادي . وبات الفساد سمة السوق الوحيدة بسبب تخصيص البضائع بدلاً من شرائها .

لقد لاحظ غورباتشوف الركود المستفحل بيد أنه افتقر للخيال أو المهارة اللازمة لاختراق القوالب الجامدة . بينما تحولت الهيئات الاشرافية المختلفة للنظام الى جزء من المشكلة مع مرور الزمن . فذا الحزب الشيوعي الذي كان أداة الثورة يوماً ما ، لا وظيفة له في النظام الشيوعي الأخطبوطي سوى الاشراف على ما لم يفهمه – ووجدت هذه المشكلة حلها بالتواطؤ مع المراقبين المفترضين . وهكذا أمست النخبة الشيوعية طبقة ارستقراطية تتمرغ بنعيم الامتيازات ، ولما كانت هي المسؤولة نظرياً عن العقيدة القومية القويمة ، صبت جهودها على المحافظة على علاواتها .

---

* بوتمكين Potemkine : بارجة روسية من أسطول البحر الأسود تمرد بحارتها سنة ١٩٠٥ واستسلموا بعد فشل حركتهم .

أسند غورباتشوف برنامجه الاصلاحي الى عنصرين : البريسترويكا - اعادة البناء - كسباً لتأييد التكنوقراطيين الجدد ، والغلاسنوست - الليبرالية السياسية - لكسب المفكرين الذين سيموا العذاب طويلاً . ولكن سرعان ما انقلبت الغلاسنوست على نفسها لغياب مؤسسات توجيه التعبير الحر وقدح زند الجدل الجماهيري الأصيل . كما لم تتحسن ظروف المعيشة جراء انعدام المصادر المتاحة لغير الجيش . وهكذا نأى غورباتشوف بنفسه تدريجياً عن دعمه للمؤسسات بدون حصوله على أي دعم شعبي أكبر . فجنحت الغلاسنوست بتسارع الى الاصطدام بالبريسترويكا . وحتى الهجوم على الزعماء السابقين أثبت عقمه . وفي عام ١٩٨٩ قال لي عضو شاب في هيئة غورباتشوف مخصص لمرافقتي الى الكرملين : " كل ما يعنيه هذا - ضياع عمر كل مواطن سوفيتي تجاوز الخامسة والعشرين " .

جسدت أجهزة الأمن الجماعات الوحيدة التي أدركت الحاجة للاصلاح برغم عدم استعدادها لتحمل العلاج . اذ خبرت المخابرات السوفيتية (الكي . جي . بي) مدى تخلف الاتحاد السوفيتي في التنافس التكنولوجي مع الغرب . كما كان لدى القوات المسلحة معياراً لتحديد قابليات خصمها الرئيسي . غير أن تشخيص المشكلة لم يعن حلها . فالكي جي بي تؤيد الغلاسنوست - الليبرالية السياسية - فقط ما دامت لاتوهن الانضباط المدني ، كما انبسطت اسارير المؤسسة العسكرية حيال البريسترويكا - اعادة البناء الاقتصادي - فقط طالما لم يجنح غورباتشوف الى اقتطاع مصادر جديدة لبرنامجه التحديثي من مصادر القوات المسلحة .

تعثر اجراء غورباتشوف ، الأول لتحويل الحزب الشيوعي الى ادارة للاصلاح ، بصخرة المصالح العنيدة : فيما حطمت حركته التالية - اضعاف البنية الشيوعية مع الاحتفاظ بها - الاداة الرئيسية للحكم السوفيتي . فقد انطوى هذا على خطوتين : نقل سلطة غورباتشوف خارج الحزب والى مؤسسة الحكومة الموازية ، وتشجيع التحرك نحو حكم ذاتي محلي واقليمي .

خاب حساب غورباتشوف لكلا الاجرائين . فالحزب الشيوعي كان منذ عهد لينين الهيئة الوحيدة التي تمارس السياسة ، والحكومة هي الجهاز التنفيذي للسياسة وليس راسمها . وأعلى منصب دوماً كان منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي ، ونادراً ما شغل الزعيم الشيوعي من لينين حتى برجنيف ، منصباً حكومياً . فآلت النتيجة الى انجذاب الطموحين والمغامرين نحو الهرم الشيوعي بينما استأثرت المؤسسة الحكومية بالمدراء عديمي الادراك السياسي أو حتى الاهتمام برسم السياسة . فلحظة نقل غورباتشوف قاعدته من الحزب الشيوعي الى الجانب الحكومي من النظام السوفيتي ، فانما أناط بثورته الى جيش من الكتبة .

أفضى ترحيب غورباتشوف بالحكم الذاتي الأقليمي الى ورطة مشابهة . فقد استحال عليه التوفيق بين رغبته بصنع بديل شعبي للشيوعية ، وشكه اللينيي بارادة الشعب . وعليه وضع نظاماً أساساً على الانتخابات المحلية التي تشترك فيهما الاحزاب القومية عدا الحزب الشيوعي . ولكن ما ان أمكن انتخاب الحكومات المحلية والاقليمية شعبياً ، حتى تراكمت أخطاء التاريخ الروسي . فقد ضمت روسيا طيلة ٣٠٠ سنة قوميات من أوروبا وآسيا والشرق الأوسط بيد أنها فشلت في شدها الى المركز الحاكم . فلا عجب أن بدأت معظم الحكومات غير

الروسية المنتخبة حديثاً ، التي تشكل زهاء نصف السكان السوفيت ، تتحدى دهاقنتها التاريخيين .

افتقر غورباتشوف لجماهير تشايعه . فاذ عادى المصالح الواسعة الراسخة التي ميزت الدولة اللينية ، فشل في اجتذاب مؤيدين جدد لعجزه عن تقديم بديل قابل للتطبيق ، سواء للشيوعية أم لمفهوم الدولة المركزية . وهو قد أفلح في تشخيص أدواء مجتمعه وان كان من خلال استار نظامه اللاانساني ، وهكذا بقي العلاج خارج نطاق ادراكه . لقد ماثل شخصاً حبيس حجرة بنوافذ نصف شفافة مضادة للكسر ، فتسنى له مراقبة العالم الخارجي بكفاية ، بيد أنه أخفق جراء ظروف الغرفة في بلوغ الاستيعاب الدقيق لما كان يراه .

وبذا كلما طال العهد بالبروستيرويكا والغلاسنوست ، تفاقمت عزلة غورباتشوف وتردت ثقته بنفسه . ففي أول لقاء لي به في مطلع عام ١٩٨٧ كان جذلاً يتألق ثقة بأن اصلاحاته ستهيء بلده لشق مسيره نحو التفوق . وما انطوى الا عام حتى شرع يقينه يتشوش . فقد صرح : " لن يعود الاتحاد السوفيتي سيرته الأولى مهما يكون الأمر " - انه لكلام متضارب عن هكذا مجهود صعب رهيب . وعشية لقائنا في مطلع ١٩٨٩ أنبأني باستنتاجه و (شيفارد نادزه) يوماً ما في السبعينيات بحاجة النظام الشيوعي للتغيير من هامته لأخمص قدميه ، وغداة سؤالي عن كيفية توصله لذلك وهو شيوعي ، أجاب : " معرفة الخطأ أمر يسير ، أما معرفة الصواب فهو الجزء العسير " .

حار غورباتشوف علاجاً . ففي آخر سني حكمه أضحى أسير كابوس ، يرى كارثة تطبق عليه الا أنه عاجز عن درئها أو ابعاد نفسه عن المواجهة . ومن المعتاد أن هدف التنازلات المحافظة على شيء أساسي أهم ، غير أن غورباتشوف فعل العكس اذ لم ينجز من أي اصلاح جديد الا نصفه وبذا عجل بانهيار الاتحاد السوفيتي . وأودى كل تنازل الى آخر . وهكذا حل عام ١٩٩٠ ليشهد انسحاب دول البلطيق ، وبداية تفكك الاتحاد السوفيتي . ومما ينطوي على سخرية أقوى لجوء غريم غورباتشوف الرئيسي للعملية التي انقسمت بها الامبراطورية الروسية - التي تم لم شملها قبل ما يزيد على ثلاثة قرون - للاطاحة بغورباتشوف نفسه : فقد أكد يلتسين استقلال روسيا (واستقلال الجمهوريات الباقية بداهة) ، مستغلا صلاحيته رئيساً لروسيا ، وبذا محا الاتحاد السوفيتي من الخريطة وسقط غورباتشوف عن منصبه رئيساً للاتحاد السوفيتي . لقد عرف غورباتشوف مشاكله لكنه تصرف بسرعة وبطء بالغين : بسرعة بالغة بالنسبة لتحمله نظامه ، وببطء بالغ في ايقاف زخم الانهيار .

احتاجت كلتا القوتان العظميان وقتاً لتنظيم شؤونهما . فأطلقت سياسات ريغان طاقات المجتمع من عقالها ، فيما فتحت سياسات غورباتشوف الباب على اختلال عمل طاقات مجتمعه . وكانت مشاكل أمريكا قابلة للتكيف حسب تغيرات السياسة ، أما الاصلاح في الاتحاد السوفيتي فقد أفضى الى تعجيل حدوث الازمات في النظام .

رفعت الديمقراطيات لواء النصر في الحرب الباردة بحلول عام ١٩٩١ . بيد انها ما ان حققت أكثر بكثير مما تصورت حتى اصطخب الجدل الأول بشأن

الحرب الباردة . أكان الاتحاد السوفيتي تهديداً حقيقياً ؟ وهل كان جائزاً أن يذوب دونما كل متاعب الحرب الباردة ؟ أو كانت الحرب الباردة صنيعة الساسة المرهقين المحتاجين المنغمسين في تشويش الانسجام الكامن في النظام الدولي ؟

في كانون الثاني ١٩٩٠ ، عدت مجلة " تايم " ، غورباتشوف " رجل العقد " ناشرة مقالاً بالمناسبة يسرد أساس تلك الأطروحة ، حيث أكد الكاتب : " كأن حمائم الجدل الأكبر في الأربعين سنة الفائتة مصيبين على طول المدى " . ذلك أن الاتحاد السوفيتي ما كان يوماً تهديداً حقيقياً . والسياسة الأمريكية كانت اما عديمة الصلة بالأحداث أو أنها أرجأت الاضطرابات السوفيتية . وهكذا ما كانت سياسة الديمقراطيات في العقود الأربعة جديرة بالثقة العميقة حتى بخصوص التغيرات في السياسة السوفيتية ((الخارجية)) . ولو أنه لم يفعل أي شيء وسارت الأحداث على رسلها ، فمن المعتذر استقاء دروس من انهيار الامبراطورية السوفيتية - وبالتحديد ، أي درس انطوى على الحاجة لأمريكا للاضطلاع بتكوين نظام عالمي جديد ، دعت اليه نهاية الحرب الباردة . واكتملت حلقة الجدل الأميركية . انها النغمة القديمة لعزلة أمريكا - بأن أمريكا لم تربح الحرب الباردة حقاً انما خسرها الاتحاد السوفيتي ، وان حاجة لا توجد لتلك العقود الأربعة من الجهد والعرق لأن الأحداث كان لها أن تجري بنفس المنوال - أو ربما بصورة أفضل - لو تركتها أمريكا وشأنها .

ثمة رؤية اخرى تستند على ذات المنطق تقول بوجود حرب باردة وقد تم كسبها ، فعلاً على أن النصر كان ((لفكرة)) الديمقراطية التي كان لها أن تهيمن مهما كانت الاعتبارات الجيوستراتيجية التي تكتنف صراع الشرق - الغرب . ان

هذا وجه آخر للتهرب . أجل لا ريب أن الديمقراطية السياسية وفكرة الحرية قد جسدتا محوراً يلتف حوله الناجون - سيما في أوروبا الشرقية . فقد تعسر قمع المؤمنين بهما تدريجياً أثر تردي مكانة الجماعات الحاكمة . بيد أن هبوط المكانة هذا سببه الرئيسي ركود النظام واستفحال الاقتناع في صفوف النخبة الشيوعية - فكلما ارتقى أحدهم أعلى ، أتيح له معرفة الحقائق أكثر - بخسارة نظامهم الصراع ، الذي ادعى النظام أنه هدفه الجوهري طيلة تاريخ مرعب طويل . وهو في أحسن أحواله لا يتجاوز فرضية البيضة والدجاجة . أجل حشدت الفكرة الديمقراطية معارضة للشيوعية ، بيد أنها لم تعجل بحد ذاتها ميعاد قيامة الشيوعية دون انهيار السياسة الشيوعية الخارجية ، وفي النهاية ، انهيار المجتمع الشيوعي .

لا غبار على أن ذلك رأي المفسرين الماركسيين للشؤون الدولية الذين اعتادوا تحليل " تداخل القوى " ووجدوه وسيلة لاكتشاف مسببات الانهيار السوفيتي ، أسهل بكثير مما اتبعه المراقبون الأميركان . ففي عام ١٩٨٩ ، استخلص (فردهاليداي) ، أستاذ الماركسية في مدرسة لندن للاقتصاد ، ميل ميزان القوى لصالح أميركا . واعتبره مأساة بيد أنه اعترف بحصول انتقالة واسعة في السياسات الدولية أثناء حكم ريغان ، مخالفاً بذلك الأميركيين لائمي أنفسهم غير الواثقين ببلدهم أو قادته ورأى أن أميركا قد أفلحت في رفع كلفة التورط السوفيتي في العالم بحيث أن هاليداي تناول " فكر غورباتشوف الجديد " في فصل أسماه بذكاء " الاشتراكية في وضع الدفاع " ، مفسراً اياه بأنه محاولة لتخفيف ضغوط أميركا .

أبرزت المصادر السوفيتية ألمع شهادة على ذلك التأثير • اذ بدأ الخبراء السوفيت منذ عام ١٩٨٨ الاعتراف بمسؤولية السوفيت عن انهيار الانفراج • وأشاروا وهم يعرضون فهماً لأركان الانفراج أفضل من جل النقاد الأميركان ، الى أن الانفراج كان سبيل أميركا لابعاد موسكو عن تحدي الوضع القائم عسكرياً وسياسياً • فاذ انتهكت القيادة البرجنيفية هذا الفهم الضمني وتطلعت لمكاسب أحادية الطرف ، أثارت رد فعل حكم ريغان الذي أثبت أنه أكبر مما استطاع الاتحاد السوفيتي معالجته •

لقد طرح (فاشسلاف داشيتشوف) ، وهو أستاذ في معهد الاقتصاد ونظام العالم الاشتراكي ، أحد أقدم وأدسم التسجيلات للأحداث " التعديلية " السوفيتية • فهو أبان في مقال نشره بتاريخ ١٨ مارس ١٩٨٨ في " لتراتورنيا غازيتا " أن " سوء الحسابات التاريخية والفهم القاصر للقيادة البرجنيفية " قد رصا صفوف جميع قوى العالم الكبرى في تحالف ضد الاتحاد السوفيتي ، والهب سباق تسلح ما كان الاتحاد السوفيتي قادراً على تحمله • فلا مناص اذن من الكف عن السياسة التقليدية القائمة على الانفصال عن المجتمع العالمي والسعي لافساده في الوقت عينه :

[راحت القيادة السوفيتية ، كما رآها الغرب ، تستغل الانفراج لتعزز بناء قواتها العسكرية ساعية لتحقيق المساواة مع أميركا ومع جميع القوى المعادية عموماً – وهي حقيقة لا سابق لها في التاريخ • فردت أميركا المشلولة بنائبة فيتنام ، بصورة مشوبة بالحساسية على تغلغل النفوذ السوفيتي في أفريقيا والشرق الأدنى ومناطق أخرى •

...... ان العملية ذات تأثير " التغذية الراجعة " قد أودت بالاتحاد السوفيتي الى وضع بالغ الصعوبة في السياسة الخارجية والنواحي الاقتصادية فقد قاومته قوى العالم العظمى – أميركا وبريطانيا وفرنسا والمانيا الاتحادية وايطاليا واليابان وكندا والصين • وكانت مقاومة امكانياتها الأكثر تفوقاً بكثير ، خارج قدرات الاتحاد السوفيتي بحدة] •

وذات النقطة تطرق لها وزير الخارجية شيفاردنادزة في كلمة القاها في ٢٥ تموز ١٩٨٨ باجتماع بوزارة الخارجية • حيث سرد أخطاء بلاده كالفشل في أفغانستان ، الحزازات مع الصين ، الازدراء المتواصل للأسرة الأوروبية ، سباق التسلح مرهق التكاليف ، الانسحاب من محادثات جنيف للحد من التسلح (١٩٨٣ – ١٩٨٤) ، القرار بنشر صواريخ أس • أس –٢٠ في مكانها الأول ، ومبدأ الدفاع السوفيتي الذي يفرض استقواء الاتحاد السوفيتي بمثل قوة أي ائتلاف دولي محتمل ضده بعبارة أخرى • تحدى شيفاردنادزة ما يقارب كل صنائع الاتحاد السوفيتي في ماضي السنين الخمس والعشرين • أنه لاعتراف ضمني بوجود تأثير طاغ للسياسات الغربية على الاتحاد السوفيتي ، لأنه كان ممكناً وصف الاتحاد السوفيتي بالنجاح وعدم حاجته لاعادة النظر لو لم تفرض الديمقراطيات عقوبات على مغامراته •

بدت نهاية الحرب الباردة ، من منظار السياسة الأميركية على مر ثماني ادارات من كلا الحزبين السياسيين ، شديدة الشبه بما تنبأ به جورج كينان عام ١٩٤٧ • فبصرف النظر عن طريقة ممارسة الغرب لسياسته ، احتاج النظام السوفيتي الى شبح عدو خارجي دائمي لتبرير المعاناة التي فرضها على شعبه ولابقاء

القوات المسلحة والأجهزة الأمنية أدوات لازبة لحكمه . واذ تعرض السوفيت لضغط الاستجابة الغربية الملحة التي بلغت أوجها أيام ريغان بدل مؤتمر الحزب السابع والعشرين مبدأه الرسمي من التعايش الى الاتكال المتبادل ، وبذا تلاشى الأساس المعنوي للقمع الداخلي . وسرعان ما تجلى ، طبقاً لنبوءة كينان ، أن الاتحاد السوفيتي الذي أرضع مواطنيه زجاجة الانضباط وبذلك عجز عن الانتقال الفوري للتسوية ، سينقلب بين ليلة وضحاها من كونه أحد أقوى المجتمعات الى " أحد أضعف المجتمعات وأكثرها اثارة للشفقة " .

توصل كينان – كما نوهنا سالفاً – أخيراً الى الاعتقاد بالمبالغة في الحشد العسكري لسياسته الاحتوائية . فثمة تقييم أكثر دقة بفرض أن أميركا ، كما هو ديدنها ، قد تأرجحت بين فرط الاتكال على الاستراتيجية العسكرية وفرط الاعتماد العاطفي على قلب معادلة الخصومة . وأنبرت أيضاً لانتقاد جملة من السياسات المنفردة التي انضمت للائحة الاحتواء . ذلك كان مجمل اتجاه السياسة الأميركية بعيد النظر ومتناغماً خلال جميع التغيرات في الادارات والشخصيات المتباينة لحد بعيد .

كان ممكناً للأحزاب الشيوعية التي كانت حقاً أوسع أحزاب فردية في أوروبا ما بعد الحرب ، أن تفرض هيمنتها دون مراء لو لم تنظم أميركا مقاومة لها يوم تصرفت الامبراطورية السوفيتية المعتدة بنفسها كأنها تمثل موجة المستقبل وحاملة شعوب العالم وقادته على الاعتقاد بذلك . ولما أمكن تحمل سلسلة الأزمات بشأن برلين ولنشب المزيد منها . اذ استغل الكرملين صدمة أميركا فيما بعد فيتنام ، مرسلاً قوات الى أفريقيا لتقاتل بالنيابة عنه ، وقواته الى أفغانستان .

فجاز أن يتفاقم تأثير ذلك لو لم تحم أميركا ميزان القوى العالمي وتساعد على اعادة بناء المجتمعات الديمقراطية . ولقد ازاد عدم فهم أميركا لدورها في ميزان القوى ، ألمها ووعقد العملية ، بيد أنه دفعها الى نذر نفسها واطلاق طاقاتها الابداعية بشكل لا سابق له . كما لم يغير حقيقة محافظة أميركا نفسها على التوازن العالمي وبذلك على سلام العالم .

لا جرم أن الانتصار في الحرب الباردة ليس صنيع ادارة ما لوحدها . فهو نتاج جهود بذلها حزبا أميركا طيلة أربعين سنة ، ونتيجة السبعين سنة من التحجر الشيوعي . لقد انبثقت ظاهرة ريغان من التقاء تصادفي بين الشخصية والفرصة : فقبل عقد ، كان سيبدو مغالياً في العسكرة ، وبعد عقد بدا عنيداً جداً . فما احتيج اليه بدقة في فترة الخور السوفيتي وبروز الشك بالنفس ، مزيج من النضال الأيديولوجي لحشد الجماهير الأميركية ، والمرونة الدبلوماسية التي لن يغفرها المحافظون اطلاقاً لرئيس آخر .

مع هذا نبعت سياسة ريغان الخارجية من وحي أفول باهر أكثر من اشراقة عهد جديد . فقد خيضت الحرب الباردة استلهاماً للمبادىء الأميركية فثمةتحد أيديولوجي مسيطر يجعل المبادىء الأساسية العالمية مهما بسطت قابلة للتطبيق على معظم مشاكل العالم . كما كان ثمة تهديد عسكري واضح المصدر . وحتى في ذلك الوقت نجمت كرب أميركا – من السويس حتى فيتنام – من تطبيقها لمبادىء عالمية على حالات خاصة اثبتت عدم جدوى هذا التطبيق .

انتفى في عالم ما بعد الحرب الباردة ، أي تحد ايديولوجي طاغ ، وحتى أي اصطدام جيوستراتيجي منفرد ، حتى ساعة الكتابة ، فالخصوصية سمة كل حالة تقريباً . لقد اسرج التفرد سبيل السياسة الخارجية الأميركية ومنح أميركا عزماً على الظفر في الحرب الباردة . غير أنها بحاجة الى تطبيقات أكثر براعة في عالم القرن الحادي والعشرين متعدد الأقطاب . اذ سيتحتم عليها مواجهة التحدي الذي استطاعت تفاديه خلال جل تاريخها : سواء كان فهمها التقليدي لنفسها هي كونها منارة للاهتداء باقباسها ، أم أنها زعيمة حملة شاقة ، فهو ما برح يشخص خياراتها أو يقلصها : أي باختصار ، ما اذا كان عليها أن تصوغ في النهاية تعريفاً لمصلحتها القومية أم لا .

الفصل الرابع عشر

النظام العالمي الجديد أو رؤية جديدة

لاحت بشائر انتصار المباديء الولسونية مع تباشير العقد الأخير من القرن العشرين ، اذ قبرت التحديات الأيديولوجية الشيوعية وكذلك كان مصير التحديات الجيوسياسية السوفيتية في آن . كما اصطف هدف المعارضة الأخلاقية للشيوعية مع المهمة الجيوسياسية للتصدي للتوسع السوفيتي . فلا غرو أن يزهو الرئيس بوش بأمل نشوء عالم جديد مستلهماً العبارات الولسونية التقليدية :

[تخامرنا رؤية لشراكة جديدة بين الأمم تتسامى فوق ارهاصات الحرب الباردة . انها لشراكة قائمة على التشاور ، والتعاون والعمل الجماعي ، سيما من خلال المؤسسات الدولية والاقليمية ، يوحدها المبدأ وحكم القانون ، وتنهل نسغها من التقاسم المنصف لثمارها ورعايتها . انها ترنو الى نشر الديمقراطية وانعاش الرفاهية وتوطيد السلم وخفض التسلح] .

بنفس العبارات تقريباً طلع خليفة بوش - الرئيس (بيل كلنتون) ليفسر مفهوم " توسيع رقعة الديمقراطية " :

[لا جناح أن هدفنا العظيم توسيع وتعزيز المجتمع الدولي المستند الى ديمقراطيات السوق الحرة ، مع بزوغ عهد جديد من الأخطار وسنوح الفرص . فان مضينا أيام الحرب الباردة الى احتواء تهديد مؤسساتنا الحرة ، فدأبنا اليوم توسيع دائرة الأمم ذات المؤسسات الحرة ، فما يراودنا حلم بيوم

تحظى فيه آراء وابداعات الجنس البشري بفرصة التعبير التام المطلق عن نفسها في عالم تتعاضد به الديمقراطيات الظافرة وتعيش متفيأة ظلال السلم والأمان] .

واذن ها هي الولايات المتحدة تعلن على الملأ للمرة الثالثة بهذا القرن ، نيتها بناء نظام عالمي جديد بتطبيق قيمها الداخلية على العالم الخارجي . وللمرة الثالثة ايضاً تألق نجم أميركا في الساحة الدولية . ففي عام ١٩١٨ سيطر ولسون على مؤتمر سلام باريس ، الذي اتكأ فيه حلفاء أميركا عليها كثيراً للاصرار على التعبير عن هواجسهم . وحتى يوم انجلا غبار الحرب العالمية الثانية لاح فرانكلين ديلانو روزفلت وترومان في وضع يؤهلهما لاعادة صب العالم بأسره وفق القالب الأميركي .

لقد حفز انتهاء الحرب الباردة أكثر على اعادة تشكيل المحيط الدولي حسب المنظور الأميركي . اذ كبلت ولسون العزلة في الداخل ، فيما تجشم ترومان صعاباً في مجابهة التوسع الستاليني . أما وأسدل الستار على فصول الحرب الباردة ، باتت أميركا القوة العظمى الوحيدة القادرة على التدخل في أي جزء من المعمورة . بيد أن القوة انتشرت أكثر وتضاءلت القضايا ذات الصلة بالقوة العسكرية . فقد جعل النصر في الحرب الباردة أميركا تماثل كثيراً من صفات النظام الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، مع تقمصها ممارسات طالما ارتاب منها ساستها ومفكروها . ان من شأن غياب التهديدات الأيديولوجية او الاستراتيجية الطاغية ان يطلق العنان للأمم بالسير في سياسات خارجية قائمة على نحو متزايد على آني مصالحها القومية . وفي خضم نظام دولي ربضت في أركانه

خمس أو ربما ست قوى كبرى مع وفرة من البلدان الصغرى ، لا بد أن يطلع نظام بطريقة شديدة الشبه بما حصل في القرون الغابرة ، حصيلة تراض وموازنة المصالح القومية المتنافسة .

لقد تحدث كل من بوش وكلنتون عن النظام العالمي الجديد كما لو أنه طوع البنان . ولكن الواقع أنه لا يزال في طور التصور ولن يتاح رؤية معالمه النهائية الا بعد ولوج القرن المقبل لفترة غير قصيرة . فسيبزغ النظام العالمي الجديد ليجيب على ثلاثة أسئلة ، وهذا يعزى جزئياً الى كونه امتداداً للماضي ، وجزئياً الى أنه غير مسبوق ، والأسئلة هي : ما اللبنات الأساسية للنظام الدولي ؟ وما وسائلها في التفاعل ؟ وما الأهداف التي تتفاعل هذه اللبنات لبلوغها ؟

ان من دأب الأنظمة الدولية ان تعيش في وضع قلق مضطرب ، اذ يعرب كل نظام عالمي عن أمله بالبقاء ، وينطوي نفس المصطلح على السرمدية في ثناياه ، ومع ذلك تجد عناصره في فورة مستمرة ، وحقيقة الأمر أن عمر الأنظمة الدولية اخذ بالتناقص مع انطواء كل قرن . فذاك نظام سلام ويستفاليا دام ١٥٠ سنة ، فيما استمر نظام مؤتمر فيينا مئة سنة ، حتى جاء نظام الحرب الباردة الذي لم يعمر غير أربعين سنة (ولا تعد تسوية فرساي نظاماً تدعمه القوى الكبرى وبالتالي فهي ليست غير شيء ناف قليلاً عن كونه هدنة بين حربين كونيتين) . فلم يحصل قط أن تغيرت عناصر النظام الدولي وقدرتها على التفاعل ، بهذه السرعة المذهلة وعلى هذا النطاق الكوني بهذه الشدة .

لا مندوحة عن نشوب القلاقل فور تغير سجايا كيانات النظام الدولي فلدرجة كبيرة كان سبب حرب الثلاثين سنة الانتقال من مرحلة المجتمعات الاقطاعية القائمة على التقليد وادعاء العالمية الى نظام الدولة الحديثة المستندة الى مصلحة الدولة . بينما أفصحت حروب الثورة الفرنسية عن الانتقال صوب دولة الأمة التي أرست معالمها الثقافة واللغة المشتركة . وحل القرن العشرين لتضرم حروبه انقاسامت الامبراطوريتين العثمانية والهابسبرغية الى جانب تأثير التحدي لهيمنة أوروبا وقبر النوازع الاستعمارية . ومع كل نوبة انتقال ، يغدو كل ما هو بديهي قد عفى عليه الزمن فجأة : كالدول متعددة القوميات في القرن التاسع عشر ونزعة الاستعمار في القرن العشرين .

دأبت السياسة الخارجية منذ مؤتمر فيينا على لم شمل الأمم وبذلك برز مصطلح " العلاقات الدولية " . فأودى ظهور أمة جديدة (ولو واحدة) - كالمانيا المتحدة - الى عقود صاخبة بالاضطرابات . وعشية خفوت سعير الحرب العالمية الثانية طلعت الى حيز الوجود ما يقارب مائة أمة جديدة . جلها تامة الاختلاف عن دولة الأمة الأوروبية التاريخية . كما نجم عن انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وكذلك تمزق يوغسلافيا ، عشرون أمة أخرى ، شددت أكثرها على سفك الدماء والتلذذ بذلك وهي نوازع فات عليها قرن من الزمان .

مع اشراقة القرن التاسع عشر ارتكزت الأسرة الأوروبية على اللغة والثقافة المشتركة ، أما وحازت على التكنولوجيا العصرية ، هيأت الاطار الأمثل لاستتباب الأمن ، والنمو الاقتصادي ، والتأثير على الأحداث الدولية . لكن دول الأمم الأوروبية التقليدية افتقرت ابان فترة ما بعد الحرب الباردة الى المصادر التي تؤهلها

للعب دور كوني - وهي ذات الدول التي شكلت الأسرة الأوروبية حتى اشتعل فتيل الحرب العالمية الأولى . ويكون من شأن نجاحها في التكاتف ضمن اتحاد أوروبي أن يحدد معالم نفوذها المستقبلي . فان اتحدت أوروبا فتستمر قوة عظمى ، وان انقسمت فستنزلق الى منزلة صغرى .

ينجم جزء من الاضطراب الذي يرافق ظهور نظام عالمي جديد ، عن تفاعل ما لا يقل عن ثلاثة أنواع من الدول التي تلقب نفسها " أمماً " وهي لا تمتلك الا قليلاً من سمات دول الأمم التاريخية . فمن جهة ، هناك الجماعات العرقية القادمة من الامبراطوريات المتشظية كالدول المولودة عن تفتت يوغسلافيا أو الاتحاد السوفيتي ، وهذه الجماعات التي أكدرتها المظالم التاريخية واظناها البحث الطويل عن هويتها ، تكافح أساساً للهيمنة في الخصامات العرقية القديمة ، ولذا ليس ما يسعى اليه النظام الدولي يمثل لها شروى نقير ، فمبغاها المحافظة على استقلالها وتعزيز بأسها بصرف النظر عن الاعتبارات الكبرى للنظام السياسي الدولي ، وهي اذ فعلت ذلك فانما ضاهت الدول الصغيرة التي تورطت بحرب الثلاثين سنة .

وها ذي بعض أمم مرحلة ما بعد الاستعمار تمثل كذلك ظاهرة فريدة . فالحدود الحالية شاهد على اهواء الكثير من القوى الامبراطورية . فقد تعرضت أفريقيا الفرنسية التي تمتلك ساحلاً طويلاً الى التقسيم الى سبعة عشر وحدة ادارية ومذ حينها غدت كل منها دولة . فلأفريقيا البلجيكية - التي سميت انذاك الكونغو ، وزائير الآن - منفذ ضيق جداً على البحر وبذلك حكمت كأنها وحدة مستقلة بالرغم من شساعة مساحتها المقاربة لمساحة أوروبا الغربية . وفي هذه

الحالات كثيراً ما تعنى الدولة الجيش الذي هو المؤسسة " القومية " الوحيدة عادة وبمجرد سقوطه غالباً ما تكون العاقبة حرباً أهلية دامية ٠ ولو طبقت معايير القرن التاسع عشر عن الأمم أو المبادىء الولسونية لتقرير المصير على هذه الأمم ، فلا مفر من تعديل جذري وغير متوقع للحدود ٠ والبديل للوضع الاقليمي القائم لهذه الأمم ، صراع أهلي وحشي عديم النهاية ٠

ونعرج أخيراً على " الدول ذات الشكل القاري " التي يحتمل أن تشكل اللبنات الأساسية للنظام العالمي الجديد ٠ فالأمة الهندية التي انسلخت من سطوة الحكم البريطاني ، تحتضن عدداً وافراً من القوميات والديانات واللغات ٠ ولما كانت تتقبل التيارات الدينية والأيديولوجية السائدة في دول الجوار ، بمساحة أفضل مما لدى الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر ، فان خط الفصل بين سياساتها الخارجية والداخلية واه ومتعرج ٠ ونفس الأمر لدى الصين التي تستوعب شتيتاً من اللغات التي توحدها الكتابة والثقافة المشتركتين وكذلك التاريخ المشترك ، وذا ما يرجح أن غداة حال أوروبا هكذا لو أنها لم تتورط بالحروب الدينية للقرن السابع عشر ، وهو أيضاً ما يحتمل أن يكون امرها لو حقق الاتحاد الأوروبي آمال مؤيديه ٠ وعلى نحو مشابه نرى أن قوتي الحرب الباردة العظميين لم تكونا دولتي أمتين وفق المعنى الأوروبي ٠ فأميركا أفلحت في تشكيل ثقافة متميزة من لدن خليط متعدد اللغات فيما كان الاتحاد السوفيتي امبراطورية ضامة لكثير من القوميات وها هي دوله الناجمة عن تفتته تتعرض للشد – في لحظة الكتابة هذه – بين دواعي الانفصال واعادة الامبراطورية ، بشكل شديد الشبه بحال امبراطورية هابسبرغ والامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر ٠

كل ذلك عمل على تبديل أسلوب العلاقات الدولية ومداها بشكل جذري ٠ فحتى أشرق العصر الحديث ، كانت القارات المختلفة تمارس جل نشاطاتها كل واحدة بمعزل عن الأخرى ٠ واذن فمن المستحيل قياس قوة فرنسا ، مثلاً ، الى قوة الصين لعدم امتلاك البلدين أدوات تفاعل بينهما ٠ وحالما توسع نطاق التكنولوجيا ، خضع مستقبل القارات الى " أسرة " القوى الأوروبية ٠ وما حصل يوماً ان احتوى نظام دولي على مراكز قوى كبرى انتشرت في شتى أرجاء الكوكب ٠ كما لم يضطر الساسة مرة الى تمشية مهامهم الدبلوماسية بحيث يمكنهم تجربة الأحداث مع جماهيرهم في وقت واحد ٠

واذ تضاعف أعداد الدول وتعاظم قدرتها على التفاعل ، فعلى أية مبادىء يمكن تنظيم النظام العالمي الجديد ؟ ومع تعقيد النظام الدولي الجديد ، أبالامكان أن تغدو المبادىء الولسونية مثل " نشر الديمقراطية " السراج الهادىء لسياسة أميركا الخارجية وبديلاً لاستراتيجية احتواء الحرب الباردة ؟ من الواضح أن هذه المبادىء لا تعد بنجاح قاطع ولا بفشل تام ٠ فلبعض تصرفات دبلوماسية القرن العشرين جذورها في المثالية الولسونية : خطة مارشال ، والتعهد الشجاع باحتواء الشيوعية ، والدفاع عن حرية أوروبا الغربية ، وحتى عصبة الأمم تعيسة الحظ ومثالها اللاحق – الأمم المتحدة ٠

فقد أسفرت المثالية الولسونية في الوقت عينه عن جملة من المشاكل ٠ فكما تجلى في النقاط الأربعة عشر ، فشل التبني الحازم لتقرير المصير العرقي في الأخذ بالاعتبار علاقات القوة والتأثيرات المقلقة للجماعات العرقية وطيدة العزم على تفجير خصاماتها وأحقادها المزمنة المتراكمة ٠ وجاء قصور عصبة الأمم عن توفير

آلية الزام عسكرية ليفاقم المشاكل المتأصلة في فكرة ولسون عن الأمن الجماعي ٠ اذ أبان ميثاق كيلوغ – بريان غير الفعال لعام ١٩٢٨ ، الذي أنكرت بـه الأمم اعتبار الحرب وسيلة سياسية ، حدود القيود القانونية على وجه التحديد ٠ ففي عالم الدبلوماسية يكون صوت البندقية المعبأة أعلى من صوت المذكرة القانونية ، وهو ما أبانه هتلر فيما بعد ٠ أجل أن مناشدة ولسون أميركا للاستمرار في طريق الديمقراطية قد أسفرت عن أعمال ابداعية طيبة ، بيد أنها قادت كذلك الى حملات كارثية كما في فيتنام ٠

تمخضت نهاية الحرب الباردة عما أطلق عليه بعض المراقبين عالم " أحادي القطب " أو عالم " قوة عظمى وحيدة " ٠ غير أن الولايات المتحدة على الصعيد الواقعي ليست بحال يؤهلها لاملاء جدول الأعمال الكوني لوحدها ، أفضل مما كانت عليه مع تباشير الحرب الباردة ٠ نعم انها أكثر تفوقاً مما عليه قبل عشر سنوات غير أن القوة باتت ويا للسخرية أقل فاعلية في عالم اليوم ٠ وهكذا تضاءلت قدرة أميركا عملياً على تسخير القوة لقولبة بقية أنحاء المعمورة ٠

لقد أزاد النصر في الحرب الباردة من صعوبة تنفيذ الحلم الولسوني للأمن الجماعي الكوني ٠ فالدول الكبرى وفي ظل غياب قوة سائدة بامكاناتها ، لا ترى تهديدات للسلم من نفس الزاوية ولا حتى ترغب بتجشيم عين المخاطر في دحر تلك التهديدات التي تعترف بها (راجع الفصول ١٠ و ١١ و ١٥ و ١٦ الجزء الأول) ٠ فالمجتمع الدولي شديد التوق للتعاون في " حفظ السلم " – أي في تنفيذ اتفاقية نافذة لا يتحداها أي طرف كان – غير أنه جفول من حفظ السلم – وهو

كبح التحديات الفعلية للنظام العالمي ٠ ولا عجب في هذا ما دامت حتى الولايات المتحدة لم تتبن مفهوماً جلياً عما ستقاومه لوحدها في عالم ما بعد الحرب الباردة ٠

تفترض الولسونية في غضون فهمها للسياسة الخارجية امتلاك أميركا لطبيعة متفردة معبر عنها بفضيلة عديمة المضارع وقوة عديمة المنازع ٠ فأميركا جد واثقة من قوتها وفضائل غاياتها بما يؤهلها لامتشاق الحسام من أجل قيمها على أساس يقبله كل العالم ٠ فلا بد أن يكون تفرد أميركا عنوان الافتراق الى السياسة الخارجية الولسونية ٠

منغمسة هي القوى الكبرى في ممارسة نشاطاتها مع دنو القرن الحادي والعشرين ، بحيث أنها ستقلل من تفرد الولايات المتحدة مع مرور الزمن ٠ لا شك أن قوة أميركا العسكرية ستظل بلا منافس في المستقبل ، على أن رغبة أميركا باستخدام تلك القوة في الصراعات الصغيرة الكثيرة التي يرجح أن يشهدها العالم في العقود المقبلة – في البوسنة والصومال وهاييتي – تشكل تحدياً رئيسياً لسياستها الخارجية ٠ والأرجح أن يبقى اقتصاد أميركا هو الأقوى في العالم بعد مرور فترة غير قليلة على ولوج القرن العشرين ٠ بيد أن الثروة سوف تنتشر أكثر وكذلك شأن التكنولوجيا المستخدمة في توليد الثروة ٠ وعليه لا بد للولايات المتحدة من اقتحام حومة تنافس اقتصادي لم تعهد له مثيلاً أيام الحرب الباردة ٠

بلى ستكون أميركا أعظم وأقوى أمة ، لكنها أمة لها نظراؤها ! وستغدو الأولى من بينها بيد أنها ستظل أمة كسائر الأخريات ٠ ولذلك راجح أن يتضاءل

دور التفرد الأميركي في القرن الآتي من ناحية أنه الأساس اللازب للسياسة الخارجية الولسونية ·

حري بالأميركان الا يعدوا هذا حطاً لأميركا أو عرضاً عن تدهورها · فهي في الواقع وفي غالبية فصول التاريخ كانت أمة بين الأمم وليست قوة عظمى فوق الأخريات · فلا يقرعن بروز مراكز قوى أخرى – في أوروبا الغربية واليابان والصين – ناقوس الخطر أمام الأميركان · وبعد كل شيء فأن تقاسم مصادر العالم وتنمية مجتمعات واقتصاديات أخرى كان هدفاً أميركياً منذ عهد خطة مارشال ·

فاذا ما تناقصت فرص التطبيق العملي الولسونية ونصائح ولسون في السياسة الخارجية – وهي الأمن الجماعي ، واقامة نظام دولي يفصل في النزاعات قضائياً والدعم اللامحدود لتقرير المصير – فوفق أية مبادىء ينبغي على أميركا أن تشير في القرن القادم ؟ فنحن لا نملك من التاريخ مرجعاً في هذا ، ولا حتى بقصص مشابهة تشفي الغليل · ومع ذلك ينفحنا التاريخ أمثلته ، فلما كانت أميركا تحث خطاها نحو طرق غير سالكة ، فخير لها رؤية من عهد ما قبل ولسون و " القرن الأميركي " لاستلهام مفاتيح الحل في العقود القادمة ·

اشمأز الأميركان على الدوام من مفهوم ريشليو الموسوم " مصلحة الدولة " – أي أن مصالح الدولة تبرر الوسائل المتبعة لبلوغها · لا يعني هذا عدم سعي الأميركان قط الى " مصلحة الدولة " ، فثمة أمثلة كثيرة على ذلك من عصر التعامل الحاذق للآباء المؤسسين مع قوى أوروبا في مستهل عقود الجمهورية الى

السعي الدؤوب للتوسع الغربي الذي استظل ستار " المصير الجلي " · غير أن الأميركان لم يأنسوا مطلقاً للاعتراف علناً بمصالحهم الأنانية · ولذلك ادعى قادة أميركا عند خوضهم صراعات عالمية أو محلية أنهم انما يقاتلون في سبيل المبادىء لا المصالح ·

يتجلى مفهوم توازن القوى واضحاً في ذهن طالب التاريخ الأوروبي · بيد أنه ، مثلما هو حال مصلحة الدولة ، شيء نشأ في آخر قرنين ونطق به أصلاً الملك الانكليزي (وليام الثالث) لكبح التوسع الفرنسي · وليس مما مدهش في حد ذاته ائتلاف قوى ضعيفة لتشكيل ثقل مقابل للقوة الأقوى ، لأن توازن القوى يقتضي تحرك متواصل · فجدير بقادة أميركا في القرن الآتي اطلاع شعبهم على مفهوم المصالح القومية وأيضاً في كيفية بلوغها – في أوروبا وآسيا – عن طريق المحافظة على توازن القوى · فستعتري أميركا حاجة لشركاء لحفظ التوازن في عديد من مناطق البسيطة ، وليس من المتاح انتقاء هؤلاء الشركاء وفق اعتبارات أخلاقية وحسب · فيتحتم أن يكون التعريف الواضح للمصالح القومية دليلاً للسياسة الأميركية ·

كان أطول ردح دام به نظام دولي دونما اندلاع حرب كبرى ذاك الذي أعقب مؤتمر فيينا · فقد جمع بين الشرعية والتوازن والقيم المشتركة ودبلوماسية توازن القوى ، وبه حجمت القيم المشتركة نطاق مطالب الأمم فيما قلص التوازن درجة الاصرار عليها · بيد أن أميركا حاولت في القرن العشرين أن تنشىء نظاماً عالمياً قائماً على قيمها وحدها تقريباً · فهي تبذل مجهوداً بطولياً مسؤولاً عن

معظم ما هو خير في العالم المعاصر . غير أن من المحال أن تغدو الولسونية الأساس الوحيد لحقبة ما بعد الحرب الباردة .

سوف يستمر نمو الديمقراطية باعتباره طموح أميركا الطاغي ، على أن من الضروري الاعتراف بالعوائق التي يواجهها في لحظة ما يبدو انتصاراً فلسفياً . فتكبيل سلطة الحكومة المركزية كان الهم الرئيسي للمنظرين السياسيين الغربيين ، فيما انطلقت النظرية السياسية في معظم باقي المجتمعات تدعم سلطة الدولة . ومثل هذا الاصرار على توسيع نطاق الحرية الشخصية عديم المثيل في أي مكان آخر . اذ نشأت الديمقراطيات الغربية عن مجتمعات متجانسة ثقافياً ولها تاريخ مشترك طويل (وحتى أميركا ذات السكان متعددي اللغات طورت هوية ثقافية راسخة) لأن المجتمع والأمة ، الى حد ما ، قد سبقا الدولة دونما حاجة لأن ينشأ بفضلها - وفي هذا المضمار تمثل الأحزاب السياسية صوراً عن الاجماع المبطن ، ولذا ليس مستبعداً أن تمسي أقلية اليوم أغلبية الغد .

لقد سبقت الدولة وجود الأمة في معظم أجزاء العالم الأخرى ، فكانت وغالباً ما تبقى العنصر الأساسي في تشكيلها . ولذلك تعكس الأحزاب السياسية أينما وجدت ، هويات محددة وطائفية على الغالب ، بينما تميل الأقليات والأغلبيات الى الاستمرار على وضعها . وعليه ترنو العملية السياسية في هذه المجتمعات الى الهيمنة وليس الى تبادل المناصب الذي يحصل - ان وجد - عن طريق الانقلابات بدلاً من الوسائل الدستورية . ونادراً ما يسود مفهوم المعارضة الموالية - وهو جذر الديمقراطية الحديثة . وفي الكثير الغالب تعتبر المعارضة تهديداً للتلاحم القومي ومرادفاً للخيانة ، ولذلك تقمع بوحشية وضراوة .

تفترض ديمقراطية الغرب مسبقاً اجماعاً على القيم التي تضع حدوداً على المناصرة . فلن تصدق أميركا مع نفسها لولا اصرارها على التطبيق العالمي لفكرة الحرية . فمما لا جدال فيه وجوب ايثار اميركا الحكومات الديمقراطية على القمعية مع استعدادها لدفع ثمن لمعتقداتها الأخلاقية . ومن الواضح ايضاً وجود حيز من الحرية يتيح التصرف لصالح الحكومات والمؤسسات التي ترعى القيم الديمقراطية وحقوق الانسان . وموطن الصعوبة هنا هو تحديد الثمن الحقيقي المطلوب تسديده وصلته بأولويات أميركا الرئيسية بما في ذلك الأمن القومي والتوازن الجيوسياسي العام . فان ذهبت نصائح أميركا وراء الخطب الوطنية فلا بد أن تعكس الفهم الحقيقي لقابلياتها وعليه حذار على أميركا من مضاعفة تعهداتها الأخلاقية ولما تزل مصادرها العسكرية والمالية للوفاء بسياسة خارجية كونية غير كافية . اذ أن من شأن الادعاءات الكاسحة غير الموازاة بالقابلية أو الرغبة على دعمها ، ان تحجم نفوذ أميركا في سائر الميادين الأخرى أيضاً .

محال الاستئناس بمصطلحات تجريدية لوصف التوازن التام بين العناصر الأخلاقية والاستراتيجية لسياسة أميركا الخارجية . غير أن بداية الحكمة تفرض الاعتراف بوجوب استتباب التوازن . فمهما تعاظمت قوة أميركا ، ليس ثمة بلد قادر على فرض ارادته على سائر الشعوب ، وعليه ينبغي تعيين الأولويات باديء ذي بدء . وحتى لو توفرت المصادر ، فلن تحظى الولسونية غير المميزة بالدعم ساعة يفهم الشعب الأميركي بوضوح التعهدات والالتزامات الناجمة عنها . فهي تثير خطر التحول الى شعارات مجردة بغية التنصل من الخيارات الجيوسياسية العسيرة من خلال الادعاءات المنطوية على أقل خطر ظاهري . فهناك فجوة تنذر

بالاتساع في سياسة أميركا بين ادعاءاتها ونواياها بدعمها ، فمن السهل جداً أن تتحول خيبة الأمل المحتمة الى ذريعة للانسحاب من الشؤون الدولية برمتها .

تحتاج المثالية الأميركية في حقبة ما بعد الحرب الباردة الى خلاصة التحليل الجيوسياسي لتشق طريقها بين فوضى التعقيدات الجديدة . وليس هذا بشيء سهل . فقد رفضت أميركا الهيمنة حتى يوم احتكرت السلاح النووي ، وازدرت ميزان القوى حتى حين كانت تمارس أثناء الحرب الباردة دبلوماسية مناطق المصالح في الواقع . فعلى أميركا شأنها باقي الأمم في القرن الحادي والعشرين ان تبتغي بين الضرورة والاختيار سبيلاً ، وأن تجترح رواقاً بين الثوابت الراسخة للعلاقات الدولية والعناصر الخاضعة لتقدير الساسة .

ومتى ما استتب التوازن بين القيم والضرورة ، تحتم أن تبدأ السياسة الخارجية بتشخيص ما يشكل لها مصلحة حيوية – فمن المرجح أن يؤثر تغير في المحيط الدولي سلباً على الأمن القومي ، فتتعين عليها مقاومته مهما كانت صورة التهديد أو مدى شرعيته الظاهرة . اذ كان على بريطانيا العظمى في أوج قوتها أن تهرع للحرب للحيلولة دون احتلال موانيء القنال في البلدان المنخفضة حتى ان سيطرت عليها قوة كبرى يحكمها قديسون . ويفيدنا الجزء الأعظم من خبرات التاريخ ، باعتماد مبدأ مونرو تعريفاً عملياً للمصالح القومية . فتحاشت أميركا منذ دخول ولسون الحرب العالمية الأولى تعريف الصالح القومية بحجة عدم معارضتها التغيير بهذه الطريقة ، بل استخدام القوة لصنعه ، غير ان كلا التعريفين غير واف بالمرة ، ذلك أن مبدأ مونرو كثر التحديد ، بينما كانت الولسونية مبهمة وشديدة التقيد بالقانون . فالنزاع الجدلي حول جميع التصرفات الأميركية

العسكرية تقريباً لما بعد الحرب الباردة قد كشف عدم وجود الاجماع الأكبر لحد الآن على المكان الذي يجب أن تسحب أميركا فيه خطها . فهذا العمل تحد خطير أمام القيادة القومية .

أن أميركا من الناحية الجيوسياسية جزيرة بعيدة عن شواطيء أوراسيا المترامية الأطراف ، التي تتجاوز مصادرها ونفوسها ما لدى أميركا لحد بعيد . وتبقى سيطرة قوة منفردة على أي من جزئي أوراسيا – أوروبا أو آسيا – معلماً بارزاً على الخطر الاستراتيجي أمام أميركا سواء بوجود حرب باردة أم بعدمه . اذ يستطيع هذا التجمع بز أميركا اقتصادياً ، وفي النهاية عسكرياً . وعليه ينبغي مقاومة هذا الخطر حتى لو بدت القوة المسيطرة كريمة محسنة ، فان انقلبت النوايا لوجدت أميركا قوتها واهية جداً لا تجدي لمقاومة فاعلة ، وستفاقم عجزها عن تسيير الأحداث .

لقد سيقت أميركا الى الحرب الباردة بتأثير تهديد التوسع مع السوفيتي ، وبنت جل توقعاتها لما بعد الحرب الباردة على تلاشي التهديد الشيوعي . ومثلما صاغت المواقف تجاه العدوانية السوفيتية ، مواقف أميركا تجاه النظام العالمي – من ناحية الاحتواء – كذلك استبدت جهود الاصلاح الروسية بتفكير أميركا بنظام ما بعد الحرب الباردة . كانت السياسة الأميركية قد استندت الى امكانية ضمان السلم بفضل حد الديمقراطية من غلواء روسيا وتركيز طاقاتها على تطوير اقتصاد السوق . وعلى ضوء هذا اعتبرت مهمة أميركا الرئيسية دعم الاصلاحات الروسية باجراءات مستقاة من تجربة خطة مارشال بدلاً من تجارب الآباء التقليديين للسياسة الخارجية .

تم تكييف السياسة الأميركية (دونما اعتبار لأي بلد آخر) باستمرار وفقاً لتقييم نواياها بدلاً من قدراتها أو حتى سياساتها . فعلق فرانكلين روزفلت آماله بعالم سلمي لما بعد الحرب لدرجة كبيرة على اعتدال ستالين . أما وصل عهد الحرب الباردة أضحى هدف الاستراتيجية الأميركية العملية - الاحتواء - تغيير الغايات السوفيتية ، وغدا الجدل حولها يتركز على حصول التغير المأمول في الغايات السوفيتية من عدمه . ونيكسون وحده من بين رؤساء ما بعد الحرب العالمية الثانية تعامل باستمرار مع الاتحاد السوفيتي باعتباره تهديداً جيوسياسياً . وحتى (ريغان) راهن بقوة على ما أريد منه هدي الزعماء السوفيت . فليس من عجب بشأن افتراض تلاشي النوايا العدائية في أعقاب انهيار الشيوعية ، وبالنظر الى رفض التقليد الولسوني تصادم المصالح ، أن مورست سياسة أميركا لما بعد الحرب الباردة كما لو أن اعتبارات السياسة الخارجية لم تعد صالحة للأخذ بها .

لا يأنس طلبة الجيوسياسة والتاريخ بهذا المفهوم الجاهز ، فهم يخشون عند الغلو في تقييم قدرة أميركا على ادارة عملية تطوير روسيا الداخلي ، من تورط أميركا دون مبرر في خصامات روسيا الداخلية واثارة رد فعل قومي اضافة الى اهمال المهام الاعتيادية للسياسة الخارجية . وينزعون الى تأييد سياسة تهدئة وحشية روسيا التقليدية وبذا هم يحبذون تقديم المساعدة الاقتصادية والمشاريع التعاونية بصدد القضايا الكونية . ويجادلون على أية حال أن تقف روسيا بغض النظر عمن يحكمها خارج الاقليم الذي أطلق عليه (هالفورد ماكندر) قلب الأرض الجيوسياسية . وحتى ان حصل التحول الأخلاقي استناداً الى المنطق فسوف يستغرق وقتاً وفي غضونه يتعين على أميركا أن تدق أسافينها .

لا تأملن أميركا من المساعدة الاقتصادية أن تؤتي ثماراً في روسيا مثل ثمارها الناضجة من خطة مارشال . اذ كان لدى أوروبا الغربية في حقبة ما بعيد الحرب نظام سوق فاعل وبيروقراطيات راسخة اضافة الى وجود التقليد الديمقراطي في غالبية البلدان . وهي قد ارتبطت بأميركا بسبب التهديد العسكري والأيديولوجي السوفيتي . وحفز الاصلاح الاقتصادي خلف درع حلف الأطلسي على عودة ظهور الواقع الجيوسياسي ، اذ أهلت خطة مارشال أوروبا لاعادة صنع نموذجها التقليدي للحكم المحلي .

لن تتوفر ظروف مشابهة في روسيا ما بعد الحرب الباردة . فما هو مهم لسياسة أميركا الخارجية ان تخفف حدة المعاناة وتشجيع الاصلاح الاقتصادي ، ومع ذلك لا يعفيها هذا عن بذل جهد جدي للحفاظ على توازن القوى الكوني بوجه بلد طويل الباع في التوسع الاقليمي .

في لحظة الكتابة هذه حفرت الانقسامات مسارها في جسد الامبراطورية الروسية التي تشكلت طيلة قرنين من الزمان - وذا شديد الشبه بحالتها في حقبة ١٩١٧ - ١٩٢٣ ، التي نهضت منها دونما عزوف عن مسيرها التوسعي التقليدي . فلمن أجل مهام الدبلوماسية مراقبة انهيار الامبراطورية النخرة . فاذ أبطأت دبلوماسية القرن التاسع عشر من تمزق الامبراطورية العثمانية وصانتها من التشظي الذي يشعل حرباً شاملة ، اثبتت دبلوماسية القرن العشرين قصورها عن احتواء عواقب تفتت امبراطورية النمسا - المجر ، لأن انهيار الامبراطوريات ينجم عنه توتران : محاولات الجيران لاستغلال ضعف المركز الامبراطوري ، وبذل الامبراطورية المنهارة جهوداً لاستعادة سلطتها على أطرافها . وها هما كلتا

العمليتان حاصلتان بوقت واحد في الدول الناشئة من الاتحاد السوفيتي السابق ٠ فدؤوب سعي ايران وتركيا الى تعزيز دورهما في جمهوريات آسيا الوسطى ذوات الأغلبية المسلمة ٠ على أن أجرف التيارات الجيوسياسية أتى من محاولة روسيا استعادة سطوتها على جميع الأقاليم مسلسة القياد لموسكو سابقاً ٠ فهي تنزغ باسم حفظ السلام الى اعادة فرض نوع من الوصاية الروسية ، فيما أذعنت الولايات المتحدة المكترثة لحسن نية الحكومة " الاصلاحية " والنافرة من اتباع جدول سياسي وفقاً لذلك ٠ فما فعلت الا النزر اليسير لتمكين الجمهوريات الجديدة – عدا دول البلطيق – من حصولها على الاعتراف الدولي ٠ وقلت زيارات المسؤولين الأميركان السابقين لها وتباعدت ، اما المساعدات المقدمة لها فتضاءلت ٠ كما ندر أن صادفت نشاطات القوات الروسية في اقليمها أو حتى وجودها أي تحد ، فقد عوملت موسكو على أنها المركز الامبراطوري في الواقع وهو ما تعتقده عن نفسها تماماً ٠

يعزى جزء من هذا التصرف الى تعامل أميركا مع الثورات المناوئة للشيوعية ومع تلك المناوئة للمفهوم الامبراطوري المتفجرة في أقاليم الامبراطورية السوفيتية السابقة كأنها ظاهرة واحدة ٠ والواقع أنها تعمل في الاتجاهات المضادة ٠ فقد حظيت الثورة المناوئة للشيوعية بدعم قوي في كل أقاليم الاتحاد السوفيتي السابق ٠ فيما تمتعت الثورة المضادة للامبراطورية الموجهة ضد هيمنة روسيا ، بشعبية طاغية في الجمهوريات غير الروسية وصدفت عنها شعوب الاتحاد الفدرالي الروسي ٠ ذلك أن جماعات القيادة الروسية استوعبت مفهوم دولتها ذات رسالة " تحضيرية " (راجع الفصلين السابع والثامن والجزء الأول) ،

ولذلك نفرت الغالبية العظمى من شخوص القيادة الروسية – مهما كانت قناعاتها السياسية – من تقبل انهيار الامبراطورية الروسية ، أو شرعية الدول الخارجة عنها ، سيما أوكرانيا التي هي مهد الأرثوذكسية الروسية ٠ ويوم حث (الكسندر سولجنتسين) على تخليص روسيا من كابوس العناصر الأجنبية غير المرغوب فيها ، دعا الى قيام موسكو باعادة أقاليم مؤلفة من أوكرانيا وروسيا البيضاء ونصف كازاخستان تقريباً ، أي ما يناهز ٩٠٪ من الامبراطورية السابقة ٠ فليس كل ما هو مناوىء للشيوعية على أرض الاتحاد السوفيتي السابق ديمقراطياً ، وما كل ديمقراطي بمعارض للامبراطورية الروسية ٠

لا غرو أن تعترف معايير السياسة الحقيقية احتفاظ حتى حكومة (بوريس يلتسين) الروسية الاصلاحية بجيوش روسية في أقاليم معظم الجمهوريات السوفيتية السابقة – اعضاء في الأمم المتحدة – وغالباً ضد الرغبة المعلنة للحكومة المضيفة ٠ فقد شاركت هذه القوات المسلحة في الحروب الأهلية لعديد من الجمهوريات ٠ ولذا جأر وزير خارجية روسيا مراراً بمفهوم احتكار روسيا لحفظ السلام في " الخارج القريب " ، وهو أمر مستحيل التمييز عن محاولة استعادة الهيمنة الروسية ٠ اذ ستتأثر الآفاق طويلة المدى بالاصلاحات الروسية ، بيد أن قصيرتها ستعتمد على احتمالية بقاء الجيوش الروسية في أرضها الأم ٠ ولو عادت ترابط على طول حدود الامبراطورية القديمة في أوروبا في الشرق الأوسط ، فلا مندوحة أن يعود التوتر التاريخي بين روسيا وجيرانها – الذي يغذيه الخوف والشك المتبادل ٠ (راجع الفصلين السادس والسابع الجزء الأول) ٠

ثمـة حاجة تعتـور روسـيا لمصلحـة أمنيـة خاصـة في مـا تسـميه " الخـارج القريب " – وهو جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق – تمييزاً له عن الأقاليم الواقعة وراء الامبراطورية القديمة . الا أن السلم العالمي يقتضي تحقيق هـذه المصلحة دون تسليط ضغوط عسكرية أو تدخل عسكري منفرد . فالمسألة هنا هل ينبغي معاملة علاقة روسيا بالجمهوريات الجديدة باعتبارها مسألة دولية تخضع للقواعد المقبولة في السياسة الخارجية ، أم باعتبارها تضخيماً لعملية صنع القرار الروسي بحيث تسعى أميركا للتأثير عليها – ان رغبت – بمناشدة حسن نية الزعماء الروس ففي بعض المناطق – كجمهوريات آسيا الوسطى المهددة بالأصولية الاسلامية – ربما توازي مصلحة أميركا الحيوية نظيرتها الروسية في الأقل لأنها تقاوم الأصولية الايرانية . فالتعاون هنا جد ممكن طالما لا يسوغ عودة للامبراطورية الروسية التقليدية .

الشك حائم ساعة كتابة هذا الفصل حول آفاق الديمقراطية في روسيا ، ولا حتى واضح نزوع روسيا لسياسات تفضي الى الاستقرار العالمي . اذ غردت طوال تأريخها الدرامي خارج سرب العالم الغربي . فما كان لديها كنيسة مستقلة ، و لم تبلغها حركة الاصلاح الديني للقرن السادس عشر ، أو حركة التنوير في القرن الثامن عشر ، كما لم تدرك عصر المكتشفات ، وكذلك اقتصاديات السوق الحديثة . وبات الزعماء أصحاب التجارب الديمقراطية عملة نادرة . وكان جميع الزعماء الروس تقريباً – اضافة الى زعماء الجمهوريات الجديدة – قد تبوءوا مناصب رفيعة أثناء الحكم الشيوعي ! فتعدد المسؤوليات ليس بثوب جديد يلبسونه ، وربما يبدو أنه ليس الأخير .

والأنكى ، الألم الناجم عن الانتقال من الاقتصاد الموجه مركزياً الى اقتصاد السوق اينما تم تجريب ذلك . فالخبرة بالأسواق والحوافز تنقص المدراء ، وافتقد العمال الدافع للعمل جراء ذلك ، اذ لم يتوجب على الوزراء يوماً أن يهتموا برسم سياسة مالية . فلا مناص تقريباً من الركود والانحطاط . كما لم يهدف أي اقتصاد موجه مركزياً الى تحاشي التقشف الصارم على طريق اقتصاديات السوق ، وما فاقم المشكلة الطريقة الخرقاء التي أوصى بها كثير من المستشارين الأميركان . فأتاح الجزع وارتفاع التكاليف الاجتماعية والاقتصادية لهذا الانتقال للشيوعيين في احراز خطوة أبعد في بولندا وسلوفاكيا وهنغاريا الشيوعية ، في فتره ما بعد سقوط الشيوعية . وفي الانتخابات البرلمانية الروسية لكانون الأول ١٩٩٣ أحرزت الأحزاب الشيوعية والقومية سوية ما يقارب ٥٠٪ من الأصوات .

وربما يتوسم حتى المصلحين المخلصين أن في الحركة القومية الروسية قوة توحيدية تحقق غاياتهم . فللحركة القومية في روسيا باعاً تاريخياً رسالياً وامبراطورياً . وما هو بعسير على علماء النفس أن يتناظروا حول ما اذا كان السبب شعوراً عميقاً بانعدام الأمن أم هو عدوان فطري . فالتمييز بين هذا وذاك عاد أمراً روتينياً بالنسبة لضحايا التوسع الروسي . ولا تسير عجلة الديمقراطية في روسيا بنفس زخم السياسة الخارجية بالضرورة وذا ما يفسر عدم استقطاب فكرة استتباب السلم عن طريق الاصلاحات الداخلية في روسيا سوى لقلة من المناصرين في أوروبا الشرقية أو اسكندنافيا أو الصين ، وهو تماماً سبب تحرق بولندا وجمهوريات تشيكا وسلوفاكيا وهنغاريا الى الانخراط في حلف الأطلسي .

تسعى السلوكيات المتواءمة مع مطاليب السياسة الخارجية الى خلق ثقل مقابل للاتجاهات المرئية مع عدم رصد كل الأموال للاصلاح الداخلي ، ولا حرج أن سعت الى كبح التوسع الروسي في غضون دعمها للأسواق الحرة . ووجيه الجدل القائل بانتعاش الاصلاحات الروسية لو تحفزت روسيا على التركيز على تنمية اقليمها الوطني - لأول مرة في تاريخها الممتد من سانت بطرسبرغ الى فيلاديفوستوك ، مما لايتيح سبباً للمعاناة من رهاب الاحتجاز (الخوف من الأماكن الضيقة) .

صقلت السياسة الأميركية تجاه روسيا في أعقاب الحرب الباردة نفسها في قالب رسم كل الأشياء مراعاة لطبيعة زعماء روسيا الخاصة . ولذا عومل ميخائيل غورباتشوف (المزامن لادارة بوش) وبوريس يلتسين (المزامن لادارة كلنتون) باعتبارهما الكفلاء الشخصيين لسياسة روسيا الخارجية السلمية وكذلك لانصهار روسيا في البودقة الدولية ، بالنظر لميولهما الشخصية نحو الديمقراطية واذن ملأ الأسى قلب بوش لتفكك الاتحاد السوفيتي بزعامة غورباتشوف ، فيما ساند كلنتون جهود استعادة نطاق نفوذ روسيا القديم . كما صدف قادة أميركا عن وضع العراقيل الدبلوماسية التقليدية بوجه سياسة روسيا مخافة استفزاز مناوئي يلتسين (وغورباتشوف من قبله) القوميين المزعومين .

اعترت العلاقات الروسية - الأميركية يائس حاجة الى حوار جدي بشأن السياسة الخارجية فليس بنافع لروسيا أن تعامل بمعزل عن المعايير المعتادة للسياسة الخارجية ، لأن هذا يفضي الى اضطرارها لدفع ثمن باهظ فيما بعد لو انجرت الى أعمال يتعذر التراجع عنها . ولا يخشين قادة أميركا صراحة المناقشات بشأن

تحديد نقاط تقاطع وافتراق المصالح الأميركية والروسية . وما محاربو روسيا القدامى الذين حركتهم الصراعات الداخلية ، بمبتدئين وجلين يختل توازنهم بفعل الحوار الوقائعي . فسمتهم القدرة التامة على استيعاب السياسة المستندة الى احترام كل طرف مصالح الآخر . والواقع يبدو أنهم يميلون لفهم هذا الحساب أفضل من التوسل بمفاهيم طوباويه تجريدية .

أن من المهام الرئيسية للنظام الدولي البارز أن ينفتح لاحتضان روسيا . فلديها ميزتان يتحتم الابقاء عليهما عند احداث التوازن : مواقف روسيا المؤثرة والتأثير على حسابات روسيا . فمن الضروري تقديم المعونة الاقتصادية السخية والمشورة الفنية لتخفيف آلام الانتقال ، ويحبذ الترحيب بروسيا في المؤسسات الداعية للتعاون الاقتصادي والثقافي والسياسي - كمؤتمر الأمن الأوروبي . الا أن الاصلاح الروسي سيتوقف ولا يتسارع لو أهملت عودة ظهور المطاليب الروسية الامبراطورية التاريخية . فلا يجوز التقليل من شأن استقلال الجمهوريات الجديدة ضمناً التي اعترفت بها أميركا ، بقبول تحركات القوات الروسية في أراضيها .

يجب مواءمة سياسة أميركا تجاه روسيا مع المصالح الدائمية وليس مع تقلبات سياسة روسيا الداخلية . فأن سارت سياسة أميركا الخارجية وراء سياسات روسيا الداخلية لباتت ضحية قوى خارج سيطرتها وستفقد معيارها في اتخاذ الاحكام . أينبغي أن تتكيف السياسة الخارجية لأي اهتزاز يحصل في عملية ثورية بالأساس ؟ أفتنبذ أميركا روسيا متى ما حصل تغير داخلي لا توافق عليه ؟ أو هل تحتمل أميركا محاولة عزل روسيا والصين في آن واحد والنبش باسم أولوياتها

الداخلية (الحلف الصيني – السوفيتي) ؟ ان سياسة روسية أقل تطفلاً في هذه الحقبة ستسمح بخطة بعيدة الأمد أكثر استقراراً ٠

يميل مؤيدو ما أطلقت عليه في الفصل الثاني عشر ، مدرسة " نفسانية " للسياسة الخارجية ، الى رفض هذه المجادلات باعتبارها " تشاؤمية " ٠ فهم يقولون أن المانيا واليابان بعد كل شيء قد تغيرت ، فلم لا تتغير روسيا ؟ بيد أن من الصحيح أيضاً أن المانيا الديمقراطية قد تغيرت في الاتجاه المضاد في الثلاثينيات ، وان من عولوا على نواياها وجدوا أنفسهم فجأة وجها لوجه أمام قدراتها الضخمة ٠

يستطيع رجل الدوله دوماً أن يتخلص من مآزقه بصنع أمثل الافتراضات عن المستقبل ، ويتجسد أحد اختباراته في قدرته على درء الطوارىء الكريهة وغير المرئية ٠ ولذلك ، منوط بالقيادة الروسية الجديدة أن تفهم العملية المتعبة لمحاولة التغلب على ردح جيلين من سوء الحكم الشيوعي ٠ واذن فهي ليست مخولة بأن يتم تسليمها مناطق النفوذ التي طمع بها القياصرة ومسؤولي الحزب الشيوعي على طوال حدود روسيا الشاسعة لمدة ٣٠٠ عام ٠ فان أزمعت روسيا أن تغدو شريكاً جاداً في تشييد نظام عالمي جديد ، فعليها أن تستعد للامتثال لضوابط الاستقرار اضافة الى جني فوائده ٠

توجهت سياسة أميركا التي اقتربت الى أقرب حد من التعريف المقبول عموماً للمصلحة الحيوية نحو حلفائها في منطقة الأطلسي لقد مثلت منظمة حلف شمال الأطلسي ، المؤسسة التي واءمت أكثر بين أهداف أميركا الأخلاقية

والجيوسياسية بالرغم من تعريفها حسب المصطلحات الولسونية بأنها اداة للأمن الجماعي وليست حلفاً ٠ وبالنظر لاتجاه هدفها نحو الحيلولة دون هيمنة الاتحاد السوفيتي على أوروبا ، حققت الغرض الجيوسياسي في الحفاظ على مراكز القوى في أوروبا وآسيا من السقوط تحت حكم بلد عدائي مهما كانت المبررات التي يسوقها ٠

كان الشك سيخامر مهندسي حلف الأطلسي لو قيل لهم ان انتصار الحرب الباردة سيثير شكوكاً حول مستقبل انجازهم فقد اعتبروا الأمر مقضياً أن تكون جائزة الانتصار في الحرب الباردة شراكة ابدية في الأطلسي ٠ لقد خيض غمار عدد من المعارك الحاسمة في سبيل هذا الهدف ٠ وفي غضون ذلك كانت أميركا مرتبطة بأوروبا خلال مؤسسات استشارية دائمية ومنظومة قيادة عسكرية موحدة – نطاق ومدة زمنية فريدان في تاريخ الأحلاف ٠

أصبح ما أطلق عليه أسرة الأطلسي – وهو مصطلح يومي بالحنين للماضي بصورة خرقاء منذ نهاية الحرب الباردة – اشارة وقتية منذ انهيار الشيوعية فبات تخفيف العلاقة مع أوروبا أمراً لا غبار عليه ٠ وبالرغم من التأكيد على توسيع رقعة الديمقراطية ، يبدو أن أميركا اليوم تهتم بمجتمعات بجعبتها مؤسسات مماثلة وتقاسمها مواقف مشتركة بخصوص حقوق الانسان وقيم أساسية أخرى ، أقل من اهتمامها بمناطق أخرى في العالم ٠ حيث قاسم صانعو روابط الأطلسي – ترومان وأشسون ومارشال وآيزنهاور – معظم الأميركان تحفظاتهم بشأن الأسلوب الأوروبي في الدبلوماسية ٠ على أنهم أدركوا أنه دون الروابط مع الأطلسي ستجد أميركا نفسها في عالم من أمم لها معها علاقات أخلاقية قليلة أو تقاليد مشتركة –

باستثناء نصف الكرة الغربي . والحالة هذه ستضطر أميركا الى اتباع السياسة الواقعية المحصنة غير المتلائمة أساساً مع التقليد الأميركي .

يعزى سبب انهيار ما كان يوماً اهم سياسة أميركية الى التسليم أن الناتو جزء من منظر لا يحتاج الى مزيد من العناية . ولعل الشيء الأكثر أهمية ان جيل القادة الأميركان الذين بزغوا في العقد ونصف الماضي قد قدم أكثرهم من الجنوب والغرب حيث تربطهم وأوروبا علاقات عاطفية وشخصية أضعف من علامات المؤسسة الشمالية الشرقية تجاه عين أوروبا . وأكثر من هذا أن الليبراليين الأميركان (حاملي لواء الولسونية) شعروا بالاذلال من الحلفاء الديمقراطيين الذين يمارسون سياسة المصلحة القومية بدلاً من الأمن الجماعي والاعتماد على القانون الدولي .

ان الانشقاقات ضمن اطار أوروبا ليست غير خلافات عائلية . فما برزت قضية رئيسية الا وتجلى التعاون الأوروبي أكثر من أي صوب آخر . وان توخينا الصدق فها هي القوات الفرنسية والبريطانية تجوب ساحة الوغى في البوسنة وليست القوات الأميركية ، بالرغم من الانطباع المضاد الذي صنعته الخطب الاعلامية الرنانة . وكذلك في حرب الخليج ، كانت جل القوات العاملة غير الأميركية بريطانية وفرنسية وان قصرت ذراع أوروبا عن الانخراط في سياسة أطلسية جديدة بعدد الحرب الباردة ، فقد كتبت أميركا على نفسها الا تنكص سياستها لثلاثة أجيال ساعة أزف النصر . وعليه تنطوي مهام الحلف على رعاية المؤسستين اللتين توطرا علاقة الأطلسي وهما (منظمة حلف شمال الأطلسي – الناتو) والاتحاد الأوروبي – المسمى سابقاً بالسوق الاقتصادية الأوروبية .

تبقى منظمة الناتو العروة الوثقى بين أميركا وأوروبا ، فيوم تشكلت ، كانت القوات السوفيتية رابضة عند الألب في المانيا المقسمة . وسرعان ما حاز الجيش السوفيتي على سلاح نووي وفير أيضاً بعد أن آنس بنفسه قدرة على اجتياح أوروبا الغربية بقواته التقليدية . وهكذا اتكلت أوروبا الغربية على أميركا لضمان أمنها سني الحرب الباردة ، وما فتئت مؤسسات الناتو تعكس هذا الوضع . فلأميركا اليد الطولى في القيادة العليا وبزعامة جنرال أميركي ، متصدية لمساعي فرنسا نحو اكتساب هوية دفاعية اوروبية متميزة .

ان لحركة التوحد الأوروبي جذورها في افتراضين : فالانزلاق الى الهامش سبيل أوروبا ما لم تتبن النطق بصوت واحد ، كما لا يحبذ أن توضع المانيا المقسمة في موضع يدفعها الى التمايل بين كتلتي الحرب الباردة وتؤدي دور كل منهما ضد الأخرى . اذ اتسعت حلقة الاتحاد الأوروبي (في لحظة وضع الكتاب) المؤلفة أصلاً من ست أمم ، الى اثنتي عشرة وهي في طور مزيد من التوسع لتضم اسكندنافيا والنمسا وأخيراً عدداً من توابع الاتحاد السوفيتي سابقاً .

اهتزت أركان هذه المؤسستين من جراء انهيار الاتحاد السوفيتي واعادة توحيد المانيا . فقد اختفى كل الجيش السوفيتي ، وربض الجيش الروسي في الشرق نائياً بمئات الأميال . لذلك لا يمكن توقع هجوم روسي في المستقبل القريب على أوروبا الغربية ، بسبب الاضطرابات الناشبة في الاتحاد السوفيتي وفي الوقت عينه انعشت الاتجاهات الروسية لاعادة بعث الامبراطورية الروسية المخاوف من التوسعية الروسية سيما في الدول التابعة سابقاً في أوروبا الشرقية . فما من قائد لجيران روسيا الحاليين يشاطر أميركا ايمانها بالانقلاب الروسي مفتاحاً لامن بلده .

وكلهم يضع الرئيس بوريس يلتسين ضمن قائمة خصومه غير أنه الأقل خطراً من بين تهديدين محتملين ، وليس شخصاً يمكن أن يبدد مخاوفهم التاريخية .

وتفاقمت المخاوف من بروز المانيا الموحدة . اذ مقتت البلدان الواقعة بين العملاقين القاريين الفراغ الأمني الناشيء ، سيما وقد أدركت انهما قد نحتتا جيرانهما أو قاتلتا في أراضيها على مر التاريخ ، ومن هنا نفهم تركيز هذه البلدان العنيد على الحماية الأميركية - كما تجلى في عضوية الناتو ، وريادة القضايا السياسية ضمن اطار الاتحاد الأوروبي .

سيطول التغير كل علاقات الأطلسي التقليدية في مقبل السنين . فستيبدد شعور أوروبا بالحاجة السالفة للحماية الأميركية وستنطلق قدماً لبلوغ مصالحها الخاصة أقوى ، فيما ستتلاشى رغبة أميركا في التضحية لسواد عين الأمن الأوروبي وستتلفع بعزلتها وراء معاذير شتى ، وسيحين الوقت الذي ستصر عنده المانيا على النفوذ السياسي والقوة الاقتصادية المتمتعة بهما ، وسيتقلص اعتمادها المعنوي على الدعم العسكري الأميركي والسياسي الفرنسي .

لن تتبدى طلائع هذه الاتجاهات كلية ما دام القياد مسلساً لأيدي (هلموت كول) وريث التقليد الاديناوري . ومع ذلك فهو يمثل آخر قادة من هذا النمط . فقد خلا بال الجيل الناهض من الذكريات الشخصية للحرب أو دور أميركا في اعمار المانيا المدمرة بعيد الحرب . ولن يرى مسوغاً عاطفياً لارجاء اقامة المؤسسات التي تتخطى الحدود أو اخضاع آرائه لما تشتهيه أميركا أو فرنسا .

لخير انجاز طلع به جيل قادة أوروبا وأميركا لما بعد الحرب ، ادراكهم أن أميركا ان لم تتدخل عضوياً في أوروبا فستضطر الى التدخل لاحقاً في ظروف أقل مواتاة بكثير لكلا طرفي الأطلسي . وهذا ما ينطبق أكثر على الحال اليوم . ذلك أن استقواء المانيا بلغ حداً أعجز المؤسسات الأوروبية القائمة عن استتباب توازن بين المانيا وشركائها الأوروبيين . ولا حيلة لأوروبا حتى بوجود المانيا ، تولي أمر عودة انبعاث روسيا أو تفككها ، وذان أخطر تهديدين اعقبا الاضطرابات في الاتحاد السوفيتي .

ليس من صالح أي بلد أن تختار المانيا وروسيا بين كونهما شريكين حميمين أو خصمين لدودين . فلو اشتد تقاربهما لاطلقا مخاوف تسيدهما المشترك ، وان تنازعتا ، لصعد ذلك أزمات أوروبا . ولاميركا وأوروبا مصلحة مشتركة في تحاشي سياسات المانيا وروسيا غير المكبوحة ، مصطخبة التنافس حول أوروبا الوسطى . ودونما أميركا لن تقدر بريطانيا العظمى وفرنسا لوحدهما على ضبط التوازن السياسي في أوروبا الغربية ، اذ ستموج المانيا بالنعرة القومية ، فيما تفتقد روسيا لمفاوض عالمي . وازاء غياب أوروبا من بال أميركا ، ستستحيل الأخيرة الى جزيرة بالغة البعد عن أوراسيا ، معنوياً وجغرافياً وحتى جيوسياسياً .

تقابل ثلاثة أصناف من المشاكل المتعلقة بنظام ما بعد الحرب الباردة حلف شمال الأطلسي : انها العلاقات في اطار الحلف التقليدي ، وعلاقات بلدان الأطلسي بتوابع الاتحاد السوفيتي سابقاً في أوروبا الشرقية ، ثم علاقة الدول الناشئة عن الاتحاد السوفيتي سابقاً سيما الاتحاد الروسي الفيدرالي ، ببلدان شمال الأطلسي وأوروبا الشرقية .

اذ طغت الخلافات المتواترة بين آراء أميركا وفرنسا بصدد علاقات الأطلسي على عملية تعديل العلاقات ضمن نطاق هذا الحلف . فتلك أميركا هيمنت على الناتو تحت لواء التوحيد . بينما وقرت فرنسا الاستقلال الأوروبي فصاغت اطار الاتحاد الأوروبي . فتمخض الخلاف عن تبوء أميركا الزعامة الطاغية في الحقل العسكري وبذلك محت بروز هوية سياسية أوروبية ، فيما انطبع دور فرنسا بالالحاح العنيد على استقلال أوروبا السياسي بغية تعزيز تلاحم الناتو .

ها هو الصراع بين مفاهيم راشليو وأفكار ولسون يقرع طبوله ثانية – انه لصراع بين سياسة خارجية تجسد موازنة للمصالح ، ودبلوماسية تؤكد على الانسجام الداخلي . فقيادة الناتو الموحدة تعني لأميركا تعبيراً عن وحدة الحلفاء ، بيد أنها ترفع راية الثورة في فرنسا . وكثيراً ما عسر على قادة أميركا فهم داعي اصرار بلد ما على الحق في التصرف المستقل ان هجرته الرغبة بالاحتفاظ بخيار ترك حليفه في موقف حرج . بيد أن فرنسا رأت في امتعاض أميركا من دور أوروبا العسكري المستقل ، مسعى خفي الى الهيمنة .

لقد استقى كل طرف نظرته الى العلاقات الدولية من تجارب تاريخه . ففرنسا وريثة نمط الدبلوماسية الأوروبي الذي أوجدته منذ ما يفوق على ٣٠٠ سنة . أما وجنحت بريطانيا للتخلي عن حماية توازن القوى ، واصلت فرنسا هذا الدور متقمصة سياسات مصلحة الدولة سواء كان ذلك خيراً أم شراً ، ومتبنية الحسابات الدقيقة للمصالح بدلاً من رعاية الانسجام بمعناه الصرف . بيد أن أميركا امتثلت للولسونية ولو لوقت قصير ، فهي اذ اقتنعت بوجود الانسجام

الداخلي ، أصرت على خطر الاستقلال الأوروبي أو عدم ضرورته ، بدعوى الأهداف الأوروبية والأميركية .

لا يصح معالجة التهديدين الخطيرين لأوروبا في العصر الراهن – انتماء المانيا الموحدة الى الغرب وعلاقة حلف الأطلسي بروسيا الجديدة – بالتطبيق الحرفي لفن الحكم الريشولي أم الولسوني . فعناية النهج الرشولي منصبة على السمات القومية لبلدان أوروبا منفردة وتفضي الى تشظي أوروبا . بينما توهن الولسونية الحرفية أواصر شعور أوروبا بهويتها . ولو سعي الى بناء مؤسسات أوروبية قائمة على مقاومة الولايات المتحدة لتقوضت في النهاية وحدة أوروبا وتشققت لحمة الأطلسي . من جهة ثانية لا مبرر لخوف أميركا من رسوخ الهوية الأوروبية ضمن نطاق الناتو نظراً لضآلة احتمال صدور فعل أوروبي عسكري مستقل بأي حجم كان وفي أي مكان دون نيل الاسناد الأميركي السياسي والسوقي . وأخيراً لا تصنع الوحدة قيادة موحدة ، بله الشعور بمشترك المصالح السياسية والأمنية .

لقد طغت سورة الأحداث على الخلاف بين أميركا وفرنسا ، وبين مثاليات ولسون وريشليو . فكل من حلف الأطلسي والاتحاد الأوروبي لبنات لا يستغني عنها لتشييد نظام دولي جديد ناعم بالاستقرار . فالناتو أمثل حماية بوجه اي ابتزاز عسكري أنى كان مصدره ، والاتحاد الأوروبي آلية رئيسية للاستقرار في أوروبا الوسطى والشرقية . والحاجة تدعو لكلا المؤسستين الى ربط توابع الاتحاد السوفيتي السابق والبلدان المنبثقة عنه في اطار نظام دولي سلمي .

لا يمثل مستقبل أوروبا الشرقية ومستقبل البلدان الناشئة من الاتحاد السوفيتي مشكلة واحدة . فقد تعرضت أوروبا الشرقية لاحتلال الجيش الأحمر ، وتشكلت هويتها الثقافية والسياسية وفقا للتقاليد الأوروبية الغربية ، وما أصح هذا على بلدان بولندا وجمهورية التشيك وهنغاريا وسلوفاكيا . فلو انعدمت الروابط بأوروبا الغربية ، لاستحالت الى أرض حرام بين المانيا وروسيا . وان رغبت هذه البلدان بالاستفادة من هذه العلاقات ، فعليها الانخراط في الاتحاد الأوروبي وحلف الأطلسي ، ولتؤم صوب الاتحاد الأوروبي أن ابتغت الى القوة الاقتصادية والسياسية سبيلاً ، ولتول وجهها شطر حلف الأطلسي ان شاءت الأمن ، والحق أن العضوية في احدى هاتين المؤسستين تتضمن العضوية في الأخرى . وطالما أن غالبية أعضاء الاتحاد الأوروبي أعضاء في الناتو ، مع استبعاد احتمال تجاهلها حصول هجمات على أحد أعضائهما بعد قطع التلاحم الأوروبي شوطاً معيناً ، ستؤدي العضوية في الاتحاد الأوروبي في الأقل الى توسيع ضمانة الناتو الواقعية بطريقة أو بأخرى .

حيد عن هذه المسألة فيما مضى من جراء اغلاق باب العضوية في هاتين المؤسستين بوجه أوروبا الشرقية . ومهما كان الأمر فتعليل هذا الاغلاق لدى كل من المؤسستين مختلف كاختلاف التقاليد الأوروبية عن الأميركية . فقد أسندت أوروبا قرارها بتوسيع الاتحاد الأوروبي شرقاً على أساس السياسة الواقعية : فقلبت المبدأ وعرضت العضوية الى حين صلاح اقتصاديات أوروبا الشرقية (وفي غضون ذلك لحجب اقتصاديات أوروبا الغربية عن المنافسة لفترة أطول) وسيجعل هذا التصرف من العضوية في خاتمة المطاف قضية فنية لا بد من الاهتمام بها بمرور الزمن .

بينما ينطلق رفض أميركا لقبول عضوية البلدان الشرقية في الناتو من مبدأ ذي جذور . فقد استعاد كلنتون ذكرى رفض ولسون التاريخي للأحلاف - لاستنادها الى توقع مصادمات - ليستغل قمة الناتو (كانون الثاني ١٩٩٤) طارحاً نظرة بديلة . فأوضح سبب نفور أميركا من قبول بولندا وهنغاريا وجمهورية التشيك وسلوفاكيا في الناتو ، ثم جادل بعدم تحمل حلف الأطلسي " رسم خط جديد بين الشرق والغرب يمكن أن ينذر بمواجهة مستقبلية .... انني أقول لكل أوروبي وأميركي يطلب منا ببساطة رسم خط جديد في أوروبا الى الشرق أكثر ما بوسعنا قتل فرصة صنع خير مستقبل لأوروبا منطو على ديمقراطية في كل مكان ، واقتصاد سوق أنى كان ، مع تعاضد الشعوب في كل بقعة طالبة الأمان ".

فتقدم كلنتون ضمن هذا الاطار بمشروع دعاه " شراكة السلام " ، فهو يدعو لانضمام ((جميع)) البلدان الناشئة عن الاتحاد السوفيتي السابق و ((جميع)) توابع موسكو السوابق الى ما يماثل نظاماً مهلهلاً للأمن الجماعي . انه لمزيج من الولسونية ونقد (والاس) للاحتواء المذكور في الفصل ١٦ (الجزء الأول) ، فهو يطبق مبادىء الأمن الجماعي ، يساوي ضحايا الامبريالية السوفيتية والروسية بجلاديها ، يمنح لجمهوريات آسيا الوسطى على حدود أفغانستان نفس مكانة بولندا وهي ضحية أربع عمليات تقسيم اشتركت بها روسيا . وشراكة السلام هذه ليست محطة متوسطة في الطريق الى الناتو ، كما نود بذلك خطأ ، بل هي بديل لها ، مثلما أضحت (معاهدة لوكارنو) بديلاً للحلف البريطاني الذي لهثت فرنسا وراءه في العشرينات .

بيد أن لوكارنو نفت وجود سبيل بين حلف قائم على وحدة الهدف ، ومؤسسة متعددة الجنسيات قائمة ليس على الفهم المشترك للتهديد ، بل على الوفاء بالشروط المحددة للحكم الداخلي • أما شراكة السلام هذه فتثير خطر صنع نوعين من الحدود في أوروبا : الحدود المحمية بضمانات أمنية ، والحدود التي نأت هذه الضمانات عن حمايتها – أنه لأمر لا بد أن يحرض على عدوان المعتدين المحتملين ويضعف موقف الضحايا المحتملين • فيتحتم اتخاذ الحيطة لئلا تتشكل منطقة استراتيجية حرام في أوروبا الشرقية والوسطى بذريعة تفادي المواجهة ، تلك المنطقة التي كانت جرثومة كثرة من الصراعات في أوروبا •

سيبدو الأمر مستحيلاً حل المشكلة المزدوجة لأمن أوروبا الشرقية وضم روسيا لبودقة الأسرة الدولية ، في نفس البرنامج • فان كانت شراكة السلام وجهاً للناتو فالاحتمال كبير أن توهن حلف الأطلسي بتشتيت قواه على نشاطات لا تتعلق بأية رسالة أمنية حقيقية ، وتفاقم الشعور بانعدام الأمن لدى أوروبا الشرقية ، ناهيك عن عدم تهدئتها مخاوف روسيا نظراً لغموضها الشديد • والواقع ان هذه الشراكة تثير خطر اعتبار الضحايا المحتملين للعدوان اياها شيئاً عديم الأهمية ان لم يكن خطراً ، بينما ستعدها آسيا نادياً عرقياً موجهاً أساساً ضد الصين واليابان •

وفي الوقت عينه تطالعنا أهمية ضم روسيا الى صومعة بلدان الأطلسي • فثمة مكان في مؤسسة تدعو نفسها شراكة السلام بشرط تعاطيها مهام يفسرها جميع أعضاءها بنفس الطريقة لحد بعيد • وتوجد هذه المهام المشتركة في ميادين التنمية الاقتصادية والتعليم والثقافة • بيد أنه يمكن توسيع وظائف مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ليستوعب هذه الأهداف ، مع اعادة تسمية شراكة السلام •

من هذا المنظور سيرسي حلف الأطلسي اطاراً سياسياً مشتركاً ويهيء أمناً يفيء لظله الجميع ، فسيعجل الاتحاد الأوروبي قبول عضوية توابع أوروبا الشرقية السابقة وسيتولى مجلس تعاون شمالي الأطلسي ومؤتمر الأمن والسلام في أوروبا الذي قد تعاد تسميته وفقاً لشراكة السلام ، ضم جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق – سيما الاتحاد الروسي – الى حظيرة الأطلسي • وستتسع مظلة الأمن لتستوعب الديمقراطيات الجديدة في أوروبا الشرقية وان ظلت روسيا منكمشة ضمن حدودها فسينتقل التركيز الى الشراكة • وعليه ستهيمن المشاريع السياسية والاقتصادية المشتركة على علاقة الشرق بالغرب على نحو متزايد •

لا يكمن مستقبل العلاقة بالأطلسي في علاقات الشرق – الغرب ، بله في الدور الحاسم لمساعدة أميركا على مواكبة الاقتراب المنظور من القرن الحادي والعشرين ، فمن المحال حتى لحظة الكتابة هذه التنبوء بهوية أي من القوى الزاحفة مع غيرها ستهيمن وستسلط تهديداً أكبر ، أو بأي تكتل منها : أهي روسيا أم الصين أم الاسلام المتشدد ؟ لكن قدرة أميركا على التعامل مع أي من هذه الحركات ستتعزز بفضل تعاون أمم شمالي الأطلسي ، وبهذا السياق سيغدو ما أطلق عليه قضايا " خارج المنطقة " ، جوهر العلاقة بشمالي الأطلسي التي ينبغي تنظيمها لهذا الغرض •

ثمة مصلحة أميركية عظيمة في آسيا وهو ما تجلى في مقترح تشكيل (أسرة للمحيط الهادي) قدمه كلنتون عند اجتماعه مع رؤساء حكومات آسيوية عام ١٩٩٣ • غير أن مصطلح " الأسرة " في آسيا يعني أمراً بالغ التحديد ، ذلك أن العلاقات في منطقة المحيط الهادي شديدة الاختلاف عنها في منطقة الأطلسي فأمم

أوروبا متكتلة في رحاب مؤسسات مشتركة ، فيما ترى أمم آسيا نفسها مختلفة ومتنافسة . اذ تحمل علاقات كبرى أمم آسيا أغلب سمات نظام القوى الأوروبي للقرن التاسع عشر . فمن قريب المؤكد أن يحرض أي تقدم تحرزه قوة منه ، القوى الأخرى على القيام بمناورة مقابلة .

ان البطاقة الشاذة هي موقف الولايات المتحدة المتمتعة بقدرة ، لا فلسفة ، على العمل بطريقة أقرب كثيراً الى أسلوب عمل بريطانيا العظمى للمحافظة على توازن القوى حتى اندلاع الحربين العالميتين في القرن العشرين . فاستقرار منطقة الهادي الآسيوية وتدعيم رفاهيتها المزعومة ليس أمراً بيد الطبيعة ، بل هو نتاج توازن يقتضي عناية دقيقة متزايد في عالم ما بعد الحرب الباردة .

قلة هم طلبة الولسونية في آسيا . فما هناك ستار للأمن الجماعي أو وجوب ارتكاز التعاون على قيم داخلية مشتركة ، حتى لدى الديمقراطيات القليلة الموجودة هناك ، ولذا ينصب كل التركيز على التوازن والمصالح القومية . فذي الانفاقات العسكرية تتصاعد عند جميع البلدان الكبرى ، ومنها الصين التي تزحف الآن لمكانة قوة عظمى . اذ سيناظر بمجمل انتاجها القومي بمعدل نموه البالغ ٨٪ وهو أوطأ مما كان في الثمانينات ، انتاج أميركا عند نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين . وستخيم الصين سياسياً وعسكرياً قبل ذلك بوقت طويل على آسيا لتؤثر في حسابات القوى الأخرى ، مهما كانت درجة انضباط سياستها . ويرجح أن تسعى قوى آسيا الأخرى الى مقابلة الثقل الصيني المتزايد مثلما تفعل اليوم حيال اليابان . وتضم دول شرقي آسيا في صفوفها فيتنام المرتعبة حتى الآن ،

برغم انكارها ذلك ، والدول المتكتلة أصلاً لموازنة ثقل الصين واليابان . وهذا أيضاً الدافع لمناشدة شرقي آسيا أميركا البقاء في المنطقة .

لا غرو أن يتكيف دور اليابان وفقاً لتلك الظروف المتغيرة رغم أن قادة اليابان السائرين على نهجهم القومي سيجرون هذا التكيف بمراكمة الانجازات الدقيقة غير المحسوس بها ظاهرياً . فقد نعمت اليابان بحماية أميركا أبان الحرب الباردة متخلية عن اعتمادها التاريخي على ذاتها . ولكونها منافساً اقتصادياً حرونا ، دفعت مستحقات حرية مناوراتها في الحقل الاقتصادي عن طريق اخضاع سياساتها الخارجية والأمنية لسياسات واشنطن . وما دامت كلتا الدولتان تحسبان الاتحاد السوفيتي أخطر تهديد لهما ، ما مستبعد أن تتطابق مصالح أميركا واليابان الحيوية .

غير راجح استمرار هذا الوضع . فازاء حث كوريا والصين خطاهما في الاستقواء العسكري ، ووجود قوة عسكرية روسية هامشية في سيبيريا ، لن ينجح واضعو خطط اليابان بعيدة المدى الى التسليم بكامل المصالح الأميركية واليابانية . فأية ادارة جديدة ستبدأ عملها باعلان اعادة تقييم السياسات القائمة (أو في الأقل التلميح بأنها عرضة للتغيير) ، وحين تغدو المواجهات حول القضايا الاقتصادية قاعدة لا استثناء ، يصعب القول بعدم افتراق المصالح الأميركية واليابانية مطلقاً . فعلى أية حال تتباين نظرة اليابان الى أراضي آسيا عن نظرة أميركا بسبب القرب الجغرافي وعبرة التاريخ . ولذلك خطت ميزانية اليابان الدفاعية للامام فباتت ثالث أكبر ميزانية في العالم ، ولو سلمنا بمشاكل روسيا الداخلية ، ربما ارتقت اليابان لمرتبة ثاني أقوى قوة عسكرية .

يوم سئل (كيشي ميازاوا) رئيس وزراء اليابان فيما بعد ، عام ١٩٩٢ عن قبول اليابان للقدرة النووية الكورية ، أجاب خلافاً للتقليد الياباني المباشر : " كلا " . أعنى هذا نزوع اليابان لتطوير قدرتها النووية ؟ أم أنه يشير الى مسعى لكبح جماح قدرة كوريا النووية ؟ الحقيقة المجردة أن هذه الأسئلة توحي باحتمالية ابتعاد اليابان لحد ما عن سياسات أميركا الأمنية والخارجية .

تظهر حتى التحليلات الثاقبة المتعلقة بالقوى الكبرى الأخرى احتمالية تبدل وحتى انقلاب التوازن الآسيوي . فما بمقدور أميركا أن تضع الا تحرك ساكناً حتى يتعرض التوازن في آسيا للخطر . واذن ينبغي أن تبلغ سياستها حداً في المرونة يؤهلها للتأثير على جميع المحافل الآسيوية المتاحة . وذا ما يحصل فعلاً لدرجة ما فقد استتب لها دور في جنوب شرق آسيا ، واشتركت بفعالية في التعاون الاقتصادي في الهادي الآسيوي .

لاحت أيضاً حدود تأثير أميركا على هذه المؤسسات متعددة الجنسيات . فقد قوبل مقترح كلنتون باقامة أسرة هادية أكثر مؤسسة وفقاً للنموذج الأوروبي بصدود مهذب ، لعدم اعتبار أمم آسيا أنفسها أسرة واحدة ، فهي راغبة عن اطار مؤسساتي قد يعطي قوى آسيا الكبرى المحتملة - أو حتى أميركا - صوتاً أعلى بخصوص شؤونها . فأمم آسيا تتقبل تبادل الأفكار مع أميركا ، كما تحبذ الابقاء على ارتباط أميركا بقوة درءاً لأي تهديد لاستقلالها في حالات الطوارىء . بيد أنها شديدة الشك أيضاً من الجيران الأقوياء ، ولحد ما من أميركا ، بحيث تفضل المؤسسات الرسمية التي تضم الهادي .

واذن تتوقف قدرة أميركا على صنع الأحداث في النهاية على علاقاتها الثنائية مع قوى آسيا الكبرى بصورة أساسية . وذا هو سبب اكتساب سياسات أميركا تجاه اليابان والصين - محتدمة الخلافات في لحظة الكتابة هذه - أهمية بالغة . فأحد وجوهها ان الدور الأميركي هو مفتاح اعانة اليابان والصين على تعايشهما برغم ريبة احدهما الآخر . واذ ستنوء اليابان بسكان مسنين واقتصاد راكد في المستقبل القريب ، لعلها نازعة الى تنكب التفوق التكنولوجي والاستراتيجي قبل أن تبرز الصين قوة كبرى وتستعيد روسيا قوتها . ثم انها قد تؤوب الى رصيدها العظيم ، التكنولوجيا النووية .

فحيال أي من الاحتمالين ، تستحيل العلاقات اليابانية - الأميركية الوثيقة اسهاماً حيوياً في اعتدال اليابان وتطمين أمم آسيا الباقية . فالخوف الذي تثيره قوة اليابان المرتبطة بأميركا للصين وأمم آسيوية أخرى لأقل مما تثيره قدرات اليابان العسكرية لوحدها . وستفصح اليابان عن حاجتها لقوة عسكرية أقل ما دامت تتفيأ ظلال شبكة الأمان الأميركية - حتى أن انحسرت لأقل مما عليه سابقاً . فيما ستبرز حاجة الى وجود عسكري أميركي ضخم شمالي شرقي آسيا (اليابان وكوريا) . فلو شغر مكانه لتلاشت مصداقية الالتزام الأميركي بدور دائم في آسيا ، وستندفع اليابان والصين سراعاً الى تبني خطط ذات نهج قومي توجه آخر الأمر من احداهما ضد الأخرى وضد جميع الدول بينهما .

ثمة عوائق عسيرة ، تواجه انعاش العلاقات اليابانية - الأميركية على أساس المصالح الجيوسياسية المتوازنة . فالخلافات الاقتصادية أمر شائع ، وقد تبرز العراقيل الثقافية أكثر صعوبة على التجاوز . وأشد مرارة في هذا الصدد هو الاختلاف

بالمنظور القومي لصنع القرار . فهو في أميركا يخضع لمكانة الشخص : اذ بوسع شخص واحد هو الرئيس عادة : أو وزير الخاجرية أحياناً ، أن ينتقي برنامجه الأثير من بين خيارات متاحة ، بفضل قوة منصبه كثيراً أو قليلاً . فيما تعتمد اليابان الاجماع . فليس بيد شخص واحد - حتى لو كان رئيس الوزراء - أن يصنع قراراً . وعلى كل من يتوجب عليه تنفيذ القرار ، أن يشارك في تحقيق الاجماع الذي لن يعتبر كذلك الا عند موافقة الجميع .

كل هذا يفرض وجود خلافات عملية قاسية يفاقمها سوء الفهم ، بين رئيس أميركا ورئيس وزراء اليابان في لقاءاتهما . فاذ يعبر رئيس أميركا عن الموافقة ، انما يؤذن بالعمل ، فيما لو وافق رئيس وزراء اليابان فانما ينقل موقفاً يتضمن موافقته على الرأي الأميركي لدرجة ليست أبعد من مهمة له ووجوب عرضه على جماعته لنيل الاجماع . فهو يفترض تجلي عدم تجاوز سلطته ذلك الحد . فلا بد لأميركا لو طمعت بانجاح مفاوضات مستقبل آسيا ، أن تتحلى بصبر أكبر ، وعلى اليابان أن تؤهل نفسها لمناقشة جادة سياسات بعيدة المدى يتوقف عليها التعاون المستقبلي أخيراً .

سيتخذ وثوق العلاقات اليابانية - الأميركية الطريق المعاكس للعلاقة الصينية - الأميركية . فاليابان مشتتة بين الاعجاب والخوف من الحضارة الصينية ، وبين الرغبة بمصادقتها والدافع للهيمنة عليها . فيما يغري التوتر بين الصين وأميركا ، اليابان بالانفصال عن أميركا لئلا يزول نفوذها في الصين ان لم تحبذ تعزيزه في الأقل لو اتبعت المسار الأميركي بحذافيره . وفي الوقت عينه يثير البرنامج القومي الياباني المجرد خطر تفسيره في بكين بأنه تعبير عن شهية اليابان

للسيطرة . وعليه فلا مناص من اقامة علاقات أميركية طيبة مع الصين لأجل علاقات طيبة بعيدة المدى مع اليابان ، فضلاً عن علاقات حسنة بين الصين واليابان انه لمثلث لا يستطيع أي أطرافه منه فكاكاً الا بركوب عسير المخاطر . وهو أيضاً أمر غامض لا ترتاح اليه اميركا تماماً نظراً لتعارضه مع النزعة الأميركية لتصنيف الأمم بشكل محدد اما الى عدو أو صديق .

تلوح الصين أسرع صعوداً من بين جميع القوى العظمى . فأميركا هي الأقوى ويتوجب على أوروبا العمل لوحدتها ، وروسيا عملاق ضخم ، واليابان أمة ثرية لكنها جبانة لحد الآن . أما الصين فستستعرض أعظم ارتقاء نسبي في مكانتها ، مستندة الى نسبة نمو اقتصادي تناهز ١٠٪ ، ومتحلية بتلاحم قومي ، مع اعتمادها قوة عسكرية جبارة . وسبق لروزفلت أن تنبأ عام ١٩٤٣ بصيرورة الصين أحد " الشرطة الأربعة " ، بيد أنها غرقت في دوامة الحرب الأهلية . وكانت الصين في عهد (ماو) قد صممت على استقلالها قوة عظمى غير أن أملها خاب بسبب منظريها الأيديولوجيين . فسعى قادة الصين الاصلاحيين نابذين المحاججات الأيديولوجية وراءهم ، الى تحقيق مصلحة الصين القومية بعزيمة لا تلين . وعليه سيثير تصدي أميركا للصين سياسياً تهديداً بعزلتها في آسيا . ذلك أن لا أحد في آسيا يرغب - أ و يتحمل - أن يدعم أميركا في أي صراع سياسي مع الصين اعتبرته الأخيرة نتيجة لسياسة أميركية مخطئة ، وفي هذه الحالة ستشيح جل أمم آسيا عن أميركا قليلاً أو كثيراً مهما كانت درجة مقتها هذا التصرف بقرارة نفسها . ذلك أن جميع الأمم تقريباً تنتظر من أميركا ارساء

اطار راسخ بعيد المدى يحتضن كلاً من الصين واليابان – وهو خيار تعزز لدى ((كلا)) البلدين بسبب المواجهة الصينية – الأميركية .

ترحب الصين ، ذات أطول تاريخ استغلال في السياسة الخارجية وتقليد تكريس سياستها الخارجية لمصلحتها القومية ، بالتزام أميركا بآسيا لتكون ثقلاً مقابلاً لجيرانها المقلقين ، روسيا واليابان ، والهند لدرجة أخف . بيد أن الأمر يتطلب اجراء حوارات دورية بين واشنطن وبكين لا نجاح السياسة الأميركية النازعة الى صداقة مع بكين وفي نفس الوقت مع بلدان تعتبرها بكين ذات تهديد لأمن الصين – وهو موقف أميركا الحقيقي .

انقطع هذا الحوار لمدة أربع سنين أعقبت أحداث ميدان (تيانانمن) عام ١٩٨٩ ، بسبب نفور أميركا من اجراء اتصالات رفيعة المستوى – انه لتصرف لم تلجأ اليه مع الاتحاد السوفيتي حتى في ذروة الحرب الباردة . وبذا قفزت حقوق الانسان لصدارة العلاقة الصينية – الأميركية .

اعادت ادارة كلنتون الاتصالات رفيعة المستوى بحكمة ، فسيتوقف مستقبل العلاقات الصينية – الأميركية على فحوى هذه الاتصالات . وواضح أن أميركا ليست قادرة على التخلي عن اهتمامها بحقوق الانسان والقيم الديمقراطية . لكن المشكلة ليست في تبنيها لهذه القيم بل الحد الذي يجعل أوجه العلاقة الصينية – الأميركية مشروطة بهذه القيم . اذ ترى الصين أن مما يحط من مكانتها استناد العلاقات مع أميركا ليس الى المصالح المتبادلة بل الى ما تحبذه أميركا ويمكن الاستمرار فيه أو التوقف عنه بناء على تقدير واشنطن . فذا الموقف يظهر

أميركا متطفلة وغير جديرة بالثقة ، وانعدام الثقة هذا أقوى معول هدام في نظر الصينين .

ترى الصين ، ذات الكأس المعلى تاريخياً في منطقتها – والواقع في العالم المعروف لها برمته – في أية نصيحة توجه لها ولممارستها الداخلية مبرراً لامتعاض عميق . وتفاقمت هذه الحساسية العامة بسبب نظرة الصينين لتدخل الغرب فيها خلال سني تاريخها . فمنذ حروب الأفيون بمطلع القرن التاسع عشر التي كشفت النقاب عن الصين ، اعتبر الصينيون الغرب مصدر سلسلة لا نهاية لها من اعمال الاذلال . وعليه غدت المساواة في المكانة ، والاصرار على عدم الانحناء لأوامر الأجانب ، وازعاً أخلاقياً وليست اجراءً تكتيكياً .

تتجسد حاجة الصين من أميركا في علاقة استراتيجية لموازنة جيرانها الذين تراهم أقوياء وطامعين . فعليها لو ازمعت هذا المستوى من التنسيق في السياسة الخارجية أن تستعد للاعتراف بحقوق الانسان على أساس أنه نابع من خيارها الحر . غير أن اصرار أميركا على الشروط العلنية قد ترجمته الصين محاولة لقولبة مجتمعها حسب القيم الأميركية – وهو الأمر المذل – اضافة الى تجسيده لانعدام الجدية الأميركية فهي توحي بعدم وجود مصلحة لأميركا في آسيا غير هذه المسألة . بيد أن أميركا لو فقدت مصداقيتها في هذا الصدد ، لفقدت الصين أي مصلحة في الاعتراف بها . ولذلك فمفتاح العلاقات الصينية – الأميركية – وحتى فيما يتعلق بحقوق الانسان – هو التعاون الضمني في اطار استراتيجية عالمية وبالأخص آسيوية .

أما وبلغ الحديث أوروبا ، بزغت أميركا تتشاطر اياها قيماً لكنها لم تستطع حتى الآن بلورة سياسة مشتركة أو مؤسسات كفوءة لمرحلة ما بعد الحرب الباردة • وبعكس هذا ، تطفق أميركا بقادرة على صياغة استراتيجية شاملة ومرغوب بها لا بمجموعة من القيم • ومهما يكن الأمر ، وعلى نحو بعيد التوقع ، أخذت وفرة من الأهداف الأخلاقية والجيوسياسية المشتملة على مبادىء الولسونية والسياسة الواقعية بالظهور في نصف الكرة الغربي •

لقد كانت سياسة أميركا سابقاً في نصف الكرة الغربي سياسة قوة كبرى نازعة للتدخل – حتى جاءت سياسة فرانكلين روزفلت لحسن الجوار المعلنة عام ١٩٢٣ ايذاناً بالتحول نحو التعاون • ثم تضمنت معاهدة (ريو) لعام ١٩٤٧ وميثاق (بوغوتا) لعام ١٩٤٨ بنداً أمنياً استوعبته (منظمة الولايات الأميركية) • وعرض الرئيس كندي في (حلف التقدم) عام ١٩٦١ مساعدة خارجية وتعاوناً اقتصادياً ، برغم فشل السياسة بعيدة النظر بسبب النزعات الولايتية للمتلقين •

رسفت جل بلدان أميركا اللاتينية سني الحرب الباردة ، في اغلال أنظمة استبدادية عسكرية في غالب الأحوال فرضت سيطرة الدولة على اقتصادياتها • ومع تباشير منتصف الثمانينات كسرت أميركا اللاتينية عن نفسها الاصفاد الاقتصادية وشرعت تشق طريقها باجماع ملحوظ نحو الديمقراطية واقتصاد السوق • فقد نبذت البرازيل والأرجنتين وتشيلي الحكم العسكري لصالح الحكم الديمقراطي • واطفأت أميركا الوسطى لهيب حروبها الأهلية • واذا أفلست

أميركا اللاتينية من جراء قروضها غير العقلانية ، آبت أخيراً الى كبح جماحها بضوابط مالية •

وانفتحت اقتصادياتها التي تديرها الدولة ، أمام قوى السوق بشكل متزايد في كل مكان تقريباً •

تمثلت احدى أكثر السياسات الأميركية تحدداً حيال أميركا اللاتينية في التاريخ في مشروع مبادرة الأميركيتين الذي أعلنه بوش عام ١٩٩٠ ، وكذلك في المعركة من أجل اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية مع المكسيك وكندا التي وقعها كلنتون عام ١٩٩٣ • ففي أعقاب سلسلة من المد والجزر بدا نصف الكرة الغربي على عتبة التحول الى ركن أساسي لنظام كوني انساني جديد • فقد أسلست مجموعة من الدول الديمقراطية قيادها الى حكومات حظيت بثقة الشعب ، والى اقتصاديات السوق ، والى تجارة حرة عرضها نصف الكرة الغربي ، والنظام الدكتاتوري الماركسي الوحيد المتبقي في هذا النصف هو كوبا ، أما في كل الأماكن الأخرى ، فحلت الاقتصاديات الحرة المفتوحة للاستثمار الخارجي والمؤيدة لأنظمة التجارة الدولية محل الأساليب القومية الحمائية للادارة الاقتصادية • والهدف النهائي الدرامي الذي تسعى اليه هذه البلدان اذ تؤكد على الالتزام المتبادل والعمل التعاوني ، انشاء منطقة تجارة حرة تمتد من (آلاسكا) وهو المفهوم الذي عد قبل قصير زمن فكرة طوباوية لارجاء منها •

ستتربع الأميركيتان دوراً قيادياً برغم كل ما يحصل في نصف الكرة الغربي لو طبق نظام التجارة الحرة الواسع المعتمد (نافتا) خطوة استهلالية له • ولو

سادت الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفات ٠ (الغات) المناقشة عام ١٩٩٣ لغدا النصف الغربي مشاركاً رئيسياً في النمو الاقتصادي العالمي ٠ واذا كتبت الهيمنة للتجمعات الاقليمية لاستطاع النصف الغربي المتمتع بسوقه الكبير أن يتنافس بقوة مع كتل اقليمية أخرى ، والحق أن (نافتا) أنجع وسيلة للفوز بهذه المباراة أو الهيمنة فيها لو حصلت ٠ واذ تعرض (نافتا) المتسعة فرص عضوية لدول خارج النصف الغربي مستعدة للالتزام بمبادئها ، سيمسي بوسعها تهيئة حوافز للتجارة الحرة ، مع معاقبة الدول المصرة على مزيد من الأنظمة المقيدة ٠ فقد اكتشف في أميركا القاطنة في عالم مجبرة فيه على اجراء موازنة بين قيمها وحاجاتها ، اختلاط مثاليتها وغاياتها الجيوسياسية بشدة في النصف الغربي ، الذي ولدت فيه طموحاتها الكبرى وبوشرت به مبادرات السياسة الخارجية الأول ٠

تنطوي مهمة أميركا الداخلية وهي تعهد لنفسها ثالث مرة في هذا القرن لانشاء نظام عالمي جديد ، ان تصنع توازناً بين الاغرائين المتأصلين في طبيعتها المتفردة : فكرة التزامها باستطباب الأخطاء وكبت الاضطرابات ، والميل الكامن للانطواء على نفسها ٠ فمن شأن التورط غير المميز في النزاعات العرقية والحروب الأهلية في عالم ما بعد الحرب الباردة أن يستنزف أميركا ٠ على أنها لو قصرت نشاطاتها على انعاش فضائلها في الداخل ، لآل أمنها ورفاهيتها الى أيدي مجتمعات بالغة البعد عنها وستفقد سيطرتها عليها بصورة متفاقمة ٠

لم يكن بمقدور (جون كونسي ادمز) اذ حذر عام ١٨٢١ ضد الرغبة بذبح " الوحوش النائية " ان يتصور عدد الوحوش وحجمها التي ستظهر في عالم ما بعد الحرب الباردة ٠ فليس متاحاً أن تكافح أميركا جميع الشرور ، غير أن بعضها

بحاجة الى مقاومتها ان لم يكن ذبحها ٠ فالشيء الألح حاجة هنا هو اعتماد معايير لانتقاء تلك الوحوش ٠

اعتاد قادة أميركا عموماً على تفضيل الدوافع على البنى القائمة ، ووضعوا جل تأكيدهم على التأثير على المواقف أكثر من حسابات نظائرهم ٠ فاستحالت الازدواجية سمة المجتمع الأميركي حيال سفر التاريخ ٠ ومن هنا مافتئت الأفلام الأميركية تعرض حدثاً درامياً يتحول فيه أنموذج للرذيلة الى أنموذج للفضيلة - انه لانعكاس للاعتقاد القومي الهدام ان الماضي قد ولى مطلبه الى الحاضر وان الانطلاق الجديد أمر ممكن دوماً ٠ بيد أن هذه التحولات نادرة الحصول لدى الأفراد في دنيا العالم الواقعي ، وحتى بنسبة أقل عند الأمم المتكشفة عن وفرة من الخيارات الفردية ٠

يفصح رفض التاريخ هذا عن طبيعة انسان عالمي يعيش على مبادىء عالمية بغض النظر عن عبر الماضي أو حقائق الجغرافيا أو ظروف ثابتة أخرى ٠ فآثر صناع السياسة الأميركان ، سائرين وراء التقليد الأميركي المؤكد على الحقائق العالمية بدلاً من الحقائق القومية ، البرامج متعددة الجنسيات على البرامج القومية : أي ملفات نزع السلاح والحد من الانتشار وحقوق الانسان ، بدلاً من القضايا القومية الرئيسية أو الجيوسياسية أو حتى الاستراتيجية ٠

ان رفض أميركا للامتثال لنصائح التاريخ واصرارها على الامكانية السرمدية للتجدد يفضيان على طريقة العيش الأميركية كرامة واجلالاً ، وهيبة وجمالاً ٠ وتتجسد حكمة شعبية في الخوف القومي من تمخض نبوءات ذاتية

التحقق عن المولعين بالتاريخ . ومع ذلك يمكن تعزيز احصائيات (سانتايا) عن وصم متجاهلي (التاريخ يكرر نفسه) بأمثلة كثيرة .

ليس بمستطاع بلد سائر فيه تقليد أميركا المثالي أن يسند سياسته الى ميزان القوى ليكون معياراً لنظام عالمي جديد . لكنه سيتعلم أن التوازن شرط أساسي لتحقيق أهدافه التاريخية ، وأنها لن تتحقق بالخطب أو العواطف . فالنظام الدولي الذي يذر قرنيه اليوم لأشد تعقيداً من أي نظام واجهته الدبلوماسية الأميركية . وعليه ينبغي أن تسلس السياسة الخارجية قيادها لنظام سياسي يركز على الحاضر ويهيء حوافز قليلة للمدى الطويل . ويتحتم على قادته التعامل مع الجماهير التي تتلقى المعلومات من خلال الصور المرئية . فكل هذا يثير العواطف وينعش مزاج اللحظة في الوقت الذي يقتضي اعادة تفكير في الأولويات وتحليلاً للامكانات .

لن يغفر التاريخ للفشل المتحجج بهول المهمة . من هنا على أميركا اجادة آلية الانتقال من عهد بدت فيه جميع الخيارات متاحة ، الى عهد ما برحت فيه قادرة على انجاز مهامها بقوة أكبر من أي مجتمع آخر لو عرفت حدودها فقط . اذ لم تشهد أميركا في جل تأريخها تهديداً أجنبياً لبقائها . وحين برز مثل هذا التهديد أخيراً في الحرب الباردة ، نال هزيمة ماحقة ساحقة . فهكذا شجعت التجربة الأميركية الاعتقاد بمنعتها وحدها من بين أمم البسيطة ، وبقدرتها على الهيمنة بمقتضى فضائلها وأعمالها الخيرة .

من شأن هذا الموقف أن يقلب البراءة الى انغماس ذاتي في الأهواء في عالم ما بعد الحرب الباردة . وعليه لن يتوجب على اميركا ان تتخلى عن مثاليتها التي

صنعت عظمتها ساعة تعجز عن الهيمنة على العالم او الانسحاب منه عندما تجد نفسها قادرة حقاً ومكشوفة تماماً . ولكن حذار أن تسيء لعظمتها بتقبيل أوهام حول مدى قدرتها . فزعامة العالم متأصلة في قوة أميركا وقيمها ، غير أنها لا تتضمن امتياز التظاهر بصنع معروف للأمم الأخرى بمشاركتها نشاطاتها ، أو بامتلاكها قدرة لا نهاية لها تؤهلها لفرض ارادتها عن طريق الاحجام عن نفح افضالها . فمن الخير أن يأخذ أي تماشي مع السياسة الواقعية في الاعتبار القيم الجوهرية للمجتمع الأول في التاريخ لتوليدها علانية باسم الحرية . ومع ذلك سيعتمد بقاء أميركا وتقدمها أيضاً على قدرتها على اجراء الاختيارات التي تعكس الواقع المعاصر . وبعكسه سيهيمن السياسة الخارجية الاعتقاد العاطفي بأنها أبرّ ما في الوجود . وسيحدد الوزن النسبي الذي سيعطى لكل من هذه الأركان ، والثمن الذي سيدفع لكل أولوية ، حجم تحدي ومنزلة القادة السياسيين ولا يقولن جميع القادة بعدم وجود ثمن لخيار ما ، أو عدم وجود حاجة لاجراء توازن معين .

تبقى المثالية الأميركية أمراً أساسياً مثلما هي دوماً وربما ستزداد أهميتها في غضون التقدم بسبيل النظام العالمي للمرة الثالثة في العصر الحديث . على أن دورها في النظام العالمي الجديد يتطلب توفر الايمان اللازم اسناداً للفكر الأميركي خلال جميع مراحل الارتباك في الاختيار في عالم غير كامل . واذن يجب أن تندمج المثالية الأميركية التقليدية مع تقييم واع للحقائق المعاصرة للخروج بتعريف عملي للمصالح الأميركية . فقد حض على نشاطات السياسة الخارجية الأميركية فيما مضى رؤى طوباوية لنقطة نهائية ما يتجسد وراءها الانسجام الكامن للعالم .

قلة من هذه النتائج تلوح في الأفق . فتحقيق المثاليات الأميركية يتأتى من خلال التراكم البطيء للنجاحات الجزئية . وقد ولت وقائع التهديد الفعلي للحرب الباردة وأيديولوجيتها العدوانية . وتجريدية هي القناعات المطلوبة للسيطرة على العالم الناهض : صورة لمستقبل عصي على الوصف عند تقديمها ، وكذلك تكون الأحكام حدسية بخصوص العلاقة بين الأمل والامكانية . فلا بد اذن أن ينظر الى الأهداف الولسونية - السلام والاستقرار والتقدم وحرية البشر - في اطار رحلة لا نهاية لها . اذ يقول المثل الأسباني : " أيها المسافر ، لا طرق أمامك ، فالطرق يشقها المسير " .

محتويات الكتاب

هنري كيسنجر الدبلوماسيّة

من الحرب الباردة حتّى يومنا هذا



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥ ● منشوراتنا في العام ١٩٩٥ م
● الغلاف : زهير أبو شايب.